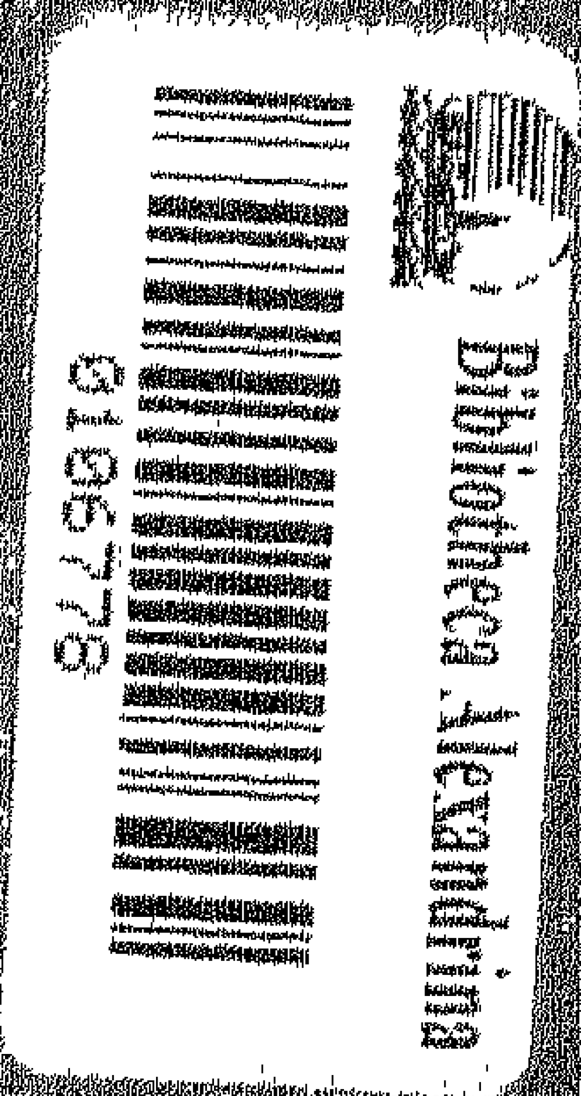

Bibliotheca Alexandrina
0106778

تَارِيخُ المَسِيحِيَة

فجر المسيحية

بقلم

حبيب سعيد

دار التاليف والنشر للكنيسة الأسقفية

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦

هذه السلسلة

قبل سنوات أصدرت هذه الدار ، كتاباً عنوانه « عشرون قرناً فى موكب التاريخ » ، إحتوى الأحداث البارزة فى كل قرن من القرون العشرين ، وسيرة بعض الشخصيات ، التى ساهمت بنصيب وافر ، فى تطور أحداث الفترة التى عاشت فيها . وقد كان عملا مركزاً موجزاً فى تاريخ المسيحية ، وهى أكبر حركة عرفها التاريخ ، وقد تلقاه القراء لقاء حسناً ، ونفدت طبعته أو كادت فى سنوات قلال .

وفى رحلة صيف إلى إنكلترا وأمريكا ، قام بها رئيس تحرير الدار ، دلف فيها إلى المكتبات العامة فى المدن والقرى ، هاله ما شاهد من وفرة المؤلفات ، التى صنفت عن تاريخ المسيحية ، وضاقت نفسه حين فكر فى ندرة المؤلفات الخاصة بهذا الميدان فى اللغة العربية .

ولذلك صحت عزيمة دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية ، أن تصدر سلسلة من المؤلفات فى التاريخ الكنسى ، تتضمن خمسة مجلدات هى :

١ — فجر المسيحية .
٢ — المسيحية فى القرون الوسطى .
٣ — المسيحية فى عصر الإصلاح .
٤ — المسيحية فى العصر الحديث .
٥ — كنائس المشرق .

ولسنا ننكر أن جهودا قد بذلت فى هذا المضمار ، فهناك سلسلة « تاريخ الكنيسة القبطية » للأستاذة « إيريس حبيب المصرى » ، وهى تعتبر

مرجعاً هاما فى تاريخ الكنيسة المصرية . وهناك ما قدمته مكتبة الإخوة البليموث فى مجلدين تحت عنوان « تاريخ الكنيسة » ، مترجماً عن « أندرو ملر » ، وهناك أيضاً « تاريخ الكنيسة المتغربة » ، الذى أصدره الإخوة المنفتحون ، منقولا عن « برودبنت) .

كذلك قدمت لنا بيروت مرجعين عن « تاريخ الإصلاح » ، أحدهما ترجمة « الشيخ إبراهيم الحورانى » ، والثانى أصدرته الكنيسة الكاثوليكية .

لكن معظم هذه الكتب ، يقدم وجهة نظر خاصة ، تدور فى فلك طائفة أو جماعة بعينها ، وينقصها أيضاً التسلسل والشمول .

لذلك أحسسنا بالحاجة الماسة إلى إصدار هذه السلسلة الكاملة ، فى تاريخ المسيحية ، نقدم فيها الحقائق التاريخية مجردة ، بنظرة محايدة ، تتوخى الدقة والأمانة فى سرد الأحداث ، دون إنفعال أو إفتعال ، فى أسلوب سلس ، وإطار أدبى مقبول .

وهذا ما نرجو أن نكون قد حققناه لقرائنا الأعزاء ، بروح المحبة ، عالمين ومقرين بعجز القلم عن الإحاطة بميدان متسع إتساع المحيط ، كالتاريخ الكنسى ، ورجاؤنا ألا نغضب أحداً بكلمة واحدة .

وليذكر القارىء أن التاريخ هو التاريخ ، وأنه لا مداهنة ولا مهادنة على حساب الحق ... وأن الأمانة تقتضى نقل الصورة كما هى بلا تزويق ولا تنميق ، وسرد الأحداث بنقلها عن مؤرخين محايدين .

وبهذا نرجو أن نكون قد أدينا أمانة فى أعناقنا لله ، وللتاريخ ، وللكنيسة ، والله المستعان .

الناشر

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

تمهيد

الكنيسة المسيحية ، هى الهيئة التى أقامها السيد المسيح على الأرض ؛ لتنوب عنه بعد صعوده إلى السماء ، وتكون أداة لتوجيه النفوس إلى مصدر الخلاص ، وقد أيدها بروحه الأقدس ، كما نحس بذلك بوضوح فى تاريخ الكنيسة الرسولية الأولى ، وآزرها بفاعلية نعمته ، لتقوم بتلك الإرسالية العظمى فى تاريخ العالم . ولذلك فهى تضم جميع أبناء الله المتفرقين فى كافة الطوائف المسيحية .

هذه هى كنيسة الله المقدسة ، الجامعة ، الرسولية ... هذا هو جسد المسيح السرى ، الذى هو رأسه المبارك . . . . هذه هى صورة الكنيسة الخفية غير المنظورة .

أما الطقوس ومراسم العبادة وإطارها الخارجى ، فهى لحفظ كيان الصورة . فالكنيسة — كما قلنا — هى جسد المسيح ، وهو رأسها ، والروح القدس الذى أرسل هاديا للكنيسة ، هذا الروح هو معلمها ومكملها ، ومنذرها ومرشدها . وكلمة الله التى بين يديها ، والأسرار المقدسة التى تمارسها ، هى الوسائط التى يعمل بها روح الله .

وعلى مر العصور ، تبلورت الكنيسة ، وصارت هيئة كبرى ثابتة متطورة ، لها نظمها ، ولها تاريخها . صحيح أن طريقها لم يكن على الدوام ، يقودها إلى الأمام ، لأنه إلى جوار رئيسها ورأسها العظيم يسوع المسيح ، وإلى جوار موعد الآب المبارك ، بحلول الروح القدس ، الذى

إنسكب فى يوم الخمسين ، كانت هناك الواسطة البشرية ، والفكر البشرى . وكل ابن أنثى خطاء معرض للانحراف ، إن يمينا أو يساراً ، بدافع من قصوره وعجزه .

وهكذا بدلا من أن يكون قوة دافعة للأمام ، يصبح قوة معطلة ، وبدلا من أن يكون أداة للبر والنقاء ، فى الجوهر والعقيدة والممارسة ، يجلب عناصر يظنها — بحسب فكره — صالحة للبناء ، وهى فى واقع الأمر هشة ، تشكل أكثر من نقطة ضعف فى البناء ، وتنجم عنها أخطاء وأخطاء .

لكن على الرغم من قصور الواسطة البشرية، فإن رعاية المسيح ونعمته، وحكمة الروح القدس وإرشاده ، كفيلان بأن يقيما بين الحين والحين ، من ينبه الركب إلى خطأ المسيرة ، ويعيد الموكب إلى الطريق السوى ، ويذكر الأيدى العاملة ، ويحذرها من مغبة إضافة الخشب ، والعشب ، والقش ، إلى بناء كنيسة الله الحى ، المقامة على أساس المسيح .

فخلاص الله لن تعوقه عوامل الفرقة ، وقوة الله لن يغلبها ضعف البشر . ومخطط الله لخلاص الإنسانية ، لابد وأن يبلغ غايته ، ويحقق هدفه . بل إنه يمكننا أن نقول ، أن فترات التقاعد والنكوص ، والمعطلات التى بدا وكأنها سوف تبتلع الكنيسة ، قد أعقبتها نهضات وإنتفاضات ، دفعت بالكنيسة دفعاً إلى الأمام ، وكانت المشعل المتوهج الذى أضاء لها طريقها لأجيال قادمة ، ليس فى مجال الحياة الكنسية فحسب ، وإنما حتى فى دائرة الفكر والعلوم والحضارة ، وكافة دوائر الحياة الإجتماعية .

الإتجاهات المتشعبة فى تاريخ الكنيسة :

هناك أكثر من صورة ، يجدها الدارس لتاريخ الكنيسة . فالهدف الرئيسى لكنيسة المسيح ، هو ، الذهاب إلى العالم أجمع ، والكرازة بالإنجيل للخليقة كلها . لذلك فتاريخ إنتشار المسيحية فى أقطار العالم ، والعقبات التى صادفتها فى هذا السبيل ، هو فرع من فروع تاريخ الكنيسة.

وإلى جانب القوة الخفية التى تعمل فى كيان الكنيسة ، هناك الجانب المنظور ، أو الصورة المرئية للكنيسة ، وهو يتضمن النظم والممارسات والطقوس ، وهى ما يسمى « الكيان الكنسى » . وهذا الكيان الكنسى ، يتضمن أيضاً اللوائح والقوانين التى تحكم التنظيم الكنسى ، كما يتناول أيضاً ، صلة الكنيسة بالدولة ، وموقفها منها . كما يمكن أن يدخل فى نطاق دائرته كذلك ، سياسة الكنيسة .

والأمر الأكثر أهمية فى هذا المجال ، هو تطور الفكر العقائدى المسيحى. ونحن نبنى إيماننا الأقدس ، على الكتاب المقدس ، فهو المصدر الوحيد، والقانون الوحيد المعصوم من الخطأ ، لبنود الإيمان المسيحى القديم ، وهو الدليل الوحيد للخلاص ، لكل من يؤمن . ولكننا نؤمن أيضاً ، أن كلمات الإنجيل ، مثل حبة الحنطة ، إذا واتتها الظروف المناسبة ، لا تبقى وحدها ، لكنها تنمو فى صورة سنبلة ، ثم إلى قمح مكتنز فى هذه السنبلة . فكلمة الله تتضمن الحق الكامن الذى يتكشف ، ويتبلور ، ويزدهر ، فى الحق المتطور ، الذى يوائم ازدهار الفكر ، وتطور الحياة ، وتفتح ثمار العقل ، فى كافة المجالات ، فى بنود فروع العلم المختلفة .

ولذلك ، يدخل ضمن دائرة التاريخ الكنسى ، تطور العقيدة الكنسية ، بحسب مقتضيات تطور العلم ، وإنتصارها أيضاً فى هذا المجال ، على البدع والهرطقات ، وكافة الطرق الجانبية .

وهناك أيضاً تاريخ العبادة ، والكنيسة بحاجة إلى العبادة الجمهورية ، لبنيان المؤمنين ، وجذب البعيدين . وأساس العبادة كلمة الله والأسرار المقدسة . لكن مع كل هذا ، فللكنيسة الحق فى أن تستخدم كافة الوسائل الأخرى ، التى تراها فعالة ، فى تحقيق هذا الهدف . فالموسيقى والألحان ، وتاريخ الترانيم ، جزء من تاريخ العبادة .

هذه وغيرها كثير ، هى الإتجاهات التى يتضمنها تاريخ الكنيسة — ولقد كان لهذه الإتجاهات المتشعبة من الأهمية ، ما جعل علوما ثابته تتبلور عنها ، نذكر منها على سبيل المثال : « تاريخ الإرساليات » ، وهو يبحث قصة إنتشار المسيحية وما صادفها ، « سياسة الكنيسة » ، وهو يبحث فى شئون الحكومة الكنسية وقوانينها ، أما نظم العبادة ومراسمها ، وتطور هذه النظم ، فأضحت ضمن ما يعرف بعلم « التراث الكنسى » . ولعل التراث ، تتفرع عنه ، الهيئات المسيحية ، والثقافة المسيحية ، والعبادة المسيحية .

تاريخ الكنيسة :

إن أول مصدر يعتمد عليه فى دراسة تاريخ الكنيسة الأولى ، هو كتابه « العهد الجديد » ، وعلى الأخص بشائر الإنجيل ، وسفر أعمال الرسل .

ثم بعد ذلك يأتى التاريخ الكنسى الذى صنفه « هيجسبس » من آسيا الصغرى فى منتصف القرن الثانى للميلاد ، وقد جمع فيه كل شاردة

وواردة عن التقاليد فى العصر الرسولى الأول ، ومما يؤسف له ، أنه لم يصل إلينا سوى أجزاء متفرقة من هذا العمل التاريخى الهام .

ثم يأتى دور العمل الخالد ، الذى قدمه « يوسابيوس القيصرى » ، الذى كان أسقفا لكرسى قيصرية ، وهو يستحق فعلا لقب « أبو التاريخ الكنسى » . وعمله يعتبر واحداً من أفضال الكنيسة الشرقية على الغرب . وقد ترجم تاريخ الكنيسة ليوسابيوس ، إلى عدة لغات غربية ، وأصبح المرجع الهام لأخبار الكنيسة الأولى حتى القرن الثالث الميلادى .

أما الفترة التالية للقرن الثالث ، وحتى القرون الوسطى ، فلم يكن هناك تاريخ مفصل للكنيسة ، بل كانت هناك أخبار ، وتواريخ ، وتقارير ، وهذه حتى وإن كانت على قدر كبير من الأهمية ، إلا أنها لا تغنى عن تاريخ مسلسل ومفصل .

وفى عصور الإصلاح ، استدعى الأمر دراسة علمية لتاريخ الكنيسة ، فقد أهتم رواد الإصلاح وقادته ، بالرجوع إلى تاريخ الكنيسة الأولى ، لتبيان ما كانت عليه ، فى عصر النقاوة الرسولية . وتبين ما صارت إليه فى عصور الإنحلال ، وفحص كل صغيرة وكبيرة ، فى حياة البابوية ، وعقائدها ، وممارساتها . وفى الوقت عينه ، اهتم الباباوات من جانبهم ، بدراسة تاريخ الكنيسة ، ومحاولة اكتشاف ما يؤيد عقائدهم ، فى ممارسات الكنيسة الأولى ، لاستخدامها فى الدفاع عن أنفسهم .

واستمر الحال على هذا المنوال ، حتى منتصف القرن السابع عشر ، حينما أثيرت روح المنافسة والغيرة مرة أخرى ، بالدرس والبحث ، وكانت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، هى حاملة اللواء ، فعرف ذلك بعصر النهضة.

ولم تتخلف الكنيسة المصلحة عن الركب ، فقامت بدورها بالدرس والفحص ، وخاصة فى فرنسا وأقاليم الشمال .

وفى القرن الثامن عشر ، تقدمت الكنيسة اللوثرية الصفوف ، وفى ركبها سارت الكنيسة المصلحة ، بينما هبطت عزيمة الكنيسة الكاثوليكية .

ولكن حينما بدأت العقلانية تغزو دوائر الفكر اللاهوتى ، بدأت حركة البراجماتزم ، أو المذهب الذرائعى ، تغزو دوائر التاريخ الكنسى ، وجعلت أحداثها نتيجة ترتيب وحسبان وأسباب مسبقة . وظلت هذه الفكرة سائدة حتى القرن التاسع عشر ، حينما تخلصت منها الكنيسة بصفة نهاية .

ونعود فى النهاية ونقول ، إن الهدف من هذه السلسلة ، ليس أن نقدم مرجعاً للمتخصصين ، مؤيدا بالأسانيد والمراجع والأدلة ، والهوامش ، والبراهين ، بقدر ما نقدم صورة سريعة للقارىء العادى ، يجد فيها المتعة والفائدة ...

فإذا وجدت نفس واحدة شيئاً من المتعة والنور فى هذه الدراسة ، فان الكاتبين يعتقدون أنهم بهذا قد كوفئوا أكثر مما يجب ، عن شهور من الدراسة والبحث والسهر المضنى ...

وليكن الحمد لله أولا وآخرا .

١

قبيل انبثاق الفجـــر

[الرومان ــ اليونان : (سقراط ــ أفلاطون ــ أرسطو ــ الأبيقوريون ــ الرواقيون) ــ اليهود ــ الأحوال الدينية ــ الأديان الشرقية ــ الأحوال الأخلاقية] .

الرومان

بزغ فجر المسيحية على عالم رومانى ، كان فيه الرومان سادة العالم يومئذ ، وهذا قول حق على الرغم من وجود رقاع أخرى فى العالم لم تخضع لسلطانهم . على أن علم النسر الرومانى رفرف يومئذ على العالم المتحضر ، وقد تجاهل الرومان من عداهم وحسبوهم « برابرة » . وفى نطاق هذا العالم المتحضر ، غرست بذور المسيحية الأولى ، وحوالى سنة ٥٠ ق. م شملت الامبراطورية الرومانية أوربا جنوب نهر الراين والدانوب وأكثر انكلترا ، ومصر وشواطئ أفريقية الشمالية ، وأغلب اسيا من البحر الأبيض المتوسط إلى بلاد مابين النهرين (العراق الحالية) .

ولم تلجأ روما دائماً إلى القوة فى إدارة هذه الأصقاع الهائلة ، بل استعانت بالذكاء والفطنة وحسن التدبير ، وأينما اتجهت جحافلها ، حملت معها أرقى حضارة لم يعهد العالم لها مثيلا من قبل .

وقد كان هذا السلطان الشامل للامبراطورية الرومانية ، أداة أعدها الله لنشر المسيحية ، ذلك لأنها جمعت تحت لوائها كل أجناس البشر فى وحدة انسانية متماسكة ، بعد أن كانوا وحدات متشابكة يحارب بعضها بعضاً ، وبعد أن خفت شوكة تلك الجماعات والوحدات ، خضعت كلها لسلطة واحدة عليا .

وجاءت المسيحية دينا عالميا جامعا لا تمييز فيه بين الألوان والأجناس ، فالكل واحد فى المسيح. وقد مهدت الوحدة الرومانية الطريق أمام هذا الدين.

ثم أن الحكم الرومانى بسط لواء السلام العالمى (Pax Romana) لأن الحروب بين الأمم توقفت ، تحت وطأة السلطة الجبارة ، وقد كان هذا السلام عاملا ملائما لنشر هذا الدين ، الذى دعا البشرية إلى المحبة والاخاء والسلام . وأخيرا نرى الاداره الرومانية قوية يقظة حكيمة ، قد جعلت التنقل والمواصلات بين رقاع العالم المتحضر آمنة ميسورة ، فطهرت البحار من القراصنة الذين عاثوا فسادا فى تعطيل الملاحة . ومهدت الطرقات المعبدة إلى كل أجزاء الامبراطورية ، وأقامت المخافر على هذه الطرق ، فانقطعت بذلك عصابات السطو وقطاع الطرق ، من ثم زادت المبادلات التجارية والعلاقات الثقافية والاقتصادية بين الشعوب . ولولا ذلك لمااستطاع «بولس» رسول الأمم ، أن يتنقل فى حرية ويسر إلى كل البقاع حتى يبلغ رومية ، وما وراءها ، بل قل الى أسبانيا أيضاً ، وكذلك استطاع دعاة المسيحية من بعده أن يجوبوا البلدان والأمصار لنشر رسالتهم بين الشعوب .

اليونان

يوم بزغ فجر المسيحية ، كان العالم فى منطقة البحر الأبيض المتوسط متأثرا بروح الشعب اليونانى. وعلى شواطىء هذا البحر تناثرت مستعمرات يونانية ،

نشطت فى أعمال التجارة والبحث والدرس ، وخاصة فى أمهات المدن التى زخرت بالحياة فى كل نواحى نشاطها . وكان هذا التاثير قويا ، حتى أطلق على ذلك العالم القديم لقب « اليونانى » فبينما بسطت رومية سلطانها السياسى صاغ اليونان متجهات الفكر والثقافة بين الشعوب .

وقبل مجىء المسيح بعدة قرون ، كان الشعب اليونانى أنشط شعوب العالم فى الحياة العقلية والفكرية . وقد تعمقوا فى دراسة كافة المشاكل التى عنى بها الإنسان وخطرت على باله ، مثل نشأة العالم ومعنى الوجود ، الله والإنسان ، الصواب والخطأ ، وما الى ذلك من الموضوعات التى أنضجتها قرائحهم .

ومن القرن السادس إلى القرن الثالث قبل مجىء المسيح ، شهد العالم نهضة فكرية جبارة فى الفلسفة والسياسة وعلوم الدين ، وفى خلال هذه المدة برز أعلام مفكرون خلدوا للعالم مآثرهم الباقية على الزمن . . كان من أثر هذا كله تطور عجيب فى عقلية الشعب اليونانى ، فعرفوا كيف يفكرون ويبحثون فى المسائل التى أثارها فلاسفتهم ، وشحذت قواهم فى الفطنة والحصافة والذكاء ، ونضج فى عقولهم حب الاستطلاع والبحث والاستقصاء . من ثم يصير اليونانى إنسانا طموحاً تواقاً إلى المعرفة راغبا فى التفلسف عن أعمق الأشياء فى الأرض وفى السماء . وقد ساد هذا المزاج العقلى الباحث المنقب ، كل مدائن العالم اليونانى — الرومانى ، حيث بث دعاة المسيحية الأوائل رسالتهم ، فكانت الشعوب أكثر قابلية وأوفر تأهبا ، لتقبل الدين الجديد .

وقد قدم اليونان خدمة جليلة أخرى للمسيحية ، باعداد اللغة التى تحدث بها دعاتها ومبشروها . وقد كانت اللغة السائدة فى البلدان حول شواطىء البحر الأبيض المتوسط اليونانية الدارجة ، وهى اللغة التى كانت وسيلة التفاهم بين الشعوب . وبهذه اللغة نادى الدعاة والمبشرون الأولون — مثل « بولس » — وبها كتبت الأسفار المسيحية الأولى . ومن هنا ، لقى الدين الجامع لغة

جامعة ، حمل بها رسالته إلى أبناء الإنسانية ، وكان هذا فضل اليونان على المسيحية بتدبير من الله .

أجل لم تدخل المسيحية عالما خاويا ، بل وجدت عقول الناس حافلة بشتى الأفكار عن الكون ، والخطيئة ، والثواب ، والعقاب ، وقد تناولت هذه الموضوعات وهذبتها ، وتفاعلت معها . لم تغرس المسيحية بذورها فى أرض عذراء ، بل أخذت المواد الموجودة يومئذ ، وأقامت عليها كيانها — ولسنا ننكر أن كثيرا من تلك الأفكار لم تعد توائم العصر الحديث . وهذا المزيج الفكرى يفرض على الدارس الباحث ، أن يميز بين الأفكار الباقية والأفكار الانتقالية الزائلة . فكل الناس باستثناء قلة من الفلاسفة السفسطائيين آمنوا بوجود قوة ، أو قوى غير منظورة فائقة للطبيعة ، خالدة ، تتحكم فى المصير البشرى وهى تعبد أو تسترضى بالأدعية والطقوس والذبائح ، وهم قد حسبوا الأرض مركز الكون ، تدور حولها فى مداراتها الشمس والسيارات والكواكب ، وفوقها السماء وتحتها مقر أرواح الراحلين من الأخيار أو الاشرار .

ولم يكن العقل البشرى قد اختمر بعد بما نسميه الناموس الطبيعى وكانت كل أعمال الطبيعة تنسب إلى قوى الخير أو الشر غير المنظورة ، التى كان سلطانها تحكميا . وقد غص العالم بعديد من الأرواح الخيرة أو الشريرة ، التى تسربت إلى الحياة البشرية فى كل نواحيها واتجاهاتها ، والتى قيل أنها تملكت الناس للخير أو الشر ، وذهب بعضهم إلى الاعتقاد بأن أنفس البشر إن هى إلا أرواح ساقطة سجنت فى أجسادها المادية .

« سقراط »

وسقراط الفيلسوف اليونانى (٤٧٠ — ٣٩٩ ق . م .) عنى بتحليل الإنسان ذاته لا بالكون ، وكان سلوك الانسان أى أخلاقياته أهم الموضوعات

التى عالجها تفكيره الفلسفى ، وقال فيما قاله إن المسلك السليم يقوم على المعرفة ويؤدى بالإنسان إلى الفضائل الأربع ، الفطنة ، والشجاعة ، وضبط النفس ، والعدل . وقد احتلت هذه الفضائل الطبيعية المرتبة العليا فى علوم الدين المسيحى فى القرون الوسطى . وقرن الفضيلة بالمعرفة ، وهى العقيدة القائلة أن المعرفة تنطوى على العمل والجهد ، وقد كانت بحق تراثا حافلا بالنكبات على كل تفكير يونانى ، وكان لها أبعد الاثر فى كثير من النظريات المسيحية ، وخاصة الأغنسطية التى ابتلى بها القرن الثانى المسيحى .

« أفلاطون »

وفى عهد « أفلاطون » (٤٢٧ — ٣٤٧ ق . م .) ، تلميذ « سقراط » ، بلغ العقل اليونانى المبكر ذرى إنجازاته الروحية ، وقد اتصف هذا الفيلسوف بالتقوى الخشوعية ، وبعمق النظرة الروحية . وقد نحانحواً يخالف معلمه ، فقال إن أشكال هذا العالم المنظور البائدة ، لاتقدم لنا معرفة حقة ، أما المعرفة الحقة الباقية المستديمة ، فتأتينا من المامنا بالمثل ، وهى النماذج أو الأنماط الثابتة الأصيلة الجامعة ، القائمة فى العالم الروحى غير المنظور ، العالم الواضح الجلى ، الذى ندركه بالعقل لا بالحواس وتبتدئ حقيقته فى الظواهر الطبيعية التى تمر أمام حواسنا . وقد عرفت النفس هذه المثل فى كيان سابق . وظواهر هذا العالم المنظور تعيد إلى ذاكرتنا تلك المثل التى عرفناها من قبل .

وما دامت النفس كانت كائنة قبل الجسد ، فلا بد أن تكون مستقلة عنه ، ولا تتأثر بأغلاله وفنائه . وفكرة الخلود هذه كصفة من صفات النفس دون الجسد ، بدت أثيرة قوية فى الفكر اليونانى . وليست كل « المثل » متساوية القدر ، فأرقاها هى « الحق والجمال والخير » . وهذا

الخير هو الذى يسود العالم ، لا مجرد الصدفة . وهو مصدر كل الرغبات والخبرات التى يجب محاكاتها فى مسالك الناس . وعالم « المثل » هذا هو الموطن الأصيل للنفس ، وفى الأقتران به والشركة معه ، تلقى رضاها وقناعتها واشباع رغباتها ، والخلاص هو استكشاف الرؤيا الواضحة عن الحق والخير والجمال ، تلك الحقائق الخالدة .

« أرسطو » :

أما « أرسطو » (٣٨٤ — ٣٢٢ ق. م) فقد كان أقل من أفلاطون روحانية ، فالعالم المنظور فى فلسفته حقيقة لا جدال فيها ، ونبذ التمييز الذى ذهب إليه « أفلاطون » بين « المثل » و « الظواهر » ، وفى رأيه أن لاقيام للواحد بدون الآخر ، ولا وجود لعالم من « المثل » بدون الظواهر الملازمة له . والعالم هو الموضوع « الأول » للمعرفة ، وكل مافى العالم من أطوار وتغييرات ، تقتضى — وجود محرك أصلى هو نفسه غير قابل للتحرك ، وهنا يقدم « أرسطو » الدليل على وجود الله . على أن « المحرك الأصلى » يعمل بقصد حكيم عاقل ، فالله إذا ليس البداية فقط ، بل هو النهاية أيضاً ، التى يتجه إليها تطور العالم والإنسان مركب لا من الجسد والنفس « الحساسة » الحيوانية وحسب — بل فيه — أيضاً شعاعة إلهية ، يشترك فيها مع الله وهى خالدة — وعن الأخلاق ، ذهب « أرسطو » إلى أن السعادة ، أو الخير ، هو الهدف الذى لن نبلغه الا بتوطيد الاساليب الذهبية .

ولم تتطور الفلسفة اليونانية علميا تطورا كبيراً بعد « أفلاطون » ولم يكن لها فى عصر المسيح إلا نفوذ ضئيل ، ، ولكن بعد مولد المسيح بقرنين ونصف من الزمن ، نهضت أفلاطونية معدلة ، عرفت فى عالم

الفسلفة بالأفلاطونية الحديثة ، كان لها أعمق الأثر فى علم اللاهوت المسيحى ، وخاصة فى آراء القديس « أوغسطينوس » . وكان أولئك الفلاسفة الأقدمون ، قد حللوا الإنسان من حيث علاقته بالدولة وقدره فيها . على أن فتوحات « الاسكندر الأكبر » — المتوفى سنة ٣٢٣ ق. م ، قد أدخلت تغييراً كبيراً فى وجهة نظر الناس ، وكانت الثقافة اليونانية قد امتدت جذورها إلى عالم الشرق ، وكانت الدول اليونانية الصغرى قد تهاوت وفقدت استقلالها السياسى ووحدتها القومية ، ولم يكن ميسورا أن تحتفظ الوحدات السياسية الشاسعة المتناثرة فى أرجاء الشرق ، بذلك الولاء الذى أغدقه المواطنون على أثينا مثلا فى عهدها الأول ، وهنا اتجه الاهتمام إلى الفرد كوحدة مستقلة لها قدرها وكيانها ، وكان فرضا على الفلسفة أن تشرح نظرياتها فى مصطلحات الحياة الفردية ، فكيف يستطيع الفرد أن يرقى إلى أفضل مقام له .

لهذا السؤال قدمت الفلسفه اجابتين ، إحداهما كانت غريبة كل الغرابة عن فكر المسيحية ، والأخرى غريبة إلى حد ما ، ولذلك قدر لها أن تؤثر تأثيرا بليغا فى علم اللاهوت المسيحى . ونعنى بها الأبيقورية والرواقية .

أبيقور (٣٤٢ — ٢٧٠ ق . م) قضى معظم حياته فى أثينا ، وقد علم أن الغبطة العظيمة أسمى هدف للانسان ، ولن تبلغ هذه الحالة حد الكمال إلا فى وضع سلبى ، يتجرد فيه الإنسان من كل ما يعكر صفاءه أو ينغص عيشه . وقال إن الد أعداء السعادة العظيمة مخاوف لا أساس لها ، أهمها الخوف من غضب الآلهة ومن الموت ، وكلاهما لا يسندهما واقع . فالآلهة موجودة ولكنها لم تخلق العالم ولا تسيطر عليه ، هذا العالم الذى — أوجدته الصدفة

ومجموعات من الذرات القائمة منذ الأزل ، والمتغيرة دائما وكل الأشياء مادية حتى نفس الانسان ، والآلهه ذاتها ، أما الموت فهو نهاية كل الأشياء ولكنه لبس شرا ، إذ لايبقى بعده شيء من الأحساس أو الادراك ، فالأبيقورية من حيث هى دين ، قامت على اللامبالاة وعدم الاكتراث ، شعارها لنأكل ونشرب فغدا نموت . وقد انتشرت هذه المدرسة وتغنى بعض شعراء الرومان بما حوته من جوانب مقبولة ، على أن هذه الفلسفة كنظام كانت هدامة ، وهدفت إلى سعادة شهوانية جسدية .

أما الإجابة الثانية العظمى فهى الرواقية وهى أرقى نموذج للفكر الاخلاقى الوثنى القديم ، تقترب من المسيحية فى بعض معانيها ، وتبتعد عنها فى أخرى بعدا كبيراً ، وكان مؤسسها « زينو » (٢٠٧ ق . م) وغيره من الفلاسفة . ولئن تكن هذه الفلسفة قد ترعرعت فى أثينا ؛ إلا أنها ازدهرت فى بقاع أخرى خارج اليونان ، وخاصة فى رومية ، حيث اعتنقها الفيلسوف « سينكا » ، و « ابكتيتوس » والامبراطور « ماركوس أوريليوس » وعلا شأنها فى طرسوس فى بكور حياة الرسول « بولس » ، وكانت الرواقية نظاما أخلاقيا عظيم الشأن قبل أن تكون دينا ، وكانت فكرتها عن الكون مادية محض ، فالحقيقى هو الجسمانى المادى ، على ان هناك فارقا بين الأجسام الخشنة والأجسام الرقيقة ، والفرق بين الخشونة والرقة ، يماثل الفرق ، بين المادة والروح . ويتخلل العالم كله نفس عاقلة وعقل ساكن فيه — هو « الكلمة » وما عقلنا إلا جزء منه — وهذا العقل هو الله ، حياة كل شيء وهو فى داخلنا حقا . ولذا نقدر أن « نتبع الله فى داخلنا » وفى هذا المعنى نحسب نحن أيضاً ذريته ، وما الآلهة الشعبية المعروفة إلا مجرد أسماء للقوى التى تنبعث من الله .

ومادام فى العالم حكمة واحدة ، فلابد أن يكون هناك ناموس طبيعى واحد ، ونموذج للأخلاق واحد لكل الناس ، وكل الناس أحرار أدبيا ، ومادام الكل من الله فكل الناس إخوة ، والفوارق فى الحياة عرضية ، وأسمى واجب الحياة أن يتبع الإنسان العقل فى المكان الذى يوجد فيه ، وفى هذا هو جدير بالثناء والمديح ، وأمبراطورا كان أو عبدا . والسعادة ليست هدفا عادلا ، وإن يكن القيام بالواجب يخلق نوعا من السعادة كنتاج ثانوى . وألد أعداء الطاعة الكاملة هى الميول والشهوات التى تسلب الإنسان صحة الحكم على الأشياء ، وهى التى يجب نبذها والعدول عنها ، والله هو الذى يلهم كل الأعمال الصالحة . على أن الفكرة عن الله فى هذه الفلسفة ، هى حلولية بالضرورة .

إن موقف التقشف الصارم فى الرواقية ، وعقيدتها فى الحكمة الالهية التى تخللت كل الأشياء وسادت كل الأشياء « الكلمة » Logos وإصرارها على أن كل صانع للخير مقبول ، مهما يكن قدره ومكانته ، وتأكيدها أخوة البشر — هذه كلها قد أثرت تأثيرا عميقا فى علم اللاهوت المسيحى . فنى المستويات العليا كانت عقائدها ونتائجها نبيلة ، ولكنها اتسمت بالقسوة وضيق الأفق ، وانعدام العطف ، وكانت وقفا على الأقلية — أما الأكثرون فلاسبيل لهم إلى مستوياتها . أما روحها فقد شح منها الكبرياء ، بينما اتصفت المسيحية بالوداعة والتواضع ... ومهما يكن من أمر ، لم تعد هذه الفلسفة دينا شعبيا بين الرومان ، وإن تكن قد أدخلت إلى القانون الرومانى والفقه الرومانى كثيرا من المبادئ السامية ، ورفعت من شأن العبيد بفضل عقيدتها فى مساواة بنى الإنسان .

وعلى الرغم من هذا كله ، فإن الإنسان يفتقر إلى دين أعمق من الفلسفة ونظرياتها ومطارحاتها وممارساتها . والفلسفة الرواقية المهذبة ، أعوزها

عنصران ، أولها اليقين الذى لا ينبعث إلا من وحى إلهى ، والثانى الاخلاص والولاء لشخص هو المثل الأعلى ، وهو ما قدمته المسيحية لهذا العالم المتفلسف .

اليهود

قدر للشعب العبرانى أن توكل إليه رسالة الهية يذيعها للملأ عن الدين الحق ، وقد أعلنت لهم تدريجياً فى بدء تاريخهم رسالة خاصة ، وأوصوا أن يحرصوا على نقاوتها حتى يسلموها « فى ملء الزمن » إلى التاريخ شهادة ناطقة على محبة الله للبشرية ، وقد تنكر ذلك الشعب فى مناسبات كثيرة لهذه الوكالة النبيلة ، وعصى واستكبر ، وحاد عن الصراط المستقيم ، ومع ذلك تمت الرسالة ، وقبلتها قلة مختارة منهم ، ونبذها الأكثرون وكانوا من الضالين .

ولا نكران أن اليهود قد أعدوا مهد المسيحية ، والأوساط الملائمة لمولدها ونمائها عند بزوغ فجرها . فهم الذين أعدوا الحياة الدينية التى عاشها ربنا « يسوع المسيح » نفسه ، وأوائل المسيحيين وبينهم الرسل الدعاة والبشيرون . ولسنا نجد فى العالم حياة دينية كانت تصلح لهذا الغرض فى غير اليهودية التى نبع منها الأتقياء والأخيار الذين حملوا لواء الدعوة فى أول العهد . ومن الخواص التى تميزت بها أسمى فكرة عن الله عرفها البشر فى العهد القديم ، وأسمى نموذج للحياة الأخلاقية التى نبعت من تلك الفكرة والذين تدربوا وتروضوا فى ذلك الدين القديم كانوا أجدر الناس لفهم الدين الجديد ونشر دعوته.وكلما أصبنا حظا وافرا فى دراسة حياة اليونان والرومان فى ذلك العصر ، أحسسنا باستحالة العثور بينهم على قوم من البشر ، كانوا يصلحون أن يكونوا تلاميذ ورسلا أمثال « بولس » مثلا .

ثم إن اليهود مهدوا الطريق للمسيحية ، لأنهم كانوا جنساً ترقب بفارغ الصبر ماجاءت به المسيحية ، ألا وهو المخلص الالهى للبشرية ، وأعز الآمال المحببة التى انطوت عليها جوانحهم ، ذلك الرجاء فى مجىء « المسيا » المنتظر ولا جدال أن أكثرهم توقعوا هذا الرجاء فى أوضاع عالمية دنيوية ، تعيد إليهم مجدهم التليد ، وتدك أعداءهم وغاصبيهم تحت مواطئ أقدامهم ، ولكن حسبهم ذلك التوقع الحار فى مجئ واحد يبعثه الله ليفتدى شعبه . وقد وجدت المسيحية باكورة أنصارها والمؤمنين بها من بين ذلك الشعب ممن تأهبوا لاستقبال هذا المخلص الالهى .

وقد أعد اليهود للمسيحية مجموعة رائعة من الأسفار المقدسة ، وهى العهد القديم من كتابنا المقدس ، المكتنز فيه إعلان الله عن ذاته فى حياتهم القومية . وبهذه الوسيلة تزود الدين الجديد فى نشأته بمجموعة من الآداب الدينية لا مثيل لها بين الجماعات الأخرى ، والتى جاءت مصداقا لتعاليم المسيحية وظلالا للمسيح . وقبل أن يتوافر الوقت للمسيحية لكى تنتج أسفارها ، وجدت بين يديها كتابات كانت لها عونا قويا .وما انفك «يسوع» نفسه عن اللجوء للعهد القديم ، لاسناد حياته وتعاليمه ، وحذا حذوه أتباعه الأقربون من بعده فكانت تقرأ أسفار العهدالقديم فى مجتمعاتهم وعباداتهم ، وفيها وجدوا الوحى والالهام .

ولا مناص من كلمة عن الدور الهام الذى لعبه يهود الشتات فى الإعداد للمسيحية ، وأقصد بذلك الجماعات اليهودية التىبعثرتها الاضطهادات وعوامل التسيب : فاتخذت ملاجىء لها فى كل مدائن العالم اليونانى — الرومانى . فى كل من هذه المدائن حرصوا على دينهم ، وأقاموا العبادات فى مجامعهم ، وقاموا بنشر الدعوة فى كثير من البقاع ، فكسبوا أعداداً غفيرة من الدخلاء من الأمم . وكان هؤلاء بدورهم النواة الصالحة لنشر المسيحية

فيما بعد . وذلك لأنه كان فى عناصر دينهم اليهودى الذى آمنوا به عناصر مشتركة مع المسيحية ، مثل وحدانية الله ، وسمو الناموس الأدبى ، الذى اعتزت به اليهودية والمسيحية على السواء ، وأهم من هذا وذاك توقع مجئ مخلص ينقذ العالم — وكان هذا الرجاء قد اختمر فى قلوب الوثنيين فهرعوا إلى المسيحية عند مجئ المسيح .

الأحوال الدينية

عند بزوغ فجر المسيحية كانت آلهة والاهات اليونان والرومان ، التى تحدثت عنها الأقاصيص والأساطير قد فقدت حيويتها ، وسقطت من عروشها ، ولم تبق حولها إلا الطقوس الجافة والممارسات الفارغة ، وانفض عنها المثقفون ، وأهملها عامة الشعب . وإنا لنرى « أوغسطوس » العاهل الرومانى ، الذى تربع فوق عرش رومية يوم ولد المسيح ، يضطرب ويجزع وهو يشهد انحلال الدين القديم ، ويبذل الجهود الجبارة لإحياء هذا الدين ، فأدخل عبادة الدولة الرومانية ، التى تطورت فيما بعد إلى عبادة الامبراطور ذاته . على أن هذا الدين كان سياسيا شعاره الولاء للحكومة . ولم يكن عملا دينيا ، ونظر المسيحيون الأولون إلى هذه العبادة كأنها خيانة لولائهم للمسيح ، وعبر « يوحنا » فى رؤياه عن هذا الأحساس (رؤيا ٢ : ١٣) ، ومن ناحية أخرى ، نظرت الدولة إلى موقف المسيحيين كأنه خيانة للوطن ، وهنا تثور الاضطهادات فالاستشهاد .

ومع ذلك لم يكن ذلك العصر بلادين كما نظن لأول وهلة ، فمن الشرق زحفت أديان غريبة واكتسحت فى أمواج متتابعة العالم المتحضر ، واكتسبت لها أنصارا ومؤمنين . ومما ساعد على ذلك سهولة المواصلات

وتدفق جماهير غفيرة من العبيد الشرقيين إلى الجزء الغربي من العالم الروماني .

ومال كثير ممن استبد بهم الشوق للدين ، إلى هذه الأديان الشرقية التي كان من أهم مظاهرها الفداء والسرية والتصوف . وكان من آثار هذه الأديان — وكانت في تنافس مع المسيحية خلال القرون الثلاثة الأولى — تعمق الأحساس الديني في تلك الفترة ، وكان طبيعياً أن تنتصر المسيحية في نهاية الأمر .

الأديان الشرقية :

ومن أهم تلك الأديان الشرقية دين الأم الكبرى (سيبيل) الذى نشأ في آسيا الصغرى ، وعبادة ايزيس وسرابيس في مصر ، ودين مثرا في بلاد فارس . أما دين الأم الكبرى فكان عبادة بدائية للطبيعة ذات طقوس اباحية ، وقد جاء إلى رومية سنة ٢٠٤ ق.م ، وكان أول الأديان الشرقية التي رسخت أقدامها في العالم الروماني . أما دين ايزيس وسرابيس ، بما انطوى عليه من التشدد في التجديد وحياة المستقبل ، فقد تأصلت جذوره في رومية سنة ٨٠ ق . م ، وكان عليه قبل ذلك أن يلقى مقاومة عنيفة من الحكومة ، أما دين مثرا فهو أنبل هذه الأديان ، وكان له ماض عريق في الشرق ، ولكنه لم يستقر في رومية إلا حوالى سنة ١٠٠ ب . م. ولم ينتشر إلا في الحقبة الأخيرة من القرن الثاني وخلال القرن الثالث ، مفضلا ومقبولا بين رجال الجيش . وبعد تطوره في الامبراطورية الرومانية ، أقترن هذا الدين بعبادة الشمس ، وكانت نظرته في الكون ثنائية شأن كل الأديان الفارسية ، أى وجود قوتين في الكون ، إحداهما للخير والأخرى للشر .

وتلك الأديان الشرقية التى اتخذت فى اشكالها المختلفة نماذج الأسرار اليونانية القديمة ، جذبت إليها الكثيرين ، وجرت تلك الأسرار فى حفلات منظمة منسقة تمثل فى أوضاع تمثيلية الرغبة فى التطهر من الخطيئة ، والرجاء فى الخلود والغبطة فى شركة دينية .

لهذا يصح القول أن العصر الذى كسبت فيه المسيحية انتصاراتها كان عصرا دينيا ، بمعنى أنه كان تواقا إلى معرفة أشكال مختلفة من الدين ، وإلى السعى للوقوف على ما هو أحسن وأفضل .. ولم يكن عصرا دينيا بمعنى الاكتفاء بدين واحد تطمئن له النفوس وتقر به العيون . كان العالم اليونانى الرومانى مشبعا بحنين روحى ، خائر ، لم يستقر على حال من القلق . ويمكن القول إجمالا إنه قبيل مجئ المسيحية ، ساد المزاج الدينى العام أشياء ثلاثة : عقيدة نامية قوامها الايمان بإله عالمى واحد ، ورغبة عارمة فى التطهر من الخطيئة ، وتوق جارف لمعرفة ما يجئ بعد الموت .

الأحوال الأخلاقية

من مشاهد التاريخ التى ألفناها ، أن يصور الكتاب الحالة الأخلاقية فى العالم المتحضر فى خلال العصر المسيحى الأول ، بألوان قاتمة السواد كأنه لم يكن فى العالم شئ من الخير والصلاح ، ولسنا نجد ما يبرر هذه الفكرة من واقع بعض البيانات التى دونها التاريخ ، ولعل هذا كان مرده إلى تلك الكتابات الساخرة التى صنفها الناقدون ، وكشفوا فيها فضائح ورذائل وموبقات الطبقة الأرستقراطية . وليس من شك أن الطبقات العليا فى مجتمع ذلك العصر ، كانت فاسدة عفنة . . ولكن بين الطبقات الوسطى والدنيا ، كان أناس — رجالا ونساء — تحلوا بفضائل الأخلاق والحياة الكريمة النبيلة .

ولكن بعد أن نستجمع كل الأدلة — الابجابية والسلبية — نرانا أمام صورة حالكة فعلا . فقد كان العصر منزلقاً إلى هاوية الانحلال ، وكانت عقول الناس حائرة تتقاذفها الشكوك والاوهام ، ولم تتمكن الأديان القائمة والفلسفات السائدة من التسلط على مجريات الحياة الأنسانية ، فكانت النتيجة انحطاط المثل العليا والقيم الأخلاقية ، وكان بين الناس وفرة من النجاسة والبطر والقسوة والانانية ، مما لم نعهده فى العالم المسيحى ، ولم تكن هناك قوة تمسك بزمام الأخلاق قبل السيطرة المسيحية ،وكان الميل العام فى المجتمع يتجه الى الدنى والانزلاق — إلى أسفل .

أجل ، كنت تحس عند بزوغ فجر المسيحية بذلك المزاج المتعب المنهوك ، والفراغ الممل المكمد ، يسيطر على الكثيرين ، وخاصة خيرة المفكرين . كان عالماً اكتنفته ظلمة اليأس والفساد. وفى مثل هذا العالم أبرق نور الفجر ، وشق سدفة الظلام يوم حمل دعاة المسيحية الأولون بشارة الخلاص الطيبة .

٢

العصر الرسولى

[يوحنا[1] المعمدان ــ نشأة يسوع ــ ملكوت الله ــ الجماعة المسيحية الفلسطينية ــ الشهيد الأول ــ بولس والمسيحية الوثنية ــ بولس] .

يوحنا المعمدان :

كان يوحنا المعمدان ممهد الطريق ليسوع ، وهو الذى تقدم ليعلن مجئ المسيا الذى توقعته الأجيال . وكان زاهدا متقشفا نادى برسالته فى منطقة الأردن ، منذراً قومه باقتراب يوم دينونة شعب إسرائيل ، وحلول عصر المسيا . وقد احتقر الشكليات فى الدين ، وسفه اعتماد الشعب على تحدرهم من سلالة إبراهيم ، وبروح قدامى الأنبياء ، دعا الشعب إلى التوبة والأعتصام بالحق والعدل ، وقد عمد تلاميذه رمزاً إلى غسلهم من خطاياهم. وقد حسبه يسوع خاتمة النبيين ، ومن أعاظم رجال النبوة ، ولئن يكن كثيرون من أتباعه ومريديه صاروا فيما بعد من أتباع يسوع ، إلاأن بعضهم قد بقى على عهدهم له ، ووجد نفر منهم فى أفسس فى تاريخ متأخر فى عصر الرسول بولس (أعمال ١٩ : ١ ــ ٤) .

نشأة يسوع :

أما يسوع نفسه ، فقد تربى فى ناصرة الجليل ، فى وسط ريفى ، وفى

---

(١) سنعالج هذا الباب فى ايجاز ، ومن يرغب فى الاسهاب فليرجع الى مؤلفاتنا الثلاثة حياة يسوع وسيرة رسول الجهاد وعشرون قرنا فى موكب التاريخ.

بيت نجار . ونظراً لامتزاج الأجناس فى هذه المنطقة رمقها أقحاح سكان اليهودية بنظرة الأحتقار ، على أنهم كانوا أمناء مخلصين للدين العبرى وتقاليده ، وممن تشبعوا برجاء المسيا . فى هذا الوسط تربى يسوع وبلغ طور الرجولة ، وقد صمت التاريخ عن ذكر شئ عن حياته ، والتاريخ لايعبأ عادة الا بالزعماء والقواد والفاتحين ، وحسبنا قولة الانجيل بأنه كان ينمو فى الحكمة والقامة ووجد فضلا عند الله والناس .

وفى هذه الحياة الوادعة الهادئة ، جذبته مناداة يوحنا المعمدان ، فانطلق إليه ،واعتمد على يديه ، ومن خلال هذه لمعمودية أحس أنه المسيا الموعود به وأنه مختار العلى والمؤسس الذى عينته السماء للملكوت الالهى — وفى صراع مع تجاربه فى تأويل رسالته ، أبى كل الإباء أن يتخذ الأساليب السياسية والأنانية لتحقيق رسالته ، وأيقن الإيقان كله ، أن رسالته سماوية وأن ملكوته هوملك السماء وتوا بدأ ينادى بهذا الملكوت ، ويشفى المرضى والمدنفين ، ويشبع الجياع ، ويواسى الحزانى والمتألمين ، فالتف حوله جمع غفير . وقد جمع حوله نفراً من أقرب المقربين اليه — الرسل الاثنى عشر ومعهم فئة أخرى أكبر من أتباعه وأنصاره قوامها سبعون رجلا . وقد استمرت خدمته قرابة ثلاث سنوات ، وحين اتضحت طبيعة رسالته الروحية وعداوءه للفريسية الضيقة المرائية ، برزت مقاومته والنيل منه ، حتى لقد هجره كثيرون من أتباعه الأولين ،وبعد الجليل انطلق إلى صور وصيدا ، ثم إلى إقليم قيصرية فيلبى ، حيث لقى اعترافاً من تلاميده بأنه هو المسيا المنتظر وهوءلاء كان يدربهم ويروضهم طيلة الوقت ، ليعدهم لحمل رسالته من بعده .

وأخيراً أحس ، وهو عالم بما تخبئه له الايام من مخاطر ، أن ينطلق إلى أورشليم وثبت وجهه كالصوان ، إلى تلك المدينة الظالمة ، وهناك ألقى

القبض عليه ، وحكم عليه بالصلب فى عهد « بيلاطس البنطى » (٢٦ — ٣٦ ب . م) فى سنة ٣٠ ب . م على أرجح الأقوال . وفى أثر ذلك تفرق تلاميذه خائفين مذعورين ، ولكن جمعوا شملهم بعد أن أيقنوا أن سيدهم حى ، وأنه قام من الأموات . هذه قصة مقتضبة أوجزناها ، لأعظم حياة عرفتها البشرية ، فصلناها فى كتابنا « حياة يسوع »

ملكوت الله

ولما شرع « يسوع » فى دعوة الناس إلى تعاليمه ، بدأ بما كان مألوفا فى اليهودية المعاصرة ، ونعنى بذلك : ملكوت الله ، ومجئ المسيا . وقد كان الملكوت الذى علم به روحيا — لامكانيا كما توقع اليهود — وشمل أبناء الإنسانية قاطبة لا الشعب المختار فقط كما زعموا — وهو الذى قال إن كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ومن الشمال والجنوب (لوقا ١٣ : ٢٩) ولكن هذا الملكوت نزع منه اليهود الجاحدون ، لأنهم أعطوا ملكا ولم يحسنوا سياسته وقد حسب نفسه صديقاً لأبناء وبنات هذا الملكوت ، الذين استكبر عليهم الفريسيون وحرموهم ميراثهم فيه ، وهم المنبوذون ، والعشارون ، والزناة ، والفقراء ، وتوبة هؤلاء كان لها قدرها وقيمتها فى نظر الله .

وينطوى ملكوت الله ، حسب تعليم يسوع — على الاعتراف بسلطان الله وأبوته — فنحن أبناؤه ، لذلك علينا أن نحب الله والقريب أى الجار والأخ فى الإنسانية . ثم علينا أن نتوب عن خطايانا ، وذكرها يكون محزناً لنا . وموقف الندم والحزن يعقبه حتما الغفران الالهى (لوقا ١ : ٢٥ — ٢٧) . أما المستوى الأخلاق لهذا الملكوت ، فهوا أسمى ماعرفه البشر : « كونوا كاملين كما أن أباكم الذى فى السماء هو كامل » (متى ٥ : ٤٢) . أما

هذا المستوى فنطو على أقسى صنوف التشدد مع النفس ، وأكرم أنواع الغفران للآخرين ، شرط مسبق لغفران الله لنا (مرقس ١١ : ٢٥) . وقد أعلن المسيح أن له سلطاناً على غفران الخطايا ، ومن أقواله وتعاليمه ، نستشف لاهوته وناسوته وهذا سر شخصيته التى قد لاتدركها الأفهام ، ولكن الكنيسة اجتهدت طوال العصور ، فى اكتناه هذا السر العميق ، وقد عرفته بالاختبار ، وكان هذا أيسر من اجتهادات العقل .

وقد استعاض عن الدين الطقسى الشكلى الذى مارسه اليهود فى عصره ، بتقوى النفس التى تتمثل قبل كل شئ فى محبة الله « الآب » ، والقريب الأخ — محبة تنبع من القلب ، ويترجمها الاحساس الداخلى أعمالا ظاهرة للعيان ، وأعلن صراحة أن أقوى باعث فى الحياة هو الولاء لشخصه ، مظهراً للآب فى السماء ، ونموذجاً للانسانية المفتداة ، والأخ الأكبر ، وملك ملكوت الله ، ومن تعاليمه الراسخة التى اقتنع بها تلاميذه ، أن موته ليس خاتمة حياته ، بل هو مقدمة لقيامة مجيدة ، وصعود إلى السماء ، وكانت هذه العقيدة مبعث تشجيع للتلاميذ ، فأحالتهم شهوداً جبابرة بعد أن كانوا ضعافاً ناكصين على أعقابهم ، وذلك بعد أن رأوا رجاء المسيا يتحقق بمعنى روحى لم تتوقعه اليهودية ، ولم يخطر لها ببال ، مسيا عاش حقا ، ومات ، وقام لخلاصهم ، ثم صعد إلى العرش ليكون معهم أبد الدهر .

وقد تعمقت هذه العقيدة باختبارات يوم الخمسين . ولا يسمح المقام بشرح أحداث ذلك اليوم ، ولكن حسبنا القول أن تلك المظاهر الروحية التى تبدت يوم الخمسين ، إنما كانت دليلا منظوراً ومسموعاً على هبة المسيح وقوته . وقد يقال أن ذلك اليوم كان مولد الكنيسة ، على أن الأصح أن يقال أن الكنيسة بدأت بشركة المسيح مع تلاميذه .

الجماعة المسيحية الفلسطينية :

نمت الجماعة المسيحية فى أورشليم نمواً سريعاً ، وانضم تحت لوائها يهود ممن عاشوا فى الشتات ، ومن مواطنى الجليل واليهودية ، بل بعض الكهنة العبرانيين . ومن أول الأمر ، أطلقوا لقب « كنيسة » على جماعتهم ، وقد استنبطوا هذه التسمية من الترجمة السبعينية للعهد القديم ، حيث استعملت اللفظة للدلالة على شعب اسرائيل كله كجماعة مدعوة من الله . من ثم كان ملائماً جداً ، أن يطلق هذا الاسم على اسرائيل الحقيقى ، شعب الله الحقيقى ، وقد أحس المسيحيون الأولون بأنهم كذلك . وأخلصت جماعة أورشليم الأولى لعبادة الهيكل ، ولكن كانوا يقيمون فيما بينهم عبادات خاصة يومية فى بيوتهم (أعمال ٢ : ١٦) ، تضمنت الصلاة والنصائح المتبادلة ، وكسر الخبز ، واستهدفت ممارسة كسر الخبز غرضين : كانت رابطة الشركة ووسيلة لإعانة المعوزين . وكانت فكرة توقع مجيء ربهم سريعاً ، باعثاً للقادرين منهم على إعالة ذوى الفاقة ، « وكان كل شيء بينهم مشتركاً » (أعمال ٢ : ٤٤) وكانت ممارسة « كسر الخبز » استمراراً وتذكرة للعشاء الأخير ، الذى تناوله الرب مع تلاميذه قبيل صلبه ، ومن هنا يصح القول أن هذا الاجراء اقترن من أول الأمر بمعنى سرى عميق الأغوار .

أما نظام الكنيسة فكان بسيطاً ، تولى « بطرس » فى أول الأمر زعامة الجماعة فى أورشليم ومعه « يوحنا » . ولما دعت الحاجة عينت الكنيسة ، لجنة من سبعة أشخاص لتوزيع الاعانات على المعوزين ، وهنا نشأت فكرة تعيين الشمامسة فى تاريخ الكنيسة . وفى تاريخ متأخر ذكر اسم « الشيوخ » ، ولا يمكن الجزم أكان أولئك الاعضاء المتقدمين فى السن أم موظفين معينين على نسق رؤساء المجمع اليهودى ، وكانت التوبة عن الخطايا

السالفة والاعتراف بالمسيح رباً ومخلصاً إيذاناً بالقبول فى عضوية الجماعة ، يعقبها معمودية باسم المسيح علامة على التطهير من الخطيئة ، ورمزا الى علاقة جديدة بالمسيح . والتمتع بالهبات الروحية (أعمال ٢ : ٣٧) .

الشهيد الأول :

وقد أحنقت هده الدعوة الجديدة اليهود اليونانيين ، فثاروا على الشهيد لمسيحى الأول « استفانوس » وقتلوه رجماً بالحجارة . وفى أثر هذا ، هجر المدينة فريق من المسيحيين ، وكانت هذه الهجرة باكورة غرس بذار المسيحية فى اليهودية والسامرة ، وفى رقاع نائية مثل قيصرية ، ودمشق ، وانطاكية وجزيرة قبرص . وانطلق الرسل الأولون إلى نواح أخرى ، ولم يحدثنا التاريخ عنهم حديثاً واقعياً ، ولكن التقاليد تقول إن « متى » ذهب إلى بلاد العرب ، و « مرقس » إلى الاسكندرية ، و «يعقوب » إلى أسبانيا ، وأسرة « لعازر » إلى بلاد الغال (فرنسا) و « يوسف الرامى » إلى انكلترا ، وقوماً إلى بلاد الهند ، و « يهوذا » الى سوريا وبلاد فارس ، والآخرون إلى ما بين النهرين وآسيا. ودام الهدوء النسبى الذى أعقب استشهاد «استفانوس» فترة من الزمن ، عانت بعدها كنيسة أورشليم أخطارا أقسى وأمر حوالى سنة ٤١م ، أثار عجاجه هذه المرة « هيرودس أغريباس الأول » ، الذى كان والياً من سنة ٤١م إلى سنة ٤٤م) على المناطق التى حكمها أبوه « هيرودس الكبير » . . وقد زج بطرس فى غيابة السجن ، ولكنه أنقذ بطريقة معجزية ، وقطع رأس « يعقوب » الرسول ، وانتقلت زعامة الكنيسة أورشليم إلى « يعقوب أخى الرب » الذى كان صاحب الكلمة العليا حتى قبل شغله منصب الزعامة (غلاطيه ١ : ١٩ و ٢ : ٩ و أعمال ٢١ : ١٨) ، وقد بقى فى هذا المنصب حتى استشهد حوالى سنة ٦٣م — ويصلح

القول إنه كان بمثابة الأسقف الأول لهذه الكنيسة الناشئة ، ولو أن لقب (الأسقف) لم يطلق إبان حياته . وحين نفكر فى تسلسل الزعامات الدينية بين الشعوب السامية ، يبدو لنا أن القوم أعاروا اهتماماً إلى علاقة الزعيم بمؤسس الدين ، وهنا نلحظ نوعاً بدائياً من « الخلافة » ، وذلك لأن زعامة كنيسة أورشليم بعد « يعقوب » انتقلت إلى « سمعان » ، وهو من ذوى قرابة « يسوع » ، ولو أن اختياره لم يتم إلا بعد استيلاء « تيطس » الرومانى على المدينة سنة ٧٠م .

حزبان فى الكنيسة :

وفى عهد زعامة « يعقوب » ، كان فى كنيسة أورشليم حزبان اتفق كلاهما على سريان الشريعة الموسوية القديمة على المسيحيين من جنس اليهود — ولكنهما اختلفا فى سريانها على المتنصرين من الوثنيين — وذهب أحد الجناحين إلى أن يكون سريان الشريعة عاماً شاملا ، أما الجناح الآخر ، وكان ممثله « يعقوب » — نفسه ، فقد رأى أن يمنح الحرية للمسيحيين من أبناء الوثنية من أعباء الناموس الموسوى ، ولو أنهم لم يرحبوا بفكرة اندماج متنصرى اليهودية والوثنية فى مائدة واحدة ، وقد كان « بطرس » من أنصار هذا الرأى ، على الأقل لفترة معينة (غلاطية ٢ : ١٣ — ١٦)

وقد كانت النكبة التى دمرت أورشليم سنة ٧٠م ، وقضت على كيان أمة اليهود قضاء مبرماً بعد عصيانهم العنيد — مدمرة أيضاً للجماعات المسيحية فى فلسطين ، ولو أن النكبة الأكبر ، والدمار الأشمل ، الذى قضى على آمال اليهود ، وقع فى حرب الامبراطور « هادريان » من سنة ١٣٢ إلى ١٣٥م — ولم يبق فى فلسطين إلا أقلية مسيحية واهنة مبعثرة . وحتى قبيل الاستيلاء الأول على المدينة سنة ٧٠م ، كنت ترى جماعات مسيحية

ناهضة ناشطة فى أجزاء أخرى من الامبراطورية الرومانية . ومع هذا احتفظت كنيسة أورشليم والجماعات الفلسطينية الملحقة بها ، بمقامها التاريخى كنبع تفجرت منه المسيحية ، وموئل الذكريات الحبيبة المقدسة عن حياة « يسوع » وأعماله ، ولو أن تأثيرها كعامل فى نشر الدعوة المسيحية ، وتطورها فى التاريخ اللاحق كان ضئيلا .

بولس والمسيحية الوثنية [1] :

قلنا إن الاضطهاد الذى أطاح برأس «استفانوس» ،نشأ عنه غرس بذور المسيحية فيما وراء فلسطين . فالدعاة الذين لم يدون التاريخ أسماءهم ، أذاعوا بشارة الخلاص لمواطنيهم فى كل مكان . وفى أنطاكية بالذات تأصلت عميقة جذور هذه الدعوة الجديدة . وكانت أنطاكية يومئذ عاصمة سورية ، مدينة من كبريات مدن الامبراطورية ، مركزاً تجارياً وثقافياً هاما ، اجتمع فيه اليونان والسوريون واليهود . وهناك بث الدعاة الدعوة بين اليونانيين ، فأنتشرت رسالة الانجيل بين المتنصرين من الامم — أى الوثنيين ، وهناك أطلق عليهم مواطنوهم لقب « مسيحيين » وهو لقب لم يستعمله أتباع المسيح أنفسهم ، إلا فى القرن الثانى ، وإن يكن ذاع أولا بين الوثنيين . ولم تكن أنطاكية أبعد مطاف للجهود المسيحية ، ففى سنة ٥١ أو ٥٢م — فى عهد الامبراطور « كلوديوس » ، وقع اضطراب بين اليهود فى رومية بسبب هذا الدين الجديد ، الذى كان قد أذاعه مرسلون مجهولون مما أيقظ اهتمام الحكومة بالأمر .

---

(١) هذه خلاصة وجيزة ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتاب « سيرة رسول الجهاد» للمؤلف ..

وكان من آثار اعتناق الوثنيين للمسيحية ، أن ثارت بطبيعة الحال مشكلة العلاقة بين هؤلاء الوافدين الغرباء ، وبين الناموس اليهودي ، الذي اعتصم به المتنصرون اليهود فإن فرضت أحكام الناموس على هؤلاء تمسى المسيحية مجرد طائفة من طوائف اليهودية ، وان تقرر اعفاؤهم من قيود الناموس ، تغدو المسيحية دينا جامعا ، على حساب اليهودية الضيقة ، وقد أمكن حل هذه المشكلة الدقيقة ، على أساس سعة من الفكر ، وانطلاقة إلى الحرية ، وكان بطلها « الرسول بولس » .

« بولس » :

وكان « بولس » عبرانياً من عشيرة بنيامين ، وكان اسمه «شاول» ، وهذا الاسم كان لبطل العشيرة التي كان «بولس» أحد فرادها ، ولد في مدينة طرسوس في كيليكية ، من سلالة فريسية ولكن أباه كان متمتعاً بالرعوية اليونانية وكانت طرسوس يومئذ مركزاً ثقافياً مرموقاً ، نشطت فيها الفلسفة الرواقية وإذ قد تربى في بيت يهودي محافظ متزمت ، فلا تظن أنه تلقى ثقافة يونانية بمعناها الواسع ، وحتما لم يكن يوناني النزعة والثقافة مثل فيلو الاسكندري مثلا . على أن شاباً مثقفاً في مدينة كهذه ، لابد أن يكون قد تشبع بكثير من الآراء اليونانية ، وبالجو السياسي والديني في العالم الأكبر المحيط به خارجاً عن بيئته اليهودية المحافظة ، ومع ذلك فلا جدال في أنه قد نشأ على تقاليد أحبار اليهود . وكان يفكر في إعداد نفسه لكي ينخرط في سلك فقهاء الشريعة يوم انتقل من بلدته ليدرس تحت إشراف غمالائيل ، الشيخ اليهودي الذائع الصيت في أورشليم . وكان ولاؤه للنعرة الفريسية في أمته متطرفا ومسلكه في الحياة على هذا المستوى الفريسي بلا عيب كما قال عن نفسه فيما بعد . على أنه بحكم إدراكه الروحي الرقيق أحس حتى وهو فريسي بشيء من القلق الداخلي حين كان يفكر في مكتسباته الخلقية ، فالناموس لم يسعفه بالبر الداخلي ، وتلك كانت حالته يوم اتصل بالمسيحية فإن لم يكن يسوع المسيا الحقيقي ، فقد نال

جزاءه الوفاق ومن العدل والحق أن يضطهد تلاميذه وأتباعه . أما ان اقتنع بأن يسوع هو مختار العلى ، فلا بد أن يخصه بكل الولاء ، وأن تبطل المقاومة الفريسية له بتدخل الهى .

ويصح القول أن تغيراً جذريا طرأ على حياته ، ربما حوالى سنة ٣٥م وهو منطلق فى طريقه من أورشليم إلى دمشق ، يحمل رسالة للفتك بأتباع المسيحية ،وفى رؤيا فى رائعة النهار ، ظهر له المسيح فى الطريق ، يدعوه إلى خدمته ، وليس هنا مجال تحليل تلك الرؤيا وذلك الاختبار . وحسبنا القول أن حقيقتها لبولس ، وقوتها التى قلبت حياته رأساً على عقب ، ليست محل جدال أو نقاش ، فبعدها قد اقتنع بان يسوع هو الحق ، وإلى هذا السيد الجديد ، قد وجه كل حياته وولائه وخدمته بحيث استطاع أن يقول فيما بعد أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فى (غلاطية ٢ : ٢٠) .

ولم يكن مناص من أن تترجم مثل هذه الشخصية المتوقدة تجديدها إلى عمل وجهاد . وهو لم يذكر شيئا عن السنوات القلال التى تلت هذا الاختبار إلا انطلاقه إلى العربية ربما الصحراء جنوب دمشق — ليخلو هناك مع نفسه ومع ربه ، وبعد سنوات ثلاث من اهتدائه قام بزيارة خاطفة إلى أورشليم حيث التقى هناك — ببطرس ويعقوب أخى الرب ، ثم جاهد فى سوريا وكيليكية بضع سنوات تعرض فيها للخطر والألم والضعف الجسمانى . ولم تذكر رسائله الا القليل عن هذه الخدمة ، ولكن حدث بعد ذلك أن استدعاه «برنابا» من طرسوس إلى أنطاكية .

وكان « برنابا » أحد الموفدين من أورشليم إلى أنطاكية — ربما فى سنة ٤٦ أو ٤٧م ، وكانت قد صارت مركزا قوياً للدعوة المسيحية . وتحت الإرشاد لهى أوفدتهما الكنيسة فى أنطاكية فى رحلة تبشيرية إلى قبرص ومنها إلى

برجا وأنطاكية بيسيدية وأيقونية ولسترة ودربة وتلك التى عرفت بالرحلة الأولى[١] التى جاء وصفها فى الفصلين الثالث عشر والرابع عشر من سفر الأعمال. ولعل تلك الرحلة كانت من أروع وأنجح الجهود التبشيرية فى تاريخ الكنيسة. وذلك لأنها أنتجت تأسيس مجموعة من الجماعات المسيحية فى آسيا الصغرى، التى خاطبها الرسول فيما بعد فى رسالته إلى غلاطية، وانتشار الكنيسة فى أنطاكية، وغرس البذار فى الكنائس المختلطة فى قبرص وغلاطية، خلق مشكلة العلاقة بين متنصرى الوثنية وبين الناموس اليهودى الذى احتفظ به مسيحيو أورشليم . وقد اضطربت كنيسة أنطاكية بالوافدين من أورشليم، الذين قالوا لهم : إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا (أعمال ١٥ : ١) . وقد أراد « بولس » أن يقوم بتجربة ، فأخذ معه « تيطس » وهو وثنى متنصر ، كمثال للمسيحية المتحررة من ثقل الشريعة اليهودية ، وذهب إلى أورشليم مع « برنابا» لمقابلة زعماء الكنيسة هناك على انفراد، وقد تم الاتفاق بينه وبين « يعقوب » و «بطرس » و «يوحنا » على الإعتراف بسلامة وصحة عمل « بولس » بين الوثنيين وعلى تقسيم حقل العمل ، على أن يجاهد زعماء الكنيسة فى أورشليم بين اليهود مع الأحتفاظ بالشريعة طبعاً ، وأن ينطلق «بولس وبرنابا» بالرسالة المتحررة بين الوثنيين (غلاطية ٢ : ١ :) وكان الأتفاق مشرفاً للطرفين ، ولكن لم يكن من الميسور تنفيذه كاملا . فكيف تكون العلاقة فى كنيسة مختلطة ؟ وهل يقدر أن يأكل معاً اليهود المتزمتون فى تناول الأطعمة مع متنصرى المسيحية المتحررين من قيود الشريعة فى المأكل والمشرب ؟ وقد عرضت هذه

(١) فى كتاب المؤلف الذى عنوانه سيرة رسول الجهاد شرح وخرائط لهذه الرحلات .

المشكلة على مجمع أورشليم وهو أول مجمع فى تاريخ الكنيسة (غلاطية ٢ : ١٢ — ١٦ وأعمال ١٥ : ٦ — ٢٩) الذى وضع قواعد معينة أنقذت الكنيسة من الأنقسام وهى بعد نبتة صغيرة .

ويعقب هذا السنوات القلال التى قضاها « بولس » فى أهم رحلاته التبشيرية وهى الفترة التى كتب فيها رسائله التى أخصبت الفكر المسيحى ، ووضعت أركان العلوم اللاهوتية . وإذ يأخذ معه مسيحياً من أورشليم متمتعاً بالرعوية الرومانية يدعى « سيلا » يضطر للانفصال عن « برنابا » بسبب الخلاف معه فى مشكلة الأكل ، وحول مسلك « مرقص » من أبناء عمومة « برنابا » (سفر الأعمال ١٥ : ٣٠ — ٤٠) ، وفى رحلة فى إقليم غلاطية ، يصحب معه « تيموثاوس » مساعداً له . وحين تصدمه العقبات فى آسيا الصغرى ، يرحل « بولس » وزملاؤه إلى مكدونية ، وهناك يؤسس الكنائس فى فيلبى وتسالونيكى . أما فى أثينا ، فيلقى لقاء فاترا ولذا يقضى ثمانية عشر شهراً فى عمل مفلح فى كورنثوس (ربما حوالى سنة ٥١ — ٥٣م) ، وحوالى هذه الفترة يطعن اليهود فى غلاطية فى سلطته الرسولية ، ومن كورنثوس يكتب إلى تلك الكنائس رسالته المأثورة ، يؤيد فيها صحة رسالته ، ويدافع عن حرية المسيحية من كافة قيود الشريعة اليهودية . وإلى أهل تسالونيكى أيضاً رسالتيه ، لعلاج صعابهم الخاصة إبان الأضطهاد ومجئ المسيح المنتظر .

وبعد ذلك يأخذ أكيلا وبريسكلا اللذين قبلا زمالته فى رحلته من كورنثوس إلى أفسس ، وهناك يتركهما ويقوم برحلة خاطفة إلى أورشليم وأنطاكية ، وعند عودته إلى أفسس حيث كانت قد غرست بذور المسيحية ، يقضى فيها ثلاث سنوات مجاهداً (ربما سنة ٥٣ — ٥٦) وقد واكبه التوفيق والفلاح

فى خدمته التى اقترنت فى الوقت عينه بكثير من المقاومة والمخاطر ، حتى لقد يئس من حياته (٢ كورنثوس ١ : ٨) ، واضطر أخيراً أن يهرب طلباً فى النجاة . وفى خلال مقامه فى أفسس تراكمت عليه الهموم والغموم ، بسبب الانحرافات الأخلاقية والمنازعات الحزبية ، ورفض سلطته فى كورنثوس. وقد دفعته هذه الأحوال إلى كتابة رسالته إلى أهل كورنثوس ، بل إلى انتقاله من أفسس ليقيم فى كورنثوس ذاتها ثلاثة شهور ، وهناك عادت إليه سلطته الرسولية . وفى كورنثوس يكتب أعظم رسائله جميعاً ، وهى الرسالة إلى رومية .

وطيلة الوقت لم يخامره شك فى إمكان زوال القطيعة بين متنصرى الوثنيين وشعب كنيسة أورشليم ، وبتحقق هذا الغرض وكتقدمة شكر من جانب الأولين ، واعترافاً وتقديراً للكنيسة الأم ، جمع مال من المهتدين من الوثنية لإعانة كنيسة أورشليم الفقيرة . وعلى الرغم من المخاطر ، انطلق إلى أورشليم ، وهناك فى أورشليم ألقى القبض عليه ، وسيق أسيراً مقيداً إلى الحكومة الرومانية فى قيصرية كمشاغب ومكدر صفو الأمن ، وانقضت سنتان ولم يصدر قرار فاصل فى أمره ، فرفع استئنافاً إلى محكمة قيصر فى رومية .ثم قام برحلته الأخيرة فى تاريخ جهاده إلى العاصمة الرومانية ، وفى رومية عاش مخفوراً فى منزله الذى اكتراه مدة سنتين — وفى خلال هذه الفترة ، بعث برسائله إلى كنائسه الحبيبة إلى قلبه فى أفسس ، وكولوسى ، وفيلبى ، ثم رسائل وجيزة إلى فليمون وتيموثاوس (الثانية) ، ويقول بعض المؤرخين إنه أطلق سراحه بعد هذا الحجز ، وقام برحلات أخرى ، ولكن آخرين ينكرون هذه الواقعة . على أن أحداً منهم لاينكر أنه استشهد بقطع رأسه ، أثناء اضطهاد الطاغية « نيرون » سنة ٦٤م كما سنرى فيما بعد .

كافح «بولس» كفاحاً مريراً مع بنى جلدته من اليهود ، ومع الملتزمتين من متنصرى اليهودية ، لجعل المسيحية ديناً جامعاً متحرراً من قيود الشريعة اليهودية ، وقد أفلح فى ذلك ، حتى قال بعض المعلقين إنه واضع أركان العلوم اللاهوتية المسيحية . وقد يكون هذا القول مبالغاً فيه ، وهو لم يدعيه لنفسه ولا نكران أن « بولس » أدخل على علم اللاهوت المسيحى ، الشئ الكثير من اليهودية واختباراته اليونانية ، ولا نكران أيضاً أنه قد حظى ببعد نظر دقيق حاد فى فكر المسيح ، أكثر من سائر التلاميذ الأولين . يمكن القول إن «بولس» اللاهوتى ، يرسم للمسيح صورة تختلف نوعا عن صورته فى بشائر الإنجيل ، ولكن « بولس المسيحى » هو هو رسول الجهاد ، وصاحب الفضل الكبير فى وضع أركان المسيحية الأولى .

[وعند هذا الحد نقف ، بعد الخلاصة الوجيزة عن نشأة الرسول ورحلاته ، اكتفاء بالسيرة المفصلة التى كتبناها عنه فى قرابة ٤٠٠ صفحة ، تحت عنوان سيرة رسول الجهاد — أما لاهوتياته ، فلم أتعرض لها فى هذا السفر التاريخى عن فجر المسيحية ، لأن لعلم اللاهوت أسفاره الخاصة به ، وكتابه الذين تخصصوا فيه] .

٣

خاتمة العصـــر الرسولى

لم يذكر التاريخ شيئاً عن مصير الرسل الأولين ، ويكاد يكون مؤكداً أن « بطرس » لم يكن فى رومية يوم كتب « بولس » رسائله من هناك . ويذهب بعض ثقات العلماء ، أن « بطرس » لم يذهب إلى رومية إطلاقاً . على أن الفكر السائد يؤيد أنه قضى هناك بعض الوقت على الأقل وأن إقامته هناك انتهت باستشهاده مصلوباً ، أثناء اضطهاد « نيرون » ، واستشهاده على هذا النحو وفى رومية بالذات ، يجعله مقروناً مدى العصور بالكنيسة الكاثوليكية ، وحمل باباوات رومية فيما بعد ، على الاعتقاد بأنهم خلفاء الرسول « بطرس » .

وكان الاضطهاد فى عصر « نيرون » رهيبا بشعا ، وإن يكن محليا ، وسيجىء الحديث عن ذلك فى فصول تالية . و على الرغم من قسوة هذا الاضطهاد المرير ، بقيت الكنيسة فى رومية قوية مجاهدة . أما خراب أورشليم فى الشرق إثر التمرد اليهودى سنه ٧٠م — فكان له أثر عميق فى المسيحية ، وذلك لأنه قضى على الجماعات الفلسطينية ، وتضخم أعداد متنصرى الوثنية ، من العوامل التى جعلت كفاح « بولس » للتخلص من اليهودية الناموسية الضيقة ، غير ذى موضوع ، وغدت أنطاكية ورومية وبعدها أفسس — أهم المراكز فى تطور التاريخ المسيحى .

وكان المتنصرون فى أوائل العهد من الطبقات الشعبية ، وإن وجد قلة من الموسرين – والطبقات العليا فى المجتمع مثل ليديا فى فليبى (أعمال ١٦ : ١٤) والقنصل « فلافيوس كليمنتى » وزوجته « فلافيا » دوثيلا فى رومية ، وقد استشهد الزوج فى عصر الامبراطور « دوميتيان » فى سنة ٦٥م ، ونفيت الزوجة من رومية ، وإلى الزوجة يرجع الفضل فى انشاء أقدم السراديب المسيحية . ولم يذكر لنا التاريخ إلا القليل عن اضطهاد « دوميتيان » (٨١ – ٩٦م) ، ولكن لا بد أنه كان عاتيا فى رومية وآسيا الصغرى .

ومع أنه من اليسير جمع نتف من هنا وهناك عن هذه الفترة ، إلا أن الأربعين سنة من ٧٠م إلى ١١٠م ، تبقى أكثر فترات التاريخ المسيحى غموضاً وإبهاماً ، وهو أمر يؤسف له ، لأن هذة الفترة حفلت بكثير من معالم التغيير فى الكنيسة نفسها ، ولأن – فيها برز كثيرون من دعاة المسيحية المجهولين بعد « بولس » ، وظهر كثير من الأفكار التى حملها بلا شك المتنصرون الوثنيون من مصادر غير مسيحية ، وخاصة حول العقائد والممارسات المسيحية ، مثل الأسرار ، والأصوام ، وأشكال العبادة ، ودستور الكنيسة نفسه خضع لبعض التعديلات .

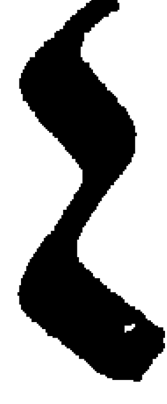
ومن الأمثلة الدالة على مسيحية تلك الفترة ، التى خلت من انطباعات الرسول « بولس » وآرائه ، مانجده فى رسالة يعقوب التى كتبت ، إما فى أواخرالقرن الأول أو – أوائل القرن الثانى ، وهى فقيرة جداً فى محتوياتها اللاهوتية ، وكل ارشاداتها أخلاقية – وما المسيحية فى فكر الكاتب إلا مجموعة من القواعد الأخلاقية ، التى ينبغى ممارستها . وليس الايمان – كما هو الحال فى نظرة « بولس » – علاقة جديدة شخصية جوهرية ،

بل هو قناعة عقلية يسندها العمل الصالح . إنها فى الواقع قاموس أخلاقى جديد ، خلا من كل تعقيد (يعقوب ١ : ٢٥ ، ٢ : ١٤ ٢٥) .

وفى هذه الفترة الغامضة من التاريخ المسيحى ، كتبت بشائر الإنجيل ، ويبدو لنا أنه فى تاريخ مبكر كانت مجموعة من أقوال المسيح متداولة بين المسيحيين . وربما حوالى سنة ٧٥ — ٨٠م ظهرت بشارة « مرقس » على ما تقول التقاليدالأولى فى كنيسة رومية . ومن أقوال « مرقص » ومجموعات أخرى من الاقوال والحوادث ، كتبت بشارتا متى واوقا ، ربما بين سنتى ٨٠ ، ٩٥م ،والاولى كتبت فى أنطاكية على أرجح الاقوال . أما بشارة يوحنا ، فكان وضعها فريداً ، ويقول ثقات المؤرخين إنها كتبت فى أفسس فى الفترة بين ٩٥–١١٠م وكانت هناك بشائر أخرى لم تبق منها إلامقتطفات مبعثرة ، ولكنها لم تبلغ فى علو القدر ما بلغته هذه البشائر الأربع ، التى تألف منها الانجيل ، والتى حسبتها الكنيسة قانونية رسمية أصيلة . وهناك ذكريات وأقوال للمسيح ،لم تدمج فى بشائر الانجيل القانونية (١) ، ومرد هذا إلى الحروب اليهودية ، وإلى إنهيار الجماعات العبرانية الفلسطينية . والكنيسة المسيحية مدينة أكبر الدين إلى بشائر الانجيل ، وهى تراث مقدس عن حياة رب المسيحيه وسيدها .

---

(١) أنظر كتاب « أقوال المسيح غير المدونة فى بشائر الإنجيل » الذى صدر عن هذه الدار .



لماذا اضطهدت المسيحية ؟

[السلام الرومانى ــ اضطهاد نيرون ــ الاضطهاد فى عصر الامبراطور تراجان ــ عبادة الامبراطور] .

حين نفكر مليا فى طهور الديانة المسيحية ، وقدسية أحكامها الأخلاقية ، والبراءة والسيرة النقية التى اتصف بها من آمنوا بالإنجيل فى أول العهد — أقول حين نفكر فى هذا كله وهو حقائق تاريخية ، كنا نأمل أن يستقبل العالم الوثنى الجاحد هذه العقائد الكريمة السمحة بالتوقير والتقدير ، وأن يتغنى العلماء والحكماء والمفكرون بهذه الفضائل ، التى كانت فتحاً جديداً فى عالم البشر ، وأن ينهض الحكام وأولو الأمر والنهى ، لحماية هذا النظام ، الذى أبدى طاعة وخضوعاً للقانون ، وإن يكن قد تنحى عن الاشتراك الفعلى فى الحرب وشئون الدولة .

وحين نفكر فى التسامح الشامل فى الوثنية ، وعدم الأكتراث بالدين وعيوف الفلاسفة عن الروحيات ، والسياسة التى انتهجها أمبراطرة الرومان وأعضاء مجلس الشيوخ ، نرانا فى حيرة التساؤل حول العثرات التى تردت فيها تلك الطائفة الناشئة — وبواعث الإثارة التى أهاجت عليهم سخط عالم لم يكن متعصباً للدين .

ولا يسعنا إلا أن نتساءل : « ترى ما العوامل التى أغضبت أمراء الرومان وحكامهم ، الذين أباحوا الكثير من الأوضاع الدينية التى عاشت

فى أوساطهم ، فى غير حرج وفى سلام ووئام ؟ وما الذى دفعهم أن يوقعوا أقسى العقوبات على فريق من مواطنيهم ، اختار لنفسه نمطاً مميزاً ، مسالما ، فى الإيمان والعبادة ؟

لقد وقفت السياسة الدينية فى العالم القديم موقفاً عدائياً عنيفاً ضد المسيحية ، فما انقضت ثمانون عاماً بعد موت المسيح ، حتى كان رسل المسيح وتلاميذه الأبرياء ، قد حكم عليهم بالموت فى عهد وال رومانى اشتهر بنزعته الفلسفية وأخلاقه الإنسانية ، وعلى مقتضى قوانين سنها امبراطور تميز بالحكمة والعدل فى سياسته العامة. وقد حفلت رسائل المدافعين الذين بعثوا بها إلى خلفاء الامبراطور تراجان ، بالشكاوى المريرة الأليمة التى قالت إن المسيحيين الذين أطاعوا حرية ضمائرهم ، كانوا الوحيدين من بين رعايا الامبراطورية الرومانية ، الذين حرموا من كل المزايا ، التى أسبغتها الدولة على أبنائها . وقد سجل تاريخ الآباء الأولين حوادث الاضطهاد والاستشهاد ، بكل حرص وتدقيق ، وفى الفصول التالية ، يدور حديثنا مسهباً ، حول تلك الفظائع التى اقترفها الرومان لقتل المسيحية فى المهد .

السلام الرومانى :

قام السلام الرومانى فى ذلك العصر ، لا على البطش والقوة وحسب ، بل على الرضا والتوقير ، والاستسلام للتقاليد والممارسات التى تواضع عليها الناس سياسيا واجتماعيا ، ومن هنا كان مفروضاً أن تكشر الدولة عن أنيابها لكل طائفة من الناس تعزل نفسها عن المجتمع الإنسانى ، وتدعى احتكار المعرفة الإلهية لنفسها وتنبذ كل وضع من أوضاع العبادات الأخرى ، كأنها وثنية لا أخلاقية .

وكانت هناك جزية تفرضها الحكومة على فئات من رعاياها . ويروى التاريخ أن اليهود كانوا الشعب الوحيد الذى أبى دفع هذه الجزية فى عناد وتصلب ، ولكن الولاة الرومان تساهلوا معهم ، وأحسنوا معاملتهم . ونحن إذا عرفنا أسباب هذا التساهل ، قد نستكشف البواعث الحقيقية التى أدت إلى اضطهاد المسيحية .

لقد حرص الولاة والحكام الرومان على عدم المساس بالعبادة اليهودية فى هيكل أورشليم ، ولكن حوادث تدمير الهيكل وخراب أورشليم ، قد اقترنت بأحداث كان يصح أن يأخذها الغزاة الغالبون ، مسوغاً قانونياً للاضطهاد الدينى ، حرصاً على العدالة السياسية والأمن القومى . ولكن على نقيض ذلك ، يروى التاريخ أن اليهود بعد هزيمتهم المنكرة ، قلبوا ظهر المجن للسلطات الرومانية فى بلدان الشتات .

والمره تلو الأخرى ، ارتكبوا مذابح مروعة ومؤامرت دنيئة . وإن الإنسانية لترتعد فرائصها ، حين تذكر الأعمال الوحشية البشعة ، التى اقترفوها فى مدن مصر وقبرص والقيروان ، حيث عاشوا فى صداقة مقنعة خفية ماكرة بين الوطنيين . وكان رد الفعل ، هو قيام الجيوش الرومانية بتشديد العقاب على جنس من المتعصبين ، الذين لم يكرهوا الرومان فقط ، بل كرهوا الجنس البشرى قاطبة .

تعصب اليهود :

ومما زادهم تعصباً لدينهم ، ولددا فى عداوة الرومان ، إيمانهم بأنه لا يحق أن يدفعوا جزية لسيد وثنى ، وعقيدتهم التى استنبطوها من كتابات الأنبياء الأقدمين ، الذين وعدوهم بأن شخصاً يدعى « المسيا » ، سيقيمه

الله لتحطيم القيود ، التى كبلهم بها عاهل الرومان ، ويعيد لنسل إبراهيم أمجاد الأرض ورجاء السماء ، ومسوقا بهذه العقيدة ، جمع زعيمهم الثائر جيشاً هائلا ، قاوم به سلطان الامبراطور « هادريان » سنتين كاملتين .

وعلى الرغم من هذه الثورات العنيفة ، كان أمراء الرومان يهدأون بعد كل انتصار على اليهود ، ويسترضونهم بعد فترة الحرب . وفى عهد الامبراطور «أنطونيوس بيوس » ، أعيدت لهم امتيازاتهم القديمة ، وسمح لهم بختان أولادهم ، بشرط ألا يطبقوها على غير أبناء الجنس اليهودى . وبعد خراب أورشليم سنة ٧٠ م ، سمح لهم — وهم فى الشتات — أن ينشئوا مستعمرات عديدة فى رومية والولايات الأخرى ، وأن يكون لهم حق الحصول على الرعوية الرومانية ، وأن يعفوا فى الوقت عينه من الأعباء الثقال ، التى فرضت على المواطنين الآخرين . وإنك لترى سماحة الرومان — بل قل رغم احتقارهم لهذه الطائفة المغلوبة على أمرها — قد أجازت لهم تعيين بوليس كهنوتى . وكان لرئيس كهنتهم مقام ثابت فى طبرية ، وله سلطة تعيين رجاله وحاشيته ورسله ، وسمح له أن يمارس سلطة مدنية معينة ، وأن يتلقى من إخوانه المشتتين فى كل رقاع الأرض الهبات والإعانات .

المجامع اليهودية :

وفى المدن الرئيسية فى الامبراطورية ، قامت المجامع اليهودية ، ومارس اليهود علانية فى حرية تامة ، كل السبوت والأصوام ، والأعياد ، والمواسم ، التى فرضتها شرائع « موسى » وتقاليد الأحبار . وكان لهذه المعاملة اللينة أثرها فى ترويضهم والعدول عن التمسك الأعمى بأحلام الأنبياء، وشهوة الفتح والغزو ، وصاروا من الرعايا المسالمين النشطين فى الحياة العملية ، وعوضاً عن كراهيتهم للجنس البشرى ، وإثارتها فى العنف

وسفك الدماء . راحوا يشبعون رغباتهم بأساليب أخرى ، واهتبلوا كل فرصة لمنافسة مواطنيهم فى التجارة وكسب المال : وهم فى هذا أمراء الحذق والدهاء .

اليهود أمة والمسيحيون طائفة :

و ن كان اليهود الذين نبذوا فى احتقار الآلهة التى عبدها مواطنوهم ، واستمتعوا بالحرية فى ممارسة دينهم غير الاجتماعى ، فلا بد أن تكون هناك أسباب أخرى ، عرضت تلاميذ المسيح للبلايا الماحقة ، التى أعفيت منها سلالة « إبراهيم » ، والفرق بين الفئتين بين واضح ، وله وزنه الخطير فى نظر الأقدمين . فاليهود كانوا « أمة » ، وأما المسيحيون فكانوا «طائفة» وقد تكون شرائع « موسى » سخيفة فى نظر الرومان ، ولكن ما دام قد مارسها مدى أجيال فريق من المجتمع مسلم بوجوده ، وبكيانه المستقل ، جاز لسلالاته أن تحتفظ بعاداتها – وتقاليدها وعباداتها ، فى حرية واستقلال ، دون إعنات من السلطة القائمة فى أى عصر . وهذا المبدأ القانونى الذى احتمى به المجمع اليهودى ، لم يصلح تطبيقه على الكنيسة الفتية الناشئة . وذلك لأن المسيحيين باعتناقهم هذا الدين الجديد ، اقترفوا – فى نظر مواطنيهم إثماً خطيراً ، من حيث أنهم تحللوا من الربط التى جرى عليها العرف ، والثقافة ، وخالفوا أحكام المؤسسات الدينية فى وطنهم ، واحتقروا ما آمن به مواطنوهم ، وحسبوه حقاً مقدسا .

وقد نبذ المسيحيون إجماعا ، كل علاقة بآلهة رومية والامبراطورية والجنس البشرى كله ، ولذلك ثارت ثائرة الوثنيين ، وفى تعصب أعمى وحقد مرير ، صوروا المسيحيين أمام الشعب جماعة من الكافرين الملحدين ، تهجموا على الدستور الدينى للامبراطورية ، ولذلك استباحوا دماءهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وعبادتهم .

ومما زاد ذهول الوثنيين وعملاء الامبراطورية ، أن يهجر المسيحيون هياكل الأبطال الأقدمين ، الذين ابتكروا الفلسفة والفنون والآداب ، وسنوا الشرائع والأحكام ، وقهروا العتاة الظالمين ، ويستعيضوا عن هذا كله فى عبادتهم ، بمعلم مغمور نبت فى شعب بربرى حقير ، وصلب كمجرم بأيدى مواطنيه ، الذين استعدوا عليه السلطة الرومانية .

اضطهاد « نيرون » :

حمل الرسل وعلى رأسهم « بولس » ـ الدعوة إلى أرجاء الامبراطورية الرومانية ، وغرسوا فى أماكن متفرقة هنا وهناك ، بذار جماعات مسيحية قليلة العدد فى أول أمرها . وانتقل هذا الدين الجديد من أورشليم إلى حواضر الامبراطورية ـ فبلغ رومية والاسكندرية حوالى منتصف القرن الأول ... وبين هاتين المدينتين الكبيرتين ، إنتشرت الكنائس فى اليونان ومكدونية ، وآسيا الصغرى ، وسورية . وفى أول الأمر حسبت السلطات الرومانية الديانة المسيحية كطائفة من اليهودية ، التى كانت بمنجاة من الاضطهاد ، للأسباب التى فصلناها ، ويبدو لنا أن العداء الذى أظهره اليهود للمسيحية ، جعل الفرق بين الدينين واضحاً ، وزاد الوضع إيضاحاً فى عهد « نيرون » الامبراطور الطاغية (سنة ٦٤ م) . وفى السنة العاشرة من حكمه ، شب حريق مروع لم تعهده البلاد من قبل ، وأتى هذا الحريق على آثار الفنون اليونانية والرومانية ، والهياكل المقدسة ، والقصور الفخمة . ويقال إن أربعة فقط من أحياء المدينة الأربعة عشر نجت من الدمار ، وثلاثة منها سويت بالأرض ، والسبعة الباقية أصابها الدمار والخراب . ولم تقف الحكومة مكتوفة اليدين أمام هذه النكبة ، ولكى يتقى غضبة الشعب ، فتح « نيرون » أبواب حدائقه للجماهير المنكوبة ، وأقيمت الأبنية سراعاً ، ووزعت المواد الغذائية بأسعار معتدلة . وكما

يحدث عادة فى عهود الرخاء والازدهار ، شيد القوم فى سنوات قلائل ، رومية الجديدة ، التى فاقت الأولى جمالا وروعة . على أن كل هذا لم ينف التهمة عن « نيرون » ، بأنه هو الذى أحرق عاصمة بلاده ، وهو الذى قتل أمه وزوجته من قبل ، وعشق غلاماً رومانيا وتزوجه ، وتردى فى أبشع صنوف التبذل والإباحية والفساد ، وقيل إنه كان يغنى أثناء الحريق نشيد خراب طروادة على قيثارته .

ولكى يبعد الامبراطور التهمة عن نفسه ، ألصقها بطائفة المسيحيين ، وفى هذا يقول « تاسيتوس » المؤرخ الرومانى :

« وبهذه التهمة أخضع « نيرون » المسيحيين لأبشع صنوف التعذيب ، وهم أولئك الذين استمدوا اسمهم وأصلهم من المسيح ، الذى مات فى عهد الامبراطور « طيباريوس » ، بمقتضى حكم أصدره الوالى الرومانى « بيلاطس البنطى » . وكانت تلك الطائفة قد انتشرت فيما وراء حدود أورشليم مهدها الأول ، وبلغت رومية ، البالوعة التى تستقبل وتحتضن كل ما هو فاسد ، وكل ما هو فظيع قاس . وقد كشفت اعترافات المقبوض عليهم جمهوراً غفيراً من الزملاء والخلان وحكم عليهم ، لا من أجل جريمة حرق رومية ، بل من أجل كراهيتهم للجنس البشرى ، وقضى كثيرون منهم بعد تعذيب مريع وإهانات مكروهة . فبعضهم سمر على الصلبان ، وبعضهم وضع داخل جلود الحيوانات المفترسة ، وتعرضوا لنهش الكلاب . وآخرون لفوا فى مواد ملتهبة ، وعلقوا على مشاعل لإنارة حدائق القصر ، التى أقيم فيها فى ذلك اليوم حلبات لسباق الخيل ، التى أحضرها الامبراطور نفسه ، وقد اختلط بالشعب مرتديا ثياب فارس مغوار . على أن جماهير الشعب لم تلبث طويلا حتى انكشف لها أن تضحية أولئك التاعسين ، لم

تكن للخير العام ، بقدر ما كانت نقمة دنيئة من ظالم حاسد خؤون . وذلك لأن تحقيقاً جرى فى التهمة الكاذبة وثبتت براءة المسيحيين من تهمة الحريق ، ولكنهم وجدوا مذنبين لكراهيتهم الجنس البشرى كله . وإنه لعجيب حقاً أن يبدو دين المحبة فى نظر الرومان ، دين الكراهية ، والأعجب أن يكون الرومان هم الذين ينطقون بهذا الحكم .

ولكن اللهب التى تسعرت فى عاصمة العالم فى ذلك الزمن ، واللهب التى اكتوت بها أجساد المسيحيين الشهداء ، هذه اللهب وتلك ، كانت بمثابة أنوار وهاجة تقدمت الكنيسة لتتخذ مكانها الرفيع فى تاريخ العالم .

وتلك القصور وتلك الحلبات التى شيدها الطاغية فوق تلة الفاتيكان ، والتى ارتوى أديمها بدماء المسيحيين ، إندثرت من الوجود ، وقام على البقعة عينها بعد إنتصار الكنيسة المسيحية المضطهدة ، هيكل عظيم ، يفوق فى روعته وجلاله أمجاد الكابيتول ، وقصر سيد الرومان ، أطلقوا عليه اسم صياد وضيع مغمور من صيادى بحر الجليل — « القديس بطرس » — وقد امتد سلطانه الروحى إلى كل أرجاء المعمور .

الاضطهاد فى عصر الإمبراطور « تراجان » :

رسخ الاعتقاد فى نفس الرومانى ، أن مدنيته وامبراطوريته ستبقيان أبد الدهر . هذه كانت عقيدة الوثنية . ولكن المسيحى آمن فى قرارة نفسه ، بأن المدنية العظيمة ستدمر ، وأن الامبراطورية — بل العالم كله سيزول . وآمن بأن المملكة الوحيدة الخالدة هى مملكة المسيح — ملكوت الله — والحق أن الكنيسة الأولى آمنت بأن نهاية العالم قريبة على الأبواب ، وذلك لأن التلاميذ الأول ، رأوا المسيح الذى قام من الأموات ، واقتنعوا بأنهم سيرونه فى حياتهم الأرضية مرة ثانية ، آتياً فى مجد وجلال ، ليدمر

نظام الأشياء الأرضية ، ويدين الأحياء والأموات ، وتوقعوا سقوط مملكة رومية ، ليقوم على أنقاضها ملكوت الله . ومن هنا كانت خيانتهم لوطنهم فى عرف الرومان ، ومن هنا كانت كراهيتهم للامبراطورية الرومانية .

وكانت الدولة فى نظر العالم الوثنى القديم ، الخير الأسمى ، والمثل الأعلى . ففى خدمتها والولاء لها ، تمثلت كل الفضائل الأدبية . لذلك استعار العالم الرومانى عبادة الامبراطور من بعض العبادات الشرقية القديمة ، وجعلت الوثنية هذه العبادة أسمى مظاهر الإخلاص والولاء .ففى الامبراطور الرومانى تجسمت فكرة الدولة . وكان المذبح الذى أقيم لعبادته رمزا للقوة الأدبية العليا فى الدولة .

عبادة الامبراطرر :

على أن هذه العبادة حسبها المسيحيون وثنية لا يمكن أن تأتلف مع دينهم الجديد ، وذلك لأن أسمى الأشياء فى نظرهم لم يكن قيصر العظيم الرفيع الشأن ، ولا الإمبراطورية الرومانية القاهرة ، ولا الشعب الرومانى النبيل ، بل كان شيئاً آخر ، ليس من هذا العالم . وقدجاءت المسيحية بنظرية جديدة فى التاريخ تحدت جميع النظريات الأخرى ، نظرية سفهت كل قيم الأشياء الأرضية إذاقورنت بالأشياء السماوية ،وأعطت ما لقيصر لقيصر ، ولكنها أعطت أيضاً ما لله لله . وهذه النظرية الجديدة قد جعلت المسيحية الدين العالمى الجديد . فبينا أغلقت اليهودية على نفسها دون العالم الخارجى ، وتحصنت بمواعيدها وعقائدها التى جعلتها وقفاً عليها دون سواها ، وبينا لجأت النظم الفلسفية إلى عقول العلماء والمفكرين ، جاهرت المسيحية فى أول عهدها بقدرتها على غلبة العالم وقهره ، فخرجت إلى الطرقات والأسواق حاملة رسالتها وسحر نفوذها ، فبدلت متجهات التفكير التى حسبها القوم دعائم الخير العام .

لهذا السبب كانت المسيحية خطراً على الدولة فى العرف الوثنى القديم ، ذلك لأنها طعنت أسس الدولة القديمة التى زعمت أن لها الحق فى تنظيم أحوال الفرد الداخلية والخارجية بما لها من قوة لا منازع لها فيها ، وقوضت أركان تلك الفضائل التى استندت إلى أن الدولة هى المثل الأعلى للخير الأسمى . وما فورات نيرون الصاخبة ، وما أحقاد الجماهير الوثنية العمياء نحو المسيحيين ، إلا مظاهر غريزية رسمت أوضاعها الفكرة السياسية القديمة عن الدولة حين أحست أن وجودها معرض للخطر .

بهذا المعنى كان المواطن المسيحى الرومانى عدواً للدولة ، فاتهم بالخيانة العظمى بسبب آرائه ومعتقداته ، واستوجب الموت فى نظر القانون . وظلت الجماعات المسيحية ناهضة بأعباء ثقال خلال القرون الثلاثة الأولى تحت ضغط عنيف يفرضه قانون العقوبات . ومن خطل الرأى أن نتصور أن الاضطهاد يستمر دون انقطاع فى خلال هذه الفترة الطويلة ، فالواقع أن هذا القانون العنيف لم ينفذ إلا فترات متقطعة تبعاً لأهواء الحكام ونزواتهم . وتخلل الاضطهاد فترات كان فيها شىء من التسامح العملى . وقد كان الاضطهاد فى الفترات الأولى محلياً ذا صبغة محدودة . فإذا اهتاجت عامة الشعب بسبب وباء أو قحط أو نار ، أو إذا جن أحد ولاة الأقاليم ورأى أن ينفث سموم كيده وخبثه فى المسيحيين ، أو إذا تحدى المسيحيون أنفسهم عامة الشعب وأذكوا فى صدورهم نار المقاومة — كان يشتد الاضطهاد تارة هنا وأخرى هناك . فحريق رومية مثلا كان حجة لاضطهاد المسيحيين فى عصر نيرون ، ولكنه لم يلحق بغير المسيحيين فى رومية . وكذلك قضى أغناطيوس أسقف أنطاكية شهيداً (حوالى سنة ١١٥ م) وختم بوليكارب أسقف أزمير حياته بالدم (حوالى سنة ١٥٥ م) . وثار فى عهد الامبرطور مرقس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠ م) ذلك الاضطهاد الدموى العنيف فى بلاد الغال الجنوبية

الذى كان من بين ضحاياه عدد لا يحصى من أعضاء الكنيسة المسيحية فى ليون (سنة ١٧٧ م) .

الإمبراطور سفروس :

وفى عهد الإمبراطور سيفروس منع اعتناق المسيحية بقوة القانون(٢٠٢م). واضطرمت نيران الإضطهاد فى مصر وفى بعض ولايات أفريقية . على أنه يمكن القول مع هذا كله إنه إلى أواسط القرن الثالث لم يكن الاضطهاد عاماً شاملا جميع المسيحيين . وكان للكنيسة المسيحية فى أرجاء الأمبراطورية الرومانية الواسعة الأرجاء فسحة من الزمن للرقى والتقدم على الرغم من المشاحنات العنيفة التى هزت أركان بعض الجماعات فى رقاع مختلفة .

ولكن يصح القول كمبدأ عام ، أن اعتناق المسيحية كان فى القرن الأول يعرض المرء للموت على أى حال ، وكان هذا فى حد ذاته كافياً لإقامة التهمة على أى فرد. وظل هذا المبدأ سارياً حتى فى الفترات التى تهاون القوم فيها فى تنفيذه ، واتخذه الكاهن الوثنى ، أو تاجر الأوثان الذى بارت تجارته ، أو الوالى الشرير الخبيث ، أو الجار الحاسد الناقم ، أو العدو المنتقم — حجة لجر غريمه إلى الموت بسبب مسيحيته . فالشهيد يوستن — وهو فيلسوف اعتنق المسيحية — جزت رأسه فى رومية بإيعاز مؤلف منافس له لم يستطع مباراته فى الإنتاج الفلسفى . ولم يستطع التاريخ أن يحصى عدد الشهداء الذين ذهبوا ضحايا هذا القانون الجائر . والذى حمل يوستن هذا على اعتناق المسيحية ما شهده من الشجاعة والبسالة والبطولة التى غالب بها المسيحيون الموت فى سبيل عقيدتهم . وكان الوثنى يخشى الموت ويرهبه ، بينما حسبه المسيحى ربحاً وكسباً . وقد تبدت قوة المسيحية الأدبية للعالم الوثنى — قبل أى شىء آخر — فى تلك الشجاعة الباسلة التى لاقى بها المسيحيون الموت ،

شجاعة تحدت الموت ، لا بروح الاحتقار والازدراء ، ولا بروح الاستهتار عدم الاكتراث كما فعل الرواقيون ، بل بروح الرجاء والانتصار . وقد كان الإيمان القوة الوحيدة التى خاضت بها المسيحية بحر العداوة والدماء ، ولكنها قوة غلبت العدو وقهرته .

وقد نظمت الإجراءات ضد المسيحيين لأول مرة فى عهد الامبراطور تراجان (سنة ١١٢ م) . فكانوا يضطهدون ويحكم عليهم لتهمة خاصة ، لا بسبب مسيحيتهم . وظل هذا القانون معمولا به إلى أواخر القرن الثالث . على أن هذا القانون ، وإن بدت عليه فى ظاهره مسحة التسامح ، فإنه انطوى على فكرة خبيثة . وذلك لأنه أباح الحرية للمسيحى إذا ارتضى أن يقدم بخوراً لتمثال الإمبراطور ، أما إذا تأبى فانه يعرض نفسه لحكم الموت . فكأنما جثمت وراء هذا اللين الظاهرى قسوة شريرة . وكانت التجربة رهيبة مريعة ، فان كثيرين من ذوى العزائم الخائرة استسلموا إليها . وقد ظن بلينى حاكم ولاية بثنية ، الذى أشار بوضع هذا القانون ، أن فيه القضاء على المسيحية . وذلك لأن المسيحى إذا تمنع عن تقديم البخور لتمثال الإمبراطور ، يحكم عليه بالموت ، لا بسبب مسيحيته فى الظاهر . ولا بسبب سلوكه الشخصى ، بل بتهمة الخيانة العظمى للدولة . وكانت أدلته فى اتهام المسيحيين تدور كلها حول هذه الخيانة بالذات ، دون تعرض للعقيدة . وفى هذا من المكر والخداع والقسوة المهذبة ما يغنى عن البيان . والواقع أن اضطهاد الدولة لم يوجه إلى عمل معين بالذات ، ولا إلى جريمة محدودة المعالم ، بل إلى عقيدة — هى المسيحية التى أبت عبادة أى شىء أرضى ، ولو كان هذا الشىء هو الدولة الرومانية . وقد دلت الاجراءات التى اتخذت ضد المسيحيين ، بالأوضاع التى شرحها قانون تراجان ، على أن الدولة الوثنية

بادعائها أنها هى المثل الأدبى الأعلى — قد أضرمت حرباً شعواء فى وجه المسيحية .

القديس اغناطيوس

وفى عصر تراجان هذا استشهد رجل من أبرز رجالات المسيحية فى القرن الأول ، وأشهر أحبارها ، وأجل الرسوليين الأولين — هوالقديس أغناطيوس أسقف أنطاكية السورية . وكانت قد حلت بالبلاد بعض النكبات ، فثارت ثائرة الشعب وأخذ يتصايح ضد المسيحيين بحجة أنهم أغضبوا الآلهة .

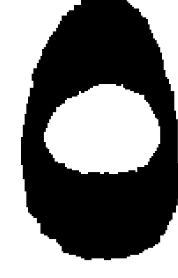
وقد أطلق على هذا الحبر المسيحى الجليل « أغناطيوس ثاوفرس » (أى حامل الإله النورانى) وهو ثالث أساقفة أنطاكية . ويقال إنه سريانى المحتد ، وتقول التقاليد إنه هو الطفل الذى أقامه المسيح فى وسط تلاميذه ليعلمهم أمثولة فى البساطة والتواضع .

وقد تتلمذ للقديس بطرس ثم ليوحنا الرسول ، وأقامه الرسولان بطرس وبولس أسقفاً على كرسى أنطاكية ، وخلف القديس أفوديوس فيه حوالى سنة ٦٨ ب. م. فدبر الكنيسة الأنطاكية نحواً من أربعين سنة ، ناهجا مناهج الرسل القديسين ، واشتهر بنشر الدعوة المسيحية فى سورية فى وقار ورسوخ فى العلم وسمو فى الفضائل .

على أن العاهل الرومانى تراجان زعم أنه من حسن السياسة أن يجارى الدهماء فى شعورهم وخرافاتهم ، ويوجه ضربته إلى زعيم المسيحيين استرضاء لصيحات الرأى العام . ولذلك ألقى القبض على أغناطيوس وجىء به أمام محكمة الإمبراطور .

ومن تبادل حديث مأثور معه أصدر الإمبراطور حكمه وهذا نصه :
« بما أن أغناطيوس قد اعترف بأنه يحمل فى صدره ذاك الذى صلب ، فاننا نحكم عليه بأن يربط ويرسل إلى رومية العظيمة مخفوراً ، وهناك يطرح أمام الوحوش الضارية لتسلية جماهير الشعب » .[1]

(١) ارجع إلى كتاب « عشرون قرنا » للمؤلف لتقرأ وصفاً رائعاً لاستشهاده .



سر الانتصار والانتشار

[انتصار الحق على الباطل ــ أسباب ثانوية لانتشار المسيحية : حماس المسيحيين الأولين فى نشر الدعوة ــ عقيدة الخلود ــ الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية ــ سمو الأخلاق المسيحية ــ قوة نظام الجماعات المسيحية ــ البيئة اليهودية ــ فضل المسيحية على هذه البيئة] .

بزغت أنوار المسيحية على عالم رومانى رفع ألويته على رقاع الشرق والغرب ، وكانت الإمبراطورية الرومانية قد بلغت أوج مجدها ، وراحت تهددها من الشمال قوى برية غاشمة ــ وتنخر فيها من الداخل عوامل الفساد والاضمحلال ، وتسير فى أوصالها سيراً بطيئاً قاتلا ، وإبان هذه الفترة من التاريخ ، يبزغ فى النور دين يتسرب إلى عقول الناس ضعيفاً هادئاً ، يستمد قوته ونشاطه من الاضطهاد والمعاناة ، حتى يبلغ أخيراً النصر المبين ، ويرفع راية الصليب على أنقاض الكابيتول الرومانى . ولم يقتصر مجد المسيحية على فترة التاريخ الرومانى ، فما تنقضى أربعة عشر قرناً ، حتى كان ذلك الدين قد تسلط على شعوب أوربا كلها ، بعد أن غزا بلدان الشرق وتأصلت فيها جذوره ، وحمل دعاته رسالته إلى كل أصقاع الدنيا فى أفريقية وآسيا وجزر البحر النائية .

أسباب ثانويه لانتشار المسيحية :

ومما لا شك فيه أن الله ذاته قد أراد أن ينتصر حقه على أباطيل البشر ، ولكن هناك أسباباً ثانوية كان لها بعض الفضل فى هذا الانتشار ، ونلخصها فيما يلى :

١ — حماس المسيحيين الأولين فى فجر المسيحية ، وثبات إيمانهم ، وعزيمتهم فى نشر الدعوة .

٢ — عقيدة الخلود وحياة المستقبل ، التى بثت فى نفوس البشر المائتة — رجاء جديداً فى حياة أخرى بعد الموت .

٣ — الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية التى سادت ذلك العصر .

٤ — سمو الأخلاق التى اتصف بها المسيحيون فى فجر المسيحية ، والتى جعلتهم صنفاً ممتازاً من بنى الإنسان .

٥ — قوة نظام الجماعات المسيحية التى ما لبثت طويلا حتى أضحت دولة مستقلة متزايدة فى قلب الإمبراطورية الرومانية .

وسنعالج هذه الأسباب فى إيجاز :

١ — حماس المسيحيين الأولين فى نشر الدعوة .

البيئة اليهودية :

كنا نرى فى العالم القديم تناسقا دينيا عجيبا بين الشعوب ، وكان بعضها يقترض من بعض عقائد وممارسات وخرافات ، وكان بعضها يحترم عقائد البعض الآخر . وقلما شهد التاريخ فى الأزمنة الأولى تعصباً للدين أو العقيدة ، ولكن شعباً واحداً أبى كل الإباء أن يشترك فى هذا التزاوج الدينى المشترك

بين الجنس البشرى . فاليهود الذين خضعوا لصولجان الأشوريين والفرس فترة من الزمن ، ذاقوا فيها مرارة العبودية والأسر ، خرجوا من هذا المأزق فى عصر الإسكندر الأكبر ، وتكاثر عددهم فى الشرق بل وفى الغرب أيضاً ، وفى كل مواقعهم أبدوا عناداً مكمداً فى الاحتفاظ بطقوسهم الخاصة وعاداتهم وتقاليدهم ، وظهروا جنساً مميزاً ، اعترفوا جهرة أو أخفوا دهاء ومكراً ، كراهيتهم واحتقارهم لسائر الجنس البشرى . فلاقسوة أنتخوس البطليموسى الذى رش دم خنزير فى مقادس هيكلهم ، ولا ألاعيب هيرودس الأدومى ، الذى حاول استرضاءهم بشتى الأساليب ، ولا سماحة الرومان وتساهلهم معهم ، استطاعت أن تقنع اليهود باشراك الآخرين معهم فى ناموس «موسى» ، وجرى ذلك الحماس الأعمى والولاء العنصرى الدينى فى مجرى ضيق خانق ، حتى صار تيارا مزمجراً غاضباً ، جلب عليهم فيما بعد الويلات والمحن التى بددتهم فى أنحاء الأرض فى تاريخهم اللاحق .

والحق أن دين اليهود يلائم الدفاع — ولم يقصد به أن يكون ديناً للفتح والغزو — ولم يكن مسموحاً لهم أن يتزاوجوا مع الشعوب الأخرى ، ولا أن يعتمدوا معهم أية اتفاقات أو تحالفات ، ولم يفرض عليهم فى ناموس «موسى» ، أن يدعوا الآخرين إلى اعتناق دينهم ، وارتضت سلالات «إبراهيم» أن يحسبوا أنفسهم — دون سواهم — ورثة العهد ، وشعب الله المختار ، وظنوا أن إشراك الغرباء فى هذا العهد يحط من قدره ويسىء إلى كرامة صاحب العهد .

فضل المسيحية :

فى هذه البيئة ، وتحت هذه الظروف ، نبتت المسيحية مسلحة بقوة الشريعة اليهودية ، ولكنها بمنجاة من قيودها وأحكامها الثقيلة : وبقى فى

المسيحية ذلك الحماس للدين وللوحدانية الإلهية ـ كما كان فى النظام القديم ، وقبلت فى مبادئها شريعة « موسى » والأنبياء ، وإتخذهم القوم أساساً جوهريا لدعوتهم الجديدة . وخيل للناس أن المسيحية إن هى إلا طائفة جديدة من اليهودية ، وقد استبدلت الطقوس والممارسات اليهودية بعبادة روحية نقية توائم كل الأصقاع وكل أجناس البشر .

أما العهد الذى استمسكت به سلالات « إبرهيم » وقفاً عليهم ، وحكراً لهم ، فقد أعلن فى المسيحية الناشئة للأحرار والعبيد ، لليونانيين والبرابرة ، لليهود والأمم ، وإنفتح الباب على مصراعيه للجميع دون تمييز ، وصار فرضاً مقدساً على كل دخيل إلى المسيحية ، أن يذيع بين ذوى قرابته وأصدقائه بشرى البركة التى ينعم بها فى دينه الجديد .

وتاريخ كنيسة أورشليم أقوى دليل على الأثر العميق الذى طبعته اليهودية على المسيحية الناشئة ، فالخمسة عشر أسقفا الأوائل فى أورشليم ، كانوا كلهم يهودا مختونين ، والجماعات التى كانت تحت رعايتهم ، جمعت بين شريعة موسى وتعاليم المسيح . وكان من الطبيعى أن تقبل التقاليد البدائية فى كنيسة أسست بعد موت المسيح بأربعين سنة فقط ، وتولى أمرها رسل المسيح سنوات طوالا ـ نموذجا للمسيحية المحافظة . وكان من عادة الكنائس فى المناطق البعيدة أن تسترشد بسياسة الكنيسة الأم ، وتمد يدها لإسعافها فى محنتها بعطاياها وهداياها ... ولكن بعد أن تأسست الجماعات الغفيرة فى مدن الامبراطورية الكبرى ، فى أنطاكية والاسكندرية وأفسس وكورنثوس ورومية ، قل الإلهام الذى كانت تستوحيه من أورشليم وسرعان

ما أحس المتنصرون اليهود ، الذين وضعوا أسس الكنيسة أنهم أقلية وسط الجماعات الغفيرة المتزايدة ، التى هرعت من الوثنية إلى أحضان المسيحية تحت راية المسيح ،وخلع هؤلاء عن أكتافهم ثقل الشريعة اليهودية والطقوس الموسوية ، وراحت فى حماس منقطع النظير ، تنشر رسالتها فى أرجاء العالم .

٦

عقيدة الخلود وحياة المستقبل

[الخلود فى نظر الفلاسفة ـــ مدارس الفكر المختلفة لم ترحب بالنظرية الفلسفية ـــ خلو اليهودية الأولى من عقيدة الخلود ـــ اعتناق الفريسيين لهذه العقيدة] .

إن كتابات الفيلسوف «شيشرون» الرومانى ، تصور بألوان براقة الجهل والأخطاء والريب التى أوغلت فيها فلسفات الأقدمين عن خلود النفس البشرية ، وحين أرادوا تطمين أنصارهم وأتباعهم من خشية الموت ، عمدوا إلى موقف كئيب ، فقالوا إن الصدمة القاضية فى الانحلال والفناء ، تريحنا من متاعب الحياة ونكباتها ، فان الذى لا وجود له ، لا يمكن أن يحس بالألم على أنه كان بين فلاسفة اليونان وروما ، قلة من الحكماء ، مالوا إلى موقف أرقى وأرفع ، واعتنقوا فكرة أكثر نبلا عن الطبيعة البشرية . وحتى هنا لا مناص من القول إنهم فى سعيهم الفكرى الراقى ، إقترنت مطارحهتم ـــ العقلية ، بكثرة من الخيال المصحوب بالغرور والخيلاء ، وذلك لأنهم حين نظروا إلى قدراتهم العقلية ومواهب ذاكراتهم وقوى إدراكهم ، وحين اشرأبت نفوسهم إلى الشهرة التى ستخلد أسماءهم فى بطون التاريخ ، إلى ماوراء حدود الموت والقبر ، حين فكروا فى كل هذا ، لم يسعهم أن يحشروا أنفسهم مع الحيوانات العجماوات ، أو يفترضوا أن مخلوقاً رفعوه إلى مرتبة الكرامة وأعجبوا به كل الإعجاب ، يمكن أن تحتويه حفرة من

الأرض فى آخر المطاف ، وأن يقتصر وجوده على فترة من الزمن محدودة . وهنا راحوا يستعينون بالعلم أو بلغة الفلسفة العقلية ، وسرعان ما اكتشفوا أن خواص المادة لا تنطبق على خواص العقل ، من ثم لابد أن تكون الروح من جوهر غير قابل للفناء وهى جوهر روحى ، طاهر ، لا يتطرق إليه الفساد ، وجدير بأن يرتفع إلى مرتبة عليا من الفضيلة والسعادة بعد إنطلاقه من هذا السجن المادى الجسدى . ومن هذه المبادىء النبيلة البعيدة الأفق استنتج الفلاسفة الذين اقتفوا خطى « أفلاطون » ، نتائج لا مسوغ لها ، وأفرطوا فى متجهات نفكيرهم ، فلم يقتنعوا بخلود النفس فى المستقبل ، بل زعموا أن النفس أزلية أيضاً ، تتمتع بكيان مستقل قائم بذاته ، وهو الذى يسند الكون كله .

مدارس الفكر لم ترحب بهذه النظرية :

وعقيدة كهذه تبتعد عن الحواس وكل اختبار بشرى قد تكون كافية ، ليلهو بها العقل الفلسفى فى أوقات فراغه ، وقد تدخل وميضا من العزاء إلى الفضيلة اليائسة ، إذا ما خلا المرء إلى نفسه فى أوقات سكونه ، على أن مدارس الفكر المختلفة لم ترحب بهذه العقيدة ، وسرعان ما تبخرت آثارها فى زحمة الحياة العملية ، والمشاغل التجارية بين الناس . وحسبنا أن نلقى نظرة على مشاهير القوم الذين عاصروا «شيشرون» وإلى تصرفات القياصرة الأولين والعظماء والمفكرين ، وإلى أخلاقهم وبواعثهم ، لنرى أن حياتهم لم تتأثر إطلاقاً بعقيدة الثواب والعقاب فى حياة مستقبلة . ومن اليسير أن نسمع خطباء ذلك الزمن وهم لم يجدوا عثيرة فى صدم أسماع الناس بقولهم ، إن تلك العقيدة بليدة سخيفة يجب أن ينبذها باحتقار كل امرىء حبته الطبيعة بثقافة حرة وإدراك سليم .

ومادامت الجهود السامية التى بذلتها الفلسفة لم تقو على إشباع الرغبة الإنسانية ، وتقوية الرجاء فى حياة مستقبلة للنفس البشرية ، لم يبق إلا أن يأتى هذا اليقين من وحى إلهى يؤيد هذا الوجود فى المستقبل ، ويصف ذلك الموطن غير المنظور ، الذى كان مقدراً له أن يستقبل أنفس البشر بعد انفصالهم عن الجسد . ولم تقو ديانات اليونان وروما على القيام بهذه المهمة .

خلو اليهودية من عقيدة الخلود :

وكنا نأمل بطبيعة الحال أن مبدأ كهذا ، يعتبر جوهرياً بالنسبة للدين يعلن بعبارات واضحة لشعب الله فى القديم ، وأن يوكل أمره لأنسال كهنوت « هارون » . ونحن لا يسعنا إلا الخضوع لأحكام الله الغامضة ، حين نرى أن عقيدة خلود النفس ، حذفت تماما من ناموس « موسى » ، ولم تذكر إلا بصورة باهتة جداً فى عصر الأنبياء ، وفى خلال الفترة الطويلة الأمد ، التى انقضت بين العبودية فى مصر والعبودية فى بابل . ويبدو لنا أن آمال اليهود ومخاوفهم ، قد انحصرت فى المجال الضيق على هذه الأرض . وبعد أن أطلق « كورش » — الفارسى سراح الأمة الأسيرة ، وسمح لهم بالعودة إلى وطنهم ، وبعد أن أعاد « عزرا » الأحكام القديمة فى دين الشعب ظهرت فى أورشليم طائفتان ، هم الفريسيون والصدوقيون . وهؤلاء الأخيرون قد انتخبوا من علية القوم ووجوه المجتمع وأثريائه ، واستمسكوا بناموس « موسى » حرفيا ، ونبذوا عقيدة خلود النفس ، التى لم يأت لها ذكر فى الوحى الإلهى ، الذى حسبوه الركن الوحيد لإيمانهم . أما الأولون — أى الفريسيون — فقد أضافوا إلى سلطان الأسفار المقدسة الأحاديث المتواترة ، وقبلوا عدة أحكام ووصايا من فلسفة دينهم ، أو أديان الشعوب الشرقية . وإنك لواجد فى عقائد إيمانهم ، عدة مواد مثل الإيمان بالقضاء والقدر

والملائكة والأرواح ، وحياة أخرى تحفل بألوان من الثواب والعقاب . وقد هرع إلى هذه الطائفة عامة الشعب ، والجماهير الغفيرة ، لما اشتهروا به من التقشف والتدين ، وإخضاع أنفسهم لكثرة من أحكام الدين القاسية . ولئن كانوا قد تمادوا فى هذا المضمار إلى حد بعيد . وبعد أن قبلوا فى إيمانهم عقيدة الخلود ، أبدوا فى الاحتفاظ بها والغيرة لها ، ما اشتهرت به هذه الأمة من تعصب وتزمت فى الاجتهاد والتأويل . على أن عقيدتهم لم تضف شيئا إلى أدلة الخلود ، وبقى هذا كله ، أن تتأيد هذه العقيدة التى أملتها الطبيعة ، ورقاها العقل ، واستراحت لها ضمائر البشر ، بحق إلهى ودليل ساطع فى أمثال المسيح وتعاليمه .

٧

الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية

[العظمة الرومانية فى فجر المسيحية ــ مزايا اليونانية ــ فشل الثروة المــادية والثقافة العقلية ــ عالم ضيق آخر ــ رجاء المسيا] .

العظمة الرومانية :

فى فجر المسيحية كانت الامبراطورية الرومانية قد بلغت أوج مجدها وعزها ، وازدهرت الحياة فى الأقاليم والولايات تحت سلطان حكومة مركزية رشيدة ، وخضع الجيش كله لإرادة حديدية واحدة ، وساد السلام والأمن فى داخل الإمبراطورية ، وإن يكن « سلاماً رومانياً Pax Romana » فرضته القوة والبطش . ونشطت التجارة فى طرق ممهدة معبدة امتدت من الشرق إلى الغرب كما تقدم القول فى فصل سابق .

وإلى جانب العظمة الرومانية كنت ترى الثقافة اليونانية التى مالت إلى تحكيم العقل فى كل حقائق الحياة والعالم ، وتعشقت الفن والجمال والشعر والفلسفة ، وجالت جولات صادقات حول وظيفة الدولة وواجباتها ، والحرية ومعانيها ، وواجبات الفرد وحقوقه .

مزايا اليونان :

وبينما امتاز الرومانى فى القرن الأول بالقوة المادية والطموح إلى العظمة والجاه وبسط النفوذ وسعة السلطان وتعبيد الطرقات ، كان اليونانى مثال الأناقة فى الصناعة ، والجمال فى الفن ، والتعمق فى الفلسفة العقلية .

ولقد مهد الرومانى — وهو لا يدرى — الطريق إلى المسيحية بشرائعه الحكيمة ، وطرقاته المعبدة ، وإدارته الحازمة ، وعبقريته السياسية ، ومرونته المدهشة ، كما مهدها اليونانى بعقليته الباحثة المنقبة ، وفلسفته العميقة ، وتفكيره الحر ، ولغته العذبة ، وميله إلى الإقناع والإقتناع ، وتعشقه طريق الحياة الجميلة والآداب الإنسانية الرفيعة .

فشل الثروه المادية والثقافة العقلية :

ولكن تلك الثروات المادية عند الرومان ، والثقافة الذهنية عند اليونان ، قد أعوزها الخير الأسمى ، لأن انحلالا روحياً كان قد انساب إلى أنفس البشر ، ذلك لأن الآلهة القديمة قد نزلت من فوق عروشها ، وخلت هياكل جوبيتر وأبولو من ذلك الإيمان الساذج الذى اعتصم به القوم يوماً ، كذلك خلت السماء الأولمبية من آلهتها التى حفلت بها قديماً فى أشكال من الجمال المثالى الرائع وأوضاع من القوة الخارقة ، وأمست مجرد صور تتغنى بها الخيالات الشعرية ، ورغب العالم المثقف عن آلهة هوميروس ، واستورد آلهة من الخارج مثل إيزيس وأوزيريس وعبادة الفرس .

وليس معنى هذا أن العالم الوثنى قد أضاع كل إحساس بحاجته للدين ، فإننا نلمح فى القرنين الأول والثانى من تاريخ الإمبراطورية تطوراً فى النهوض الدينى نتمثله فى أفاضل الفلاسفة والحكماء ، واتجهت الفلسفة بقلوب الناس وأبصارهم إلى الإله الواحد الأسمى . وكأنما كانت تلك الفلسفة المعلم الهادى الذى أرشد العالم الوثنى إلى المسيح ، كما أرشدت الشريعة اليهودية شعب اليهود إليه . على أن الوحدانية التى مالت إليها تلك الفلسفة القديمة عجزت عن الحلول محل عقيدة تعدد الآلهة ، وفشلت فشلا ذريعاً فى إحياء عالم كان على وشك الفناء الروحى ، ولم تزد الناس إلا لهفة وشوقاً نحو الإله الحق الذى جهلوه .

أما عامة الشعب فقد أغرقوا فى خرافات وخزعبلات شتى . فلكل مدينة إلهها أو آلهتها ، ولكل حرفة أو تجارة ربها وحاميها ، ولحوادث الحياة مثل الميلاد والزواج آلهتها أيضاً . ونشطت بين البسطاء والجهلاء شعوذة السحرة والمنجمين والعرافين ، وكان أغلب هؤلاء من العنصر اليهودى . وفضلا عن هـذا كله فقد اقتنع عامة الشعب بأن الاحتفاظ بالعبادات والنظم الدينية القديمة من مقتضيات بقاء الدولة وحفظ الأمن فيها ، فإن حاد الناس عنها حاقت بهم المصائب والنكبات — وقد كان لهذه الفكرة أثرها فى اضطهاد المسيحية . على أن الفهماء والمثقفين لم يعملوا شيئاً لمناهضة هذه الآراء السائدة بين عامة الشعب ، لأنهم ظنوا أن الأديان القديمة تمثل دور رجال الشرطة ، وحسبوا هذه المظاهر الدينية الخارجية ضرورة لا غنى عنها للعامة .

وقد حاول الأباطرة من أصحاب النفوذ والسلطان ، لأسباب وطنية ، تقوية هذه العبادات القديمة المألوفة وتحويلها إلى عبادة الدولة وعلى رأسها الإمبراطور . وتطورت الفكرة فصارت « عبادة الإمبراطور نفسه » ، وفشت فى كل أنحاء الإمبراطورية ، ونصب لها كهنة رسميون تحت إشراف الدولة ، واقترنت بكثير من المظاهر الرسمية والحفلات والألعاب . وكانت تلك العبادة وطنية أكثر منها دينية . وقد تقزز المسيحيون الأول من هذه العبادة وحسبوها خيانة لعهد الولاء لربهم ، وكان هذا الموقف باعثاً من بواعث الاضطهاد الذى عانوه فى العصر الأول كما قلنا .

عالم ضيق آخر :

ولكن عالماً ضيقاً آخر كان له شأن مع المسيحية عند نشأتها ، هو العالم اليهودى . وقد خضعت ولاية اليهودية —فى فلسطين— للحكم الأجنبى

منذ اجتياح نبوخذ نصر أورشليم سنة ٥٨٦ ق. م. وصارت جزءاً من الإمبراطورية الأشورية القديمة وخلفائها من بعد الفرس والإسكندر المقدونى. ولما تحطمت إمبراطورية هذا الأخير خضعت اليهودية لبطالسة مصر ، ومن بعدهم للأسرة السلوقية فى انطاكية . على أن اليهود مع خضوعهم سياسياً لهذه الدول المتعاقبة ، ظلوا حريصين على شعائرهم ونظمهم الدينية. وكانت الأسر الكهنوتية الوراثية هى الطبقة الأرستقراطية فى البلاد . عنيت بالشئون السياسية ولم تعن إلا قليلا بالشئون الدينية . وكانت وظيفة « رئيس الكهنة » مطمع زعماء الأمة لما كانت تدره من المغانم المادية ، وما لابسها من النفوذ السياسى . وقد اشترك مع صاحب هذه الوظيفة، فى إدارة الهيكل وتصريف الشئون الدينية وبعض المسائل السياسية ، هيئة — يرجع تاريخ إنشائها إلى عصر الحكم اليونانى — من المستشارين والشراح القانونيين سميت مجلس « السنهدريم » قوامها واحد وسبعون عضواً .

وكان الناموس اليهودى قانوناً دينياً ومدنياً فى الوقت نفسه ، أشبه بالشريعة الإسلامية فى بعض بلدان العالم الإسلامى اليوم . وكان شراحه والمجتهدون فيه — الذين أطلق عليهم لقب « الكتبة » — قادة الشعب الدينيين. وكانت أساس اليهودية الأسفار المقدسة وما استنبطه أولئك الشراح والأحبار من أحاديث وأحكام لا عد لها ولا حصر . وتمشياً مع الرغبة فى الاستزادة من شرح الناموس وفهمه ، ومن الصلوات والعبادة ، قام المجمع اليهودى حيثما حلت اليهودية . ولعل تاريخ إنشاء المجمع يرجع إلى عهد السبى . وكان المجمع مكاناً محلياً لاجتماع كل اليهود فى المنطقة التى وجد بها تحت رئاسة نفر من « الشيوخ » يتزعمهم رئيسهم . وكان لهؤلاء سلطة الحرم ومعاقبة المعتدين . أما عباداته فكانت فى منتهى البساطة ، يقوم بها أى عبرانى ، وإن كانت قد جرت أن يقوم بها عادة رئيس المجمع ، وشملت الصلوات

وقراءة الناموس والأنبياء والشرح (العظة) والبركة. وبسبب هذه المجامع، قلت قيمة الهيكل فى حياة الشعب الدينية، إلى أن انهار وتحطم فى سنة ٧٠ ب. م. دون أن يترتب على ذلك بالضرورة إنهيار اليهودية.

وقد استقلت ولاية اليهودية حقبة من الزمن من سنة ١٦٧ ق. م. عقب ثورة المكابيين إلى أن اجتاحها الرومان سنة ٦٣ ق. م. وفى عهد المكابيين انقسمت اليهودية أحزاباً دينية. فالحزب الأرستقراطى السياسى الذى إنضمت إليه أسر زعماء الكهنة عرف بالصدوقيين. وكان حزباً عالمياً لم يعبأ بالعقائد الدينية. وكانت أكثر نظرياتهم مستقاة من اليهودية القديمة المحافظة، فتمسكوا بالناموس فقط، دون الأحاديث والأحكام المستنبطة، وأنكروا القيامة وخلود النفس كما تقدم. ومع نفوذهم السياسى لم يحظوا بحب الشعب لهم، وهو الذى كره كل نفوذ أجنبى غريب، واعتصم بالناموس كما شرحته التقاليد والأحاديث. وكان من أنصار هذا الموقف الشعبى حزب آخر أسموا أنفسهم الفريسيين، أى الانفصاليين، ومن هذا العهد يبدأ النضال الطويل بين الصدوقيين والفريسيين.

ولم يكن الفريسيون حزباً سياسياً، ولكن عنوا شديد العناية بالناموس ودقائقه وأحكامه، وآمنوا بالأرواح الصالحة والشريرة والملائكة والشيطان، وبالقيامة بعد الموت، وبالثواب والعقاب فى الآخرة كما قلنا من قبل. واشرأبت أعناقهم وتلهفت قلوبهم لتحقيق رجاء المسيا الموعود به، وكانوا فى هذا كله على نقيض مع الصدوقيين.

رجاء المسيا :

وقد كان هذا الأمل المرموق فى مجيء المسيا قبلة أنظار الفريسيين وعامة الشعب معاً، وكان الباعث إليه الشعور القومى الحاد والإيمان بالله. ويبلغ

هذا الشعور ذروته فى فترات الإرهاق والظلم ، فإن هذا الرجاء لم يشعر به إلا قليلا فى عهد المكابيين وهى فترة الاستقلال القومى ، ولكن لما اجتاح الرومان البلاد ، وأحس الشعب بوطأة النير الأجنبى ، قوى هذا الأمل مرة أخرى ، وتوقعت الأمة تدخلا إلهياً يمحق السلطة الرومانية الغاشمة بقوة المسيا الخارقة ، ويقيم ملكوت الله الذى تبعث فيه اليهودية من جديد تحت حكم ملك بار من نسل داود ، ويعود أشتات اليهود من كل أنحاء الامبراطورية إلى الوطن القومى فى اليهودية ، ويبدأ العصر الذهبى فى تاريخ الأمة .

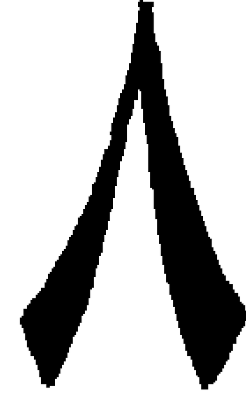
يهود الشتات :

وكانت فلسطين موطن اليهودية ومهد المسيحية . على أنه كان لشتات اليهود فى أرجاء الامبراطورية أثر عظيم فى تاريخ المسيحية . وقد بدأ هذا الشتات منذ الغزو الأشورى والبابلى ، وازدادت هجرة اليهود من فلسطين فى حكم البطالسة وفى أوائل عهد الامبراطورية الرومانية . وقد قيل إن عدد المهاجرين من اليهود يعادل خمسة أو ستة أضعاف اليهود الذين بقوا فى اليهودية . وكانت لهم جاليات كبيرة العدد فى الاسكندرية ومدائن سورية وآسيا الصغرى ، وقلما خلت منهم مدينة من مدن الامبراطورية كلها . وبسبب تعصبهم لعنصريتهم ، لم تتوثق بينهم وبين الشعب الوثنى الرومانى روابط من المودة ، على أنهم كانوا موضع احترام الحكام والولاة لبراعتهم فى التجارة وولائهم لدينهم واعتصامهم بالأخلاق السامية أحياناً كثيرة ، وكانت يهوديتهم بسيطة خالية من التعقيد الفريسى الفلسطينى ، فنادوا بإله واحد أعلن ذاته فى أسفاره المقدسة ، ودعوا إلى التمسك بالأخلاق الكريمة والإيمان بالخلود والعقاب والثواب وبعض الطقوس الأخرى مثل حفظ السبت والختان والعبادة فى المجمع فى وضع خال من الطقسية المحكمة الدقيقة ؛

فمال كثيرون من الوثنيين إلى دعوتهم هذه ، وأقبل إلى المجمع كثيرون من الدخلاء الأتقياء ، الذين غدوا فيما بعد نواة دعاة المسيحية الأولين .

وقد تأثرت يهودية الشتات بالفلسفة الإغريقية وخاصة فى مصر ، فترجمت أسفار العهد القديم إلى اللغة اليونانية بمدينة الاسكندرية وهى المسماة بالترجمة السبعينية ، وامتزجت أيضاً فى الاسكندرية آراء العهد القديم الدينية بالآراء الفلسفية اليونانية وخاصة الأفلاطونية والرواقية . وكان أشهر أولئك الشراح الاسكندريين وأبعدهم أثراً العلامة اليهودى « فيلو » الذى اعتقد أن الكتاب المقدس هو أحكم الكتب جميعاً ووحى إلهى صادق، وأن موسى أكبر الحكماء والمعلمين إطلاقاً ، ولكنه بطريق الإجتهاد والتأويل والتخريج وفق بين آراء الكتاب المقدس وبين أفضل الآراء والمذاهب فى الأفلاطونية والرواقية . وكان لهذا المزج والتوفيق أعمق الأثر فيما بعد فى نشوء الإصطلاحات اللاهوتية المسيحية ، وفى دراسة الكتاب المقدس .

تلك هى الأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية التى كان لها بعض الفضل على إنتشار المسيحية .



سمو الأخلاق التى اتصف بها المسيحيون

[النقد اللاذع ــ المسيحيون أمام محكمة « بلينى » ــ العيوف عن متع العصر ــ الافراط فى الفضيلة ــ احتقار المعرفة التى ليست للخلاص ــ الصرامة فى العلاقة الجنسية ــ الدقة فى الحياة العملية] .

قد زكى المسيحى فى عهده الأول حياته بفضائله وسمو أخلاقه . وغدا مألوفا ومسلما به ، أن الاقتناع الإلهى الذى أشرق عليه نوره ، وأخضع فكره وميوله ، لابد أن ــ يطهر فى الوقت عينه قلبه ، وتسلس له تصرفاته وفعاله .. وإننا لنرى بواكير المدافعين الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن حق المسيحية ، يشيدون بأعمال الطهر والبراءة التى أبداها المسيحيون، كما نرى المدافعين المتأخرين يتغنون بقداسة السلف الصالح . وهؤلاء وأولئك يرسمون بألوان مشعة ، الأخلاق الباهرة التى أدخلتها إلى العالم المناداة برسالة الإنجيل . ومن العوامل الجوهرية التى ساعدت على هذا التطور فى حياة المسيحيين ، التوبة عن خطاياهم التى سلفت ، والرغبة الملحة فى ترقية المجتمع الذى عاشوا بين ظهرانيه .

النقد اللاذع :

ومن الظواهر الأولى فى فجر المسيحية ، ذلك النقد اللاذع واللوم العنيف ، الذى ساقه المعاندون المكابرون ، فى زعمهم أن المسيحيين أغروا

أشر المجرمين وحثالة المجتمع للانضمام إلى زمرتهم ، وهؤلاء لم يلبثوا طويلا بعد الإحساس بالندم ووخز الضمير ، حتى أقنعوهم أن يتقدموا إلى مياه المعمودية لغسل آثامهم السابقة ، الأمر الذى أبت الآلهة الوثنية أن تمنحهم إياه . على أن هذا اللوم حين يخلص من جهالة أصحابه وسوء نواياهم ، يقف شاهداً على كرم الكنيسة وحدبها على الأشرار الساقطين ، بل هو شاهد على إمتدادها وسرعة إنتشارها .

ولن نجد دعاة المسيحية وحماتها غضاضة فى الاعتراف فى غير خجل أو استحياء ، بأن كثيرين من أبرز مشاهير القديسين ، كانوا قبل المعمودية من أحط الخطاة الذين لفظهم المجتمع . وقد قفا دعاة الإنجيل خطى سيدهم وربهم — فلم يحتقروا المجتمع البشرى بكل ما فيه من سيئات وإنحرافات ، ولم ينبذوا الخطاه الآثمين ، الذين طغت عليهم ظروف المجتمع الظالمة ، وساقتهم إلى اقتراف الكبائر والموبقات . وهؤلاء — كما يحدثنا التاريخ — بعد أن كانوا ينتقلون من آثامهم وخرافاتهم إلى رجاء الخلود المجيد ، كانوا يكرسون أنفسهم وحياتهم لحياة التوبة والفضيلة ، وكانت شهوة الكمال تتفاعل فى طباعهم ، وتصير النزعة الغالبة فى نفوسهم ، حتى لقد تسوقهم إلى النقيض من بشاعة الرذيلة إلى الإفراط فى الفضيلة .

ويوم كان المتنصرون يسجلون فى عداد المؤمنين ويقبلون فى أسرار الكنيسة ، كانوا يلفون أنفسهم خلائق جديدة ، ذات طبائع طاهرة نقية ، تأبى كل الإباء أن تعود إلى سابق العهد والماضى البغيض . ولما كان المسيحيون فى أول عهدهم ، جماعات قليلة فى مجتمع وثنى ، كان كل فرد فيهم يراقب فى يقظة حادة مسلكه ومسلك إخوته ، يقينا منه أن له نصيباً فى حسن الأحدوثة المشترك إذا أحسن أترابه ، أو خيبة الأمل المشتركة إذا أساء زملاء له فى الدين .

المسيحيون أمام محكمة « بليني » :

ويروى التاريخ أن المسيحيين سيقوا يوما إلى محكمة « بليني الصغير » ولاية بثينية بآسيا الصغرى ، فشهدوا فى حماس وجرأة أمام الوالى الرومانى ، أنهم بعيدون كل البعد عن أى مؤامرة يجرمها القانون ، وأنهم ملتزمون التزاماً جادا خطيراً بالامتناع عن كل الجرائم التى تعكر صفو المجتمع العام أو الخاص ، وعن السرقة والسلب والنهب والزنى والغش والفساد والرشوة . وبعد هذه المحاكمة بقرن واحد ، يكتب القديس « ترتوليانوس » فى كبرياء أمينة مخلصة وفى تفاخر واعتزاز — إن أحداً من المسيحيين لم يقع تحت سيف الجلاد لجريمة اقترفها ، إلا إذا كان هذا القتل دفاعاً عن دينه واستمساكا بالحق الذى يؤثر طواعية أن يستشهد فى سبيله .

العيوف عن متع العصر :

وكانت حياتهم رضية جادة ، عافوا متع العصر وإباحيته ، وتمسكوا بالطهر والعفة والاعتدال والاقتصاد وسائر الفضائل الفردية والقومية . ولما كانت غالبيتهم تعمل فى التجارة والمهن ، فقد أحسوا أنه لزام عليهم أن يرعوا أدق قواعد الأمانة والنزاهة والاخلاص والصدق فى معاملاتهم . وقد روضهم عيوفهم عن العالم على التواضع والوداعة والصبر . وكلما أمعن الأعداء فى اضطهادهم ، زاد ترابطهم واتحادهم بعضهم مع بعض ، وكان تعاونهم المتبادل مفخرة لهم أمام أنظار الشامتين .

الإفراط فى الفضيلة :

ومما هو جدير بالذكر فى معرض الحديث عن أخلاقيات المسيحيين الأولين ، أنه حتى هفواتهم أو سقطاتهم كان مردها الافراط فى الفضيلة ،

وذلك لأن الأساقفة وأعلام الكنيسة وحكامها ، الذين يعتد بآرائهم وسعة نفوذهم ، وقوة تأثيرهم على المبادئ والممارسات التى اعتز بها معاصروهم — قرأوا الأسفار المقدسة بروح الولاء والتعبد ، وبقليل من البحث والنقد والدرس والاستقراء،وكان من جراء هذا،أن قبلوا أحكام المسيح والرسل بمعناها الحرفى ، على نقيض الشراح الذين خلفوهم ، والذين شطحوا أحياناً فى التأويلات السائبة التصويرية ، ورغبة من آبائنا الأولين الامناء الغيورين ، فى وضع كمال الانجيل فوق حكمة الفلسفة ، ذهبوا فى واجبات إذلال النفس والطهر والصبر ، إلى حدود يصعب علينا بلوغها ، بسبب ما نعانيه من الضعف والفساد فى هذا العصر .

إحتكار المعرفة التى ليست الخلاص :

وحيازة المعرفة وممارسة تمارين العقل والخيال ، والانسياب فى الأحاديث الطريفة السائبة — هذه كلها قد تكون ملهاة للعقل الحر فى أوقات فراغه ، ولكن الآباء الأولين فى تشددهم ، قد نبذوا هذه الملاهى ، أو سلموا بها فى أضيق الحدود ، وهم الذين احتقروا كل معرفة غير نافعة للخلاص ، والذين حسبوا كل انزلاق فى الحديث إساءة لموهبة الكلام التى حبا بها الخالق الانسان البشرى . ونحن فى عصرنا الحاضر ، الذى يقترن فيه الجسد بالنفس إقتراناً محكما،نجيز لأنفسنا أن تتذوق فى براءة واعتدال بعض هذه الملاهى ، على أنه لم يكن هذا شأن أسلافنا الأتقياء ، الذين فى نهضتهم لمحاكاة الملائكة فى كمالهم ، احتقروا كل لذة جسمانية أرضية ، وقد ظنوا أن مظاهر الفرح الدنيوى والبيوت الفاخرة والأثاثات الأنيقة ، إنما هى من أفاعيل الكبرياء والشهوانية . ويليق بالمسيحى الحق الذى يحس بذنوبه ، أن يقنع بالمظهر البسيط المتواضع ، وفى عذلهم لزخارف الدنيا وأباطيل العالم ، دققوا فى كثير من التفاصيل الصغيرة التى أثارت غضبتهم

التقوية ، ونذكر من هذه الشعر المستعار — والثياب الزاهية الألوان وآلات الموسيقى ، وأوعية الذهب والفضة والوسائد الوثيرة — (لأن أباهم يعقوب أسند رأسه على حجر) ، والخبز الأبيض ، والأنبذة الاجنبية والحمامات الساخنة وحلق الذقون ، التى حسبها القديس « ترتوليانوس » ، أكذوبة لتشويه الوجه ، ومحاولة ممجوجة لتحسين ما أبدعه الخالق .

ولما تسربت المسيحية إلى طبقات الأغنياء والموسرين والمثقفين ، اقتصرت مراعاة هذه القواعد على القلة التى اتجه طموحها إلى القداسة الكاملة .

الصرامة فى العلاقة الجنسية :

ومن هذا المنطلق عينه روعيت الصرامة فى العلاقة بين الجنسين فى عهد الآباء الأولين ، وهم الذين محوا كل متعة قد تشبع الحواس الجسمانية الشهوانية ، وتحط من قدر الطبيعة الروحية فى الإنسان . ومن آرائهم المحببة التى اعتنقوها ، أنه لو أن آدم اعتصم بطاعته للخالق ، لكان قد عاش إلى الأبد ، فى حالة من البراءة العذراوية ، وأن انماطا من العيش قد سادت الفردوس ، ليحيا فيه نوع من الخلائق البريئة الخالدة . وقد شرع الزواج لأنسال آدم الساقطة ، كشرط ضرورى للابقاء على النسل ، للحد من جموح الإباحية والشهوانية الطبيعية . وأجمع رأيهم على أن السماح بالزواج الاول ، يوائم أهداف الطبيعة والمجتمع ، وأن الاختلاط الجنسى يرتفع قدره ، بحيث يكون علاقة سرية تشبه اتحاد المسيح بالكنيسة ، ولذلك لا يجوز حله بالطلاق ، بل حسبوا كل زواج ثان لونا من ألوان الزنى ، وكل من يقدم على ذلك كان يحسب متعديا على شريعة الطهر المسيحى ، كان يحرم من التقدم لأسرار الكنيسة وكافة امتيازاتها . وما دامت الرغبة قد وصمت بأنها جريمة ، وما دام الزواج قد أبيح وهو يقتضيه ، لم يكن

مناص فى ضوء هذا المبدأ ، من اعتبار العزوبة أقرب مثال للكمال الإلهى . ولذلك امتلأت الكنيسة الاولى بعدد وافر من الجنسين رجالا ونساء، نذروا العفة المستديمة ، بين هؤلاء نذكر القديس « أوريجانوس » الذى حسب العزوبة أقوى حالة لنزع سلاح المجرب الخبيث . وقام بين الزهاد المسيحيين المتقشفين نفر كانوا مفخرة لطهر الحياة وسط لهب التجارب . وههنا نشهد الآثار المبكرة لمبادئ الرهبنة ونظمها ، التى لها شأن خطير فى تاريخ المسيحية .

الدقة فى الحياة العملية :

وحتى الحياة العملية لم تسلم من هذه المبادئ التقشفية التى أملتها الأخلاقيات المسيحية البدائية فى عهودها الفطرية . فلقد امتنعوا عن القسم أمام القضاء ، ولم يقبلوا أبداً سفك دم إخوانهم فى الإنسانية ، سواء بسيف العدالة أو فى الحرب ، حتى وإن هددت محاولتهم سلام المجتمع وأمنه . وفى طاعة سلبية خضعوا لأحكام القانون ، وأبدوا الولاء كله للولاة والحكام ، وقد عرضهم هذا الموقف لكثير من هجمات مواطنيهم الذين تساءلوا قائلين : « ترى ماذا يكون مصير الامبراطورية إذا هاجمها البرابرة من كل حدب ، إذا اعتنق كل الشعب عقيدة هذه الطائفة الغريبة من البشر ؟ وإجابة على هذا السؤال المهين ، قال المدافعون أقوالا غامضة مبهمة ، وذلك لأنهم أخفوا حقيقة الأسباب التى أدخلت إلى أنفسهم الطمأنينة والسلام ، ألا وهى توقعهم زوال هذا العالم بحكوماته ونظمه يوم المجئ الثانى لربهم وسيدهم ، الذى كان أقرب الأشياء وأحبها إلى قلوبهم .

٩

قوة نظام الجماعات المسيحية

[مهام جديدة فى ادارة الكنيسة ـ السياسة البدائية الأولى ـ نشوء المعلمين الانبياء وتعيين الأساقفة ـ تنصيب الرئاسات ـ اختصاص الأسقف فى الكنيسة الأولى ـ نشأة المجامع الاقليمية ـ النزاع بين الأسقف والشعب ـ نشأة وظيفة رئيس الأساقفة ـ مطامع أسقف رومية ـ التمييز بين العلماء ورجال الدين] .

ولكن السجايا البشرية ، مهما سمت واشتعلت بحماس موقت ، لا بد وأن تعود تدريجا إلى مستواها الطبيعى اللائق بها ، وتباشر الميول والنزعات التى توائم حالتها الحاضرة . فالمسيحيون الأولون ـ كما رأينا ـ أنكروا على أنفسهم لذاذات العالم ، وأبوا الانغماس فى أعماله ومشاكله . ولكن سرعان ما استيقظت فيهم رغبة العمل التى لن يخبو أوارها كلية ، ووجدوا مهام جديدة فى إدارة الكنيسة ونظمها . وذلك لأن الكنيسة بعد أن هاجمت ، كمجتمع منفصل أديان الإمبراطورية الرسمية ، كانت مضطرة أن تقتبس وضعاً من الأوضاع فى سياستها الداخلية ، وأن عدداً كافياً من الخدام ، يوكل إليهم لا الشئون الروحية فحسب ، بل الإدارة الدنيوية للجماعات المسيحية . ولقد انتجت الغيرة لصيانة أمن هذا المجتمع الجديد وكرامته واتساع رقعته ـ روحاً وطنية حاكت تلك الروح التى تشبعت بها عقول الرومان ، فى صيانة الجمهورية التى اعتزوا بها أيما اعتزاز . بل حاكوا الرومان أحياناً فى عدم المبالاة بالوسائل التى تدنيهم إلى غاياتهم المرجوة .

مهام جديدة فى إدارة الكنيسة :

وقد مارس قادة ذلك المجتمع المسيحى وظائف عديدة ، مثل فضح الأخطاء فى العقيدة التى أسموها هرطقة ، أو إدانة أفاعيل التحزب أو مناهضة الإخوة المشاغبين المخطئين وطردهم من أحضان المجتمع الذى تجاسروا على تعكير سلامه وسعادته . وقد تعلم أولئك الحكام الكنسيون ، أن يجمعوا بين حكمة الحيات وبراءة الحمائم . وكثيراً ما أساءوا التقدير فى كلتا الحالتين .

السياسة البدائية الأولى :

ومن اليسير أن نصور لأنفسنا ، السياسة البدائية الأولى التى اتبعتها الكنيسة فى القرن الأول ، بالنظر إلى ما فعلته الكنائس فى أورشليم وأفسس وكورنثوس ، وغيرها من مدن الإمبراطورية . وتلك الجماعات المنفصلة وحد بينها الإيمان والمحبة فقط ، وقام دستورها على مبـدأ الاستقلال والمساواة .

فشل المعلمين الأنبياء وتعيين الأساقفة :

أما التنظيم والعلم الإنسانى ، فكان من نصيب فئة يسمونها «الأنبياء» الذين يستدعون للقيام بهذه الوظيفة ، بغض النظر عن السن أو الجنس أو القدرات الطبيعية . وكان هؤلاء كلما أحسوا بوازع إلهى ، يعلنون موحيات الروح ونداءاته فى مجتمع المذنبين . ولكن فى كثير من المواقف ، أسئ استخدام هذه المواهب الفذة ، وأخطأ أولئك المعلمون الأنبياء فى تأويلهم واجتهادهم ، وفى توقيت نداءاتهم ودعواهم ، وبسبب كبريائهم أو غيرتهم الخاطئة ، أدخلوا فى كنيسة كورنثوس الرسولية مثلا ، سلسلة من الاضطرابات المحزنة ، وإذ يمسى نظام الأنبياء عقيما ، بل ضاراً ،

تسحب الكنيسة منهم سلطاتهم ، وتلغى وظائفهم ، ويوكل بالوظائف الدينية ، إلى خدام الكنيسة الذين أطلقوا عليهم لقب « أساقفة » ،و «شيوخ». وفى أول الأمر كان الإسمان يدلان على معنى واحد ووظيفة واحدة ، فلقب « شيخ » عبر عن السن أو الرزانة والحكمة . أما « الأسقف» ، فقد كانت مهمته الرقابة على أخلاق وتصرفات المسيحيين الذين كانوا تحت عنايته الرعوية . وكان عدد أولئك «الشيوخ والأساقفة » ، يزيد أو يقل تبعاً لكثرة أو قلة عدد الجماعات الناشئة ، فى سلطة متساوية ومجامع مستقلة .

تنصيب الرئاسات :

على أن أكمل أوضاع المساواة والحرية ، تتطلب اليد المنظمة يمارسها رئيس أعلى . وبحكم طبائع الأشياء تخلق المناقشات العامة فى أية هيئة وظيفة الرئيس الذى يتمتع على الأقل بسلطة جمع متجهات الفكر المختلفة ، واتخاذ القرار الحاسم فى المجتمع . ورغبة فى صيانة الهدوء الذى كان من المحتمل أن يشوب صفوه شائبة فى فترات الانتخاب السنوية أو الموسمية ، قرر المسيحيون الأولون ، تنصيب رئاسة مكرمة مستديمة ، واختيار أكثر الشيوخ حكمة ، وأقدمهم حياة ،وأوفرهم فضلا ، لكى يشرف مدى حياته على القيام بواجبات الحاكم الكنسية ، وفى هذه الظروف ارتفع لقب « الأسقف » فوق لقب « الشيخ » الأقل منه شأناً . وبينما ظل الأخير مميزاً فى كل مجلس مسيحى ، احتفظ الأول بالكرامة كرئيس جديد . وقد كان لهذا النظام الأسقفى الذى أدخل إلى الكنيسة قبل نهاية القرن الأول ، مزايا جمة بعيدة الأثر ، فى توطيد أركان السلام فى الكنيسة ، كما كان له شأن خطير فى خلق أمجاد الكنيسة فى مستقبل تاريخها . وقد رحبت به كل الجماعات المسيحية المتناثرة فى أرجاء الإمبراطورية ، وما تزال الكنائس

فى الغرب وفى الشرق محتفظة به حتى اليوم ، كأثر من آثار النظام الكنسى الأصيل القديم ، له قدسيته وكرامته .

اختصاص الأسقف فى الكنيسة الأولى :

وقد كانت للأسقف فى الكنيسة الأولى اختصاصات معينة ، أكثرها روحية ، وفى بعض الأحيان زمنية ، مثل إجراء الأسرار ، ورئاسة الحفلات الدينية ، ورسامة خدام الكنيسة ، وإدارة الأموال العامة . والفصل فى القضايا والمنازعات التى كان يأبى المسيحيون عرضها على المحاكم الرومانية الوثنية . ولفترة معينة من الزمن ، كانت هذه السلطات تمارس بمشورة مجمع الشيوخ ورضاء المسيحيين فى مجمعهم . وقد حسب الأساقفة الأولون إخوة متساوين . وخداماً مكرمين لشعب حر . وحين كانت تخلو وظيفة الأسقفية بالموت ، كان يتم اختيار رئيس جديد من الشيوخ بانتخاب عام يشترك فيه كل أفراد الجماعة المسيحية كواجب مقدس .

كان هذا هو الدستور الحر المعتدل ، الذى خضع له المسيحيون أكثر من مائة عام بعد موت الرسل . وكان فى داخل كل مجتمع مسيحى حكومة جمهورية منفصلة مستقلة . ومع أنه كان متبعاً أن تتصل أبعد الولايات بالأخرى ، عن طريق تبادل الرسائل وإيفاد المندوبين ، إلا أن العالم المسيحى لم يكن قد تضام بعد تحت سلطة عليا ، أو مجمع تشريعى . ولما تضاعف عدد المؤمنين ، وكثرت الجماعات المتفرقة ، تكشفوا المزايا التى قد تعود عليهم من التواصل ، لبحث المصالح المشتركة . وفى أواخر القرن الثانى ، أنشأت كنائس اليونان وآسيا ماعرف فى التاريخ بالمجامع الإقليمية ، التى صاغوا هيكلها بالاقتباس من النظم القانونية والتشريعية التى كانت سائدة فى بلادهم .

نشأة المجامع الاقليمية :

وسرعان ماتقرر كعرف متواضع عليه ، وقانون مسلم به ، أن يجتمع أساقفة الكنائس المستقلة فى عاصمة الولاية ، مرة فى الربيع وأخرى فى الخريف . وكان يشترك فى مداولاتهم كمستشارين نخبة من الشيوخ الممتازين ويحضرها أيضاً عدد من أفراد الشعب كمستمعين . وقد تعرضت قراراتهم إلى كل مشا كل الإيمان والنظام، وكان مفهوماً أن الروح القدس، هو الذى هيمن على إجراءات هذا المجتمع المسيحى الحر ، وقد أشبع نظام المجامع كل المطامع الشخصية وكافة المصالح العامة ، وما انقضت سنوات قلائل ، حتى عم هذا النظام كل أرجاء الأمبراطورية ، وأنشئت إدارة خاصة ، لتبادل المعلومات بين المجامع الإقليمية ، وتوحيد الإجراءات والقرارات من ثم تأخذ الكنيسة الكاثوليكية (الجامعة) شكل وقوة جمهورية فيدرالية جليلة الشأن .

وإذ تطغى سلطات المجامع على السلطة التشريعية فى الكنائس المفردة يتخذ الأساقفة من اتحادهم معاً، فرصة للاستزادة من السلطة التنفيذية بطريقة تحكمية، وإذ تتوحد كلمتهم فى تقوية مصالحهم ، يبدأون التهجم على الحقوق الأصلية التى كان يتمتع بها القساوسة والشعب. والمتتبع للتاريخ الكنسى فى القرن الثالث ، يشهد تغيراً فى أسلوب الملاينة والاستعطاف التى جرى عليها الأساقفة ، إلى أسلوب الأمر والنهى وهنا تغرس بذور الشحناء واغتصاب السلطة التى شهدها التاريخ فيما بعد . كلمة حق يقولها التاريخ ، إن أولئك الأساقفة فى موقفهم هذا ، صانوا وحدة الكنيسة ، وقوتها بقيت ممثلة فى الوظيفة الأسقفية التى تمتع فيها الأسقف بنصيب متساو مع زملائه، ولتثبيت سلطاتهم ، إدعوا أن السلطة الأسقفية مستمدة من الله ذاته ، وأنهم

وكلاء المسيح على الأرض وخلفاء الرسل ، ونماذج رؤساء الكهنة فى الشريعة الموسوية .

النزاع بين الأسقف والشعب :

ولم ينكر الأساقفة السلطة العليا فى المجمع الذى ضم إخواناً مساوين لهم ، ولكن الأسقف فى أبروشيته الخاصة ، أصر على طاعة كاملة من جانب القساوسة والشعب ، وتصرف كأنما الراعى فى مرتبة أدنى من أفراد الرعية — على أن فرض هذه الطاعة لم يكن أمراً هيناً وإنما ، وشهد التاريخ فى حالات كثيرة إصراراً عنيداً من جانب ، ومقاومة عنيفة من الجانب الآخر — وكسبت القضية الأسقفية الجولة فى آخر المطاف ، وذلك بفضل جهود كثيرين من زعماء الكنيسة وقادتها ، أمثال الأسقف « كبريانوس » فى قرطاجة بشمال أفريقية ، الذى جمع بين الفن السياسى الدينى الأصيل ، وبين الفضائل المسيحية التى هيأت كثيرين منهم ليكونوا قديسين وشهداء .

نشأة وظيفة رئيس الأساقفة :

والعوامل عينها التى أفسدت فى أول الأمر مبدأ المساواة بين الشيوخ ، أدخلت إلى صفوف الأساقفة مبدأ التفاوت فى الرتب ، وبالتالى ، التفوق فى الاختصاصات ، وكلما كانوا يجتمعون فى الربيع أو الخريف فى المجالس الاقليمية ، كان يميز المجتمعون المزايا الشخصية وذيوع الشهرة لكل من الأساقفة فى مجتمعهم ، وكان الجمهور يتأثر بحكمة وفصاحة قلة من الزعماء. وقد حدث أن رئاسة المجامع فى كل ولاية كانت تعطى عادة لأسقف عاصمة الولاية ، وسرعان ما اكتسب هذا الأسقف لقب كبير الأساقفة ، ورويدا رويدا أعد نفسه لاغتصاب سلطات زملائه ، كما فعل الأساقفة من قبل فى مجمع الشيوخ .

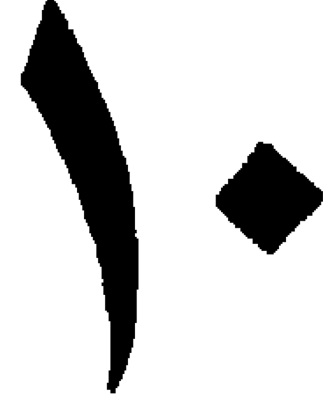
مطامع أسقف رومية :

ومن وجهه النظر المدنية والكنسية ، كان متوقعاً أن تفوز رومية بقصب السبق ، وتطلب طاعة الولايات الأخرى لسلطانها . فقد كانت الكنيسة فى رومية ، أعظم الكنائس شأنا ، وأكثرها عددا ، وأوسعها سلطانا ، وأقدم المؤسسات المسيحية فى الغرب ، بل هى التى تولت إيفاد دعاتها ومرسليها لنشر الدعوة فى أوربا ، ثم إنها اعتزت بمركز ممتاز من حيث أنها كانت الموطن الذى جاهد واستشهد فيه الرسولان الكبيران « بولس وبطرس » . وفى حكمة ودهاء ، ادعى أسقف رومية أنه وريث المزايا والكرامة التى اختص بها الرسول « بطرس » ولم ينكر عليه أساقفة إيطاليا والولايات الأخرى الأولوية فى النظام الكنسى . ولكنهم أبوا عليه فى اشمئزاز وتقزز ، وظيفة السيد أو الملك ، وأبدى الأساقفة الآخرون فى آسيا وافريقية مقاومة عنيدة لخفض هذا السلطان الروحى والزمنى . ويشهد التاريخ أن « كبريانوس » أسقف شمال أفريقية ورئيس المجامع الإقليمية ، وقف موقف المعارضة السافرة لمطامع الأسقف الرومانى ، واستمال إلى جانبه الأساقفة الشرقيين فى آسيا ، وراح هؤلاء وأولئك يقذفون بعضهم بعضاً بقرارات الحرمان فى غضب قاس ، وولاء لقضيته ادعى كل من الفريقين حرصه عليها . ولا يسع المؤرخ المسيحى إلا أن يمتلىء قلبه بالأسى والألم ، وهو يقرأ فى بطون كتب التاريخ فواجع العزل والحرمان ، التى أصابت بعضاً ممن كانوا رؤساء أساقفة وقديسين وشهداء ، ويؤلمه أشد الإيلام ، أن يرى تصارع أبطال الدين وأمراء الكنيسة الفتية التى أرادها ربها أن تكون رئيسة السلام ، وداعية الحق والخير .

التمييز بين العلمانيين ورجال الدين .

وكان لنمو السلطة الكنسية أثر آخر ، وهو خلق ذلك التمييز المأثور فى التاريخ ، بين العلمانيين ورجال الدين . فالأولون هم عامة الشعب المسيحى

والآخرون هم تلك الطبقة من الناس ، التى أفرزت لخدمة الدين . ولم يكن هذا التمييز الطبيعى معروفاً من قبل بين اليونان والرومان . وقد ثارت بين الفريقين فى بعض المواقف المنازعات التى عكرت سلام الكنيسة ، ولكنهم اتحدوا معاً فى الغيرة والنشاط والجهاد ، فى سبيل القضية المشتركة ألا وهى امتداد المسيحية وانتشارها فى كل أصقاع الأرض .



هل كان كل المسيحيين شهداء ؟

[هل كان كل المسيحيين شهداء ! ؟ ـ الضعف والجبن والردة ـ معجزة المسيحية] .

ترى ماذا كان مبعث انتصار المسيحية ؟ أكان ذلك راجعاً إلى ثبات أبنائها وشجاعتهم وبسالتهم ؟ قد يكون هذا حقاً ولكنه بعض الحق . فإنه كما حدث فى عهد الوالى « بليني » فى مستهل القرن الثانى ، كذلك حدث إبان اضطهاد «ديسيوس» ، إذ ارتد كثيرون من المسيحيين عن إيمانهم رعباً وهلعاً .وإنه لمن الشطط فى التقدير أن نصور جمهرة المسيحين فى القرون الثلاثة الأولى تصويراً بجعلهم كلهم على نمط الشهداء الذى اعتزت الكنيسة بذكرياتهم وفعالهم المجيدة .

الضعف والجبن والردة :

والحق نقول إن عامة المسيحين — فى كل العصور — خامرهم شئ من الجبن وخوار العزم ، وتولاهم الضعف والجزع فى اعترافهم أمام الناس وساورهم بعض الوهن فى المقاومة والصمود ساعة الخطر . ولاخفاء أن كثيرين منهم ارتدوا عن دينهم فى فترات الاضطهاد لينجوا بأموالهم ومناصبهم وحياتهم . وفى ذلك العصر الذى نحن بصدده كانت الجماعات المسيحية قد زاد عددها ، وتزايد العدد ينشأ عنه عادة بعض الوهن فى القوة الداخلية المعنوية . وكانت الكنيسة قد بعدت عن الفكرة الأولى التى أملت عليها توقع نهاية العالم السريعة ، واحتلت مكانتها فى العالم ، وطبيعى أن ينساب إليها

بعض روح العالم ، وفتحت أبوابها على مصاريعها ، فولج إليها عامة الشعب جماعات وزرافات ، فاندس فيها بطبيعة الحال كثيرون من أصحاب البواعث الضعيفة الوضيعة فى الطبيعة البشرية . وبين أن العلاقات التى سادت الجماعة المسيحية الأولى فى بدء عهدها ، يوم كان المؤمنون كأخوة فى دائرة ضيقة محدودة ، ليست كتلك التى سادت بعدئذ ، يوم كان نصف سكان المدينة مثلا من المسيحيين . وطبيعى أن تختفى بعد هذا التوسع المحبة الأخوية العملية ، أو على الأقل تقتصر ممارستها على رجال الدين الذين يمثلون الجماعة المسيحية . ثم إن الأعضاء العلمانيين مالوا إلى التراخي والاستهتار فى مراعاة نظم الكنيسة ، وظهر مرة فى تاريخ المسيحية مقياسان للآداب والأخلاق : أحدهما لرجال الدين الذين كان ينتظر منهم التقيد الشديد الصارم بأوضاع المسيحية الحقة ، والثانى للعلمانيين الذين اكتفى معهم بالإمتناع عن الكبائر والموبقات . وإنا لنشهد من منتصف القرن الثانى جنوحاً إلى العالمية من جانب الكنيسة ، ولم يكن من هذا بد ، فإنه كما اقتبس العالم من روح المسيحية ، اقتبست المسيحية شيئاً من روح العالم . وحين نفكر فى جماهير المؤمنين فى القرن الثالث ، نجد كثيرين منهم مسيحيين بالإسم ، ونجد فى أحضان الكنيسة الشيء الكثير من الكراهية والعداء والحسد والطمع . وبين أيدينا من مخلفات القرن الثانى وصف تخيله فى رؤياه مسيحى من أبناء رومية يصور فيه الكنيسة ، وقد تشوه وجهها بالبقع والتجاعيد ، وأصابتها أمراض مختلفة . وكان هذا هو الواقع فعلا : فإنه على مر الزمن اندثرت روح الشهداء الأولين ووقفت الدولة الرومانية فى عهد ديسيوس ودقلديانوس أمام كنيسة بدأ الهرم يدب فى أعضائها ، وبعدت عن مثلها وجنحت إلى العالمية . ومن هنا كانت حالات الردة الكثيرة ، ومن هنا كان التخريب المريع الذى حل بالكنيسة إبان الإضطهادات الكثيرة .

معجزة المسيحية :

ومع هذا كله بقيت الكنيسة فائزة منتصرة ، لم تقدر النار ولا الحديد ولا الموت أن تفت فى عضدها أو تضعف من شوكتها . أما معجزة المسيحية فهى أنها غير قابلة للتدمير ، وأنها كسبت النصر على الرغم من تخلى بعض أتباعها عنها . ولم يكن للردة ولا للضعف وللخطية أثر فى إضعاف قوة المسيحية التى لاتقهر . مالت إلى العالمية ، ومع ذلك ظلت خميرة صالحة تخمر العالم كله . خانها نفر كبير من أتباعها ، ومع ذلك بقيت فيها تلك الصفوة المختارة التى استطاعت على الرغم من الخطأ والقصور أن تغلب العالم ، وتقدم فى أشخاص شهدائها الأمثلة الرائعة على البسالة والعظمة وتنفث روح المقاومة فى الخائرين الفاترين .

ولم تكن المسيحية فى ذلك العهد الدين المجهول الذى أذاع عنه المغرضون كل أنواع السخافات والوشايات كما حدث فى القرنين الأول والثانى . بل كانت قد غدت قوة منظورة تبسط جناح حمايتها على أتباعها . وكان فى طول العالم الوثنى وعرضه حنين دفين إلى الإيمان بالوحدانية ، بعد أن تقوضت أركان العقائد والعبادات القديمة ، فمال الناس سراً وجهراً إلى الإله الحق الذى نادت به المسيحية . ولما أعلنت الدولة الحرب على المسيحية فى القرن الثالث كما سنرى فيما بعد ، لم تتمكن تماماً من تجنيد كل قوات الكراهية العاصفة ، ولقى كثيرون من المسيحيين أمناً وحمى فى البيوت الوثنية . وفى الغرب خاصة لم تجد قوانين دقلديانوس وجاليروس مرتعاً خصيباً وسط الشعب ، فلم تنفذ بالشدة والصرامة والعنف كما كان شأنها فى الشرق . ثم إن الدولة ذاتها كانت قد أخذت فى الضعف والانحلال ، وراحت خيرة العقول تفكر فى غير مافكرت به الدولة ، يضاف إلى هذا كله القوة الروحية المعنوية التى بثتها المسيحية فى العالم الوثنى وهو لايدرى ، وقد بلغت هذه القوة شأواً

رفيعاً ، واستخدمت كل مالديها من موارد على الرغم من ضعف أتباعها وخوار أنصارها .

ألم تر إلى الإحن الكثيرة التى أصابت الكنيسة فى كل تاريخها ، وإلى الظلمات الحالكة التى خاضت فيها فى كل عصورها ، كيف شق نور المسيحية طريقه كأشعة الشمس تبدد ظلمات السحب ، وتشق كثافتها فتتوزع أضواؤها تارة هنا وأخرى هناك .

هكذا كان فى ذلك العهد . غلبت الكنيسة ، لابقوة المسيحيين أنفسهم ، بل على الرغم من ضعفهم — غلبت بقوة الرسالة التى حملتها هدى ونوراً للعالمين .

١١

موقف الشعب من المسيحيين

[اتهام المسيحيين بالخيانة ـ الشهيد « بوليكارب » ـ امعان الدهماء فى الاضطهاد] .

إتهام المسيحين بالخيانة :

أتهم المسيحيون بالخيانة وكراهية الجنس البشرى ، وقد عبأت هذه الأتهامات الكاذبة كراهية الشعب لهم ، وكان هذا الشعب أشد إمعاناً فى العداوة وتوقيع العقوبات من الولاة والأباطرة أنفسهم . وفى الوقت الذى كتب فيه الرسول « بطرس » رسالته الأولى (سنة ٩٠م) ، كان مجرد اعتناق المسيحية جريمة يعاقب عليها القانون (٤ : ١٦) . ورد الامبراطور « تراجان » على رسالة « بلينى » والى بثينية فى آسيا الصغرى (١١١–١١٣م) يدل على أن المسيحية كانت جريمة يعاقب عليها القانون ، على أن العاهل الرومانى كان إلى حد ما ، قد أبدى اعتدالا فى اتخاذ الإجراءات ، فأمر بعدم مطاردة المسيحيين ومحاولة الايقاع بهم ، وإطلاق سراح من يقبل التبخير للامبراطور . ومن وجهة نظر المسيحى ، لم يكن هذا القرار إلا إصراراً على الاستشهاد . وقد أتبع خلفاء تراجان الذين جاوءوا بعده مباشرة ، وهم هادريان (١١٧ ـ ١٣٨م) ، وأنطونيوس بيوس (١٣٨ – ١٦١م) هذه السياسة عينها ، على أنهم لم يشجعوا ثورات الدهماء ضد المسيحية واتهاماتهم الكيدية الحاقدة . وجاء بعدهم ماركوس اوريليوس

(١٦١ — ١٨٠م) ، وشدد قبضة يد القانون على أصحاب الأديان الغريبة عن دين الدولة الوثنى ، وأثار عاصفة اضطهاد عنيفة استمرت حتى أوائل حكم خلفه كومودوس (١٨٠ — ١٩٠م) . على أن هذا الأخير أبدى نحو المسيحية تسامحا قائما على الإهمال وعدم المبالاة بهذا الدين الجديد . على أن المسيحية بقيت محرمة وجريمة يعاقب عليها القانون .

الشهيد « بوليكارب »

وفى عهد الامبراطور « ماركوس أوريليوس » (١٦١ — ١٨٠م) . وهو الامبراطور الفيلسوف ، استشهد القديس الأسقف « بوليكارب » سنة ١٦٧م . جرى بينه وبين حاكم الولاية (آسيا الصغرى) حديث طويل قبل استشهاده ، وأشفق الحاكم على شيبته (وكان قد بلغ المائة من العمر) وأراد انقاذه بأية وسيلة ملحا عليه أن يحلف بحياة الإمبراطور ، ولكنه تأبى بشمم وشجاعة ، وقد تأثر الحاكم بشجاعة هذا الشيخ أيما تأثر فأرسل رسولا إلى الشعب يقول إن « بوليكارب » اعترف بأنه مسيحى ، فصرخوا جميعهم طالبين أن يلقى إلى الأسود ، وكانت حفلات الوحوش قد انتهت ، فطلبوا أن يحرق بالنار فلم يمانع .

وحالا راح الشعب يجمع الأخشاب من الحوانيت والحمامات القريبة ، وكان اليهود أكثر الجمع نشاطاً وشماتة ، ولما صنعوا كومة ، خلع الشيخ ثيابه فى هدوء واتزان ، وصعد على الكومة . وأراد القواد أن يسمروه إلى خشبة ، فطلب إليهم أن يتركوه حراً طليقاً ، مؤكدا لهم أن السيد الذى يعبده ، سيمنحه قوة ليقف فى وسط اللهب ، فربطوا يديه فقط أما هو فرفع عينيه وصلى إلى السماء وتقول التقاليد إن النار انتشرت حوله ولم تمس جسمه ، بل التفت حوله كشراع تصفقه الريح . وأخيراً أمر الحاكم أن يطعن

بالسيف ، فرأى المسيحيون المشاهدون دماً نزف من جسده أطفأ النار . وألح اليهود على الحاكم أن تحرق جثته حتى تصير رماداً ، ولا يسمح للمسيحيين يدفنها لئلا ينقلبوا إلى عبادتها .

وتقول التقاليد إن هذا القديس تتلمذ فى أيام شبابه للرسول «يوحنا» وأنه تحدث إلى كثيرين ممن شاهدوا المسيح فى الجسد ، وأنه بلغ المائة من العمر .

إمعان الدهماء فى الاضطهاد :

قلنا إن المسيحيين أتهموا بالخيانة والإلحاد وكراهية الجنس البشرى ، فرفضهم الآلهة الوثنية القديمة حسب إلحادا ، ورفضهم عبادة الإمبراطور خيانة ورفضهم الاندماج فى حفلات الشعب والمجتمعات الوثنية حسب كراهية للجنس البشرى . فمن ثم اشتد هياج الجماهير ، وأمعن الشعب من الدهماء والرعاع فى العداء والاضطهاد . بل إنهم قد ذهبوا فى تشويه الحقائق والولوغ فى الشر الخبيث ، وسوء الظن القذر ، إلى الإدعاء بأن حفلات العشاء الربانى التى كانوا يقيمونها خفية ، ماهى الا صنف من صنوف الوثنية التى تبيح أكل اللحوم البشرية ، لأن المسيحيين على حد قولهم — كانوا يذبحون طفلا وليدا ويأكلون لحمه ويشربون دمه فى ولائمهم السرية .

وكان الشعب الجاهل الحاقد ، يعزو كل مصيبة تحل بالأمة إلى غضب الآلهة على جماعة المسيحيين ، فإذا حدث وباء أو قحط أو هزيمة فى الحرب ، وإذا هبط الفيضان فى نهر التيبر أو نهر النيل ، أو إذا اهتزت الأرض بزلزال عنيف ، اقتنع الوثنيون فى خرافاتهم ، بأن كل هذا مرده إلى جرائم المسيحيين ، واحتقارهم للألهة ، وهم الذين تهاونت الدولة فى أمرهم ، وتساهل الأباطرة والولاة فى القضاء عليهم ، فأغاظوا بذلك العدل الإلهى .

١٢

المـدافعون

[كوادرتوس ـ ارستيدس ـ طاطيان ـ مليتو ـ اثيناغورس ـ الشهيد يوستن] .

وكان من أثر هذه الاتهامات البشعة المسترذلة ، موقف الحكومة الرومانية وعملائها ، وكراهية الشعب ، أن نهض عدد من الأدباء والكتاب للدفاع عن قضية المسيحية ، وهم الذين أطلق عليهم "Apologists" أى المدافعين . وكان فى ظهورهم دلالة بينة على أن المسيحية قد تغلغلت إلى فئات من المثقفين ، وذلك لأن دفاعهم قد اتجه ـ أول ما اتجه إلى أهل العقل والفكر ، وذوى المرتبة الرفيعة فى المجتمع .

كوادرتوس ـ أرستيدس :

وكان أول المدافعين « كوادرتوس » من أثينا ، الذى قدم للامبراطور « هادريان » دفاعاً عن المسيحية سنة ١٢٥م ، ومازال بعض فقرات هذا الدفاع باقية فى متاحف أوربا . وتلاه أرستيدس الفيلسوف اليونانى المسيحى ، الذى قدم دفاعاً مماثلا فى سنة ١٤٠م إلى الامبراطور «انطونيوس بيوس » .

الشهيد يوستن ـ طاطيان ـ مليتو ـ أثيناغورس

أما الشهيد « يوستن » ، فقد كتب أشهر وأروع دفاع حوالى سنة ١٣٥م ، ربما فى رومية . وكان من بين المدافعين أيضاً ، تلميذه

« طاطيان » ، الذى جمع البشائر الأربع فى كتاب واحد ، متداخل بعضها فى بعض ، الذى سمى « الدياطسرون » ، وقد ترجم إلى اللغة العربية فى القرن الرابع عشر [١] .

ومن بين المدافعين أيضاً « مليتو » أسقف ساردس ، الذى كتب دفاعه فيما بين سنة ١٦٩م و ١٨٠م ، « وأثيناغورس » الذى كتب حوالى سنة ١٧٧م ، وما يزال دفاعه باقياً حتى اليوم بنصه ، فى بعض مكتبات البطريركيات المسيحية .

وليس هناك ثمة دليل على أن كتابات أولئك المفكرين ، قد أنتجت أثرها فى الفكر الوثنى المعاصر ، أو أن الحكام والولاة وأهل الحجا قد استجابوا إلى دعوتهم . ولكن كتاباتهم كان لها أعمق الأثر فى الدوائر المسيحية . وما من شك فى أنها زادت أهل الإيمان ثقة واقتناعاً بعدالة قضيتهم ، ونبل جهادهم . وكان كثيرون من أولئك المدافعين من طبقة الفلاسفة . وقد كان لتأويلهم الفلسفى للقضية أعمق الأثر فى تطور علم اللاهوت المسيحى .

ولنا هنا وقفة مع أشهر أولئك المدافعين الذى ختم دفاعه الباسل بدمه فى رومية حوالى سنة ١٦٥م ونعنى به يوستين الشهيد .

الشهيد يوستين :

ولد هذا الشهيد فى مدينة شكيم (السامرة القديمة) بفلسطين ، من سلالة وثنية ، وعاش فترة من الزمن فى أفسس ، وهناك على ما يبدو ،

---

(١) « الدياطسرون » أحد المؤلفات التى أصدرتها دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية ويمكن الحصول عليه من مكتبة الدار .

أشرق عليه نور الحق فاهتدى . ويصف هذا الاهتداء بأروع بيان سجله التاريخ ، ولأنه كان طالباً نابها من طلاب الفلسفة ، قبل الفلسفة الرواقية وفلسفة « أرسطو » و « أفلاطون » ، وفى أثناء تعلقه بالأفلاطونية ، اتجه فكره إلى الأنبياء العبرانيين ، الذين حسبهم أقدم من عرف من الفلاسفة وأصدقهم في تأويل أصل الأشياء ، وهم الذين أرشدهم الروح القدس ، فمجدوا الخالق ، الله أبا الكل ، وأعلنوا ابنه المسيح . وبعد أن اقتنع برسالة قدامى الأنبياء ، يقول : « حالا اضطرم لهيب فى نفسى ، وحب للأنبياء الذين كانوا أصدقاء المسيح ، وأيقنت أن هذه هى الفلسفة العليا الوحيدة ، ذات النفع والخير » من ثم لم يكن اهتداؤه اختباراً روحياً عميقاً مع الرب المقام كما حدث لبولس الرسول ، لم يكن إحساساً بغفران خطاياه ، إنما كان اقتناعاً عقلياً بأن المسيحية هى أقدم وأصدق الفلسفات التى عرفها البشر ، وأقربها إلى فكر الله . وظل يحسب نفسه فيلسوفاً مسيحياً ، ثم انطلق إلى رومية ، وهناك كتب دفاعه حوالى سنة ١٥٣م موجهاً هذا الدفاع إلى الامبراطور « أنطونيوس بيوس » ، وأبنائه الذين تبناهم ، ومدافعاً عن المسيحية ضد اضطهاد الوثنية لها ، ثم عاد إلى أفسس ، وهناك كتب حوار تريفو[١] المشهور ، مدافعاً عن المسيحية ضد اليهودية .

وفى زيارة أخرى إلى رومية ختم جهاده بالدم ، شهيداً من شهداء المسيحية .

---

(١) "Dialogue with Trypho"

١٣

الفتوحات المسيحية

[ترجمة أقوال المسيح من اليونانية الى اللاتينية — عدد المسيحيين فى ولايات آسيا — قبرص وكريت — بلينى الوالى الرومانى — الذهبى الفم] .

قلنا فى حديث سابق إن فتوحات رومية قد مهدت الطريق ، وهيأت أسباب انتشار المسيحية . فيما بعد ، اتحدت ولايات أوربا وآسيا وأفريقية ، تحت راية سلطان قوى واحد ، وارتبطت كلها بشرائع وعادات ولغة واحدة. أما يهود فلسطين ، الذين توقعوا مجيء منقذ جبار من أهل الأرض يرفع من شأنهم أمام جميع الشعوب ، لم يقبلوا المخلص الإلهى الذى أرسلته السماء إلى دنيا البشر ، ولذلك لم يحفلوا برسالته ، ولم يدونوا شيئاً عنه فى مؤلفاتهم ، واكتفوا فى أول العهد بإزاحته من طريقهم ، وما دروا أنه سيتبوأ أرفع مكانة فى التاريخ اللاحق .

ترجمة أقوال المسيح من اليونانية إلى اللاتينية :

وكان من جراء هذا التعنت ، أن كتبت اقوال المسيح وأعماله باللغة اليونانية فى أماكن بعيدة عن أورشليم ، وبعد تكاثر المؤمنين من الوثنيين كثرة هائلة . وقد ترجمت تلك إلى اللغة اللاتينية فيما بعد ، على أنها لم تكن مفهومة إلا لقلة من رعايا الإمبراطورية ، ما عدا أهل سورية ومصر والذين وضعت لهم ترجمات خاصة باللغتين . السريانية والقبطية ..

وكان للطرق التى عبدها الرومان لجحافلهم وجيوشهم ، فضل كبير إذ سهلت لدعاة المسيحية ومبشريها الإنتقال من دمشق إلى كورنثوس ، ومن إيطاليا إلى أسبانيا وبريطانيا . ولم يلق أولئك الفاتحون الروحيون فى طريقهم ، أية عقبة قد تعوق أو تحول دون توصيل هذا الدين الجديد إلى أبعد الاصقاع ويقول المؤرخون إنه قبل عصر « دقلديانوس » الإمبراطور الرومانى الذى اضطهد المسيحية ، كان قد نودى بدين المسيح فى كل ولاية ، وفى كافة المدن الكبرى فى الامبراطوية الرومانية . ولكن الجماعات المسيحية العديدة التى تناثرت فى كل الارجاء ، وعدد المؤمنين بالنسبة إلى جماهير الوثنية ، بقى سراً خفياً غامضاً ، لم يكشفه لنا التاريخ . على أننا سنلقى الآن نظرات عجلى — على قدر ما توصلت إليه بحوث المؤرخين على نمو المسيحية فى آسيا أو اليونان ومصر وايطاليا ، وفى الغرب ، وفيما وراء حدود الامبراطورية الرومانية فى ذلك التاريخ .

عدد المسيحيين فى ولايات آسيا :

وكانت الولايات الغنية الممتدة من نهر الفرات إلى بحر اليونان ، المسرح الرئيسى العام ، الذى جال فيه وصال بغيرة متقدة وحماس منقطع النظير — رسول الأمم « بولس » العظيم [١] . وقد بذر بذور الإنجيل فى تربة خصبة ، وراح تلاميذه من بعده يتعهدونها بالسقى والإنماء . وفى القرنين الأول والثانى ، كانت جماهير المسيحيين تقطن هذه البقعة من الأرض وهى من أقدم الجماعات المسيحية التى كان لها شأن فى سورية فى التاريخ المبكر ، فى دمشق وحلب وأنطاكية . وقد خلد الرسول « يوحنا » فى رؤياه ، أسماء كنائس سبع — هى أفسس ، وسميرنا ، وبرغاموس ، وثياتيرا ،

---

(١) إقرأ « سيرة رسول الجهاد » للمؤلف .

وساردس ، ولاودوكية ، وفيلادفيا — وقد امتد نشاطها بطبيعة الحال ، إلى كل الرقاع المحيطة بها .

قبرص وكريت :

وفى تاريخ مبكر أيضاً ، استقبلت هذا الدين الجديد استقبالا رائعاً جزيرتا قبرص وكريت ، وولايات تراقية ومكدونية فى بلاد اليونان . وقامت أيضاً جماعات مسيحية فى كورنثوس وسبارطا وأثينا . ولم يذكر لنا التاريخ شيئاً عن عدد المسيحيين فى تلك الرقاع فى عصرها البدائى الأول ، على أن شاهدين من أعلام الوثنية يلقيان بعض الضوء على هذا الموضوع الغامض . ففى كتابات « لوسيان » وهو فيلسوف وثنى درس طبائع البشر ، ووصف أخلاقهم ، بصور حية براقة ، عاش فى بنطس ، نقرأ أن وطنه الذى عاش فيه امتلأ بحشود ضخمة من الأبيقوريين والمسيحيين.

« بلينى » الوالى الرومانى :

ولم تنقض ثمانون عاما بعد موت المسيح ، حتى نشهد والياً رومانياً فى آسيا الصغرى هو « بلينى » الطيب القلب ، يندب حظ بلاده ، ويشكو من استفحال ذلك الشر المخيف الذى حاول استئصال شأفته ، ألا وهو « المسيحية » . وفى رسالته المأثورة التى بعث بها إلى الامبراطور « تراجان » يقول إن الهياكل قد هجرت ، والذبائح قد أهملت ، والخرافات قد استشرت ، لا فى المدن الكبرى وحسب ، بل فى القرى والضياع ، وفى ولايتى بنطس وبيثنية أيضاً . وهناك كتابات أخرى كثيرة ، تشهد لسعة انتشار الدين الجديد ، ولكن أحداً من الكتاب لم يترك لنا بياناً عن عدد المؤمنين فى تلك الولايات الآسيوية . ولم يحفظ

التاريخ إلا حالة واحدة قد تلقى بصيصاً من النور على هذا الموضوع الغامض .

الذهبى الفم :

يقول القديس الذهبى الفم ، إنه كان فى مدينة أنطاكية القديمة الشهيرة فى عهد الامبراطور «ثيودوسيوس» ، أكثر من مائة الف نسمة من المسيحيين ، وكانت الكنيسة تعول ثلاثة آلاف من مالها العام . ويقول أيضاً ، إن عدد المؤمنين كان يزيد عن عدد اليهود والوثنيين مجتمعين معاً .

أما مدينة الإسكندرية التى كانت قريبة من فلسطين مهد المسيحية ، فقد استقبلت هذا الدين الجديد استقبالا حاراً ، وكان من أوائل المؤمنين طائفة الأسينيين اليهود ، الذين عاشوا حول بحيرة مريوط ، وعاش أولئك حياة تقشفية امتازت بالأصوام الصارمة والاشتراكية المفرطة ، والعيوف عن الزواج — والغيرة فى الاستشهاد ، وحرارة الإيمان ، وإن خلا إيمانهم من النقاوة .

١٤

الاشتراكية فى المسيحية

[بداءة الاشتراكية ـ تطور الاشتراكية البدائية ـ ثروة الكنيسة ـ التعاون بين الكنائس الغنية والفقيرة ـ الاغاثة فى هذا العصر] .

بداءة الاشتراكية :

إن الإشتراكية التى راودت خيالات الفليسوف « أفلاطون » ، والتى استقر معناها فى وضع بدائى بين طائفة الأسينيين المتقشفين ، نقول إن هذه الإشتراكية قد مارستها الكنيسة الأولى فى مهدها ، فترة قصيرة من الزمن ، وفى هذا يقول السفر المقدس : « وكان كل شئ بينهم مشتركاً » وبفعل الحماس الدافق باع الدخلاء الأولون إلى المسيحية كل مقتنياتهم الدنيوية التى احتقروها ، ووضعوا ثمنها عند أقدام الرسل ، وقنعوا هم أنفسهم بنصيب متساو مع الذين اشتركوا فى عملية التوزيع العام .

تطور الاشتراكية البدائية :

ولكن تطورت بعد ذلك الفكرة المسيحية بعد تكاثر عدد المسيحيين ، وخمدت هذه الحركة تدريجاً ، إلى أن بطل العمل بهذا النظام القائم على الكرم المفرط . ولعله كان من الخير إبطاله ، فلو أنه استمر فى أيدى الرسل ، لشابه الفساد بحكم اعوجاج الطبيعة البشرية وأثرتها . وسمح بعد ذلك لمن اعتنقوا هذا الدين الجديد ، أن يحتفظوا بأملاكهم ، وينالوا حقوقهم فى الإرث ، ويقبلوا الوصايا ، ويضيفوا إلى ثرواتهم ما تكسبه أيديهم بالجهد

الحلال ، والوسائل الشرعية فى التجارة والصناعة . وعوضاً عن التضحية الشاملة بكل ما ملكته أيديهم ، قبل رعاة الكنيسة نصيباً معتدلا معقولا من أفراد الرعية ، وكان على كل مؤمن أن يقدم طواعية إلى مال عام مشترك ، تقدمته الأسبوعية أو الشهرية ، كل على قدر طاقته المالية ، وتقواه الروحية . ولم تكن ترفض أية تقدمة مهما قلت ولكن بقيت نسبة العشور فى الشريعة الموسوية التزاماً إلهيا مقبولا ، وكان إيراد كل كنيسة يتفاوت تبعاً لغنى المؤمنين وفقرهم ، وكثرة عددهم ، وقلتهم ،فى الكنائس المختلفة وروى التاريخ فى عصر الإمبراطور « ديسيوس » ، أن المسيحيين فى رومية احتازوا ثروة طائلة ، وأنهم استخدموا فى عبادتهم آنية من الذهب والفضة ، وأن كثيرين من المؤمنين باعوا أراضيهم ودورهم ، فأغنوا بذلك أملاك الكنيسة على حساب أطفالهم البائسين ، الذين وجدوا شحاذين ، لأن والديهم كانوا قديسين .

ثروة الكنيسة :

وكانت ثروة الكنيسة فى ذلك العهد أموالا منقولة ،ولم تطمع الكنيسة فى اقتناء العقارات والأراضى الثابتة ، وخاصة لأن قوانين الدولة لم تكن تسمح بمنح الأموال الثابتة لأية هيئة بدون موافقة الإمبراطور أو مجلس الشيوخ . وقيل إنه فى عهد الأمبراطور « الكسندر سيفروس » ، خفف وطأة هذا القانون ، وسمح للمسيحيين باقتناء الأراضى داخل حدود رومية فقط . على أن تقدم المسيحية وسعة انتشارها وكثرة أعدادها ، كان لها شأن فى تخفيف صرامة القوانين . وما بلغ القرن الثالث نهايته ، حتى كانت الكنائس الغنية فى رومية ، وميلانو ، وقرطاجة ، وأنطاكية ،والأسكندرية وغيرها من مدائن ايطاليا والولايات الشرقية ، قد فازت بقسط وافر من المنح والهبات العينية .

كان ينفق من هذه الأموال العامة على مرتبات الأساقفة والقسوس العاملين معهم ، وعلى العبادات العامة مثل ولائم المحبة ، وعلى الفقراء والمعوزين وغيرهم من الأرامل والأيتام والمرضى والعجزة والغرباء والحجاج ، وتخفيف لوعات الأسارى والمحبوسين ، وخاصة حين كان تمسكهم بالدين يسوقهم إلى مثل هذه المواقف الأليمة .

التعاون بين الكنائس الغنية والفقيرة

وقد جمع مبدأ المحبة المتبادلة والشركة الأخوية ، بين الكنائس الغنية والفقيرة ، وأغدق الأغنياء بسخاء على الجماعات الفقيرة البعيدة ، وكان هذا كله من العوامل التى أدت إلى انتشار المسيحية وقوة تأثيرها فى المجتمع ، واعترف العالم الوثنى يومئذ بهذا الفضل الكبير ، واجتذبت بوسائل الإغاثة والإسعاف المختلفة أعداداً غفيرة إلى احضانها ، من أولئك التاعسين الذين لفظهم العالم ، وأسلمهم إلى مهاوى الفقر والحاجة والضياع والمرض والعجز . وروى التاريخ أن أعداداً غفيرة من الأطفال الذين طوح بهم والدوهم إلى الموت . حسب قوانين ذلك العصر ، احتضنهم المسيحيون ، وتولت الكنيسة تربيتهم ، ورعايتهم ، والإنفاق عليهم من مالها العام .

الإغاثة فى هذا العصر

وجهود الأغاثة وإسعاف المنكوبين من المبادئ المرعية حتى اليوم فى خدمات الكنيسة المسيحية . وحسبك أن تقرأ ما يفعله مجمع الكنائس العالمى ، وغيره من الهيئات المسيحية فى هذا العصر من خدمة الإسعاف والإغاثة فى بلد من بلدان العالم ، تصيبه نكبة أو كارثة من الكوارث

الطبيعية كالمجاعات والفيضانات والزلازل والأوبئة والحروب . . . . الخ لتحكم فى غير تعصب ، أن مبدأ المشاركة الإنسانية الذى بدأ فى الكنيسة الأولى فى فجر المسيحية ، ما فتئ يمارس حتى اليوم ، وعلى نطاق واسع وذلك طوعاً لأمر رب المسيحية الذى جال بين الناس يصنع خيراً فى حياته على الأرض .

١٥

اضطهاد المسيحية فى القرن الثالث

[الامبـــراطور ديســـيوس ــ الامبـــراطور جالوس ــ الامبراطور دقلديانوس ــ الامبراطور جاليروس ــ قسطنطين الكبير] .

لاقت الكنيسة أعداء من الخارج ومن الداخل ، ولكنها لم تتعثر فى قوتها وامتدادها وبدأت من منتصف القرن الثانى ، تلعب دورها فى حياة الشعب . وما أهل القرن الثالث ، حتى أحست الوثنية أن كيانها راح يهتز ويتمايل . وكان قد بلغ عدد أفراد الجماعة المسيحية فى رومية — ولعلها كانت أكثر الجماعات عدداً — حوالى عشرون ألفاً . وصارت بفضل دستورها ونظمها ، قوة اجتماعية هائلة ، تعادل قوة الدولة . فإذا رامت الإمبراطورية أن تحتفظ بمقوماتها الوطنية والسياسية ، التى ورثتها عن القرون الخوالى ، فإن الساعة هى الفرصة الملائمة للعمل والنضال .

ومن هذا التاريخ (أى حوالى منتصف القرن الثالث) ،بدأت الدولة الوثنية اضطهادها المنظم فى أنحاء الإمبراطورية ، ووضعت تدابير محكمة للهجوم على الكنيسة كلها وأنفذتها بكل مالديها من وسائل القوة وأسباب العنف والعسف .

عهد الإمبراطور ديسيوس :

وبدأ هذا الهجوم فى عهد الإمبراطور « ديسيوس » (٢٤٩ — ٢٥٠) فاصدر أوامره للقيام بإحصاء شامل لجميع المسيحيين ، وأوعز إلى السلطات

كلها فى الإمبراطورية ، أن تبدأ هجومها على الجماعات المسيحية ، دون إقامة أية تهمة خاصة ، وأن ترغم المسيحيين على تقديم البخور لتمثال الإمبراطور . وأعقبت هذه الأوامر ، فترة رهيبة مروعة بذل فيها الدماء عدد لايحصى من الشهداء .

وبعد موت « ديسيوس » ، تنفست الكنيسة الصعداء ، وأحست ببعض الفرح المؤقت .

دقلديانوس

سادت فترة من الهدوء والتسامح العملى لم ينفذ فيها قانون اضطهاد المسيحية ، إلا فى حالات فردية . وقد ظلت فترة الهدوء أربعين عاماً . ولكنها كانت أشبه بالهدوء الذى يسبق العاصفة . فان الامبراطورية الرومانية فى عصر « دقلديانوس » (٢٨٤ — ٣٠٥) ، قامت كلها قومة واحدة ضد عدوها البغيض ، لكى تعيد السلطان المطلق للدولة إلى سابق مجده وسؤدده . وكان هذا أمر وأعنف إضطهاد شهدته الكنيسة فى تاريخها . كان نضالا للحياة أو الموت .

وكان « دقلديانوس » هذا من أصل وضيع ، ربما من سلالة العبيد ولكنه أبلى بلاء حسناً كجندى ، فرفعه زملاؤه فى الجيش إلى عرش القياصرة ، على أنه كان إدارياً ممتازاً ، وطن العزم على أن يجعل من الامبراطورية قوة هائلة للدفاع عنها ضد هجمات اعدائها . وتنظيم الادارة الداخليه تنظيماً يقضى على المؤامرات الخفية — لذلك عين زميلا له من رفاق السلاح « مكسيميان » امبراطورا فى الغرب سنه ٢٨٥ ، وفى سنة ٢٩٣ ، عين اثنين من القياصرة المساعدين ، أحدهما « كوستانتيوس » فى منطقة الدانوب . أما فى الداخل ، فقد أبطل سلطات الجمهورية القديمة

واختصاص مجلس الشيوخ ، جعل نفسه حاكماً دكتاتورياً مطلق السلطة ، هجر العاصمة رومية ، وجعل مقامه فى نيكوديما فى آسيا الصغرى .

وكان هذا العاهل الرومانى فظاً خشناً، ونصيراً للوثنية من الطراز الجاف الطباع الغشيم الخلق . ومع ذلك قضى حوالى سبعة عشر عاما من حكمه فى هجوع وهدوء ، ربما لأن زوجته « بريسكا » وابنته « فاليرا » ، كانتا من المؤمنات بالمسيحية . ولكنه ثار فى أواخر عهده ثورة النمر الشرس المتعطش إلى الدماء ، وأعد هجمته المريعة على الكنيسة ، مسوقاً إلى ذلك بإيعاز صهره « جاليروس » ، وهو جندى تأجج صدره غيظاً وحقداً وكراهية نحو المسيحيين .

وكان عدد المسيحيين قد زاد فى المناصب العليا وفى القوات المسلحة وفى قصور الولاة والحكام ، وكان على الامبراطور ، إما أن يقضى على الكنيسة ورجالها ، التى حسبها دولة داخل الدولة ، أو يهادنها ويتخذها حليفة له — وقد آثر أن يختار الطريق الأول ، ويترك الطريق الثانى لخلفه « قسطنطين الكبير » كما سنرى فيما بعد .

وفى الرابع والعشرين من شهر فبراير سنة ٣٠٣م ، أصدر العاهل الرومانى أمره الملكى القاضى بعزل جميع الضباط المسيحيين من الجيش وطرد جميع الموظفين المسيحيين من مناصبهم ، وتدمير الكنائس المسيحية ومصادرة الكتب المقدسة وإحراقها . وأعقب هذا الأمر قرار آخر ، قضى بزج جميع رجال المسيحيين فى غيابات السجون ، واكراههم على السجود لتمثال الأمبراطور ، ثم قرار ثالث أصدره فى سنة ٣٠٤م ، قضى أن يعبد المسيحيون تمثال الأمبراطور ، وإلا حكم عليهم بعقوبة

الموت واتخذت أوسع الإجراءات لتنفيذ هذه القوانين تنفيذاً دقيقاً . على أن هذا لم يكن مستطاعاً فى كل الأحوال .

الإمبراطور جاليروس

وفى سنة ٣٠٥م أصيب « دقلديانوس » بداء عضال يصعب البرء منه فتنازل عن العرش ، وغدا « جاليروس » لا منازع له فى الإمبراطورية الشرقية . ومن تلك اللحظة ، بدأ الاضطهاد العنيف فى الشرق بدون رحمة ولا هوادة ، وفى جنون وهياج . وكان الاضطهاد فى هذه الفترة أشبه بمذابح جنونية ، لا أثر فيها لعدل ولا رحمة ، فأرغم المسيحيون بوسائل كريهة على أن يقدموا البخور للامبراطور . وحتى الأطعمة التى عرضت للبيع فى الأسواق ، مزجت بخمر الذبائح الوثنية ، لكى يضطر المسيحيون بهذه الوسيلة إلى الإذعان والخضوع . وساد الامبراطورية كلها من أقصاها إلى أقصاها اضطراب مريع زلزل أركانها ، لأن المسيحيين أنفسهم اضطروا للمقاومة فى بعض الأماكن . وبعد أربع سنوات طوال من الرعب والهول (٣٠٦ – ٣١٠م) ، اضطر « جاليروس » وأنفه راغم ونفسه سقيمة أن ينسحب من الميدان ، وفى الثلاثين من شهر إبريل من سنة ٣١٠م ، أصدر وهو على سرير موته قانون التسامح العام ، معترفاً بأن المسيحية قد قهرته وأذلته . ومن تاريخ هذا الاضطهاد المريع الشنيع ، يبدأ التقويم القبطى المعروف بسنة الشهداء ، وذلك لكثرة من استشهد فيه من أبناء المسيحية .

قسطنطين الكبير

وقد أتم « قسطنطين » هذا العمل الجليل ، وجاهد تحت راية الصليب . وحرر إيطاليا أولا من غاصبها « مكسنتويوس » ثم أصدر قراره المأثور فى

التاريخ ، الذى أذاعه فى رومية سنة ٣١٣م ، وقرر به التسامح الدينى فى كل أنحاء الامبراطورية شرقاً وغربا ، ووضعت المسيحية على قدم المساواة مع الوثنية كعقيدة شخصية تتبع ضمير الأفراد . وغدا كل إنسان حراً يختار ما يشاء من عقيدة وعبادة ، ومنح المسيحيون حرية تامة فى أداء فرائض دينهم ، وانتهت الأزمة الخانقة ، وتنفست الكنيسة الصعداء ، وبعد ظلام الليل الدامس أشرق نور الفجر الوضاء .

١٦

الهرطقات المسيحية

[شيعة الغناطسة ـ البدعة المونتانية]

خاضت المسيحية طريقها فى تلك القرون الأولى ، وسط أشواك العداء ، من اليهودية تارة ، ومن الوثنية أخرى . ولكن أعداء آخرين من الداخل ، نصبوا أنفسهم لمناوأتها والنيل منها . فما لاحت تباشير القرن الثانى ، حتى كانت قد فشت فى الكنيسة آراء خاطئة ملتوية ، ومذاهب شاذة ، حادت عن الرسالة المسيحية الأولى وجوهر الإنجيل ، ونهض الملحدون والهراطقة لنشر الضلالات والنظريات الباطلة . ومما ساعد على نشر مذاهب الإلحاد ، ضعف نظام الكنيسة فى أول عهدها ، وعدم تحديد عقائدها تحديداً يذهب الباطل عنها . وقد نجت الكنيسة من هذا الخطر وقهرت هؤلاء الأعداء جميعاً ، إنما فعلت ذلك عن طريق وضع نظم جامدة ، وعقائد للايمان ثابتة ، وإدارة رئيسية غدت فى ختام القرن الثانى صاحبة الأمر والنهى فى كل ما يتعلق بشئون الدين .

شيعة الغناطسة :

وحدث فى آسيا الصغرى ، فى مستهل القرن الثانى ، أن شاعت آراء تنكر ناسوت المسيح وموته الفعلى ، وذهب مروجوها إلى أنه لم يجىء « فى الجسد » ، بل فى شكل روحانى . ولعل هذا هو الذى حمل الرسول « يوحنا » على أن يقول فى فاتحة رسالته الأولى « ... الذى سمعناه ، الذى رأيناه بعيوننا ، الذى شاهدناه ولمسته أيدينا ... » . وكانت هذه الآراء

بداية ما عرف فى التاريخ « بشيعة الغناطسة » . وقد أراد أصحاب هذه النظريات أن يوفقوا بين تناقض ظاهرى ، فهم قد رأوا أن حياة الاتضاع التى عاشها المسيح على الأرض ، لا تنسجم مع مجده السابق الذى كان له قبل نزوله إليها ، لذلك أنكروا حياته الأرضية الفعلية . فالمسيح عندهم ظهر فعلا ، وعلم تلاميذه ، ولكنه كان كائناً سماوياً ، لا لحماً ولا دماً . وهذه النظرية مضادة للإيمان المسيحى التاريخى ، فأحدثت أزمة داخلية فى الكنيسة ، لعلها كانت أشد الأزمات ، منذ النضال الذى ثار حول ضرورة تهود الأمم قبل اعتناقهم المسيحية فى القرن الأول .

وقد زعم أنصار الشيعة الأغنسطية ،أن أساس عقيدتهم هو « المعرفة» ، لا المعرفة كما نفهمها فى هذا العصر ، بل المعرفة السرية الغامضة ، المستمدة من الحكمة الخارقة للطبيعة ، لإدراك آسرار الكون . وقد أدمجت الأغنسطية فى معتقداتها ، عناصر مستقاة من مصادر شتى واتخذت أوضاعاً مختلفة . ويرجع أصلها فى الواقع إلى ما قبل المسيحية ، وكان منها صور فى اليهودية وفى الوثنية . وبعض عناصرها مستقى من آداب مصر القديمة ، وربما من الآراء الدينية البابلية والفارسية القديمة . وذلك لأن أصحاب هذه الشيعة آمنوا بقوتين إلهيتين فى الكون ، إحداهما صالحة ، وهى التى يسعى الإنسان دائباً للعودة إليها ، والأخرى شريرة ، وهى التى تقيده بأصفاد وقيود . وعندهم أن العالم المادى شر كله . ولذلك لا يمكن أن يكون الله العلى الصالح خالقه وحاكمه ، إنما الذى خلقه ويدبره كائن ناقص أدنى من الله . ولكى يخلص الإنسان ، لابد له أن ينطلق أولا من قيود هذا العالم المادى المنظور ، وما فيه من أرواح شريرة ، والوسيلة لهذا الإنطلاق هى المعرفة ، أى الاستنارة الروحية الخفية ، التى تدنيه إلى الصلة بعالم الحقائق الروحية .

ولقد وجدت الأغنسطية فى المسيحية شيئاً كثيراً استعانت به فى الدفاع عن نظرياتها : فاتخذت المسيح مثلا ، وصاغته شكلا معيناً ، وجعلته محور نظريتها عن المعرفة العليا السامية التى تخلص الإنسان ، فهو فى نظرهم قد أعلن للناس الله العلى العظيم الكامل الذى لم يكن الناس يعرفونه . وبهذه الاستنارة الروحية استطاع الروحيون الذين دقت أحاسيسهم ، أن يعودوا إلى أحضان ملكوت الإله الصالح . وما دام العالم المادى شراً كله ، فإنه لن يمكن أن يكون المسيح قد تجسد فعلا . ويعلل هؤلاء الأغنسطيون ظهوره فى الجسد بشبح روحى ، أو على أنه استقرار موقت فى الإنسان يسوع ، أو على أنه ميلاد من أم عذراء ، دون أن يصيبه شىء من الطبيعة المادية . أما عن الله فى العهد القديم ، فقالوا إنه ليس الإله الذى أعلنه المسيح ، بل هو الكائن الأدنى الذى خلق العالم المادى المنظور .

كذلك ألفوا فى أقوال بولس الرسول، مرتعاً خصيباً لترويج أفكارهم، فمقارنته بين الجسد والروح (رومية ٨ : ٢٢–٢٥ و ١ كور ١٥ : ٥٠) ، وآراؤه فى المسيح الفائز على « الرياسات والسلاطين » ، الذين هم « ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر » (كولوسى ٢ : ١٥ وأفسس ٦ : ١٢) ، وتفكيره عن المسيح كأنه « الإنسان من السماء » (١ كوره ١ : ٤٧) . هذه كلها اتخذها القوم أسانيد لمذهبهم . وكان بولس عندهم أكبر الرسل جميعاً .

وبعد كل هذا ، نرى البدعة الأغنسطية تدور كلها حول الفكرة الفلسفية التى تقارن بين الروح والمادة ، وبين النور والظلمة ، وهى فكرة مستعارة من العالم الوثنى كما قلنا . فالله هو إله النور ، الذى انبثقت من أعماق وجوده أرواح نورانية على نظام نزولى . وإلى جانب هذا الإله

النورانى ، يوجد عالم المادة الحافل بأرواح الظلمة الشريرة . وعالمنا هذا من صنع روح من هذه الأرواح الشريرة ، ومن هنا كانت نقائصه وشروره . والمسيح هو ذلك النور الأعلى المنبثق من الله الذى غلب ملكوت الظلمة .

وفى هذه الآراء الأغنسطية ، نقدر أن نتتبع آثار فلسفة الإمبراطورية الرومانية وهى تحاول أن تجذب إليها العالم فى ذلك العصر ، وتجتهد لإشباع رغبات الطبقات المثقفة ، ولهفتها إلى معرفة الاله الاسمى . على أنها تبين لنا فى الوقت نفسه ، مدى تأثير المسيحية فى الحياة الروحية للامبراطورية من بداية القرن الثانى . ولكن الأغنسطية بقيت فلسفة حتى بعد أن قرنت نفسها بالمسيحية ، واتخذت عقائدها وتلاعبت بها كما حلا لأنصارها . ولذلك كان مصيرها المحتوم — شأن كل الفلسفات العقلية الأرضية — أن انتهت — على الرغم من كل ظواهرها — بالشك وعدم اليقين .

ويمكن القول بشىء من التحفظ ، أن الأغنسطية كانت بمثابة مذهب العقليين فى القرن الثانى ، فاستعاضت عن المسيحية بدين فلسفى لإنارة العقل ، دين قامت أسسه على معرفة قوى الكون وأسراره ، ولكنه قام فى الواقع على تقاليد الوثنية ، على آراء مستعارة من الفلسفات القديمة ، وعلى عبادة بائدة جعلت السماء والأرض آلهة لها . وبذلك بدلوا إله المسيحية الحى بإله مجهول ، هو إله الفلاسفة والأسرار العويصة .

ولقد فطنت الكنيسة إلى هذا العدو المقنع الخطر ، وأدركت أن الأغنسطية ، على الرغم من موقفها الودى نحو المسيحية ، تهدم أركان الدين الصحيح . وعرفت المسيحية أن إيمانها ليس فلسفة عالمية : وأن موضوع رسالتها ليست أفكاراً ونظريات عقلية ، وأن الحياة الصالحة المستقيمة لا تقوم على حفلطة كلامية فلسفية ، بل على اختبار المحبة الإلهية المعلنة فى

المسيح . لذلك أبت الكنيسة أن تتهاون مع هذا العدو الماكر ، ووقفت له بالمرصاد ، حتى أذلته وخرجت باكليل الفوز والنصر .

ونستطيع أن نقدر مدى الخطر الذى استهدفت له الكنيسة : حين نفكر أن الأغنسطية استمالت إليها الطغام والرعاع بطقوسها وشعائرها ، وملكت لب العالم الوثنى كله ، بوضع ساحر من أوضاع التصوف المأخوذ عن الماضى السحيق ، وبادعائها أن فيها شبعا للعقل والقلب معا ، وانسجاماً مع اساليب الفكر التقليدية ، كما أنها قد استمالت إليها فى الوقت نفسه ، خاصة الشعب والمثقفين ، بوضعها قواعد من الآداب والأخلاق صارمة ، وبإروائها طمأ النفوس العطشى إلى معرفة الاله الحق .

واستغرقت معركة الكنيسة مع هذه الفلسفة المضللة طوال القرنين الثانى والثالث ، وكانت معركة حامية الوطيس ، لإنقاذ مبادىء الحق السليم الذى طغت عليه هذه المطارحات الوثنية الرمزية . وكانت الأغنسطية بمثابة معاهدة الصلح التى قدمتها ثقافة القرن الثانى للمسيحية . ولو أن المسيحية قبلت شروطها ، لضاعت واندثرت هذه الثقافة . ولكن الكنيسة كسبت المعركة ، ونرى آثار هذا النضال فى النتائج التى ترتبت عليه . فانه فى خلال المعركة ، اضطرت الكنيسة إلى أن تعين الأسفار القانونية للعهد الجديد (الإنجيل) أى تلك الأسفار التى اعتبرتها مصادر صحيحة موحى بها لإعلان الحق المسيحى ، واستبعدت الأسفار المضللة التى اذاعت تعاليم الأغنسطيين وعقائدهم الخاطئة . وفى خلال هذه المعركة ، وضعت أسس علم اللاهوت المسيحى ، ونظم الكنيسة ودستورها . وبذلك وقت الكنيسة حياتها ، لا من الدولة الوثنيه فقط ، بل من الفلسفة الوثنية التى

كانت عدوا أفتك وأخطر . على أن الكنيسة لم تخرج من هذه المعركة كما كانت من قبل ، فإنه فى صراعها قد تبدلت مسيحية العصر الأول البدائية ، وصارت المسيحية المنظمة « الكاثوليكية » الجامعة .

البدعة المونتانية :

وكان على الكنيسة أيضاً أن تقهر عدواً آخر — غير الأغنسطية — هو ماسمى فى التاريخ بالشيعة المونتانية (Montanism) . ففى منتصف القرن الثانى ظهر فى مدينة فريجية بآسيا الصغرى ، رجل يدعى « مونتانوس » ، وهو كاهن وثنى متنصر ، إدعى انه نبى مسيحى ، وأن لديه رسالة جديدة عن الروح القدس .

ونادى بين الناس قائلا ، إن مجىء المسيح قريب على الأبواب ، وأن « فريجية » هى « الملجأ الحصين » ومقر أورشليم الجديد ، ومجتمع كل المسيحيين . وأذاع دعاية خبيثة قائلا ، إن كل النظم المسيحية الدستورية باطلة لاقيمة لها ، وأن كنيسة القديسين هى العروس الطاهرة النقية ، التى تترقب عودة عريسها . ونعى على الكنيسة امتزاجها بالعالم واندماجها فيه ، وحث على استعادة الرجاء الذى ملأ صدور المسيحيين فى بدء الدعوة وجعلهم يترقبون فى فارغ الصبر عودة سيدهم وربهم ، وألح على أن تنفصل الكنيسة انفصالا تاماً ، عن كل الأشياء الأرضية . وقد لقيت دعوته قبولا حارا فى بعض الأوساط . ولو أن حركته هذه قدر لها النصر ، لاستحال العالم المسيحى جمهورا من المعتزلين المتقشفين الزاهدين ، ولوقفت الدعوة المسيحية وقوفا تاما ، ولصارت المسيحية ذاتها شيعة تصوفية ، يسكن أنصارها الجبال والكهوف بعيدين عن معترك الحياة العملية .

وقد كانت دعوته فى الواقع تهجما على الأساقفة ورؤساء الكنيسة ،

فهو قد أنكر سلطان الأسقف ، وقال إن النبي هو الأداة المباشرة لتلقى الوحى الإلهى ، وهو صاحب السلطان فى قبول الساقطين والمارقين إلى أحضان كنيسة القديسين ، لا الأسقف صاحب الوظيفة الرسمية . وكانت بمثابة دعوة لإحياء الكنيسة المسيحية الأولى ، والتى لم تكن تعرف وظائف رسمية ، ولم يكن لها رؤساء تتركز السلطة كلها فى أيديهم . على أن السلطة الأسقفية التى كانت قد أمسكت بين أيديها ، كل شأن من شئون الكنيسة الروحية والإدارية ، قد تغلبت فى آخر الأمر على أنصار هذه الدعوة . وما إن بزغ القرن الثالث ، حتى تم لها الفوز فى هذا النضال ، واستتب للأسقفية سلطانها الكامل ، فى الإشراف على تعاليم الكنيسة وعقائدها ، وتمكنت بذلك من القضاء على الأغنسطية وغيرها من نظريات الإلحاد والمروق .

ونكتفى الآن بهاتين البدعتين من أعداء الداخل . وقد كانت هناك بدع أخرى كثيرة تغلبت عليها المسيحية ، وخرجت سليمة كالذهب المصفى ، قوة هائلة لإخضاع العالم .

١٧

المدينتان
رومية والاسكندرية

الكنيسة فى رومية ــ ضعف كنائس آسيا الصغرى ــ الخلاف حول ميعاد عيد الفصح ــ ميعاد عيد القيامة ــ الاسكندرية ــ المدرسة الدينية الشهيرة ــ المسيحية خارج حدود الامبراطورية ـ الفلاسفة والمثقفون يدخلون المسيحية.

اشتهرت الكنيسة فى رومية منذ عهد الرسول بولس . فإليها كتب رسالته الفياضة بالمعانى ، وبين ظهرانيها ختم حياته بدم الإستشهاد ، ولعل الرسول بطرس مات هناك أيضا شهيدا . ولقد عانت الكنيسة فى رومية أمر صنوف القسوة فى حوادث الأضطهاد الأولى فى عصر « نيرون » ، ولكنها ثابرت وصابرت وقويت على مصادمة الخطوب . وطبيعى أن تشعر الكنيسة فى عاصمة الأمبراطورية بشيء من القوة والسلطان ، ولعلها كانت فى مستهل القرن الثانى أكبر الجماعات المسيحية كلها ، وبلغت من سعة السلطان والكلمة المسموعة ، ما لم تبلغه كنيسة أخرى غيرها . وضاعف من قوتها ، بذلها فى العطاء وسخاؤها فى التوزيع ، كما نستدل على ذلك من رسائل الآباء الأولين . وكان تدمير أورشليم فى الحرب اليهودية الثانية (سنة ١٣٥م) ، نهاية الزعامة المسيحية هناك ، كما أن مقاومة كنيسة رومية العنيفة المفلحة لشيع الأغنسطية والمونتانية ، قد صلبت إرادتها وقوت أعصابها ، فحصدت ثمار ذلك النضال وفيرة ناضجة . فهناك وضعت أركان قانون الإيمان . وهناك استقر الرأى على تحديد أسفار

الكتاب المقدس القانونية . فضلا عن هذا كله ، فقد كانت هى الكنيسة الوحيده فى نصف الامبراطورية الغربى ، التى اتصل بها الرسل الأولون مباشرة ، وكان لهم شأن فيها .

ومن منتصف القرن الثانى ، اعترفت لها الكنائس الأخرى بفضل السبق والتقدم . فى سنة ١٨٥ ب . م . يصور « إيرانيوس » أحد الآباء كنيسة رومية أما ، أسسها بولس وبطرس الرسولان ، ويحض الكنائس الأخرى على السير وراءها على أنه لم يقصد بذلك السيادة القانونية ، بل الزعامة فى حفظ الإيمان الرسولى . وقد صار أسقف رومية بفضل بلائه فى النضال مع الأغنسطية ، متقدما بين أساقفة الكنيسة . ومن هنا نشأت فكرة سلطان أسقف رومية فى تصريف شئون الكنيسة العامة .

وبينما كانت رومية تزداد قوة ونفوذاً ، كانت آسيا الصغرى آخذة فى التدهور والانحطاط . فى مستهل القرن الثانى — وربما إلى ختام هذا القرن — كانت آسيا الصغرى والجزء المجاور لها من سوريا ، أكثر رقاع الإمبراطورية ولاء وإحتضاناً للمسيحية . وكانت أفسس وأنطاكية من أمهات المدائن المسيحية فى ذلك العصر . ولقد ناضلت آسيا الصغرى ضد الغناطسة ، ولكنها إنقسمت ، وتوزعت جهودها بسبب الدعاية المونتانية وغيرها من المجادلات العقيمة . والأدلة من التاريخ متوافره تشهد كلها على أن هذه المنازعات الداخلية قد امتصت حيويتها وفتت من عضدها . الخلاف كان حول ميعاد عيدالفصح وثار النزاع بين رومية وآسيا الصغرى حول تحديد ميعاد عيد القيامة . والمفروض أن هذا العيد ، كان يحتفى به فى تاريخ مبكر فى العصر الأول ، على أن أول إشارة للاحتفاء به ، دونت فى التاريخ ، بمناسبة زيارة بوليكارب أسقف أزمير لأسقف رومية فى سنة

١٥٤ أو ١٥٥م ،وجرت العادة فى ذلك العهد ، أن يحتفى المسيحيون فى آسيا الصغرى بعيد القيامة ، وفى مساء اليوم الرابع عشر من شهر نيسان — مع الفصح اليهودى تماما — بغض النظر عن يوم الأسبوع الذى يقع فيه . أما رومية وبعض رقاع الشرق ، فكانت تحتفى به دائماً فى يوم أحد . وهنا ثارت مشكلة : أيؤخذ يوم الأسبوع أم يوم الشهر أساسا للاحتفاء بالعيد . لم يتم الإتفاق على رأى بين « بوليكارب » أسقف أزمير وبين « أنسطوس » أسقف رومية ، وافترق الاثنان على مودة وولاء ، كل منهما متشبث برأيه .

وازدادت المشكلة تعقيدا بنزاع آخر شجر حوالى سنة ١٦٧م فى لاودوكية — إحدى مدن آسيا الصغرى — حول طبيعة الإحتفال باليوم الرابع عشر من شهر نيسان . فقد ذهب بعضهم إلى أن المسيح مات فى اليوم الرابع عشر ، كما تقول بشارة يوحنا ، وذهب البعض الآخر ، إلى أن موته وقع فى الخامس عشر .

كما يستدل من البشائر الثلاث الأخرى . وتفاقم النزاع حول هذا الأمر ، حتى استدعيت المجامع للانعقاد — حوالى سنة ١٩٠م — فى رومية وفلسطين وغيرهما ، وكان قراراً مؤيداً لوجهة نظر رومية .ولكن كنائس آسيا الصغرى بزعامة الأسقف بوليكارب أبت التسليم بهذا القرار ، فلم يكن من أسقف رومية إلا أن أصدر حرماً على الجماعات التى أبت القبول وما أجدى احتجاج ولا معارضة لهذا الحرم ، الذى كان أول عمل بارز دل على سلطة رومية .

وهذه المشاحنات الأليمة قد كلفت آسيا الصغرى ثمنا باهظا ، ولم يكن فى مقدور أفسس ، أن تجارى رومية فى مضمار التنافس . ومن ثم نرى انهيار

الزعامة المسيحية واليهودية ، وخلو أنطاكية من المسيحيين البارزين فى القرن الثانى ، وتدهور نفوذ آسيا الصغرى — كل هذه العوامل قد جعلت رومية حوالى سنة ٢٠٠م ، مركز المسيحية العالى الكلمة القوى السلطان — وهو مركز استغله أساقفة رومية ، وأحسنوا استغلاله لبسط نفوذهم على الكنائس المسيحية الأخرى . وما استطاعت قرطاجة ولا الإسكندرية ، بفضل ما أبدتا من بعيد الأثر فى الحياة والفكر المسيحى فى القرن الثالث — أن تسلب رومية هذه الزعامة ، وذلك لأن نفوذهما جاء متأخراً ، بعد رومية عاصمة الإمبراطورية .

الإسكندرية

لأكثر من ستة قرون ، كانت الإسكندرية ثانى مدينة فى العالم القديم ، ولم تبزها إلا رومية ، وبيزنطة بعدئذ . وقد أسسها الاسكندر الأكبر فى سنة ٣٣٢ ق . م . وكانت فى أول الأمر قاعدة بحرية هامة ، فجذبت إليها كثيراً من اليونانيين واليهود . وتشطت فيها الحركة العقلية نشاطاً ظاهراً . وكانت مكتبتها أشهر مكتبات الإمبراطورية . وفى شوارعها وطرقاتها التقى الشرق بالغرب ، وفيها ترعرعت الفلسفة الإغريقية ، وإنسابت إلى محافلها العامة ، وبدت منافساً خطيراً لليهودية وغيرها من الديانات الشرقية . وهى قد احتضنت أيضاً مذهب الفكر المصرية القديمة ، فكانت أشبه بالعاصمة الدولية المشتركة للعالم القديم . وفيها ترجمت أسفار العهد القديم إلى اللغة اليونانية ، وفيها مزج « فيلو » العالم الشهير ، اليهودية بالفلسفة الإغريقية ، وصبغ ديانته الموسوية بصبغة من فلسفة الإغريق ، وفيها نشأت الفلسفة الأفلاطونية الجديدة .

أما عن دخول المسيحية إلى الإسكندرية خاصة ، وإلى وادى النيل عامة

فإن التاريخ العالمى لم يذكر شيئاً ، ولكن التقاليد الكنسية تقول إن « البشير مرقس » نفسه ، هو من أدخل المسيحية إلى هذه الديار ، وكتب الكنيسة القبطية حافلة — بكثير من أخبار قدومه وجهاده واستشهاده فى الكنيسة .

المدرسة الدينية الشهيرة :

وإذ اشتهرت تلك المدرسة بتياراتها المختلفة ، ينهل كل مريد من مناهلها ، فلا عجب أن يبعث المسيحيون بمعلميهم لبث دعوتهم ، فكنت ترى فيها حوالى سنة ١٨٥م ، مدرسة دينية شهيرة تحت زعامة فيلسوف رواقى متنصر يدعى « بنتينوس » . ولسنا نعرف على وجه التحقيق من الذى أسسها ، ولكنها بلغت ذروة من الشهرة فى عهد « إكليمندس الإسكندرى » (حوالى سنة ٢١٥م) . ومن الغريب أن التطور الدينى فى الإسكندرية سار فى اتجاه آسيا الصغرى والغرب . فى هذه البلدان الأخيرة تحول النضال ضد الأغنسطية إلى كراهية للفلسفة عامة ، ومحاولة للانفصال عنها كلية ، كأن لا علاقة بينها وبين المسيحية . وكان من أثر هذا النضال العنيف ، التمسك بالتقاليد الرسولية ، والتشدد فى النظام الكنسى . أما فى الإسكندرية ، فلم يبلغ هذا التشدد ما بلغه فى الغرب ولم تحسب الفلسفة عدوة للمسيحية ، لا يمكن أن تنسجم معها ، بل بالأحرى أمة معينة لها . ولذلك امتزج بالمسيحية شىء كثير من الفلسفة القديمة — وخاصة الأفلاطونية والرواقية — وكان إكليمندس علمها ، وحامل لوائها ، وهمزة الوصل بين الكنيسة وبين المدرسة ، لأنه كان أيضاً شيخاً فى كنيسة الإسكندرية . وقد نحا « إكليمندس » فى مؤلفاته القيمة عن المسيحية ، منحى « فيلو » اليهودى فى اليهودية ، فشرح عقائد المسيحية ، بمصطلحات وآراء فلسفية ، أثبت فيها علو كعبه فى التفكير وصفاء الذهن واتزان العقل .

وخلفه فى زعامة مصر « أوريجانوس » العظيم ، رئيس مدرسة الإسكندرية المشهورة . وقد ولد من أبوين مسيحيين – ربما فى الإسكندرية ما بين سنة ١٨٢ و ١٨٥م وعكف على دراسة الكتاب المقدس وكتب الفلسفة ، حتى بلغ فى نضوج تفكيره ، وعمق كتاباته ، وقوة ذهنه ، مرتبة العلماء الذين اعتزت بهم الكنيسة فى تاريخها . ولنا عود فيما بعد عن سيرته .

المسيحية خارج حدود الإمبراطورية :

ولم يكن تقدم المسيحية مقتصراً على الإمبراطورية الرومانية ، ووفقاً لما أذاعه الآباء الأولون فى الكنيسة البدائية ، كان هذا الدين الجديد قد توغل إلى كل رقعة من رقاع الأرض ، بعد مائة سنة من موت المسيح وفى هذا يقول الشهيد « يوستن » : «لن تجد شعباً ، يونانيا كان أو بربرياً ، أو أى جنس آخر من البشر على اختلاف مشاربهم وعاداتهم ، سواء عاش فى الخيام أو تجول فى عربات مغطاة ، لا يرفع فيه الدعاء إلى الآب خالق كل شىء باسم يسوع المصلوب » .

ويقول بعض المؤرخين ، إن الأغنياء والمثقفين وأبناء الطبقة العليا فى المجتمع ، كانوا قلة فى تلك الفترة من التاريخ ، التى شهدت بزوغ فجر المسيحية ، وأن عامة الشعب كانوا مغمورين فى الجهل والفقر . ولما كانت المسيحية قد قدمت رسالتها للجنس البشرى قاطبة ، فقد كان من الطبيعى ، أن يهرع إلى أحضانها ، جماهير غفيرة من الطبقات الدنيا ، لا من الطبقات العليا . وقد شجر خلاف بين القائلين إن المسيحية إحتضنت حثالة القوم من الفلاحين والعمال والنساء والأولاد – والشحاذين والعبيد ، وبين المدافعين عن المسيحية من أثبتوا أن المسيحية تغلغلت إلى كل فئات الشعب وطبقات المجتمع .

الفلاسفة والمثقفون يدخلون المسيحية :

وكان فى قصر الإمبراطور بعض من مشيريه وقواده وحرسه، وذكروا تأييداً لدفاعهم « أريتوس » الذى كان فليسوفاً أثينياً ، وقدم دفاعه المشهور عن المسيحية للامبرطور « هادريان » ، والشهيد « مارتن » الذى تخرج فى مدارس « زينون » ، وأرسطو ، وفيثاغورس ، وأفلاطون ، وأكليمندس الإسكندرى ، الذى حظى بقسط وافر من اللغة والآداب اليونانية ، وترتوليانوس الذى برع فى اللغة اللاتينية، ويوليوس أفريكانوس وأوريجانوس اللذان اشتهرا فى عصرهما ، بسعة الأطلاع فى مختلف العلوم والثقافات ، وكان الأسقف كبريانوس أستاذاً للمنطق ، وغيرهم من فطاحل العلم وجهابذة الفلسفة .

ويقول المؤرخ جبون مؤلف انهيار الدولة الرومانية[1] وهو ليس من أنصار المسيحية : « إننا مهما أمعنا فى التجنى ، فلن نقدر أن نفكر أن كثرة فقط من الذين سعدوا بمزايا المولد والمحتد والثروة ، بعدوا كلية عن حظيرة المسيحية ، وذلك لأن أعدادا ممن منحوا الرعوية الرومانية ، أحضروا أمام محكمة « بليني » الوالى الرومانى فى آسيا الصغرى، وسرعان ما استكشفت أن جمعا غفيراً من كل طبقة فى المجتمع قد هجر دين آبائه ولذلك نرى القديس « ترتوليانوس » يخاطب الوالى الرومانى ، مشيراً إلى مخاوفه ودماثة أخلاقه ، ومؤكداً له أن إصراره على ما هو موغل فيه من مقاصده القاسية ، قد يكشف له أن بين من يحسبهم مجرمين خارجين على على القانون ، كثيرين من أعضاء مجلس الشيوخ ومن أعظم الرجال وأنبلهم محتداً ، بل كثيراً من أصدقائه الأوفياء . وبعد أربعين سنة من هذا التاريخ

---

(١) Decline of the Foman Empire

يقتنع الأمبراطور فالبريان بصدق هذا القول ، بدليل أنه فى إحدى نشراته يشير إلى أن أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الرومان ، وسيدات المجتمع الراقى انضموا إلى طائفة المسيحية . وحتى فى عصر « دقلديانوس » أخفى القصر الإمبراطورى ومحاكم القضاء ، حتى قوات الجيش ، أعداداً غفيرة من المسيحيين الذين حاولوا التوفيق بين مغانم الحاضر ، بمثلها فى حياة أخرى بعد الموت .

وبعد كل هذا ، لا ننكر أن أولئك كانوا قلة بين المسيحيين ، وأن هذا الدين الذى حمل رسالة المحبة والمساواة والرحمة ، لا بد أنه فتح مصراعيه للطبقات الدنيا فى المجتمع ، والتى وجدت فيه ضالتها المنشودة وفى المسيح رئيس خلاصها . وهل نقدر أن الرسل أنفسهم ، قد اصطفاهم سيدهم من صيادى الجليل ، وأنه متى نزلنا إلى المراتب الدنيا فى المجتمع يزداد إعجابنا وتقديرنا للفعال المجيدة الرائعة ، التى اتاها دعاة المسيحية الأولون .

وبعد كل هذا ، لنذكر أن وعد ملكوت السماوات ، هو للمساكين بالروح ، وأن العقول التى أضنتها محن الحياة ، وتجارب الزمن ، واحتقار الآخرين لهم ، هم فى واقع الأمر أكثر الناس قبولا للوعود الإلهية ، فى حياة السعادة والغبطة فى المستقبل . أما المحظوظون فى هذه الدنيا ، فهم عادة يقنعون بما تملكه أيديهم من حطامها ، كما أن دعاة الحكمة الأرضية ، والضاربين فى متاهات العقليات ، كثيرا ما يغترون فى حماقة بتفوقهم فى العقل والمعرفة .

١٨

بعض زعماء المسيحية فى بكور التاريخ

(ايرانيوس — ترتوليانوس — كبريانوس — أوريجانوس)

وفى هذه الفترة من فجر التاريخ المسيحى ، يبرز أبطال الإيمان المسيحى ، وكثيرون من الشهداء الأبرار ، وهانحن أولاء نذكر بعضاً من أولئك الزعماء .

ايرانيوس

كان « إيرانيوس » باكورة الزعماء اللاهوتيين فى الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية) ، التى تصدت للهراطقة المنحرفين ، وقد دافع دفاعاً بارعاً عن المسيحية التقليدية ضد هرطقة الغناطسة . وقد ولد هذا العاهل المسيحى فى آسيا الصغرى ، وترعرع فى سميرنا (أزمير) ، أما تاريخ مولده فقد اختلف فيه المؤرخون بين سنة ١١٥ وسنة ١٤٢ ، والرقم الأخير هو الأكثر إحتمالا .

ومن آسيا الصغرى ، انتقل إلى ليون فى فرنسا ، وهناك صار شيخاً فى الكنيسة . ولما ثار الاضطهاد العنيف فى ليون سنة ١١٧م ، كان هو غائباً فى رحلة إلى رومية ، ولما عاد رسم أسقفا فى ليون ، خلفا للأسقف بوثينوس ، الذى كان قد استشهد ، وظل فى مركزه الأسقفى إلى نهاية حياته .

وكان « ايرانيوس » ذا روح متوثبة ونفس حساسة ، وعقلية جبارة فى اللاهوت المسيحى . وكانت نظريته اللاهوتية أن الله خالق آدم صالحاً وخالداً ، ولكنه فقد الصلاح والخلود بسقوطه وعصيانه ، وما أضاعه

آدم ، قد أعاده المسيح الكلمة (Logos) المتجسد الذى يكمل الآن كل الأشياء الناقصة . وقد خلف لعلم اللاهوت فكرته المأثورة « نحن نتبع المعلم الأوحد كلمة الله — ربنا يسوع المسيح الذى صار من فرط محبته المنزهة مثلنا لكى يرفعنا ، إلى ما كان عليه » . والمسيح فى نظره هو إعلان الله الكامل .

وكما أعلن فى فكره اللاهوتى أن المسيح هو آدم الثانى ، كذلك قال إن العذراء هى حواء الثانية — إن عقدة عصيان « حواء الأولى » قد حلتها طاعة « مريم » ، وذلك لأن « حواء » المعقدة ، التى ربطتها الخطيئة بأحكام وقيود عصيانها وسقوطها قد فكت رباطها « العذراء مريم » بالإيمان . وإنا لواجدون فى هذاالوصف الغريب الفكرة الأولى لتسامى العذراء ورفعتها التى لعبت دوراً هاما فى التاريخ المسيحى .

ترتوليانوس

كان ترتوليانوس من أبرز الشخصيات وأعجبها فى الكنيسة القديمة ، وقد ولد حوالى سنة ١٥٥م ، من أسرة وثنية غنية فى مدينة قرطاجة بشمال أفريقيا ، وقد درس القانون ، ومارس مهنته فى رومية ، وكان واسع الاطلاع قوى البنيان فى الفلسفة والتاريخ ، وأتقن اللغة اليونانية اتقانا تاما . وفى حوالى سنة ١٩٥م اعتنق المسيحية ربما فى رومية. وبقدر غيرته المتحمسة فى الدين الجديد ، بهذا القدر عينه ، درس الآداب المسيحية ، المحافظة منها والمنحرفة ، وبعد ذلك يعود إلى قرطاجة مسقط رأسه ، وهناك يرسم شيخا ، وقد بقى فى هذه الوظيفة إلى نهاية حياته سنة ٢٢٥م .

وقد كان فى أول الأمر من أنصار الكنيسة الكاثوليكية (الجامعة) المحافظة على الايمان القويم . وكان من آثار الاضطهاد العنيف الذى احتدم أواره فى شمال أفريقية فى سنة ٢٠٢م فى عهد الامبراطور «سيفروس» أن تشبعت نفسه بفكرة الطهوريين المتمسكين بطهارة الحياة وبساطتها ، فتعاطف مع المونتانية ، وعشق ما فيها من مظاهر التقشف والتنزه عن الشهوات الدنيوية . وحوالى سنة ٢٩٧م انفصل عن الكنيسة (الجامعة) التى أمعن فى نقدها نقدا مرا ، ومات وهو ثائر عليها . ويقال إنه أسس طائفة صغيرة كان هو عمادها .

وفى سنة ١٩٧م ، بدأ « ترتوليانوس » نشاطا أدبيا فى الدفاع عن المسيحية وشرحها ، وظل على هذه الحال إلى سنة ٢٢٠م . وقد كان أول كاتب من رجال الدين يكتب باللاتينية ، وذلك لأن قادة الكنيسة الرومانية ومفكريها ، كانوا يكتبون باليونانية إلى ما بعد عهده . أما أسلوبه فقد كان رائقا ، واضحا ، سهلا ، بارعا ،ساحراً ، قويا ، وكان فى طريقة بيانه ودفاعه أشبه بمحام يقف فى ساحة القضاء . ولم يكن لينا منصفا لخصومه ، ولكن روحه المضطرمة بنار الغيرة والحماس ، جعلت كل كتاباته عميقة الأثر ، حتى استحق لقب « أبى علم اللاهوت اللاتينى » .

ولم يكن ترتوليانوس من علماء اللاهوت ، لأن افكاره استمدها من المدافعين أمثال « ايرانيوس » ، ومن حماة التقاليد المسيحية فى آسيا الصغرى ، واستند إلى حد كبير إلى تعاليم الرواقيين والآراء القانونية

وقد امتاز « ترتوليانوس » بدقة الحس الرومانى فى المحافظة على النظام . وكل أقواله وكتاباته امتازت بالدقة والوضوح ، بعقل قانونى مدرب ، وخلع على كثير من الأفكار اللاهوتية التى شابها الغموض والإبهام ، دقة وبراعة فى التعبير لم يعهدها الأدب المسيحى من قبل .

وكان له إحساس بالخطيئة أعمق من أى كاتب مسيحى آخر منذ عهد الرسول بولس ، وكان لتعاليمه الفضل الأكبر فى تطور الأفكار اللاتينية عن الخطيئة والنعمة . ويبدو أنه كان من أوائل المفكرين فى عقيدة الخطيئة الأصلية ، وفى هذا يقول : « هناك إذاً بخلاف الشر الذى يطغى على النفس من تدخل الروح الشرير — شر طبيعى ينشأ من الأصل الفاسد ، ولكن قوه نعمة الله أقوى فى فعلها من الطبيعة الأصلية » . وفى عرفه أن الخلاص يتم بالنعمة ، ولكن الإنسان مطالب بالشىء الكثير . ومع أن الله يغفر الخطايا السابقة فى المعمودية ، فإنه لا بد من الترضية عن الخطاياالتى ترتكب بعد ذلك ، بواسطة الذبائح ، وأهمها التقشف . وكلما ازداد الإنسان فى توقيع العقوبة على نفسه ، قل عقاب الله له .

وأبعد مصنفاته أثراً وأعمقها روحانية ، وصفه لعقيدة الكلمة (Logos) عن المسيح . وبعقله القانونى الناضج ، خلع على هذه الفكرة اللاهوتية معانى دقيقة مسهبة ، بعدت بها عما تواضع عليه علماء اللاهوت فى آسيا الصغرى . وقد شرح ذات الله فى مصطلحات سبقت ماتوصل إليه قانون الإيمان ، الذى وضعه المجمع النيقوى بعد مائة سنة من هذا التاريخ .

كبريانوس

كان « كبريانوس » من وجوه كثيرة الوارث العقلى لترتوليانوس ، وقد دعاه معلمه وسيده .

وقد ولد فى قرطاجة حوالى سنة ٢٠٠م ، وقضى فيها كل حياته ،

وكان من أهل الثراء العريض والثقافة الرفيعة ، وامتاز كأستاذ للمنطق . وحوالى سنة ٢٤٦م اعتنق المسيحية ، ولما تنقضى سنوات ثلاث ، حتى رسم أسقفا على قرطاجة .

وفى فترة اضطهاد الامبراطور « ديسيوس » ، تولى هذا الأسقف الغيور الفصيح الطموح . إدارة الكنيسة ، لا فى قرطاجة وحدها ، بل فى أفريقية كلها . وقد تحلى بصفات وسجايا ملكت ألباب المؤمنين ، وأثارت أحقاد وشبهات ولاة الحكومة الوثنية . ويروى التاريخ أن أربعة من قياصرة الرومان — بأسرهم وأخصائهم وأتباعهم ، قد هلكوا بحد السيف فى فترة عشر سنوات ، فى خلالها تولى إدارة دفة الكنيسة فى أفريقية بحنكة ودراية وإرشاد قويم . وفى السنة الثالثة من ولايته ، ولمدة أشهر قلال ، أحس بشدة وطأة قرارات العاهل الرومانى « ديسيوس » ويقظة الولاة ، وصيحات الغوغاء وجماهير الشعب ، التى نادت بأصوات كالرعد طالبة أن يلقى « كبريانوس » زعيم المسيحيين طعاما للأسود . وهنا أوحت إليه الحنكة أن يختفى مؤقتا عن الأنظار ، وكان فى هذا القرار سياسيا حكيما ، فانسحب إلى عزلة اختيارية فى مكان خفى ، استطاع منه أن يكاتب قساوسة وشعوب قرطاجة ، وإذ يخفى نفسه حتى تعبر العاصفة ، لم يفقد شيئاً من قدرته وشهرته ، على أنه لم يسلم من عذل المسيحيين المتزمتين الذين حسبوا مسلكه هذا جريمة فى حق واجبه المقدس . ولكنه برر موقفه بأنه حفظ نفسه حيا للمساهمة فى دور خطير فى تاريخ الكنيسة ، وأنه فى فترة اختفائه ، قد تلقى الوحى من السماء. وما درى هؤلاء الناقدون أن ثمانى سنوات لن تحول حتى يقدم هذا البطل نفسه شهيداً وفيا لقضية دينه. وقد سجل التاريخ الصادق قصة استشهاده بصراحة غير مألوفة وإنصاف منعدم النظير ، وإنا لنرى المؤرخ الشهير « جيبون » صاحب كتاب « إنهيار الامبراطورية الرومانية » ، وهو لم يكن متعاطفا مع المسيحية ، وفى مواقف كثيرة

أنحى باللائمة على رجالها وزعمائها — نراه يفرد لاستشهاد هذا الأسقف فصلا مسهبا ، استقاه من أوثق المصادر ، وها نحن أولاء نلخص للقارئ الكريم هذا الوصف الدقيق :

« فى عهد الامبراطو « فاليريان » ، استدعى والى أفريقية باترنوس — « كبريانوس » — للمثول أمام مجلسه الخاص ، وأطلعه على القرار الإمبراطورى القاضى بأن الذين هجروا دين آبائهم ، ينبغى أن يعودوا إلى ممارسة طقوس الأسلاف ، فأجابه « كبريانوس » بأنه مسيحى ، وأنه أسقف لا يعبد إلا الإله الواحد الحق ، الذى يقدم له دعاءه كل يوم ليصون حياة رئيس الدولة الامبراطور ، وأبى الإجابة عن بعض الأسئلة الوقحة التى وجهها إليه الوالى ، استنادا إلى حقه القانونى كمواطن رومانى — فأمر الوالى بنفيه جزاء عصيانه ، فأبعد إلى جزيرة تبعد أربعين ميلا عن قرطاجة ، ولكنه عومل هناك معاملة حسنة ، وسمح له بتلقى الرسائل وزيارة أعوانه ورعاياه .

وبعد فترة استدعى من منفاه ليقيم فى حديقه منزله ، وبعد سنة من عودته ، تلقى الوالى الجديد — « جاليروس مكسيموس » — أمرا إمبراطوريا بإعدام كل معلمى المسيحية وأساقفتها ، وقد توقع أن يكون هو أحد الضحايا . وبعد قليل أقبل إليه إثنان من رجال الشرطة ، واقتاداه إلى منزل أحدهما ، تكريما له قبل مثوله أمام مجلس الوالى ، وهناك أقاما له وليمة ، وسمحوا لنفر من أصدقائه بتوديعه . ثم أخذاه بعد ذلك إلى دار الوالى ، وهناك حاول الوالى إقناعه بتقديم الذبيحة للامبراطور ، فأبى كل الإباء ، فأصدر حكما بقطع رأسه كعدو خائن لإله رومية ، وزعيم لعصابة من العصاة المجرمين .

ولما سمعت الجماهير المحيطة بالقصر هذا الحكم ، صرخوا بصوت كالرعد « سنموت معه » ، ولكن أحداً لم يعبأ بصراخهم واقتادوه إلى ساحة الإعدام تحت حراسة قوية فى مكان فسيح خارج المدينة ، وبضربة واحدة تدحرجت رأسه على الأرض ، فجمع أنصاره الذين كانوا واقفين حوله كمية من دمائه الثمينة ، وكان قد أوصاهم أن يمنحوا الجلاد بعض النقود هدية له ، وبعد أن بقيت جثته فترة من الزمن لإرواء ظمأ الشامتين ، نقله أعوانه إلى مدافن المسيحيين وسط البكاء النحيب .

أوريجانوس

كانت الإسكندرية – كما قلنا فى فصل سابق – ثانى مدينة فى العالم القديم ، لم تبزها إلا رومية وبعدئذ القسطنطينية ، وقد أسسها الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ ق‌م – وكانت مركزاً تجارياً ، وفدت إليها جماعات من اليونان واليهود ، وقد اشتهرت بحياتها الفكرية والعقلية ، وبمكتبتها التى كانت أرقى مركز ثقافى فى الإمبراطورية . فى شوارعها التقى الشرق بالغرب ، وإنسابت إليها فى غزارة الفلسفة اليونانية والديانة اليهودية والعبادات الشرقية الأخرى ، وبقيت فيها حية ، الأفكار المصرية القديمة .

فى الإسكندرية ترجم العهد القديم من الكتاب المقدس إلى اليونانية ، وفيها حاول « فيلو » الفيلسوف اليهودى التوفيق بين اليهودية والفلسفة اليونانية ، كما حاول « أوريجانوس » التوفيق بين المسيحية وهذه الفلسفة . وفى الإسكندرية تأصلت جذور المسيحية فى عهد مبكر . وكانت فيها مدارس لكل النظم الفلسفية ، يتلقى فيها طلابها الدرس والبحث . فكان طبيعيا أن تحذو المسيحية حذو هذه المدارس ، ففى سنة ٢٨٥م ، كنت ترى مدرسة ذائعة الصيت لتلقين المسيحية لطلابها تحت قيادة « بانتيوس » الفيلسوف الرواقى المتنصر ، وجاء بعده العالم الشهير فى تاريخ المسيحية

« أكليمندس » ، الذى كان فى الوقت عينه « شيخا » فى الكنيسة ، فاستطاع أن يكون همزة وصل تربط الكنيسة بالمدرسة .

وقد وضع « أكليمندس » مؤلفات عديدة فى الفلسفة والدين وعلم اللاهوت ، دلت على عقل مدرب ناضج وفكر عميق ، وقد تفوق على الشهيد « يوستن » فى الوضوح العقلى حول « الكلمة » الإلهى ، الذى كان مصدر كل حكمة وفهم وخالق للجنس البشرى، يسوع الكلمة ، الله خالق كل الأشياء .

على أن « أكليمندس » لم يضع نظاما لاهوتيا متكاملا ، وترك هذه المهنة « لأوريجانوس » تلميذه وخلفه فى قيادة الكنيسة وإدارة المدرسة .

ولد « أوريجانوس » فى الإسكندرية فى سنة ١٨٥م فى أسرة مسيحية. وكان والده « ليونيدس » مؤمنا حقا ، أحسن تربيته وتدريبه على حفظ الكتاب المقدس — وفى فترة الاضطهاد التى تأججت نيرانها فى عهد « سيفروس » ، ألقى والده فى غيابة السجن وكان الولد فى السابعة عشرة من عمره ، وأحس « أوريجانوس » أن ولاءه يقضى عليه أن يتبع والده لمشاطرته آلامه ، ولكن أمه أخفت ثيابه بعد أن حارت فى إقناعه بالعدول عن عزمه . أما والده فقد قطعت رأسه بعد ذلك وصودرت أمواله ، وتركت الأسرة فى عوز وفاقة ، فآوته سيدة كريمة فى دارها . وكان أحد أساتذة الغناطسة يلقى محاضرات فى الدار، فامتنع « أوريجانوس » عن سماع هذه العقائد الخاطئة المضللة . ولما كبر أبدى غيرة لحق الإنجيل، وكان يتفقد المسجونين فى زنزاناتهم ، ويرافقهم إلى ساحات الإعدام ،

ويسندهم فى تحمل آلام الموت بقوة إيمانه وفيض محبته ، وأكثر من مرة حاولت الدهماء القبض عليه ولكنه كان يفلت منهم .

ولما بلغ الثامنة عشرة من العمر عينه الأسقف « ديمتريوس » مدرسا فى مدرسة الإسكندرية ، وقد مالت نفسه إلى التقشف وقداسة الحياة ، فلم يقين إلا ثوبا واحدا ، لم يكن كافيا لوقايته من قرص الشتاء ، وكان يمشى حافى القدمين ، وينام فى أكثر الأحيان على الأرض الصلبة ، وذهب فى إذلال نفسه إلى أبعد حد ، فخصى نفسه متخذا ما جاء فى بشارة متى (١٩ : ١٢) نصيحة الكمال لأجل ملكوت الله .

وفى سنة ٢١٥م ، قرر الامبراطور الرومانى « كارا سالا » ، طرد كل معلمى الفلسفة من مدينة الإسكندرية ، فهرب إلى فلسطين ، وهناك رحب به صديقه القديم أسقف أورشليم . وكانت شهرته قد سبقته إلى تلك البلاد ، فاستدعاه أسقفا أورشليم وقيصرية لإلقاء محاضرات هناك وكان بعد « علمانيا » ، فلم يرض هذا الوضع أسقف الإسكندرية ، فامره بالعودة إلى الإسكندرية ورضى عنه إلى حين ، وعاود محاضراته فى المدرسة وجاهد فى إنتاجه العلمى والفلسفى .

وفى هذه الفترة قام برحلة إلى اليونان وفلسطين فى سنه ٢٣٠، ٢٣١م وبمساعدة أصدقائه أساقفة فلسطين رسم شيخا ، ليكون حرا فى الوعظ والتعليم ، ولكن أسقف الإسكندرية « ديمتريوس » حسب هذا الصنيع اعتداء على إختصاصه ، وعقد مجمعا قرر فيه نفى أوريجانوس من الإسكندرية وتجريده من خدمته . ولكنه ظل يمارس دراسته وتعليمه فى قيصرية محاطا بجمهور من أصدقائه ومريديه الذين أجلوه وبجلوه .

وفى فترة اضطهاد الإمبراطور « ديسيوس » سنة ٢٥٠م ألقى فى السجن فى زنزانة قذره كريه ، وقيدت يداه ورجلاه بقيود من حديد ، وسيم أصنافا وألوانا من العذاب حتى عاجلته المنية سنة ٢٥٣ ، ٢٥٤م، وكان قد بلغ التاسعة والستين من العمر .

ويرى التاريخ أن كثيرين من المعجبين به كانوا يلجأون إليه طلبا فى معونته وارشاده ، لما اتصف به من عمق فى التفكير اللاهوتى ، ودراسة الكتاب المقدس وتفسيره ، وروحانية فائقة . وقال عنه بعض المؤرخين إن مؤلفاته الدينية اللاهوتية ، تعتبر أعظم الإنجازات العقلية فى الكنيسة قبل مجمع نيقية ، وقد كان لها أعمق الأثر فى تفكير الشرق اللاحق . ولكن من اليسير أن نرى فى المناقشات والبحوث التى دارت حول كتاباته وآرائه ، كيف حسبه المحافظون منحرفا مهرطقا . وقد أصدر مجمع عقد فى موطنه الإسكندرية سنة ٣٩٩ أو ٤٠٠م ، قرارا بإدانة آرائه وتظرياته ، كما أدانها الأمبراطور « يوستنيان » سنة ٥٤٣ ، وأدانها المجمع العام الخامس سنة ٥٥٣ م .

١٩

الموقف يتغير

قرار قسطنطيس الكبير ــ نقل العاصمة الى بيزنطة ــ الأفلاطونية الحديثة ــ الدولة تحاول فرض سلطانها على الكنيسة ــ الكنيسة توطد دستورها) .

قرار قسطنطين الكبير

رأينا فى فصل سابق كيف استطاع الإمبراطور « قسطنطين » ، الذى جاهد تحت راية الصليب ، وحرر إيطاليا أولا من غاصبها « مكسنتويوس » ثم أصدر قراره المأثور فى التاريخ ، الذى أذاعه فى رومية فى سنة ٣١٣م وقرر به التسامح الدينى فى كل أنحاء الإمبراطورية شرقا وغربا ، ووضعت المسيحية على قدم المساواة مع الوثنية كعقيدة شخصية تتبع ضمير الأفراد وغدا كل إنسان حرا ليختار ما يشاء من عقيدة وعبادة ، ومنح المسيحيون حرية تامة فى أداء فرائض دينهم ، وردت إليهم كنائسهم المصادرة وأموالهم المنهوبة ، وقيل إن ذلك الامبراطور شهد فى امسية أحد انتصاراته على منافسيه ، صليباً من نار يرتسم فى الجو ، وقد نقشت فوقه هذه الألفاظ « فى هذا إنتصارك » ، كما حلم أيضا أن المسيح يأمره أن يتخذ الصليب شعارا لامبراطوريته ، يحارب تحت لوائه ، وفى أثر هذا الإجراء زادت أعداد أعضاء الكنيسة زيادة هائلة ، بفضل ما أبداه الإمبراطور من تعاطف وملاينة . وفى سنة ٣٢١م منحهم حق قبول الوصايا والهدايا والتركات الخيرية . وفى السنة عينها أمر بوقف العمل فى أيام الاحاد فى المدن الكبرى

ومنع تقديم الذبائح الوثنية ، وقرر تشييد كنائس ضخمة فى رومية وأورشليم وبيت لحم وغيرها ، بأموال من الخزانة العامة .

نقل العاصمة إلى بيزنطه

وأهم الإجراءات التى إتخذها ، نقل عاصمة ملكه بيزنطة التى بناها وأسماها رومية الجديدة ، والتى أطلق عليها العالم فيما بعد « القسطنطينية » تكريماً له وإحياء لذكره . وقد كانت بواعث إنشائها سياسية دفاعية فى العام الأول ، ولكنها لعبت فيما بعد دورا خطيرا فى الشئون الدينية ولم تزل حتى اليوم — حتى بعد أن تغير اسمها إلى استنبول ، إذ أنها تحتفظ بكرسى بطريركى مسيحى يسمى نفسه البطريرك المسكونى .

على أن المنح التى خلعها « قسطنطين » للكنيسة اقتصرت على الكنيسة المحافظة ، أى الكنيسة « الكاثوليكية » الجامعة ، أما طوائف « الهراطقة » وكانوا كثيرين ولما تستأصل شأفتهم ، فلم يكن لهم فيها نصيب. ومن الغريب أنه لم يتعرض للوثنية بسوء ، وظل هو نفسه رئيس كهنة الوثنية على الرغم من إعتناقه المسيحية وقبوله المعمودية فى آخر سنة فى حياته (٢٣٧م) .

الأفلاطونية الحديثة

ومع هذا كله فقد بقيت الوثنية العدو اللدود للمسيحية ، وذلك لأن قوة روحية جديدة اختمرت فى العالم الوثنى ، هى التى عرفت فى التاريخ بالأفلاطونية الحديثة . وقد حاولت هذه المدرسة التى يرجع تاريخها إلى القرن الثالث أن تبدل الاديان الوثنية القديمة ، وتخلق منها فلسفة حديثة مجددة ، وتخلع على الوثنية ثوباً قشيباً من الجدة والرواء . وكان من آثار هذه الافلاطونية الحديثة ان ارتد الامبراطور « يوليانوس » — خليفة قسطنطين — عن المسيحية إلى عبادة الآلهة القديمة ، وعاد إلى مبادئ آبائه

وأجداده . وقد أراد إحياء الوثنية لتناهض المسيحية ، لا من حيث الثقافة فقط ، بل من حيث الروح والآداب والأخلاق والمحبة وفعل الخير . ولكأنما أراد ان يجعل من الوثنية مسيحية فى قالب وثنى . على أنه لم يضطهد الدين المسيحى ، وأباح الحرية لكل نوع من العبادات . ولكن هيهات أن يتافس الدين المصطنع الدين الحى الحقيقى . فانه فى عهد خلفاء « يوليانوس » هذا ، عادت المسيحية إلى مكانتها التى أحلها فيها «قسطنطين» العظيم ، وصارت دين الدولة الرسمى . ولم تقو الوثنية على الوقوف فى وجهها ، وذلك لأنها لم تظفر بشهداء يؤثرون الموت على التسليم والارتداد. ولم يكن دين المستقبل الذى يضمن للبشرية الرقى والرخاء . وما حل القرن الخامس ، حتى كان نجم الوثنية قد أفل كعنصر من عناصر الثقافة ، وغدت الامبراطورية كلها مسيحية لحماً ودما . وبذلك تم للكنيسة الظفر المبين ، وانتقلت من هيئة سرية مطاردة مضطهدة ، إلى كنيسة لها الحول والطول ، تسندها الإمبراطورية كلها ، وتعضدها قوات الدولة .

الدولة تحاول فرض سلطانها على الكنيسة

كان الفوز مبينا ولكن للفوز أخطاره ومساوئه . فمع توافر الحرية ، حظيت الكنيسة بالكرامة والسلطان ، ولكن انسربت إليها المطامع والأهواء وكان أشد الأخطار ، أن الدولة قد فرضت الآن مطالبها على الكنيسة . فهى قد تبدلت من العدو إلى الحليف ، ولكنها طالبت فى نظير ذلك ، ببسط نفوذها على الكنيسة ثمناً لهذا التحالف . ولم تكن الدولة الرومانية قد ألفت من قبل ، أن ترى قوى أخرى إلى جانبها تقاسمها السلطان والنفوذ . وقد زعمت الدولة أن من حقها الإشراف ، لا على السلطة الزمنية فقط ، بل على السلطة الروحية المقدسة التى تقوم بالعبادة الرسمية ، وزعمت أنها فى

هذا لا تطلب شيئاً جديداً ، بل إنها تطالب بما كان لها من حق على العبادة الوثنية .

ومرة أخرى ، وقفت الكنيسة أمام الدولة تتحداها ، وتأبى الخضوع لها ، وتنكر عليها سلطانها وتدخلها . وكان يصح أن تلين الدولة وتتساهل ولكنها ، وقد أضفت على الكنيسة حمايتها ، وأغدقت عليها من المنح والامتيازات ، لم تشأ أن ترضى بغير الاستسلام المطلق من جانب الكنيسة . ومن ثم نرى مهادنة الدولة الكنيسة ، وصداقتها لها ، أشد خطراً عليها من أعدائها ، وباحتضان الامبراطورية ، تعرضت القوى الروحية فى الكنيسة لخطر الاختناق والفناء — وغدا تنفيذ القانون الكنسى ، واستدعاء المجالس العامة وتنفيذ قراراتها ، وتعيين الأساقفة فى المراكز الهامة ، وحق الإختصاص الأعلى للمحاكم الروحية ، والقول الفصل فى المشاكل الجدلية والتى قد تنشأ حول العقائد — غدت هذه كلها من الحقوق التى طالبت بها الدولة الرومانية وأصرت على إنتزاعها من السلطات الدينية .ولو أن الكنيسة ارتبطت الآن ، أن تكون أداة طيعة تحت يد الامبراطورية ، لكانت ذهبت ضياعاً ، الدماء والجهود التى بذلتها فى خلال القرون الثلاثة الأولى .

الكنيسة توطد دستورها

وعلى الرغم من هذا كله ، فان الكنيسة قد انتفعت بشىء واحد من بعد أن اعترفت بها الدولة ،وذلك أنها نظمت دستورها فى طول الإمبراطورية وعرضها ، ووحدت أعمالها وجهودها ، وحققت لنفسها السلطان التام على النظام الكنسى . وكان مبدأ الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية) ، يرمى إلى وضع نظام دستورى معين ، فاهتبلت هذه الفرصة ، وأحكمت نظامها

الذى صاغته على نموذج النظام فى الإمبراطورية . فكانت « المدينة » مثلا أصغر وحدة فى النظام الإمبراطورى السياسى ، فجعلتها الكنيسة أصغر وحدة فى نظامها ، وعينت فى دائرتها أسقفاً ، وصارت دائرة « المدينة » أبرشية أسقفية . كذلك كانت الولاية فى دستور الإمبراطورية ، تشمل مدناً عدة يحكمها وال من قبل رومية ، فاقتبست الكنيسة هذا النظام عينه ، واتحدت جملة من الأبرشيات ، تحت إشراف أسقف أكبر ، وهو أسقف عاصمة الولاية وقاعدة الحكم فيها ، ومن القرن الرابع ، قضى دستور الإمبراطورية أن تؤلف وحدات من الولايات المتقاربة ، لتكون وحدة إمبراطورية ، فاقتبست الكنيسة هذا النظام فى دستورها ، وجعلت مقراً للبطريكية ، يشرف على عدد من كبار الأساقفة . وأخيراً تجمعت كل هذه الكنائس المتفرقة ، تحت هيئة واحدة عليا سميت المجمع المسكونى ، وهو يشبه المجلس الإمبراطورى فى دستور الدولة . ومن ثم كانت الكنيسة الإمبراطورية الجامعة وحدة متماسكة ، ومظهراً خارجياً منظوراً للمسيحية الواحدة الجامعة .

وكأن الإمبراطورية الرومانية فى شيخوختها ، قد خلفت للكنيسة الفتية دستورها ونظمها ، وكان هذا الدستور تراث المستقبل المجيد . وقد انهار دستور الدولة ، وبقى دستور الكنيسة حياً خالداً حتى اليوم ، وفى نظام الكنيسة الكاثوليكية البابوية ، وهو يتدرج من وحدات صغرى ، حتى يصل إلى الرأس وهو البابا ، الذى تشبه سلطته الكنسية سلطة قيصر رومية فى ذلك العصر الغابر . ولم يكن هذا الإتحاد بلا جدوى ، فإن الكنيسة — بعد إذ اقتبست هذا النظام الأمبراطورى ، بما عهد فيه من قوة واتساع وتماسك — استطاعت أن تحرص على كيانها وسط العواطف والأنواء ، وأن تعبر عن إرادتها ووحدتها ، وأن تدافع عن حريتها وإيمانها وعقائدها .

٢٠

بدء المنازعات

(الأسقف دوناتوس ــ مجمع ارل ــ الهرطقة الآريوسية ــ أسقف الاسكندرية تقاوم مجمع نيقية ــ قوانين الايمان الثلاثة ــ اثناسيوس بطل المجمع ــ مجمع القسطنطينية).

أراد قسطنطين الكبير أن يوحد أمبرطواريته سياسيا وثقافياً واقتصادياً ولعله فى تعاطفه مع المسيحية قصد أن يتخذ من هذا الدين عاملا من عوامل هذه الوحدة ، ولكى تكون المسيحية عاملا من عوامل الوحدة ، لامناص من أن تكون الكنيسة واحدة خالية من بواعث الإنشقاق والجافاة بين أفرعها . ولكنه وجد فى شمال أفريقية أن اضطهاد « دقلديانوس » خلق انشقاقاً معقدا وشخصيا فى أسبابه ، وذلك لأن الحزب المحافظ هناك ادعى أن أسقف قرطاجة الجديد تمت رسامته فى سنة ٣١١م ، بيدى إنسان لوثته خطية مشينة قاتلة ، يوم سلم الأسفار المقدسة التى كانت بعهدته ، إلى الوالى المضطهد ، ولم يرع الأمانة المسيحية مسوقاً إلى ذلك بالخوف والجبن والحرص على حياته .

الأسقف دوناتوس

وحسبوا تلك الرسامة باطلة وعينوا بديلا عنه، ولكن خلف ذلك البديل فى كرسى الأسقفية رجل قوى الشكيمة ، شديد البأس ، يدعى « دوناتوس الكبير » ، وقد سمى هذا الإنشقاق « الدوناتية » نسبة إلى هذا الأسقف العنيد، وفى سنة ٣١٣م أغدق الإمبراطور هبات من المال على قساوسة الكنيسة الكاثوليكية.

وحرم منها أنصار الدوناتية ، ولما شكا هؤلاء انعقد مجمع فى رومية فى السنة عينها ، ولكنه حكم ضدهم ، فزادت العداوة لددا والقطيعة مرارة ، وهنا يتدخل قسطنطين ، ويغتصب لنفسه السلطة التى كانت وبالا على الكنيسة ، ألا وهى وضعها تحت إشرافه ، والتسلط على كل شئونها ، فاستدعى مجمعاً فى سنة ٣١٤م فى مدينة « إرل » من أعمال بلاد الغال « فرنسا » .

مجمع إرل

وقد أصدر المجمع قراره بإدانة الشيعة ، واعتبار الرسامة صالحة حتى وإن تمت بأيد غير نقية ، ولكن أنصار هذه الشيعة رفضوا الإستسلام والخضوع لهذا القرار . فأغلق الأمبراطور كنائسهم ، ونفى أساقفتهم ، وهنا يبدأ اضطهاد المسيحيين بعضهم بعضاً ، وساد الاضطراب كل شمال أفريقيا ، مما اضطر الامبراطور أن يعدل عن إستعمال القوة ، وفى سنة ٣٢١م ترك المنشقين لحالهم ، فزاد عددهم زيادة هائلة ، وادعوا أنهم هم الكنيسة الوحيدة التى خلت من لوثات الخطيئة القاتلة ، وظلت هذه الشيعة عاملة ناهضة ، ولم يختف وجودها إلا بعد الفتح العربى .

الآريوسية

ومنذ أوائل القرن الثالث ، برزت بقرنيها هرطقة أخرى ، وكانت على الكنيسة أشد خطراً من سائر الهرطقات ، وذلك أن كاهنا من كهنة الكنيسة فى الاسكندرية يدعى آريوس أعلن جهاراً على الملأ أن المسيح لم يكن إلهاً ، بل هو كائن وسط بين الله والانسان ، شبه إله ، خلق منذ البدء وهو ليس من جوهر الله ، ولم يكن أزلياً ، وقد حبك دعواه فى عبارات خلابة ، حتى ظن كثيرون أنه يقول الحق .

ومن قبل ناضلت المسيحية اليهودية الضيقة والوثنية الغاشمة والعالمية والشاردة ، والأغنسطية المتفلسفة ، وغيرها من نزعات الزيغ والالحاد ، وهي الآن تقف أمام عدو خبيث يطعن جوهر الإيمان .

ومنذ البداية كان فرضاً على المسيحية أن تواجه السؤال القائل : ماذا تظنون في المسيح ؟ وقد كان سر لاهوته المشكلة الأولى والعظمى أمام العقل المسيحي المثقف ، فمن كتابات بولس ويوحنا ، إلى كتابات خلفائهم من بعد مدى الأجيال ، يقوم الإيمان المسيحي على أن يسوع المسيح هو « الأول والآخر » (رؤيا ١ : ١٧) و « بداءة خليقة الله » (رؤيا ٣ : ١٤) و « كلمة الله » (رؤيا ٩ : ١٣) الذي به خلق العالمين ، وهو حي قبل تأسيس العالم . وبهذا المعنى هو ابن الله ، بل الله ذاته . وقد وجد العقل البشري نفسه أمام صعاب حين راح يفكر أن ابن الله الذي صار إنساناً وارتضى قيود الجسد وذله ، يحسب معادلا لله ، وهو في الوقت نفسه منفصل عنه .

أفيكون المسيح مجرد إنسان قد امتاز بمواهب خاصة ،وقوى معجزية ، وكرامات قدسية ؟ ليس هنا شيء من الصعوبة البتة . والواقع أن قليلين مالوا إلى هذا الحل ، ولكنهم كانوا قلة ضئيلة لم يكن لهم شأن في تاريخ الكنيسة ، واستؤصلت هذه الهرطقة وهي نبتة صغيرة ، فلم تقم لها قائمة فيما بعد في التاريخ المسيحي . واستقر الفكر الديني من أول الأمر ، على التسليم بألوهية المسيح . ولكن الله إله واحد ، لا إله إلا هو . لذلك ذهب بعضهم إلى أن الله الآب ، تجسد في المسيح وتألم على الصليب . وأن الله الآب ، والله الإبن ، والله الروح القدس ، ليسوا إلا مظاهر مختلفة للإله الواحد الأحد . وذهب آخرون إلى أن الكائن الإلهي الذي ظهر في

المسيح ، هو كائن روحى خلق قبل إنشاء العالم ، وهو مخلوق ومع ذلك أقل مرتبة من الله .

أسقف الإسكندرية يقاوم

وكلا الرأيين قد بعد عن الإيمان القويم كل البعد ، ولم يكن بد من وضع حد لهذه الآراء المتناقضة ، وصياغة قانون الإيمان السليم ، فى مصطلحات ثابتة ، لا تعبث بها أهواء الهراطقة والملحدين . وقد كان أسقف الاسكندرية أول من فطنوا إلى خطر دعاية آريوس ، فحاول أولا فى لقاء شخصى معه ، أن يرده إلى الصواب ، ثم استدعاه إلى مجمع من الأساقفة ، فلم يرض آريوس العدول عن آرائه ، التى نظمها فى قصائد شعرية ، وأناشيد وأغان رائعة ، فشجر نزاع عنيف بين الآريوسيين وبين بقية الكنيسة ، وانتقل النزاع من مصر إلى غيرها من الأمصار . وبلغ نبأ هذا النزاع أسماع الإمبراطور قسطنطين ، وكان قد وطن العزم على أن يحتفظ بوحدة الكنيسة ، صيانة لوحدة الإمبراطورية ، فبعث برسالة إلى الإسكندرية مع الرجل الشيخ « هوسيوس » ، أسقف قرطبة فى أسبانيا ، يرجو فيها زعماء الكنيسة فض هذا الإشكال إبقاء على الوحدة المسيحية ، فلما عاد الأسقف إلى الإمبراطور ، أبلغه أن المسألة جد خطيرة ، وأقنعه بعقد مجمع الأساقفة لفض هذا النزاع ، وغيره من أسباب الخلاف أخرى .

مجمع نيقية :

وقد عقدت الكنيسة من قبل مجامع إقليمية محلية فى القرنين الثانى والثالث ، أما الآن ، وقد تمتعت الكنيسة بحريتها ، واستندت إلى عون

الامبراطورية ، فلم يكن ثمة ما يحول دون عقد مجمع مسكونى ، يحضره ممثلون من كل رقاع العالم المسيحى .

ولذلك إنعقد المجمع فى مدينة نيقية بآسيا الصغرى سنة ٣٢٥ م ، ولأول مرة فى تاريخ الكنيسة اجتمع — على ما يقال — ثلاث مائة وثمانية عشر أسقفاً من أحبار الكنيسة ، قدموا من فلسطين وسورية وآسيا الصغرى ومصر وأفريقية وأسبانيا وبلاد القوط ، ولم يستطع أسقف رومية الحضور لكبر سنه ، وضعف صحته ، فأوفد اثنين من رجاله نائبين عنه . وكان بين المؤتمرين نساك من الصحراء ، ورجال بدت على جسومهم آثار الإضطهاد والتعذيب ، بل كان هناك أيضاً نفر من الفلاسفة الوثنيين ، الذين ساقهم حب الاستطلاع إلى هذا المحفل العظيم . وكان آريوس هناك — رجلا أسمر البشرة ، نحيف القوام ، شاحب الوجه ، كليل العينين ، معقوص الشعر ، يرتدى ثياب الناسك الخشنة . وكان صوته جذاباً ، ساحراً فى قوة الكلام وحسن التعبير . وإلى جانب أسقف الإسكندرية وقف شماس شاب ، له شعر أسمر مائل إلى الأحمرار ، وله لسان زلق قوى الحجة حلو الحديث . وقد أحضره الأسقف معه ليكون كاتم سره . ومع أنه كان شاباً فى مقتبل العمر ، فقد ذاع صيته بكتابين قيمين أخرجهما للناس . أما ذلك الشاب فهو « إثناسيوس » بطل المسيحية فيما بعد .

وفى وسط القاعة أقيم عرش ، وضعت عليه نسخ من بشائر الإنجيل ، وفى أحد أطراف القاعة مقعد صغير مذهب ، وقف عنده الإمبراطور قسطنطين فى ثيابه الأرجوانية المذهبة ، ينتظر الإذن من الأساقفة قبل الجلوس .

وقد ألح الإمبراطور عند إفتتاح المؤتمر على المصالحة والهدوء ، ولكن

المناقشات إتخذت طريقاً عنيفاً ، واشتد الجدل والحوار حول مسائل الخلاف الكثيرة . وجاء دور مشكلة آريوس ، فاستعان أسقف الإسكندرية وأنصاره ، بأقوال السفر المقدس وبقانون إيمان بسيط ، كان قد صاغه يوسيبيوس أسقف قيصرية . ولكنهم رأوا أن آريوس وأتباعه قد يقبلون هذه الألفاظ ولكنهم يعنون منها شيئاً آخر ، فبحثوا واجتهدوا حتى عثروا على لفظة يونانية (homoousion) ومعناها « جوهر » ليثبتوا بها أن المسيح من جوهر الله ، ومعادل له ، وصاغوا بعض عبارات قانون الإيمان الذى عرف فيما بعد فى التاريخ بقانون الإيمان النيقوى ومطلعه :

« أؤمن ... وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله . . . إله من إله ، مولود غير مخلوق ، ذو جوهر واحد مع الآب ... » .

وبذلك فض المؤتمر النزاع القائم . وقرر إبعاد آريوس وأتباعه إلى حين ، وحرق الكتاب الذى أودعه آراءه الملحدة .

قوانين الإيمان الثلاثة :

وفى الكنيسة المسيحية اليوم ثلاثة قوانين إيمان ، تنطوى كلها على عقائد واحدة وإن اختلفت فى الصياغة طولا وقصراً . أو إيجازاً وإسهاباً . وأقدمها وأوجزها هو قانون إيمان الرسل ، وهو يعبر بعبارة مختصرة بسيطة ، عما كان يعلم به الرسل الأولون عن الله الآب ، وربنا يسوع المسيح ، والروح القدس ، والكنيسة ، والغفران ، والحياة الأبدية . والثانى هو قانون الإيمان النيقوى ، وسمى هكذا لأن فى مجمع نيقية اتفق أحبار الكنيسة على صياغة ألفاظ معينة للتعبير بها عن طبيعة المسيح . وهو أطول من قانون إيمان الرسل ، تتلوه بعض الكنائس فى عبادة الشركة المقدسة .

أما الثالث فهو قانون إيمان إثناسيوس ، ولئن كان لم يكتبه بنفسه ، فإنه يعبر عن إيمان القديس إثناسيوس ، ويقال إنه كتب فى القرن السادس ، ليتلى كتسبحة بعد المزامير ، وهو لا يستعمل الآن إلا نادراً ، لأنه مطول مفصل .

إثناسيوس بطل المجمع

ولم تسجل فى محاضر المجمع النيقوى الأقوال التى تفوه بها الشاب إثناسيوس ، ولكن الذى نعرفه ، أنه منذ ذلك التاريخ غدا رجلا عظيما فى تاريخ الكنيسة ، يعجب به الكثيرون ، ويبغضه الذين لم يكونوا معه على وفاق فى الرأى . وبعد المؤتمر بسنة واحدة ، سيم أسقفاً على كرسى الإسكندرية ، وقضى فترة من الزمن يكتب المؤلفات ويرعى شعبه فى هدوء وسلام . وبعد ذلك إنقلبت حياته سلسلة من المخاطر والمعارك فى سبيل الإيمان ، وذلك لأن قسطنطين وخلفاءه على العرش ، عادوا إلى محاباة آريوس ، وراحوا يضطهدون إثناسيوس وأنصاره اضطهاداً مراً ، فطرد إلى المنفى خمس مرات ، على أثر الدسائس التى حاكها أعداؤه والتهم التى أثاروها ضده . ومرة لجأ إلى حماية أسقف رومية ، وأكثر من مرة عاش طريداً متخفياً فى أديرة صحراوات مصر ، ينتقل من مكان إلى آخر متنكراً ، والرهبان يخفون أمره ويتسترون عليه . ومن مخابئه بعث برسائل إلى أصدقائه ، الذين كانوا يبكون كنائسهم التى إنتزعت منهم وسلمت إلى الآريوسيين .

ومرة أحاط الجند بكنيسته ، وذبحوا العابدين ذبح الأغنام ، وأخرجوا المذبح والستائر وأحرقوها فى الطريق العام ، ونجا هو بحياته . ومرة فر فى زورق فطارده أعداؤه ، ولكنه نجا من أيديهم بحيلة غريبة . وكانت

أشد الضربات على نفسه هجر أصدقائه له ، وقبولهم عقيدة آريوس ، لا لأنهم آمنوا بها حقاً ، بل خشية العقاب والموت . وكاد يكون وحده فى هذا النضال القاسى ، ولكنه ما تردد ولا تزعزع ، وخلد بعده المثل المأثور « إثناسيوس ضد العالم كله » لوصف كل بطل يناضل وحده فى معركة عنيفة .

مجمع القسطنطينية :

انتصرت الآريوسية مدى حين فى الشرق ، بفضل تعضيد الأباطرة الذين ارتدوا عن الإيمان القويم ، ولكنها لم تستطع البقاء طويلا ، وذلك لأنها إنقسمت على نفسها شيعاً وأحزاباً . وجاء الإمبراطور ثيودوسيوس — وكان من أنصار إثناسيوس — واستدعى مجمعاً مسكونياً ثانياً فى القسطنطينية (سنة ٣٨١ م) فأقر مرة أخرى قانون الإيمان النيقوى أساساً لعقائد الكنيسة الجامعة . وانطفأت شعلة الآريوسية من تلقاء نفسها ، لأنه أعوزتها قوة المقاومة واحتمال عواصف التاريخ . وكانت تلك الهرطقة المحاولة الأولى لإحلال الفلسفة العقلية المنطقية محل الإيمان المسيحى ، فباءت فى آخر الأمر بالخيبة والفشل . وانتصرت العقيدة النيقوية ، التى ميزت ، وفى الوقت نفسه وحدت جوهر الآب والابن ، وصاغت عقيدة الثالوث المقدسة ، عقيدة الوحدانية الإلهية فى ثلاثة أقانيم . وعندنا أن إنتصارها يرجع إلى أنها قد أعلنت — وفى الوقت نفسه أخفت فى وقار وخشوع — سر طبيعة المسيح . وبهذا السر العميق ، تعلق رجاء الكنيسة مدى الأجيال ، وهو سر وقفت أمامه الإنسانية خاشعة متهيبة ، تحاول الوصول إلى أغواره ، ولكن هيهات أن تفلح . فإن الإله الذى يدركه العقل البشرى ، ويحيط به إحاطة تامة ، يبطل أن يكون إلهاً .

وبعد مجمع نيقية المسكونى ، إنعقدت مجامع مسكونية أخرى ، لفض الإشكالات الدينية التى ثارت حول طبيعة المسيح وذاته ، وغير ذلك من الخلافات الكنسية ، وسميت تلك المجامع مسكونية ، لأنها ضمت ممثلين من كافة الهيئات والعناصر المسيحية . فى سنة ٣٨١ م ، إنعقد مجمع القسطنطينية ، وفى سنة ٤٣١ م مجمع أفسس ، وفى سنة ٤٥١ م مجمع خلقيدونية .

٢١

أبطال فى تلك الفترة

(الأسقف أمبروز — يوحنا فم الذهب — أوغسطينوس — الآباء الكبدوكيون — الأسقف سينيوس — القديس مارتن ايروينموس) .

وفى تلك الفترة من التاريخ ، برز أبطال فى تاريخ المسيحية أمثال أمبروز وإيرونيوس والآباء الكبدوكيين الثلاثة العظماء ، والقرن الرابع هو الذى استهله « أثناسيوس » وختمه « أغسطينوس » ، ونرانا هنا مضطرين أن نفرد فصولا لبعض أولئك العظماء المجاهدين ، الذين كان لهم شأن خطير فى تطور الحوادث فى تلك الفترة من التاريخ المسيحى .

الأسقف أمبروز :

أرادت الدولة أن تبسط سلطانها على الكنيسة ، ولكن الكنيسة لم ترض مماشاة الدولة إلى الحد الذى أرادته، ولا بدع فى هذا ، فقد وضح الرسل الأولون هذا المبدأ فى حياة الكنيسة وقال « بولس » — مع الفيلسوف الرومانى « شيشرون » : إن الدولة جماعة من الناس تآلفوا معاً لإقامة قسطاس العدل . وما دام هذا غرض الحكومة الزمنية فانه لزام على — المسيحيين أن يطيعوا السلطات ، « لأنها مرتبة من الله » ، أما إذا حادت هذه السلطات عن جادة العقل ، حق على المسيحيين أن يقاوموها لأنه « ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس » : على حد قول الرسل والشهداء الذين سطروا هذه الحقيقة على صفحة التاريخ بأحرف من دمائهم .

لذلك ترى الكنيسة ممثلة فى زعمائها وقادتها وأساقفتها ، تعضد الإمبراطورية وتطيعها بعد أن تهاونت معها وكفت عن اضطهادها ، ولكنها لم تخش أن تعصى القيصر وسلطانه فى مناسبات كثيرة . ولما أرادت الدولة أن تتدخل فى شئون الكنيسة ، وتبسط عليها نفوذها ، أبت هذا كل الإباء ، وقال قائلهم فى الغرب — وهو « أمبروز » أسقف ميلان — حين أراد الإمبراطور وكان مسيحياً ، أن يجعل له مكانا بين الكهنة فى الكنيسة : « إن هذه الملابس الأرجوانية تجعل مرتديها أمراء لا كهنة » ، واقتيد الإمبراطور بكل تأدب إلى مكان آخر .

وكان منصبه محفوفاً بالأخطار والمصاعب . فإن قبائل البرابرة المتوحشين من الهون والقوط والفاندال ، كانوا يزحفون جنوباً لتهديد الإمبراطورية العظيمة ، التى كانت قد بدأ يدب الضعف فى كيانها . وكانت الإمبراطورية قد إنقسمت بعد موت « قسطنطين الكبير » إلى شرقية وغربية ، وفى عهد « أمبروز » كان على عرش رومية ذاتها ثلاثة من الأباطرة المتنافسين على صولجان الملك ، وقدر لهذا الأسقف العظيم أن يواجه فى عهده خطر عودة الوثنية إلى الدولة التى كان أذنابها ، يحاولون التأثير على الإمبراطور ، وكيد الهراطقة والملحدين ، ومطالب السلطات الإمبراطورية لبسط نفوذها على الكنيسة . والفارق بين الشرق والغرب هو من وجوه كثيرة أشبه بالفارق بين « يوحنا فم الذهب » وبين « القديس أمبروز » من حيث الصفات والاختبارات . ولد « أمبروز » فى مدينة « براير » بألمانيا الغربية الآن ، حيث كان والده يشغل وظيفة عليا من وظائف الدولة ، وقد تلقى العلم فى رومية تأهباً للانخراط فى وظائف الدولة ، وبفضل مواهبه ونزاهته ودماثة خلقه ، عينته الدولة فى سنة

٣٧٤ م حاكما على ولاية فى شمال إيطاليا ، على أن يقيم فى ميلان ، التى كانت عاصمة إمبراطورية فى ذلك الزمن .

وحدث أن توفى الأسقف الآريوسى ، وعند إنتخاب خلفه ثار نزاع بين الفئتين المتنافستين ، وهنا يدخل « أمبروز » لتهدئه الموقف ، فيصيح الشعب صيحة مجلجلة « أمبروز أسقف » . وخشى أمبروز أن هذه دعوة من الله ، مع أنه لم يكن قد تعمد بعد ، وقرر أن يهب كل ثروته للفقراء والكنيسة ، ودرس اللاهوت ، وصار واعظا يشار له بالبنان . وقد امتاز بموهبة إدارية فذة ، شأن بنى جلدته من الرومان ، وسرعان ما علا صيته وغدا علماً من أعلام الدين .

وكان من غلاة أنصار الإيمان النيقوى ، وأبى كل الإباء أن يتهاون مع الآريوسيين ، وقاوم كل محاولاتهم للحصول على أماكن للعبادة فى ميلان .

أما أروع إنتصاراته ، فكانت فى قضية الإمبراطور ثيودسيوس ، وقد حسبته الكنيسة الكاثوليكية أحد أعلامها وكبار اللاهوتيين فيها على أن أكثر كتاباته اللاهوتية استقاها من أفكار علماء اليونان ، وإن يكن قد أكسبها عمقاً فى المعنى ، عن الخطيئة والنعمة ، ومن أقواله المأثورة : « أنا لا أتفاخر بأنى بار بل بالأولى لأنى قد افتديت ، أنا لا أتفاخر لأنى تحررت من الخطيئة ، بل بالأولى لأن خطاياى قد غفرت » .

وقد وضع مصنفات عديدة فى الأخلاقيات المسيحية ، متأثراً بحركة الزهد والتقشف التى سادت ذلك العصر .

وحدث فى سنة ٣٩٠ م ، أن الإمبراطور ثيودوسيوس أمر بمذبحة رهيبة بشعة فى مدينة تسالونيكى (سالونيك الحالية) ، لعقاب مواطنيها على قتلهم أحد الموظفين ، فاجتمع الشعب فى ساحة الألعاب ، كأنهم يشهدون حفلا عاماً ، ثم أمر الإمبراطور أن يذبح هذا الجمهور الأعزل ذبح الأغنام . وبعد ذلك بقليل ، ذهب بموكب رسمى إلى الكنيسة فى ميلان ليعبد هناك كعادته ، فلقيه على الباب الأسقف أمبروز وابتدره بقوله : « ليس إلا رب واحد وملك واحد لهذا الوجود كله » . وبكلماته اللاذعة كالنار ، منع الإمبراطور من التقدم إلى المائدة المقدسة ، بعد أن لطخ يديه الأثيمتين بدماء الأبرياء ، وأصر على أن يندم جهاراً أمام الشعب على فعلته الشنعاء . فأبى ثيودوسيوس هذا الإذلال ، وتجنب الكنيسة ثمانية أشهر . وعند حلول عيد الميلاد اضطر أن يخضع إلى مشيئة الأسقف ويقبل الندم والتوبة جهاراً ، وسن شريعة تقضى بألا ينفذ حكم الإعدام أو المصادرة ، إلا بعد مضى ثلاثين يوماً من تاريخ توقيعه ، وهى شريعة حكيمة ، تحد من سطوة الحاكم النزق الحاد الطباع . وبعد ذلك دخل الإمبراطور إلى الكنيسة نادماً متذللا ، مرتدياً ثياب مواطن عادى من أبناء ميلان ، وتعلم بعد هذا الدرس ، أن يكون بطيئاً حين يفكر فى الإنتقام من أعدائه .

وفضلا عن هذه الأعمال الجليلة الباسلة ، قد صنف أمبروز كتباً عدة ، ووضع ترانيم خشوعية غير موزونة ، ما تزال باقية حتى اليوم ذخراً خالداً للكنيسة ، وأدخل نوعاً خاصاً من الأناشيد فى العبادة .

يوحنا فم الذهب :

أما حياة فم الذهب ، فهى على نقيض حياة أمبروز ، وقد ولد فى أسرة عريقة ثرية فى مدينة أنطاكية حوالى سنة ٣٤٥ م — وقد توفى والده

بعد مولده بقليل ، وقد تولت أمه التقية تربيته وتثقيفه ، وقد امتاز منذ حداثته بالفصاحة وزلاقة اللسان، وحوالى سنة ٣٧٠م تعمد ورسم واعظا، ومالت نفسه إلى التقشف والزهد، وثابر على دراساته اللاهوتية تحت رعاية « ديدروس الطرسوسى » أحد قادة المدرسة الأنطاكية ، ولم يكتف بحياة الزهد التى عاشها ، فصار ناسكا فى سنة ٣٧٥ م ، وبقى ناسكا حتى اعتلت صحته ، فعاد إلى أنطاكية ، وهناك رسم شماساً سنة ٣٨١ م ، ثم كاهنا ، وفى هذه الوظيفة قضى أسعد وأنفع أيام حياته . وقد ذاع صيته كواعظ قدير ، وكانت الجماهير الحاشدة تهرع إلى سماعه ، بحيث هيأ زحامها فرصة للنشالين والسارقين ، واضطر فى آخر الأمر إلى أن يحذر جماهير سامعيه ، ليتركوا أكياس نقودهم فى دورهم . وقد خلعت عليه فصاحته وزلاقة لسانه لقباً عرف به فى التاريخ « فم الذهب » أو « ذو الفم الذهبى » . وفى سنة ٣٩٧ م سيم أسقفاً على كرسى القسطنطينية، فبدأت بذلك متاعبه وأعباء حياته ، ولم يكن الإقبال عليه هناك أقل منه فى أنطاكية ، ولكن خشونة طباعه وحدته فى التشهير بالأشرار ، قد أثارت ضده عداء رجال البلاط والكهنة وطبقات الأغنياء ، وقد أغضب بصفة خاصة الإمبراطورة التى شبهها فى إحدى عظاته مرة بايزابل الشريرة ، وأخرى بهيروديا الخليعة . وكان بطريرك الإسكندرية ثاوفيلس عدوا له ، فأصدر عليه حكماً فى مجمع محلى عقده على مقربة من القسطنطينية ، وقد تآمر عليه هؤلاء الأعداء ، وأفلحوا فى الحصول على حكم بنفيه فى سنة ٤٠٣ م . ولكن محبة الشعب له وتعلق العامة به ، حالا دون تنفيذ هذا الحكم ، واضطر أرباب السلطان إلى إعادته ، خشية نشوب ثورة الدهماء . وكل هذا لم يرهبه ولم يفقده شيئاً من شجاعته فى الحملة على الأشرار ، وفضح

أعمالهم ، حتى آل الأمر إلى نفيه فى السنة التالية ، وبقى فى منفاه حتى قضى نحبه من فرط ما عانى من سوء المعاملة والقسوة الوحشية .

ويحسب « يوحنا فم الذهب » أوفر الكتاب إنتاجاً بين الآباء الأولين ، وأكثرهم تقوى وورعا وقداسة ، لم يدانه أحد فى اكتساب قلوب عامة الشعب ، ولكن لم يقدر أن يستميل إليه الحكام وأولى الأمر والنهى . والمصير الذى لقيه هذا البشير الكبير وأخلص الداعين إلى البر والطهر ، يمثل مأساة تدخل السلطة الحاكمة فى شئون الكنيسة ، كما يمثل بداءة الحساسيات وعوامل التحاسد ، التى ظهرت بين الكراسى الدينية الكبرى فى الشرق ، ومن جراء هذه العداوة المتبادلة ، أصاب الكنيسة ما أصابها من ألم ومرارة فى القرون اللاحقة .

أغسطينوس :

فى عهد أغسطنيوس حصلت الكنيسة الأولى على أرقى إنجازاتها الدينية منذ العصر الرسولى ، ولئن تكن آثاره فى الشرق ضئيلة الشأن بحكم طبيعة القضايا التى عالجها ، فإن المسيحية فى الغرب مدينة له بالشىء الكثير . ولئن تكن أفكاره اللاهوتية مدعمة بالأسفار المقدسة والفلسفة والتقاليد الكنسية ، فإنها متأصلة فى اختباراته الشخصية ، فقصته فى الواقع هى قصة الإنسان .

ولد « أغسطينوس » فى « تاغست » فى أفريقية الشمالية فى سنة ٣٥٤م وكان ابنا لأب وثنى وأم مسيحية تقية تدعى « مونيكا » ، وقد شغل بال الأم التقية أن ترى ولدها يعتنق آراء شيعة من شيع الغناطسة ، ويميل إلى الفلسفة الوثنية . وكان له طبيعتان إحداهما شهوانية جسدية ، والأخرى

ناضجة العقل نزاعة إلى السعى وراء الحق أينما وجد — وقد درس المنطق فى مدارس قرطاجة وبرع فيه . وفى السابعة عشرة من عمره ، اتخذ لنفسه خليلة بقى معها أربعة عشرة عاماً ، ورزق منها ولدا فى سنة ٣٧٢ م ، أحبه حباً جماً ، ومع ذلك استيقظت فيه الطبيعة الثانية ، فعكف وهو فى التاسعة عشرة على دراسة « شيشرون » ، وبعد ذلك راح يدرس الأسفار المقدسة المسيحية ، وكانت صلاته فى هذه الفترة : « ربى هبنى عفة الحياة ولكن ليس الآن » . تسع سنوات قضاها فى قرطاجة بين أنصار شيعة الغناطسة ، وكان مدرساً — للمنطق ، واتضح له بعد البحث والدرس ، فساد عقائد هذه الشيعة ، وفى سنة ٣٩٣ م رحل إلى رومية ، وهناك عين مدرساً للمنطق فى ميلان ، وكانت يومئذ عاصمة الإمبراطورية الغربية : وفى ميلان يقع تحت تأثير الرجل العظيم القديس « أمبروز » ، وهناك تلحق به أمه ، وتحت تأثيرها يتخلص آسفاً من خليلته . ولم يحاول « أمبروز » أن يفرض إرادته على صديقه الشاب ، بل أخذه باللين والحسنى والعطف ، وراح « أغسطينوس » يصغى فى لهفة إلى معلمه الوقور ، حتى أشرق النور على عقله ، وصار مسيحياً مخلصاً فى سنة ٣٨٧ م . وروى قصة اهتدائه فى كتابه المشهور « اعترافاتى » ، وقبل اهتدائه حدث له اختبار رواه تفصيلا فى كتابه ، قال فيه إنه بدأ يقرأ بعض ما كتب عن حياة الرهبنة فى مصر [1] فأحس بالخزى والخجل ، أن يرى طائفة من أولئك الرهبان الجهلاء يقمعون تجاربهم ويتغلبون على ضعفاتهم ، وهو رجل العلم والثقافة يقف عاجزا ذليلا أمام هذه التجارب ، ويهرع وهو مغمور بالذل ودينونة نفسه إلى حديقة منزله ، وهناك يسمع صوت صبى من منزل مجاور يقول له « خذ واقرأ » ،

(١) سيرة أبى الرهبنة « أنطونيوس » التى كتبها أثناسيوس

فتناول نسخة من الرسالة التى كان قد قرأها ووقعت عيناه على الكلمات التالية :

« فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور ولنسلك بلياقة لا بالبطر والسكر لا بالمضاجع والعهر لا بالخصام والحسد بل البسوا الرب يسوع المسيح ولاتصنعوا تدبيرا للجسد لأجل الشهوات » (رومية ١٣ : ١٣ و ١٤)

ومن تلك الساعة أحس « أغسطينوس » بسلام فى العقل ، وقوة إلهية للتغلب على خطاياه وخبائثه التى كان قد فشل حتى اليوم فى قهرها ، وتجددت طبيعته تجديداً جذرياً . وقد حدث اهتداؤه فى صيف ٢٨٦ م ، ثم اعتزل وظيفة الأستاذية بسبب اعتلال صحته . وفى عيد الفصح من سنة ٣٨٧ م تعمد بيد الأسقف « أمبروز » فى ميلان ، وبعد ذلك يعود إلى مسقط رأسه ، وفى طريق عودته تموت أمه التقية فى أوستيا ، ويكتب قصة موتها فى كتاب يحسب من أروع وأبدع وأنبل الآثار المسيحية فى الأدب المسيحى القديم . وبعد قضاء بضعة أشهر فى رومية ، يعود إلى « تاغست » ، وهناك فكر فى أن ينشىء ديراً ، فانطلق إلى هبو فى الجزائر فى سنة ٣٩١ م ، وهناك رسم قساً ، وكان متردداً فى القبول ، وبعد أربع سنوات سيم أسقفاً على هبو ، وفى هذه المدينة أنشأ أول دير فى تلك البقعة من أفريقية ، الذى جعله أيضاً مدرسة لتدريب القساوسة .

وكان «أوغسطينوس» من أعظم المفكرين والكتاب فى الكنيسة المسيحية ، وأقدرهم وأغزرهم مادة وروحاً . وما فتئت مؤلفاته نبعاً يفيض بالخير والخصب الروحى . وقد أفاض فى كتاباته عن مبلغ توكل الإنسان على الله حتى أساء فهمه بعض الكتاب المتأخرين ، وظنوا أنه ينكر إرادة الإنسان الحرة . والواقع غير ذلك ، فانه كان يفند بكتاباته نظريات شاعت فى

عصره ، ذهب أصحابها إلى أن الإنسان مستطيع أن يكون صالحاً بدون معونة الله .

وأشهر مؤلفاته « مدينة الله » . فقد كانت الإمبراطورية في عصره آخذة فى الإنحلال ، وفى سنة ٤١٠ م أغار «ألاريك» القوطى على مدينة رومية واحتلها بعد حصار طويل ، وزعم القوم يومئذ ، أن الدين المسيحى هو الذى أضعف الدولة ، وأنزل غضب الآلهة ، التى صبت على البلاد هذه الكارثه الدهماء ، فكتب مؤلفه هذا « مدينة الله » دفاعاً عن المسيحية ، ووصف الكنيسه كمدينة لله يسكنها كل العابدين حقاً ، ولا تقوى عليها أبواب الهاوية .

ومات فى السادسة والسبعين من عمره فى أثناء حصار قبائل الفاندال للمدينة التى كانت مقر أبروشيته .

الآباء الكبدوكيون

لعبت الهرطقة الآريوسية دوراً خطيراً فى تاريخ الكنيسة فى القرون الأولى ، ولقد ناصرها بعض الأباطرة الذين أمسكوا بأيديهم صولجان الدنيا والدين فى بعض فترات التاريخ .

وفى سنة ٣٧٢ م ، قرر الامبراطور « جوليان » نفى القديس «أثناسيوس» من مصر للمرة الرابعة ، وقد حنق عليه لأنه استمال كثيرين من أبناء الوثنية فى مصر إلى الدين المسيحى ، وكان ذلك الامبراطور قد أراد إحياء الوثنية ، وتشديد الخناق على المسيحية ، وفى سنة ٣٦٢ م قضى نحبه فى إحدى حملاته ضد الفرس ، وبموته فقدت رومية آخر إمبراطور وثنى ، وتربع على عرش الإمبراطورية عاهل مسيحى ، ولم يكن من ديدنه التدخل

فى الشئون الكنسية إلا قليلا ، وهنا يعود القديس « أثناسيوس » من منفاه للمرة الرابعة ، ولكن ينتهى حكم هذا الإمبراطور — جوليان — فى سنة ٣٦٤ م ، ويخلفه فالنتنيان الأول (٣٦٤ — ٣٧٥ م) . ولكن هذا الإمبراطور أحس بثقل المهمة فى الدفاع عن ملكه ، فاقتصر حكمه على الغرب وولى أخاه « فالنى » — فى الشرق . ولسوء الحظ يقع هذا الحاكم تحت نفوذ القساوسة الآريوسيين فى القسطنطينية ، فيحكم على « أثناسيوس » بالنفى للمرة الخامسة فى سنة ٣٦٥ م ، على أنه لم يغادر مدينته هذه المرة ؛ ولم يكن هذا العاهل الرومانى من غلاة المنتصرين للآريوسية ، فبقى « أثناسيوس » فى مدينته حتى أدركته الوفاة سنة ٣٧٣ م فى الاسكندرية ، بعد أن أبلى البلاء الحسن ، وأخلص الإخلاص كله ، فى جهاد وتضحية وشجاعة ، لنصرة الإيمان النيقوى ، وحق المسيحية الكامل .

وبعد موت « أثناسيوس » ، تنتقل زعامة الجهاد فى كفاح الآريوسية إلى أيدى أناس جدد ، إلى الحزب النيقوى الجديد ، وعلى رأسهم الآباء الكبدوكيون الثلاثة العظام باسيل قيصرية فى كبدوكية ، وجريجوريوس النزيانزى ، وجريجوريوس نياسا .

باسيل قيصرية :

ولد « باسيل » فى أسرة كبدوكية رفيعة القدر ، حوالى سنة ٣٣٠م ، وتلقى علومه فى أرقى مدارس القسطنطينية وأثينا ، مع زميله فى الدراسة وصديق عمره « جريجوريوس النازيانزى » ، وحوالى سنة ٣٥٧ م ، عكف على حياة الزهد والتقشف ، وهى المزاج الغالب فى ذلك العصر ، وولى ظهره إلى المناصب الدنيوية وكل أسباب حياة الترف العالمية ، وعاش راهباً فعلا ، ثم زار مصر ، وكانت فى تلك الفترة الموطن الأصيل

للرهبانية ، وأضحى فيما بعد من أكبر دعاة الرهبنة فى آسيا الصغرى . على أنه بحكم طبيعته ، لم يخلق للنسك فى صومعة ، بل ظل يدبر الشئون ويدبر الأمور ، وتشاء له الأقدار أن يتصل بالقديس « أثناسيوس » ويشاطره آراءه فى نظرية مساواة الروح القدس بالآب والابن — وقد كانت مثار جدل ونقاش فى ذلك العصر ، وفى نصرة الإيمان النيقوى السليم . وتهيأ له ظرف الكفاح فى هذه القضية بعد أن يصير أسقف قيصرية فى سنة ٣٧٠ م ، وقد خولته وظيفته سلطة كنسية على قسم كبير من آسيا الصغرى ، التى استخدمها خير استخدام حتى تاريخ موته المبكر فى سنة ٣٧٩ م ، للسير قدماً فى توطيد أركان القضية النيقوية ، وكذلك خلق أسباب التفاهم والتعاون بين خصوم الآريوسية فى الشرق وزعماء الغرب ، وهم بطبيعتهم من أنصار القانون النيقوى الأقوياء .

جريجوريوس نياسا :

أما « جريجوريوس نياسا » فهو أخو « باسيل » الأصغر ، وكان من المناطقة العظماء ، ومن فطاحل الكتاب الذين اشتهروا بصفاء الذهن ووضوح الرؤية ، وقد بز فى هذا المضمار أخاه « باسيل » ، وإن كان دونه فى موهبة الإدارة والتنظيم . وقد اشتق لقبه من مدينة كبدوكية صغرى تدعى نياسا التى صار أسقفا لها فى سنة ٣٧١ أو ٣٧٢ م ، وقد امتدت به الحياة إلى ما بعد سنة ٣٩٤ م ، ووضعه التاريخ بين الآباء الأربعة فى كنيسة المشرق .

جريجوريوس النزيانزى :

أما « جريجوريوس النزيانزى » (٣٢٩ — ٣٨٩ م) ، فقد إتخذ لقبه من مدينة هى مسقط رأسه ، وكان والده أسقفا فيها ، ومنذ أيام الصبا ،

ربطت بينه وبين «باسيل» أواصر من الصداقة الودودة ، ومالت نفسه مثل «باسيل» إلى حياة الزهد والتقشف . وقد برز شريكه في الوعظ والخطابة ، ولما رسم كاهنا راح يعاون والده ، ولكن رفعه «باسيل» إلى رتبة الأسقفية في قرية سانسيما . وحوالى سنة ٣٧٨م شخص إلى القسطنطينية للكفاح ضد الآريوسية ، التى كانت عقيدة الغالبية العظمى من سكان هذه المدينة الكبرى ، وفى سنة ٣٧٩ م يجلس على عرش الإمبراطورية «ثيودوسيوس» ، وهو الحاكم المفرد الأخير للإمبراطورية الرومانية ، ومن أشد أنصار العقيدة النيقوية ، فوجد فيه خير سند وأقوى معين . وقد أفلح في جهاده حتى ليقال إنه اكتسب المدينة كلها لقانون الإيمان النيقوى ، ولذلك يكافئه الإمبراطور بأن يجعله أسقفا للقسطنطينية فى سنة ٣٨١م ، ولكن الحزازات الحزبية وميوله الطبيعية إلى العزلة النسكية التى كثيراً ما طاردته وطردته من العالم ، هذه وتلك قد حملته على التنحي عن هذه الوظيفة الكنسية الرفيعة ، وقد كان كاتباً من الطراز الأول ، لا يقل فى إبداعه الفنى واللاهوتى عن «جرجوريوس نياسا» ، وهو مثله يحسب من الآباء الشرقيين ، وقد خلع عليه أهل المشرق فيما بعد لقب اللاهوتي .

إلى هؤلاء الثلاثة أكثر من غيرهم ، يرجع الفضل الأكبر فى إنتصار الإيمان النيقوى الجديد فى تلك البقاع .

الأسقف سينسيوس :

ولعله من الشائق حقاً ، أن نذكر اسم زعيم آخر من طراز غير الطراز اللذى نعرفه ، يمثل لنا صورة تختلف كل الإختلاف عن الصور التى ألفنا رؤيتها فى القرون الأولى من تاريخ المسيحية . أما ذلك فهو الأسقف .

سينسيوس ، وكان من مواطنى ليبيا فى أفريقية الشمالية ، التى سميت فى التاريخ القديم « سيرانيا » . وقيل عنه إنه من سلالة الإغريق الذين غزوا هذه الرقعة الأفريقية ، قبل ألف عام من ذلك التاريخ . وبعد أن درس فى مدرسة الإسكندرية تحت قدمى هايبشيا الفيلسوفة ، التى أعجب بها كل الإعجاب ، انتقل إلى موطنه ، وانصرف إلى إدارة أملاكه الواسعة ، وقضى معظم وقته فى الفلاحة والكتابة والدرس والصيد . وفى موضوع الصيد والقنص كتب أول مؤلفاته ، وكان قنص النعام من أعز مطالبه . كذلك قرض الشعر ، ودرس علم التنجيم ، وأخترع منظاراً لقاع البحر .

ولما غزت بلاده قبائل قطاع الطرق ، الذين خرجوا عليها من مجاهل الصحراء ، تولى هو تدبير الدفاع ، فسلح الفلاحين والزراع ، وعبيده الذين يملكهم ، وابتكر أسلحة جديدة للدفاع عن الوطن .

وفضلا عن هؤلاء الغزاة من الخارج ، فإن أهل « سيرانيا » قد أوقعتهم الأقدار تحت يد حاكم ظالم مغتصب . ولذلك لما خلا كرسى الأسقفية فى « بتولمايس » (وهى الآن ميناء صغيرة تقع بين درنة وبنغازى) ، أجمع الشعب كله على اختيار « سينسيوس » لهذا المنصب ، ووافق على ذلك أساقفة الولاية كلهم ، كما وافق « تيودور » أسقف الإسكندرية ، وكان رئيساً لهؤلاء . أما «سينسيوس» نفسه ، فتمنع وتردد ، وحسب نفسه غير أهل لهذه الوظيفة ، وخشى أن يحرم ملذات الصيد والقنص واللذات الأخرى التى استهوته. وعلى حد قوله « جثيت على ركبتى طالباً الموت أولى من كرسى الأسقفية » .

وبعد لأى نزل على إرادة الشعب ، ولكنه اشترط أن يحتفظ بزوجته .

وكان الأساقفة لا يتزوجون عادة . وفى هذا كتب يقول : «إن الله نفسه، وشريعة البلاد ، ويد ثاوفيلس المباركة ، قد وهبتنى هذه الزوجة ، ولذلك أعلن أمام الملأ ، أنى لن أنفصل عنها ، وأرجو أن يرزقنى الله نسلا صالحاً بمجده على الأرض» .

وقد سيم أسقفاً على بتولمايس مسقط رأسه فى سنة ٤١٠ م ، ووقع له ما كان يخشاه . فلم يعد يجد فراغاً من الوقت لإشباع نفسه بالأمور التى أحبها ، وقضى حياته فى كفاح مع السلطة الحاكمة ، لتبتعد عن كل تدخل فى الشئون الدينية ، وفى كفاح أيضاً مع الغزاة الذين مافتئوا يغيرون على البلاد بين الفينة والفينة ، وذلك لأن عبء الدفاع عن الوطن ، ظل على منكبيه حتى بعد رسامته ، نزولا على رغبة الشعب . وهو أول أسقف دون التاريخ اسمه ، بين صفوف المحاربين ، وإن يكن قد فعل ذلك دفاعاً عن شعبه ضد السلب والنهب والقتل :

على أنه مع هذا كله ، قام بواجباته الأسقفية فى مدته القصيرة ، على أحسن ما يؤدى المرء واجبه فى نشاط وإخلاص وولاء .

القديس مارتن :

ومن قبل ، أشرنا إلى القديس أمبروز فى الغرب ، وهو من زعماء الكنيسة فى تلك الفترة من تاريخها . بقى أن نذكر اثنين آخرين ، وهما القديس مارتن والقديس إيرونيموس .

ويحسب مارتن عالماً من علماء الكنيسة ، وإن لم يكن من كتابها البارزين : وقد ولد سنة ٣١٥ م ، فى مكان يقرب من مدينة بودابست الحديثة . وقد استمالته المسيحية من بدء حياته ، وأراد أن يكون راهباً ،

ولكن والده حال بينه وبين ذلك ، وأمره أن ينخرط فى سلك الجندية ، حيث قضى سنوات فى الجيش العامل . وفى يوم من أيام الشتاء القارصة — وهو مع فرقته فى مدينة أميان بفرنسا — تقدم إليه شحاذ يكاد يكون عارياً ، وطلب إحساناً . ولم يكن لديه شىء من النقود ، فانتزع مارتن عباءته ، وشقها نصفين وأعطى نصفها لذلك الشحاذ المسكين . وخيل إليه فى تلك الليلة ، أنه شهد المسيح نفسه مرتدياً هذه الشقة من العباءة . وكانت تلك الرؤيا ، الحد الفاصل بين حياة قديمة وأخرى جديدة ، فطلق خدمة الجيش ، وصار تلميذاً لأحد الأساقفة ، وأنشأ فى سنة ٣٦١ م أول دير فى بلاد الغال ، أى فرنسا الآن .

وفى سنة ٣٧١ م ، سيم أسقفاً على أبروشية « تور » فى فرنسا . ولما رأى كثرة طلابه ومريديه ، اختلى إلى غار فى جرف ، يشرف على نهر اللوار ، لا يمكن الوصول إليه ، إلا من طريق وعر منحدر . وهناك تبعه ثمانون من طلابه ، واحتفر كل منهم لنفسه غاراً فى الصخرة يأوى إليه ، وقد ارتدوا جميعاً جلود الأغنام ، ولم يأكلوا إلا وجبة واحدة فى اليوم ، وأفرطوا فى حياة التقشف والزهد . وكان معظم الفلاحين فى أبروشيته وثنيين ، فجعل همه الأول إهداءهم إلى دين الحق ، وأخذ على عاتقه أن يهدم الهياكل الوثنية ، ويقيم الكنائس على أنقاضها . وكان رحيماً شفوقاً باراً بالفقراء والمذنبين . وحدث مرة أن الكونت «أفيتانوس» حاكم الولاية ، جاء إلى « تور » ومعه نفر من الأسرى ، كان قد حكم عليهم بالإعدام . فذهب «مارتن» فى تلك الليلة إلى باب الكونت ، وأخذ يصيح حتى أيقظ صاحب البيت ، ولما خرج ، ألفى الأسقف «مارتن» مطروحاً على عتبة الدار ، ويداه ممدودتان بالتوسل والاستعطاف . فرفعه الكونت

وطيب خاطره ووعده أن يستبقى حياة الأسرى : إكراماً له ، واستجابة لطلبه الصامت .

وحدث مرة أخرى أن شخصاً يدعى « بريسيكلان » ، وزملاء له ، اتهموا بالهرطقة ، فجىء بهم أمام الامبراطور « مكسيموس » ، وألح الأساقفة الذين دانوهم بالهرطقة على إعدامهم . ولكن «مارتن» ، احتج على المجىء بالمتهمين أمام سلطة عالمية ، وأصر على أن فى حرمانهم العقاب الكافى . ولم يغادر بلاط الإمبراطور حتى وعده بالعفو عنهم . ولما ذهب ، أقبل الأساقفة الآخرون ، وأقنعوا الإمبراطور بالعدول عن وعده ، وفعلا قطعت رأس «بريسكلان» وآخر معه . وكانت هذه أول مرة ، أهرق فيها دم إنسان بسبب الهرطقة .

ولما بلغ الخبر أسماع الأسقف «مارتن» ، غضب غضباً شديداً ، وأبرم على نفسه عهداً ، ليقطعن كل صلة بالأساقفة الذين حملوا الإمبراطور على إتيان هذه الفعلة الشائنة . وأراد بعد ذلك أن يتشفع لدى الإمبراطور ، عن نفر آخر من أنصار « بريسكلان » ، كان قد حكم عليهم بالإعدام ؛ فأبى الإمبراطور إجابة التماسه ، إلا إذا أعاد صلته المقطوعة بالأساقفة الآخرين ، فاضطر إلى الإذعان ، إبقاء على حياة المتهمين ، ولكنه فعل ذلك تحت وخز ضمير لم يهدأ له روع ، إلى آخر حياته .

ومات فى سنة ٤٠١ م ، وودعه إلى مقره الأخير ، ألفان من الرهبان الذين أحبوه وأخلصوا له . وكانت صفاته وأخلاقه فى عصره ، مصدر قوته وعظمته ، وغلو كمبه بين عامة الشعب الذين رأوا طرازاً جديداً من القداسة وإنكار الذات والغيرية .

القديس إيرونيموس :

ومن أبطال تلك الفترة القديس «إيرونيموس» وهو صاحب ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية . وقبل عصره ، كانت الترجمات اللاتينية لأسفار العهد القديم ، منقولة عن الترجمة اليونانية المعروفة بالترجمة السبعينية . فتولى «إيرونيموس» ، ترجمة أسفار العهد الجديد عن اليونانية ، ونقل أسفار العهد القديم عن الأصل العبري . وقد تعلم العبرية لهذا الغرض ، بعد جهاد طويل شاق ، وعمل متواصل مضن . وقد بقيت ترجمته المرجع المعترف به ، فى الكنيسة الغربية ، إلى عهد الإصلاح ، وما فتئت حتى اليوم ، الترجمة الرسمية فى الكنيسة الكاثوليكية .

وفضلا عن هذا العمل الجليل الخالد ، ترجم أيضاً بعض كتابات «أوريجانوس» ، وكتب عدة بحوث لاهوتية . وكان له شغف شديد بكتابة الرسائل ، وقد خلد للكنيسة تراثاً لا يفنى ، من الرسائل الحافلة بشتى المعلومات ، عن حياة الكنيسة فى عصره .

وكان قد عزم فى أيام شبابه ، على أن يصير راهباً ، ولكنه لم ينفذ هذا العزم فعلا ، إلا بعد أن رأى رؤيا فى خلال مرض أصابه وهو فى أنطاكية . وفى تلك الرؤيا ، تمثل نفسه واقفاً أمام كرسى دينونة الله ، وسمع سؤالا : « من أنت ؟ » فأجاب « أنا مسيحى » . ولشد ما كانت دهشته أن يسمع الصوت يقول له : « أنت تكذب . لست مسيحياً » . وبعد هذه الرؤيا بقليل بدأ حياة النسك فى صحراء قريبة من أنطاكية ، حيث قضى خمس سنوات . وفى وصف حياة التقشف كتب يقول : « تهرأ جسمى من لفحات الشمس المحرقة ، واكتنفتنى الحيات والعقارب ، واصفر وجهى من الصوم ، وتشوهت أعضاء جسمى من الجلود الخشنة ،

واسود لون جلدى من فرط الإهمال ، حتى صاركلون عبد حبشى : كان نصيبى طول اليوم الدموع والتأوهات ... » .

على أن زملاءه النساك الآخرين فى الصوامع والخلوات ، لم يكونوا راضين عنه ، واتهموه فى عقيدته ، وحاول عبثاً أن يدفع عنه هذه التهمة بالإقرار والإعتراف ، وأخيراً ، اضطر إلى أن يعود إلى العالم ، وبعد أن قضى زمناً فى رومية ، انطلق إلى فلسطين فى سنة ٣٩٦ م ، وعاش هناك راهباً إلى آخر حياته فى سنة ٤٢٠ م .

٢٢

الرهبنة فى فجر المسحية

(عوامل النزعة الرهبانية ــ الرهبنة فى اليهودية ــ مبدع الرهبانية ــ الرهبانية فى الغرب ــ الراهب بندكت) .

أشرنا من قبل إلى أن تطور الحياة فى الكنيسة المسيحية أدى إلى إنتشار مبادىء الزهد والتقشف ، وإلى ظهور مقياسين للأخلاق ، أحدهما لرجل الدين والآخر للفرد العلمانى . وقد كسبت هذه المبادىء دفعاً قويا بميول الزهد التى كمنت فى فلسفات العالم القديم ، وقد رأينا « أوريجانوس » ــ مثلا وهو قد تشبع بالروح اليونانية ، يمتاز بنزعته المتطرفة ، وقبل انصرام القرن الثالث ، كنت ترى العذراوات القديسات عنصراً ظاهراً فى الكنيسة ، وكنت ترى رجالا ونساء يمارسون الزهد وشظف الحياة دون أن يهجروا بيوتهم . على أن الزهد بل حتى الرهبنة لم تكن وقفاً على المسيحية ، لأننا نجد أنصارها وأتباعها فى الأديان الأخرى فى بلاد الهند وبين اليهود واليونان والمصريين :

عوامل النزعة الرهبانية :

وهناك عوامل أخرى أدت إلى ذيوع النزعة الرهبانية ، ألا وهى إنسياب روح الفتور فى حياة الكنيسة بعد أن اتسعت دائرتها ، ودخلها أناس من ذوى الميول الفاسدة . وقد رام بعض الأتقياء من المسيحيين أن ينجوا بأنفسهم ويسعوا إلى خلاصها ، بالاعتزال عن العالم وإذلال رغبات الجسد.

وكانت الفكرة السائدة أن المادة هي أصل كل الشرور ، والجسد جزء من المادة ، فلا مناص إذاً من قمعه وإذلاله لكي تنطلق الروح من قيدها الجسمانى إلى رحاب الهيام الروحى . لذلك اعتصم أولئك الزاهدون بالفقر والتجرد من مقتنياتهم ، وارتداء الثياب الخشنة ، والإمتناع عن الطعام ، إلا ما يسد الأود ، وإرهاق أبدانهم بكل صفوف المشقات ، ونذر العفة المطلقة ، وقد آمنوا فى دواخل نفوسهم ، أن هذا هو الطريق الأمثل لبلوغ الكمال الإنسانى .

الرهبنة فى اليهودية :

قلنا إن الرهبنة لم تكن وقفاً على المسيحية ، فقد عاصر المسيح فى حياته على الأرض طائفة يهودية من طوائف الرهبان أطلقوا على أنفسهم « الأسينيين » ، الذين ذكرهم « يوسيفوس » المؤرخ اليهودى وغيره من المؤرخين . وربما كان هؤلاء هم « طائفة العهد الجديد » التى ورد ذكرها فى لفائف وادى قمران ، التى اكتشفت فى كهف سنة ١٩٤٧ وعرفت فى التاريخ بلفائف البحر الميت ، ويؤخذ مما جاء فى تلك اللفائف أن تلك الطائفة قد تأسست قبل ميلاد المسيح بحوالى مائة عام ، دعا إليها شخص قيل عنه « معلم البر » ، حكم عليه بالموت « الكاهن الشرير » ، وكان كل شىء مشتركاً بين أعضائها ، وأطلقوا على أنفسهم لقب « الفقراء » ، واعتزلوا عن بقية الجماعات اليهودية ، وقضوا وقتهم فى الصلاة والممارسات التقشفية توقعاً لمجىء « المسيا » المرتجى . وقد ضاقت آفاقهم ، فلم يحبوا إلا بعضهم بعضا ، وكرهوا من عداهم من « أبناء الظلمة » ، وقد أفرطوا فى التشديد على مراعاة آداب السلوك المتعارف عليها بينهم ، بحيث كانوا يوقعون العقاب على كل من يخالفها .

أولئك كانوا نموذجا للرهبنة اليهودية فى عصر المسيح ، وفى أواخر القرن الثالث المسيحى ، أخذت الرهبنة شكلا بارزاً فى حياة المسيحية ، فهرع كثيرون من الأتقياء إلى البوادى والبرارى للتعبد والابتعاد عن ضوضاء الحياة المادية العالمية ، وعلى مر الزمن ، تطورت هذه الحركة حتى غدت قوة هائلة إلى جانب الكنيسة النظامية ، وتفرع موكب المسيحية إلى قوتين ، إحداهما فى المدن والحضر تحت زعامة الأساقفة ، تحيا الحياة المسيحية فى الأوساط الوثنية ، وهرعت الأخرى إلى القفار ، لتحيا حياة الزهد وإذلال النفس ، بالروح عينها ، التى بذل بها الشهداء حياتهم من أجل المسيح .

مبدع الرهبانية :

أما مبدع الرهبانية فهو القديس « أنطونيوس الشهيد » أبو الرهبان . وكوكب البرية ، ولد حوالى سنة ٢٥١ م ، فى بلدة قمن فى مصر ، من أسرة عريقة غنية ، وأبوين صالحين ، ربياه على مخافة الله . فاقتبس عنهما شيئاً كثيراً من حميد الخصال وكريم الخلال . ومات والده وهو بعد فى العشرين من العمر ، فعكف على إدارة أملاكه وبيته ، والعناية بأخته . وفى الكنيسة سمع ذات يوم ، قول السيد المسيح للشاب الغنى : « إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط للفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى » . فاتخذ هذا القول عظة لنفسه ، وأطاع الوصية حرفياً ، وباع أملاكه ، ووزعها على ذوى الحاجات ، وأودع أخته بيتاً لبعض العذارى الورعات ، وعاف الدنيا ، وانفرد فى البرية ، عابداً الله ، قامعاً جسده ، مروضاً نفسه بالتقوى . وهناك حاول إبليس إغراءه بمختلف الوسائل ، ولكن غلبه بالصلاة والصبر والرجاء ، مستعيناً

فى جهاده بقوة المسيح سيده وربه . وأفلح فى إماتة شهواته ، وكظم غيظه ، وقمع جسده ، فلم يكن يقتات إلا بالملح والماء القراح . ولم يكن يرتدى إلا المسوح ، ولم يكن يفترش إلا الأرض وحصيراً بالية . وآوى إلى قبر مهجور ، ثم إلى قلعة متهدمة ، جاداً طوال الوقت فى مناضلة الأفكار الشريرة ، وأطاع الجسد الفانية ، حتى ظفر فى هذا النضال العنيف ، وهذبه الترويض والتمحيص ، واستفاضت أنباء صلاحه وتقواه ، فهرعت إليه الجماهير فى البرية ، تطلب البركة والشفاء على يديه ، وسار وراءه خلق كثير ، أخذوا عنه طريقته فى التعبد والاعتزال . فكان هو منشىء الرهبانية الإنفرادية ، أى التعبد فى الصوامع على إنفراد. على أن هذه الحياة المفردة ، لم ترق خلفه القديس «باخوميوس» فأنشأ أول دير مسيحى فى العالم ، فى مصر العليا ، حوالى سنة ٣١٥ م وقيل سنة ٣٢٥ م . .

وخرج القديس «أنطونيوس» أبو الرهبان ، مرتين من عزلته فى الصحراء ، إلى الحضر : مرة فى عام ٣١٣ م ليشجع الشهداء ويعزى المضطهدين فى شدة «مكسيمانيوس» ، وقد اشتاق أن يكون هو نفسه شهيداً ، فكان يظهر فى مدينة الإسكندرية علناً ، ويتقدم إلى الحاكم ، ويحاجه لكى يحنق عليه ويعذبه ويقتله ، فينال إكليل الشهادة . ولكن لأمر ما ، امتنع الحاكم عن إيذائه ، وعاد القديس إلى صومعته فى البرية . وراح الناس يتقاطرون أفواجاً للتبرك به وسماع نصائحه . ولكن خشى أن يشغله هذا عن التعبد ، فانطلق إلى البرية الداخلية ، ومضى مع قوم أعراب إلى مكان بعيد ، مسيرة ثلاثة أيام ، حيث وجد عين ماء وقليلا من زراعة القصب والنخيل ، فأحب الموضع وسكن فيه ، وكان العرب يأتون إليه بالخبز ، وكان

فى المكان كثير من وحوش الفلاة ، فأنست إليه ولم تؤذه ، واتخذ منها أصدقاء له .

والمرة الثانية عام ٣٥١ م، يوم قدم من عزلته ليعضد «أثناسيوس» أسقف الإسكندرية ، فى كفاحه ضد عناصر الإلحاد ، التى انسابت إلى الإيمان القديم ، وهرطقة الزنادقة ، الذين حاولوا إفساد الحق بباطلهم . وكان القديس «أثناسيوس» قد زاره قبل ذلك سنة ٣٣٣ م . وآوى عنده فترة من الزمن ، التماساً للأمن ، وهرباً من الإضطهاد . فأخذ عنه ، وكتب سيرة حياة بطل الأديرة فيما بعد ، فأقبل القوم رجالا ونساء على قراءتها بلهف وشغف . وبعد هذا التاريخ بمائة سنة ، قرأ القديس «أوغسطينوس» هذه السيرة ، التى كتبها « أثناسيوس » ، فقربته إلى الله وهدت قلبه إلى الحق ، وبعد ألف سنة إقتناها القديس « توماس أكويناس » ، وكانت عنده خير مدخرات الأولين . وبلغت أسماع الملك « قسطنطين » ، أنباء هذا القديس فى برية مصر ، فكتب له يمتدح ورعه وزهده ، ويطلب إليه أن يصلى من أجله . ففرح زملاؤه فى البرية برسالة القيصر ، أما هو فلم يحفل بها ، وقال لهم : « هذه كتب الله ملك الملوك ، توصينا كل يوم ، ونحن لا نأبه لها ، بل نعرض عنها » . ولكن بعد إلحاح زملائه ، وإقتناعه بأن هذا الملك من أنصار الدين وحماة الكنيسة ، قبل أن يكتب له رسالة باركه فيها ، ورجا أن يسود السلام ربوع الإمبراطورية وحياة الكنيسة .

وبعد عمر طويل شارف على المائة والخمس ، انتقل القديس إلى الحياة الأخرى ، سليم الحواس ، فى السابع عشر من شهر يناير من سنة ٣٥٦ م . وكان قد أوصى بإخفاء جسده فى البرية ، وإعطاء عكازه للقديس

«مقاريوس» ،الذى كان قدزاره وألبسه رداء الرهبنة ، وفروته للقديس « أثناسيوس » ، والملوطة الجلد لتلميذه « سرابيون » .

ودون عنه رهبانه رسائل روحية ونصائح نافعة ، اعتزت بها الكنيسة والأديرة دهراً طويلا .

ومن مصر إنتقلت الرهبانية إلى بلدان الشرق كله ، إلى سورية وفلسطين وآسيا الصغرى وبين النهرين ، حيث أسست المناسك والأديرة ، فوق قمم الجبال ، وفى تيه الصحراء ، على النماذج التى نشأت أولا فى مصر.

وقد أذل أولئك الرهبان فى ربوع الشرق أجسادهم . وتروى عنهم غرائب القصص ، فى محاولة قمع تجاربهم وشهواتهم . فكان بعضهم لا يأكل إلا مرة فى كل خمسة أيام ، ويمتنعون عن شرب الماء إلا نادراً . وعاش آخرون فى أماكن ضيقة ، بحيث لم يكن فى وسعهم مد أرجلهم فيها ، أو فوق رءوس الأعمدة . وحرم بعضهم أنفسهم لذة النوم ، وغير ذلك من أساليب القمع والإذلال . ونحن لا ننكر أنهم فى إساءتهم إلى أجسادهم ، قد ركبوا متن الشطط ، إذ حسبوا أجسادهم أعداء لهم ، واحتقروا الزواج أيما احتقار ، ولكن لأنهم عاشوا هذه الحياة القاسية فى سبيل غرض مقدس ، وكافحوا شرور العالم بأفضل الأسلحة التى عرفوها فى عصرهم ، لا يسعنا إلا الإكبار من شأنهم ، والإعتراف بأن كثيرين منهم ، بلغوا مرتبة رفيعة فى الغبطة الروحية وهدوء النفس . وتخرج من هذه الأديرة معلمون وزعماء روحانيون خلد التاريخ أسماءهم ، مثل « مكاريوس الاسكندرى » ، « وهيلاريون السورى» ، وغيرهما من أبطال حياة الروح .

الرهبانية في الغرب :

أما إدخال الرهبانية فى الغرب فيرجع الفضل فيه إلى القديس «أثناسيوس الكبير» ولما شارف القرن الرابع على ختامه حتى كانت توسلات ونماذج القديسين أمثال آيرونيموس وأمبروز وأوغسطينوس قد أضفت على الرهبنة فضلاً كبيراً وكان رائدها فى فرنسا القديس مارتن الذى أنشأ ديراً فى البواتية حوالى سنة ٣٦٢م وسرعان ما إنتشرت الرهبانية فى الغرب بوضعها الانفرادى والجماعى وكان بواكير الرهبان من العلمانيين — كما كان الحال فى الشرق — ولكن بوبيسوس الأسقف الإيطالى الذى توفى سنة ٣٧١ م كان قد قرر قبل وفاته أن يحيا قساوسة دائرته حياة الرهبنة، وتبعاً لهذا النمط فى الحياة تأصلت عادة رسامة الرهبان للرتب الكهنوتية .

وتخبطت الرهبانية فى الغرب حتى جاء بطلها وواضع نظامها القديس «بندكت» الذى ولد حوالى سنة ٤٨٠ م .

الراهب «بندكت» :

وكان القرن الخامس فاتحة إنهيار الإمبراطورية ، وكان أيضاً بداية النزاع بين الغرب والشرق ، وكان فقيراً فى الحركات الجديدة ، وفقيراً أيضاً فى الشخصيات البارزة . ومن وسط هذه الغمائم ، يخرج نور يشق سدفة الظلام ، ذلك أن رجلاً إيطالياً يدعى « بندكت » ، عريق المحتد ، نهض واتخذ طريقه إلى كهف على مقربة من أحد قصور « نيرون » الخربة فى « سَبْيَاكُو » وهناك أقام فترة من الزمن يصوم ويصلى ، كما فعل القديس «أنطونيوس المصرى» من قبل .

وكانت فكرة الرهبانية قد انتقلت من الشرق إلى الغرب ، بفضل القديس «أثناسيوس» كما تقدم، وكان قد سافر إلى وومية سنة ٣٣٠ م ، وصحب معه راهباً من وادى النطرون يدعى«أمونيوس» . وكانت الرهبنة فكرة لم تخطر للغرب ببال ، فاستهواهم ما فيها من تعبد وروحانية ، وابتعاد عن شرور العالم ومنكراته ، وسمو الروح الإنسانية فى هدأة النسك والإعتزال . ولما إعتزم أتباع القديس «إيرونيموس» ، التزام العفة وضبط الشهوة ، لم يعتزلوا فى أديرة فى أول الأمر ، ولكنهم ذهبوا إلى خلوة فى فلسطين ، كما فعل معلمهم «إيرونيموس» .

ولم تتخذ الرهبانية فى الغرب شكلا منظما ، إلا يوم هرع الراهب «بندكت» إلى ذلك الكهف ، فى سنة ٥٠٠ م،وتبعه جمهور من تلاميذه ومريديه . وبعد إقامته ثلاث سنوات فى ذلك الكهف ، طرده أعداؤه من « سبياكو » ، فانطلق مع أتباعه إلى جبل كاسينو ، على مقربة من نابولى ، وهناك هدم هيكلا قديماً للإله أبولو ، وأقام على أنقاضه ديراً ، هو الأول فى تاريخ المسيحية فى الغرب[١] . ومن هذا الدير خرج رهط من الرجال ، لم يحملوا سيوفاً فى أيديهم ، بل أمسكوا بدلا عنها المحاريث ، لاستغلال الأرض واستنباتها ، والأقلام ، لكتابة الرسائل والمؤلفات . وبهذه الوسيلة الهادئة المسالمة تغلبوا على الغزاة ، وأعادوا إلى الإمبراطورية مجدها البائد .

وكان دير بندكت طرازاً جديداً من الأديرة . فهو قد عرف أن

---

(١) دير جبل كاسينو هو الدير المشهور الذى دارت حوله معارك عنيفة بين الألمان والحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، وقد اتخذه الألمان حصنا لمناعته، وتهدم منه جزء كبير بقنابل المحاربين ومدافعهم .

كثيرين ، قد يرتضون طائعين مختارين ، أن يهبوا أنفسهم لخدمة الله كرهبان ، ويهجروا مقتنياتهم وحياتهم الزوجية السعيدة ، ولكن قليلين ، هم الذين يقدرون على معاناة حياة التقشف وشظف العيش ، التى ألفها رهبان الصحراوات فى الشرق . ولذلك نظم قواعد ميسورة لا إعنات فيها ولا إذلال ، ودبر أن يعيش الرهبان فى أسرة صغيرة ، تخضع الأسرة لرئيس تطيعه وتحترمه . ويبقى الجميع فى أديرتهم ، ولا يتجولون فى الأرض ، كما كان يفعل بعض الرهبان . على أن يكون كل دير مستقلا بنفسه .

كانت الطريقة ميسورة خالية من الإفراط فى القسوة والمشقة ، فكان الرهبان يستيقظون فى الثانية صباحاً ، ولكنهم كانوا يأوون عند مغيب الشمس . وكانت ثيابهم نظيفة مريحة لائقة ، وأباح لهم كل أصناف الطعام العادية ، ما عدا لحوم ذوات الأربع . وكانوا يتناولون وجبتين فى اليوم نصف السنة ، والنصف الآخر وجبة واحدة . ولمدة ست أو سبع ساعات فى اليوم كانوا يعملون بأيديهم فى الحقل أو المصنع ، ولمدة ثلاث ساعات يقرأون ويكتبون ، ويدرسون سير رهبان صحراوات مصر . على أن أهم المطالب التى فرضها « بندكت » على رجاله ، كانت الصلاة والتعبد . فكانوا يصلون معاً ست مرات فى اليوم ، ومرة أثناء الليل ، وفى أيام الآحاد ، يمارسون فريضة الشركة المقدسة .

على هذه الحال عاش «بندكت» ورهبانه مدة خمسة عشر عاماً. وفى كل سنة كان ينزل إلى سفح الجبل ، ليتحدث مع أخته « سكولستكا » ، التى كانت قد أنشأت ديراً للعذارى ، على غرار الدير الذى أنشأه أخوها للرجال .

وفى سنة ٥٤٣ م مات هذا الرجل الصالح ، وبعد ست وأربعين سنة من هذا التاريخ ، أغار اللومبارديون على إيطاليا ، ففر الرهبان البندكتيون من جبل كاسينو ، إلى رومية ، يحملون معهم نظامهم وطريقتهم فى الحياة .

وراح أولئك الرهبان يشيدون الأديرة فى كل مكان ، يشيدونها أولا على نسق منزل ريفى رومانى ، تحيط الأبنية بالفناء ، وتجاوره حديقة وطاحون ومستشفى ومخبز . وكان لكل دير كنيسته ، وقاعة للطعام ، ومنامة ، ومغاسل ومخازن ومطبخ .

وقد عكف الرهبان المجاهدون إلى شق أخاديد الأرض وإصلاحها ، وغرس الأشجار ، وتحويل الغابات والأراضى البور ، إلى حقول ومراع ، تنبت فيها الحنطة غذاء للناس ، والعشب غذاء للبهائم . وإليهم وفد أهالى القرى ، طلباً للعون ، والاستمتاع بالصداقة والمودة . وعلى مر الزمن ، أصبحت تلك المساكن البسيطة ، والأديرة البدائية أبنية فخمة تحيط بها الضياع والقرى والمدائن . ونشط الرهبان فى الخدمة ، فلم يقتصروا على تعليم الناس الدين المسيحى ، بل أطعموهم إبان المجاعات ، لأن نشاطهم وأعمالهم جعلتهم من الأغنياء ، وأنشأوا المدارس للأحداث ، والمدارس للرهبان ، وكتبوا بالخط الأسفار القديمة ، وأودعوها مكتبات الأديرة ، وكذلك احتفظوا بكثير من مؤلفات الأقدمين الوثنية ، فأنقذوا بذلك ما أمكن إنقاذه من حطام العالم القديم . وظلوا ردحاً من الزمن ، يعلمون الشعب القراءة والكتابة ، والفلاحة والبناء ، والنقش والتصوير .

ولم يبدأ أولئك الرهبان حياتهم ليكونوا معلمين أو فلاحين أو فنانين ، ولكن فى سبيل « خدمة الله » ، ألفوا أنفسهم مسوقين إلى خدمة الناس . على أنهم جعلوا « خدمة الله » همهم الأول . ففى ساعات النهار ، وفى

بكور ساعات الليل ، كانوا ينشدون ويرنمون الأغانى والتسابيح الدينية ، بألحان موسيقية محببة ، وكانوا يكتبون الأسفار المقدسة فى صفحات من القرطاس ، مزينة بألوان زاهية متلمعة .

من ثم نرى الرهبانية تنتقل أولا من مصر إلى بلدان الشرق الأخرى ، وتتخذ مواطنها فى سواحل فلسطين الجنوبية وبادية الشام، وبرية قورش ، وجبل الرها والجزيرة وطور عبدين ، وجبل الموصل وجبل ماردين وضواحى قيصرية كبدوكية وطور سينا .

وقد استمسك رهبان الشرق بعبادة الله ، وروضوا أنفسهم على التقوى وإذلال النفس ، والإقتصار على القليل من الطعام الذى يمسكون به الحياة ، والإقبال على العمل الشاق ، الذى كانوا يقضون فيه الساعات الطوال .

ومن الشرق تنتقل الرهبانية إلى الغرب كما أسلفنا . على أن الأديرة فى الغرب ، لم تستطع محاكاة أديرة الشرق فى التصلب والتشدد ، فى الامتناع عن أنواع المآكل المغذية ، وتسامحت فى كثير من المواد ، التى حسبها الراهب الشرقى متعة للجسد . كذلك ذهبت الرهبانية فى الغرب فى جهادها وتفكيرها إلى حد بعيد ، حتى غدت خلايا الأديرة ، أشبه بمنائر تشع منها العلوم والثقافة ،وتحولت الأديرة إلى مدارس للتعليم والتهذيب ، والعمل فى الحقل والمصنع ، وخرجت منها مؤثرات ، كان لها أكبر الفضل فى ترقية الحياة الاجتماعية والعلمية والعقلية والروحية . وانتقل أولئك الزاهدون ، من خطة الإعتكاف عن العمل ، إلى خطة أخرى ، إتجهوا فيها إلى تهذيب العالم ، وبث روح الحياة والتجديد ، فى البيت والدولة والكنيسة .

٢٣

رومية والقسطنطينية

رأينا فى فصل سابق،أن دستور الكنيسة ونظمها ، وضعت على أسس النظام الإمبراطورى فى الدولة الرومانية ، فكان للمدينة وما حولها أسقف محلى ، وكان لعاصمة الولاية أسقف ، يشرف على عدد من الأبروشيات الصغرى ، ومن القرن الرابع ، تألفت وحدات من الولايات المتقاربة ، على نحو ما اتبع فى الإمبراطورية ، وأقامت عليها كبيراً للأساقفة ، أطلق عليه فيما بعد لقب « بطريرك » .

وكان هذا التنظيم مما عنى به مجمع نيقية ، وأقر سلطان أسقف عاصمة الولاية« metropoiitan »، بالإشتراك مع المجامع الإقليمية ، على أساقفة وكنائس ولايته . على أنه كان لبعض تلك الأبرشيات ، الرئيسية ، مقام ممتاز ، خلعته عليها التقاليد التاريخية ، فأقر المجمع أيضاً ، الإمتيازات التقليدية ، التى تمتعت بها تلك الكنائس ، وقد خص بالذكر كنائس رومية ، والإسكندرية ، وأنطاكية ، عواصم الإمبراطورية الثلاث . فكان لكرسى الإسكندرية سلطان على مصر والبلدان المجاورة ، ولكرسى أنطاكية سلطان على سورية والأقاليم المتاخمة لها فى الإمبراطورية الشرقية ، ولكرسى رومية ، سلطان على إيطاليا وما جاورها .

والآن يظهر أسقف القسطنطينية ــ أو بيزنطة ــ قوة جديدة فى دستور الكنيسة . فبعد أن صارت بيزنطة ــ كما كانوا يسمونها قديماً ــ العاصمة الثانية للإمبراطورية ، أحس أسقفها أن من حقه أن يحتل مكاناً بين أساقفة المدن الأخرى الكبرى ، وخاصة بسبب علاقاته مع السلطات الإمبراطورية. وفى مجمع القسطنطينية ، الذى إنعقد فى سنة ٣٨١ م . أعطى أسقف بيزنطة رتبة فى الكنيسة ، تلى رتبة أسقف رومية مباشرة ، وفى مجمع خلقيدونية فى سنة ٤٥١ م ، تقرر أن تضم إليه الأبرشيات الثلاث الكبرى ، فى تراقية وآسيا الصغرى وبنطس ، وبذلك خضع له أساقفة هرقلية وأفسس وقيصرية .

كذلك راعى مجمع نيقية مكانة أسقف أورشليم ، فخلع عليه كرامة ممتازة ، لأن أورشليم هى مهد المسيحية وأم الكنائس كلها . وما حل النصف الأخير من القرن الخامس ، حتى غدت الكراسى الخمسة الكبرى فى رومية والقسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية وأورشليم ، مراكز الرئاسات العليا للعالم المسيحى ، التى يرجع إليها فى تصريف شئون الكنيسة المسيحية ، وصار أساقفتها « بطاركة » . وإن يكن لقب « بطريرك » لم يعرف رسمياً قبل القرن التاسع . ولكن خول اللقب الجديد على أى حال ، لكل من هؤلاء الخمسة ، رتبة « الأب الأعظم » أو « بابا » المسيحية . والآن تبدو فى الأفق مشكلة أخرى ، هى مشكلة الرئيس الأعلى للكنيسة ، ومن سيكون بين هؤلاء الخمسة الرئيس الأكبر للمسيحية كلها ...

ويشهد التاريخ على أن من غرائز الإمبراطورية الرومانية فى كل تاريخها أن تقبض على أعنة العبادة الدينية الرسمية ، وتجعل رجال الدين الرسميين

آلات طيعة يأتمرون بأمرها . وأسقف القسطنطينية هو الآن أسقف البلاط الإمبراطورى ، يتنقل بين مظاهر الأبهة والجلال ، وهو صنيعة الإمبراطور الجالس على العرش ، ولا تسنده فى كرسيه تقاليد ولا امتيازات كنسية ، كما هو الحال فى رومية أو أنطاكية مثلا ، فكل سلطته مستمدة من العرش ، وكل كسب لهذا الأسقف ، هو فى الواقع كسب للعرش . لذلك حمل العرش هذا الكرسى — وهو أحدث الكراسى المسيحية — فوق أجنحة النسور ، وسما به ، ليمسك بين يديه سلطاناً على الكنيسة . وكان معنى القرارات التى إتخذها مجمع القسطنطينية (سنة ٣٨١ م) ، ومجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١ م) ، أن رئيس الكنيسة الأعلى ، ليس أسقف رومية ولا أسقف الإسكندرية ولا غيرهما ، بل الإمبراطور ذاته . وكأنما كان عبثاً ، أن تناضل الكنيسة لوضع دستورها ونظامها ، لكى تقدم فى آخر الأمر تاجاً لرئيس أرضى .

أفلم يكن فى الكنيسة سلطة ما تتحدى الإمبراطورية ، وتدافع عن استقلالها ضد رئيس هذا العالم ؟

هنا انبرى أسقف رومية للنضال مع القسطنطينية ، وقد أيده فى هذا النضال ، كل الموارد والتقاليد الكنسية ، وذلك لأن قضيته فى تلك الفترة ، كانت قضية حرية الكنيسة . وكان الحديث متواتراً منذ القرن الثانى ، أن كنيسة رومية ، قد أسسها الرسولان «بولس» و«بطرس» ، وأن أسقف رومية هو خليفة «بطرس» ، أمير الرسل . وإذا كان «بطرس» هو الصخرة التى أقيمت عليها الكنيسة ، وجب إذاً إن يكون أسقف رومية خليفته هو صخرة الكنيسة . ومن ذلك التاريخ ، نشأت فكرة الخلافة الرسولية التى تتشبث بها الكنيسة الكاثوليكية حتى اليوم .

* * *

أسقف القسطنطينية :

. تطورت سلطة أسقف القسطنطينية تطوراً سريعاً ، وارتقى من رتبة أسقف خاضع لكرسى هرقلية ، إلى رتبة علت به فوق الأساقفة الآخرين وقد أخضع مجمع خلقيدونية لسلطانه ثلاثاً من الأبرشيات الكبرى ، ثم أخضع له أيضاً الكنائس الأخرى ، ليصير — وهو ليس أقدم ولا أعظم الكراسى الدينية — سيداً على الجميع ، وأسقفاً للأساقفة . فكيف تم له ذلك كله ؟

عند موت الإمبراطور « ثيودوسيوس » سنة ٣٩٥ م ، إنقسمت الإمبراطورية الرومانية بين ولديه الشابين : «اوكاديوس» للإمبراطورية الشرقية ، وعاصمتها بيزنطة ،و«هونوريوس» ، للإمبراطورية الغربية وعاصمتها رومية . وكان اعتلاؤهما العرش فاتحة عصر جديد فى التاريخ ، هو بداية إنهيار الإمبراطورية بغزوات برابرة الشمال ، من قبائل القوط والفاندال والهون . وفى سنوات ٤٠٨ و ٤٠٩ و ٤١٠ م على التوالى ، حاصر « ألا ريك » قائد البرابرة مدينة رومية ثلاث مرات. وفى المرة الأولى قبل الفدية . وفى المرة الثانية سلمت المدينة وأقام على العرش صنيعة من صنائعه ، ثم سار بجحافله إلى « رافنا » مقر الإمبراطور ، للمطالبة بتأييد سلطانه . وإذ رفض طلبه ، يعود أدراجه ليدخل المدينة عنوة ، وتمسى رومية الخالدة ، سيدة العالم ، فريسة سائغة للسلب والنهب بأيدى أولئك البرابرة .

على أن «ألاريك» ورجاله كانوا قد عرفوا المسيحية—وإن تكن مسيحية «آريوس »—فأمر جنودة بعدم المساس بحياة أحد من الناس ، وصيانة

الكنائس الرسولية . ويروى أحد مؤرخى ذلك العصر قصة مأثورة تدل على الإحساس الدينى فى نفوس الغزاة : قال إن جندياً دخل مسكن عذراء مسيحية عجوز للسلب والنهب ، وأمرها أن تسلم ما لديها من كنوز . وكانوا قد أخفوا عندها آنية الكنيسة الكبرى وزينتها . فأظهرت فى هدوء وجلال ما لديها من كنوز للجندى الذاهل — آنية من الذهب الخالص كبيرة الحجم دقيقة الصنع . وقالت له : « هذه ملك القديس «بطرس» ، وأنا إمرأة لا حول لى ولا طول ، لا أستطيع صيانتها ، ونفسى طاهرة تقية ، فخذ الآنية إن شئت وقدم حساباً لله ... » .

فما كان من هذا الجندى ، إلا أن بعث برسالة إلى قائده «ألاريك». وتلقى منه الأمر أن تؤخذ هذه العذراء الطاهرة ومعها الكنوز ، فى حراسة الجند إلى الكنيسة الكبرى ، لتوضع الآنية فى مكانها .

ولكن القصور والهياكل الوثنية ، نهبت كل كنوزها وذخائرها ، وأمسى كثيرون من أفراد الأسر العريقة عبيداً أرقاء ، وهرب نفر كبير إلى مدائن أفريقية ومصر والشرق حتى غصت بهم .

وكان أسقف رومية غائباً فى « رافنا » ، يستنجد عبثاً بالإمبراطور : ولما عاد وجد رومية القديمة ، قد عبثت بها أيدى الدمار والتخريب ، والمجتمع الرومانى القديم ، قد تبعثر وتشتت . أما الكنائس وبيوت الشعب ، فلم يمسسها ضر . إنهارت رومية الوثنية ، وقامت على أنقاضها رومية المسيحية . وغدا الأسقف أعظم رجل فى رومية ، وزاد على الأيام سلطانه ونفوذه ، واحتفظ بأمواله وأملاكه وكنائسه :

أما الدولة الشرقية فكانت أوفر حظاً من الغربية ، ولئن تكن قد فقدت بعض أطرافها ، إلا أنها بقيت محتفظة بعاصمتها ودستورها وحضارتها ودينها إلى القرن الخامس عشر .

* * *

والآن لنعد إلى منشأ النزاع بين الشرق والغرب :

كانت الإمبراطورية الغربية — حتى قبل إنهيارها — قد أمست ظلا ، وأمسك الإمبراطور الشرقى فى بيزنطة أعنة السلطان على العالم الرومانى .

وكانت رومية فى ذلك الحين ، الكرسى الرسولى الوحيد فى الغرب ، يرتبط بوشائج من الإتحاد مع أفريقية اللاتينية وقرطاجة وأسبانيا وبلاد الغال ، وكان له النفوذ الأعلى فوق الكنائس كلها . ولا يفوتنا أن رومية ، كانت عاصمة العالم يومئذ ، المدينة الخالدة ، سيدة المدائن كلها . وكان لجماعة رومية المسيحية منذ عهد «الرسول بولس» ، فضل السبق والتقدم على الجماعات الأخرى حتى فى الشرق . فكل الخلافات العقائدية ، التى ثارت فى القرون الثلاثة الأولى ، قد بت فيها بعد استشارة الكنيسة فى رومية ، ونبتت فكرة الأسقفية ، والقانون الكنسى ، والكنيسة الكاثوليكية الجامعة ، فى رومية أولا ، وهى الكنيسة الأم للمسيحية الكاثوليكية (ونقصد بذلك المسيحية الجامعة) . فضلا عن ذلك ، فقد كان لها من سعة الموارد المالية ، وكثرة عدد الأعضاء ، والسخاء فى الإعانات ، ما قوى نفوذها ، لا فى الغرب فقط ، بل فى اليونان وآسيا ، وانتقل هذا النفوذ من الكنيسة إلى أسقفها حتى لقد استطاع فى نهاية القرن الثانى ، أن يصدر حكم الحرمان

على كنيسة آسيا الصغرى ، فى مسألة الخلاف حول موعد الاحتفاء بعيد الفصح كما رأينا من قبل .

بكل هذه الموارد الروحية والتقليدية والمادية ، تقدم أسقف رومية للنضال ضد مطالب القسطنطينية ، التى كانت مطالب الإمبراطورية . وكان إعلان القسطنطينية عاصمة ثانية للإمبراطورية قبل قسمتها ، الضربة الأولى التى وجهت للحد من نفوذ أسقف رومية ، فكلما مال مركز الثقل فى الإمبراطورية إلى الشرق ، زادت القسطنطينية نفوذاً ، وغدا أسقفها الرئيس الروحى الأعلى، الذى تسير وراءه كل الشعوب اليونانية فى الشرق، وقد بدا هذا الميل بارزاً فى مجمعى القسطنطينية وخلقيدونية .

وقد أفادت رومية من شىء آخر فى هذا النضال . فالهرطقة الآريوسية كانت قد سويت فى مجمع نيقية، ولكن جلس خلف «قسطنطين» على العرش ، فاحتضن هذه الهرطقة التى ألفت مرتعاً خصيباً فى كل ربوع الشرق . وكان من جراء هذا الانتكاس، أن عزل «أثناسيوس» من كرسى الإسكندرية ، وفر إلى رومية ، طالباً معونة أسقفها وحماه ، وبينا حاد الشرق ، ظل الغرب أميناً للإيمان النيقوى، بزعامة أسقف رومية ، ولم يكن «أثناسيوس» هو الأسقف الوحيد الذى استأنف قضيته أمام رومية ، فإن أساقفة الشرق الآخرين ، الذين آثروا الاعتصام بالإيمان القويم ، ضد الهرطقة الآريوسية حذوا حذوه ، وقد هيأ هذا كله فرصة لرومية ، لتتدخل كرئاسة عليا فى منازعات الكنائس كلها حتى الشرقية . وأصدر مجمع فى رومية برئاسة أسقفها «يوليوس»، قراراً بإعادة «أثناسيوس» إلى كرسيه ، وببطلان قرار عزله . وقد اعترض أساقفة الشرق الموالون للآريوسية على هذا القرار ، ولكن اعتراضهم لم يغير من الأمر الواقع شيئاً ، وهو أن كرسى رومية

قد غدا الآن ذا نفوذ وكرامة بين الكنائس كلها فى الغرب والشرق . وأفلح أسقف رومية ،فى دعوة مجمع عام فى سنة ٣٤٣م فى مدينة صوفيا — عاصمة بلغاريا الآن — وقد إنقسم الأساقفة حول الخلافات العقائدية ، وانشطر المجلس ، فعقد أساقفة الشرق الآريوسيون ، مجمعاً خاصاً لهم فى « فيلبوبوليس » ، وظل الباقون فى مجمع صوفيا ، حيث أجمعوا على إعطاء أسقف رومية ، حق البت فى قضايا الاستئناف التى تقدم له من الأساقفة المعزولين . وفى مجمع صوفيا هذا ، تأيدت السلطة البابوية ، وأقر الغرب وبعض أساقفة الشرق سلطة وزعامة أسقف رومية .

وفى ختام القرن الرابع ، إنتهى الخلاف الناشب بهزيمة الهرطقة الآريوسية ، وكان إنتصار قانون الإيمان النيقوى إنتصاراً لرومية . ألم توصم أهم الكراسى الأسقفية فى الشرق بوصمة هذه الهرطقة البغيضة ؟ وأية كنيسة غير كنيسة رومية ، حملت لواء الأرثوذكسية الصحيحة فى هذه المعارك كلها ؟ والآن تتحداها القسطنطينية بكرسيها ، فتستمد رومية من ماضيها ، ومن نضالها الطويل ، وتقاليدها ، عزيمة لكبح جماح السلطة الزمنية ، التى تروم الإفتئات على السلطة الروحية .

ثم كانت تلك السيول الجارفة ، من الشعوب الجرمانية فى الشمال ، التى زحفت إلى الجنوب ، واكتسحت أمامها الإمبراطورية الغربية كما تقدم ، وإنتزعت منها سيادتها ، وأذلت كبرياء رومية . وكان سقوط الإمبراطورية فى الغرب ، فرصة أتاحت للكنيسة التخلص من السلطة الزمنية ، التى كانت قد تركزت فى القسطنطينية . فلما أقر مجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١ م) ، سلطان القسطنطينية ومنح أسقفها حق الزعامة والتقدم ، احتج مندوبو أسقف رومية احتجاجاً قوياً ، ووقف الخصمان وجهاً لوجه .

وقد توقف سير التاريخ فى المستقبل ، على نتائج هذا الصراع ، فقد كان بداية المقاومة العنيفة ، التى أدت فى آخر الأمر ، إلى شطر الكنيسة إلى معسكرين : الكاثوليكية واليونانية .

بدأت المسيحية كتلة واحدة هائلة عظيمة ، مثلها مثل دوحة وارفة الظلال ، نمت من حبه خردل صغيرة ، وتوزعت ثمارها فى المشارق والمغارب ، وجاءت الشعوب لتحتمى تحت أغصانها . وبعد القرون الأولى ، لاحت سحب قاتمة تنذر بهبوب زوبعة عاصفة ، ومن وسط هذا القتال ، نفذت الصاعقة التى شطرت جذع الدوحة العظيمة إلى قسمين. من أجل مطامع أسقفين ، وبسبب إنقسام الإمبراطورية الرومانية نصفين ، لاتينية ويونانية ، وبسبب قيام عاصمة ثانية فى القسطنطينية ، إلى جانب رومية القديمة ، انشطرت الكنيسة المسيحية الواحدة شطرين ...

وكان هذا الإنقسام ، بداية الأوجاع التى نعانيها اليوم ، وأول بادرة من بوادر الغمة الأليمة ، التى تبسط ظلمتها على القلوب المخلصة الأمينة ، والتى أفقرت الكنيسة الجامعة فى كل نواحى حياتها . وحين نفكر فى الإنقسام الأول فى تاريخ الكنيسة بين الشرق والغرب ، من ذا الذى تخامره ريبة فى أن الكنيسة الشرقية ، قد تألمت من فقدانها الاتجاهات العملية القوية فى كنيسة الغرب ، كما أن الكنيسة الغربية ، بجنوحها إلى النزعة القانونية الجامدة ، كانت تنتفع كثيراً لو أنها إتحدت بالكنيسة الشرقية ، التى إمتازت بنزعتها الفلسفية التعبدية القوية . ألم يكن هذا الانفصال الذى بدت بوادره فى هذه الفترة ، عاملا لإفقار الكنيستين معاً ؟ ثم هناك الإنقسام الآخر فى عهد الإصلاح ، بين الكنيسة الكاثوليكية الكبرى وبين

الكنائس البروتستانتية – الذى سيجىء عنه الكلام فى جزء آخر من هذه السلسلة – فإن الكنيسة اللاتينية ظلت خاضعة لتلك النزعة القانونية الجامدة ، ولم تتأثر بالحوافز الحرة فى البروتستانتية ، بينما جنحت الكنائس البروتستانتية ذاتها ، إلى التعدد شيعاً وطوائف تحصى بالمئات ، لأن ميلها إلى الحرية ، لم يتزن بتلك المؤثرات القانونية المركزة فى الكنيسة الكاثوليكية .

٢٤

جريجوريوس العظيم

[الامبراطورية الرومانية الشرقية — جريجوريوس العظيم — مولده ونشأته — ميله الى حياةالرهبنة والتعبد — رحلته الى القسطنطينية — اعتلاؤه الكرسى البابوى — نفوذه وسلطانه — لمحة عن المسيحية فى بريطانيا] .

اندثرعرش الإمبراطورية الرومانية فى رومية،وتولى ملوك الفرنجة من قبائل الشمال سلطان الحكم فى الإمبراطورية الغربية . ولكن بقيت سلطة أسقف رومية — أو البابا — مرعية مهيبة الجانب . أما خلفاء أباطرة الرومان ، فقد احتفظوا بعرشهم فى بيزنطة ، باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، أو الإمبراطورية البيزنطية . وفى أوائل القرن السادس نهض أحدهم ، وهو يوستنيان الأول (٥٢٧ — ٥٦٥ م) فاستعاد كثيراً من الولايات التى اقتطعها الغزاة من جسم الإمبراطورية ، واسترد إيطاليا نفسها ، وأخضعها للعرش البيزنطى ، واستجلب إلى عاصمة ملكه ثروات هائلة : بنى منها الكنيسة العظمى الرائعة فى بيزنطة على النمط الشرقى التى سميت « كنيسة الحكمة المقدسة » (أيا صوفيا) ، واستن قانونه المشهور ، المأخوذ من القوانين الرومانية القديمة . وما يزال قانونه باقياً حتى اليوم ، أساساً لكثير من قوانين الشعوب المتحضرة . وفى خلال حكمه ، حاول اللمبارديون والبلغار والفرس تدمير الإمبراطورية مرة أخرى ولكنهم باءوا بالفشل .

وقد حاول هذا الإمبراطور الشرقى ، بعد إعادة إيطاليا إلى ملكه ، أن يخضع أسقف رومية (البابا) لسلطانه ، ويجعله أداة طيعة فى يده كعادة أباطرة الرومان . وبلغت به الرغبة الجامحة ، حد الإقدام على عزل أحد البابوات فى سنة ٥٣٧ م . وترحيله إلى القسطنطينية ، ثم نفيه إلى جزيرة نائية بعد ذلك حيث قضى نحبه . وقد أصر بعد ذلك ، على أن يكون انتخاب البابا تحت إشرافه وبرضائه . على أن استيلاء الإمبراطور الشرقى على إيطاليا لم يدم طويلا ، ففى سنة ٥٦٨ م . تنحدر من الشمال قبائل اللومبارديين ، وكانوا أشد قبائل الغزاة بأساً ، وفى هذا يقول « جبون » المؤرخ الشهير : « لمدة مائتى سنة ، ظلت إيطاليا نهباً مقسما بين اللومبارديين وبين والى « رافنا »[1] عامل إمبراطور بيزنطة . وفى هذا النزاع الرهيب ، لم يستطع البابا توطيد سلطانه الأدبى الروحى ، وعانى الكرسى الدينى فى رومية أشد العناء » .

على أن هذه الفترة القاتمة من التاريخ ، تنجب فى القرن السادس ، رجلا يمسك دفة السفينة فى بحر متلاطم الأمواج ، ويقوى بسحر شخصيته ، وقوة نفوذه ، على رفع لواء المسيحية فى الغرب — ونعنى به البابا جريجوريوس الأول — الذى يخلع عليه التاريخ لقب « العظيم » .

وينبرى هذا « العظيم » لإبرام معاهدة صلح وسلام ، بين اللومبارديين فى إيطاليا الشمالية ، وبين إمبراطور القسطنطينية ، الذى رضى بنصيبه فى إيطاليا الجنوبية وعاصمتها « رافنا » . وتخلو رومية من العرش الإمبراطورى ، ويخلو الجو فيها للسلطة البابوية ، وينتهز جريجوريوس هذه الفرصة ، فيبسط

---

(١) « رافنا » هى المدينة التى جعلها يوستنيان الإمبراطور الشرقى عاصمة الاقاليم التى استرده من إيطاليا وكرسيا للوالى من قبله .

نفوذه السياسى على حساب الشريكين ، اللذين تراضيا على قسمة إيطاليا . ولو أن عرش الإمبراطورية ظل فى رومية كما كان ، ولو أن القسطنطينية صارت عاصمة أوربا ، لتبدل مصير البابوية كسلطة زمنية ، ولما حظيت بهذا الشأن الرفيع ، الذى كان من نصيبها فى القرون الوسطى .

وقد بسط جريجوريوس العظيم سلطانه فى رومية مدة أربعة عشر عاماً ، وكانت له اليد الطولى فى تكييف الحوادث . وبقوة نفوذه على المستعمرات اللومباردية ، وعلى الإدارة والحكم ، صان عقائد الكنيسة ، وحقوق البعثات الدينية والأديرة ، حتى ليحسب بحق أعظم سياسى فى الكنيسة فى بكور القرون الوسطى .

ولد هذا العظيم فى رومية حوالى سنة ٥٤٠ م ، وكانت رومية التى شهدتها أيام صبوته بائسة مهلهلة ، قد أعمل فيها البرابرة القوطيون معاول التخريب . ولم يبق فى قصورها إلا حفنة من كبار الموظفين المدنيين . على أنه كان قد شيد بها كنائسها السبع الفخمة ، وبينها الكنيستان الكبريان ، اللتان بنيتا إحياء لذكرى القديسين بطرس وبولس ، على مكانى استشهادهما كما تقول التقاليد ، كنيسة القديس بطرس فى الفاتيكان ، والقديس بولس فى الطريق إلى أوستيا : ولم يكن فى نظر مسيحيى القرن السادس ، بقعة أقدس من هذه البقاع ، التى أقيمت عليها كنائس الشهداء الأولين ، ولا شىء أعز من رفات الرسل ، الذين شهدوا المخلص بعيونهم ، ولمسوه بأيديهم .

وكان أبوا جريجوريوس تقيين ، ومن الأثرياء ، من طبقة أعيان الرومان . وقضى أيام شبابه فى بيت أبيه ، قبالة قصور رومية ، التى

هجرها ساكنوها ، هرباً من البرابرة الغزاة . وتلقى الشاب علومه الكلاسيكية ، فى الأدب اللاتينى والمنطق والبيان ، كما كان يفعل أبناء الطبقات العليا فى ذلك العصر . ثم التحق بوظيفة حكومية ، وفى بدء عهده بالخدمة ، كان الغزاة اللومبارديون قد أخذوا يزحفون من الشمال ، وما جاءت سنة ٥٧٣ م ، حتى كانوا على أبواب رومية . وكان جريجوريوس فى تلك السنة عمدة المدينة ، وهى أكبر وظيفة مدنية ، يرأس شاغلها مجلس الأعيان ، ويتولى القضاء المدنى الأعلى ، فى دائرة قطرها مائة ميل من العاصمة . وهو الذى يتعهد بتموين العاصمة بالحبوب ، ويعنى بموارد المياه ومصارفها ، ويتزعم الموظفين الباقين فى رومية ، وله سلطة مالية واسعة .

وقد أكسبته هذه المهام خبرة واسعة فى شئون الإدارة والتنظيم . وكما أن روح الآداب الكلاسيكية ، قد إنسابت إلى عالم القرون الوسطى ، بواسطة عقلية أوغسطينوس وكتاباته ، كذلك غدت فنون الإدارة والتنظيم ، تراثاً للكنيسة فى القرون الوسطى بواسطة جريجوريوس العظيم .

وكان ميسوراً له أن يشغل وظيفة الوالى فى « رافنا » ، عاصمة الإمبراطور البيزنطى فى إيطاليا ، ولكنه ضحى بكل هذه المطامع والآمال الكبار ، وعدل عن الإستمرار فى معارج الرقى المادى ، ومال إلى حياة الكمال المسيحى . ففى سنة ٥٧٤ م ، باع جريجوريوس إرثه فى صقلية ، وأسس هناك ستة أديرة . ووهب باقى ميراثه للفقراء ، ولم يحتفظ إلا بقصر أبيه كدير خاص له ، وللإخوة الذين جمعهم حوله . وصار فيما بعد الحامى الأعظم للرهبان ، والمدافع عن حقوقهم وامتيازاتهم . وقد استهوته حياة الرهبنة ، وعكف على الصوم والصلاة والتأمل ، حتى كان

يشعر أحياناً أن روحه الحبيسة فى الجسد — على حد قوله — كانت تنطلق إلى علياء السماء ، خالصة من سجنها البشرى ، وتهفو إلى الموت كوسيلة للدخول إلى الحياة الكاملة .

ظل جريجوريوس أربع سنوات ، يتدرب على الحياة التى كان مقدراً لها ، أن تطبع أعمق الأثر فى حياة أوربا فى القرون الوسطى ، ولكن فى سنة ٥٧٨ م ، أراد البابا أن يرفعه إلى مرتبة سامية فى الكنيسة ، فأخرجه من الدير ، وعينه شماساً « سابعاً » . وفى ربيع السنة التالية ، أوفده البابا بلاجيوس ، ليكون مندوباً عنه فى القسطنطينية ، وليحث الإمبراطور على إيفاد المعونة والمال والجيوش ، لإنقاذ إيطاليا من غزوات اللمبارديين ، ولكنه لم يوفق فى هذه المهمة . ولئن يكن قد عاش فى قصر — وهو فى القسطنطينية — إلا أنه لم يغير حياة الرهبنة ، والتف حوله نفر من الرهبان ، مسوقين إليه بمحبته وعطفه . ولعل هذا الانزواء هو الذى منعه عن تعلم اليونانية فى القسطنطينية ، وكان بلاط الإمبراطور ، ما يزال لاتينيا فى صبغته ، وكانت اللاتينية إلى ذلك الحين ، لغة الحياة العامة فى الشرق .

وعند عودته إلى رومية ، عين رئيساً لديره القديم ، وبقى فيه من سنة ٥٨٦ م ، إلى سنة ٥٩٠ م . ومن بين رهبانه الذين يذكرهم فى رسائله ، أربعة عينوا فيما بعد أساقفة ، أحدهم أوغسطينوس أول رئيس أساقفة فى كنتربرى بانكلترا . وأثناء مقامه فى الدير هذب محاضراته عن سفر أيوب ، التى كان قد ألقاها على رهبانه فى القسطنطينية ، وكان دائم الاتصال بالبابا بلاجيوس .

وفى سنة ٥٩٠ م توفى البابا بلاجيوس ، فأجمع القساوسة والشعب على

إنتخاب جريجوريوس ، وأقر الإمبراطور الشرقى هذا الإنتخاب ، ورسم فى خريف تلك السنة فى كنيسة القديس بطرس . وظل أربعة عشر عاماً جالساً على كرسى الأسقفية فى رومية – يدفع ، ما وسعته الحيلة ، أذى اللمبارديين عن إيطاليا الوسطى . وكان دائماً يعد أذهان قومه ، إلى توقع أحداث رهيبة بأيدى أولئك اللمبارديين القساة . وكان قد رأى بعينه المسيحيين يربطون من أعناقهم كالكلاب ، ويباعون عبيداً فى أسواق بلاد الغال ، وسمع بأذنيه شكاوى القرويين المريرة الساكنين فى المناطق الشمالية ، وشهد اللاجئين الجياع ، وهم يفرون زرافات إلى رومية ، طلباً للمأوى والغذاء . على أن هذه الأحداث كلها ، قد شحذت همته للعمل والجهاد ليل نهار فى تخفيف آلام رعاياه ، والحد من نزوات الغاصبين ، وصيانة كرامة الكرسى الرسولى ، والحث على الإعتصام بأسباب البر والتقوى والهدوء ، ومعاناة الآلام فى جلد وشجاعة .

وفى عهده ، أفلحت البابوية فى الاحتفاظ ببعض وظائف الحكومة المدنية ، وضم شمل كنائس الغرب تحت رعويته ، وإدارة أملاك الكنيسة وأموالها مستقلة عن الدولة ، ومحاولة إنتزاع السلطة الدينية العليا ، من بطريرك القسطنطينية ، وتركيزها فى رومية كمركز للمسيحية العالمية ، وإرسال الوفود والبعثات إلى أنحاء أوربا ، لدعوة الشعوب إلى المسيحية ، ومحاربة الهرطقات ونظريات الإلحاد . ففى عهده إنتقلت أسبانيا من الآريوسية إلى المسيحية الحقة ، وخلصت أفريقية الشمالية من نظريات الهراطقة والملحدين .

وقد حاول بسط سلطانه على كنائس المشرق ، لأنه كان يعتقد أن صاحب الكرسى الرسولى فى رومية ، هو المسئول عن إدارة الكنيسة فى

العالم كله ، كخليفة للرسول بطرس . وزعم أن من حقه تأديب الأساقفة والبطاركة ، الذين يحيدون عن الإيمان القويم ، وأن قرارات المجامع ، ليست لها قوة التنفيذ ، إلا إذا أقرها الكرسى الرسولى . وكان أشد منافسيه فى ذلك العصر ، بطريرك القسطنطينية ، الذى استند إلى سلطة الإمبراطور . وقد شجر الخلاف بينه وبين هذا البطريرك . حول مسائل ، أهمها الخلاف على لقب « المسكونى » ، الذى خلعه بطريرك القسطنطينية على نفسه . وقد احتج جريجوريوس على هذا الإدعاء ، واستعان ببعض أساقفة المشرق ، وعنف الإمبراطور على السكوت ومداراة البطريرك . ولكن ذهبت كل هذه المحاولات أدراج الرياح . بل إن الإمبراطورة ، كتبت إلى البابا ، تأمره أن يرسل رأس القديس بولس أو بعض بقاياه ، لإيداعها كنيسة تعتزم بناءها ، تكريماً للرسول الكبير ، فأجابها أن فى نقل رفات القديسين ، تدنيساً لكرامتهم ، وإثارة لعواطف الشعب ، وأبى عليها هذا المطلب .

ولم يكن جريجوريوس كاتباً مبتكراً ، ولا لاهوتياً متعمقاً . ولكن كتاباته استندت إلى عقائد الإيمان ، وإلى الأسفار المقدسة ، وإلى مؤلفات أوغسطينوس ، التى كانت موضع إعجابه وتقديره . واستقى فكرته عن الكنيسة من أوغسطينوس فى كتابه « مدينة الله » ، وحسب الكنيسة ملكوت السماء على الأرض كما صورها الإنجيل . وقد بقيت كتاباته — على بساطتها — ذخراً للأجيال المتعاقبة ، واحتلت مكانتها فى الأديرة وفى مكتبات الكنائس ، حتى لقد أطلق عليه « الدكتور الرابع فى الكنيسة » .

ولعل أعظم مآثره وأشهرها فى التاريخ ، تلك البعثة التى أوفدها ، لدعوة أهل بريطانيا إلى المسيحية . ولا بد لنا من كلمة تمهيد قبل ذكر هذا الحادث :

المسيحية فى بريطانيا :

قبل أن يضع الراهب العظيم بندكت قواعد رهبانيته ، كان قد انتشر فى بلاد الغال وإيطاليا ، أديرة على غرار الأديرة التى قامت فى صحراوات مصر . وإلى هذه الأديرة فى الغرب ، دلف الحجاج والمسافرون ، للانصات إلى تعاليم مكتباتها من الرهبان ، والأخذ عنهم فى مسالك الحياة ، ودراسة الكتب التى حفلت بها . وكانت تلك الأديرة بمثابة مراكز لنشر الدعوة ، يجئ إليها المسافرون ، ويعودون إلى أوطانهم ، حاملين رسالة المسيحية إلى شعوب أوربا .

وفى سنة ٤١٢ م ، قدم إلى أحد تلك الأديرة فى بلاد الغال ، بريطانى يدعى « بترك » . وكان قد نشأ مسيحياً ، ولكن القرصان اختطفوه من حضن أبويه وهو بعد حدث صغير ، وحملوه إلى جزيرة إيرلندا الوثنية . وهناك تمكن من الفرار والقدوم إلى الدير . وقد كان حينما جاء ، رجلا خشناً ، لم ينل قسطاً من الثقافة والعلم ، ولكنه بقى فى الدير زمناً طويلاً ، وتتلمذ للحبر الجليل الأسقف جرمانوس ، حتى صار راهباً فكاهناً ، وأوفد إلى إيرلندا أسقفاً لها ، لنشر الدعوة بين أهلها . ويقول عن نفسه فى اعترافاته ، إنه لم ينفك عن سماع هاتف داخلى ، يدعوه للذهاب إلى تلك البلاد الوثنية ، وبذل حياته من أجلها . وما كان الإيرلنديون كلهم يدينون بالوثنية ، لأن أسقفاً آخر كان قد سبقه إلى تلك البلاد ، ولكنه لقى من عنت الزعماء والحكام ، ما عرقل سعيه ، وخيب آماله ، ولم يفز إلا بالقليل من المهتدين على يديه .

وكانت حياة « بترك » ، جهاداً طويلا ومغامرة مضنية ، بين تلك

القبائل المتبربرة ، ولكنه قضى بين ظهرانيهم ثلاثين عاماً ، ومات بعد أن صارت إيرلندا كلها مسيحية ، فيها عشرات من الأديرة ، منها خرج المرسلون والدعاة لنشر الدعوة فى البلدان الأخرى .

ويحدثنا التاريخ أن الشعب الإيرلندى ، كان كثير الشغف بالموسيقى والرياضيات ، وأحب الثقافة اليونانية ومال إليها ، وكتب الكتب الخطية القديمة ، بخطوط جميلة ، تفنن فى إبداعها وتزيين صفحاتها بصور رائعة دقيقة . ومن هؤلاء الإرلنديين ، خرج سيل لا ينقطع من الدعاة والمرسلين ، إلى بلاد الغال وألمانيا وإنكلترا والنروج وإيسلنده . حاملين معهم عاداتهم وتقاليدهم ، وأساليب حياتهم الخشنة المتقشفة .

ومن أحد تلك الأديرة خرج الأمير الراهب « كولمبا » ، إلى جزيرة أيونا تجاه ساحل اسكتلندا ، ليعيش هناك ، مع مائة وخمسين من صحابته فى أكواخ صغيرة مقبية حول كنيسة صغرى ، فى الصلاة والدرس ونسخ الكتب والتعبد لله . وكانوا يقومون بزراعة الأرض ، وصيد الأسماك لإعالة أنفسهم ، وفى الوقت نفسه ، يعلمون هذا الدين الجديد لأهل اسكتلندا . وقد كان مسيحيون قليلون فى اسكتلندا قبل يومهم ، أقبلوا إلى هذا الدين ، على يد راهب من رهبان تور فى بلاد الغال ، ولكن جزيرة أيونا هذه ، كانت منارة الدعوة التى توزع منها النور ، لا على اسكتلندا وحدها ، بل على الجزء الشمالى مما يعرف الآن بانكلترا .

وكان الدين الجديد قد وصل إلى جنوب بريطانيا ، فى تاريخ مبكر ، مع الغزاة الرومان ، وكان فيها أساقفة من بنيها فى سنة ٣١٤ م ، ولما كان بترك يجاهد فى إيرلندا ، تلقى معلمه جرمانوس وزميل له ، رسالة ليقبل

إلى معونة الكنيسة فى بريطانيا ، التى كانت قد وقعت فى أحابيل الحيرة والإضطراب ، بسبب تعاليم بيلاجيوس ، الذى نشر آراء يناهض بها آراء القديس أوغسطينوس . وسرعان ما عاد المرسلان إلى بلاد الغال ، بعد أن قاما بواجبهما ، حتى كان الغزاة الأنجلوسكسون ، قد اكتسحوا البلاد للمرة الثانية ، وساقوا الأهلين أمامهم إلى ويلز وسومرست وكورنول ، على الشواطئ الجنوبية ، وعبر بعضهم بحر المانش ، ليستوطن الإقليم الشمالى من فرنسا ، الذى أطلق عليه « بريتانيا » ، وما يزال معروفاً بهذا الاسم حتى اليوم . ومن ثم صارت إنكلترا الجنوبية بلاداً وثنية مرة أخرى .

وحدث أن جريجوريوس العظيم ، كان يجوب سوق مدينة رومية للعبيد ، فوقع نظره على غلمان شقر الوجوه ، تلمعت شعور رءوسهم بلون ذهبى . ولما سأل عن موطنهم الأصلى ، اعتزم أن يحمل إليهم رسالة الدين الجديد ، وقال بأسلوبه الفكه ، وفى سرعة خاطر ، إن أولئك الإنكليز « Angles » لا بد يصيرون يوماً ملائكة « Angels » ، وإن بلادهم ستنقذ من الغضب الآتى ، وترفع أناشيد التسبيح للاله الحى . وكان متأهباً أن يرحل هو بنفسه إلى إنكلترا ، ولكن قومه أبوا عليه هذه المغامرة . وبعد عشر سنوات ، سنحت له الفرصة فاهتبلها ، وذلك لأن ملك كنت السكسونى اثلبرت ، كان قد تزوج من أميرة مسيحية من بنات الفرنجة « Franks » تدعى برثا ، فأوفد جريجوريوس راهباً من خيرة رجاله يدعى أوغسطينوس ، ومعه خمسون من الرفاق ، لحمل رسالة الإنجيل للأسرة الملكية فى تلك البلاد . ونزل الراهب على شواطئ الجزيرة ، واتخذ طريقه إلى مقر الملك ، يحمل معه صليباً من فضة ، وعلماً من خشب ،

نقشت عليه صورة الصلب ، وكتبه الثمينة (الكتاب المقدس فى مجلدين ، والإنجيل ، وبعض سير الرسل والشهداء ، وتفاسير العهد الجديد) . وهناك تقدم إلى الملك فى موكب فى العراء ، مقدماً له هذا الدين الجديد . على أن الملك الوثنى لم يفهم شيئاً ، ولم يقبل الدين . ولكنه أباح للراهب ورفاقه ، أن ينشروا الدعوة بين الشعب كما يشاءون ، وأقاموا فترة من الزمن فى كنتربرى ، وشيدت الملكة برثا كنيسة صغرى لعبادة الله . واقتضى الحال جهوداً مضنية بطيئة ، واستمر الجهاد مائة عام ، قبل أن تصبح إنكلترا كلها مسيحية . ولكن منها إنتشرت بعدئذ الدعوة فى رقاع أخرى ، فتزوج ادوين ملك نورثمبريا ، من ابنة الملكة المسيحية برثا ، وهذه حملت معها إلى الشمال ، راهباً يدعى بولينوس ، أفلح فى حمل الملك وكهنته الوثنيين على إعتناق المسيحية . وقد اعتمد أدوين فى البقعة التى يقف فيها الآن أسقف يورك لعبادة الله . وظل الراهب بولينوس وشماسه جيمس ، يذرعان البلاد شمالا وجنوباً ، فآمن بدعوتهما أكثرية الأهلين ، ولكن الملك الوثنى « بندا » ، أغار على نورثمبريا ، وقتل ملكها ، وأمعن تقتيلا وتعذيباً فى الشعب ، فهرب الراهب بولينوس مع الملكة وأطفالها ، وظل الشماس جيمس فى مركزه ، متحدياً الغزاة وبطشهم .

وخيل الآن كأنما جهود أوغسطينوس ، والدموع والآلام التى بذلت فى سبيل هداية إنكلترا قد ذهبت ضياعاً ، وتوقع الناس أن تعود إنكلترا إلى سابق وثنيتها ، ولكن أميراً شاباً إنكليزياً يدعى « أزوالد » — كان قد فر من وجه أعدائه إلى جزيرة أيونا ، وتعلم الدين الجديد هناك — عاد إلى إنكلترا وطنه ، ودافع عن نورثمبريا ، ورد عنها الغزاة الوثنيين وكسب المعركة ، ثم بعث إلى أيونا يطلب معلماً مسيحياً ، فأوفدوا إليه الراهب

« أيدان » ، الذى أحبه الأهلون حباً خالصاً ، لدماثة خلقه ووداعته وصفاء نفسه .

وبعد ثمانية أعوام ، ثار « بندا » ملك الشمال مرة أخرى ، وقتل أزوالد بحد السيف ، ولكنه كان آخر الملوك الوثنيين ، الذين عرفتهم البلاد ، وأخذت المسيحية تزدهر بعد موته ، ويقوى نفوذها ، ويسلب الناس سحر تعاليمها ، وغدت إنكلترا بعد ذلك ، موطن كثير من مشاهير العلماء وكبار المرسلين ، الذين ذكر التاريخ أسماءهم مقرونة بالتجلة والاكبار .

وفى سنة ٦٦٨ م ، قدم إلى إنكلترا ثيودور الطرسوسى ، وهو راهب يونانى ، موفداً إليها كرئيس أساقفة ، وقد وحد إنكلترا كلها ، وقسمها إلى أبرشيات أسقفية ، وحمل معه كتباً قيمة من مؤلفات هوميروس ويوسيفوس ويوحنا فم الذهب .

وفى مدرسة اكستر ، وهى إحدى المدارس الدينية الكثيرة ، التى أنشأها المرسلون المسيحيون ، تهذب الراهب بونيفاس ، الذى عبر البحر مسوقاً بهاتف داخلى ، لنشر الدعوة فى هولندة وألمانيا ، والذى صار فيما بعد رسول ألمانيا وأسقفها .

٢٥

الكنيسة فى المشرق

[اللغات القومية فى الامبراطورية الشـــرقية ــ هرقل وانتصاراته ــ يوستنيان ــ العرب والكنيسة الشرقية ــ العالم يوحنا الدمشقى .]

كان لإنقسام الإمبراطورية الرومانية بعد عهد قسطنطين إلى شطرين ــ الشرقية بلغتها اليونانية والغربية بلغتها اللاتينية ــ أثر عميق فى تاريخ الكنيسة . وقبل أن يحدث الإنقسام فى الكنيسة بالذات ، بدأت المجموعة المسيحية اللاتينية ، والمجموعة المسيحية اليونانية ، تسير كل منهما فى إتجاه خاص ، على أساليب من الفكر مختلفة ، وتحت تأثير عوامل فى الحياة متباينة . ولما نزلت قبائل الجرمان المتبربرة من الشمال ، ومزقت شمل الغرب اللاتينى ، وإنتزعه من سلطان الإمبراطور الرومانى ، الذى كان مقره ببزنطة ، سارت الكنيسة فى الغرب فى مسرى مستقل ، وإتخذت طريقتها الخاصة فى التاريخ .

وقدر لتاريخ المسيحية فى مستقبل الأجيال ، أن تتصل اتصالا وثيقاً بعالم الغرب ، وأن تكون المسيحية اللاتينية ، من أهم العوامل فى تطور هذا التاريخ . أما المسيحية الشرقية ، فقد إنطوت على تقاليدها ، وجمدت فى تفكيرها ، وكان لهذا الجمود أثره البالغ فى مستقبل تاريخها . أجل ، برز فى هذه الفترة كتاب أجلاء ، أمثال الآباء الكبدوكيين الذين أشرنا

إليهم من قبل — والذين كانوا فى المرتبة الأولى من مفكرى عصرهم ، وقد أخصبوا الفكر المسيحى بكتاباتهم ومؤلفاتهم . كذلك برز فيما بعد القديس يوحنا الدمشقى (٦٧٦ — ٧٥٧ م) ذلك اللاهوتى البارع ، الذى حلل العقائد المسيحية تحليلا فلسفيا ، كما فهمته الكنيسة الأرثوذكسية . ولكن يمكن القول إجمالا ؛ أن سير التفكير والإبتكار فى الكنيسة الشرقية كاد يقف تماماً .

وكانت الإمبراطورية الشرقية البيزنطية ،حلقة من حلقات الإمبراطورية الرومانية القديمة ، فظلت الكنيسة خاضعة للبلاط الإمبراطورى فى بيزنطة ، كما كان حالها فى عصر قسطنطين وخلفائه ، وأمست شبه مصلحة من مصالح الدولة ، وخلعت على الإمبراطور صفة مقدسة ، ولم يكن لبطريرك القسطنطينية — وإن لقب بالمسكونى — مكانة البابا فى عالم الغرب .

اللغات القومية :

وفى بعض ولايات الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، نشطت اللغات القومية بين عامة الشعب ، وبقيت اليونانية لغة الخاصة والطبقات العليا ، ولما إنتشرت المسيحية بين عامة الشعب ، ظهرت مؤلفات مسيحية بهذه اللغات القومية : السريانية فى الجزيرة وبين النهرين ، والأرمنية فى أرمينية ، والقبطية فى مصر ، والأثيوبية فى الحبشة . وكان معظم هذه المؤلفات المسيحية الشرقية ، إما منقولا نقلا عن اليونانية ، أو مقتبسا من الآراء والتقاليد المسيحية اليونانية . على أنها تميزت ببعض الصفات القومية ، وكان من أثر ذلك ؛ ظهور نزعات قومية فى شئون الكنيسة ، تحدياً لكرسى القسطنطينية ، ولم يكن إنفصال جمهرة المسيحيين فى مصر ، عن الأرثوذكسية اليونانية الشرقية فى القرن الخامس ، بسبب المشكلة التى

يسمونها « الطبيعة الواحدة » فى ذات المسيح ، إلا ناشئاً فى الواقع عن تلك النزعة القومية ، التى أحست بها بعض الولايات الشرقية .

هرقل وإنتصاراته :

وفى أوائل القرن السابع ، يعتلى الإمبراطور هرقل عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية — أو دولة الروم كما يسميها مؤرخو العرب . وقد كان وخلفاؤه الخمسة من أسرة واحدة ، اشتهر ملوكها بالخلق الكريم ، الكفاية فى الحكم . وأفلح مؤسس الأسرة هرقل (٦١٠ – ٦٤١ م) ، فى توطيد الأمن فى ربوع إمبراطوريته ، ودفع غزوات الفرس .

وكان الفرس قبل اعتلائه العرش ، قد أغاروا فى عهد عاهلهم خسرو الساسانى ، على الجزيرة وبين النهرين وسورية ، وعبروا آسيا الصغرى ، وأقبلوا على خلقيدونية فى سنة ٦٠٨ م . وفى السنة التالية ، فتحت لهم قيصرية فى كبدوكية أبوابها . وبعد أن اعتلى هرقل عرش الإمبراطورية ، زادت هجماتهم شدة ، فدخلوا سورية فى سنة ٦١٢ واستولوا على دمشق فى سنة ٦١٣ ، وعلى فلسطين فى سنة ٦١٤ وحمل عاهلهم الصليب الأصلى من بيت المقدس . وفى سنة ٦١٦ ، اجتاحوا مصر ثم توغلوا فى آسيا الصغرى ، وحصنوا مدينة أنقرة لحماية خطوط مواصلاتهم .

وقد ظل هرقل مدة إثنتى عشرة سنة يتلقى هذه الضربات ، بما فى طاقته من صبر وجلد ، ولكنه كان طيلة الوقت يعد عدته ، وينظم جيشه ، ويوحد جبهته الداخلية تأهباً للضربة القاضية . وقد استجاب الشعب إلى ندائه ، وعضده البطريرك سرجيوس ، بطريرك القسطنطينية يومئذ ، فوضع تحت إمرته كل كنوز الكنيسة وأموالها ، وألهب حماسة

الشعب فى حرب صليبية جديدة ، لاسترجاع الأماكن المقدسة ، وإعادة الصليب الأصلى الذى صلب عليه المسيح ، وكان قد نهبه عاهل الفرس من بيت المقدس كما تقدم :

وفى خمس حملات متواليات ، يحطم هرقل شوكة الفرس ، فيسترد أذربيجان فى سنة ٦٢٣ ، وأرمينية فى سنة ٦٢٤ ، وكيليكية فى سنة ٦٢٦ ويهزم جيوش الفرس وحلفائهم، الذين كانوا يحاصرون القسطنطينية . أما حملته الخامسة والأخيرة ، فقد استرد بها الجزيرة (بين النهرين) ، فاستولى على نينوى سنة ٦٢٧ ، واقتحم عاصمة الفرس سنة ٦٢٨ ، وحمل من هناك الصليب الأصلى فى موكب ظافر إلى القسطنطينية ، ثم أعاده بنفسه إلى بيت المقدس . وغدا هرقل بفضل هذه الانتصارات المتوالية ، قائداً عظيما من قادة الحروب ، الذين شاد التاريخ بذكرهم ، وكلل بالمجد هاماتهم . وتم له فى سنة ٦٢٩ عقد صلح مع دولة الفرس .

وكان عليه الآن أن يعيد إلى الإمبراطورية وحدتها الدينية ، ويرد إلى أحضان الأرثوذكسية ، الولايات التى انفصلت بسبب مشكلة الطبيعة الواحدة ، وهى سورية وأرمينية ومصر ، التى أنشأت بعد إنفصالها كنائس مستقلة . ويرجع تاريخ هذه المشكلة إلى مجمع خلقيدونية (٤٥١م) ، وكان قد قرر فيما قرره من قواعد الإيمان ، أن المسيح أقنوم واحد ذو طبيعتين . واعتصمت القسطنطينية بهذه العقيدة ، ولكن بعض كراسى المشرق ، مسوقين فى الأغلب بنزعات قومية ، تحدوا القسطنطينية ، وتشبثوا بعقيدة الطبيعة الواحدة . وكان الأباطرة فى موقف حرج ، فهم إذا هادنوا الولايات الشرقية ، أغضبوا رومية والغرب ، وإذا ضغطوا على الشرق ، تمردت عليهم هذه البلدان ، التى بدأت تختمر فيها المشاعر

القومية . على أن بعض الأباطرة ارتضوا السير مع المشرق ، ففي سنة ٤٨٢ ، أصدر الإمبراطور زينو قانوناً ، حابى به القائلين بالطبيعة الواحدة ، وقد أدى هذا إلى قطيعة بين الشرق والغرب استطالت إلى أربعين عاماً .

يوستنيان :

على أن الإمبراطور يوستنيان الأول وخلفاؤه (٥١٨ — ٦٠٩) ، ينتهجون سياسة جديدة ، ويصالحون الكنيسة الغربية ، ويلجأون إلى أساليب العنف والإرهاق ، لحمل ولايات المشرق التي شقت عصا الطاعة ، على الرجوع إلى أحضان الأرثوذكسية .

وكان يوستنيان ، مؤسس هذه الأسرة أعظمهم شأناً ، وكان هو نفسه من أنصار قانون مجمع خلقيدونية ، ولكن زوجته ثيودورا ، كانت من أنصار الطبيعة الواحدة . ويقول أحد المؤرخين ، إن هذه المرأة الغريبة الأطوار ، بدأت حياتها ممثلة وعاهراً ، وعرف عنها الخلاعة والتهتك . ويقول إنها كانت جذابة ، تنفذ نظراتها الخارقة إلى أعماق القلوب ، وإن تكن قصيرة القامة صفراء اللون . وبعد زواجها من الإمبراطور ، عافت رذائلها السابقة ، وأنشأت داراً لكفالة الساقطات ، لتكفر عن ذنوبها الماضية . وقد اشتهرت بالبخل والقسوة وحب السلطان ، وكانت صاحبة النفوذ في البلاط الإمبراطوري ، فاضطر يوستنيان تحت تأثيرها ، أن يخرج عن تقاليد أسرته ، ويصدر وثيقة يسترضى بها أنصار الطبيعة الواحدة ، ويحاول في الوقت نفسه ، أن يضمن رضاء بابا رومية ؛ ثم عقد مجمعاً عاماً في سنة ٥٥٣ م . أثر وثيقته ، وكان ذلك المجمع مظهراً

لسلطان الدولة ، التى أكملت يومئذ إرادتها على الكنيسة ، لأن الإمبراطور هو الذى استدعاه ورسم خطته ووضع قرارته .

على أن خلفاء يوستنيان عادوا إلى تقاليد الأسرة ، فراحوا يضطهدون أنصار الطبيعة الواحدة ، ويمعنون فى القسوة عليهم والبطش بهم ، فزادت القطيعة ، وقويت النفرة ، فانفصلت الكنيسة فى أرمينية . أما فى سورية ، فكان بها كرسيان ، أحدهما يدين بالولاء لقرارات مجمع خلقيدونية ، والآخر يعتصم بنظرية الطبيعة الواحدة . وأتباع هذا الكرسى أطلقوا على أنفسهم « يعاقبة » . نسبة إلى كاهن يدعى « يعقوب البردعى » ، كان قد رسمه أسقف القسطنطينية السجين ، لخروجه على قرارات مجمع خلقيدونية ، وبعد رسامته ، فر الكاهن بمعونة أحد أمراء العرب النصارى الغساسنة إلى سورية ، متخفياً فى ثياب شحاذ . ويقال إنه رسم أكثر من ثمانين أسقفاً وألوفاً من الكهنة .

واعتنقت مصر أيضاً عقيدة الطبيعة الواحدة ، وكان الشعور القومى فى تلك الفترة مضطرماً ، فلما عزل بطريرك الإسكندرية ، نظر الشعب إلى خليفته كأنه صنيعة الغاصبين ، وظل الشجار محتدما مائتى سنة بين الملكيين — وهم حزب الإمبراطورية الناطق باليونانية — وبين المصريين الوطنيين — وهم أبناء الشعب ، الذى كان يتكلم لغة مصرية قبطية ، ويعتصم بعقيدة الطبيعة الواحدة . وقد استنكر الشعب إملاء الأجنبى الغاصب ، وأبغض حكم دولة الروم بغضاً شديداً ، حمله على أن يفتح ذراعيه للعرب الغزاة فى سنة ٦٤٢ م — وقد بقيت الكنيسة القبطية حتى اليوم ، على عقيدة الطبيعة الواحدة ، وما يزال هذا الفارق قائماً بين الكنيستين القبطية واليونانية .

قلنا إن هرقل حاول — بعد أن هزم دولة الفرس — أن يستعيد وحدة الإمبراطورية الدينية ، ولم تخل هذه المحاولة من أساليب القهر والإعنات . وكانت فى المشرق أربع بطريركيات : القسطنطينية وكانت يونانية فى صبغتها ، وأنطاكية وكانت سريانية فى لغتها وإحساسها ، والإسكندرية وكانت قبطية مصرية ، وأورشليم وكانت فى ذلك العصر أقل الكراسى شأناً . وبينما رنت أنطاكية بأبصارها إلى بطرس الرسول مفاخرة بأنه مؤسسها ، وبينما اعتزت الإسكندرية بنسبها إلى مرقس الرسول ، فإن القسطنطينية تشامخت لأنها كانت مقر الإمبراطور ومركز السلطان فى الإمبراطورية . وقد وضعها مجمع خلقيدونية فوق جميع الكراسى ماعدا روميه ، وقد سعت سعياً حثيثاً لبسط سلطانها على البطريركيات الأخرى . وكان طبيعياً أن يطمح أسقف العاصمة الإمبراطورية ، فى هذه السلطة الأتوقراطية ، ولكن البابوية لم تفلح فى الشرق مثلما أفلحت فى الغرب ، بسبب الحزازات العنصرية واللغوية ، ولم تكن اللغة اليونانية فى الشرق لغة جامعة فى العبادة الدينية ، كما كانت اللغة اللاتينية فى الغرب .

من ثم نرى الكنيسة فى الشرق ، تعبث بها أيدى التفرقة بالجدل الدينى ، وتتسرب إليها عوامل النفرة والإنقسام لأسباب ، فى ظاهرها دينية كمشكلة الطبيعة الواحدة ، وفى باطنها قومية عنصرية . ونرى الدولة موهنة العزمات ، بعد حملاتها المتوالية على الفرس . وفى هذه الأزمة تقف الدولة والكنيسة معاً ، أمام قوة جائحة تطلع من البادية ، هى قوة العرب التى اكتسحت أمامها دولة الروم ، وأصابت الكنيسة الشرقية بطعنات فى الصميم ، فلم تقو على الصمود بسبب جمودها وتخاذل فروعها وضعف شرايين الحياة فيها .

العرب والكنيسة الشرقية :

وقد بدأت غزوات الأسلام فى النصف الأول من القرن السابع ، فاجتاحت أولا دولة الفرس ، التى كانت موطن النساطرة المسيحيين ، وقد أتمت القضاء على دولة الفرس فى سنة ٦٥١ م ، حينما فر آخر ملوكها « يزجرد » إلى ما وراء تخوم بلاده ، وفى سنة ٦٣٤ م سقطت دمشق بأيديهم ، واستولوا على بيت المقدس سنة ٦٣٧ م ، وفى سنة ٦٣٨ م أغاروا على مصر ، فاستولوا على الإسكندرية . ويقال إن أقباط مصر رحبوا بقدومهم للتخلص من إعنات قياصرة الروم ، وأن العرب أكرموا البطريرك القبطى المصرى بنيامين ، وأحسنوا إليه ، ومنحوه السلطة الدينية على رعاياه .

وبعد استيلائهم على الإسكندرية ، تيسر للعرب القيام بحملات بحرية ، فحاصروا القسطنطينية (٦٦٨ ــ ٦٧٤) ، ولكنهم ردوا عنها خائبين . وسقطت قرطاجة بأيديهم فى سنة ٧٠٣ ،وبسقوطها دانت لهم دولة الفاندال فى أفريقية الشمالية . وفى سنة ٧١١ م عبروا البحر إلى أسبانيا فاجتاحوها كلها ، وكادت جيوشهم تتخطى نهر اللوار فى فرنسا ، لتكتسح دولة الفرنجة فى الغرب ، كما قضوا على دولة الروم فى الشرق ، لولا أن تصدى لهم « كارل مارتل » ، فأنقذ الكنيسة الغربية من المصير الذى حل بالكنيسة الشرقية .

وكانت أمة الروم خصيبة المواهب ، لم تدانها أمة من قبل ولا بعد ، فى غزارة الخيال ، وعمق التفكير ، وروعة الثقافة ، فالحمال فى الطرقات تفلسف ، وحوانيت الحلاقين والحانات والفنادق ، تجاوبت فى جنباتها أصداء المنازعات والمناقشات الجدلية حول أسرار الدين ، وحفلت أحاديث

العامة بالمشاكل الدينية واللاهوتية . ولكن تلك الأمة العريقة ، التى بزت كل أمم الأرض فى التفكير وخصوبة العقل ، قد اجتاحتها دولة العرب ومزقتها شر ممزق ، بحيث لم تقم لها قائمة من بعد . وعلى أثر هذه النهضة العربية ، شهد الشرق ثقافة عربية بدلا من الثقافة الإغريقية . وقد تفوقت تلك الثقافة العربية على ثقافة القرون الوسطى ، فى الرياضيات والعلوم الطبيعية والفلسفة ، وكان لها بعض الفضل فى إحياء ثقافة القرون الوسطى. وقد امتازت ثقافة العرب بالهدوء فى التفكير ، وبالخيال الشعرى الشرقى الخلاب ، على أنها كانت بلا شك ، دون الثقافة الإغريقية القديمة .

ذهبت دولة الروم ، وقامت على أنقاضها دولة العرب ؛ وبسقوط دولة الروم ، سقطت معها الكنيسة اليونانية الشرقية . نعم بقيت قائمة كراسى الإسكندرية وأنطاكية والقدس ، وتمتعت بالتسامح الذى منحه إياها العرب ، ولكن قوة التطور والنماء ، وقفت جامدة فى بيزنطة والإسكندرية .

وكانت مشكلة الأيقونات والصور فى الكنائس ، إحدى المشاكل التى أثارت الإنقسام بين الأحبار والزعماء . وقد بدأها الإمبراطور ليو — وهو ذلك الجندى الباسل ، الذى أنقذ القسطنطينية وصد العرب عنها — فأصدر فى مستهل القرن الثامن مرسوماً ، يقضى بتدمير كل التماثيل فى الكنائس ، ومحو الصور والنقوش . وكانت تلك قد غدت أشبه بعبادة الأوثان . وأمل الإمبراطور من وراء هذا الإصلاح ، أن يستميل اليهود والمسلمين إلى المسيحية النقية . ولكن نفوذ الرهبان، وحاجة الشعب إلى المظاهر الخرافية، كانت أقوى من الإمبراطور وجيشه ، واتفق أساقفة أورشليم وأنطاكية والإسكندرية ، على إبقاء الصور والأيقونات ؛ وكان قرارهم فاصلا فى

بمجمع نيقية (سنة ٧٨٧ م) ، وهو المجمع المسكونى السابع ، الذى اعتبر الأيقونات والصور ذكريات مقدسة . وكانت حجتهم فى هذا الإبقاء ، أن الصورة للأمى الجاهل ، هى بمثابة الكتاب للمتعلم .

يوحنا الدمشقى :

وفى أواخر القرن السابع يظهر — كما أسلفنا القول — العالم الكبير يوحنا الدمشقى وهو من أشهر العلماء اللاهوتيين الذين أنجبتهم الكنيسة الشرقية . ولد فى دمشق فى أواخر القرن السابع ، وكان اسمه العربى « المنصور » ، وأطلق عليه لفصاحة بيانه وذلاقة لسانه « صاب الذهب » . وكان والده سرجيوس مسيحياً ، ولى وظيفة من وظائف الدولة فى حكم خلفاء بنى أمية فى دمشق ، وقد خلفه ابنه يوحنا فى وظيفته هذه .

وكان الدمشقى من زعماء حزب الصور والأيقونات ، فكتب وهو بعد فى وظيفته ، سلسلة بحوث دفاعاً عنها . وقد استبدت به نزعة روحية داخلية ، فطلق وظيفته الحكومية ، وتنازل عن كل مقتنياته العالمية ، وهرع إلى دير مار سابا على مقربة من القدس ، حيث قضى بقية حياته : وقد رسم كاهناً بيد بطريرك بيت المقدس ، وفى أواخر حياته ، جال فى سورية يخطب دفاعاً عن بقاء الأيقونات والصور فى الكنائس ، وزار القسطنطينية فى عهد الإمبراطور قسطنطين كوبرونيموس ، معرضاً حياته لخطر داهم .

وقد جمع عقائد الكنيسة فى سفر لاهوتى فلسفى رتيب ، وعالج نظريات الهراطقة والملحدين وحللها تحليلا بارعاً ، وأفرد قسما فى أحد مؤلفاته لعقائد الإسلام ، وكتب حديثاً ثنائياً على لسان مسيحى ومسلم ، وضع

على لسان كل منهما أدلته المنطقية لإثبات دينه ، وقد دل هذا الحديث الجدلى ، على تعمق فى علم اللاهوت ، وبراعة فى المنطق والإقناع .

وكان من بواعث الفرقة بين الشرق والغرب ، كلمة أضيفت إلى العبارة الخاصة بالروح القدس فى قانون الإيمان النيقوى ، وهى « المنبثق من الآب والابن » . فلقد اعترض الشرق على الغرب لإضافته كلمة « الابن » ، وأصر على أن تبقى العبارة « المنبثق من الآب » فقط . وللقديس يوحنا الدمشقى رأى للتوفيق والمصالحة ضمنه إحدى رسائله ، فلقد اقترح أن تصاغ العبارة « المنبثق من الآب بالابن » إرضاء للفريقين . ولم يصغ أحد إلى نصحه يومئذ ، لأن منشأ الخلاف فى الواقع بين الكنيستين الشرقية والغربية ، لم يكن هذه اللفظة ولا غيرها من عقائد الدين ، بل هو حب الرئاسة ، والتنازع السياسى ، والتباين الفكرى واللغوى بين اليونان واللاتين . على أنه بعد إنقضاء قرون طوال ، أخذ أنصار وحدة الكنيسة فى القرن العشرين ، يفكرون جدياً فى هذا الرأى الذى شرحه يوحنا الدمشقى اللاهوتى الشرقى فى القرن السابع .

وكانت أبحاثه ومصنفاته آخر مجهود عقلى للمسيحية اليونانية . وبعد هذا التاريخ ، إنطفأت شعلة النتاج الفكرى فى الكنيسة الشرقية ، وأمست عالة على الدولة . وكل الذى فعلته الكنيسة الشرقية بعد ذلك ، أن سلمت عناصر ثقافتها القديمة وعقائدها ، تراثا إلى العناصر الصقلبية ، التى كانت قد أعوزتهم القوة الكافية ، لإحياء العالم اليونانى ، فبقيت أمة اليونان والكنيسة اليونانية على ما هى عليه .

ايداع رقم ٧٨/٣٤٠٣ دولى رقم ٧-٠٥-٧٢٢٠-٩٧٧

تاريخ المسيحية

المسيحية في العصور الوسطى

بقلم

جاد المنفلوطي

دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية
٣٦ شارع الجلاء ـ القاهرة
تليفون ٩٧١٦٥٥

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦

مقدمة

فترة العصور الوسطى فى تاريخ المسيحية ، هى الفترة التى تمتد من عام ٥٩٠ إلى عام ١٥١٧ للميلاد ، وإن كان بعض المؤرخين ، يتخذ عام ٦٠٤ الميلادى ، بداية لهذه الفترة الحافلة من تاريخ المسيحية .

وقد سميت بالعصور الوسطى ، لتوسطها بين فترتين متميزتين من تاريخ المسيحية ، أولاهما هى فترة الظهور والإنتشار ، والنمو والإزدهار ، والأخرى هى فترة عصر الإصلاح البروتستانتى ، الذى بدأه « مارتن لوثر » ، فى القرن السادس عشر .

وفترة العصور الوسطى هذه ، يصفها بعضهم بأنها العصور المظلمة ، وقد حق أن تدعى كذلك ، لأن الشعلة المسيحية التى بدأت مضيئة متوهجة ، فاستنار بنورها الشعب الجالس فى الظلمة ، هذه الشعلة المباركة ، أمست فى فترة العصور الوسطى ، وقد خبا نورها ، فلم تعد أكثر من فتيلة مدخنة على وشك أن تنطفىء ، إذ تحالفت عليها رياح وأعاصير متعددة ، حاصرتها وحصرتها .

ويجب ألا ننسى ، أن تاريخ المسيحية فى العصور الوسطى ، لا يمثل تاريخ المسيحية بوجه عام ، لكنه يركز بوجه خاص ، على تاريخ المسيحية فى الغرب ، التى أمكنها أن تقف صامدة فى وجه الغزو البربرى ، الذى اجتاح دول أوربا فى بداية العصور الوسطى ، لا بل إنها لم تلبث أن إحتوت الغزاة ، الذين وإن كانوا قد أحرزوا الكثير من الإنتصارات العسكرية ، إلا أنهم إنهزموا دينيا ، وانضووا تحت لواء الكنيسة ، على النقيض تماماً

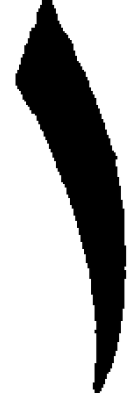
لما حدث فى الشرق . عندما تعرضت بلدانه لغزوات لم تصمد أمامها ، من جانب الجيوش الإسلامية ، بعدها جمدت وتجمدت الأوضاع فى المراكز الدينية الكبرى ، فى كل من أنطاكية والإسكندرية ، وبيت المقدس والقسطنطينية .

ومن خلال ما سنعرضه ونتعرض له من أحداث هذه الفترة ، سوف يتضح لنا ، أن رب الكنيسة وحاميها ، كان يقيض لها فى كل عصر ، نجوما لامعة ، وكواكب ساطعة ، تبزغ من بين سدف الظلام ، شهادة حية وناطقة ، بأن الله — سبحانه — هو العامل فى التاريخ ، الموجه لأحداثه ، وهو الذى يحمى كنيسته ويحرسها ، ويحفظ إيمانها وعقيدتها ، تراثا خالداً للبشرية ، ونورا يهدى الناس إلى ما فيه صلاحهم وحياتهم الأبدية .

الفترة الأولى

بداية العصور الوسطى

(٥٩٠ – ١٠٧٣ م)



الأحوال فى الغرب

[جثة ونسور ــ الغزو الاسلامى ــ الكنيسة الصامدة فى الغرب ــ امبـــراطورية شـــارلمان ــ البابا يتوج شـــارلمان امبراطورا ــ الامبراطورية الرومانية المقدسة ــ الامبراطورية الشرقية]

جثة ونسور :

ظلت الإمبراطورية الرومانية تقاوم غزو البرابرة وهجماتهم ، ردحا طويلا من الزمان ، إمتد إلى ستمائة عام .

وحوالى القرن الرابع الميلادى ، بدأت مقاومتها تتداعى وتنهار ، تحت ضغط موجات الغزو المتلاحقة ، التى راح يشنها عليها أولئك البرابرة الأجلاف .

فنى عام ٤١٠ م،سار « ألاريك » على رأس جيش جرار من القوطيين إلى روما ، حيث أعملوا فيها السلب والنهب . كما ولى القوط الغربيون وجوههم صوب أسبانيا وجنوب بلاد الغال (فرنسا حاليا) ، وهناك استقروا .

أما الفرنجة ، فحطوا الرحال فى منطقة الراين وشمال فرنسا . وفى شرق الراين والدانوب ، استقر البورغنديون والقوط الشرقيون ، الذين

غزوا شمال إيطاليا ، وفى أعقابهم ، غزاها اللومبارديون ، والقوطيون ، والسكسونيون .

وفى عام ٤٥١ ، اكتسح الجزء الباقى من إيطاليا ، جيش المغول الهونيين بقيادة « أتيلا » ، ثم بعد ذلك استولى الأفاريون والسلافيون والصربيون ، على أراضى الدانوب ومعظم بلاد البلقان .

وبعد ما وطدوا حكمهم فى أسپانيا ، قام القوطيون فى عام ٦٢٤ ، بطرد البقية الباقية من الولاة الرومانيين ، الذين كانوا ما يزالون هناك .

هذا كله يكشف لنا الصورة الحقيقية للامبراطورية الرومانية ، فى بداية العصور الوسطى ، ويرينا كيف أنها كانت جثة ميتة ، تجمعت عليها نسور الغزاة ، الذين راحوا ينهشونها ، وقد أخذ كل نسر منها نصيباً ؛

ونود أن نشير هنا ، إلى أننا عندما نذكر « الإمبراطورية الرومانية » ، فإننا بذلك نعنى القسم الغربى من الإمبراطورية ، ذلك القسم الذى كان يتخذ اللاتينية لغة ، وروميةعاصمة ، مذكرين بأن القسم الشرقى من الإمبراطورية الرومانية ، كان معروفا باسم الإمبراطورية الشرقية ، أو البيزنطية ، نسبة إلى عاصمتها بيزنطة . وهذه الإمبراطورية الشرقية ، كانت تتخذ اليونانية لغة لها .

كما لا يفوتنا أن نشير ، إلى أن الإمبراطورية الشرقية ، هى المعروفة عند المؤرخين العرب ، باسم « دولة الروم »

الغزو الإسلامى :

فيما بين عامى ٦١٣ ، ٦٢٩م ، كان الفرس قد بسطوا نفوذهم ، على

كل من مصر وسوريا وفلسطين ، وامتد نفوذهم حتى شمل منطقة آسيا الصغرى إلى مضيق البوسفور .

لكن الإمبراطور « هرقل » ،الذى اعتلى عرش الإمبراطورية الشرقية ، فى أوائل القرن السابع ، استطاع أن يحطم شوكة الفرس ، ويسترد من أياديهم أذربيجان ، وأرمينية ، وكيليكية ، وبين النهرين (العراق) ، ومصر ، وسوريا ، وفلسطين .

وفى عام ٦٢٨ ، إقتحم عاصمة الفرس ، واستولى على الصليب الأصلى ، وحمله فى موكب عظيم إلى القسطنطينية ، ومن هناك أعاده إلى مدينة القدس .

فى نفس تلك الفترة ، كان الأمر قد استتب للمسلمين فى شبه الجزيرة العربية ، فاتجهت أنظارهم إلى العالم الخارجى ، وانطلقوا حاملين لواء الدعوة إلى الدين الجديد ، واجتاحت جيوشهم دولة الفرس التى كانت موطنا للمسيحيين النساطرة (أتباع نسطور) .

وفى عام ٦٣٤ ، استولت جيوش المسلمين على مدينة دمشق ، وفى عام ٦٣٧ ، سقطت فى أيديهم مدينة القدس . وفى عام ٦٣٨ ، أغارت الجيوش الإسلامية على الإسكندرية ، ويذكر المؤرخون أن أقباط مصر ، رحبوا بقدوم المسلمين ، لكى يخلصوهم من عنت الرومان وظلمهم واضطهادهم ، الذى كان سببه ما بين الأقباط والرومان من اختلافات عقائدية ، إذ كان القبط يؤمنون بأن المسيح أقنوم ذو طبيعية واحدة ، بينما كان أباطرة الرومان عموماً ، يناصرون العقيدة التى أقرها مجمع خلقيدونية (٤٥١ م .) ، والقائلة بأن المسيح أقنوم واحد ذو طبيعتين .

وبعد استيلاء العرب على مدينة الإسكندرية ، صار فى مقدورهم القيام بحملات بحرية ، فحاصروا القسطنطينية ما يقرب من سبع سنوات (٦٦٨ – ٦٧٤) ، غير أنهم لم يتمكنوا من الإستيلاء عليها . وظلت القسطنطينية عاصمة للامبراطورية الشرقية ، إلى أن وقعت فى يد الأتراك فى عام ١٤٥٣ ، وكان هذا خاتمة عهدها بالكرسى البطريركى التاريخى .

وفى عام ٧٠٣ ، سقطت قرطاجة فى أيدى العرب ، وبسقوطها خضعت لهم دولة الفانداليين فى شمال أفريقية .

وفى عام ٧١١ ، عبر المسلمون البحر إلى أسبانيا فاكتسحوها وكادت جيوشهم تتخطى نهر اللوار فى فرنسا ، لكى تجتاح دولة الفرنجة فى الغرب ، وتقضى عليها ، كما قضت من قبل على نفوذ دولة الروم فى الشرق .

غير أن قوات الفرنجة ، بقيادة « كارل مارتل » ، تصدت لهم ، وفى عام ٧٣٢، قامت بين الفريقين معركة فاصلة بالقرب من مدينة تورز ، وفى هذه المعركة ، رجحت كفة قوات الفرنجة ، التى تمكنت من صد القوات المهاجمة ، وهكذا ، جنبوا الكنيسة فى بلاد الغرب ، مواجهة المصير الذى واجهته الكنيسة فى الشرق .

الكنيسة الصامدة فى الغرب :

يعوزنا الوقت إن شئنا أن نصف ما آلت إليه الأوضاع فى ربوع الإمبراطورية الرومانية الغاربة ، تلك الإمبراطورية التى نكست أعلامها ، وانطوت بانطوائها ، حضارة زاهرة ، وثقافة باهرة ، إنسحبت ، ليحل محلها ، عصر اتسم بالفوضى والخراب الضارب الأطناب .

فنى أوربا الغربية بالذات ، لم تكن هناك فى ذلك الوقت ، قوة مدنية تستطيع أن تحافظ على الأمن ، وتصون النظام ، وتحمى الحضارة . فكل الممالك التى أقامتها القبائل الهمجية ، التى اكتسحت دول أوربا الغربية ، تلك الممالك ، لم ترق إلى مستوى الدول المتحضرة ، أو الأنظمة المستقرة ، لأن حكامها ، كانوا يقيمون حكمهم ، على أساليب البطش والقهر والإذلال ، الأمر الذى تعذر معه قيام حكومات نظامية تستند إلى حكم وسيادة القانون .

لكن فى هذه الفترة ، التى نكس فيها النسر الرومانى أعلامه ، بقى علم واحد مرفوع ، يرفرف فوق الرؤوس ، ذلكم هو علم الصليب ، ظل مرفوعاً بيد الكنيسة ، التى بقيت بمفردها فى الساحة صامدة ، تواجه العاصفة بثبات ، يتضاءل أمامه ثبات الرواسى الرواسخ .

وفى خلال فترة الخراب والدمار الذى حل بروما على أيدى الغزاة ، وعدم وجود سلطة زمنية ترعى شئون المواطنين ، وتقدم العون للمنكوبين والمشردين ، كان البابا لا يألو جهداً فى العمل على تخفيف آلام رعاياه ، ويحثهم على التجلد والثبات فى مواجهة الآلام ، وتحملها بشجاعة ورسوخ فى الإيمان . فاتجهت أبصار الناس إلى الكنيسة ، وإلى البابا ، كالملجأ والملاذ .

وكما فتحت الكنيسة أحضانها لرعاياها ، مدت يدها أيضاً إلى الغزاة ، وتمكنت من احتوائهم ، فقبلت جحافل الجرمان المسيحية ديناً ، وبدلا من مهاجمتها وتخريب منشئاتها ، أصبح هؤلاء الغزاة حراسها ، وحماتها ، والمدافعين عنها .

وكان للفراغ السياسى الذى نتج عن خلو رومية من العرش الإمبراطورى بعد تخلى الإمبراطور « رومولس أغسطولس » عنه فى عام ٤٨٥، كما سلفت الإشارة ، هذا الفراغ السياسى ، وجدت فيه الكنيسة فرصة سانحة ، للتحرر من الكثير من القيود . لأنه فى خلال تلك الفترة ، كانت رومية تابعة للعرش الإمبراطورى الشرقى فى القسطنطينية ، ونظراً لبعد الشقة ، لم يكن من الميسور أن يستمر الإشراف الإمبراطورى على الكنيسة .

وإبتداء من عهد الإمبراطور « قسطنطين بوجوناتوس» (٦٦٨–٦٨٥)، إنتهى تدخل الإمبراطور فى موضوع اختيار البابوات وتعيينهم ، كما تم إعفاء البابوات من دفع الجزية لخزينة الدولة ، ثم لم تلبث الأوضاع أن تغيرت ، وأصبح أمراء المقاطعات هم الذين يدفعون الجزية للبابا . وقد حدث أن امتنع « فيلكس » حاكم راڤنا ، عن دفع الجزية التى طلبها منه البابا « قسطنطين » (٧٠٨ – ٧١٥) ، فأرسله إلى القسطنطينية ، حيث حوكم أمام الإمبراطور « يوستينيان الثانى » ، الذى اعتبره خارجاً على القانون ومتمرداً ، وأصدر حكمه عليه ، بأن تقلع عيناه ، ولم يكتف الإمبراطور بهذا ، لكنه أتبع حكمه بأن قدم بنفسه فروض الطاعة والولاء للبابا .

وعندما قام اللومبارديون بطرد الوالى الرومانى من راڤنا ، وجد البابا أنه من غير المجدى أن يطلب الحماية من الامبراطور ، الذى كان فى ذلك الوقت مشغولا بمواجهة الغزو الإسلامى .

وكان البابا « اسطفانوس الثانى » ، رجلا حكيما يزن الأمور بميزان دقيق ، فلجأ إلى ملك الفرنجة الصاعد « ببين » ، الذى أفلح فى طرد اللومبارديين من راڤنا ، وأعادها إلى دائرة نفوذ الإمبراطور الرومانى .

إمبراطورية شارلمان (٧٦٨ – ٨١٤) :

عندما توفى ملك الفرنجة « ببين » فى سنة ٧٦٨ م ، خلفه فى الحكم ابنه « شارلمان » وكان يشترك معه فى الحكم أخوه الأصغر « كارلومان » ، الذى مات فى عام ٧٧١ ، فانفرد وحده بالحكم ، وكان اسمه « تشارلس » .

وقد خضعت له كل الأمم الجرمانية ، وكانت كلها مسيحية إسما . ولما كانت قبائل السكسونيين القاطنين على الساحل الشمالى الشرقى ما تزال وثنية ، شن عليهم الملك « شارلمان » فى عام ٧٧٧ ، حرباً دينية لإرغامهم على إعتناق الدين المسيحى ، وقد استمرت تلك الحرب فترة طويلة ، هرب فيها من هرب ، وأرغم الباقون على الدخول فى المسيحية ، وبدلا من الأسر التى هربت بأكملها إلى الشمال ، قام الملك بتوطين آخرين مكانهم ، ممن يدينون له بالولاء ، لتعمير المناطق التى خلفها وراءهم أولئك الوثنيون الهاربون .

وقد حقق « شارلمان » العديد من الإنتصارات ، وامتد حكمه من شواطىء الألب فى ألمانيا ، حتى بلغ إبرو فى شمال أسبانيا ، ومن الساحل الغربى للمحيط الأطلنطى ، إلى ما وراء فيينا شرقا ، وقد ضمت مملكته كذلك منطقة شمال إيطاليا .

وتميز « شارلمان » بقوة وحكمة بالغتين ، فى إدارة دفة الحكم فى مملكته المترامية الأطراف . ولأول مرة بدأت طلائع النور زحفها من جديد ، وراحت تطارد جحافل الظلام الفكرى ، التى كانت قد بسطت سحائبها على أوربا الغربية ، منذ بدء الغزو البربرى لها . إذ راح ذلك الرجل العظيم ، يشجع رجال العلم على أداء رسالتهم ، فى تثقيف

العقول ، كما شجع حركة تشييد الكنائس ، والأديرة ، والمدارس الملحقة بها .

وكان « شارلمان » مسيحيا ، وقد استخدم نفوذه فى نشر الدين المسيحى ، وتشجيع المعلمين المسيحيين ، وتسهيل مهمتهم فى نشر التعاليم المسيحية . لكن يؤخذ عليه ، أنه شن عدة حروب لإرغام الوثنيين على إعتناق المسيحية ، لأنهم دخلوها مرغمين لا مؤمنين ، فاحتفظوا بعقائدهم وعوائدهم الوثنية ، الأمر الذى أدى بمرور الزمن ، إلى دخول هذه الشوائب ، إلى العقيدة المسيحية ، والتصاقها بها ، والذى حمل الكنيسة فيما بعد الكثير من المشقات .

البابا يتوج « شارلمان » إمبراطوراً (٨٠٠ م)

وكحاكم مسيحى لغرب أوربا ، لم يكن لشارلمان ، بد من إقامة علاقات مع البابا ، باعتباره رأس الكنيسة الغربية ، وقد نهج فى هذا الطريق ، فى خطوات والده « ببين » ، الذى كان قد مهد له السبيل ، لإقامة مثل هذه العلاقة ، عندما استجاب لنداء البابا ، وقام بطرد جحافل البرابرة الوثنيين التى كانت تهدد رومية . وقد مد « شارلمان » يد العون للباباوات فى عصره .

وفى يوم الإحتفال بعيد الميلاد المجيد ، فى سنة ٨٠٠ م ، وبينما كان « شارلمان » يشترك فى الاحتفال بالعيد فى رومية ، قام البابا « ليو الثالث» بوضع تاج من ذهب على رأسه ، وقد كان لهذا التتويج صداه الطيب فى نفوس الناس ، الذين راحوا يعلنون ترحيبهم بالإمبراطور الجديد ، الذى اعتبر خلفا للقياصرة القدامى ، كما اعتبر تتويجه بعثا للامبراطورية الرومانية

تلك الإمبراطورية التى كان لها تأثيرها العميق فى نفوس الشعوب فى دول غرب أوربا ، الذين لم يكن يخطر فى بالهم على الإطلاق ، أن تقوم إمبراطورية أخرى ، غير تلك الإمبراطورية العريقة .

وتعبيراً عن ارتباطه بالكرسى البابوى ، اعتبر « شارلمان » مدينة رومية واحدة من عواصم إمبراطوريته

لكن تلك الإمبراطورية فى حقيقتها ، كانت إمبراطورية جرمانية ، لأن جميع الذين جلسوا على عرشها ، كانوا من الجرمان ، لا تربطهم بالرومان صلة ما ، رغم أنها كانت تدعى الإمبراطورية الرومانية .

وبعد موت « شارلمان » ، تم تقسيم الإمبراطورية بين أحفاده إلى ثلاث ممالك ، وهكذا سقطت الإمبراطورية الرومانية مرة أخرى ، لكن إلى حين .

الإمبراطورية الرومانية المقدسة :

فى القرن العاشر الميلادى ، قام ملك جرمانى عظيم ، هو الملك « أتو الأول » ، بتأسيس الإمبراطورية الجرمانية من جديد ، وكانت تضم سويسرا وشمال ووسط إيطاليا .

وقام البابا بتتويج الإمبراطور فى سنة ٩٦٢ م ، وبهذا تم إحياء إمبراطورية « شارلمان » ، غير أن الإمبراطورية الجديدة ، حملت اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وكانت هذه الإمبراطورية هى القوة السياسية الرئيسية والمؤثرة ، طوال فترة العصور الوسطى ، واستمرت كذلك حتى عام ١٨٠٦ م ، رغم أنها كانت قد بدأت تتداعى وتنهار ، بعد إنتهاء القرن الثالث عشر الميلادى .

وقد سميت بالإمبراطورية الرومانية ، باعتبارها استمراراً للقوة التى كانت تمثلها الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وهذا هو عين السبب ، الذى أدى إلى إطلاق هذا الاسم ذاته من قبل ، على إمبراطورية « شارلمان » .

أما تلقيبها بالمقدسة ، فيرجع إلى اعتبارها إمبراطورية ذات صبغة دينية . وكان الناس يعتبرون أن ملكوت الله فى العالم له ممثلان ، أحدهما هو الإمبراطور ، وسلطانه يمتد إلى كافة الشئون السياسية والزمنية ، والآخر هو البابا ، الذى يمتد سلطانه إلى الشئون الروحية والأبدية . وتبعاً لهذا ، كانوا يعتبرون أن كلا من الإمبراطورية والكنيسة ، تضم الناس أجمعين ، مع أن الحقيقة كانت خلاف ذلك ، لأنه كانت فى أوربا الغربية ، مناطق غير خاضعة لسلطان الإمبراطورية .

وعلى هذا الأساس ، كان الاعتقاد السائد ، هو أن المجتمع البشرى يجب أن يخضع لسلطان هذين النظامين المقدسين . ومن الواضح الآن ، أن هذا الاعتقاد كان خاطئاً ، لأنه من المتعذر تقسيم السلطة بالقسط ، بين حاكمين متساويين هما البابا والإمبراطور ، لأنه لابد أن تستأثر إحدى السلطتين (الإمبراطورية أو الكنيسة) ، بقدر أوفر من السلطة ، وتكون لها السيادة على الأخرى . وسنرى فيما بعد ، كيف لعبت هذه الحقيقة دوراً خطيراً على مسرح الأحداث ، فى مراحل تالية من تاريخ الكنيسة .

الإمبراطورية الشرقية :

فى هذه الفترة الحافلة بالأحداث ، والتى شهد فيها الغرب الكثير من التغيير ، كانت الإمبراطورية الشرقية تمارس سلطانها من القسطنطينية ، وكان أباطرتها يعلنون أنهم دون سواهم ، خلفاء الحكام الرومان ، والوارثون

وحدهم لعرش الإمبراطورية الرومانية ، كما كانوا ينكرون على الحكام الجرمان فى الغرب ، أى من حق حقوق السيادة والحكم .

لكن هذه الإمبراطورية – الشرقية – كانت قد فقدت الكثير ، بسبب الفتوحات الإسلامية ، التى استولت على الكثير ، من المناطق التى كانت خاضعة لهذه الإمبراطورية فى كل من آسيا وأفريقية ، إلا أنها رغم ذلك كله ، ظلت فترة طويلة ، حاجزاً يحد من إمتداد الغزو الإسلامى إلى أوربا ، بسبب مقاومتها المستمرة لهذا الغزو ، فى المناطق التابعة لها ، فى بلدان شرق أوربا .

٢

الزحف المقدس

[بعثات تبشيرية الى انجلترا ــ بعثات تبشيرية الى المانيا ــ بعثات تبشيرية الى الدنمرك والسويد ــ انسكار ــ بشارة الانجيل فى النرويج وايسلندة وجرينلاند ــ المسيحية تدخل الى جنوب شرق أوربا ــ المسيحية تدخل الى روسيا ــ المسيحية تدخل الى هنغاريا وبلدان الشرق الأقصى] .

بعثات تبشيرية إلى إنكلترا :

عندما اجتاح الأنجلو سكسون الوثنيون إنكلترا ، طردوا إلى الأجزاء الغربية من الجزر البريطانية ، كثيراً من سكانها الأصليين (البريطانيين) ، وهؤلاء حملوا معهم عقيدتهم المسيحية ، التى كانت قد نمت وترعرعت ، وبلغت حداً بالغاً من القوة ، وكانت المسيحية قد دخلت إلى الجزر البريطانية ، فى القرن الثالث الميلادى .

لكن هؤلاء الغزاة ، واجهوا غزوا من طراز آخر ، لم يستطيعوا الصمود أمامه ، وأعنى به الغزو المسيحى ، مع أنه كان غزوا سلميا . وقد جاء هذا الغزو إلى بريطانيا من مصدرين :

فمن روما ، أرسل البابا « غريغوريوس الأول » إلى إنكلترا ، بعثة قوامها أربعون راهباً برئاسة « أغسطينوس » ، الذى كان رئيساً لأحد الأديرة الرومانية . وفى أعقاب هذه البعثة ، وفدت على بريطانيا بعثات تبشيرية أخرى .

وكان « أغسطينوس » أول واحد ، يشغل منصب رئيس أساقفة إنكلترا ، وقد إتخذ كنتربرى مقراً له . ثم بعد ذلك أقيم مركز مسيحى آخر فى يورك ، فى شمال إنكلترا .

وكانت أسكتلندا هى المصدر الثانى ، الذى وفدت منه البعثات التبشيرية إلى إنكلترا . وقد لعب الرهبان الاسكتلنديون ، الدور الأكبر ، فى توصيل الرسالة المسيحية إلى بلاد الإنكليز ، وكان هؤلاء قد جاءوا من أيونا وإيرلندا ، فى بكور القرن السابع الميلادى .

وفى عام ٦٣٥ م ، أسس هؤلاء الرهبان ديراً ، أصبح فيما بعد مركزاً للارساليات وبعثات التبشير . وقد تأسس هذا الدير ، فى جزيرة لندسفارن ، على ساحل يوركشير ، ومن هناك إنطلق الرهبان ، حاملين بشارة الإنجيل ، إلى كل الربوع ، وكان الأهالى يحبونهم ، ويحترمونهم ، ويرحبون بهم كلما تقابلوا معهم ، كما كانوا يلتمسون منهم البركات . وهؤلاء الرهبان كانوا يعقدون الندوات ، وكانت الجماهير تحيط بهم لتسمع منهم ، لاقتناع هذه الجماهير ، بأن هؤلاء الرهبان مخلصون فى خدمتهم ، وأنهم لا يبغون من وراء خدمتهم ، الحصول على أى مغنم شخصى ، وإنما كل غايتهم ، أن يوصلوا للناس رسالة الإنجيل ، وقيادتهم للحصول على الخلاص . ودون أى ملل أو كلل ، كان هؤلاء الرهبان ، يقومون بزيارة المرضى ، ويعمدون المتجددين ، وهؤلاء فى الحقيقة ، هم الذين ربحوا الشعب البريطانى للمسيح .

وهكذا وجد فى إنكلترا نوعان من المسيحية ، المسيحية الرومانية ، والمسيحية الأسكتلندية ، وكان كل نوع منهما يختلف عن الآخر اختلافاً طفيفاً فى بعض العوائد الدينية . ويتلخص هذا الاختلاف فى أن المبشرين

الرومان ، أعلنوا لأتباعهم ، أنهم ملتزمون بالخضوع لسلطان بابا رومية ، بينما لم يخضع لهذا السلطان ، أولئك الرهبان القادمون من اسكتلندا ، الذين لم يكن هناك ما يربطهم بروما .

وقد وقع صدام بين الفريقين ، وفى عام ٦٦٤م ، عقد مجمع تقرر فيه ، أن تخضع الكنيسة الإنكليزية لسلطان بابا رومية ، وربما كان الملك « أزوى » ، هو الذى لعب الدور الرئيسى ، فى إتخاذ هذا القرار .

وحوالى نهاية القرن السابع الميلادى ، كانت كنيسة إنكلترا قد تم تنظيمها ، بمعرفة « تيودور الطرسوسى » ، رئيس أساقفة كنتربرى آنذاك ، ومنذ ذلك الحين ، أضحت المسيحية ديانة الغالبية العظمى من سكان تلك البلاد .

بعثات تبشيرية إلى ألمانيا :

وكأنما أرادت إنكلترا أن ترد الجميل ، وتشرك غيرها معها فى التمتع ببركات الإنجيل ، فأرسلت كنيستها الإرساليات والبعوث ، التى ضمت عدداً من أنبل الشخصيات . ومن أعظم مبشرى هذا العصر على الإطلاق ، فنذكر « بونيفاس » ، الذى حمل بشارة الإنجيل إلى ألمانيا .

بونيفاس (٦٨٠ - ٧٥٥ م)

وهو من مواليد ديفونشير ، وكان أبواه من نبلاء القوم ، وقد إندرج فى سلك الرهبنة ، واشتهر بعلمه الغزير وإطلاعه الواسع ، فضلا عن صلاحه وتقواه .

وفى سن مبكرة ، اقتنع بأن الله يدعوه ، للقيام بحمل بشارة الإنجيل ،

وتوصيلها إلى الجرمان . ولم تنفع معه توسلات أصدقائه ، الذين حاولوا أن يثنوه عن عزمه ، وقد توسم فيه هؤلاء علو الهمة ، وكانوا يتنبأون له بمستقبل باهر ومركز مرموق فى وطنه .

بعد ذلك تقدم إلى البابا ، طالبا منه أن يرسله إلى ألمانيا ، وقد عمل هناك بجد ونشاط ، وربح منطقة جنوب ألمانيا للمسيح ، وأسس فيها نظاما من أروع الأنظمة الكنسية ، وأسس العديد من المدارس والأديرة .

وكعادة المبشرين فى فترة العصور الوسطى ، شن « بونيفاس » هجوماً عنيفاً على العبادة الوثنية ، مناديا للوثنيين ، بأن آلهتهم التى يعبدونها ، ليست آلهة على الإطلاق .

ومن القصص الطريفة والشهيرة ، أنه مر بقوم يعبدون شجرة مقدسة للاله « أودين » ، وفيما هم ملتفون حول تلك الشجرة ، يقومون بطقوس عبادتهم ، تمهيداً لتقديم ذبيحة بشرية ، يسترضون بها هذا الإله ، إذا به بين خوف القوم وذهولهم ، يتقدم وفى يده فأس ، ثم يقوم بقطع الشجرة ، وانتظروا أن يقتحمه إلههم ويقضى عليه ، إلا أنه لم يصب بأدنى أذى . وبهذه الطريقة أفلح « بونيفاس » ، فى تحرير هؤلاء الناس من عقائدهم الوثنية ، وضمهم إلى حظيرة المسيحية .

وقد نجح فى تجنيد كثيرين من الرجال والنساء للعمل معه ، وتمت سيامته أسقفاً على منز ، وأصبح رئيساً للكنيسة فى ألمانيا .

بعد ذلك كلفه البابا « زكريا » بإصلاح الكنيسة فى فرنسا ، وإعادة تنظيمها ، وقد حقق نجاحا كبيراً فى القيام بهذه المهمة .

وإذ بلغ « بونيفاس » الرابعة والسبعين من عمره ، طلب إعفاءه من كافة مناصبه . إلاأنه راح يواصل عمله كواعظ متواضع بين الفرزيين ، وهم جماعة من المتوحشين ، كانوا يقيمون عند مداخل الراين ، لكنهم إنقضوا عليه وقتلوه ، فأحرز بذلك إكليل الشهادة .

بعثات تبشيرية الى الدنمرك والسويد :

فى الوقت الذى كان فيه أهل الشمال ، يقومون بأعمال السلب والنهب فى بلاد أوربا الساحلية ، قابلت الكنيسة هذا الهجوم بهجوم آخر مضاد ، وكان الإنجيل هو سلاحها ، الذى أرسلته إليهم فى عقر دارهم .

أنسكار (٨٠١ – ٨٦٤م)

وهو رجل فرنسى من أصل شريف ، وواحد من رهبان دير كوربى الشهير ، وكان صدره يجيش بشوق عارم ، للعمل بين الوثنيين .

وقد واتته الفرصة لتحقيق أمنية حياته ، عندما طلب ملك الدنمرك من الإمبراطور « شارلمان » ، أن يوافيه بمرسل يحمل إلى بلاده بشارة الإنجيل ، فوقع الاختيار على « أنسكار » ، الذى مضى إلى هناك ، ومعه مجموعة محدودة من الرفاق ، وبدأوا بداية طيبه ، ونجحوا فى خدمتهم أيما نجاح ، ويعزى هذا النجاح ، إلى ما كان يتمتع به « أنسكار » من قوة معجزية . ومما يؤثر عنه قوله : « أنا لا أطلب غير معجزة واحدة ، هى أن يتولانى الرب بنعمته ، ويجعل منى إنساناً صالحاً . وقد إنتقل هذا الرجل العظيم إلى السماء ، فى عام ٨٦٥ ، وكانت أمنية حياته ، أن يظفر بإكليل الشهادة ، ويذكر كاتب سيرته « رمبرت » ، أنه قبل إنتقاله أعلن له الرب فى رؤيا ، أن تكريس الحياة تماماً للرب ، لا يقل بحال عن التضحية بالنفس ، وتحمل آلام الإستشهاد فى سبيل الخدمة .

وقد واصل رفيقه « رمبرت » ومعه آخرون ، خدمتهم فى السويد ، وحققوا نجاحا كبيراً حتى عام ١٠٧٥ م ، إذ صدر إعلان رسمى من ملك السويد ، يتضمن إتخاذ « ثور » و « أودين » ، إلهين يتعهد لهما أهل البلاد ، فكان هذا القرار الصخرة التى تحطمت عليها خدماتهم .

فى نفس الوقت ، قام « هارولد » ملك الدنمرك ، بإصدار مرسوم ملكى ، باعتبار المسيحية دينا رسميا لبلاده ، رغم أنه حوالى نهاية القرن ، عاد ابنه « سوين » إلى الديانة الوثنية ، ويذكر المؤرخون أنه إعتنق المسيحية قبل وفاته .

وقد خلفه على العرش ابنه « كانيوت » ، وقد أعلن هذا الملك العظيم ، أنه لن يدين بغير المسيحية ، ومنذ ذلك التاريخ ، أصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية للدنمرك ، وقد حققت بعد ذلك إزدهاراً عظيما دون أى تراجع .

بشارة الإنجيل فى النرويج وأيسلنده وجرينلاند :

ويقال إن بشارة الإنجيل ، قد وصلت إلى النرويج من إنكلترا ، وأنها قدمت أولا فى بلاط الملك ، غير أن رعاياه اضطروه إلى الاستمرار فى العبادة الوثنية التى ظلت ديانة البلاد الرسمية ، حتى اعتلى عرش الدنمرك الملك « هارولد » (٩٦٢) ، الذى أخضع النرويج لحكمه ، وأفسح المجال لإعادة تقديم بشارة الإنجيل ، وأرغم أهل النرويج على إعتناق المسيحية ، وكان هناك صراع دام حتى جلس على عرش البلاد ، الملك « أولاف المقدس » ، وكان قد قبل المعمودية فى (١٠١٧) ، فأرغم رعاياه على إعتناق المسيحية ، ويذكر المؤرخون ، أنه حيثما ذهب ، فى طول البلاد وعرضها ، كان يعقد المؤتمرات ، ويطالب رعاياه بقبول الإيمان الحقيقى ،

والمعمودية ، فاستجاب الناس لأوامره ، ولم يكن هناك من يجسر على التعرض بكلمة واحدة ، للديانة المسيحية .

ومن النرويج ،خرجت البعثات التبشيرية متجهة إلى أيسلنده ، وقدموا للناس العقيدة المسيحية كما كان يفهمها الملك « أولاف » ملك النرويج ، وقام هؤلاء المبشرون بتشييد العديد من الكنائس والأديرة التي حازت شهرة فائقة فيما بعد .

وحوالى سنة ١٠٠٠ م ، صدر قرار يلزم سكان أيسلنده باعتناق المسيحية ، وقبول المعمودية ، وكانت هذه نهاية للعبادة الوثنية فى تلك البلاد . ورغم شبهة القهر والإعنات التى تحيط بهذا القرار ، يبدو أنه كان بداية لإشعاع روحى عم البلاد ، وأنار حياة أهلها بنور الإنجيل .

ومن النرويج وأيسلنده ، إنتقلت بشارة الإنجيل إلى كل جزر الشمال ، حتى بلغت شواطىء جرينلاند .

المسيحية تدخل إلى جنوب شرق أوربا :

وسكان هذه المناطق ، هم من الشعوب السلافية ، وقد وصلتها بشارة الإنجيل ، عن طريق الكنيسة الشرقية . وحمل تلك البشارة إليهم أخوان من تسالونيكى ، هما « كيرلس » و « ميثوديوس » ، وكان « كيرلس » أصغر الأخوين ، يشغل منصب أستاذ للفلسفة فى القسطنطينية ، ولكنه ذهب فى زيارة لشبه جزيرة القرم ، بناء على طلب الإمبراطور « مايكل الثانى » (٨٦٠) ، الذى أرسل فى طلب معلم مسيحى ، يستطيع أن يدافع عن الإيمان الحق ، وقد وقع اختياره على « كيرلس » ، الذى اصطحب معه أخاه ، وقد استقرا فى مدينة تشرسون فترة ، تعلما فيها لغة أهل البلاد ،

بعد ذلك بدأ يمارسان خدمة ناجحة مثمرة ، فأعلن الحاكم إعتناقه للمسيحية ، وهكذا إنفتح الطريق لهذين الأخوين ، لتقديم بشارة الإنجيل بكل حرية :

وبعد فترة قضياها فى القسطنطينية ، عاد الأخوان إلى الخدمة التبشيرية فى موراڤيا وبلغاريا . وقد وضع « كيرلس » أبجدية سلافية ، وقررا بعد ذلك أن ينقلا كتاب الصلوات إلى تلك اللغة ، غير أن الأمر كان غريباً ، لأن ثلاث لغات فقط هى وحدها التى كانت تعتبر مقدسة ، هذه اللغات هى العبرية واليونانية واللاتينية ؛ واستخدام لغة أخرى فى العبادة ، كان أمراً غير مباح ، فسافر الأخوان للمثول أمام البابا « نيقولاوس » واستشارته فى الأمر ، وقد مات البابا قبل وصولهما إلى رومية ، وخلفه على الكرسى البابوى البابا « هادريان الثانى » . الذى رحب بهما ، وتقول الأساطير ، إنه فى خلال المناقشات التى كانت دائرة حول هذا الموضوع ، سمع المجتمعون صوتا من السماء يقول : « ليسبح الرب كل حى » ، فقر قرار الجميع على أن يمضى الأخوان فى ترجمة كتاب الصلوات ، وبارك البابا هذا العمل الجليل :

وقد وقع الاختيار على « كيرلس » ، ليكون أسقفا ، لكن المنية لم تمهله ، فمات وهو فى الثانية والأربعين من عمره .

أما أخوه « ميثوديوس » ، فقد عين رئيساً لأساقفة مورافيا وبانونيا (هنغاريا) . ومع أنه وجد صعوبة كبرى فى تدبير الأمور ، فى تلك المنطقة المترامية الأطراف ، إلا أنه استطاع أن يؤسس فى بوهيميا كنيسة صارت فيما بعد من أشهر الكنائس فى تاريخ المسيحية .

وقد توفى فى عام ٨٨٥ م، بعد أن أسس العديد من الكنائس فى جميع الممالك السلافية فى جنوب أوربا .

أما قصة دخول المسيحية إلى بلغاريا ، فإنها قصة طريفة . ففى بكور القرن التاسع ، سطا الوثنيون القاطنون فى تلك البلاد ، على إقليم من الأقاليم اليونانية ، وسبوا الكثيرين من سكان ذلك الإقليم. وكان بين هؤلاء المسبيين ، أسقف الكنيسة ، الذى اتفق مع رفاقه على تبشير آسريهم . وكانت أخت « بوجوريس » ملك بلغاريا ، قد اختطفت فى فترة مبكرة من حياتها ، مع مجموعة من السبايا ، وقضت معهم فترة من الزمان فى القسطنطينية ، حيث تلقنت بعضاً من التعاليم المسيحية ، وبعد عودتها حاولت هداية أخيها ، لكن محاولاتها ذهبت أدراج الرياح ، غير أن مجاعة شديدة حدثت بعد ذلك ، كان لها تأثير كبير عليه . وكان « كيرلس » و « وميثوديوس » قد قاما بزيارة بلغاريا من قبل وهما فى الطريق إلى مورافيا ، وقد تركت زيارتهما أثراً طيبا هناك . ويبدو أنه كانت هناك علاقة ما بين ملك بلغاريا والإمبراطور الجرمانى، كل هذا لم يذهب سدى، فقد أعلن « بوجوريس » أنه قد آمن بالإنجيل، وقبل المعمودية، وفى المعمودية أعطى اسم « مايكل » ، على اسم الإمبراطور اليونانى « مايكل الثالث » .

وكانت الخطوة التالية ، هى إرغام الشعب البلغارى على اعتناق المسيحية ، على غرار ما كان يفعله جميع الملوك والحكام فى العصر ، وبعد مقاومة عنيفة راح ضحيتها العديد من السكان ، إنتهى الأمر بقبول المرسوم الملكى والدخول إلى المسيحية ، لكن مسيحيتهم كانت بالاسم فقط . غير أن الملك لم يكتف بهذا ، بل أظهر غيرته فى إصراره على تقديم التعليم المسيحى للشعب ، ليصبحوا على علم بعقيدتهم وحقائق إيمانهم ، قد طلب

من القسطنطينية معلمين مسيحيين يقومون بهذه المهمة . وبناء على طلبه ، أرسلت الكنيسة الشرقية رئيس الأساقفة على رأس وفد مكون من عشرة من الأساقفة . وهكذا أصبحت بلغاريا تابعة للكنيسة الشرقية .

المسيحية تدخل إلى روسيا :

وكان التجار والأسرى هم أول من غرس بذار الإنجيل فى تربة تلك البلاد . والبطريرك « فوتيوس » يخبرنا بأن المسيحية بدأت تأخذ طريقها إلى بلاد الروس حوالى عام ٨٦٦م . وقبل إنتصاف القرن العاشر كانت قد تكونت فى روسيا جماعة مسيحية ناهضة .

والعامل الفعال الذى كان له أثره فى توسيع نطاق البشارة بالإنجيل فى تلك البلاد ، وكسبها للمسيح ، هو « أولجا » تلك الأميرة الأرملة ، التى حكمت روسيا عندما كان أبنها « سواتسولاف » فى سن لا تؤهله لتصريف شئون البلاد ، لكن إبنها لم يعرها أذنا صاغية ، ولم ينصت إلى تعاليم المسيحية التى كانت تقدمها له . غير أنه عهد إليها بالعناية بابنه « فلاديمير » الذى كان متفتح العقل على النقيض من أبيه .

وبعد اعتلائه العرش فى عام ٩٨٠ م ، وفد على البلاد ممثلون للعديد من الأديان ، كل منهم راح يعرض عليه عقيدته . فجاءه فى البداية مسلمون من الفولجا ، ثم جاء بعدهم ممثلون للكنيسة الغربية من البابويين وربما أيضاً جاءه ممثلون للكنيسة البولسية . وفى أعقابهم جاءه ممثلون للدين اليهودى ، وبعد أن قدم كل فريق من هؤلاء ما عنده ، لم يجد أى فريق منهم تجاوبا من « فلاديمير » .

بعد ذلك جاء فيلسوف يونانى ، راح يحدث الإمبراطور عن قصة

للوجود منذ خلق العالم وحتى نهاية الزمان ، وقد نشر فى يده لوحة تمثل منظر الدينونة فى اليوم الأخير . وفى اللوحة جماعة من الناس يدخلون الجنة ، وكان منظرهم رائعاً ، يبعث فى النفس الراحة والسرور ، بينما كانت مجموعة أخرى من الناس يتساقطون فى هوة الجحيم .

وبعد ما تأمل فلاديمير اللوحة ، صاح قائلا « طوبى لهم أهل اليمين ، ويا لشقاء هؤلاء الذين يقفون على اليسار ، لأن مأواهم جهنم وبئس القرار ، فقال له الفيلسوف على الفور : « إن قبلت المعمودية أيها الملك ، ستصبح فوراً من أهل اليمين السعداء » . فأجابه الملك « اتركنى لأفكر » .

بعد ذلك أرسل «فلاديمير » مندوبين وسفراء إلى مختلف المراكز الدينية المسيحية ، وبعد أن فحصوا ومحصوا ، انتهوا إلى تفضيل الكنيسة الشرقية على من عداها ، إذ بهرهم منظر كنيسة أياصوفيا بمشاعلها وأضوائها ، حيث كان رجال الدين ، يحتفلون بأحد الأعياد ، وكان منظرهم رائعاً فى ثيابهم البيضاء ، التى كانت كأجنحة الملائكة على أكتافهم ، فبدوا وكأنهم جماعة من الأجناد السماوية قد هبطت على الأرض ، كما أعجبوا بتسبحاتهم وصلواتهم ، فعادوا وقدموا تقريرهم للامبراطور ، فقبل المعمودية بحسب طقس الكنيسة الشرقية ، وكان عماده فى عام ٩٨٠ م ، وعند عماده أعطى له اسم « واسيلى » . ثم تزوج من الأميرة اليونانية «أنا» ، أخت الإمبراطور « باسيل الثانى » .

وبعد ذلك أمر بتحطيم الأصنام التى كان يعبدها الروس ، وأصدر أوامره بأن يعتمد كل الشعب ويدخلوا إلى المسيحية ، وكانت مسيحيتهم إسمية ، خاصة وأنه لم يتم إنشاء المدارس اللازمة لتعليم كل هذه الأعداد .

وسرعة إنتشار المسيحية فى روسيا من الظواهر الملحوظة ، ويبدو أن هذا كان راجعاً إلى عدة عوامل أهمها ، أنه كان هناك تآلف بين العنصر السلافى الذى كان ينتمى إليه سكان روسيا ، والعنصر السكندنافى الذى كان ينتمى إليه حكامهم ، هذا التآلف العنصرى ، أوجد نوعا من التآلف الدينى ، فلم يحدث شيء من المعارضة أو المصادمات التى حدثت فى بقاع أخرى . كما أن الله كان قد رتب لهؤلاء القوم ، ذلك العمل الذى قام به « كيرلس » و « ميثوديوس » ، اللذين ترجما العهد الجديد إلى لغة أهل البلاد قبل ذلك بنحو قرن من الزمان . وكان هذا إمتيازا خاصاً تمتعت به تلك البلاد وحدها ، على عكس ما كان شائعا آنذاك ، حيث كان اللغة اللاتينية هى لغة العبادة الرسمية الوحيدة فى كل مكان .

المسيحية تدخل إلى هنغاريا وبلدان الشرق الأقصى :

وقد وصلت رسالة الإنجيل إلى أهل هنغاريا أيضاً من القسطنطينية حيث حملها إليهم « جيلاس » ، الذى كان فى زيارة للقسطنطينية فى عام ٩٤٨م وهناك قبل المعمودية . وعند عودته إلى بلاده ، صحب هذا الزعيم معه الأسقف « هيروثيوس » . وقد تزوجت ابنة « جيلاس » هذا ، بالأمير جيساً ، وكانت إمرأة مسيحية حقاً ، فاستطاعت أن تجعله يعطف على المسيحية ، أما إبنهما « ويك » (Waik) ، فقد ربته تربية مسيحية ، وهو المعروف باسم « استفانوس » ، وقد اعتلى العرش فى الثامنة عشرة من عمره ، وظل يحكم فترة طويلة (٩٩٧– ١٠٣٨م) ، عمل خلالها على نشر الإيمان المسيحى بحسب طقس الكنيسة الشرقية ، وأقام العديد من الأديرة والكنائس والمستشفيات والمدارس والأسقفيات ، ونظم الخدمة التبشيرية لتوصيل الإنجيل إلى رعاياه . ولم يمض قرن واحد من الزمان ، حتى كانت المسيحية هى الديانة الرسمية فى هنغاريا .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الكنائس النسطورية ، كانت قد حظيت برضا الحكام المسلمين أكثر من غيرها من الكنائس المسيحية ، ولهذا استطاعت أن تعمل وتواصل نشاطها فى بلاد الشرق الأقصى ، فتقوت الكنائس التى كانت قد سبق إنشاؤها فى آسيا . وقد بلغ المرسلون التابعون الكنيسة النسطورية سكيثيا ومنغوليا . ويبدوا أن قادة الكنيسة هناك كانوا يتوارثون اسم « برسترچون » ، وربما كان برستر تحريفا للكلمة اليونانية « پرسبيتر » ومعناها « شيخ » . وتأسست كنائس كثيرة فى الهند والصين ويقال إن الرب استخدم التاجر السورى « مارتوما » لحمل رسالة الإنجيل إلى تلك البقاع .

٣

تطورات داخل الكنيسة

[ظهور البابوية ـ معسكران فى الكنيسة] .

ما أكثر التطورات التى حدثت فى الكنيسة ، فى خلال فترة العصور الوسطى ، وأهم هذه التطورات أمران ، الأول هو ظهور البابوية ، أما الأمر الثانى ، فهو إنفصال الكينسة الجامعة فى الشرق ، عن الكنيسة الجامعة فى الغرب .

(أولا) ظهور البابوية :

وهناك عدة عوامل ، أدت إلى ظهور البابوية ، نذكر منها ما يلى :

١ ـ فيما بين عامى ٤٠٠ ، ٧٦٨ م ، لم تقم فى غرب أوربا حكومة مدنية ذات شأن ، وهذه هى الفترة التى عانت فيها أوربا الغربية الكثير من غزو البرابرة ، أيضاً بعد موت « شارلمان » ، وتقسيم الإمبراطورية ، وحتى قيام الإمبراطورية التى أسسها « أوتو الأول » ، فى عام ٩٦٢م ، لم يقم فى أوربا حاكم مدنى له وزن .

فى نفس هذه الفترات ، وفى رومية ـ مركز السلطان وعاصمة الإمبراطورية ، كان الأسقف يمارس اختصاصات الحاكم الزمنى ، بالإضافة إلى الخدمة الدينية ، التى كان لها أكبر التأثير على الجماهير ، التى كانته

تنظر إليه نظرة ملؤها الاحترام والتقدير أو قل التقديس . خاصة وأن الشعب كان يعتقد أن واحداً من الرسل الأولين ، مارس نفس هذا السلطان ، معلنا أن للكنيسة السيادة . ومما عزز هذا السلطان ، أن كثيرين من أساقفة رومية ، كانوا رجالا عظماء ، قادرين على ممارسة أعمال الحكم والسيادة ، ولسنوات عديدة فى أوربا الغربية ، ظل البابا هو الممثل الوحيد للحكومة الدائمة ، وفى خلال هذه السنوات ، اتسع نفوذ البابا ، وامتد سلطانه فى بعض بلدان العالم الغربى ، وإن بقى هذا السلطان محدوداً فى بعض البلدان .

٢ ــ كان الناس ينظرون إلى الأساقفة ،على أنهم يمثلون البر والتقوى ، فى وقت كان فيه معظم الحكام ، تتحكم فيهم أهواؤهم ، وتستعبدهم شهواتهم . ففى عهد البابا « نيقولاوس الأول » (٨٥٨ ــ ٨٦٧م) على سبيل المثال ، هجر ملك اللورين زوجته وإقترن بأخرى ، بإذن من رئيس الأساقفة فى مملكته ، وكان هذا تصرفا منتقداً لمحافاتة للأخلاقيات العامة . وبعد صراع طويل ، أرغمه البابا على طرد الزوجة الثانية ، وإعادة زوجته الأولى . ولم يكن فعل هذا فى وسع أية سلطة أخرى فى العالم ، أيا كانت هذه السلطة ، ولم يخضع الملك ، إلا لخوفه من أن يصدر البابا حكما يفصله من عضوية الكنيسة ، وكان الاعتقاد السائد ، هو أن هذا الحكم بالحرم معناه الهلاك الأبدى لمن يصدر ضده .

وهكذا نرى ، أن البابا كان ممثلا لسلطان أعظم من سلطان الملوك ، هذا السلطان هو القانون الأخلاقى ، الذى يعتبر واحداً من أقوى الأسباب التى أدت إلى زيادة نفوذ البابا وسلطانه . خلاصة القول ، أن البابوية فى تلك الفترة ، كانت قوة للخير والتقوى والصلاح .

٢ ــ حالة الخراب الشامل ، التى كانت سائدة فى أوربا ، كانت تتطلب وجود حاكم قوى حازم ، ولم يجد الناس غير الأسقف : جديراً بأن يشغل منصب الحاكم الزمنى ويباشر سلطاته ، بجانب السلطان الروحى ، وكانت هذه هى بداية ممارسة الأساقفة لسلطات زمنية فى مدينة رومية ، وفى المناطق الشاسعة الأخرى فى ربوع إيطاليا ، التى سلمها لهم « ببين » ملك الفرنجة ، ووالد الإمبراطور الشهير « شارلمان » .

٣ ــ شخصية البابا « غريغوريوس الأول » ، الذى كان أول باباوات رومية ، وكان رجلا من أعظم الرجال الذين شهدتهم بداية العصور الوسطى . وقد شغل منصبه فى عام ٥٩٠ م ، وهذا التاريخ يعتبر بداية لواحدة من ثلاث فترات حاسمة فى تاريخ الكنيسة .

وقد تميز هذا الرجل بصلاح يشهد له الجميع . إنه كان على قدر عظيم من التقوى والتواضع ، كما أنه كان على جانب كبير جداً من الحكمة والقدرة ، والنشاط ، والغيرة المسيحية .

وقد استخدم هذا الرجل كل ما حباه به الله من مواهب ، للعمل على إعلاء شأن أسقف رومية ، وجعله بطريركا للغرب . وقد عمل على تثبيت أركان الكرسى البطريركى فى روما ، وبسط سلطانه على الجناح الغربى من الكنيسة ، وحصل من بعض أساقفة الكراسى الأخرى ، على الإقرار بسيادة الجالس على كرسى رومية ، كما فرض عليهم إتباع طقوس العبادة المستخدمة فى الكنيسة الرومانية .

كما أنه هو الذى أرسل « أغسطينوس » ورفاقه ، حاملين بشارة الإنجيل إلى إنكلترا ، وهؤلاء المرسلون ، كانوا مثالا فى طاعتهم للتعاليم المسيحية ، وخضوعهم وولائهم لأسقف رومية .

ونحن نظلم الرجل كثيراً ، إن قلنا إنه وجه كل جهوده لتوسيع دائرة نفوذه ، وتعزيز سلطان كرسيه ، لأنه بذل جهوداً متصلة ومضنية ، لتنقية الكنيسة وتقويتها ، والعناية بالفقراء ، وتقديم الإنجيل للوثنيين . ويمكن القول أيضاً ، أنه وهو يعمل على تعزيز سلطان أسقف رومية ، وامتيازه عن الأساقفة الآخرين ، كان فى عمله هذا ، مقتنعا تمام الإقتناع ، وبإخلاص ، بأن خليفة الرسل ، هو الرئيس الأعلى لكافة الكنائس ، وهذا الإقتناع ، كان السبب الرئيسى ، فى سعيه الدائب للحصول على الإعتراف بسلطانه فيما وراء حدود بطريركية بلاد الغرب ، ومع أنه رفض أن يدعى « الأسقف المسكونى » ، إلا أنه قطع شوطاً بعيداً فى طريق السيادة المسكونية .

٤ — ظهور الدكريتات الزائفة ، وهى مجموعة من القرارات ، قيل إنها صادرة عن المجامع الكنسية المختلفة ، وأيضاً بعض القرارات والخطابات المنسوبة إلى بعض الباباوات ، وكان معظمها مزوراً ، باعتراف الدارسين فى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية نفسها . ويقال أن هذه الكتابات تنسب إلى أساقفة رومية فى القرن الثامن ، وتتضمن الإقرار بأن هؤلاء الأساقفة ، كان لهم سلطان على الكنيسة بأسرها .

وقد تمت فبركة هذه الوثائق فى فرنسا ، حوالى منتصف القرن التاسع ، بقصد حماية أساقفة رومية ، من تدخل رؤساء الأساقفة ، أو أساقفة المراكز الدينية الكبرى ، أو تدخل الحكام المدنيين فى شئون الكنيسة .

وكان البابا « نيقولاوس الأول » ، هو أول من استخدم هذه « الدكريتات » ، لتعزيز مركزه ، على رؤساء الأساقفة ، الذين رفعوا راية العصيان فى وجه رومية . وفى ذلك الزمان ، لم يكن هناك دارسون

يمكنهم معرفة حقيقة هذه الوثائق ، غير أن عدم استخدامها قبل تلك الفترة ، يؤكد عدم صحتها .

وبعد استخدام البابا « نيقولاوس الأول » لها ، صارت هذه الدكريتات جزءاً من قوانين الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وقد أدى هذا إلى ازدياد نفوذ الباباوات .

٥ ــ الإرساليات والبعوث التبشيرية ، التى أرسلها الباباوات إلى كافة الأرجاء ، لعبت دوراً كبيراً ، فى توسيع نفوذ الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، لأن كل قطر كسبته تلك البعوث للكنيسة المسيحية ، كان بالتالى كسبا لبابا رومية ، وتوسيعاً لدائرة نفوذه . وقد رأينا فى فصل سابق ، كيف خضعت كنيسة إنكلترا لسطان البابا ، بسبب وجود المرسلين الرومان هناك .

وقد بذل « بونيفاس » كل ما فى وسعه ، لتمديد نطاق إشراف البابا ، حتى يشمل كل المناطق التى كان يعمل فيها مبشراً بالإنجيل ، فى ألمانيا وباڤاريا وفرنسا .

٦ ــ كان إنتشار الإسلام سبباً من الأسباب التى لعبت دوراً رئيسياً فى تثبيت سلطان البابا ، وتوسيع دائرة نفوذه ، وقد يبدو هذا القول غريباً . لكن الغرابة تزول ، عندما نعلم أنه فى بلاد الشرق التى خضعت للحكم الإسلامى ، أصاب الكنيسة فى تلك البلاد الوهن والإنحطاط ، خاصة بعد سقوط بلدان الشمال الأفريقى ومنطقة غرب آسيا فى أيدى المسلمين ، بعد ما وضعوا أيديهم على الأقطار التى كانت مركزاً لثلاثة من الكراسى البطريركية الكبرى ، وهى كراسى أورشليم وأنطاكية والإسكندرية .

بينما كانت الكنيسة فى الغرب ، فى أوج مجدها ونهضتها ، وإنتشارها عن طريق البعثات التبشيرية التى إنطلقت هنا وهناك .

كل هذا زاد من أهمية الكنيسة الغربية برئاسة « بابا رومية » خاصة بعد أن ضعفت الكراسى الأخرى المناهضة له فى بلدان الشرق .

٧ ـ من العوامل التى ساعدت أيضاً على ازدهار البابوية ، امتلاك البابوات للكثير من الإقطاعيات ، التى أقطعهم إياها الأباطرة والأمراء ، فكانت للبابوات جيوش فى تلك المقاطعات ، كما أنهم فرضوا على سكانها الضرائب والمكوس ، تماماً كما كانت تفعل الحكومات المدنية . وقد ظل البابوات يحكمون تلك المقاطعات ، حتى عام ١٨٧٠ م .

(ثانياً) معسكران فى الكنيسة :

من التطورات الهامة التى واجهتها الكنيسة فى هذه الفترة من تاريخها ، إنقسامها إلى معسكرين ، وما أتفه الأسباب التى أدت إلى هذا الإنقسام .

وقد بدأ الإنفصال فى عام ٨٦٧م ؛ عندما وقع صدام بين بابا رومية وبطريرك القسطنطينية ، فقام أحد المجامع الشرقية بعزل الأول من منصبه ، ثم جاء بعد ذلك مجمع آخر ، ألغى هذا القرار بعد سنتين إثنتين من صدوره ، الأمر الذى أوغل الصدور ، واستمرت الخلافات بينهما حتى عام ١٠٥٤ ، بسبب بعض الإختلافات البسيطة فى بعض العقائد اللاهوتية .

ثم حدثت بعد ذلك مشاجرة بين البابا والبطريرك ، فأصدر البابا حكما بقطع البطريرك ومعاونية من عضوية الكنيسة ، وكانت هذه هى خاتمة المطاف .

ومن ذلك الوقت فصاعدا ، انقسمت الكنيسة الكاثوليكية إلى معسكرين ، أحدهما فى الشرق ويضم الكنيسة اليونانية ، وتتبعها مناطق اليونان ، وشبه جزيرة البلقان ، وروسيا ، ومعظم المسيحيين فى بلدان آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ، بينما استمرت بقية أوربا فى حظيرة البابوية ، خاضعة لقوانين الكنيسة الرومانية .

وراح كل معسكر من المعسكرين يدعى أنه هو وحده الكنيسة الكاثوليكية الحقة ، ويرفض الإعتراف بالمعسكر الآخر . هذا بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية .

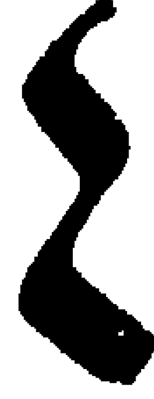
وينبغى ألا ننسى أنه إلى جوار هذين الجناحين ، كانت هناك الكنيسة النسطورية ، والكنيسة القبطية الأرثوذكسية ، وكنائس أخرى متفرقة فى بلدان آسيا .

وقد لعب اختلاف الأجناس دوراً كبيراً فى توسيع شقة الخلاف بين جناحى الكنيسة الكاثوليكية . ففى الغرب كان الجنس اللاتينى هو الجنس السائد ، وكان اختلاطه بالعنصر الألمانى سبباً فى تقويته ، بينما فى الشرق ، كان السائد هو العنصر اليونانى ، الذى إمتزج بالدم الشرقى ، وكان هذا الإختلاف العنصرى ، سبباً من أسباب النفور وسوء الفهم وعدم التعاطف .

كما أن الخلاف بين السلطتين المدنيتين ، الحاكمتين فى شطرى الإمبراطورية ، سبباً آخر من أسباب إنفصال الكنيستين ، خاصة بعد ما استمرت الخلافة الإمبراطورية فى الشرق ، بينما خلا الكرسى الإمبراطورى فى رومية فترة من الزمان . وعند ما قامت من جديد ، الإمبراطورية فى

الغرب ، بعد قيام البابا بتتويج « شارلمان » ، لم يعترف بها أباطرة القسطنطينية . وقد إنعكس الخلاف بين الحكام المدنيين ، على رجال الدين ، وترك أثره فى توسيع هوة الخلاف .

ونود أن ننبه القارىء هنا ، إلى أننا فى الفصول التالية ، سنركز كلامنا على الكنيسة الرومانية فى الغرب ، لأنها لعبت دوراً فعالا ومؤثرا فى تاريخ العالم ، يفوق بما لا يقاس ما لعبته أختها فى الشرق ، بسبب الظروف التى أحاطت بها ، والتى سلفت الإشارة إليها .



الحياة الدينية

[فساد رجال الدين ـ انحلال البابوية ـ الفساد فى الأديرة ـ الحالة الأخلاقية لعامة الشعب ـ العبادة فى ذلك العصر (العبادة المريمية ـ زيارة الأماكن المقدسة ـ الاعتقاد بكرامات القديسين ـ عبادة الخوف ـ الأيقونات) ـ الرهبان يطلقون الشرارة الأولى للاصلاح] .

إن القلب ليفعم بالأسى وتقطر النفس مرارة ، عندما نتعرض للحياة الدينية فى هذه الفترة من العصور الوسطى . فقد عم الإنحطاط وساد، ودب فى الحياة دبيب الفساد ، ومن هامة الرأس إلى باطن القدم ، أصبحت الكنيسة مريضة ، مضروبة بضربة طرية ، موسومة بسمة الإنحطاط الخلقى ، لا فرق بين قائد ومقود ، الجميع زاغوا وفسدوا معاً .

فساد رجال الدين :

ولإدراك مدى الفساد الذى تفشى ، وضرب أطنابه فى معسكر القادة من رجال الدين ، نسوق مثالا واحداً ، يوضح لنا حالة العاملين فى الكنيسة فى فرنسا .

ففى خلال القرن الثامن ، وقبل أن يقوم « بونيفاس » بحركة الإصلاح التى كلفه البابا بالقيام بها هناك ، نقول إن كثيرين من رجال الدين فى فرنسا ، كانوا من جماعة العبيد الهاربين ، ولم يكن يربطهم بالكهنوت

غير المظهر الخارجي ، وقص شعورهم على طريقة الكهنة فى ذلك الزمان . وكانوا يعتبرون الأبروشيات التى يخدمون بها ملكاً خاصا لهم ، يتصرفون فيها كما يشاؤون ، ويبيعونها لمن يدفع أكثر . وكان رئيس أساقفة روين أمياً لا يقرأ ولا يكتب :

ولا نكون مغالين إن قلنا ، إن غالبية رجال الدين فى تلك الأيام كانوا من مدمنى الخمر ، مستعبدين للعديد من الخطايا كخطيئة الزنا . وكانوا يعيشون فى بحبوحة من العيش ، يسعون وراء المتع العالمية ، مهملين القيام بواجبات الخدمة الموكولة إليهم .

وإن سألت إذن لماذا تقدموا للخدمة الدينية ، نقول لك إنهم لم يأخذوها خدمة ولكن وظائف ، وكانوا طامعين فى الربح القبيح ، يشترون المناصب بالمال ، وكانت ظاهرة السيمونية[1] متفشيه فى ذلك الزمان .

ولم يكن الرؤساء أفضل من مرؤوسيهم ، بل ربما كانوا أردأ وأشر منهم بكثير . وكانت السيمونية هى الطريق الوحيد للحصول على منصب الأسقف ، وكانت هناك تعريفة محددة للحصول على هذه الوظيفة .

إنحلال البابوية :

ولم تكن البابوية بمنجاة من هذه المساوىء ، التى كانت هى الطابع المميز لحياة الكنيسة عامة فى ذلك العصر .

وعلى مدى مائة وخمسين سنة ، بدءاً بسنة ٨٩٠ م ، وصلت حالة البابوية إلى أحط دركات الإنحطاط ، فتشوهت الصورة الجميلة الرائعة ،

(١) شراء المناصب الدينية بالمال نسبة إلى سيمون الساحر الوارد ذكره فى سفر أعمال الرسل .

التى وصل إليها مركز البابا ، بفضل جهود البابا العظيم « غريغوريوس الأول » ، والبابا « نيقولاوس الأول » من بعده .

نعم تشوهت تلك الصورة ، وتلطخت بالكثير من التشوهات التى لم تكن تخطر على بال ، وأصبح مركز البابا موضع نزاع بين القادة السياسيين المتنافسين وأتباعهم ، وكثيراً ما قامت الحروب بسببه . وبعض الذين شغلوا ذلك المنصب ، فى خلال تلك الفترة ، لم يكونوا فوق مستوى الشبهات ، بل إنهم كانوا من ذوى السمعة السيئة ، وارتكبوا أفظع أنواع الجرائم وأبشعها .

ولعدة سنوات ، ظل هذه المنصب فى أيدى بعض من النسوة المغمورات ، المنتميات لإحدى العائلات ، هؤلاء كن يعطين ذلك المنصب لمن يروق لهن ، الأمر الذى دعا الإمبراطور « أوتو الأول » ، للعمل على إنقاذه من هذا الدرك الذى تردى فيه ، فجعل تعيين البابا وعزله ، حقاً من حقوقه هو ، وظل هذا الوضع مدة أربعين عاماً ، كان الإمبراطور وحده ، هو الذى يملك تعيين البابا وعزله . وإحقاقا للحق نقول ، إن الذين شغلوا هذا المنصب فى تلك الفترة ، كانوا أفضل بكثير ، من الباباوات الذين شغلوه فى الفترات السابقة .

بعد ذلك ظل هذا المنصب حكراً على أسرة واحدة من الأسر الإيطالية الكريمة المحتد ، وكان البابا « بندكت التاسع » ، آخر حلقة فى سلسلة الباباوات ، المنتمين لهذه الأسرة ، وقد ثار عليه الشعب ، ونادى بخلعه ، بسبب فسوقه ، وترديه فى حياة الشر والرذيلة .

وعودة المنصب البابوى بعد ذلك إلى ما كان له من رفعة وسمو ،

وإحاطة الناس له بقدر كبير من الإجلال والإحترام بل والتقديس ، ترينا وتوضح لنا ، ما لهذا المنصب من تأثير فى أذهان الناس فى بلدان أوربا .

الفساد فى الأديرة :

حتى أولئك الذين كان يعتقد أنهم قد إنعزلوا عن العالم ، بحثا عن حياة مسيحية حقيقية ، مكرسة بالكامل للمسيح ، لم يكونوا بمنأى عن متناول الفساد ، الذى كان وباء قد تفشى فى كل مكان ، وتخطى كل الحدود ، حتى بلغ الأديرة ، وانتشر بين الرهبان ، فانغمسوا فى كافة المفاسد والموبقات .

الحالة الأخلاقية لعامة الشعب :

إذا كان رب البيت بالدف ضارباً

فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

هذا البيت يعبر أصدق تعبير عن مستوى الحياة لدى عامة الشعب ، فى عصر كانت فيه حياة القادة الدينيين على كافة المستويات ، على الصورة المشينة التى أشرنا إليها فى الصفحات الفائتة .

فنى نهاية القرن العاشر ، كان كل إنسان فى دول غرب أوربا ، عضوا فى الكنيسة ، بغض النظر عن حياته وسلوكه . وكان اهتمام الناس كله موجها إلى ممارسة الفروض والطقوس الدينية ، ولا شىء أكثر .

ولم يكن هناك شىء من التعليم أو التوجيه ، إلا فى أحوال نادرة ، وإن وجد شىء من التعليم الدينى ، لم يكن له أقل تأثير على حياة الناس وسلوكهم ، لافتقادهم القدوة الصالحة والأسوة الحسنة .

وهبوط المستوى الأخلاقى لهؤلاء الناس ، يرجع إلى أنهم كانوا مسيحيين بالإسم فقط ، دخلوا المسيحية مرغمين أو مقلدين ، أما فى الواقع ، فإنهم كانوا محتفظين بأخلاقياتهم وعوائدهم الوثنية .

ثم إن الحروب والمصادمات الدموية التى كثيراً ما كانت تقع بين النبلاء ، والهجمات التى شنها البرابرة ، هذه جميعا ، أعقبها عهد ساد فيه الإنحلال ، كما يحدث عادة فى أعقاب الحروب .

وتفشى الجهل ، بعد ما إندثرت الثقافة الإغريقية الرومانية ، وشدت الرحال ، فى أعقاب الغزو البربرى ، أفسح المجال لدخول الكثير من العقائد الوثنية ، التى جاء بها هؤلاء المتنصرون وأدخلوها معهم إلى المسيحية. فانعكس أثرها على طرق العبادة فى ذلك العصر .

ويمكن القول إن النهضة العلمية التى أحياها « شارلمان » فى عصره ، كانت نقطة الضوء الوحيدة فى هذه الفترة من التاريخ ، التى يمكننا أن ندعوها بحق ، العصور المظلمة .

العبادة فى ذلك العصر :

حتى العبادة شابها الكثير فى هذه الفترة ، إذ أدخل إليها الوثنيون المتنصرون بعضا من عباداتهم ، وإن لبست ثوبا مسيحيا . فظهرت القصص والأساطير التى سميت « الأساطير المسيحية » ، والتى تضمنت الكثير من القصص ، التى تدور حول أعمال القديسين ، ومعجزاتهم ، بعد وفاتهم .

كما أن الكنيسة فى هذه الفترة ، لم تركز عبادتها فى شخص الإله الواحد ، الذى أعلن ذاته للبشر فى المسيح يسوع ، لكنها إتجهت

إلى تقديم عبادتها ، لأشخاص آخرين ، احتلوا بمضى الزمن ، مكانة علية ، وربما كان السبب فى إنتشار تكريم القديسين وتقديم الصلوات والتوسلات إليهم ، هو أن هؤلاء كانوا بشرا ، وأحس الشعب فى جهالته ، أنهم أقرب منالا من الله .

وقد إنتشرت عبادة القديسين ، وحفظت الكنيسة الكثير من أعيادهم وتذكاراتهم . وشيئاً فشيئاً ، تضخم عدد الأعياد الكنسية ، تبعاً لازدياد عدد القديسين والشهداء ، وأصبح الباباوات يعلنون قداسة بعض الأشخاص ، وهذه القرارات كانت تسبغ على عبادة الناس لهم صفة رسمية ، وتجعلها عبادة قانونية .

العبادة المريمية :

ومن أهم الشخصيات التى أصبحت الجماهير تقدم لها عبادتها ، « القديسة مريم العذراء » . ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن العبادة المريمية وجدت معارضة فى الفترات السابقة من تاريخ الكنيسة ، وكان من هؤلاء المعارضين « أبيفانيوس » ، الذى كان يؤمن باستمرار عذراوية القديسة مريم بعد ولادتها ليسوع ، لكنه رغم هذا كتب يقول : « لنكرم العذراء تكريماً يليق بها ، لكن دعونا نقدم عبادتنا للاله الواحد الآب والابن والروح القدس .

وقد اعتنق كثيرون هذه الفكرة ، لكن تطورت الأمور بعد ذلك ، حتى وصلت إلى العبادة المريمية . ثم ظهرت عقيدة الحبل بالعذراء بلادنس ، باعتبارها الإناء الذى اختاره الله ، ليحل فيه جسد الإبن المبارك ، ويأتى من مستودعها الطاهر . لكن الآباء الدومنيكان ، رفضوا عقيدة الحبل بلادنس هذه .

زيارة الأماكن المقدسة :

تبعاً لإنتشار عبادة القديسين ، شاعت بين الناس ، عادة زيارة الأماكن المقدسة ، التي تحفظ فيها مخلفات القديسين ورفاتهم ، وكان الناس يعتقدون أنهم بزيارتهم لتلك الأماكن ، ينالون الحظوة لدى الله .

وأعظم رحلة كان الناس يحرصون على القيام بها ، كانت زيارتهم للأرض المقدسة فى فلسطين ، وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت ، أن كل من يذهب إلى تلك البقاع ، التي وطئتها أقدام السيد المسيح ، وحوارييه ، يعود من هناك كيوم ولدته أمه ، مبرأ من الذنوب ، تماماً كما لو كان لم يرتكب فى حياته شراً ما ، لأن الله عندئذ ، يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

الاعتقاد بكرامات القديسين :

وقد لعبت رفات القديسين دوراً كبيراً وخطيرا فى ديانة الشعب ، وأخذ عامة الناس يتفننون فى تكريم ما قيل أنه عظام بعض الرسل ، والسلاسل التي قيد بها « الرسول بطرس » ، وأشياء أخرى كثيرة ، قيل إنها من متعلقات رسل المسيح . وكل من كان فى حوزته شيء من هذه الأشياء ، كان يحس بالزهو والفخار .

وكان الإعتقاد السائد ، هو أن لهذه الأشياء قدرة على إتيان المعجزات الخوارق ، ولم يكن هذا الإعتقاد محصوراً فى نطاق العامة فقط ، لأنه حتى البابا «غريغوريوس الأول» ، الذى اشتهر بقدرته العقلية الفائقة ، كان كعامة الشعب ، يعتقد بأن لمخلفات الرسل والقديسين ، القدرة على إجراء المعجزات ، وكان يروى الكثير من القصص عن قوتها المعجزية .

عبادة الخوف :

وكان الناس يقدمون عبادتهم فى روح الخوف ، تماماً كما كان الحال فى أيام عبادتهم الوثنية ، وكان هذا تحت تأثير العقائد الوثنية ، التى حملها إلى الدائرة المسيحية ، أولئك المتنصرون ، الذين كانوا فى وثنيتهم ، يعتقدون أن العالم ملىء بالأرواح والأشباح ، التى تسعى دائبة لإلحاق الأذى بأجساد البشر وأرواحهم .

وكان الناس يعتقدون أن للملائكة ، ومخلفات الرسل والقديسين ، قدرة سحرية تنقذ الناس من تأثير القوى الشيطانية ، فنظروا إليهم نظرة ملؤها التقديس والإكرام ، كما اعتبروا الكهنة وأبنية الكنائس ، والممارسات الدينية ، وسائط يتبركون بها .

ثم ساد الإعتقاد بأن من يحتقر هذه الأمور ، إنما يجلب على نفسه الأذى والهلاك . وهكذا أضحت المسيحية فى نظر عامة الشعب قوة مرعبة. والخوف هو الأب الشرعى لكل اضطرابات النفس والعقل والعلاقات الاجتماعية .

وقد يستغرب الإنسان للوهلة الأولى ، ويدهشه أن يرى المسيحية وقد تحولت عن بساطتها وروحانيتها ، لتضحى على هذه الصورة ، لكن علينا أن نتذكر ، أن هؤلاء العابدين الذين دخلوا إلى المسيحية ، معظمهم جاء إلى المسيحية دون تغيير أو تجديد ، فجاءوا معهم بعقائدهم الوثنية ، ولا نجانب الصواب إن قلنا إنهم كانوا مسيحيين إسماً ، ووثنيين فعلا ، وظلت نظرتهم إلى المسيحية ، هى نفس النظرة التى كانوا ينظرون بها إلى عبادتهم الوثنية ، تلك العبادة التى كانت تتم فى إطار من الخوف والفزع ، وما ذلك إلا لأنهم لم يختبروا فرحة الخلاص .

وربما وجد رجال الدين ، أنه لاسبيل للسيطرة على هؤلاء الأجلاف الذين لم يتهذبوا ، سوى إذكاء روح الخوف فى نفوسهم ، لكى يسلس قيادهم ، ويسهل توجيههم . وربما أنهم أيضاً ، لم يروا بأسا من الإبقاء على بعض الإعتقادات الوثنية ، مع صبغها بصبغة مسيحية ، لإرضاء هؤلاء المتنصرين .

الأيقونات :

ولعله مما ساعد على استمرار هؤلاء الناس فى جهالتهم ، أن العبادة كانت باللغة اللاتينية ، التى لم يكن العامة يفهمونها ، فاستعان رجال الدين بالصور واللوحات الدينية ، التى تحكى قصص الإنجيل ، وتعاليم المسيح . لكن شيئاً فشيئاً ، كسبت هذه الصور نوعا من التقديس والتكريم ، وتطور الأمر إلى السجود ورفع الصلوات أمامها ، والتبرك بها ، وهذه دون شك صورة من صور العبادة الوثنية القديمة ، التى كانت مألوفة لدى أولئك المتنصرين فى ديانتهم القديمة .

هذا هو الجانب المظلم ، من الحياة الدينية التى شهدتها الفترة التى نتحدث عنها الآن ، لكن فجأة وفى وسط الظلام ، أشرق على صفحة الكون نور.

الرهبان يطلقون الشرارة الأولى للاصلاح :

ما إن بزغت شمس القرن الحادى عشر الميلادى ، حتى بدأت نهضة دينية عمت كل نواحى الحياة فى أوربا ، بصورة تناسب ذلك العصر .

فبحلول السنة الألف بعد الميلاد ، ساد بين الناس الإعتقاد ، بأن تلك السنة هى خاتمة الألف التالية لمولد السيد المسيح ، وقد نظر إليها الناس نظرة ملؤها الخوف ، ربما لأنهم اعتقدوا أنها سنة المجىء الثانى للمسيح ، وكانت حالهم كما أسلفنا .

لكن إذ مر ذلك العام بسلام ، بدأ الناس يتنفسون الصعداء ، وبدأت تدب فيهم روح جديدة ، ولاحت عليهم علامات التقدم . ولعل السبب فى هذا التقدم ، هو أن أوربا بدأت تعرف معنى الإستقرار ، بعد فترة طويلة عانت فيها من الحروب والمصادمات الدموية . ففى ألمانيا بدأ الناس يعيدون بناء بلادهم ، وبالتدريج ، راحوا يرتقون مدارج الحضارة ، بعد أن كف النورمنديون والدانيون عن مهاجمة بلدان جنوب أوربا ، كما كان العرب قد استتب لهم الأمر فى أسبانيا ، وتوقفوا عن تسيير الجيوش إلى أوربا .

عندئذ بدأت أوربا تفيق لنفسها ، وراح أهلها يقدحون زناد الفكر ، وكانت هذه هى الفرصة الذهبية التى لاحت للمسيحية ، لكى تؤدى رسالتها وتقوم بدورها ، دون أن يقف فى طريقها عائق ما ، من تلك العوائق التى واجهتها فى القرون السابقة .

الرهبان يطلقون الشرارة الأولى للاصلاح !

ربما كانت أعظم صدمة تصيب المتأمل فى الأحوال التى سادت فى خلال هذه الفترة ، هى حالة الفساد التى دبت فى الأديرة ، وتفشت بين الرهبان ، الذين لم يدخلوا الأديرة ، إلا هربا من نجاسات العالم وشروره .

لكن ما يعزى النفس ، هو أنه من بين الرهبان أيضاً ، خرجت الشرارة الأولى ، وارتفعت الأصوات تنادى وتطالب بالإصلاح .

ففى ذلك الوقت أنشىء دير كلونى فى جنوب شرق فرنسا . وقد التزم رهبان ذلك الدير بنظام « بندكت » ، فى صيغته المتشددة الأولى . ومن ذلك الدير ، بدأت حركة إصلاحية شاملة عمت أرجاء كل من فرنسا وألمانيا .

فريق الرهبان المصلحين :

ظهر هذا الفريق فى بكور القرن الحادى عشر الميلادى ، وقد أخذ هؤلاء المصلحون على عاتقهم ، مسئولية إصلاح الكنيسة ، وإنقاذها من أخطبوط الفساد والإنحلال ، وكانت هذه الجماعة من الرهبان الأتقياء ، الذين تشبعوا بروح التقوى والصلاح ، والغيرة المقدسة . وكان هدفهم ، هو تحرير الكنيسة من روح العالم ، وإنقاذها من سلطان الشر والخطية .

وقد وضعوا لأنفسهم برنامجا يتكون من ثلاثة بنود :

١ – إعلان الحرب على شراء المناصب الكنسية بالمال (السيمونية) . وقد تفشى هذا الداء فى الكنيسة عندما اتسعت دائرة ممتلكاتها ، وأتخمت جيوب قادتها وخزائنهم بالمال ، خاصة وأن الأمراء والنبلاء والحكام المدنيين ، هم الذين كانوا يقومون بتعيين الأساقفة ورؤساء الأديرة . وكانت هذه هى خميرة الشر التى خمرت العجين كله ، لأنه ترتب على ذلك تعيين أشخاص غير أكفاء فى مراكز القيادة فى الكنيسة ، طالما أن لديهم المال الذى يشترون به تلك المراكز .

٢ – البند الثانى الذى وضعه فريق الرهبان المصلحين ، هو إجبار رجال الإكليروس ، على الإلتزام بحياة العزوبة ، وكانت هذه قاعدة متبعة فى الكنيسة الكاثوليكية ، قبل ذلك بزمان طويل ، غير أن كثيرين من الكهنة والأساقفة لم يلتزموا بقانون التبتل ، وكان هناك فى الفترة موضوع حديثنا ، كثيرون منهم متزوجين .

أما إصرار فريق الرهبان المصلحين ، على ضرورة العودة إلى الإلتزام بقانون عزوبة الكهنة ، فكان مبنيا على أن الكهنة والأساقفة المتزوجين ، لا بد وأن يهتموا بمستقبل أبنائهم ونسائهم ، فيعملون على مضاعفة ممتلكاتهم

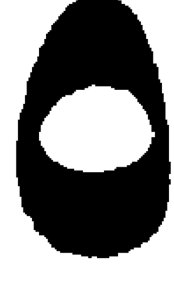
وأموالهم ، ولا شك فى أن هذا سيكون على حساب خدمتهم وواجباتهم الدينية ، نحو الشعب .

وكان هؤلاء المصلحون ، يعتقدون أنهم لو تمكنوا من تنفيذ هذين البندين ، فإنهم سيحققون قدرا كبيراً من الإصلاح المنشود ، بتحرير الكنيسة من روح العالم .

٣ ـ البند الثالث من بنود البرنامج الإصلاحى ، الذى وضعه فريق الرهبان المصلحين ، كان هو تطهير حياة الإكليروس الشخصية من الخطايا التى كانوا مستعبدين لها ، وللوصول إلى تحقيق هذه الغاية ، طالبوا بإعطاء البابا سلطات واسعة ، لإصدار أحكام رادعة ، ضد كل من يخرج على تعاليم الكنيسة وقوانينها .

وقد بدأ هؤلاء الرهبان المصلحون تنفيذ برنامجهم ، فى عام ١٠٤٩م. ، عندما ارتقى الكرسى البابوى واحد منهم ، تحت اسم « البابا ليو التاسع ». وقد تبنى هذا البابا ، برنامج الإصلاح المشار إليه ، وكانت النتيجة طيبة ، إذ تحسنت الأحوال نوعا ما .

وكل من جاء بعد ذلك من البابوات ، كان يتبنى برنامج الإصلاح ، وعلى رأس هؤلاء البابوات المصلحين ، يقف البابا « هلدبراند » ، الذى كان أعظمهم جميعاً ، والذى قاد بنفسه حركة إصلاحية رائعة . وسيأتى الكلام عنه فى مكان آخر من هذا الكتاب .



نظرة على الشرق

[مجادلات وانقسامات ـ مشكلة الايقونات والصور ـ يوحنا الدمشقى] .

مجادلات وانقسامات :

ألم تسمع عن المناقشات البيزنطية ؟ إنها تعبير عن ولع البيزنطيين بالجدل والمناقشة . وقد ظهر هذا الولع بالجدل ، فى استمرار المناقشات حول شخص السيد المسيح . فبعد ما وضع السؤال حول شخص المسيح على مائدة البحث فى مجمع خلقيدونية (٤٥١ م) بواسطة اليعاقبة الذين كانوا منتشرين فى أقاليم آسيا الصغرى وسوريا وبلاد ما بين النهرين (العراق) ، والأقباط ، وهم مسيحيو مصر ، وكان أهل هاتين الطائفتين قد انشقوا عن الكنيسة الكاثوليكية فى القرن السادس الميلادى .

بعد ذلك ظهر الإعتقاد بوجود طبيعتين ومشيئة واحدة فى شخص المسيح ، وقد اعترض الأقباط الأرثوذكس على هذا الرأى ، وفى المجمع السادس ، الذى عقد فى القسطنطينية فى سنة ٦٨٠ م . ، تقرر شجب هذه العقيدة .

ورغم أن الكنيسة الغربية لم تشجع هذه المجادلات ، إلا أن البابا

« هونوريوس الأول » ، انضم إلى أصحاب مذهب الطبيعتين ، فحكم مجمع القسطنطينية بعزله باعتباره هرطوقيا .

مشكلة الأيقونات والصور :

عندما سيطر المسلمون على بلاد الشرق ، وشاهدوا الصور واللوحات معلقة فى الكنائس ، ورأوا الناس يتبركون بها ويسجدون أمامها ، وجد المسيحيون ذواتهم متهمين بتهمة الشرك ، والإنحراف عن عبادة الإله الواحد الأحد . وتأيد هذا الإتهام ، بالقرار الذى أصدره مجمع نيقية الثانى(٧٨٧م.) بعدم التعرض للأيقونات والصور .

وفى القرن الثامن ، عادت مشكلة الصور للظهور من جديد ، وكانت ظاهرة وجود الصور قد تفشت بشكل لافت النظر ، بعد وفاة البابا غريغوريوس الأول . ولم يقف الأمر عند حد تكريم الجهلة للصور ، لكن نطور الأمر إلى حد اعتبارها أشياء خارقة ، لدرجة أنه قيل إن لوقا البشير قد رسم بعضا منها ، وأن الرب يسوع قد رسم أيضاً بعضها ، كما شاع القول عن بعض الصور ، بأنها ليست من صنع بشر .

وعندما اعتبر المسلمون تكريم الصور شركاً ، حاول الإمبراطور « ليو » فى سنة ٧٢٦ م . ، أن يعالج الموقف بحل وسط ، فقرر الإبقاء على الصور . على أن توضع على إرتفاع كبير ، بحيث يتعذر على الناس لمسها أو تقبيلها ، كما اعتادوا أن يفعلوا ، وبهذا يضرب عصفورين بحجر فهو بذلك يبقى على اللوحات الثمينة والمحببة لدى الشعب ، وفى الوقت عينه ، ينفى عن المسيحيين تهمة الشرك وتقديم العبادة لغير الله . لكن هذا الحل لم يلق قبولا من أحد من القادة الدينيين ، حتى المفكر الكبير يوحنا الدمشقى ، الذى كان من كبار مفكرى ذلك العصر ، فهاجم الإمبراطور ، واعتبر

قراره تدخلا غير مرغوب فى شئون الكنيسة ، معلناً أنه لا شأن للامبراطور بأمور العبادة ، التى لا يجب أن يحكم فيها غير رجال الدين . لكن الامبراطور « ليو » استطاع أن يقضى على هذه الحركة المعارضة ، وأمر بنزع الصور من الكنائس فى كل ربوع الامبراطورية . وقد ذهبت أدراج الرياح ، احتجاجات البابا « غريغوريوس الثانى » ، وخلفه البابا « غريغوريوس الثالث » ، فأصدر هذا الأخير قراراً يقضى بقطع كل أعداء الصور من عضوية الكنيسة ، على أثر هذا اقتطع الامبراطور بعض مناطق جنوب إيطاليا ، وضمها إلى بطريرك القسطنطينية ، وكان هذا سبباً آخر ، من أسباب توسيع شقة الخلاف بين الشرق والغرب .

وبعد وفاة الامبراطور « ليو » ، خلفه على عرش الامبراطورية ابنه « قسطنطين الخامس » الملقب «كبرونيموس» ، وكان أكثر تشددا من أبيه فى معارضة الصور ، ولما لم يستطع مقاومة الرأى العام ، دعا إلى عقد مجمع مسكونى ، لم تتوفر له سبل الانعقاد ، نظرا لأن أساقفة كل من الاسكندرية وأنطاكية وأورشليم ، لم يتمكنوا من حضور ذلك المجمع ، بسبب سقوط بلادهم فى ايدى المسلمين ، فاكتفى الامبراطور بعقد مجمع إقليمى ، أصدر قراراته بوجوب إزالة الصور والتماثيل من الكنائس ، حتى صورة الصلبوت ، كما حرموا وضع الصور فى البيوت . كذلك حرموا استخدام أى رمز دينى ، والرمز الوحيد الذى صرحوا باستخدامه فى العبادة ، هو العشاء الربانى .

على أثر هذا تم جمع كل الصور والتماثيل من كل الكنائس فى أنحاء الإمبراطورية وتحطيمها .

وقصة الصور فى الكنيسة قصة قديمة ، ترجع إلى عهد البابا «غريغوريوس الأول » ، ويروى التاريخ أن « سيرنيوس » أسقف مرسيليا ، وجد أناساً

يسجدون أمام الصور ، فأمر بتحطيمها جميعاً ، ولما بلغ الأمر مسامع البابا ، كتب إلى هذا الأسقف يقول : « إنى أحيي فيك هذه الغيرة المقدسة ، لمنع السجود لغير الخالق العظيم ، لكن ما كنت أود قط أن تحطم تلك الصور ، التي وضعت فى الكنيسة لتجسيد الحقائق الروحية ، والتواريخ والقصص الدينية ، للناس الذين لا يعرفون القراءة والكتابة » . . . إلى أن وصل فى خاتمة الرسالة إلى القول . . . « إن أراد أحد عمل صورة أو اقتناءها لا تمنعه ، لكن إن وجدت إنساناً يسجد أمام صورة أو يتعبد لها ، فلك أن تفعل ما تشاء لمنعه من هذا العمل الشرير » .

يوحنا الدمشقى :

وهو من أشهر علماء اللاهوت فى الكنيسة الشرقية وقد ولد فى دمشق قرب نهاية القرن السابع ، وتوفى حوالى سنة ٧٣٦ م . وكان أبوه واحداً من موظفى الدولة فى أيام بنى أمية ، وبعد موته خلفه ابنه « يوحنا » فى هذه الوظيفة .

ولفصاحته اعتبروه يوحنا فم الذهب الثانى ، وكانت مؤلفاته وأبحاثه موضع تقدير بين أهل زمانه .

وقد جمع عقائد الكنيسة فى صورة نظامية ، فى مجلد كتبه بأسلوب فلسفى عميق . وتصدى لكتابات الهراطقة وعقائدهم ، وفندها واحدة فواحدة . وكل كتاباته تدل على تعمق فى علم اللاهوت ، وبراعة فى قوة الإقناع ، ومقارعة الحجة بالحجة ، وتبدو قوته وبراعته فى الجدل ، فى المناظرة التى كتبها وجعل أحد طرفيها مؤمناً مسيحيا ، والطرف الآخر واحداً من المسلمين ، وأجرى على لسان كل منهما أدلته وبراهينه على صحة دينه .

وكان « يوحنا الدمشقى » من المدافعين عن وجود الصور والأيقونات فى الكنائس ، وكتب فى هذا الخصوص عدة بحوث .

وبعد فترة من الزمان قضاها فى وظيفته ، إستولى عليه حنين روحى ، أدى به إلى التخلى عن وظيفته وممتلكاته ، ودخل ديرا بالقرب من بيت المقدس ، هودير مارسابا ، وهناك قضى البقية الباقية من عمره .

ومما يؤثر عنه ، أنه حاول التوفيق بين الكنيسة الشرقية وأختها فى الغرب عندما شجر الخلاف بينهما حول كلمة أضيفت إلى قانون الإيمان النيقوى ، عند بحث موضوع انبثاق الروح القدس ، فاعترض الشرق على إضافة كلمة « والإبن » ، إلى العبارة القائلة « ... المنبثق من الآب » التى جعلها مجمع نيقية « ... المنبثق من الآب والابن » ، وأصرت الكنيسة الشرقية على الإحتفاظ بالنص كما هو دون إضافة ، وتمسك الغربيون بموقفهم ، فأراد يوحنا الدمشقى أن يوفق بين وجهتى النظر ، وإقترح تعديل الصيغة لتصبح العبارة « ... المنبثق من الآب بالابن » لكن تمسك كل من الفريقين برأيه ، لأن حقيقة الخلاف ، كانت بسبب التنازع على الرئاسة ، والخلافات السياسية .

وبرغم قيام علماء أفذاذ من بين أعضاء الكنيسة الشرقية ، أمثال « يوحنا الدمشقى » إلا أنه يمكن القول بأن هذه الكنيسة أصبحت شبه ميتة ، ولولا انضمام الكنيسة الروسية إلى دائرة الكرسى البطريركى فى القسطنطينية ، لما اتسعت دائرة نفوذها البتة . ولضآلة حيويتها ، لم يحدث فى الكنيسة الشرقية (اليونانية) تغيير ملموس . ولكن مما تجدر الإشارة إليه ، أن ذلك الجناح من الكنيسة ، ظل محافظاً على بساطة الإيمان المسيحى ، وإن كان هذا قد أدى بدوره ، إلى محدودية الدور الذى قامت به فى العمل على امتداد ملكوت الله .

الفترة الثانية

ذروة العصور الوسطى

(١٠٧٣ ـ ١٢٩٤ م)

٦

البابوية فى الغرب

[البابا غريغوريوس السابع (هلدبراند) ـ البابا انوسنت الثالث ـ الكنيسة مصدر السلطات] .

البابا غريغوريوس السابع « هلدبراند » (١٠٧٣ ـ ١٠٨٠ م .)

ولد هلدبراند لأبوين من رعايا إيطاليا ، ومع أنه لم يكن راهباً ، إلا أنه تشبع بروح الإصلاح ، التى سادت بين رهبان دير كلونى . وكان يشغل وظيفة صغيرة فى الكنيسة ، لكنه مع هذا ، قام بدور فعال ، راح يؤديه من وراء الستار ، طوال الفترة من ١٠٤٩ إلى ١٠٧٣ م ، أى منذ ارتقاء البابا « ليو التاسع » ، إلى أن جلس هو على الكرسى البابوى .

وطوال الفترة السابقة لتوليه منصب البابا ، كان هو صاحب الرأى فى اختيار البابوات ، وهو الذى كان يضع لهم الخطط والبرامج . وظل يعمل بثبات ، لتحقيق الإصلاح المنشود ، وتجديد الحياة فى الكنيسة ، وكان هذا التجديد هو شغله الشاغل ، فترة طويلة من الزمان ، إلى أن أتيحت له الفرصة ، لتحقيق هذا الهدف المبارك ، عندما ارتقى الكرسى البابوى فى عام ١٠٧٣ م ، وكان آنذاك قد ذهب لحضور قداس احتفالى أقيم على روح البابا الراحل « الإسكندر الثانى » ، فى كنيسة القديس بطرس ، وما إن وقعت عليه الأنظار ، حتى راحت جماهير الحاضرين

تهتف وتصيح قائلة : « القديس بطرس يختار « هلدبراند » ، فاختاره الكاردينالات لوظيفة البابا باسم « غريغوريوس السابع » .

وكان هذا الرجل من طراز نادر ، لدرجة أن أحد الحكام العظام قال فى معرض حديث له : « لو لم أكن نابليون ، لتمنيت أن أكون هلدبراند » . وهذا القول يرينا كيف أن الرجل كان واحداً من أولئك الأفذاذ ، الذين يجود بهم الزمان ، بين الحين والحين .

عندما ظهر هذا الرجل العظيم على مسرح الأحداث ، كانت البابوية قد هوت إلى الحضيض ، لكنه رفعها إلى الذرى ، وجعلها أعظم قوة فى غرب أوربا بأسرها . إنه كان واحداً من أعظم البابوات جميعاً ، بل يمكن القول بضمير مستريح ، إنه المؤسس لبابوية العصور الوسطى ، حتى إذا كان قد ظهر قبله رجل عظيم مثل البابا غريغوريوس الأول .

وكان قد وضع أمامه صورة رائعة ومثلا أعلى ، لما يجب أن تكون عليه البابوية ، وخطط ونفذ ما رسمه من خطط ، لكى يحول الحلم إلى حقيقة رائعة . ومن الأهداف العظيمة التى حققها « هلدبراند » :

١ ــ تحرير الكنيسة من سلطان الحكام . فقد كانت الكنيسة واقعة تحت سلطان الأباطرة ، الذين كانوا يدسون أنوفهم فى شئونها ، ويتدخلون فى أمورها . وفى الفترة السابقة لظهور « هلدبراند » ، كان اختيار البابا من اختصاص الإمبراطور ، وفى أثناء تولى البابا « نيقولاوس الثانى » (١٠٥٨ ــ ١٠٦١ م) ، تم تأسيس كلية الكرادلة ، وهؤلاء وحدهم ، صار من حقهم إختيار البابا ، وبهذه الطريقة لم يعد للامبراطور أى تدخل فى هذا الأمر ، وأصبحت الكنيسة وحدها ، هى صاحبة الحق فى تعيين

البابا أو إنتخابه ، ومضى ذلك العهد ، الذى كان فيه الإمبراطور ، يعرض على الكنيسة عدداً من الأشخاص ، تختار من بينهم رئيسها ، وكان « هلدبراند » (غريغوريوس السابع) ، هو المحرك الأول لتحقيق هذا الهدف .

٢ ــ خطوة أخرى تكميلية ، كانت ضرورية لتحرير الكنيسة ، ألا وهى إنتزاع حق تعيين الأساقفة ، من أيدى الحكام والملوك . ولاريب فى أن « هلدبراند » ، كان على حق ، فى الإقدام على هذه الخطوة ، لأنه لم يكن من المعقول أو المقبول ، أن يقوم الملوك والحكام المدنيون ، بتعيين الأساقفة فى المناطق التى يحكمونها ، لأن منصب الأسقف من المناصب القيادية فى الكنيسة ، والكنيسة وحدها هى التى يجب أن تختار قادتها .

وقد رأى « هلدبراند » ، أن إنتزاع هذا الحق من أيدى السلطات الزمنية ، سوف يعيد الأمور إلى نصابها ، ويضع حداً للمفاسد والشرور ، والسيمونية ، لأن الحكام لم يكن يهمهم أن يختاروا الأصلح والأجدر ، لكنهم كانوا يختارون الأغنى والأقدر ، والذى يدفع أكثر .

وقد واجه « هلدبراند » مقاومة عنيفة من أولئك الحكام ، الذين عز عليهم ، أن ينتزع منهم اختصاص ، ظلوا يمارسونه زمناً طويلا ، لكنه لم يأبه بما لقيه من الأمراء فى دول غرب أوربا ، من مقاومة عنيفة ، وبقى راسخاً فى موقفه لا يتزحزح عنه ، الأمر الذى أدى فى النهاية ، إلى حدوث مواجهة بينه وبين أكبر رأس من رؤوس السلطة الزمنية ، أى الإمبراطور « هنرى الرابع » ، حاكم ألمانيا ، أو إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

وهكذا وقع ما لم يكن منه بد ، وحدث الصدام الذى لم يكن من الممكن تجنبه ، بين القوتين العظميين فى غرب أوربا فى ذلك الوقت ، وهما الكنيسة والدولة .

ولم يرضخ الإمبراطور ، ورفض التسليم بمطالب البابا ، وبعد الكثير من الأخذ والرد ، والتهديد والوعيد ، أصدر البابا قراراً بالحرمان[1] ضد الإمبراطور ، كما أعلن عزله من العرش . وكان الإمبراطور مكروها من رعاياه ، فى بعض أرجاء الإمبراطورية ، وفى فترة سابقة ، كان بعضهم قد أعلن الثورة على الإمبراطور ، وكان هذا عاملا هاماً ، إذ وجد « هنرى الرابع » نفسه عاجزاً عن إتخاذ إجراء مضاد ، فاضطر أخيراً للخنوع ، وتقديم التنازلات ، لاسترضاء الشعب والنبلاء فى ألمانيا ، وإعلان الخضوع الكامل لسلطان البابا ، حتى لا يفقد عرشه ، وذلك فى خلال السنة التالية لصدور قرار البابا ، بفصله من عضوية الكنيسة . لكن فى نهاية العام ، اجتمع مجلس النبلاء برئاسة البابا ، وقرر إنتخاب إمبراطور آخر ، يخلف « هنرى الرابع » فى عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وبهذا يتم الخلاص منه نهائيا .

لكن الإمبراطور راح يحاول الحصول على إلغاء قرار الحرمان الصادر ضده ، لكى تعود إليه عضويته فى الكنيسة ، وبهذه الطريقة يتقوى مركزه ، وتصبح الفرصة أمامه سانحة لاسترداد العرش .

ولم يشأ الإمبراطور أن يقف مكتوف اليدين ، فأخذ ابنه وزوجته معه إلى إيطاليا ، ووصل فى شتاء عام ١٠٧٧ م ؛ إلى مدينة كانوسا حيث

---

(١) فصله من عضوية الكنيسة .

كان يقيم البابا ، الذى رفض أن يقابله . وراح أصدقاء الطرفين ، يتوسلون إلى البابا ، لكى يرضى عن الإمبراطور ويعقد صلحا معه ، غير أن البابا أصر على موقفه .

ومع ذلك أظهر الإمبراطور خضوعا كاملا ، وذات صباح قارس، وقف حافى القدمين أمام باب القلعة التى يقيم فيها البابا ، وراح يقرع الباب ، طالبا الرحمة والرضا ، لكن البابا لم يلق إليه بالا ، فراح يقرع باب القلعة طيلة النهار ، ولما لم يستجب البابا ، ظل الإمبراطور على هذه الحال يومين آخرين ، يقرع ويسترحم .

وبعد طول إنتظار ، قرر البابا إلغاء قرار فصل الإمبراطور من عضوية الكنيسة ، وترك أمر إعادته إلى العرش لمجلس النبلاء ، بشرط أن يعلن خضوعه للبابا خضوعاً كاملا ، فى كل ما يتصل بأمور الكنيسة .

وهكذا انتصر البابا على الإمبراطور ، لكن موقعة كانوسا هذه لم تكن خاتمة المطاف بالنسبة للمواجهة بينه ، وبين أعظم قوة حاكمة فى غرب أوربا .

وكان الناس ينظرون إلى الإمبراطور ، على أنه معين بسلطان إلهى ، الأمر الذى أدى إلى التفاف الشعب فى ألمانيا حول الإمبراطور ، الذى راح يجمع حوله الأنصار ، من الناس المتعاطفين معه ، مستغلا شعور السخط ، الذى ولده فيهم موقف البابا المتشدد منه ، وإذلاله له . فعاد البابا مرة أخرى ، وأصدر قراراً بفصل الإمبراطور من عضوية الكنيسة ، لكن هذا الأخير لم يأبه هذه المرة ، وسير جيشا جراراً ، دخل به إلى رومية ، فاضطر البابا للهرب ، وظل فى المنفى ، حتى وافته المنية بعد

ذلك بعدة سنوات ، وعند موته قال : « لقد أحببت البر ، وأبغضت الإثم ، وها أنا أموت منفياً » .

على أن ما وقع فى كانوسا ، كان إنتصاراً للبابا والكنيسة ، برغم كل ما حدث بعد ذلك .

ولم ينته هذا الصراع ، بين البابا والإمبراطور ، إلا فى سنة ١٠٢٢م عندما تقرر أن يتم اختيار الأساقفة بواسطة الإكليروس ، على أن يؤيد البابا هذا الإختيار ، ويرخص للأساقفة بممارسة الخدمة .

وبهذا تم فصل السلطات ، وتوزيع الإختصاصات ، الإمبراطور يمنح رجال الكنيسة السلطان ، على إدارة الممتلكات والإقطاعيات ، ويمارس هو من جانبه ، السلطان على الإقطاعيين فى إمبراطوريته ، والكنيسة تباشر سلطانها فى تدبير أمورها ، واختيار قادتها ، بغير تدخل من السلطة الزمنية.

٣ ـ تحرير الكنيسة من روح العالم ، فقد رأى « هلدبراند » ، أن الأمور الدينوية قد أحكمت قبضتها على رقاب رجال الإكليروس ، فوضع فى قلبه تحقيق الإصلاح الذى وضع برنامجه ، رفاقه من الرهبان المصلحين. وقد رأى أنه من الضرورى العودة بالإكليروس إلى حياة العزوبة ، باعتبارها خطوة هامة على الطريق ، لتحرير الكنيسة من العالم .

وكان « هلدبراند » يرى أن زواج رجال الإكليروس ، يعوقهم عن التفرغ لأداء الخدمة المطلوبة منهم ، سعياً وراء ضمان العيش والرفاهية لأبنائهم وزوجاتهم ، كما أن اهتمامهم بتدبير شئونهم العائلية ، يتم بغير

شك على حساب مصلحة الكنيسة . كان هذا هو رأى « هلدبراند » ، وربما كانت الأحوال السائدة فى عصره ، هى التى أدت إلى تمسكه بهذا الرأى .

غير أنه ثبت بالإختبار فى الكنائس التى كانت تستخدم خداما متزوجين ، أنه لا أساس لتلك الأفكار ، التى سيطرت على فكر ذلك المصلح الكبير ، لأن كثيرين من أولئك الخدام ، أثبتوا جدارة ، ونجاحاً منقطع النظير ، فى القيام بخدمتهم .

ولكى نفهم الأسباب التى حدت بهلدبراند ، إلى الاعتراض على زواج رجال الإكليروس ، يجب أن نتذكر أن الكنيسة فى عصره ، كانت تمتلك مساحات شاسعة من الأرض ، وكان يتولى إدارتها أساقفة متزوجون وكان الزواج محرماً على الإكليروس ، بحسب قوانين الكنيسة ، التى كانت تعتبر من يتزوج من هؤلاء شخصا لا خلاق له .

وكان « هلد براند » مقتنعا تمام الإقتناع ، بأنحياة الرهبنة هى الصورة المثلى للحياة المسيحية الحقة . ولعله من الغريب أن يتولى هذا الرجل ، قيادة جماعة الرهبان المصلحين ، رغم أنه لم يكن راهباً ، ويبذل جهده لكى يجعل رجال الإكليروس ، يحيون حياة العزوبة ، كالرهبان سواء بسواء :

وفى سبيل الوصول إلى هذا الهدف ، شن اضطهاداً عنيفاً على المتزوجين منهم ، وأرغمهم على الإنفصال عن زوجاتهم ، وأصدر تعليماته إلى الشعب بتجنب الكهنة المتزوجين ونبذهم . ولئن كان لم ينجح فى القضاء التام على زواج الكهنة ، إلا أنه نجح فى تأليب الرأى العام ضد الكهنة المتزوجين ، الأمر الذى أدى إلى تقليل هذه الظاهرة إلى أقل حد ممكن ، أما الكنيسة عامة ، فقد حددت موقفها ، الذى أصبح ضد زواج الإكليروس على طول الخط :

البابا هو صاحب الكلمة العليا فى الكنيسة :

كانت السلطة البابوية ، هى الوسيلة التى استخدمها « هلدبراند » ، لتحقيق الإصلاح المنشود فى الكنيسة ، بتطهيرها من المفاسد ، التى كانت قد تفشت . وكان لزاماً أن تكون للبابا سلطة مطلقة ، وحكم نافذ فى كل الأمور فى الكنيسة :

وكان — « هلدبراند » — يرى أن الكنيسة يجب أن تكون دولة أخرى، رأسها البابا ، الذى ينبغى أن يخضع له جميع الأساقفة والإكليروس والرهبان خضوعاً مطلقاً ، باعتباره خليفة « بطرس الرسول » ، وحامل مفاتيح ملكوت السموات ، الذى له أن يحل ويربط كما يروق له . وقد أفلح فى استخدام هذا السلطان المطلق ، للوصول إلى أهدافه .

ومن ذلك التاريخ فصاعدا ، أصبحت إرادة البابا هى العليا ، رأيه هو الصواب ، وقوله فصل الخطاب ، فى كل القضايا والشئون .

الكنيسة بحسب فكر « هلدبراند » :

لم تقف أحلام « هلدبراند » ، عند حد تحقيق الإصلاحات التى سلف ذكرها ، لكنه كان طموحا جداً ، من جهة ما يجب أن تبلغه الكنيسة ، التى كان يرى أنها يجب أن تكون لها السيادة على العالم بأسره ، وكان تحرير الكنيسة من الروح الدنيوية ، ومن تدخل السلطات المدنية فى شئونها ، مجرد خطوات على الطريق ، لتحقيق هذا الهدف الأبعد .

إنه كان يرى أن الكنيسة برئاسة البابا ، يجب أن تكون لها اليد الطولى والرأى المعلى فى تسيير الأمور ، كما أنها يجب أن تكون القوة العظمى ، التى تخضع لها كل القوى الأخرى التى فى العالم . وكان يرى أن الحكام

يجب أن يخضعوا لسلطان البابا ، وفى حالة عدم خضوعهم له ، يقوم البابا بعزلهم من مناصبهم ، ويحل رعاياهم من الخضوع لهم : فالكنيسة هى صاحبة السلطان الروحى الفائق . من هذا نرى أن « هلدبراند » ، كان يريد أن يكون العالم مجموعة من الولايات المتحدة ، تدور كلها فى فلك الكنيسة ، وتمتثل لأوامر البابا ، الذى هو الرأس المنظور للكنيسة .

وهنا ينبغى ألا نتسرع فى حكمنا على الرجل لئلا نظلمه ، إن الأمر يتطلب منا أن نتخلى قليلا عن آرائنا الشخصية ، وننظر إلى الأمور من خلال مرقبه ، وفى ظروف الزمان والمكان التى كانت محيطة به .

فجميعنا نرى أن ملكوت الله ، ينبغى أن يمتد ويتسع نطاقه إلى أن يشمل العالم بأسره . وفى العصور الوسطى ، عندما كان الناس فى غرب أوربا يسمعون هذا الكلام ، فى الحال ، كانت أنظارهم تتجه إلى الكنيسة ، باعتبارها التجسيد الحى لملكوت الله ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية ، هى الكنيسة الوحيدة التى لم يعرفوا سواها .

وفى ضوء هذا المفهوم ، كان السعى إلى أن تتبوأ هذه الكنيسة مكانتها المرموقة ، ومكانها الرائد فى القيادة ، وتسيير دفة الأمور فى أوربا ، هذا كله كان يعتبر سعياً ، لتحقيق الحلم الذهبى لسيادة المسيحية . وما دامت السيادة من حق الكنيسة وحدها ، فبالتالى ينبغى أن يكون رئيس الكنيسة (البابا) ، هو الرئيس المطلق ، لكل القوى والكراسى الحاكمة فى أوربا . وكان الناس فى ذلك الزمان ينظرون إلى البابا ، على أنه الشخص الذى اختاره الله ، ليكون رأساً للكنيسة : وكان المنطق يقول ، أنه إذا كان المفروض أن تمارس الكنيسة هذا السلطان ، فإنها ينبغى أن تمارسه من خلال البابا .

إذا نظرنا إلى الأمور بهذه النظرة ، وقسناها بهذا المقياس ، فإننا نتجنب الوقوع فى تجربة إصدار أحكام خاطئة ، على أفكار « هلدبراند » ، لا بل أكثر من هذا ، سوف نجد ذواتنا مضطرين إلى إنصافه ، والوقوف بجواره ، وتأييد نظرياته وأفكاره ، هو وكل من رأى رأيه ، وعاونه فى تحقيقه .

ولعل المقتطفات التالية ، من رسالة [1] أرسلها « هلدبراند » ، إلى الملك « وليم الفاتح » ملك إنكلترا ، تكشف لنا عن سمو دوافعه ، وخلوص نيته ، فى تبنى فكرة سيادة الكنيسة ، وسلطان البابا :

« كما خلق الله النورين العظيمين ، ووضعهما فى كبد السماء ، لينيرا صفحة الكون ، هكذا وضع فى الأرض قوتين عظيمتين ، ينبغى أن يخضع لهما كل الناس ، هاتان القوتان العظميان هما القوة البابوية ، والقوة الملكية . والقوة الأولى هى الأعظم ، بينما الأخرى تمثل النور الأصغر .

وبحكم تعاليم الديانة المسيحية ، يجب أن تنعقد السيادة ، لقوة البابا ، الذى هو بمعونة الله ، صاحب السلطان على كافة الملوك والحكام ، من حيث أنه هو صاحب السلطان الرسولى ، والمسئول عن جميع المسيحيين ، ملوكا ورعايا ، ليعطى عنهم حسابا أمام الله .

فإن كنت ترغب أن يظل السلام بلادك وشعبك ، وإن رمت النجاة من العطب والهلاك ، عليك أن تقدم لنا الطاعة الواجبة ، طاعة مطلقة ،

---

(١) هذه الرسالة وان كانت لا تحمل تاريخا محددا ، غير أن الآراء أجمعت على أنها صدرت فعلا عن البابا « غريغوريوس السابع » ، وقد اعتبرها المؤرخون ، واحدة من وثائق العصور الوسطى (انظر كتاب : مقتطفات من وثائق العصور الوسطى لهندرسون) .

وتخضع لنا خضوعاً تاما ، لأنك إذ تكرمنا ، فإنك بهذا تكرم الله وتمجده ، معطيا لهذا الأمر من الاعتبار والإهتمام ، ما تعطيه للاحتفاظ لنفسك بقدر عظيم من الكرامة والإحترام . عالما أن عليك أن تحب الرب إلهك بكل قلبك وكل قدرتك ، وتحبه بعقل طاهر وذهن نقى » .

البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦م) :

هو الكاردينال « لوثاريوكونتى » ، وقد جلس على الكرسى البابوى فى ١١٩٨ م . باسم البابا « إنوسنت الثالث » ، ويعتبره بعض المؤرخين أعظم من جلس على كرسى الرسول بطرس . وقد بلغت الكنيسة فى عصره ، ما لم تبلغه فى عصر سلفه العظيم ، فتبوأت مكانة علية ، وبلغت الصورة التى كان قد رسمها لها « هلدبراند » .

ومما يؤثر عن البابا « إنوسنت الثالث » قوله : « إن البابا يقف فى الوسط بين الإنسان وبين الله ، فهو أقل من الله ، وأسمى من الإنسان ، ولذا فهو يحكم على جميع الناس ، ولا يحكم عليه من أحد » . وهكذا جمع فى يده من السلطان ، قدراً أكبر بكثير جداً ، مما كان يجول بخاطر « هلدبراند » .

وأصبح « إنوسنت » ، هو الذى يتوج ويعزل الحكام والملوك ، معلنا أنهم يتسلمون تيجانهم من يد البابا ، ومنه يستمدون سلطانهم . وقد أرغم « فيليب » ملك فرنسا ، « ويوحنا » ملك إنجلترا ، على تقديم فروض الطاعة والولاء له ، وكان الأول – فيليب – قد هجر زوجته بسبب إمرأة أخرى ، أما ملك إنجلترا ، فكان قد دب خلاف بينه وبين أسقف كنتربرى .

وكانت أحكام الحرم ، هى السلاح القاطع ، الذى استخدمه البابا ضد هؤلاء الحكام . فأغلقت الكنائس ، وتوقفت الممارسات الدينية ، التى كانت فى نظر الناس ، هى الطريق الوحيد لخلاص نفوسهم ، كما منعت الصلاة على الموتى ، فبقيت جثثهم بغير دفن ، فاضطر الشعب فى كل من البلدين ، إلى مطالبة ملوكهم باسترضاء البابا ، وكان ملك إنجلترا ، أول من رضخ ، وأعلن أن إنجلترا وإيرلنده ، قد أصبحتا من ذلك الحين مقاطعتين مملوكتين للبابا ، فسمح له البابا بإدارة دفة الحكم فيهما ، مقابل دفع جزية للخزينة البابوية ، إقراراً منه بملكية البابا لبلاده . بعد ذلك أعلن ملك فرنسا ، خضوعه لأمر البابا ، وعاد إلى حليلته ، بعد أن سرح خليلته .

وقد عرف « إنوسنت الثالث » ، بأنه المالك لمملكة سيشل ، ومن يده تسلم الملك « أراجون » تاج الملك ، ليحكمها فى ظل الخضوع ودفع الجزية للبابا . وفى ذلك الوقت ، كانت معظم بلاد غرب أوربا ، خاضعة لسلطان البابا .

والمرة الوحيدة التى واجه فيها « إنوسنت الثالث » الفشل ، كانت فى إنكلترا ، عندما ثار البارونات على الملك « يوحنا » بعد إعلان خضوعه للبابا ؛ فأجبروا الملك على التوقيع على وثيقة الحقوق — « الماجنا كارتا » — فى عام ١٢١٥ م ، فأصدر البابا أمراً بأن يخضع النبلاء للملك ولا يقاوموه ، لكنهم لم يأبهوا بهذا الأمر ، وتجاهلوا مطلب البابا ، الذى أنقذه الموت ، من مواجهة هذه الهزيمة المنكرة أمام النبلاء .

من هذا نرى ، كيف أن البابوية فى عهد « إنوسنت الثالث » ، كانت قد بسطت سلطانها على أوربا الغربية ، أو بعبارة أخرى ، يمكن

القول ، إن الكنيسة من خلال البابا ، كانت فى تلك الفترة ، هى التى تحكم فى بلدان أوربا الغربية . وبقيت الكنيسة تمارس هذا السلطان ، طيلة القرن الثالث عشر ، وتغلبت نهائياً على الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، التى كانت تنافسها على السلطة .

فنى خلال الفترة التى أعقبت جلوس البابا « غريغوريوس التاسع » على الكرسى البابوى ، وإلى أن جاء البابا « إنوسنت الرابع » ، كانت هناك حرب باردة ، كانت أحيانا تتحول إلى مواجهة ساخنة ، بين البابا والإمبراطور ، وظلت الأوضاع هكذا ، إلى أن إنتصرت الكنيسة نهائيا ، عندما إنهزم أمامها الإمبراطور « فردريك الثانى » فى عام ١٢٤٨ م . وبعد موته بعامين ، خلفه إبنه على العرش الإمبراطورى ، لكنه لم يبق فى الحكم غير سنوات قلال ، بعدها خلا العرش الإمبراطورى لمدة تسعة عشر عاماً ، فى نهايتها تم اختيار إمبراطور آخر ، ولم يستطع هذا أن يفعل شيئاً ، لأن الأمور كانت قد استتبت للكنيسة ، فى خلال الفترة التى ظلت تحكم فيها ، وتسير دفة الأمور بغير منافس ، طوال سنى خلو العرش الإمبراطورى .

الكنيسة مصدر السلطات :

فى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، مارست الكنيسة سلطانها ، وبسطت نفوذها ، على كافة شئون الحياة اليومية ، لسكان أوربا الغربية ، وكانت سلطاتها فى هذا المجال ، تفوق أية سلطة مدنية ، لأن الناس كانوا يعتقدون ، أن ما تحله الكنيسة على الأرض يصير محلولا فى السماء ، وما تربطه يصير مربوطا .

وكانت الكنيسة قد بلغت من التنظيم حداً ، جعل الناس جميعاً فى أوربا الغربية ، فى متناول أحكامها وقراراتها . وقد وضعت الكنيسة بصماتها ، على كل شأن من شئون الحياة ، وتدخلت حتى فى أبسط وأخص الخصوصيات ، ولم تحظ منظمة أخرى ، بمثل ما حظيت به الكنيسة آنذاك .

فمع غروب شمس القرن الثانى عشر الميلادى ، كانت أوربا كلها مسيحية ، باستثناء أجزاء قليلة منها . ففى جنوب وشرق روسيا ، لم يكن هناك من الوثنيين ، غير بعض القبائل من عنصر آسيوى ، وأيضاً كانت هناك قلة من الوثنيين فى الساحل الجنوبى الشرقى لبحر البلطيق ، وكانت أسبانيا قد خضعت للحكم الإسلامى .

وفى خلال القرن الثالث عشر ، تم إرغام الوثنيين بالقوة على إعتناق المسيحية ، بعد حروب دامية استمرت عدة سنوات . أى أنه فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، كانت المسيحية هى الديانة السائدة فى كل أنحاء أوربا على وجه التقريب . وكان معنى هذا ، أنه كان فى وسع الكنيسة ، أن تقوم بنشر المعارف المسيحية بين هذه الشعوب ، خاصة وأن المسيحية ، كانت هى الديانة الرسمية فى كل الدول الأوربية تقريباً . وكانت بلاد كثيرة قد إنضوت تحت لواء المسيحية الإسمية ، مثل روسيا واليونان ومعظم دول شبه جزيرة البلقان ، وهذه المناطق كانت تتبع الكنيسة الشرقية (اليونانية) بينما كانت بقية دول أوربا ، خاضعة لنفوذ الكنيسة الغربية أو الرومانية . ويمكن القول ، إن الكنيسة فى القرن الثالث عشر ، كانت قد أصبحت منظمة عالمية ، تضم عدة دول لها وزنها المؤثر فى مقدرات العالم لعدة قرون .

٧

دور على مسرح الشرق

[الحروب الصليبية ــ أسباب الحروب الصليبية ــ الحملة الأولى ــ الحملتان الثانية والثالثة ــ الحملة الرابعة ــ اقامة مملكة لاتينية فى الشرق ــ حملة الاطفال ــ الحملة الخامسة ــ الحملة السادسة ــ الحملة السابعة ــ الحملة الثامنة ــ النتائج العامة للحروب الصليبية] .

وفى هذه الفترة ، بذلت الكنيسة الغربية جهوداً متصلة ، لتوسيع مناطق نفوذها ، وكانت أذهان المسيحيين فى أوربا الغربية وأنظارهم ، متجهة إلى الأرض المقدسة ، فى فلسطين ، بما فيها من أماكن تاريخية ، لها مكانتها الكبرى فى نفوس المسيحيين وقلوبهم ، وكانت جماهير الشعب تحس بالمرارة ، لوقوع تلك الأماكن فى أيدى غير المسيحيين ، وفى خلال القرن العاشر الميلادى ، ساد الإعتقاد ، بأن مجىء المسيح الثانى ، قد بات وشيكا ، وأنه سوف يظهر أول ما يظهر فى مدينة القدس ، وقد عز عليهم ، أن يأتى سيدهم ، وتلك الأماكن التى وطئتها قدماه ، فى أيدى غير المسيحيين ، فعقدوا العزم على تحرير المدينة المقدسة .

وفى عام ٩٩٩ للميلاد ، عبر البابا « سلفستر » ، عن رغبته فى تحرير القدس ، لكنه لم ينجح . وعندما إنقضت السنة المكملة للألف الأولى من السنوات الميلادية ، دون أن يأتى المسيح كما توقعوا ، حاول البابا

« هلدبراند» ، أن يجند جيشاً للقيام بهذه المهمة ، لكنه لم ينجح هو الآخر . كانت هذه هى البداية لما أصبح يعرف فى التاريخ باسم الحروب الصليبية ، وقد استمرت تلك الحروب حوالى قرنين من الزمان (١٠٩٦–١٢٩١م) .

ويمكن تلخيص أسباب تلك الحروب فيما يلى :

١ – إنتشار عادة الحج وزيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين ، وكان الناس قد اعتادوا على زيارة تلك الأماكن ، والصلاة فى بعض البقاع التاريخية ، التى لها ارتباط خاص بحياة السيد المسيح ، وفى مقدمة هذه الأماكن ، القبر المقدس ، الذى دفن فيه جسد السيد المسيح ، بعد إنزاله من على الصليب .

وكان الحجيج يعتقدون أن هذه الزيارة ، بكل ما كانوا يعانونه فى سبيل القيام بها من مشقات بالغة ، هى خير وسيلة يتقربون بها إلى الله ، وينالون صفحه ورضاه .

وكان الناس ينظرون إلى الحجاج العائدين ، على أنهم أشخاص مقدسون طيلة حياتهم ، وربما كان هذا هو السبب فى إطلاق لقب « المقدس » على كل من يحظى بهذه الزيارة . وكان العامة يولمون الولائم للحجاج العائدين ، ويتبركون بهم .

وكان هؤلاء الحجاج ، يذهبون فرادى وجماعات . كانت هذه العادة متبعة وشائعة ، بين الفقراء والأغنياء ، والشرفاء والأدنياء ، ورجال الدين والعلمانيين ، الكل يشتاق أن يزور تلك الأماكن المقدسة ، ويود لو أتيحت له فرصة للقيام بهذه الزيارة . وقد اعتبرت الحملات الصليبية ، حجا جماعيا منظماً لتلك الأماكن المقدسة .

٢ ـ وقوع الأماكن المقدسة فى أيدى المسلمين الأتراك ، وقد تميز هؤلاء السلاجقة بتعصبهم الممقوت ، ووحشيتهم ، ومعاملتهم الفظة للحجاج المسيحيين .

وإحقاقا للحق نقول ، إنه منذ استيلاء المسلمين على مدينة القدس ، فى القرن السابع الميلادى ، فى عهد الخليفة « عمر بن الخطاب » ، منذ ذلك التاريخ ، بدأت المدينة تنمو وتزدهر ، ولم يتعرض أحد بسوء ، لأفواج الحجاج المسيحيين ، الذين كانوا يفدون إلى المدينة المقدسة .

لكن عندما بسط الأتراك نفوذهم ، واستولوا على بلدان آسيا الصغرى وهددوا القسطنطينية ، التى كانت مركزاً من المراكز المسيحية الكبرى فى الشرق ، تصدوا بعنف لجماهير الحجاج المسيحيين ، وحاولوا منعهم من زيارة البلاد المقدسة ، وعاملوهم بقسوة بالغة ، أثارت حفيظة المسيحيين فى الغرب ، وولدت فيهم الإحساس بضرورة إنقاذ الأماكن المقدسة المسيحية ، وبخاصة القبر المقدس ، وتخليصه من أيدى الأتراك الذين اعتبرهم المسيحيون الأوربيون ، أعدى أعداء المسيحية .

٣ ـ السبب الثالث من أسباب الحروب الصليبية ، هو إنتشار روح الفروسية فى أوربا فى ذلك العصر . وكان فرسان ذلك الزمان ، من أبناء الطبقات العليا فى المجتمع ، هؤلاء كانوا يتباهون ويتفاخرون ، بوقوفهم بجانب المستضعفين فى الأرض ، ودفاعهم عن المظلومين ، مع أن معظم هؤلاء الفرسان والمتفرسنين ، فى حياتهم الخاصة ، كانوا بعيدين كل البعد ، عن حياة الفروسية الحقيقية .

وقد وجد هؤلاء الفرسان ، فى الحملات الصليبية ، فرصة سانحة

لإشباع غرورهم ، وتغذية طموحهم ، وشوقهم لبلوغ مرتبة الفروسية ، لأنهم كانوا يعتقدون ، أنهم يحاربون ويقاتلون فى سبيل تحقيق هدف سام ومن أجل قضية مقدسة .

٤ــ كانت تلك الفترة ، فترة انتعاش ونهضة دينية ، وربما كان أقوى الأسباب التى أدت إلى الحروب الصليبية ، هو تزايد الشعور الدينى فى أوربا الغربية فى تلك الأيام ، والحماس الدينى لدى الناس هناك ، جعلهم على أتم استعداد ، للقيام بأى عمل ، فى سبيل دينهم ، وقد ظنوا ــ مخطئين ــ أنه بإمكانهم أن يلجأوا إلى الحرب ، كوسيلة لتحقيق أهداف دينية ، ناسين أن المسيحية هى دين المحبة والسلام والمسالمة . .

وساد بين الناس الإعتقاد ، بأن إنضواءهم تحت لواء الصليب ، الذى رفع شعاراً لتلك الحروب ، هو الوسيلة المثلى ، لخلاص نفوسهم .

وقد ساد هذا الشعور فى جميع الأوساط ، بين الجهلة والمثقفين ، والشرفاء والأدنياء . أى أنه كان شعوراً عاماً ، لدى أولئك الذين كان فى يدهم تسيير دفة الأمور فى العالم حينذاك .

ظلت هذه العوامل كلها حبيسة الصدور ، فى أوربا الغربية ، فى خلال القرن الحادى عشر ، وعندما خرجت الفكرة إلى حيز التنفيذ ، وجدت كثيرين ينضمون إلى صفوف المحاربين ، وما إن صدرت الأوامر حتى تحركت جماعات المقاتلين .

أما البداية فكانت هكذا ، عندما سقطت أورشليم فى أيدى الأتراك فى عام ١٠٧٦ م ، وقفوا فى طريق الحجاج الذاهبين إلى فلسطين ، وأساءوا معاملتهم كما سلف القول ، وراح الحجاج العائدون يروون الكثير من

القصص التى تتفطر لها القلوب ، عما فعله بهم الأتراك ، وقد فجرت هذه الحكايات كوامن الحقد ، إلى أن عاد من أورشليم ، ناسك يدعى « بطرس » ، هذا تقدم إلى البابا « أربان الثانى » ، طالباً منه البركة ، واستأذنه فى دعوة مواطنيه إلى إنقاذ المدينة المقدسة من أيدى الأتراك ، فأذن له البابا . عندئذ راح يذرع البلاد شرقاً وغرباً ، ممتطياً ظهر حمار ، وكان رجلا طاعنا فى السن ، وكم كان منظره مؤثراً ، عندما كان الناس يرونه عارى الرأس حافى القدمين ، وحيثما ذهب ، كان يثير الحمية فى نفوس سامعيه ، بذلاقة لسانه ، وقوة بيانه ، وخطبه النارية الملتهبة .

بعد ذلك عقد البابا مجمعاً فى بلاسنزا ، دعا لحضوره الإمبراطور « ألكسيوس كومنينوس » ، إمبراطور الإمبراطورية الشرقية ، الذى أوفد مندوبين عنه يطلبون من البابا العون والمساعدة ، لحماية القسطنطينية من الخطر الذى كان يتهددها ، من غزو الأتراك ، وقد حضر المجمع ، ما لا يقل عن ألفين من الأساقفة والكهنة ، وقد تمخض هذا المجمع ، عن فكرة القيام بحملة عسكرية .

بعد ذلك عقد البابا اجتماعا فى كليرمونت فى عام ١٠٩٥م ، وعندما وقف البابا على سلم الكاتدرائية ، وبجواره مندوبو الإمبراطور الشرقى ، « وبطرس الناسك » ، الذى راح يخطب فى الجماهير المحتشدة ، إندفعت الآلاف فى حماس شديد ، وارتفعت أصواتهم بالهتاف : « إنها إرادة الله » ، وسرعان ما علق كل منهم على كتفه اليمنى ، شارة حمراء عليها رسم الصليب ، الذى صار شعاراً لتلك الحملات التى اشتهرت فى التاريخ باسم « الحملات الصليبية » ، نسبة لهذا الشعار .

وسرعان ما تكون جيش جرار ، وإن يكن غير منظم .. وقد اختلفت الآراء حول عدد تلك الحملات ، فقيل إنها ثمانية ، كما قال البعض إنها سبعة ، بينما قال آخرون إنها أربعة فقط .

الحملة الأولى (١٠٩٥ م) :

وقد إنضم إلى هذه الحملة حوالى ستين ألف رجل ، لم يسبق لهم الاشتراك فى مثل هذا العمل ، كما لم يسبق هذه الحملة أى إعداد مما تتطلبه تلك الحملات ، لكن هؤلاء الرجال ، انضموا إليها مدفوعين إلى ذلك بحماسهم الزائد .

وقد شقت تلك الحملة طريقها إلى القسطنطينية ، عبر أراضى هنغاريا وبلغاريا . وفى الطريق سقط آلاف من الرجال ضحية الجوع والمرض ، ولسد حاجتهم إلى المؤونة والطعام ، كانوا يلجأون إلى أعمال السلب والنهب مما أدى إلى وقوع مناوشات ومصادمات ، بينهم وبين أهالى البلاد التى مرت بها الحملة فى طريقها .

وعندما وصلت البقية الباقية من رجال الحملة إلى القسطنطينية ، لم يجدوا أى ترحيب من أهلها ، مع أنهم قادمون لمساعدتهم ، ودرء الخطر عنهم . وقد عبر هؤلاء الرجال مضيق البوسفور ، لكنهم وقعوا فى الفخ ، الذى نصبه لهم الوالى السلجوقى المخادع « داود » ، الذى أرسل إليهم بعض الجواسيس ، باخبارية كاذبة تفيد أن المسيحيين قد استولوا على عاصمة نيقية فى بيثينية ، وما إن وصلوا إلى هناك ، حتى وجدوا أنفسهم ، وقد وقعوا فى كمين أعده لهم الأتراك ، ولم ينج من أفراد هذه الحملة ، سوى أقلية ضئيلة ، وكان « بطرس الناسك » واحداً من الناجين .

وبعد عام كامل من تسيير الفرقة الأولى ، تقدم أول جيش منظم بقيادة « جودفرى » دوق اللورين ، ومجموعة من النبلاء والأمراء العظام فى أوربا : وكان قوام هذه المجموعة الثانية ، حوالى ثمانين ألف رجل ، وصلوا إلى القسطنطينية ، وعبروا إلى آسيا ، وقد أمدتهم الإمبراطورية الشرقية بكافة احتياجاتهم .

وفى البداية استولوا على نيقية ، ومنها تقدموا إلى إدسا ، وأقاموا مملكة مسيحية ، إتخذوا إدسا عاصمة لها ، ومن إدسا ، توجهوا إلى أنطاكية ، واستولوا عليها بعد قتال شرس وعنيف ، وأخيراً بلغوا القدس ، واستولوا عليها فى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ م ، لكنهم كانوا قد تحملوا خسائر فادحة .

وقد اختير « جودفرى » دوق اللورين ، للجلوس على عرش تلك المملكة المسيحية ، لكنه رفض أن يتوج بتاج من الذهب ، بينما كان نصيب سيده (المسيح) ، تاجاً من الشوك .

وكان « بطرس الناسك » من بين الحاضرين فى حفل التتويج ، وعندما رآه الحاضرون ، راحت جموعهم تنحنى وتهتف له ، تقديراً للدور الكبير الذى قام به ، فى العمل على إنقاذ الأماكن المقدسة ، وكان هذا الحفل هو آخر العهد ببطرس الناسك ، الذى اختفى بعد ذلك نهائياً من المشهد .

وفى السنة التالية ، مات « جودفرى » ، وخلفه على عرش المملكة المسيحية فى الشرق ، أخوه « بالدوين » ، الذى أقيم حفل تتويجه فى بيت لحم .

وهكذا تم تأسيس مملكة وبطريركية لاتينية (رومانية) فى أورشليم ، وتم تعيين رئيس أساقفة وأساقفة هناك، وبهذا بدا للأوربيين ، أنهم قد حققوا حلمهم القديم ، بإقامة دولة مسيحية فى فلسطين .

الحملتان الثانية والثالثة :

وقد تم تسيير الحملة الثانية فى عام ١١٤٧ م ، على أثر استيلاء الأتراك على مدينة إدسا ، الأمر الذى عرض المملكة المسيحية للخطر . فهب « برنارد » ، رئيس دير كليرفو ، بتحريض الإمبراطور « كونراد الثانى » على القيام بحملة ، يشترك فيها « لويس السابع » ملك فرنسا ، وكانت هذه الحملة مجرد مغامرة من بدايتها إلى نهايتها ، بسبب خيانة « مانويل » ، الإمبراطور الشرقى وغدره .

وقد حاصرت تلك الحملة مدينة دمشق ، لكنها لم تتمكن من الإستيلاء عليها ، فعاد « كونراد » و « لويس » إلى بلديهما ، وقد امتلأت نفساهما بمرارة الهزيمة والفشل ، خاصة وأن « برنارد » ، كان قد سبق وتنبأ لها بالنصر ، وقد حاول فيما بعد ، أن يعلل عدم تحقق نبوءته ، ويعزو فشل الحملة ، إلى فساد أخلاق المقاتلين .

وفى عام ١١٨٧ م ، استولى المسلمون بقيادة « صلاح الدين » ، على مدينة القدس .

وفى عام ١١٨٩ ، سير الأوربيون حملة ثالثة لاسترداد بيت المقدس وقد اشترك فى تلك الحملة ، الإمبراطور « فريدريك باربارسا » ، وكان شيخاً مهيب الطلعة ، كما اشترك معه فيها ، « فيليب أغسطس » ملك فرنسا ، « ورتشارد قلب الأسد » ملك إنكلترا .

وتقدم الجناح الذى كان يقوده الإمبراطور « فريدريك » إلى أيقونية واستولى عليها ، لكنه أغرق فى نهر كاليكادنوس ، بينما كان يستحم فى مياهه . ويقال إنه لم يبلغ القسطنطينية ، سوى عشر عدد الرجال الذين كانوا تحت قيادته ، لأن غرق الملك ، أثر على روحهم المعنوية .

واستولت الفرق الأخرى من الحملة ، على يافا وأشقلون ، وبينما الحملة ماضية فى طريقها ، اختلف « ريتشارد » مع « فيليب » ، فعاد هذا الأخير إلى بلاده (فرنسا) .

بعد ذلك اتصل « صلاح الدين الأيوبى » برتشارد قلب الأسد ، وتعهد له بضمان سلامة وصول الحجاج المسيحيين إلى الأماكن المقدسة ، وفى ضوء هذا الإتفاق ، يمم « رتشارد » وجهه قاصداً العودة إلى إنكلترا ، لكنه أسر فى الطريق ، ثم أطلق سراحه مقابل فدية دفعها الإمبراطور « هنرى السادس » .

بعد ذلك حاول البابا « سلستين الثالث » فى عام ١١٩٦ م، تسيير حملة أخرى ، بالإشتراك مع الإمبراطور « هنرى السادس » ، وقد إنضم إلى تلك الحملة كثيرون من النبلاء والفرسان ، غير أن الإمبراطور مات قبل البدء فى تسيير تلك الحملة . وكان المنضمون إليها جماعات متنافرة ، لم يجمع بينها سوى الحماس الكاذب ، والتعطش لسفك الدماء ، واستعراض البطولة ، تحقيقاً لروح الفروسية ، التى سادت أوربا فى ذلك الزمان .

لهذا لم يكن لهم فكر واحد ، فحدث بينهم الكثير من سوء الفهم ، وآل بهم الأمر فى خاتمة المطاف ، إلى مذبحة رهيبة فى يافا ، قضت عليهم قضاء مبرماً .

الحملة الرابعة (إقامة مملكة لاتينية فى الشرق) :

وقد تم تسيير هذه الحملة فى سنة ١٢٠٢ م ، فى عهد البابا « إنوسنت الثالث » ، وقد نقل أفراد هذه الحملة إلى فينيسيا عن طريق البحر ، واستولت على القسطنطينية بعد معارك دامية ، اتسمت بوحشية بالغة . فسقطت الإمبراطورية البيزنطية ، وحلت محلها مملكة لاتينية ، استمرت حتى عام ١٢٦١ م ؛ بعد ذلك استرد اليونان إمبراطوريتهم الشرقية .

وهكذا نرى أن تلك الحملة – (الرابعة) – قد خرجت عن هدفها الرئيسى ، وبدلا من استرداد القدس من أيدى غير المسيحيين ، إتجهت إلى محاربة المسيحيين ، واستولت على القسطنطينية ، وأقام المسيحيون الأوربيون لأنفسهم مملكة ، على أنقاض إمبراطورية مسيحية أخرى ، وكان هذا سبباً من أسباب توسيع شقة الخلاف ، بين الكنيستين الشرقية والغربية .

من هذا نرى ، أن هؤلاء القوم ، الذين انضووا تحت لواء الصليب ، والصليب براء منهم ومن حملاتهم ، إنما كانوا يحاربون حبا فى الحرب ذاتها ، ولإشباع نهمهم للبطولة والفروسية . لقد إتخذت حملاتهم الصليب شعاراً ، لا بل ستاراً ، لتحقيق أغراض ، بعيدة كل البعد عن روح المسيحية ، وديانة المصلوب ، الذى نبذ العنف ، وعلم أتباعه كيف يسالمون .

حملة الأطفال :

وهذه الحملة تصور لنا حالة الهوس الدينى ، التى سيطرت على الأذهان فى ذلك الزمان . وقد اشترك فى هذه الحملة ثلاثون ألفا من الأولاد والبنات ، مدفوعين بروح الحماس الدينى المتهور .

وقد توجهت الحملة إلى مرسيليا ، بقيادة ولد إسمه « استفانوس » ، وفقد الكثيرون من الأطفال قبل الوصول إلى مرسيليا .

وفى ميناء مرسيليا ، ظلوا ينتظرون ، وكان يسيطر عليهم الإعتقاد ، بأن الله سوف يشق أمامهم مياه البحر ، لكى يعبروا هم على اليابسة ، مثلما فعل فى القديم مع بنى إسرائيل ، وقت أن خرجوا من مصر ، بقيادة موسى النبى .

وتقدم بعض التجار ، وعرضوا عليهم أن يقوموا بنقلهم بلا مقابل ، إلى فلسطين خدمة لله ، وتطوعاً ، ومساهمة منهم فى إتمام المهمة المقدسة ، التى انتوى الأطفال القيام بها . فركب الأطفال المساكين ، وهم لايعلمون أنهم يساقون إلى حيث يباعون فى أسواق النخاسة . إذ أن أصحاب السفائن ، لم يكونوا سوى جماعات من تجار الرقيق الماكرين ، الذين أخذوهم وباعوهم ، فى الجزائر والإسكندرية .

وكانت هناك مجموعة أخرى من الأطفال ، بقيادة واحد من أبناء الفلاحين يدعى « نقولا » ، وقد إتجه كثيرون من هؤلاء إلى ميناء برنديزى ، لكى يركبوا البحر من هناك إلى فلسطين ، لكن لم يسمع عنهم بعد ذلك خبر ما .

كما وصل خمسة الآف طفل آخرون إلى جنوه ، وقد منعهم الأهالى من الرحيل إلى فلسطين ، فاستقروا وعاشوا هناك .

الحملة الخامسة :

فى مجمع لاتيران الرابع ، أعلن البابا « إنوسنت الثالث » ، عن رغبته الشخصية فى الذهاب مع حملة حربية إلى الأراضى المقدسة ، لكن الوقت كان متأخراً بالنسبة له ، إذ وافته المنية فى عام ١٢١٦ م .

وفى السنة التالية لوفاته (١٢١٧) ، أخذ الملك « أندرو » ملك هنغاريا ، على عاتقه مهمة القيام بهذه الحملة ، غير أنه فشل فى الإستيلاء على قلعة واقعة فوق جبل تابور ، فكر عائداً إلى بلاده ، وتولى واحد من الجرمانيين قيادة الحملة بعد ذلك ، وأرسلت الإمدادات من كل من إنكلترا وفرنسا ، كما إنضم إلى الحملة بعض من أهالى جبل الكرمل . وعند مجىء الإمدادات الفرنسية والإنكليزية ، أرادت أن تشق طريقها إلى فلسطين ، عبر الأراضى الساحلية المصرية ، فاستولت على دمياط ، لكن الأهالى ، قاوموهم مقاومة عنيفة ، وحاربوهم ببسالة منقطعة النظير ، واضطروهم إلى الإستسلام ، وهكذا فشلت الحملة الخامسة .

الحملة السادسة :

فى عام ١٢١٤ م ، كان الإمبراطور « فردريك الثانى » ، قد تعهد فى شبابه بالإنضمام إلى الحملة التى انهزمت عند دمياط . لكنة لم يتمكن من الوفاء بتعهده آنذاك .

وفى عام ١٢٢٧ م . ، جمع « فردريك » بعض القوات ، وأبحر بها من ميناء برنديزى ، لكن الحمى تفشت بين رجاله ، فاضطر للعودة إلى إيطاليا . وعلى أثر عودته ، أصدر البابا « غريغوريوس التاسع » قراراً بفصل الإمبراطور من عضوية الكنيسة .

لكن « فردريك » واصل الإعداد والإستعداد ، ولم يشأ الإنتظار حتى يصدر البابا قراراً بالعفو عنه ، وانطلق متجها إلى فلسطين ،ونظراً لأنه كان لم يزل تحت حكم القطع والحرمان ، لم يلق أى ترحيب من الكهنة اللاتين . وكبر جرمه كثيراً ، عندما تفاوض مع السلطان ، فاعتبرت الكنيسة هذا التصرف خيانة عظمى لها . لكنه عقد مع السلطان معاهدة ،

بمقتضاها أصبحت بيت المقدس ، تحت نفوذ الإمبراطور ، فيما عدا جامع عمر ، وأيضاً مدن يافا والناصرة وبيت لحم .

وبعد التوقيع على المعاهدة ، دخل السلطان والإمبراطور معاً إلى مدينة القدس (١٢٢٩) . ولما لم يكن هناك أحد من الكهنة لتتويجه ، قام هو بنفسه بوضع التاج على رأسه ورأس زوجته .

بعد ذلك عاد الإمبراطور إلى أوربا معتزاً بانتصاره السلمى ، وكان البابا حانقاً عليه أشد الحنق ، فأصدر قراراً ثانياً بحرمه ، والغريب أن هذا القرار الجديد ، كان بسبب ذهابه إلى فلسطين ، وتحقيق الهدف من الذهاب إلى هناك ، دون إراقة قطرة دم واحدة ، على عكس القرار الأول ، الذى صدر بفصله من عضوية الكنيسة ، لأنه لم يكمل مسيرته ، وعاد إلى بلاده .

الحملة السابعة :

فى عام ١٢٤٥ م . ، عقد مجمع فى ليون ، وأبدى « لويس التاسع » ملك فرنسا ، استعداده للذهاب إلى فلسطين ، التى كانت مسرحاً لمذابح دموية ، قتل فيها كثيرون من المسيحيين ، بأيدى الأتراك الهاربين من وجه الزحف المغولى على وسط آسيا .

وفى عام ١٢٤٨ م . ، أبحرت الحملة إلى قبرص ، حيث بقيت إلى نهاية فصل الشتاء . بعد ذلك أخذت الحملة طريقها إلى دمياط ، واستولت عليها ، ثم واصلت الحملة زحفها إلى القاهرة ، وفى الطريق ، أسر الملك « لويس التاسع » ، وأخذ إلى المنصورة ، هو وعشرة آلاف جندى ، تم اسرهم معه ، وقد أعدم المصريون بمعظم هؤلاء الجنود ، لم ينج منهم سوى أقلية ضئيلة أعلنوا اعتناقهم الإسلام .

أما « لويس التاسع » ، فتم إطلاق سراحه ، مقابل الجلاء عن دمياط ، وبعد دفع فدية كبيرة . كما تم إطلاق سراح قادة الحملة ، مقابل فدية دفعوها .

وبعد قيامه بزيارة الناصرة ، وهو يرتدى ثوبا من الخيش ، عاد « لويس التاسع » إلى بلاده ، يجرجر أذيال الخيبة والفشل .

الحملة الثامنة :

وهى آخر الحملات الصليبية ، وقد تم تجهيزها فى عام ١٢٧٠ م . ، تحت قيادة ملك فرنسا ، الذى نزل بقواته فى البداية فى تونس ، ويقال إن حاكم تونس ، أعلن عن رغبته فى اعتناق المسيحية ، وقد تبادر إلى ذهن الملك ، أن وجود جيش كبير فى تونس ، سيكون عاملا مؤثراً فى هذا الموقف .

بعد ذلك جاء الملك « أدوارد الأول » ملك إنكلترا ، على رأس جيش قوامه الف رجل ، واستولوا على الناصرة ، وارتكبوا فيها جرائم بشعة ، راح ضحيتها كثيرون من أهل فلسطين .

فى أثناء هذه الحملة ، وقعت ، محاولة لقتل الملك « إدوارد الأول » فقامت زوجته (الملكة إليانور) بعلاجه ، وامتصت من جراحه السم بفمها ، فماتت وعاش هو ، وبهذا خلفت تلك الزوجة الوفية المضحية ذكرى خالدة ، إذ ضربت مثلا رائعاً فى التضحية .

وقد ختم الملك إدوارد هذه الحملة ، بفترة سلام استمرت عشر سنوات ، عاد بعدها إلى بلاده .

وفى تونس ، مات الملك « لويس التاسع » بسبب إصابته بالطاعون .

وهكذا وصلت الحروب الصليبية إلى نهايتها ، دون أن تحقق الغرض الذى قامت من أجله . وقد استمرت تلك الحروب حوالى قرنين من الزمان .

وفى عام ١٢٩١ م . ، عادت الأمور فى فلسطين مرة اخرى إلى ماكانت عليه ، وأصبحت الأماكن المقدسة المسيحية ، فى أيدى المسلمين .

بعد ذلك بذلت محاولات فاشلة ، لشن حروب صليبية أخرى ، لكن الحماس الدينى القديم ، كان قد انطفأت ناره ، وخبا أواره .

النتائج العامة للحروب الصليبية :

يرى البعض أن الحروب الصليبية لم تحقق نتائج سريعة فى وقتها ، لكن الباحث المدقق ، يمكنه أن يرى ، أن هذه الحروب ، كانت لها آثار بعيدة ، ظهرت بعد ذلك بزمان طويل ، نذكر من هذه النتائج ما يلى :

١ — حققت تلك الحروب زيادة لنفوذ البابا ، إذ خضع لسلطانه ، جميع الحكام فى دول غرب أوربا ، فقدموا الكثير من ممتلكاتهم للكنيسة ، كما نذر بعضهم حياة الرهبنة ، وتبرع بكل ممتلكاته للكنيسة ، أى أن هذه الحروب قد أيقظت فى النفوس نوعا من الحمية الدينية .

وفى أثناء تلك الحروب ، كانت الكنيسة تقوم بتحصيل ضريبة أسمتها « عشر صلاح الدين » ، ورغم توقف الحروب الصليبية ،

استمرت الكنيسة فى تحصيل تلك الضريبة ، التى ظل الناس يدفعونها بعد ذلك فترة طويلة ، فكانت مصدراً كبيراً من مصادر الدخل ، يدر إيراداً كبيراً ، لخزينة البابا .

٢ — أدت هذه الحروب ، إلى التوسع فى إستخدام الغفرانات ، التى كانت الكنيسة تقدمها للمقاتلين والمتطوعين للقتال ، كحوافز لهم .

٣ — أيقظت هذه الحروب فى النفوس روح المقاتلة ، تحت شعار الغيرة الدينية ، لأن رؤية الدم ، تثير فى النفوس الرغبة فى سفك المزيد منه ، لذلك لانستغرب ،إن رأينا « سيمون دى منتفورت» يعود من إحدى الحملات الصليبية ، ليشن حرباضارية ضد الألبيين ،وهم فرقة من المسيحيين.

٤ — أدت تلك الحروب إلى الحيلولة دون سقوط دول شرق أوربا فى أيدى المسلمين ، الذين شغلتهم الحروب الصليبية ، عن التوسع فى تلك المناطق ، بالدفاع عن بلادهم .

٥ — أدت الحروب الصليبية ، إلى توحيد دول غرب أوربا .

٦ — عاد المقاتلون الأوربيون إلى بلادهم ، بكلمات جديدة ، وأفكار عن حضارة جديدة ، هى الحضارة العربية ، التى فتحت أمامهم آفاقا جديدة .

٧ — اتسع نطاق المعرفة ، فى مجالات الصناعة والتجارة .

٨ — أدت الحروب الصليبية إلى ظهور طبقة جديدة ، هى الطبقة المتوسطة ، التى أخذت طريقها بالتدريج لتصبح العموذ الفقرى للمجتمعات الجديدة .

هذا بالنسبة للغرب ، أما فى الشرق ، فإن هذه الحروب ، قد أوغرت صدور المسلمين ، على مواطنيهم من المسيحيين الشرقيين ، وأوجدت بين الفريقين حساسيات بالغة ، لازالت تلعب دوراً خطيراً فى العلاقات بينهما ، رغم أن المسيحيين الشرقيين ، لم يكن لهم فى هذه الحروب ناقة ولاجمل .

كما وسعت هذه الحروب شقة الخلاف ، بين الكنيستين الشرقية والغربية .

بل ويمكننا أن نقول إن روح التعصب التى ولدتها هذه الحملات ، لم تقف عند حد ، فامتد تأثيرها ، إلى أن ظهرت فيما بعد ، فى صورة التعصب الطائفى أو المذهبى ، بين أبناء الدين الواحد فى الوطن الواحد .



ثروة الكنيسة

[الكنيسة فى قائمة كبار الملاك ــ الكنيسة والمشروعات الخيرية] .

الكنيسة فى قائمة كبار الملاك :

لـكى تكون لدينا فكرة حقيقية ، عن مدى قوة الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى ، علينا ألا نقف عند حد الإلمام ، بمدى اتساع نفوذ الكنيسة فى رقاع أوربا ، بل يجب أن نعرف جيداً، ما أصبح فى حوزة الكنيسة من ممتلكات ومقتنيات . لقد كانت الكنيسة تملك اقطاعيات شاسعة كما كانت تمتلك الكثير من القصور المنيفة ، المؤثثة بأفخر أنواع الرياش ، ومعظم هذه الممتلكات ، آل إلى الكنيسة عن طريق الهبات والتقدمات ، التى قدمها الأتقياء ، كما كان الحكام يقطعون الإقطاعيات الكبيره للأساقفة والأديرة ، لـكى تتولى إدارتها واستغلالها ، مقابل تقديم العون لهؤلاء الحكام فى خلال الأزمات ، وتقديم جزء من حصيلة إيرادات تلك الضياع ، لخزينة الملك .

وهناك مناطق كبيرة ، بل ممالك بأسرها ،اعتبرت أراضيها ملكا خاصاً للبابا . وهكذا وجدت الكنيسة نفسها ، وقد أصبحت فى حوزتها ، مساحات مترامية الأطراف من الأراضى فى غرب أوربا .

وعلى سبيل المثال ، كانت الكنيسة تمتلك ربع الأراضى فى كل من إنكلترا وفرنسا ، كما كانت تملك أكثر من هذه النسبة فى كل من إيطاليا وأسبانيا .

لهذا تدفق المال بغير حساب ، فى خزينة الكنيسة ، من ريع هذه الأراضى ، ومن العشور التى كان الناس يدفعونها ، مقابل تمتعهم بالخدمات التى كانت الكنيسة تقدمها لهم ، أو مقابل شراء الغفرانات .

وكان للبابا دخله الخاص من ممتلكاته الشخصية ، ومن الضريبة السنوية ، التى يقدمها الكاثوليك فى كل البلاد ، للكرسى البابوى ، تلك الضريبة التى كانوا يطلقون عليها « فلس بطرس » .

من هذا نرى أن الكنيسة كانت فى هذه الفترة ، أغنى وأكبر قوة فى أوربا ، وكان لها من الموارد المالية ، ما يفوق كثيراً ما كانت تملكه أى حكومة من الحكومات المدنية آنذاك ، ولو أن الناس فقدوا إيمانهم بالسلطان الروحى للكنيسة ، ما كان لهم مناص ، من الإقرار بسلطانها بسبب ما كانت تتمتع به من غنى فائق .

الكنيسة والمشروعات الخيرية :

فى العصور الوسطى ، لم تكن الحكومات تقدم للشعوب أى خدمة من الخدمات الإجتماعية أو الصحية ، أو أى شىء من الخدمات التى تقدمها الحكومات لرعاياها فى أيامنا الحاضرة .

لكن الكنيسة كانت تقوم من جانبها بهذا الدور الهام ، وتقدم الكثير من هذه الخدمات العامة ، للمرضى والفقراء ولم تبخل عليهم بشىء ، لهذا كان المال عنصراً رئيسياً من العناصر التى عززت سلطان الكنيسة ، ومكانتها فى قلوب الناس .

٩

نظام الكنيسة فى العصور الوسطى

[البابا ـ رؤسـاء الأسـاقفة والأسـاقفة ـ الكهنة ـ الرهبان] .

البابا :

كان البابا هو رأس الكنيسة ، والحاكم المطلق فيها ، وجميع الأساقفة ، كانوا يدينون له بالولاء التام ، ويوجهون كل رعاياهم ، للخضوع لأوامر البابا ، وبعد أن كان الأساقفة ، يصلون إلى مراكزهم بطريق الإنتخاب ، ابتداء من عهد البابا « إنوسنت الثالث » ، أخذ البابوات فى أيديهم بالتدريج ، سلطة تعيين الأساقفة ، و كانت الألوف من الرهبان ، تحت السلطان المباشر للبابا ، الذى اتسعت دائرة نفوذه .

بعد ذلك اعتبرت المراسيم البابوية ، لها نفس القوة ، التى كانت لقرارات المجامع الكنسية ، وأصبحت كلمة البابا هى النافذة ، وسلطته هى العليا ، حتى الشئون الزمنية ، أصبح تصريف معظمها ، يتم بمعرفة البابا .

رؤساء الأساقفة والأساقفة :

بعد البابا مباشرة ، كان رؤساء الأساقفة ، يديرون مقاطعات تتكون من عدة أبروشيات. بعد هؤلاء يأتى الأساقفة ، وكل أسقف كان

يشرف على أبروشية واحدة ، وفى هذه الأبروشية ، كان الأسقف يشرف على الكهنة العاملين فيها ، كما كان يدير الشئون العامة للكنيسة ، ويشرف على المدارس الموجودة فى أبروشيته .

وكان الأسقف كذلك ، يقوم بخدمة التثبيت ، ورسامة الكهنة فى دائرة إشرافه .

وبسبب ماكان يتمتع به هؤلاء الأساقفة من غنى ، وماكان فى حوزتهم من أموال وممتلكات ، كان الناس ينظرون إليهم ، على أنهم حكام روحيون . وقد عاش هؤلاء عيشة الرفاهية والتنعم ، لم يكن هناك فرق بينهم وبين الأمراء ، وكان بوسعهم أن يجندوا الجيوش :

الكهنة :

كان الكهنة فى الأبروشيات ، على اتصال مباشر بعامة الشعب ، من أعضاء الكنائس فى العصور الوسطى ، وكانت لهؤلاء الكهنة سلطات واسعة ، لا يتمتع بها أحد من الكهنة فى العصر الحديث ، وذلك يرجع إلى أنهم ، كانوا يحتفظون بالأسرار المقدسة ، هذه الأسرار ، التى كان الناس يعتبرونها من ألزم الضروريات لخلاص نفوسهم ، أى أنه كان للكهنة فى تلك العصور سلطان خطير .

وعن طريق سر الإعتراف ، كانوا يسيطرون على سلوك الناس ، ويوجهون تصرفاتهم . وكان الكهنة يقومون بتعليم الأولاد والبنات أمور دينهم ، كما كانوا أحيانا يقومون بأمر التعليم العام ، للفقراء وعامة الشعب ، بسبب قلة المدارس فى ذلك الزمان . أيضاً كانوا يقدمون للناس الإعانات والصدقات ، من حصيلة النذور والعشور .

من هذا نرى أن الكاهن فى تلك الأيام ، كان يمارس اختصاصات المعلم فى المدرسة ، والقاضى فى المنازعات البسيطة ، ورجل الشرطة فى أمور الضبط والربط ، والعناية بالفقراء ، فضلا عن الخدمة الدينية ، وممارسة الأسرار الكنسية .

ولم يكن جميع الكهنة على مستوى المسئولية ، ولم تكن لهم الصلاحيات التى تؤهلهم ، لمباشرة كل هذه السلطات والإختصاصات ، فى آن واحد معاً ، نظراً لأنه كان منهم كثيرون ، يميلون إلى حياة الراحة والدعة . ولأن بعضا منهم ، لم يكن لديه القدر الكافى من الثقافة ، بل إن بعضا منهم كان من الجهال .

وقد تطرقنا لشرح مسئوليات الكهنة وسلطاتهم ، للوصول إلى تكوين فكرة عن مدى ما كان للكنيسة من تأثير ، فى حياة الناس ، وتدخلها فى كافة شئون حياتهم فى فترة العصور الوسطى .

الرهبان :

بجانب رجال الإكليروس ، كان يقوم بالخدمة ، جيش جرار من الرهبان ، الذين كانوا يعيشون فى الأديرة ، فى جماعات منظمة ، لها وزنها وتأثيرها ، على حياة الكنيسة . وقد رأينا فى صفحات سابقة ، كيف أخذ فريق من الرهبان على عاتقهم ، القيام بحركة إصلاحية فى الكنيسة . وكان هؤلاء الرهبان من دير كلونى ، وقد نجحوا فى تنفيذ البرنامج ، الذى وضعوه لإصلاح كل نواحى الحياة فى الكنيسة .

ومما يؤسف له ، أن مستوى الرهبان ، مال مرة أخرى للإنحطاط ، بعد تلك الحركة الإصلاحية الرائعة ، التى تمت فى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

لكن بعد ذلك قامت حركة رهبانية أخرى تتبع النظام البندكتى ، الذى أصبحت تتبعه معظم الأديرة الناشئة .

وقد تزعم هذه الحركة ، « برنارد » رئيس دير كليرفو ، وكان هذا الرجل من أعظم رجالات العصور الوسطى . وفى خلال أربعين عاماً ، تاسس حوالى خمسمائة دير من الأديرة التابعة لهذا النظام ، وكان رهبان هذه الأديرة يعدون بالآلاف ، وكان من بينهم مجموعة من أفضل الناس ، الذين شهدتهم تلك الفترة من الزمان . وبتأثير الحياة الفاضلة ، التى تميز بها « برنارد » رئيس الدير ، بدأت الرهبنة تعود إلى مثلها العليا ، ويمكن القول بأن بعض الأنظمة الرهبانية الأخرى ، قد سلكت نفس هذا المنهج .

وكان الرهبان يخضعون لإشراف الأساقفة ، الذين تقع فى أبروشياتهم ، الأديرة التى يعيشون فيها .

لكن شيئاً فشيئاً ، أصبحت الأديرة تحت الإشراف المباشر للبابا ، الذى إنتزع لنفسه هذا الحق من الأساقفة ، وكان هذا سبباً مباشراً لازدياد نفوذ البابا ، الذى أصبحت تتبعه ، وتخضع له ، جميع الأديرة ، بالآلاف المؤلفة من الرهبان العائشين فيها ، وما يتبعها من إقطاعيات وممتلكات فى كل أنحاء أوربا .

وفى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، كانت أوربا قد بلغت شأواً كبيراً من الحضارة ، لم يكن لها به سابق عهد ، ولم يعد الناس بحاجة إلى الخدمات التقليدية ، التى كان يقوم بها الرهبان من قبل ، لكن بالرغم من ذلك ، كان الرهبان يقومون بالعديد من الخدمات النافعة .

ولم يقتصر عمل الرهبان على نسخ الكتب ، وحفظها فى مكتبات الأديرة

والحفاظ على هذا التراث الأدبى . بل كانت الأديرة تقدم خدمات ذات اتصال وثيق ومباشر بحياة الناس . فمدارس الأديرة كانت تعلم الناس بالمجان وعندما أنشئت الجامعات فى سنة ١٢٠٠ م . تقريباً ، أخذت من الأديرة اختصاص التعليم العالى ، واقتصرت خدمة الأديرة ، على تقديم المراحل الأولى والمتوسطة من التعليم ، كما كانت مستشفيات الأديرة ، تعنى بالمرضى والمسافرين الغرباء ، كما كانوا يقدمون المساعدات السخية للفقراء والمعوزين . كما كان الرهبان يسارعون بإغاثة المنكوبين فى الكوارث والأوبئة ، التى كانت تهدد الناس فى تلك العصور .

ولا شك فى أن الفساد قد دب فى الأنظمة الرهبانية فى العصور الوسطى وحقاً صدق من قال ، إن حياة الرهبان فى تلك العصور المظلمة ، ليست أفضل من مستوى تلك العصور ، وكانت الأثرة والأنانية هى الخطيئة الفظيعة ، التى تعرضت لها أنظمة الرهبنة المتعددة ، وذلك بسبب الثروة والممتلكات التى كانت فى حوزة الأديرة ، تلك الثروة والممتلكات ، التى جاءت إلى الأديرة كعطايا وهبات ، تضاعفت نتيجة لمجهودات الرهبان ، الذين كانوا يعملون فى المزارع ، وإدارة الممتلكات ، وقد ترتب على ذلك ، تضاعف اهتمام الرهبان بممتلكات أديرتهم ، أكثر من اهتمامهم بخدمة الآخرين ، والعمل على قيادتهم إلى حياة السمو الروحى .

١٠

تعاليم الكنيسة وأحكامها

[الحـل والغفران ـ المطهر ـ العقـوبات الكنسية ـ القانون الكنسى والمحاكم المدنية ـ محاكم التفتيش ـ نظرة الناس الى الهرطقة فى العصور الوسطى] .

عندما دخلت الآلاف المؤلفة إلى المسيحية ، دون سابق تعليم أو تثقيف روحى ، كان لزاما على الكنيسة أن تتولى تعليمهم ، بعد إنضمامهم إلى عضويتها . خاصة وأن النظام الكنسى كان قد بدأ يستقر ويأخذ وضعه ، فى الفترة التى نحن بصددها الآن وأصبح نظاماً محكما .

الحل والغفران :

وكانت تعاليم الكنيسة تقضى بأن يقوم كل واحد بالاعتراف أمام الكاهن ، مرة واحدة على الأقل كل عام . وهؤلاء المعترفون ، كان عليهم أن ينفذوا ما يأمرهم به الكاهن من أعمال ، تبعاً للخطايا التى يعترف بها كل منهم . وكان الكاهن يوصى المعترف بالقيام ببعض الأعمال ، مثل الصوم لمدة معينة ، أو زيارة بعض الأماكن المقدسة ، أو إتيان بعض الأعمال ، بقصد تذليل النفس وتعذيبها ، طلبا للغفران ، وإعلانا عن توبته .

وكانت لدى الكهنة كتب ، تتضمن بيانا بالعقوبات المقابلة ، لكل خطيئة يرتكبها الإنسان ، وكان الهدف من تداول هذه الكتب ، هو حفظ الناس

من ارتكاب المعاصى ، عندما يعلمون ، ما تجلبه عليهم خطاياهم من عقوبات ، مما يتطلبه حصولهم على غفران لهذه الخطايا . وبعد قيام المعترف بكل ما يطلب منه ، كان الكاهن يعطيه الحل ، ويعلن أن الله قد غفر له خطاياه .

بعد ذلك تطورت الفكرة ، إلى أن الكنيسة ليس من حقها فقط ، أن تعلن غفران الله لخطايا البشر ، لكنها تملك سلطة غفران الخطايا للناس بواسطة الكهنة ، وهكذا أصبح الحل الذى يعطيه الكاهن للإنسان غفرانا لخطاياه ، وليس مجرد إعلان غفران هو من سلطان الله وحده لا سواه .

المطهر :

كانت تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، تعلن ، أنه بالإعتراف ، وقيام المعترف بما يوصيه به الكاهن من أعمال كفارية ، وإعلان الحل أو غفران الخطايا ، يحصل المعترف على رفع جرم الخطايا عنه ، وبالتبعية ، يرفع عنه كذلك قصاصها الأبدى ، لكن بعد ذلك يبقى ، ما كانوا يطلقون عليه « العقاب الزمنى للخطية » ، والجزء الرئيسى من هذه العقوبة هو آلام المطهر ، التى يجب أن يجتاز فيها ، ويعانيها كل من يخطىء ، وهذه الآلام ، نوع من العقوبة ، عن طريقها ، تتطهر نفس الإنسان ، لكى تصبح أهلا للدخول إلى النعيم الأبدى .

وقد علمت الكنيسة ، بأن لها السلطان لتقصير فترة بقاء نفس الإنسان فى المطهر ، إذا قام ببعض الإلتزامات ، التى تفرضها عليه ، فى أثناء فترة حياته على الأرض . وكانت الكنيسة تمنح هؤلاء غفرانات ، تخفف عنهم عقوبة المطهر وآلامه ، وفى أواخر العصور الوسطى ، كانت هذه الغفرانات أو صكوك الغفران ، تباع لقاء قدر من المال . بعد ذلك

أعلنت الكنيسة أنه يمكن للأحياء أن يشتروا صكوك الغفران لأعزائهم الراحلين .

وربما كان الدافع إلى هذا كله ، هو أن الكنيسة كانت ترمى من وراء ذلك ، إلى ترويض الطباع الخشنة ، وتهذيب الطبيعة البشرية المتمردة ، التى وجدت الكنيسة ذاتها ، مضطرة للتعامل معها ، حين دخل الوثنيون أفواجا إلى الكنيسة فى غرب أوربا ، دون أن يحصلوا على اختبار الميلاد الثانى وتجديد الروح القدس ، هذا الإختبار الذى هو المدخل الطبيعى والوحيد ، للحياة المسيحية الحقة .

العقوبات الكنسية :

كان القانون الكنسى ، يتضمن عدداً من العقوبات ، التى توقع على كل من يخرج على نظامها ، وهذه العقوبات كانت تتراوح بين الإيقاف المؤقت وبين الفرز أو القطع أو الفصل من عضوية الكنيسة ، وكانت لكل مخالفة عقوبتها المناسبة ، وكانت عقوبة الحرمان أو الفرز شيئاً رهيبا بالنسبة لأهالى العصور الوسطى ، وكانت الكنيسة تحذر أعضاءها من مخالطة المحرومين والتعامل معهم ، ونظراً لأن جميع الناس كانوا أعضاء فى الكنيسة ، كان المقطوع من عضوية الكنيسة ، يجد نفسه وقد نبذه الجميع وتجنبوه . وفى بعض البلاد ، كان مثل هذا الإنسان ، يحرم من كافة الحقوق الشرعية ، ويعتبر خارجا على القانون العام . أى أنه كان ينبذ من المجتمع البشرى كله ، فضلا عن حرمانه من التقدم إلى الأسرار الكنسية وشركة القديسين ، لذلك كان الاعتقاد السائد أن مثل هذا الشخص يموت بلا رجاء ، ويمضى إلى عذاب أبدى .

وخوف الناس وإرتعابهم من عقوبة الحرم، أعطى الكنيسة سلطة كبرى في تعاملها معهم ، حتى الملوك والحكام ، أحنوا رؤوسهم أمام هذا السلاح الماضي ، الذي كان بمثابة سيف بتار ، ترفعه الكنيسة في وجوه معارضيها .

القانون الكنسي والمحاكم المدنية :

لم يقف تدخل الكنيسة في شئون الحياة اليومية للناس في ذروة العصور الوسطى ، عند حد الخضوع للنظام المحكم الذي وضعته ، بحيث لا تفلت من يدها شاردة أو واردة ، لكنها سنت قوانين خاصة بها ، باعتبارها سلطة قائمة بذاتها ، كما كانت لها محاكمها الخاصة بها ، وكان البابا أو رؤساء الأساقفة أو الأساقفة ، هم الذين يقومون بفحص القضايا التي كانت تنظرها تلك المحاكم ، ويصدرون فيها الأحكام ، تبعاً لأهمية تلك القضايا .

وهكذا وجد الناس الذين وقعت قرعتهم في ذلك الزمان ، وجدوا ذواتهم مرغمين على الخضوع للكنيسة بقوانينها ومحاكمها وسلطاتها ، تماماً كما يخضعون للحكومات المدنية بقوانينها ومحاكمها .

وكانت محاكم الكنيسة وحدها ، هي المختصة بنظر قضايا رجال الإكليروس ، أي أن السلطات المدنية ، لم يكن لها أي شأن أو سلطان على هؤلاء . ولم تعدم الكنيسة في أوربا الغربية في ذلك الوقت ، وسيلة لإقحام ذاتها في قضايا الناس وخصوصياتهم ، في كافة مجالات الحياة ، وإحضارها ونظرها أمام محاكمها الخاصة . بهذه الطريقة ، أصبحت للكنيسة قوة تفوق ما كان لأي حكومة مدنية من حكومات ذلك العصر .

محاكم التفتيش :

وما دمنا بصدد ذكر القانون الكنسي والمحاكم الكنسية ، لا مفر لنا من

التعريج على ذكر محاكم التفتيش ، التى كانت جزءاً هاما من الجهاز المتكامل ، الذى أنشأته الكنيسة ، لإحكام قبضتها ، وكانت هذه المحاكم ، مختصة ببحث قضايا الهرطقة والتعاليم المنحرفة ، وإصدار الأحكام ضد الهراطقة الذين يخرجون على تعاليم الكنيسة وعقائدها .

وكان الخروج على تعاليم الكنيسة ، ظاهرة شائعة فى خلال الفترة من القرن الحادى عشر إلى القرن الثالث عشر .

وظهرت فى الكنيسة تبعاً لهذا إتجاهات متعددة لمعالجة هذه الظاهرة . الإتجاه الأول كان يرى ، أن هذه الظاهرة ينبغى أن تعالج بالتعليم والمتابعة لا بالقهر والعنف ، وكان « برنارد » على رأس المنادين بهذا الرأى ، أما الإتجاه الآخر ، فكان يرى أن الخروج على تعاليم الكنيسة ، يعتبر كفرا وإرتداداً عن الإيمان ، ويجب التصدى له وسحقه ، وكان هذا هو الرأى الشائع فى الكنيسة .

وفى البداية كان الأمر موكولا للأساقفة ، لكى يعلنوا الحرب على الهراطقة والمنحرفين ، أو بتعبير أدق ، من كانت تعتبرهم الكنيسة من وجهة نظرها ، هراطقة ومنحرفين .

وعندما ارتقى البابا « إنوسنت الثالث » كرسى البابوية ، كانت قد كثرت حالات الإعتراض على قوانين الكنيسة وتعاليمها ، فشن حملة ضارية على جماعة الألبيين ، الذين كانوا قد ظهروا فى بروفنس قبل ذلك بحوالى عشرين عاما ، وقتل منهم عدة ألوف .

وقد أحس البابا بأن واجب حماية الكنيسة من الهراطقة والهرطقات ، يتطلب قيام تنظيم مركزى ، يتولى معالجة هذه الأمور ، على مستوى الكنيسة

كلها ، فى دول أوربا الغربية بأسرها . وفى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، ظهرت محاكم التفتيش البابوية ، وكانت الحكومات تقدم لهذه المحاكم ، كل الحالات التى تقع فى دائرة إختصاصها ، لأن الحكومات كانت قد عدلت قوانينها ، وأضافت إليها مواد ، تقضى بتكفير أصحاب الآراء المعارضة لتعاليم الكنيسة .

وفى عام ١٢٢٤ م ، سن الإمبراطور « فردريك الثانى » ، قانونا يقضى بإعدام كل من ينحرف ويحيد عن تعاليم الكنيسة .

وكانت لمحاكم التفتيش أجهزتها البوليسية والقضائية الخاصة بها ، والمتهمون الذين كانوا يقدمون للمحاكمة أمام تلك المحاكم ، لم يكن مسموحا لهم بالدفاع عن أنفسهم ، وفى أغلب الأحوال ، كان يحكم بإدانتهم . وكان التعذيب الوحشى ، وسيلة من الوسائل التى إستخدمتها تلك المحاكم والسلطات التابعة لها ، لا تنزاع الإعترافات من أولئك المتهمين .

وقد وضعت الحكومات المدنية فى أوربا الغربية كلها ، كافة أجهزتها ، فى خدمة محاكم التفتيش ، من جهة القبض على الهراطقة ، وتنفيذ الأحكام التى تصدرها ضدهم .

نظرة الناس إلى الهرطقة فى العصور الوسطى :

وقد وقعت محاكم التفتيش موقعاً حسنا من نفوس الناس فى تلك العصور ، وحظيت بموافقة الرأى العام عليها ، وعلى إجراءاتها وأساليبها ، وكان السبب فى هذا ، هو أن الهرطقة كانت تعتبر أفظع جريمة يرتكبها إنسان ، لأنه بهذا كان يعرض وحدة الكنيسة للخطر . وكان المساس بالكنيسة فى ذلك الزمان ، جرما ليس بعده جرم ، لأنه كان يعتبر مساسا بالإيمان المسيحى

ذاته ، لأن الناس فى تلك الفترة من الزمان ، لم يستطيعوا التفريق بين الإيمان فى حد ذاته ، وبين الكنيسة باعتبارها المؤسسة التى تجسد هذا الإيمان ، لذلك كان المساس بواحد من الإثنين ، يعتبر تلقائياً مساساً بالآخر .

ولما كانت الكنيسة هى أساس العالم المتحضر آنذاك ، كانت نظرة الناس إلى الهراطقة ، تشبه نظرتنا نحن إلى الفوضويين والمخربين فى هذه الأيام . ولم يعرف الناس فى العصور الوسطى ، شيئاً عن حرية الفكر والضمير ، وقد استغرق الأمر وقتا طويلا ، حتى عرف المسيحيون هذه الحرية ، ولا نجاوز حد الصواب إن قلنا ، إن الجميع لم يصلوا بعد ، إلى إدراك كامل لحرية الفكر والرأى والإعتقاد ، رغم أننا نقف الآن ، على مشارف القرن الحادى والعشرين .

١١

نظام العبادة

[نظام الأسرار (سر المعمودية ـ سر التثبيت ـ سر التوبة ـ سر الكهنوت ـ سر الزواج ـ سر مسحة المرضى ـ سر ذبيحة القداس) ـ الوعظ ـ عبادة القديسين] .

نظام الأسرار :

وتنادى الكنيسة الكاثوليكية بوجود أسرار سبعة ، وكان أول من صرح بهذه الأسرار السبعة هو « بطرس اللومباردى » فى عام ١١٤٠ م ، وهذه الأسرار هى :

١ ـ سر المعمودية :

وكان الإعتقاد السائد ، أن كل من يعتمد ، يحصل على الخلاص والتجديد والولادة الروحية .

٢ ـ سر التثبيت :

وهو الخدمة المرافقة ، التى كانت تجرى ، لإدخال المعتمدين فى طفوليتهم ، إلى شركة الكنيسة ، وكان هذا السر يجرى لهم ، عند بلوغهم سن التمييز ، فإذا وجدوا خالين من اللوم ، يتخذون على عاتقهم ، تنفيذ التعهدات التى أخذت على والديهم أو أشابينهم وقت معموديتهم ، وعندئذ ، تثبت عضويتهم فى الكنيسة .

٣ ـ سر التوبة :

وهو فى عرف الكنيسة الكاثوليكية ينقسم إلى فضيلة وإلى سر ، والنوع الأول يقوم بالحزن على الخطية ، والعزم على تركها ، وقصد التكفير عنها لله . أما النوع الثانى ، فهو على غرار عمل المسيح لأجل غفران الخطايا المرتكبة بعد المعمودية ، على يد كاهن ذى سلطان ، وإيفاء الخاطىء عن نفسه لمتطلبات العدل الإلهى . فمادة السر هى عمل التائب المتضمن الندامة ، وإيفاء القانون ، ويراد بالندامة الحزن أو الأسف ، والإعتراف الذى يتضمنه هذا السر ، ينبغى أن يكون شفويا للكاهن .

وهذا التعليم يعنى ، أنه لا يمكن أن تغفر خطية يرتكبها الإنسان بعد معموديته ، ما لم يعترف بها مرتكبها للكاهن ، الذى له سلطان الحل والربط .

٤ ـ سر الكهنوت :

وهذا السر يناله الكهنة وقت رسامتهم ، التى لا حق لأحد فى إجرائها ، غير رؤساء الكهنة أو الأساقفة ، لأنهم وحدهم الذين لهم الامتياز الرسولىء أن يمنحوا الروح القدس بوضع أياديهم .

٥ ـ سر الزواج :

وهو يشير إلى الإتحاد السرى ، بين الكنيسة ورأسها الإلهى ، وإتمامه كان وسيلة ، لحلول النعمة الإلهية على الزوجين .

٦ ـ سر مسحة المرضى :

وهى تعرف بأنها سر تحل فيه النعمة بواسطة المسح بالزيت ، والصلاة ، وبخدمة الكاهن ، على كل من كان يصيبه مرض خطير ، من المعتمدين ، فتغفر له خطاياه ، وتزداد قوة نفسه .

٧ – سر ذبيحة القداس أو سر الأفخارستيا :

وهذا السر هو أعظم الأسرار جميعاً ، وتعتقد الكنيسة الكاثوليكية ، أن المسيح موجود فى هذا السر بجسده ونفسه ولاهوته[١] معاً ، وأنه عندما يقول الكاهن : «هذا هو جسدى» يتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الحقيقيين . وعلى حد قول أحد أقطاب الكنيسة ، «ما كان قبلا خبزاً يستحيل كله إلى جسد المسيح ، وكل ذرة من الخبز ، وكل قطرة من الخمر ، تحتوى المسيح الكامل ، وبعد أن تتم هذه الاستحالة ، يقدم الكاهن المسيح ذبيحة عن الأحياء والأموات .

هذه هى الأسرار السبعة ، التى تنادى بها الكنيسة الكاثوليكية ، سردناها بإيجاز شديد .

وهذه الأسرار كانت تمارس باعتبارها وسائط ينال الناس عن طريقها الخلاص ، وكان الإعتقاد السائد ، هو أن لهذه الأسرار فى ذاتها ، قوة سرية أو قل سحرية ، تؤثر فى نفوس الناس ، وأنها تؤدى بالعابدين الذين يمارسونها إلى الحصول على النعم الإلهية ، بغض النظر عن حالتهم الروحية ، لا فرق فى هذا بين المؤمن وغير المؤمن . فبالمعمودية يتجدد المعتمد . وبالتناول ، يحصل المتناول على جسد المسيح ودمه ، وبالتالى ينال الحياه الأبدية . ولكى تكون لهذه الأسرار فاعليتها ، يجب أن تتم ممارستها على يدى كاهن ، ممن حصلوا على سر الكهنوت .

الوعظ :

وتبعاً للاعتقاد بعظمة الفوائد التى يجنيها الناس ، عن طريق ممارستهم

---

(١) أنظر مختصر اللاهوت الأدبى للأب يوحنا غورى اليسوعى العدد ٢٧٢ من المجلد الثانى .

للأسرا ر الكنسية ، ساد الإعتقاد بعدم أهمية الوعظ ، لهذا اعتبر الوعظ شيئاً ثانويا ، ومن مرتبة أدنى من ممارسة الأسرار ، وأوكل أمر الوعظ للكهنة فى أبروشياتهم ،وكان هؤلاء على قدر من الجهل وضحالة المعلومات ، بحيث أنهم لم يكونوا يعظون إلا فى القليل النادر .

لكن عندما ظهرت الرهبنة الفرنسيسكانية ، والنظام الدومينكانى ، استرد الوعظ مكانته ، لأن الرهبان أخذوا على عاتقهم مسئولية القيام بالوعظ ، الذى أهمله كهنة ذلك الزمان .

عبادة القديسين :

فى فصل سابق ، رأينا كيف دخلت إلى المسيحية بعض العوائد الغريبة ، التى جاء بها الوافدون إليها من الوثنية ، وقد بقيت هذه العوائد ، وبمرور الزمن ، نمت وتطورت فى هذه الفترة ، فترة ذروة العصور الوسطى ، فاحتلت عبادة القديسين مكانا بارزا فى العبادة المسيحية . فتضاعف عدد القديسين ،الذين كان الناس يصلون إليهم ، ويطلبون منهم العون والمساعدة .

كما انتشرت عبادة رفات القديسين ، وساد الإعتقاد بأن لهذه الرفات ، القدرة على عمل المعجزات ، وتداول الناس العديد من الروايات ، عن معجزات لا حصر لها . من هذه الروايات ، على سبيل المثال ، قيل إن أحد التجار فى جرننجتون ، سرق ذراع يوحنا المعمدان . واحتفظ به فى بيته ، وعندما شبت النار فى تلك المدينة ، دمرتها تدميرا لم تترك فيهاسوى بيت ذلك التاجر ، الذى لم يصب بأدنى ضرر ، بسبب وجود الذراع فى بيت ذلك السارق .

من كل ما سلف ذكره ، يتضح لنا أن الكنيسة كانت تحتل مكانا بارزا فى حياة الناس ، وتفكيرهم فى هذه الفترة من العصور الوسطى ، إذكانوا

ينظرون إليها على أنها الوسيط بينهم وبين الله ، فأسرارها هى سبيلهم الوحيد للحصول على نعمة الله المخلصة . كما أنها بنظام الخدمة المتبع فيها ، كانت تقدم لهم الوصايا الإلهية ، وبتعاليمها ، كانت تقودهم إلى معرفة الله ، ومن ناحية أخرى ، كانت الكنيسة ترفع إلى الله الصلوات من أجل حاجات الشعب . أى أن الكنيسة فى تلك الفترة ، كانت تمثل كل شىء بالنسبة للشعب ، فهى المكان الوحيد ، الذى يقصده الناس لنوال البركات ، وكان الكهنة بسلطانهم ، هم الواسطة لنوال هذه البركات .

وفى العصور الوسطى ، كان الحديث عن الكنيسة ، يعنى بالدرجة الأولى ، الحديث عن الإكليروس ، الذين كانت لهم قوة سرية ، أعطاها المسيح لهم ، وقت رسامتهم ، وبسر الكهنوت هذا ، كان للكهنة حق الوساطة بين الناس وبين الله . أى أنهم كان بأيديهم الحياة والموت ، السماء والجحيم ، وكان ابتعاد الإنسان عن شركة الكنيسة ، معناه الإنفصال عن الله أى الهلاك الأبدى .

وكانت المسيحية فى نظر الناس فى تلك الفترة ، هى الكنيسة التى يرأسها البابا ، والكنيسة هى المسيحية . لم يخرج عن هذا الإعتقاد ، غير أقلية ضئيلة من المعترضين ، أما الأغلبية العظمى ، فكانت تعتقد أنه لكى يكون الإنسان مسيحيا ، كان عليه أن يخضع للكنيسة ، ويمتثل لأوامرها .

١٢

الحياة المسيحية

[حياة القادة الدينيين : برنارد أف كليرفو ـ دومنيك ـ فرانسز الأسيسى ريموندلل ـ الحياة بين العامة ـ جبهة معارضة للكنيسة : (بطرس والدو ـ بطرس دى برويز ـ هنرى دى لوزان ـ الألبيون ـ الحرب ضد الألبيين ـ الكاثاريون ـ الاخوة)] .

حياة القادة الدينيين :

عند التأمل فى الحياة المسيحية ، فى ظل النظام الكنسى ، الذى كان سائدا فى تلك الأيام ، علينا أن نفرق بين نوعين ، أولهما ، هو نوع الحياة التى عاشها بعض من أعاظم الرجال والنساء ، الذين تجلهم وتقدرهم جميع الأجيال المسيحية ، من أمثال برنارد أف كليرفو ، ودومنيك ، وفرانسز الأسيسى ، وبين الطابع العام لحياة الناس فى تلك العصور .

ولئن كان الجو العام للحياة فى تلك الأيام غائما وقاتما ، إلا أننا لم نعدم ظهور بعض الكواكب اللامعة ، التى بزغت من بين الغيوم ، لتعلن أن الحى القيوم ، قد أبقى لنفسه بقية أمينة ، تحمل مشاعل النور ، الذى يبدد ظلام تلك العصور .

« برنارد أف كليرفو » (١٠٩٠ ـ ١١٥٣ م) :

كان أبوه قد تشبع بروح الفروسية ، التى ظهرت فى ذلك العصر ،

وكان صديقا للفقراء والمعوزين ، كما كانت أمه امرأة تقية . بين هذين الأبوين العظيمين ، نشأ « برنارد » وقد أخذ عن أمه حب التقوى ، وكانت صحته لاتؤهله لحياة الفروسية التى كان يريدها له أبوه . وتميز « برنارد » بين أفراد أسرته ؛ بغيرته الشديدة على الدين ، وقد دفعه حماسه الدينى لدخول أحد الأديرة ، وكان عمره آنذاك لا يزيد عن اثنتين وعشرين سنة ، وكان دخول الدير أمراً عاديا ومرغوبا فى تلك الأيام . وقد أخذ معه إلى الدير إخوته وثلاثين آخرين ، وقد أهلته صفاته للتفوق على أقرانه فى حياة الزهد والورع ، فضلا عن أنه اختار ديراً يعيش فيه الرهبان فى نظام تقشفى صارم ، إذ كان الرهبان فى ذلك الدير ، يكتفون بوجبة واحدة من الطعام كل يوم ، وفترة قصيرة من الراحة والنوم ، وبقية يومهم كانوا يقضونها فى العبادة والتأمل ، وكان طعامهم خالياً من اللحوم والسمك والبيض . لكن حتى هذا النظام الصارم ، لم يشبع قلب « برنارد » ، ففرض على نفسه نظاما خاصا ، أشد قسوة وصرامة ، فاعتلت صحته :

وبعد دخوله الدير بعامين ، وقع الإختيار على « برنارد » ، فذهب على رأس مجموعة من الرهبان ، لتأسيس دير جديد ، فى وادٍ يقع فى منطقة نائية ومنعزلة ، فى شرق فرنسا ، ذلكم هو دير كليرفو ، الذى حاز شهرة فائقة فيما بعد ، لأنه كان يضم نخبة من أفاضل الرهبان .

وقد تأثر كثيرون بشخصية « برنارد » ، فدخلوا ذلك الدير ، لكى يكونوا على مقربة منه . وكان لحياته ، وعلاقاته الشخصية ، ومعاملاته ، وعظاته اليومية التى كان يلقيها فى كنيسة الدير ، هذه كلها ، كان لها تأثير بالغ على الرهبان المحيطين به ، خاصة وأنه كان فى حياته محباً للجميع ، مخلصا وأمينا لسيده . إنه جلس عند قدمى المعلم الأعظم ، وتعلم منه كيف

يحب الناس حباً خالصا ، ويحس بأحاسيسهم ، يتألم لآلامهم ، ويتعاطف مع المحتاجين ، ويقدم لهم ما يحتاجون . وفى رسائله التى كتبها ، عبر عن مشاعره الرقيقة تجاه الآخرين ، متمثلا فى ذلك بالمسيح ، الذى كان « برنارد » يرى فيه التجسيد الحى لمحبة الله .

وقد عبر عن إحساسه العميق بمحبة الله الفريدة ، فى عدد من الترانيم التى نظمها ، وصب فيها كل مشاعره .

تأثير برنارد على أوربا :

لم يقف تأثير « برنارد » ، عند حدود دير كليرفو ، لكنه تخطى أسوار الدير ، حتى بلغ كل بقعة فى أوربا ، برغم أنه لم يشغل أى منصب دينى خارج الدير الذى تولى منصب الرئاسة فيه .

ومع أن دير كليرفو ، لم يكن يملك شيئاً من الممتلكات أو الأموال ، كما لم تكن له ميليشيا كبقية الأديرة ، إلا أنه حاز شهرة لم يبلغها دير سواه .

والسر فى قوة تأثير هذا الدير ، هو شخصية رئيسه (برنارد) ، الذى تميز بحياته النقية وسيرته الطاهرة . فقصده الناس من كل حدب وصوب ، يلتمسون منه المشورة والنصح ، فى كل ما يستشكل عليهم من أمور ، وهو من جانبه ، لم يكن يبخل برأى أو نصيحة ، ويقدم العون لكل الناس من جميع المستويات ، يستوى لديه الشريف والحقير ، الغنى والفقير ، الكل عنده إخوة متساوون .

كما أنه لم يكن يحابى الوجوه ، أو يرهب السلطان . وما أكثر الرسائل التى وجهها إلى الباباوات وملك فرنسا ، يلومهم فيها ، على عدم الإهتمام بواجباتهم ، والإلتزام بمسئولياتهم ، فى جرأة نادرة ، وشجاعة منقطعة

النظير . وعندما كان يلجأ إليه طرفان ، فى مشكل ما ، كان الطرفان يلتزمان برأى « برنارد » بنفوس راضية ، لأنه لم يكن يميل إلى يمين أو يسار ، بل يلتزم جانب الحق والحق وحده .

ولقوة تأثيره على الناس ، أوكل إليه البابا أمر القيام بالدعوة للحملة الصليبية الثانية ، وكان لخطبه تأثير بالغ على الجماهير فى كل من ألمانيا وفرنسا ، وكان الإمبراطور ، قد استقر رأيه على عدم الإشتراك فى تلك الحملة ، لكنه ما إن سمع خطب « برنارد » ، حتى هب ووضع على صدره شارة الصليب الحمراء ، وانضم إلى صفوف المقاتلين . وهذا يرينا أن « برنارد » ، كان الزعيم الروحى وقائد الكنيسة فى عصره ، لكنه مع هذا ، ظل كما هو ، لم يزايله إخلاصه أو تواضعه .

« دومنيك » (١١٧٠ – ١٢٢١ م .) :

ولد فى أسبانيا بعد وفاة « برنارد » بقليل ، وبعد الإنتهاء من دراسته الجامعية ، سيم كاهنا . وفى الثلاثين من عمره ، قام بجولة فى جنوب شرقى فرنسا ، وشهد بداية الحرب الشرسة ، التى شنها البابوات ، ضد ما أسموه « هرطقة الألبيين » .

واقتنع « دومنيك » ، بأن أسلوب الحوار ، والتعليم ، وإعلان حقائق الإيمان ، هو الأسلوب الأمثل ، لمواجهة التعاليم المنحرفة ، التى شعر بأنه يجب أن تضع الكنيسة لها حداً .

وطرح فكرة تكوين مجموعة من الوعاظ ، تجوب البلاد طولا وعرضا ، لتعلم الناس أركان الإيمان ، لكن البابا « إنوسنت الثالث » تردد فى التصريح له ، غير أنه تمكن من الحصول من البابا « هونوريوس

الثالث » (١٢١٦م .) ، على تصريح بتأسيس نظام رهبانى ، هو النظام الدومنيكانى . وبدأ فورا فى التنفيذ ، وقد أيده وانضم إليه ، عدد كبير من الشبان الذين رأوا أن الحاجة فعلا ماسة ، لنشر التعليم الصحيح .

ولم تمض أربع سنوات على بدء تنفيذ الفكرة ، حتى كانت قد تأسست ، فى مناطق مختلفة فى أوربا ، أربعة بيوت ، تضم عدداً كبيراً من الرهبان الدومنيكان . وسرعان ما انتشر عمل هؤلاء الرهبان الذين راحوا يعملون بغيرة وحماس شديدين :

وإحساساً منه بخطورة مهمة التعليم ، حاول «دومنيك» أن يستميل إليه عدداً من الجامعيين ، وقد تمكن بالفعل من إقناع عدد كبير منهم ، بالانضمام إلى القوافل العاملة من رجال هذا النظام .

وقد جعل شعار نظامه ، كلبا يحمل مشعلا مضيئا . وهذا الشعار مستمد أيضاً من اسمهم « دوميني كينز » ، وهو مع بعض التلاعب اللفظى ، يعنى « كلاب الرب للحراسة » ، باعتبارهم حراسا للكنيسة وحفظة للإيمان ، وحمل المشعل ، يشير إلى أنهم يحملون مشعل الحق ، لإنارة الجنس البشرى .

وفى أخريات أيامه ، أبدى «دومنيك» رغبته فى الذهاب على رأس بعثة تبشيرية ، تحمل الإنجيل إلى القبائل الوثنية ، القاطنة فى جنوب روسيا ، غير أن صحته لم تساعده على تحقيق هذه الرغبة بنفسه ، فأرسل مجموعة من رجاله إلى هناك .

ووافته المنية بعد ذلك بأربع سنوات ، مخلفا وراءه جيشاً جرارا من الرهبان ، الذين انتشروا فى العالم حاملين نور الإنجيل إلى كل مكان ، حيث قدموا للناس خدمة لا تنسى .

وقد تميز رهبان هذا النظام بسمو المعرفة وطول الباع فى العلم ، ومن بين صفوفهم خرج رجال عظماء سجل التاريخ أسماءهم بحروف من نور ، على رأسهم القديس « توما الأكوينى » ، ذلك اللاهوتى البارع والمعلم القدير :

ومع أن النظام الدومنيكانى ، كان قريباً من النظام الفرنسيسكانى ، إلا أن الدومنيكان ، كانوا وعاظا متجولين ومتسولين ، يحصلون على احتياجاتهم عن طريق التسول ، وكانوا يعتقدون أنهم بهذا ، يكونون أكثر نجاحا فى خدمتهم بين العامة ، بينما كان الفرنسيسكان ، يخدمون الناس ، وفى نفس الوقت يعملون ، للحصول على حاجاتهم بعرق جبينهم .

توما الأكوينى (١٢٢٤ — ١٢٧٤ م) :

ولد فى قرية أكوينو الواقعة بين رومية ومونت كاسينو ، وكان مولده فى عام ١٢٢٤ ، فى أحضان أسرة كريمة . وتلقى تعاليمه الأولى فى دير سانت كاسينو ، ثم أتم دراسته بعد ذلك فى مدرسة نابولى .

وعلى غير هوى من أسرته ، انضم فى عام ١٢٤٣ إلى صفوف الدومنيكان ، الذين أرسلوه للعمل تحت رئاسة « البرت أف كولون » ، الذى كان واحداً من كبار الأساتذة فى كولون ، وقد قضى مع هذا الأستاذ الجليل ، عدة سنوات فى كولون وباريس . وفى عام ١٢٥٧ ، حصل « توما الأكوينى » على درجة الدكتوراه .

وفى عام ١٢٥٢ ، طلبوه ليكون معلما فى باريس ، ومن ذلك التاريخ فصاعداً ، راح يعمل بالتدريس والكتابة إلى أن أدركته المنية فى عام ١٢٧٤ ، كان فى طريقه آنذاك ، لحضور المجمع العام فى مدينة ليون :

وقد عاش الأكوينى حياة ملؤها التقوى والورع ، فى ظل النظام الدومنيكانى ، كما أنه ساهم مساهمة كبيرة فى نشر المعرفة والتعاليم الدينية ، فى عصر عزت فيه المعرفة ، وكان متأثراً بآراء أرسطو وأفكاره فى علم المنطق ، تلك الأفكار وهى فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وكان من أعظم دارسى الكتاب المقدس .

وكسائر أتباع النظام الدومنيكانى ، لم يعترف الأكوينى بعقيدة الحبل بالعذراء بلا دنس ، التى كانت من أهم عقائد الإيمان الكاثوليكى .

وفى الجدل العقائدى ، الذى ثار بين الكنيستين الشرقية والغربية ، لعب هذا العالم الجليل ، دوراً كبيراً .

وقد اشتهر الأكوينى بموسوعته اللاهوتية الرائعة ، التى قسم فيها أبحاثه إلى ثلاثة أقسام ، القسم الأول خصصه للإلهيات ، والقسم الثانى يدور البحث فيه حول الإنسان ، أما القسم الثالث ، فموضوعه هو شخص السيد المسيح ، كإنسان وإله معاً .

فى الجزء الأول ، يتعرض للكلام عن وجود الله ، وطبيعته ، وثالوثه . والله عنده هو المحرك الأول ، أو العلة الأولى ، لجميع الأشياء ، فهو البداية والمنتهى لكل شىء فى الوجود ، إنه المبدىء المعيد .

وفى القسم الثانى يتحدث عن الإنسان كمخلوق ساقط ، لكنه رغم هذا ، فى وسعه أن يتمتع بالفداء . بعد ذلك يتطرق لبحث السلوك الإنسانى بفضائله ورذائله ، ثم يدرس موضوع الناموس والنعمة . بينما فى الجزء الثالث ، يتحدث عن المسيح الفادى ، الذى فتح للإنسان طريق العودة إلى الله .

وقد استخدم «الأكويني» إتساع معرفته بالكتب المقدسة ، فى إثبات صحة العقائد الكنسية .

كما كتب شرحاً لبشائر الإنجيل ورسائل بولس الرسول ، استند فيه إلى أقوال آباء الكنيسة .

وفى عام ١٣٢٣ م ، قرر البابا « يوحنا الثانى والعشرين » ، التصريح بتداول مؤلفات الأكوينى .

وإنه لمن المؤسف حقا ، أننا عند ذكر « توما الأكوينى » ، نجد أن شخصية الأكوينى اللاهوتى والفيلسوف ، تطغى على شخصية توما الأكوينى الشاعر القديس ، الذى تميز فى حياته الشخصية بورع زائد ، وتقوى منقطعة النظير .

« فرانسز الأسيسى » (١١٨٢ – ١٢٢٦) :

واحد من أعظم القادة الدينيين ، الذين شرفت بهم فترة العصور الوسطى ، وهو يحظى اليوم بالتقدير ، من كافة طوائف المسيحيين ، ذلك لأنه كان تابعاً أمينا ، وتلميذاً حقيقياً لسيده .

ولد فى مدينة أسيسى فى عام ١١٨٢ م ، وكان أبوه واحداً من كبار تجار المنسوجات ، فى منطقة وسط إيطاليا . وكانت أمه فرنسية ، أخذ عنها حب الموسيقى والغناء ، وعلى الأخص أناشيد الفروسية التى كان يتغنى بها الشعراء المتجولون . اسمه الأصلى « يوحنا برنادون » ، وأطلق عليه اسم فرانسز ومعناه الرجل الفرنسى ، ربما لتعاطفه مع الجنس الفرنسى ، أوحبه للروايات الفرنسية .

وقد اشتهر فى أول عهده بالإسراف فى إنفاق المال ، ومنافسة أبناء النبلاء فى الأناقة ، وحب الملبس الفاخر ، لكنه منذ البداية ، كان محباً للفقراء والمساكين . ويحكى أنه كان ذات مرة مشغولا فى بيع المنسوجات لواحد من تجار المدينة ، فمر به شحاذ يطلب إحسانا ، ولما فرغ من البيع ، كان الشحاذ قد مضى فى طريقه ، فما كان من « فرانسز » ، إلا أن ترك متجره وبضاعته ، وراح يركض فى الطرقات ، يفتش ويبحث عن الشحاذ ، ولما وجده ، نفحه قدراً كبيراً من المال .

ولما كبر « فرانسز » ، انخرط فى سلك الجندية ، وانضم إلى جماعات المحاربين ، الذين كانوا منتشرين فى مدينة أسيسى ، وكان أشجع فرسان عصره .

وفى شبابه أصيب بمرض شديد ، وبينما هو يتألم فى فراشه ، سرح بفكره فى آلام المسيح ، وإنتابته صحوة دينية ، جعلته ينشغل بالله ، ويتجه إلى إظهار نشاط كبير فى خدمة المحتاجين ، وبدلا من الإتجاه إلى إشباع ميوله نحو الفروسية ، وجه كل اهتمامه إلى المنبوذين والبؤساء ، وبالأخص المصابين بداء البراص ، الذين كان يأنف كثيراً من النظر إليهم ، ويقال إنه كان ذات مرة يمتطى صهوة جواده ، وأثناء مروره فى أحد الطرق ، لمح إنسانا أبرص ، ففكر فى أن يرجع من الطريق ، ويسلك طريقاً أخر ، حتى لا تقع عيناه على ذلك الإنسان ، لكنه قاوم هذا الإحساس ، وقفز بحصانه إلى الأمام ، وما أن اقترب من ذلك الأبرص ، حتى نزل من على ظهر حصانه ، وركض نحو الرجل ، وقدم له شيئاً من المال ، وإذ أحس بأنه لم يفعل شيئاً يستحق الذكر ، تقدم نحو الرجل ، واحتضنه ، وقبله . بعد ذلك ذهب إلى مستشفى للبرص فى أسيسى ، وأخذ يسعف نزلاءه ،

لاكمرضى يأنف من النظر إليهم ، ولكن كإخوة له فى المسيح ، وكان غريباً فى تلك الأيام ، أن يهتم الناس بالبرص ، ويظهروا لهم الحنو والعطف .

كذلك أظهر « فرانسز » اهتماما عظيما ، بتعمير بعض الكنائس القديمة المهدمة والمهجورة ، وهو بهذه الأعمال ، كان يعبر عما يعتمل فى نفسه من شوق غامر ، ورغبة عارمة ، فى خدمة إلهه ، لكنه حتى هذه اللحظة ، لم يكن قد وصل إلى المكان الذى كان الله ، قد أعده وهيأه له .

وقد غضب عليه والده ، وحاول أن يصده عن هذه الخدمة ، التى كان قد كرس ذاته لها بالتمام ، لكن ذهبت أدراج الرياح ، كل الجهود التى بذلها والده لإرجاعه ، فاستمر هو سائراً فى الطريق الذى اختطه لنفسه ، طريق الخدمة ، فاعتبره أبوه ابنا عاقا ، قد أصابه مس من الجن أو الجنون .

وأعلن « فرانسز » أنه زاهد فى ثروة أبيه وممتلكاته ، وراح يجول العالم كرجل فقير .

بعد ذلك توجه إلى إحدى الكنائس ، وفى أثناء الخدمة ، سمع الكاهن يردد الجزء الوارد فى الأصحاح العاشر من بشارة القديس متى البشير ، والمختص بإرسال يسوع تلاميذه إلى العالم ، لكى يكرزوا ببشارة الملكوت ، فاعتبرها « فرانسز » دعوة خاصة ، موجهة إليه من الرب رأسا ، فأطاع فى الحال .

ومع أنه كان علمانيا ، إلا أنه راح يعظ فى المدينة ، بطريقة فعالة ومؤثرة ، لأنه كان يقدم للناس المسيحية العملية فى بساطتها ، وكان الفضل الأكبر فى تأثيره على سامعيه ، راجعاً إلى إخلاصه ومحبته ليسوع ، خاصة عندما رآه الناس ، وقد تخلى عن كل شىء ، أمواله ومقتنياته ، وملابسه

الأنيقة الفاخرة ، حتى أصدقاءه هجرهم ، وراح يتجول مرتديا جلبابا من الصوف الأحمر ، وحول حقويه منطقة من جلد ، ورغم هذا الحرمان الذى فرضه على نفسه ، لم ينقصه شيء من فرحه وغبطته وخفة روحه . هذه الخصال كلها ، جذبت الناس إليه ، وإلى طريقته فى خدمة المسيح .

وفى البداية انضم إلى « فرانسز » ، اثنان من أهل بلدته ، وما هى إلا فترة وجيزة ، حتى التف حوله عدد من الشبان الذين عمرت قلوبهم بالغيرة والحماس ، وكان أحدهم تاجرا ، باع كل ما كان عنده ، وأعطاه للفقراء ، واختار أن يحيا حياة الفقر الإختيارى ، التى فرضها « فرانسز » على نفسه . بعد ذلك راح يفكر فى تكوين أخوية يحيا أفرادها معاً ، ويكرسون ذواتهم لخدمة إخوتهم فى الإنسانية فى اسم المسيح ، وقد بدأ تكوين الأخوية الفرنسيسكانية فى عام ١٢٠٩ أو ربما فى عام ١٢١٠ م ، بعد أن حصل « فرانسز » من البابا « إنوسنت الثالث » ، على موافقة مبدئية على نظام جماعته

ومن بداية الأمر ، أعلن « فرانسز » لأتباعه ، أنه لا يريدهم أن يعتزلوا فى دير ، ولا أن يركزوا اهتمامهم على خلاص أنفسهم ، ولكن عليهم أن يذيعوا بين الناس محبة المسيح . فراحوا يتجولون من قرية إلى أخرى ، ومن مدينة إلى أخرى ، يذيعون الأنباء السارة بين الناس ، مقتدين بسيدهم ، الذى كان يجول يصنع خيراً ، ويشفى جميع المتسلط عليهم إبليس . كلما لاحت لهم فرصة اهتبلوها ، وراحوا يقدمون خدماتهم للناس فى الساحات والأسواق والحقول ، كانوا يخدمون الفلاحين وسكان المدن ، ووجهوا عناية خاصة للمرضى بالبرص ، ولم يكن مصرحا للراهب الفرنسيسكانى ، أن يمتلك أكثر من عباءة ورداء وكتاب مقدس ، وقلاية فى دير . وكانوا

يكرهون المال كراهية شديدة ، ربما بسبب الضربة القاصمة ، التى أصابت رجال الدين فى تلك الأيام ، بسبب محبتهم للمال ، ويحكى أن واحداً من هؤلاء الرهبان ، جاء مرة ومعه قطعة من النقود ، ما إن رآها القديس « فرانسز » معه ، حتى أخذها منه ، وبعد أن رمقها بازدراء ، ألقى بها فى روث البهائم .

وكان «فرانسز» ورفاقه ، يسيرون جماعة معاً ، مهللين مترنمين بمحبة الله . وفى كل مكان ، كان الناس ينجذبون إليهم ، بخفة روحهم ، وابتهاجهم وفرحهم ، حتى أنهم صاروا يعرفون بين الناس ، برجال الله الفرحين ، وقد استمدوا هذا الفرح ، من رئيسهم الذى كان دائماً فرحا مسروراً ، يشكر الله ويحمده ، من أجل كل شيء فى الوجود .

وقد أحب « فرانسز » سيده محبة فائقة ، أفعمت قلبه بحب غامر ، لإخوانه فى الإنسانية .

وفى ذلك الوقت ، كان المسيحيون قد شغلوا بالحروب الصليبية ضد العالم الإسلامى ، بسبب وضع يده على الأماكن المقدسة المسيحية ، وفى غمرة هذا النزاع ، نسى المسيحيون واجب الكنيسة ، كما نسوا أن المسيح يحب ولا يكره ، فلجأوا إلى الحرب والقتال .

لكن « فرانسز » ، نادى بوسيلة أخرى غير هذه ، وغامر بالوقوف فى وجه هذا التيار الجارف ، وكان يقول : « ماذا نجنى من وراء قهر السلطان ! ؟ ولماذا لا نكسبه بالمحبة بدلا من القتال ! ؟ »

وفى عام ١٢١٨ م ، أبحر مع جماعة من رفاقه حاملين دعوة الحب

والسلام ، فنزل فى مصر ، وانضم إلى جيش الصليبيين[1] ، وكان يومئذ يقوم بحملته الخامسة . وذات يوم تسلل خفية هو وواحد من زملائه إلى معسكر المسلمين ، وكان الإثنان يعلمان تمام العلم ، أنهما يغامران بحياتهما ، وهما يقطعان الطريق إلى معسكر الخصوم ، لكنهما تذرعا بالشجاعة والهدوء ، وفى أثناء سيرهما ، كانا يرددان كلمات المزمور الثالث والعشرين : «الرب راعى فلا يعوزنى شىء ... إن سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معى» — وفجأة وقعا فى أسر العرب ، فقيدوهما بغلظة ، وراحوا يوقفونهما أمام ضباط الجيش واحداً بعد الآخر ، إذ حسبوهما جاسوسين ، وباستجوابهما ، أجاب « فرانسز » على كل الأسئلة التى وجهت إليه ، بصوت هادئ ورزين ، وقال : «أنا مسيحى وأرغب فى مقابلة السلطان» : « فأخذوه ورفيقه وأوقفوهما أمام السلطان ، الذى سألهما : « من أنتما ، وكيف أتيتما إلى هذا المكان ، ولماذا ؟ »، فأجاب « فرانسز » : «لم يرسلنا أحد من البشر ، لكن الله هو الذى أرسلنا ، لكى نحمل إليكم رسالة محبة المسيح ، بدل هذه الحرب التى يشنها عليكم بنو قومنا » .

فتفرس فيه السلطان مبهوتا ، واستمع إلى أقواله باحترام وانتباه ، لأنه أعجب بشجاعته وغيرته ، ومغامرته فى التسلل إلى معسكرات الأعداء ، واستبقاه أياما فى ضيافته ، وأحسن معاملته ، وبعد أحاديث طويلة دارت بينه وبين السلطان ، عاد « فرانسز » مشيعاً بالحفاوة والإكرام ، بعد أن أظهر للملك الأمير العربى المسلم ، جانبا من جوانب محبة المسيح ، طغى على مظاهر القتال العنيف ، الذى كان محتدما آنذاك ، بين المسيحية والإسلام .

---

(١) كان هذا الجيش معسكراً بالقرب من دمياط حيث كانت جيوش المسلمين قد تصدت لهم وعاقتهم عن الوصول إلى الأراضى المقدسة بفلسطين .

إنتشار النظام الفرنسيسكانى :

سرعان ما انتشر نظام الفرنسيسكان أو « الإخوة الأصاغر » ، إذ حذا حذو « فرانسز » إخوة كثيرون ، من أغنياء التجار والعملاء ، وعاشوا حياة الزهد والتقشف ، وقضوا أوقاتهم فى الصلاة والتعبد والخدمة ، والعناية بالمرضى والبرص ، واشتغلوا بأيديهم فى الحقول والمزارع ، لكسب عيشهم بعرق جبينهم ، وعندما لا يجدون عملا ، كانوا يستجدون ، وكان هذا هو السبب فى تسميتهم « الرهبان الشحاذين » .

وعندما انعقد مؤتمرهم السنوى فى عام ١٢١٧ م . ، كانت لهم فروع فى كل من ألمانيا ، وهنغاريا ، وأسبانيا ، وبدأوا يرسلون الإرساليات والبعوث التبشيرية ، إلى المناطق الوثنية ، غير مبالين بما ينتظرهم هناك من أخطار ، الأمر الذى أدى إلى اعتراض أحد الكرادلة ، على هذا النوع من الخدمة ، فقال له « فرانسز » : «أتظن أن الله قد سمح بقيام هذا النظام ، من أجل الخدمة فى بلادنا فقط ! ؟ إن الله قد دعانا للخدمة بين الناس من جميع الأجناس ، لإنهاض حياتهم الروحية ، وقيادتهم إلى الخلاص » .

وفى عام ١٢٢٠ م ، عاد « فرانسز الأسيسى » من رحلته التى قام بها إلى الشرق ، وآلمه كثيراً أن يرى المسئولين ، الذين أوكل إليهم أمر الإشراف على الإخوة ، وقد ابتعدوا بالنظام عن مثله ومبادئه . فقد كان يدعو أتباعه إلى التجرد الكامل ، وعدم إمتلاك شىء ما ، كما أنه كان يرى ، أن الأديرة التابعة لنظامه ، يجب أن تتميز عن غيرها من الأديرة ، التى كانت منتشرة فى ذلك الزمان ، والتى كانت لها ممتلكات شاسعة ، وإقطاعيات واسعة . إنه كان يرى أن حياته وحياة تابعيه ، يجب أن تكون كحياة سيدهم ، الذى لم يكن له أين يسند رأسه ، وكان مقتنعاً تماماً الإقتناع ،

بأن عدم امتلاك شيء من حطام هذه الدنيا ، هو السبيل إلى التحرر من الهموم والاهتمامات العالمية ، وبالتالى يؤدى إلى التفرغ للخدمة ، لأنه لا يستطيع أحد أن يخدم سيدين .

لقد تألم كثيراً بعد عودته إلى إيطاليا ، إذ رأى الأخوية وقد اقتنت بعض الممتلكات ، وربما أيضاً يكون قد رأى ، أنه لم يعد فى مقدوره الإستمرار فى الإشراف على هذا النظام – وربما يكون قد اقتنع كذلك ، بأن الرهبان لا يستطيعون أن يدبروا أمر أنفسهم بأنفسهم ، خاصة وأن أعدادهم كانت قد زادت زيادة كبيرة ، فطلب من البابا أن يتولى الإشراف على النظام الفرنسيسكانى كله ، فاستعفى هو من الرئاسة .

وشيئاً فشيئاً ، أصبح ذلك النظام كغيره من الأنظمة الرهبانية الأخرى ، ومات القديس « فرانسز الأسيسى » وهو فى الخامسة والأربعين من عمره ، بعد أن أحرز شهرة فائقة ، بما أشيع من أنه من طول ما تأمل فى آلام المسيح التى عاناها على الصليب ، انطبعت فى جسده آثار جراحات المسيح .

ومما هو جدير بالذكر ، أن الفرنسيسكان لعبوا دوراً كبيراً فى نشر العلم ، فحيثما ذهبوا فى كل مكان ، أقاموا المدارس ، واهتموا بالتعليم . ومن الإنتقادات التى وجهت إليهم ، أنهم بدلا من تخريج صفوف من علماء الكتاب المقدس ، والقادة الدينيين ، وجهوا جهودهم كلها إلى إنشاء المدارس لنشر العلم بين الناس ، وقد نسى هؤلاء الناقدون الحاقدون ، أن نشر التعليم بين الناس ، خدمة من أجل وأعظم الخدمات .

كذلك نجح الفرنسيسكان فى نشر تعاليم الكنيسة الكاثوليكية فى الشرق ، عندما نجحت إحدى الحملات الصليبية فى إقامة مملكة لاتينية وبطريركية

لاتينية . كما لعبوا دوراً كبيراً أيضاً ، عندما اكتسح التتار أقطار أوربا ، وقد حصلوا من المغول ، على تصريح بتقديم خدماتهم بين الناس .

وحيث مارس الفرنسيسكان خدماتهم ، كانت هذه الخدمات تؤدى إلى إنعاش الحياة الدينية بين الناس . لهذا تعددت الطلبات لإرسال بعوث منهم لتقديم رسالة الإنجيل ، وخدمات المحبة ، فى بلدان العالم المختلفة .

وقد عاصر ظهور الفرنسيسكان ظهور النظام الدومينكانى ، وقد تأثر كل من النظامين بالآخر ، وأظهر كل منهما غيرة عظيمة فى تقديم المواعظ للناس. ومما هو جدير بالذكر ، أن الفرنسيسكان والدومنيكان ، لعبوا دوراً كبيراً فى مساندة البابوية ومساعدتها ، وتحقيق الصورة التى طالما راودت خيال البابا « إنوسنت الثالث » .

ومن الفرنسيسكان ، ذهب مرسلون إلى كثير من أنحاء العالم ، وما تزال بعثاتهم ناشطة فى العديد من البلدان . كما خرج من بين صفوفهم رجال عظماء طبقت شهرتهم الآفاق :

رايموند لل (١٢٣٥ — ١٣١٥ م) :

بطل من أعظم الأبطال ، ورجل من أفاضل الرجال ، وراهب من أعظم الرهبان ، الذين أنجبتهم أديرة الفرنسيسكان .

ولد فى جزيرة ماجوركا فى عام ١٢٣٥ . وقد استحق عن جدارة لقب « بطل الحروب الصليبية » لأنه اختط لنفسه خطة جديدة وفريدة ، فى مواجهته للعرب والمسلمين . فلئن كان فرسان الحملات الصليبية ، قد تعاملوا مع أهل الشرق بشريعة العين بالعين ، وتسلحوا فى حربهم بالسيوف والرماح ،

وجدنا فارسنا الهمام ، يتسلح بإنجيل المحبة والسماح ، أما الميدان الذى اختاره لنفسه ، فكان بلدان الشمال الأفريقى .

وكان النزاع بين المسلمين والمسيحيين ، لا من أجل امتلاك الأرض المقدسة فى فلسطين ، بل من أجل السيادة العالمية ، وكان نفوذ الإسلام قد بلغ أوجه فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ومنذ القرن الثامن ، كان أكثر من نصف بلاد الأندلس ، قد خضع للحكم الإسلامى ، واكتسح الغزو العربى أمامه الكنائس المسيحية فى بلدان الشمال الأفريقى ، واعتنق الإسلام ألوف من المسيحيين الأقباط فى مصر .

وفى عام ١٢٩١ م . ، تلقت أوربا أنباء سقوط عكا ، وانهيار القوة المسيحية فى فلسطين ، وكانت أفريقية الشمالية كلها قد دانت للفاتحين . وكانت عوامل الحقد والغيظ تعتمل فى صدور كل من المسيحيين الأوربيين والمسلمين .

فى هذا الجو المشحون بشحنات ناسفة من الكراهية والتعصب ، وتربص كل من الفريقين بالآخر ، تسامى « ريموندلل » فوق عصره ، كقمة جبل عال ، ارتفعت فوق منبطح من الأرض المبللة بمياه المستنقعات الآسنة .

وقرر أن يتخطى كل عوائق الكراهية ومرارة النفس ، ويتقدم وهو أعزل من كل سلاح ، سوى سلاح المحبة والعطف والأخوة الإنسانية ، يمد يد المحبة ، نحو من حسبتهم أوربا فى ذلك الوقت أعدى أعداء المسيحية . ولاشك فى أن هذه الخطوة كانت تتطلب شجاعة فائقة ، إذ كيف يجرؤ شخص أعزل ، على التفكير فى اقتحام أمنع حصون العالم الإسلامى فى أفريقية فى ذلك العصر .

لم يكن متهوراً ولا مندفعا كما قد يتراءى للبعض ، لكنه كان يعلم جيداً ما هو مقدم عليه ، وكان يعرف تماماً من هم العرب ، الذين سوف يواجههم فى أفريقيا الشمالية . فقرر أن يعد نفسه إعداداً ، يؤهله للقيام بمهمته خير قيام ، إذ كان قد أحس أن الأمر يتطلب رجلا مدرب العقل ، مروض العاطفة ، له غيرة قوية ، حتى يتسنى له لقاء المسلمين فى ميدان الفكر ، الذى كانوا يمسكون بزمامه فى تلك الفترة من الزمان . وقد أعد نفسه إعداداً وافياً لعمله ، بإتقانه اللغة العربية ، ودراسة الفلسفة المسيحية وعلوم الجغرافيا ، التى كان العرب يضربون فيها بسهم وافر .

وكان « ريموند » قد سمع فى كنيسة الفرنسيسكان الصغيرة فى بالما ، قصة « فرانسز الأسيسى » ، والمغامرة التى قام بها من أجل المسيح ، وبينما كان يصغى إلى تلك القصة ، قرر « ريموند » أن يحذو حذو «فرانسز» ، فى عالم الفتح الجديد بالسلام والمحبة والأخوة ، لكسب قلوب العرب والمسلمين ، وكان قد رأى فرسانا كثيرين يذهبون إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين ، حاسبين أنهم قادرون على تحريرها بقوة السيف ، لكنهم أخيراً كانوا يهلكون قبل تحقيق أهدافهم ، فاقتنع تمام الإقتناع بأن غزو الأراضى المقدسة لن ينجح إلا بالطريقة التى اتبعها المسيح وحواريوه ، طريق المحبة والتضحية .

وقبل كل شىء ، قرر « ريموند » أن يتعلم اللغة العربية ، ليعرف كيف يتفاهم مع العرب ، ويدرس عاداتهم وأخلاقهم وأساليب حياتهم ، ويقرأ القرآن وكتب الحديث . ولهذا الغرض استأجر لنفسه داراً كبيرة فى « بالما» وأكب على دراسة الكتب الخطية تحت إشراف عبد عربى اشتراه لكى يعاونه فى دراساته ، وظل على هذه الحال تسع سنوات ، يناضل مع

اللغة العربية ، فى صبر ومثابرة ، حتى ملك ناصيتها وتمكن منها ومن فنونها :

بعد ذلك سافر إلى باريس للدرس ، والدعاية لمشروعه وبعثته ، وليثير حماس الناس لمهمته . كما راح ينتقل كثيراً فى عواصم أوربا الكبرى ، يدعو الناس لمعاونته فى هذه الحملة ، ويستميلهم إلى هذا النوع الجديد من الجهاد السلمى لكسب العرب .

لذلك رحب به أهل جنوة ، عندما رأوه يترقب قيام سفينة تمخر به العباب إلى أفريقية . وظن أغلب الناس ، أن « ريموند لل » ، يقوم بمخاطرة غير مأمونة العواقب ، بل إن بعضهم اتهمه بالجنون ، لأنه قرر الذهاب بمفرده إلى أرض الأعداء ، لاستمالتهم إليه بنداء المحبة ، بدلا من استخدام السيف ، وكانت الأغلبية الساحقة – وضمنهم زعماء الكنيسة وقادتها ، ترى أن الحرب هى أنجع وسيلة .

وبعد أن حجز لنفسه مكانا على إحدى السفن ، سيطر عليه الجوف والجزع ، وغادرت السفينة الميناء بدونه ، بعد ذلك وقع فريسة لنوبات من الخزى وتأنيب الضمير ، واستولى عليه شعور طاغ بالندم ، لأنه خيب أمل سيده فيه .

بعد قليل عاودته شجاعته ، وعندما علم من أصدقائه ، أن هناك سفينة توشك أن تبحر إلى تونس ، عزم على السفر عليها ، غير أنه أصيب بمرض شديد ، عاقه عن السفر هذه المرة أيضاً .

وعندما علم بموعد إبحار سفينة ثالثة ، صمم على السفر مهما كلفه الأمر ، وبعد إقلاع السفينة ، صلى وطلب من الله أن يمنحه القوة اللازمة

للقيام بمهمته ، وقد سجل إحساسه بعد ذلك فقال : « من تلك الساعة ، أصبحت إنساناً جديداً ، ولم يعد بى أى أثر للحمى ولم يراودنى مطلقا ، أدنى إحساس بالخوف » .

وعندما نزل « ريموند » فى تونس ، قصد توا إلى المسجد الكبير فى مدينة تونس ، وكان يعرف بمسجد « شجرة الزيتون » ، وإلى جانب المسجد ، وقعت عيناه على علماء ومشايخ ذوى لحى بيضاء ، يكبون على دراسة القرآن ، ويتباحثون فى الأحاديث والسنة النبوية ، وقد أدهش أولئك الرجال ، أن يروا رجلا غريباً يأخذ مكانه بينهم بغير سابق معرفة . وراح يحدثهم فى شئون الدين بلغة عربية فصحى ، ويتعمق فى حديثه عن طبيعة الله وذاته وصفاته ، ويقارعهم حجة بحجة ودليلا بدليل . فألقوا عليه الأيادى ، وأخذوه إلى السلطان قائلين إنه إنسان غريب خطر الشأن .

فأمر السلطان بالقبض عليه ، وطرحه فى سجن مظلم . غير أن شيخاً كريماً من أشياخ المسلمين ، ممن أعجبوا بفصاحة الرجل وأخلاقه وأقواله ، توسط له لدى السلطان ، وطلب إطلاق سراحه ، وفعلا قرر السلطان ترحيله من البلاد ، وبعد إخراجه من السجن ، أخذوه فى حراسة مجموعة من الجند إلى الميناء ، ووضعوه على ظهر السفينة التى كانت قد جاءت به ، وكانت على وشك الإبحار إلى جنوه ، وقدم إليه الجنود تحذيراً من العودة إلى تونس ، حتى لا يعرض ذاته للرجم بالحجارة .

لكن الرجل الذى تردد مرة قبل الإبحار من جنوة ، وجد فى نفسه الجرأة على الهرب من السفينة ، والعودة مرة أخرى ، إلى نفر قليل من الذين كانوا قد أحبوه وأكرموه سراً . وهناك بقى شهورا قليلة ، مختفيا بين أرصفة الميناء ، يقوم بخدمته فى محبة كاملة . وبعد أن قام متخفيا بكل ما يستطيع

إنسان أن يعمله ، عاد إلى إيطاليا ، وراح يحرض الناس هناك ، على التقرب إلى العالم الإسلامى .

وظل « ريموند لل » سنوات طوالا ، يتنقل بين المدن والموانئ الواقعة على الشواطىء الأفريقية للبحر المتوسط . متحملا العديد من الأخطار ، التى كان يتعرض لها المسافرون فى تلك الأيام ، بأيدى القرصان فى البحار ، وفى الغابات المظلمة ، التى يكمن فيها اللصوص والوحوش الضارية .

وفى الثمانين من عمره ، قام بمغامرته الأخيرة ، وسافر إلى ميناء صغيرة فى غرب تونس ، كان قد زارها من قبل ، وكان له فيها أصدقاء وأتباع . وبعد ما قضى بضعة شهور فى بيت صديق له آواه وأخفاه ، وسهل له القيام بخدماته سراً ، أحس « ريموند » أنه قد آن الأوان ، لكى يجاهد علانية ، ويذيع جهراً ، الرسالة التى كان ينادى بها فى السر ، ولو دفع حياته ثمنا لذلك .

وفجأة سمعت الجموع صوتا يتصاعد من وسط ضجة سوق البلدة ، وكان ذلك الصوت ، هو صوت « ريموند » ، الذى كان الآن قد صار شيخاً حطمته السنون ، وراح يدعو الناس إلى محبة الله ، فأحاط به جمهور من الناس ، وهجم عليه الدهماء ، وأخرجوه بالقوة إلى خارج السوق ، وأخذوه إلى ساحة خارج البلدة ، حيث رجموه بالحجارة ، ونال إكليل الشهادة :

ولئن كانت خاتمة « ريموند » قد اصطبغت بهذه الصبغة المأساوية ، إلا أنه حقق من النجاح أكثر مما كان يفتكر ، لأنه بشجاعته ومحبته ، فتح عيون أهل أوربا فى ذلك العصر ، على أسلوب جديد ، هو أسلوب

المحبة والمسالمة ، وهذا هو أقوم السبل لكسب من تحسبه عدوك ، وأنك بالحب ، يمكنك أن تحقق ما تعجز عن تحقيقه بالحرب .

ألم أقل لك عند بدء حديثى ، إنه كان بالفعل بطلا من أشجع الأبطال ، ورجلا من أعظم الرجال !! ؟

الحياة بين العامة :

كان البون شاسعا بين مستوى حياة القادة أمثال برنارد ودومنيك وفرانسز الأسيسى ، وبين عامة الشعب ، الذين تشبعت نفوسهم بروح الخوف ، كنتيجة حتمية لما استقر فى قلوبهم ، فى ضوء نظام العبادة ، الذى كان شائعاً فى ذلك الزمان ، وفى ضوء العقوبات الكنسية ، وسيف الحرم والقطع ، الذى كان مسلطا على الرقاب .

وكان الناس ينظرون إلى الله ، كديان قاس ، شديد البطش والعقاب ، لا سبيل إلى إرضائه ، غير ممارسة الأسرار ، وإطاعة التعاليم ، التى يتلقونها عن آباء اعترافهم .

وسيطرت على عقول العامة الخرافات والأوهام ، ولعل مبعث هذا ، كان ممارسة الأسرار الكنسية ، التى كان يعتقد أن لها قوة غامضة ، لايعرف الناس كنهها ، خاصة وأن معظمهم كانوا من الفقراء والجهال ، وكانوا يعيشون فى أدنى مستويات الشر والفقر ، خصوصاً فى كبريات المدن .

ولم يكن الناس يعرفون شيئاً اسمه محبة الله والثقة فيه ، لهذا كانوا يواظبون على الممارسات الكنسية ، لا عن رغبة ، بل عن رهبة ، تفاديا للعقاب الذى يصبه الله على المتهاونين . كان هذا هو حال الناس بوجه عام فى كل بلدان غرب أوربا ، عدا ألمانيا ، حيث تميز الناس بالتقوى وإطاعة الإنجيل ،

ولم يكن هذا بسبب دور متميز قامت به الكنيسة هناك ، لكن لأن الناس أنفسهم فى ألمانيا ، كانوا مدققين فى حياتهم الخاصة . تشهد بهذا الترانيم التى كانوا يشدون بها هناك ، فى بيوتهم وكنائسهم ، وكان الآباء يعلمون أبناءهم الوصايا العشر ، والصلاة الربانية ، وقانون الإيمان ، كما كانوا يعلمونهم بعض الصلوات . وكانوا يعلمونهم أيضاً ، أن الله هو مانح الخيرات ، وأن كل عطية صالحة ، تأتيهم مجانا من السماء ، وأن الصلاة هى السبيل الوحيد ، لتمتعهم بالقيادة الإلهية ، وحصولهم على العطايا والهبات السماوية.

جبهة معارضة للكنيسة :

يخطىء من يظن أن العصور الوسطى ، كانت فترة الخضوع الأبكم من جميع الناس، وتسليمهم تسليما مطلقاً بكل ما تنادى وتعلم به الكنيسة . وقد سجل التاريخ أسماء لأشخاص وحركات معارضة ، أعلنت رأيها صريحا ودون خوف بحسب ما وصل إليهم من نور ، نذكر فيما يلى بعضا منهم:

« بطرس والدو » :

واحد من أعيان مدينة ليون ، وبينما كان حاضراً أحد اجتماعات مجلس المدينة ، توفى فجأة صديق له من أعضاء المجلس ، فأثر فيه هذا الحادث تأثيراً عميقاً ، وراح يفكر فى أنه ربما وقع له مثل ما وقع لزميله .

وفى عام ١١٧٣ م . ، أثار انتباهه شاعر موسيقى ، كان يتجول فى شوارع المدينة ، وهو ينشد أجزاء من مقطوعة عن حياة أحد القديسين ، فأخذ الشاعر معه إلى منزله ، لكى يسمع منه المقطوعة كاملة .

وفى اليوم التالى ، قصد واحداً من الكهنة المرموقين ، وسأله عن الطريقة التى يستطيع بها أن ينال القداسة العملية ، فأجابه الكاهن : « إن

أردت أن تكون كاملا ، إذهب بع كل ما عندك وأعطه للفقراء » . وكان « والدو » مستعدا لأن يفعل أى شيء يعينه على بلوغ غايته ، لذلك لم يتردد أو يتوان ، ومضى ونفذ ما أشار به الكاهن ، وباع كل ما كان عنده ، وخصص ثلاثة أيام من كل أسبوع ، يطعم فيها كل من يقصده من الفقراء .

وأودع ابنتيه فى دير للعذارى ، وأعلن أنه قرر التفرغ لخدمة الله ، ودعا مواطنيه أن يحذوا حذوه ، فانزعجت زوجته لهذا التحول فى تفكيره وتصرفاته ، فلجأت إلى الأسقف ، متوسلة إليه ، أن يمنع « والدو » من تنفيذ فكرته ، لكنه كان قد اتخذ القرار ، ولم تنفع معه أية محاولة .

وانضم إليه نفر كبير من مواطنيه ، الذين حذوا حذوه وأطلقوا على أنفسهم إسم « فقراء ليون » ، وتصادف أن اجتاح البلاد قحط شديد ، وكانت هذه المجاعة فرصة سانحة ، لوالدو ورفاقه ، لإظهار محبتهم لمواطنيهم ، وتضحيتهم من أجلهم .

وفى بداية الأمر ، كان « والدو » ورفاقه ، يحاولون أن يصلوا إلى اختبار القداسة العملية ، فى حياتهم الشخصية ، وكانت الخدمة والمحبة والتضحية ، هى طريقهم لنوال هذا الإختبار . لكن هالهم الفساد المتفشى بين رجال الدين ، فقرروا العمل على معالجة هذه الحالة .

وللوصول إلى معرفة أعمق للتعاليم الدينية ، قرر « والدو » أن يقوم بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة القومية ، وبمعونة ثلاثة من الدارسين ، تمكن « والدو » من إعداد ترجمة للعهد الجديد وسفر المزامير ، وأجزاء أخرى من أسفار العهد القديم . وفى الوقت عينه ، قام « والدو » بجمع مجموعة كبيرة من أقوال الآباء ، وتعليقاتهم على بعض أجزاء من الكتاب

المقدس ، وأولى اهتماماً خاصاً لأقوال أمبروز ، وجيروم ، وأغسطينوس ، والبابا غريغوريوس الأول .

وراح « والدو » ورفاقه يجوبون الشوارع ، حاملين فى أيديهم الكتب التى أنجزوها ، وكانوا يذهبون من شارع إلى شارع ، ومن مدينة إلى مدينة ، يقدمون للناس رسالة الإنجيل ، وكانت خدمتهم ناجحة ومثمرة .

وبنفس الحماس الذى اندفع به السبعون رسولا ، حاملين البشارة السارة فى فجر المسيحية ، هكذا انطلق « فقراء ليون » ، اثنين اثنين ، يعظون فى الأسواق ، ويفسرون الكتاب المقدس للناس فى الشوارع ، وفى طريقهم ، لم يكن لأى منهم كيس ولا مذود ، على غرار الرسل الأولين . أما الكنائس ، فقد أغلق معظمها فى وجوههم ، وكان الكهنة يحاولون عرقلة مساعيهم ، ويضعون العقبات فى طريقهم . وقد أصدر أسقف ليون قراراً بمنع « والدو » ورفاقه من مباشرة خدمتهم .

وفى عام ١١٧٩ م ، توجه اثنان من رفاق « والدو » إلى رومية ، يشكون إلى البابا من المعاملة السيئة التى يلقونها ، والحجر على نشاطهم ، ويرجونه أن يسمح لهم بالعمل والخدمة دون معوقات ، وقد أخذا معهما نسخة من ترجمة الكتاب المقدس ، التى كان زعيمهم قد أعدها . وقد رحب البابا بهما وعبر لهما عن تقديره لهم ولتضحياتهم .

فى ذلك الوقت ، كان مجمع لاتيران منعقداً ، وكان من بين المسائل التى تضمنها جدول أعماله ، موضوع إصلاح الأحوال فى الكنيسة ، وقدم البابا لهيئة المجمع ، إلتماس « والدو » ، الذى كان يطلب فيه الترخيص له ولرفاقه بمباشرة نشاطهم ، فقرر المجمع إحالة هذا الإلتماس ، إلى لجنة تتولى

فحص أعمال جماعة « فقراء ليون» أو أصدقاء « والدو » ، الذين أصبحوا يعرفون فيما بعد باسم « الوالديين » .

وكان من بين أعضاء اللجنة ، شخص انكليزى يدعى « والترمايس » ، سجل عدة ملاحظات عن هذه الجماعة ، نذكر منها قوله : « ليس لهؤلاء القوم مقر ثابت ، لكنهم ينتقلون من مكان إلى مكان ، حفاة الأقدام ، يعملون اثنين اثنين ، ولا يملكون شيئاً ما ، وهم يعيشون على غرار الكنيسة الأولى ، كل شيء مشترك بينهم . وهم جماعة من العلمانيين ، لم يحصلوا على شيء من العلم ، ولا يستحقون أن يضيع المجمع وقته فى الإنشغال بهم» .

ورغماً عما انتهى إليه هذا الرجل فى ختام ملاحظاته ، لم يفته أن يلاحظ مدى تأثير هؤلاء الناس ، فكتب فى موضع آخر يقول : « إنهم بدأوا بداية بسيطة ، لكن علينا ألا ننسى أنهم قد يصبحون فى المستقبل ، قوة لا يستهان بها . وربما يطردوننا من البيت ، لو أننا سمحنا لهم بدخوله » .

وقد سمح البابا لوالدو ورفاقه بممارسة نشاطهم ، تحت إشراف الإكليروس لأنه رأى أنه ليس من الحكمة ، أن تخمد الكنيسة جذوة هذه الغيرة الدينية. وحتى اللحظة التى نحن بصددها الآن ، كان « والدو» ورفاقه ما يزالون أعضاء فى الكنيسة الكاثوليكية ، يؤدون خدماتهم فى داخلها . فبواسطة واحد من الكهنة ، وجد « والدو » طريقه إلى خدمة الله ، وفى أحد أديرة الكنيسة أودع ابنتيه ، لهذا لم ينس فضل الكنيسة عليه ، وراح يتعمق فى دراسة عقائدها. ولم يخطر بباله مطلقاً أن يخرج على تعاليمها ، أو يقاوم سلطانها . واستمر فترة طويلة يعمل داخل الكنيسة ، فى حدود الرخصة التى منحها له البابا فى مجمع لاتران .

لكن الكهنة لم يلبثوا حتى قلبوا ظهر المجن لوالدو ورفاقه ، وراحوا يقاومونهم ويضعون فى طريقهم العقبات . وهنا ، أعلن « الوالديون » عدم الإعتراف بسلطان الكنيسة ، الذى يمثله هؤلاء الكهنة ، وأعلنوا أنه حيث روح الرب هناك حرية . وعندما كان يطلب منهم الإمتناع عن الوعظ ، كانوا يجيبون بقول بطرس ويوحنا لأعضاء السنهدريم : « إن كان حقاً أمام الله أن نسمع لكم أكثر من الله فاحكموا أنتم » (أعمال الرسل ٤ : ١٩) .

منذ ذلك التاريخ ، اعتبر الوالديون متمردين على السلطان الرسولى ، وخارجين على القانون الكنسى ، وأصبحوا عرضة لصدور الحكم بتكفيرهم ، وتوقيع أقسى العقوبات عليهم ، لكنهم لم يأبهوا .

بعد ذلك تقرر طردهم ، وحرمانهم من عضوية الكنيسة ، فى مجمع فيرونا الذى انعقد فى عام ١١٨٤م ، وأصدر قراراته ضدهم ، وضد عدد من الجماعات الأخرى ، التى كانت قد ظهرت فى تلك الأيام . وقد تضمن القرار نداءوتحريضاً لكل فئات الشعب ، بطرد الذين يدعون أنفسهم «فقراء ليون » والجماعات الأخرى ، التى تعلم تعليما آخر ، يختلف عن تعليم الكنيسة.

وإذ طرد « والدو» مع رفاقه من موطنهم ، راحوا يبثون تعاليمهم فى إقليم بروفنس ولا نجدك وفرنسا ولومبارديا وإيطاليا وألمانيا وأسبانيا . وحيثما ذهبوا ، كانت تعاليمهم تلقى القبول والتأييد ، وكان الناس يعتبرون تعاليمهم ، إنجيلا جديداً . وكأنما تلك المناطق كانت تربة جيدة وجديدة ، قد سبق الله فأعدها لتقبل هذه البذار ، التى نبتت ونمت وأعطت ثمراً متكاثراً .

ومن مكان إلى مكان ، كان يلتف حول « والدو » الكثيرون من المعجبين بتعاليمه ، غير أن السلطات المدنية كانت تقاومهم ، إرضاء لخاطر

الكنيسةوسلطانها . وقد أحرق منهم كثيرون . فهرب «والدو» إلى بوهيميا ، وبذلك أصبح بعيداً عن متناول البابا ، وفى بوهيميا ، أسس كنيسة بلغ عدد أعضائها حوالى ثمانين ألفا .

ولا يعلم شىء عن نهاية « والدو » أو أيامه الأخيرة . لكن أتباعه كانوا يتزايدون باستمرار . وفى عام ١١٩٨ م . وتحت تأثير أسقف تورين ، قام « أوتو الرابع » إمبراطور ألمانيا ، بإصدار قرار أمبراطورى ، بالقضاء على الوالديين . وفى كل عصر ، ابتداء من عام ١٣٠٠ م ، وحتى نهاية القرن السابع عشر ، بدأت اضطهادات مريرة ضد هذه الجماعة .

« بطرس دى برويز » :

وهو أول كاهن بدأ ينادى بتعاليم جديدة فى القرن الثانى عشر . وكان قد قرأ الإنجيل بإمعان ، فاقتنع اقتناعا تاما ، بفكرة عبادة الله بالروح والحق . وكان من رأيه أيضاً ، أن المعمودية لا تصح قبل الإيمان ، لذلك رفض معمودية الأطفال ، ونادى بضرورة إعادة تعميد المؤمنين ، الذين سبق تعميدهم فى طفولتهم ، قائلا بأن ما أجرى لهم فى الصغر ، ليس معمودية على الإطلاق ، لذا سمى هذا المذهب « مذهب تجديد المعمودية » .

وقد اعترض « بطرس » على ذبيحة القداس ، التى كانت الدعامة الرئيسية ، التى يستند إليها النظام الكهنوتى . كما هاجم بعنف الصدقات والصلوات ، وكل شىء مما كان يقدم من أجل الموتى الراحلين ، وكان يقول : « إن فرصة الإستفادة من وسائط النعمة ، تظل متاحة للإنسان ، طالما بقى على قيد الحياة ، أما بعد الموت ، فلا شىء يغير من وضع الإنسان» . وفى معرض اعتراضه على مبانى الكنائس الفخمة ، كان يقول : « ليس هناك ما يدعو للتفنن فى إقامة المبانى الفخمة الضخمة . إن الله روح ،

ولا يهمه المظهر فى شىء ، وكل ما يهمه ، هو القلب النقى ، والروح المنسحق ».
كما قال أيضاً : « إن الإنسان يستطيع أن يعبد الله فى أى مكان ، فى سوق أو فى دكان ، وهو يصغى لنا ويكون معنا هناك ، تماما كما لو كنا فى كنيسة».

وبدأ « بطرس » خدمته فى موطنه لانجدك لكنهم طردوه من هناك ، وظل عشرين عاماً يذرع مناطق جاسكونى ولا نجدك وبروفنس ، يعظ بحرارة وينتقد العبادة المظهرية التى تعتمد على مخاطبة الحواس فقط . وانضم إليه كثيرون من أهالى بروفنس وتقدموا ليعتمدوا بعد إيمانهم . بعد ذلك قاموا بانتقاد الكهنة ، والاعتداء على الكنائس ، وهدموا المذابح ، وأحرقوا الصلبان .

وفى عام ١٢٢٤ م ، وأثناء وجوده فى لانجدك ، وبتحريض من الكهنة ، تم إلقاء الأيادى على « بطرس » ، ووضعوه فوق خازوق وأشعلوا فيه النار .

« هنرى دى لوزان » :

بعد ذلك قام رئيس دير كلونى بحملة نشطة لإعادة الأمور إلى نصابها ، فى الكنائس التى دمرها البطارسة (أتباع بطرس دى بروز) ، وذلك عن طريق نشر تعاليم الكنيسة وعقائدها ، بقصد إعادة المسيحيين إلى حظيرة الإيمان الكاثوليكى ، وكان يركز جهده على هذا ، أكثر من العمل على اقتلاع المعترضين من تربة الكنيسة .

فى هذا الوقت عينه ، كان هناك راهب من ذات الدير (ديركلونى) ، يقوم بدراسة الإنجيل ، ووصل إلى الإقتناع بأن المسيحية تتطلب القيام بعمل إيجابى لخدمة الناس ، فقرر أن يودع السلبية والنزوع إلى الإنزواء ، وخرج من الدير ، وراح يقدم خدمته للناس ، الذين كانت بهم حاجة ماسة وشديدة

بمثل هذه الخدمة ، التي لم يفطن أحد إلى تقديمها لهم ، هذا الراهب هو « هنرى دى لوزان » .

ترك هذا الرجل الدير دون استئذان ، وراح ينتقل من بيت إلى بيت فى لوزان ، يعظ الناس ، ويعلمهم عن الحياة الروحية ، بحسب تصوره الشخصى لهذه الحياة ، فى ضوء ما قرأه فى الإنجيل .

ومن لوزان انتقل إلى وسط فرنسا ، وتبعه كثيرون ، وكونوا جماعة رسولية تولى هو رئاستها .

ولم يكن متطرفا كبطرس دى برويز ، الذى رفض وجود أى رمز فى الكنيسة ، حتى ولوكان هذا الرمز هو الصليب . لكنه حيثما ذهب ، كان يتقدمه شخص يحمل صليبا ، كدعوة موجهة للناس ، لكى يحملوا صليب المسيح .

وفى بادىء الأمر ، كان فى وعظه يركز على وجوب التوبة ، وعدم جدوى الحياة التى تخلو من ثمر الإيمان . لكنه بعد ذلك ، كان فى مواعظه يتطرق إلى تحذير الناس من الكهنة ذوى الميول والإهتمامات الدنيوية ، معلنا أن هؤلاء بسيرتهم ، وقدوتهم السيئة ، وتعليمهم ، إنما يقودون الناس إلى حياة شريرة ، كما انتقد بشدة الرؤساء الدينيين ، لأنهم لا يقدمون هؤلاء الكهنة الأشرار ، إلى محاكم تأديب كنسية .

وقد أعلن « هنرى » تأييده للرهبان المصلحين ، فى مطالبتهم بضرورة عودة الإكليروس إلى حياة العزوبة .

وكان « هنرى » فى حد ذاته ملفتا للنظر ، لأنه كان شابا قوى البنيان عريض المنكبين ، كما كان حليق اللحية قصير الشعر . وكان يمشى حافى

القدمين ، مرتديا ثياباً بالية ، فى برد الشتاء القارس . وكان يمضى أغلب وقته ، ويتناول طعامه ، فى الهواء الطلق ، على التلال وتحت الأشجار ، وكان يقدم معظم خدماته للفلاحين البسطاء ، محاولا أن يقدم لهم رسالة الإنجيل ، وقد دعاه هؤلاء « خادم الله العظيم » وتميزت حياة « هنرى » بالبساطة والتدقيق فى سلوكه الشخصى ، وقبل أن يعلم الناس ، كان يعمل هو أولا بما يعلمه ، وكانت النتيجة أن كثيرين قد تأثروا بقداسة حياته ، وسمو تعاليمه ، وقوة مواعظة . فتقدموا إليه معترفين بخطاياهم ، ومقرين بعدم جدوى الأساليب التى كانوا يلجأون إليها من قبل ، للحصول على غفران خطاياهم . وقد صدق من قال ، إن هذا الرجل (هنرى) كان هوا يتفيلد العصور الوسطى .

وفى أربعاء الرماد (أربعاء أيوب) ، من عام ١١١٦ م . ، كان اثنان من تلاميذ هنرى يسيران فى إحدى المدن الرئيسية بمقاطعة ماين يسألان الأهالى عما إذا كان ممكنا أن يأتى معلمهما لزيارة مدينتهم ، ليقدم لهم بعض المواعظ ، ولأن شهرته كانت قد سبقته إلى هناك ، استقبلهما الأهالى استقبالا حافلا ورحبوا بالفكرة ، ولم تكن الكنيسة قد أصدرت أى حكم ، ضد هنرى ورفاقه .

وعندما بدأ « هنرى » رحلته إلى رومية ، طلب الأسقف من رئيس الأساقفة ، أن يرخص له بتقديم مواعظه هناك ، وكان لعظاته فعل السحر فى نفوس سامعيه ، فالتف حواه الكهنة الشبان وعامة الشعب ، وأينما ذهب ، كانت الجماهير تتبعه بصورة لم يسبق لها مثيل ، فأثار هذا ضده حفيظة الكبار من رجال الإكليروس ، لكن الجمهور لم يأبه بهم ، وكرد فعل لموقفهم المعارض لهنرى ، قاطع الناس الكنائس ، كما وجهوا

إلى رجال الدين انتقادات مرة ولا ذعة ، فلجأ الكهنة إلى السلطات المدنية، لحمايتهم من غضب الجماهير ، ثم أرسلوا لهنرى خطابا يتهمونه فيه بأنه قد تجاوز حدود الرخصة الممنوحة له ، وأنه خرج عن تعاليم الكنيسة ، محاولين أن يلصقوا به تهمة الهرطقة ، والعمل على إحداث إنقسام فى صفوف الكنيسة ، وأنذروه بأنه إن لم يمتنع عن الوعظ فى أى مكان فى أبروشية رومية ، فإنه يعرض نفسه لصدور حكم ضده بالفصل من عضوية الكنيسة. لكنه لم يعرهم اهتماماً ، ولما تلى خطاب كبار القادة الدينيين فى رومية فى اجتماع عام ، كان يهز رأسه ، عند نهاية كل عبارة من عبارات الرسالة، وهو يقول : « إنكم تكذبون » .

والناس من كل الفئات ، كانوا يعتبرون « هنرى » مرشدهم الروحى ، واندفعوا يقدمون له تقدمات من الفضة والذهب ، إعلانا عن تأييدهم لموقفه ، وتشجيعاً له على الصمود فى مواجهة قادة الكنيسة ، ولكى تكون هذه التقدمات مصرفا ماليا ثابتاً مضمونا فى حوزته ، لسد حاجته هو ورفاقه، إذا ما نفذ الكهنة تهديداتهم ، وحكموا بقطعه من عضوية الكنيسة .

وعند عودة «هلدبرت» أسقف « لى مان» من رحلة إلى رومية ، وجد الشعور العام قد أصبح معبأ ضده ، بسبب موقفه من « هنرى» ، فلم يستقبله الناس بمثل ما كانوا يقدمونه له من حفارة ، وقد قال له الناس هناك : «لقد أصبح لنا الآن كاهن آخر أفضل وأعظم منك سلطانا » . ويرجع كره رجال الكهنوت لهنرى ، إلى خوفهم من أن يؤدى وعظه ، إلى كشف أخطائهم وخطاياهم .

ولم يشأ « هلدبرت » أن يستخدم سلطانه الكهنوتى ضد «هنرى » وتعاليمه، لأنه وجد أنه لن يجنى من رواء هذا سوى الفشل ، نظراً لحب الناس لهنرى،

وتقديرهم له ، وإعجابهم واقتناعهم بتعاليمه ، لهذا التقى بهنرى فى مقابلة خاصة ، وطالبه بترك الأبروشية ، والذهاب إلى مكان آخر ، يباشر فيه نشاطه ، خاصة وأنه لم يكن حتى الآن ، قد هاجم معتقدات الكنيسة وطقوسها ، وكان هجومه كله موجها ضد الإكليروس بوجه عام .

فترك « هنرى » لى مان ، ومضى نحو الجنوب ، فى المنطقة التى كانت من قبل ميداناً لنشاط « بطرس دى برويز » ، فاعتبره رئيس دير كلونى ، خليفة لهذا الأخير ، فقرر احتجازه فى ديركليرفو ، تحت إشراف برنارد رئيس الدير ، الذى أطلق سراحه بعد فترة وجيزة .

بعد ذلك عاد مرة أخرى إلى جنوب فرنسا ، وراح يعظ فى المناطق المحيطة بتولوز وألبى ، حيث كانت تقيم جماعة كبيرة وقوية من المعارضين للكنيسة الكاثوليكية ، وكانوا تحت حماية حكام تلك الأقاليم .

وظل «هنرى» يباشر نشاطه بنجاح ملحوظ ، طيلة عشر سنوات ، وإذ لاحظ رئيس دير كليرفو مدى قوة هذه الجماعات ، وتأثير « هنرى » على الناس ، طالب حكام تلك المناطق بوضع حد لتلك التعاليم ، المخالفة لتعاليم الكنيسة ، خاصة وأن الناس هناك ، كانوا قد هجروا الكنائس ، وامتنعوا عن العبادة فيها ، وممارسة طقوسها .

وراح رئيس الدير يذرع بنفسه تلك الأقاليم ، يقدم للناس تعاليم الكنيسة ، ويقال إن « برنارد » أحرز نجاحاً كبيراً فى إعادة الكثيرين إلى الحظيرة .

بعد ذلك ألقى القبض مرة أخرى على « هنرى » ، وكبل بالسلاسل ، وقدم للمحاكمة فى عام ١١٤٨ م . ، وأصدر المجمع الذى تولى محاكمته ، حكما بإعدامه ، لكن « شمشون » ـــ رئيس الأساقفة ـــ توسط له ، وطلب تخفيف

الحكم ، لعله يرعوى ويتوب ويرجع إلى أحضان الكنيسة ، فاستبدل الحكم بالسجن مدى الحياة .

الألبيون :

بعد إحراق « بطرس دى برويز » ، وإلقاء القبض على « هنرى دى لوزان » ، أصبح أتباعهما ابتداء من منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، يعرفون باسم الألبيين ، نسبة إلى مدينة فى لانجدك ، اسمها ألبى ، تقع على بعد ٤١ ميلامن تولوز ناحية الجنوب .

وربما كان أعضاء هذه الجماعات قد جاءوا من الشرق ، وهم جماعات متفرقة ، جمع بينها ووحدها ، موقفها المعارض للكنيسة ، وكانت أعدادهم تتزايد باستمرار ، وعقائدهم كانت شبيهه بعقائد الدوسيتيين الذين كانوا يمنعون الزواج ، ولا يعترفون بالعهد الجديد .

وفى عام ١١٣٩ م ، حكم مجمع لا تيران الثانى بأنهم هراطقة ، كما حكم عليهم بذلك أيضاً ، مجمع لا تيران الثالث فى١١٧٩م ، وبعض المجامع الإقليمية الأخرى . وحتى هذا الوقت ، كانت الكنيسة فى مقاومتها لهذه الهرطقات ، أو التعاليم المنحرفة — فى نظرها — ، تكتفى بارسال وعاظ يقدمون للناس تعاليم الكنيسة ، لكن البابا « إنوسنت الثالث » أراد أن يلجأ إلى القوة ، لمقاومة هذه الجماعات . فأرسل مندوباً عنه على رأس قوة مسلحة ، وفوضه فى القضاء على هذه الحركة بكل السبل ، وقد مثل رسل البابا بأتباع هذه الشيعة أبشع تمثيل ، لكن يداً خفية امتدت إلى مندوب البابا وقتلته ، فتوقفت الحملة إلى حين .

بعد ذلك أرسل البابا مندوباً آخر ، هو « أرنولد » رئيس دير كليرفو ،

لإنهاء المهمة التي بدأها «بطرس أف كاسينو» كما عين «سيمون دى مونتيفور» إيرل لا نشستر ، قائدا للقوات العسكرية ، وصدرت لهم الأوامر ، بألا يرحموا أحداً .

ولاذ الألبيون بالكونت «ريمون السادس» كونت تولوز ، فبسط عليهم حمايته ، رغم أنه لم يكن من شيعتهم ، لكنه بعد ذلك ، وتحت تأثير رجال الدين اعترف بأنه كان مخطئاً فى حمايته لهم ، وأرغم على حمل السلاح ضدهم. وإذ وصلت الحملة إلى مدينة بزييه ، سأل رئيس الحملة مندوب البابا ، ماذا يفعل بسكان المدينة ، فأجابه بأنهم يجب أن يبادوا أجمعين . وقد سقطت فى يد الحملة مدن وقرى عديدة من معاقل الألبيين . وهنا ظهرت فكرة محاكم التفتيش . فانعقد مجمع فى تولوز فى عام ١٢٢٩ م ، وقرر هذا المجمع إنشاء محاكم التفتيش ، وفى عام ١٢٣٢ ، أصدر البابا «غريغوريوس التاسع» قراراً ، بتحديد اختصاصات هذه المحاكم .

الحرب ضد الألبيين :

وقد اتسمت الحرب ضد هؤلاء بقسوة بالغة ، ووحشية منقطعة النظير ، وبوسعك أيها القارىء العزيز ، أن تكون فكرة عن هذه الحرب ، عندما تعرف ، أنه بتحريض البابا والسلطات الدينية ، تم تجنيد جيش قوامه نصف مليون رجل ، زحفوا على المناطق التى كان يقيم فيها الألبيون ، ويمارسون فيها نشاطهم .

زحف هذا الجيش الجرار ، بدون أن تكون معهم مؤونة ما ، فاضطر المحاربون إلى السلب والنهب ، من المدن والقرى التى اجتازوا فيها ، وأشاعوا الخراب أينما حلوا . وعندما وقعت فى أيديهم معاقل الألبيين ، لم يرحموا امرأة ولا طفلا ولا شيخاً ، لم ينج منهم أحد . لأنهم أعملوا فيهم حرقا وتقتيلا ،

دمروا المدن والقرى وأحرقوا البيوت ، بلا رحمة ولا شفقة . والأمر المؤسف حقاً ، هو أن هذا كله ، فعلوه باسم الدين ... حقاً أيها الدين ، أي دين ، كم من المخازى ترتكب باسمك ! ؟

وفى جنوب إيطاليا ، قامت حركة مشابهة لحركة الألبيين ، أسسها كاهن من لومبارديا إسمه « أرنولد » ، وصل إلى الإقتناع بأن الكهنة يجب أن يعودوا إلى نمط الحياة ، الذى كان سائدا فى العصر الرسولى الأول ، ليس من ناحية السلوك فقط ، بل من جهة موقفهم من الممتلكات ، وطبق على نفسه هذه التعاليم ، فارتدى زى الرهبان ، وعاش زاهدا لا يملك من حطام الدينا شيئاً . ووجدت تعاليمه صدى فى نفوس الناس ، فى كل من برسكيا ولومبارديا ، واضطرمت نفوس الشعب بالسخط على الحالة الشائنة ، التى كان رجال الإكليروس قد ترددوا فيها . فعجل البابا « إنوسنت الثانى » ، باتخاذ موقف منه ، وفى عام ١١٣٩ م ، أصدر مجمع لا يتران الثانى ، قراراً ضد «أرنولد» الذى ولى هاربا من إيطاليا إلى فرنسا ، ومنها إلى جبال الألب ، حيث وجد جماعات من الألبيين ، وأصبح واحداً من قادتهم .

وقد كتب « برنارد » رئيس دير كليرفو للبابا ، يطلب منه أن يضمن سلامة « أرنولد » ويكتفى بإحراق كتبه . بعد ذلك بقى أرنولد فى سويسرا خمس سنوات ، عاد بعدها إلى رومية . وهناك ثارت مشاعر الجماهير ، التى تمردت على سلطان كل من البابا والإمبراطور ، وأعادوا إلى المدينة حكم القناصل ، واستمرت الجمهورية فى رومية عشر سنوات . وفى النهاية كون البابا « أربان الرابع » والإمبراطور « فردريك الأول » ، جبهة قامت بالقضاء على هذا التمرد .

وتم تسليم « أرنولد » ليد السلطات ، فأعدم شنقا فى رومية ، وبعد إعدامه ، قاموا باحراق جسده ، وقد اعتبره أهالى رومية في عداد الشهداء والصديقين .

هذه الحركة وغيرها من الحركات المشابهة ، التى ظهرت فى جنوب فرنسا ، نبهت أذهان المسئولين فى الكنيسة ، إلى الخطر الذى يتهددها . وفى عام ١١٦٢م ، قرر البابا « الكسندر الثالث » ، أن يقوم باجراء مضاد لحماية الكنيسة ، فاتصل بالأمراء والنبلاء ، وطالبهم بالتصدى لمثل هذه الحركات وإخمادها بالقوة ، وهدد بحرم كل من يهمل منهم فى هذا الخصوص ، وفصله من عضوية الكنيسة .

وفى عام ١٦١٣م ، دعا إلى مجمع عقد فى تورز ، لكى يؤكد تصميمه على تنفيذ تهديده ، فى كل من يتقاعس عن الوقوف فى وجه هذه الحركات ، المعارضة لتعاليم الكنيسة . وقد حضر ذلك المجمع عدد كبير من الأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، وكهنة الأبروشيات ، والعلمانيين ، وخصوصاً من فرنسا وانكلترا .

وتعتبر قرارات هذا المجمع ، أول قرارات من نوعها ، تصدر عن كنيسة رومية ضد الحركات المعارضة لتعاليمها . وكانت هذه بداية لفترة من أسوأ الفترات فى تاريخ الكنيسة ، وهى تعتبر بحق وصمة عار فى جبين المسيحية ، إذ بدأت بها فترة أليمة من الإضطهادات الوحشية . فمنذ ذلك التاريخ بدأت السلطات الدينية ، على اختلاف مستوياتها ، فى فرض رقابة صارمة ، على كل من يعلم تعليما آخر ، يختلف عن تعاليم الكنيسة ، وأصدرت قرارات بالحرم ، ضد كل من يتعاون مع هؤلاء ، أو يقبل تعاليمهم ، أو يتعامل معهم ، وكان الظن يحدو المسئولين فى الكنيسة ، بأن أعضاء هذه

الشيع ، عندما يرون ذواتهم ، وقد نبذهم المجتمع ، سوف يضطرون إلى الرجوع ، والعودة إلى أحضان الكنيسة .

الكاثاريون :

ولكي نعرف شيئاً عما كان ينادي به بعض هذه الفرق من تعاليم ، نورد فيما يلي ، مقتطفات من رسالة كتبها في عام ١١٤٧م ، « أفيرينوس » عميد كاتدرائية ستينفيلد بالقرب من كولون ، إلى « برنارد » رئيس ديركليرفو ، حيث كتب يقول :

« لقد اكتشفنا بيننا جماعة من الهراطقة ، وقف اثنان منهم في أحد الاجتماعات ، وراحا يرددان بعضاً من أقوال المسيح والرسل . وهؤلاء الناس يدعون أنهم وحدهم الكنيسة الحقيقية ، لأنهم دون سواهم ، يسلكون بحسب تعاليم المسيح ورسله ، وهم يستخدمون الصلاة الربانية فقط في الذبيحة ، ثم بعد ذلك يتناولون جسد المسيح ودمه . وبالإضافة إلى معمودية الماء ، يتظاهر هؤلاء بأنهم يعتمدون بالروح القدس والنار ، مشيرين بهذا إلى شهادة «يوحنا المعمدان» ، وهم ينادون بأن كل واحد من المختارين ، يمكنه أن يعمد الآخرين ، كما أن كل مؤمن بوسعه أن يصلي على عنصري الذبيحة المقدسة ، كما أنهم لا يقرون الزواج ولا أدرى لهذا سبباً » .

وعن جماعة أخرى ، كتب « افرينوس » هذا يقول : «إنهم لا يعترفون بمعمودية الأطفال ، وينكرون أن الموضوع على المذبح ، هو جسد المسيح الحقيقي ، مدعين أن الكهنة قد فقدوا قدرتهم على التقديس ، كما أنهم يشجبون الزواج بأكثر من زوجة واحدة ، معتبرين الزواج الثاني زناً .

« كما أنهم لا يؤمنون بشفاعة القديسين ، ولا بالصيام ، ويقولون إن التوبة هي وحدها طريق الخلاص والغفران ، وأنه لا وجود للمطهر ، لأن

نفوس الراقدين تمضى فور موتهم إما إلى الراحة وإما إلى العذاب . وقد زاد عدد هؤلاء زيادة عظيمة وانضم إليهم عدد كبير من الكهنة والرهبان » .

ولكى نكون منصفين ، يلزم أن نشير ، إلى أنه كانت فى داخل الكنيسة أصوات كثيرة تعلو ، محتجة على استخدام العنف ضد أصحاب الأفكار المعارضة للكنيسة وتعاليمها ، نذكر من هؤلاء « القديس برنارد » رئيس دير كليرفو ، الذى علق على قول سفر «نشيد الإنشاد» : « خذوا لنا الثعالب الثعالب الصغيرة المفسدة للكروم » فكتب يقول : « إن الهراطقة هم الثعالب الصغيرة ، وأنا أشجع غيرة الناس على الكنيسة وتعاليمها وأحيي فيهم تحمسهم فى توقيع العقوبات على الخارجين عليها ، لكنى أرى ، أن أفضل السبل لمقاومة هذه الحركات ، هو حث الناس وتحريضهم عن طريق التعليم ، على العودة إلى أحضان الكنيسة . أما استخدام القوة ضدهم ، فأنا لا أوافق عليه » .

وفى وصفه لأولئك القوم ، كتب «برنارد» يقول : «لو سألتهم عن إيمانهم ، أجابوك إجابات مسيحية حقة ، وعندما يحدثونك ، لا تسمع منهم نميمة أو شتيمة أو أية كلمة شريرة — وهم يعملون بأيديهم ليكسبوا قوت يومهم . أين إذن وجه الشبه بينهم وبين الثعالب ! ؟ » هكذا يتساءل « برنارد » ، ويعود ليرد على التساؤل ويقول : « من ثمارهم تعرفونهم لقد ترك الرجال نساءهم ، والنساء تركن أزواجهن ، والكهنة الذين اتبعوا تعليمهم ، تركوا كنائسهم » .

وفى هذه الرسالة ، كان « برنارد » يشير إلى جماعة كاثارى ، الذين كان فى كولون جماعة منهم . ولم يعترف هؤلاء بسلطان الكهنة أو التقليد ، كما كانوا يعترضون بشدة ، على زيارة الأضرحة والأماكن المقدسة ، وعبادة القديسين والصور ، وكانوا فى تعليمهم ، يركزون كثيراً على الأعمال الصالحة . .

وبعضهم لم يقر شرعية الحرب أو القسم ، وكانوا يجوبون الأسواق ، يعظون التجار ويعلمونهم . وكانوا يحيون حياة مشتركة ، على نفس طريقة الحياة فى الكنيسة الأولى ، عندما كان كل شىء مشتركا بين المسيحيين .

وفى عام ١١٦٠م، توجه فريق من هؤلاء الناس، من ألمانيا إلى انكلترا، وراحوا ينشرون تعاليمهم هناك .

الإخوة :

وهناك شبه كبير بين هؤلاء وبين الوالديين ، إلا أنهم احتفظوا ببساطة الإيمان ، واشتهروا بين جيرانهم بحياة التقوى والطهارة وعمق المعرفة ، وقد نفضوا أيديهم من الكنيسة نهائياً ، وشقوا طريقهم منفردين ، وراحوا يمارسون عبادتهم بطريقتهم الخاصة ، وباللغة اللاتينية .

وأعضاء هذه الجماعة ، كانوا من فلاحى الكتاب المقدس ، إذ كانوا يواظبون على قراءته بطريقة جعلتهم أكثر فهما له من غيرهم ، وكانت لديهم ترجمات عديدة للكتاب المقدس وأجزاء منه . وكانت جماعة الإخوة متعاونة مترابطة فى جميع أنحاء أوربا ، وكان لهم نشاط كبير ، بين العمال فى المدن وعلى الأخص فى ألمانيا . وكان لهم نشاط بارز فى التبشير ، إلا أن نشاطهم هذا اتسم بالسرعة ، تجنبا للإضطهاد .

وبالرغم من ظهور هذه التيارات المعارضة والمحتجة ، التى كانت تتزايد يوماً بعد يوم ، فإن الكنيسة ، لم تستفد شيئاً من هذه الحركات ، إذ وجهت كل همها إلى إسكات هذه الأصوات ، دون أن تهتم كما يجب ، بمعالجة أوجه النقص والقصور فى خدماتها ، كما أنها لم تحاول أن تتلافى الأخطاء . وكانت محاكم التفتيش ، هى رد الفعل الوحيد ، لظهور هذه الحركات والتيارات ، وقد كانت لهذه المحاكم ، آثار لا يمكن إنكارها ، فى تطور الأحداث التى واجهتها الكنيسة فيما بعد .

١٣

كلمة حق!

عند الحديث عن كنيسة العصور الوسطى ، يطيب للبعض أن يرتدى منظاره الأسود ، فلا يرى فى صورتها ، غير الظلام والقتام . وينسى هؤلاء أن هذه الكنيسة هى جزء من الكنيسة العامة ، بل إنها تمثل الجزء الأكبر من كنيسة المسيح ، وأنها رغما عن كل ماشابها من أخطاء ، قد استطاعت خلال فترة طويلة من الزمان ، أن تحفظ الإيمان المسيحى وتحافظ عليه ، ذلك الإيمان الذى تسلمته الأجيال ، خلفا عن سلف ، خلال تلك العصور .

وهل يستطيع غير مكابر ، أن ينكر فضل كنيسة العصور الوسطى على العالم ؟ وهل يمكن أن ينسى التاريخ أولئك الأبطال ، الذين أنجبتهم تلك الكنيسة ، والذين شرف الزمان بذكرهم ! ؟

لقد أنجبت لنا الكنيسة العديد من أعاظم الرجال ، الذين سلف ذكرهم فى فصل سابق . هؤلاء الرجال الذين عاشوا بالقرب من المسيح وتبعوا أقواله ، ونسجوا على منواله ، ولو أن كنيسة العصور الوسطى ، كانت فعلا على تلك الحالة الشوهاء الممقوته ، التى يحاول البعض تصويرها بها ، لما أنجبت أمثال هلدبراند ، وبرنارد ، ودومنيك ، وفرانسز الأسيسى وغيرهم ، لأن الشجرة تعرف من ثمرها ، فإن كانت

الشجرة رديئة ، أنتجت ثمراً رديئاً ، وإن كانت جيدة ، كان ثمرها جيداً .

ولعل الظروف والملابسات التى أحاطت بتلك الكنيسة فى أيامها ، تكون ظروفا مخففة ، لصالح الكنيسة ، لدى كل الذين يحاولون أن يقيموها ويقيموا أعمالها ، منا نحن الذين نعيش فى عصر آخر ، يختلف اختلافا كليا ، عن تلك العصور .

فعندما كانت كنيسة العصور الوسطى ، فى طور التكوين ، كانت أوربا تعانى حالة من الفوضى والتشويش ، فالإمبراطورية الرومانية التى كانت تحكم العالم آنذاك ، كانت قد سقطت ، وكثيرون من سكان البلاد الأوربية ، كانوا قد هجروا بلادهم ، خوفا من الغزو البربرى الذى اجتاح تلك البلاد ، فى بداية العصور الوسطى ، وكان هذا يحمل فى طياته ، خطرا داهما ، هو اجتياح الوثنية لتلك البلاد ، والقضاء على المسيحية قضاء مبرما .

والتصدى لهذا التيار الكاسح ، كان يتطلب قيام تنظيم قوى ، يجمع الناس فى وحدة متماسكة ، تحت قيادة حكيمة واعية وحازمة معاً ، تعودهم على الإنضباط ، حتى يتسنى لهم الوقوف ، فى وجه هذا الطوفان الكاسح .

بعد ذلك عندما ازداد نفوذ النبلاء والأمراء ، تعرضت أوربا لخطر آخر ، هو خطر الإنقسام والتفتت ، بسبب الحروب والمنازعات ، التى كثيرا ما كانت تشجر بين بعض الأمراء وبعضهم الآخر . لكن الكنيسة التى كانت تضم تحت جناحيها كل الشعوب فى بلدان أوربا

الغربية ، هذه الكنيسة وحدها ، كانت هى القوة المضادة ، التى استطاعت أن تحفظ للشعوب الأوربية وحدتها إلى حد ما ، وكان لهذا الأمر الفضل الأكبر ، فى الحفاظ على الإيمان المسيحى والحضارة الإنسانية وتطورهما .

ثم إن الكنيسة هى التى احتوت جماعات الغزو البربرى التى اكتسحت أوربا ، وقدمت لهم الدين المسيحى ، وهذبت من طباعهم ، لكى يحيوا بين ظهرانيها حياة حضارية مهذبة ، تختلف تماماً عن حياتهم البربرية ، التى كانوا يحيونها من قبل . ولا ننكر أن الكنيسة لم تقم بهذا الواجب كما ينبغى ، لكنهاقامت به على أى حال ، بصورة ضمنت لها البقاء والإستمرار .

وإحقاقا للحق نقول ، إنه لم يكن فى الإمكان أبدع مما كان . وعلى الرغم من كل أخطائها ، كان للكنيسة فضل كبير ، فى التأثير على القيم ، التى كانت سائدة بين الناس آنذاك .

وفى مجال التعليم ، أخذت الكنيسة على عاتقها القيام بهذه المهمة لعدة قرون فى بلدان أوربا ، ومعظم المتعلمين والمثقفين على قلتهم فى تلك العصور ، كانوا من الإكليروس ، والكنيسة أيضاً ، هى صاحبة الفضل ، فى كل ما ظهر فى فترة العصور الوسطى من فنون .

وبرغم كل ما شابها من فساد ، وما حوته تعاليمها من أخطاء ، وما انطبعت به تصرفاتها من قسوة ، بل وعنف فى بعض الأحيان ، رغم هذا كله ، يمكن القول ، إن كنيسة العصور الوسطى ، كانت

واحدة من وسائط النعمة الفعالة ، التى استخدمها الله ، لنشر المسيحيه ، وحفظ الإيمان المسيحى ، والحضارة المسيحية ، من التلاشى والإندثار . لأنه حتى إذا كانت الكنيسة الرسمية قد وصلت فى بعض الأحيان إلى حالة الخراب ، إلا أن الرب كان يقيم من بين أعضاء الهيئات والمنظمات التابعة لها ، آلات يستخدمها لتصحيح الأخطاء ، وتصحيح المسار ، والعمل لامتداد ملكوته . وهكذا نرى أن كنيسة العصور الوسطى ، كان لها على العالم الذى عاشت فيه ، فضل لا يمكن إنكاره .

١٤

الكنيسة الشرقية فى هذه الفترة

[الخدمة والعبادة بين الكنيستين الشرقية والغربية ــ نشاط الكنيسة الشرقية ــ الكنيسة النسطورية] .

الخدمة والعبادة بين الكنيستين الشرقية والغربية :

قبل عام ١٠٥٤ م بقليل ، كان قد تم الإنفصال بين الشرق والغرب ، و كانت الكنيسة الشرقية أو اليونانية ، قد انفصلت تماما عن الكنيسة الغربية ، وكان بطريرك القسطنطينية ، هو رئيس الكنيسة الشرقية ، لكن نفوذه ، لم يبلغ الحد الذى بلغه نفوذ بابا رومية ، الذى كان رأس الكنيسة الكاثوليكية .

ورغم وجود بعض أوجه الإتفاق فى نظام العبادة فى كلتا الكنيستين ، الإ أنه كانت هناك بعض الإختلافات . فمثلا كانت الكنيسة اليونانية (الشرقية) تنادى بالأسرار الكنسية ، كما كانت تعمد الأطفال بالتغطيس ، وتفرض على المعترفين بعض الفرائض التى يؤدونها تكفيراً عن الخطايا التى ارتكبوها ، لكنها كانت تختلف عن الكنيسة الغربية ، فى صيغة الحل الذى كان يتلوه الكاهن على المعترفين ، إذ كان كهنتها يعلنون صراحة ، أنه لا سلطان لهم لغفران الخطايا ، وأن الله وحده هو الذى يستطيع أن يغفر للناس خطاياهم ، وأن كل ما يقومون به ،

هو فقط إعلان غفران الله لخطايا المعترفين ، الذين يؤدون ما يشير عليهم به آباء اعترافهم ، وبالتالى لم تكن الكنيسة الشرقية ، تعتبر ذاتها وسيطة بين الله والناس :

وقد اتسمت الخدمة والعبادة فى الكنيسة اليونانية ، بالعديد من المظاهر والحركات ، مثل إضاءة الشموع ، والسجود ، والركوع ، وتقبيل الإنجيل ، وكان الكهنة يرتدون فى أثناء الخدمة ، ثيابا زاهية متعددة الألوان ، وكان القصد من هذا كله ، هو إضفاء شيء من الجلال على الخدمة ، لزيادة تأثيرها فى النفوس .

وكأختها الغربية ، لم تهتم الكنيسة الشرقية بالوعظ ، غير أنها كانت تشجع الناس على قراءة الكتاب المقدس ، كما أتمت ترجمة الكتاب المقدس إلى كثير من اللغات القومية ، التى كانت تستخدمها فى العبادة ، على عكس الكنيسة الغربية ، التى كانت اللغة اللاتينية فقط هى لغة العبادة الوحيدة فيها .

وفى مجال عبادة الصور والقديسين ، كانت الكنيسة الشرقية أكثر تطرفا وتمسكا بها من الكنيسة الغربية .

وقد اختلطت العبادة بالأساطير فى الكنيسة الشرقية ، بصورة أكثر مما كان فى الكنيسة الغربية ، وهذا ملحوظ بصورة محسوسة ، بين أتباع هذه الكنيسة ، من الروس واليونانيين .

وسمحت الكنيسة اليونانية للإكليروس بالزواج قبل الرسامة ، ومعظم كهنتها كانوا من المتزوجين ، أما الأساقفة ، فلم يكن مسموحا لهم بالزواج ، ولهذا السبب ، كانوا يختارونهم دائما من بين الرهبان .

لكن الرهبان فى الأديرة التابعة للكنيسة الشرقية ، لم يبلغوا ما بلغه الرهبان فى الغرب ، الذين كانوا رسل الدين والحضارة فى بلدان أوربا .

نشاط الكنيسة الشرقية :

كان نشاط الكنيسة الشرقية محدوداً فى غرب آسيا ، بسبب انتشار الإسلام ، فلم تستطع أن تفعل شيئا لنشر الدين المسيحى هناك . إلا أنها فى القرن الحادى عشر الميلادى ، تمكنت من القيام ببعض النشاط التبشيرى ، فى المناطق الوثنية من روسيا . إلا أن تلك الجهود ضاعت هباء ، عندما اجتاح المغول روسيا ، وخربوها فى القرن الثالث عشر ، وحالوا دون انتشار المسيحية هناك .

وقد أحاطت بالكنيسة الشرقية ظروف صعبة ، ووقفت أمامها عقبات جسام ، لكن هذه كلها ، لم تكن هى السبب الوحيد فى توقف نشاطها ، وإنما السبب الرئيسى فى هذا ، هو افتقارها إلى روح التقدم والتطور . إن هذه الكنيسة (الشرقية) كنيسة محافظة لا تحب التغيير .

ولم تعدل الكنيسة اليونانية شيئا ، بعد التعديل الطفيف الذى أدخلته على العقيدة ونظام العبادة فى القرن الثامن ، سوى التعديل الذى أدخلته على الرئاسة ، بسبب العوامل السياسية الضاغطة التى أدت إلى إدخال هذا التعديل .

الكنيسة النسطورية :

والحق يقال ، واصلت الكنيسة النسطورية التقدم والإنتشار ، وحازت شهرة كبيرة ، فى خلال هذه الفترة من العصور الوسطى .

وفى القرن الثالث عشر الميلادى ، كانت هناك سبعون أبروشية خاضعة للبطريرك النسطورى ، وهذه الأبروشيات ، كانت تضم جموعا غفيرة من المسيحيين المنتشرين بين إدسا فى سوريا ، وبكين فى بلاد الصين ، ومن سيبريا فى روسيا حتى جنوب بلاد الهند .

لكن بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، خسرت الكنيسة النسطورية الكثير من مناطق نفوذها ، بسبب هجمات المغول . ومنذ ذلك الحين ، لم تتمكن تلك الكنيسة من استعواض خسائرها .

ولازالت فى بلاد الفرس (إيران) وسوريا ، بعض الكنائس النسطورية ، لكنها فى حالة تدعو إلى الرثاء .

الفترة الثالثة

أواخر العصور الوسطى

(١٢٩٤ ـ ١٥١٧م)

١٥

قوى جديدة فى الميدان

[تزايد الشعور القومى بين الشعوب الأوربية — صراع على السلطة] .

رأينا من قبل كيف أن الكنيسة استطاعت أن تنتصر على الإمبراطورية فى منتصف القرن الثالث عشر ، ومنذ ذلك الحين أصبحت الكنيسة هى الولى الشرعى أو قل الوصى على كل القوى الحاكمة فى دول غرب أوربا ، دانت لها الرقاب وانحنت أمامها الرؤوس .

لكن دوام الحال من المحال، والصراع دائماً سجال ، بين السلطتين الزمنية والدينية ، كل منهما تحاول أن تكسر عن عنقها نير الأخرى ، ليخلو لها الجو ، فتمارس وحدها السلطان ، دون منافس أودخيل .

تزايد الشعور القومى :

وقرب أواخر العصور الوسطى ، بدأت قوى جديدة تأخذ مكانها فى الميدان، إذ بدأت كل من انكلترا وفرنسا ، تبرزان كقوتين مؤثرتين على المسرح السياسى ، فى أوربا الغربية ، بعد أن توحدت شعوبهما تحت حكم بعض الملوك الأقوياء ، وبدأ يتزايد الشعور القومى بين الشعبين الإنكليزى والفرنسى، وراحا يرفضان كل تدخل خارجى فى شئونهما ، حتى ولو كان هذا التدخل من جانب الكنيسة .

وقد حذا الشعب الألمانى حذو الشعبين الإنكليزى والفرنسى ، وكان تزايد هذا الشعور القومى ، بين الشعوب الأوربية ، واحداً من العوامل التى أدت إلى ثورة هذه الشعوب ، ضد سلطان الكنيسة ، باعتبارها قوة أجنبية تتدخل فى شئونهم الداخلية .

صراع على السلطة :

مضى عهد طويل ، والكنيسة تمارس سلطانها ووصايتها ، على الملوك والأمراء وشعوبهم من ورائهم ، فاستقر فى أذهان رجال الدين ، أن هذه الوصاية حق من حقوق السيادة ، التى لا تنازع ، وأمر مسلم به ، لا مجال للخروج عليه .

لكن جاء الوقت ، الذى جلس فيه على عرش إنكلترا الملك « إدوارد الأول» ، وعلى عرش فرنسا الملك « فيليب الرابع » الملقب «فيليب الجميل» وفى عهدهما ثار سؤال خطير : أى السلطتين أولى بمباشرة السلطات المدنية . الكنيسة أم الدولة ! ! ؟ ، وهل من حق الملك أن يفرض ضرائب على ممتلكات الكنيسة أم لا ! ! ؟

وكانت هذه بداية عصر جديد ...

١٦

ماذا فى الجانب الآخر ! ؟

[حال الاكليروس ـ حال الرهبان ـ حال الشعب] .

وهذا الجانب الآخر هو الكنيسة ، التى كانت تواجه تمردا على سلطانها ، من جانب بعض الحكام والشعوب . ماذا كان فى الجانب الآخر ؟ كيف كانت الأحوال فى داخلها ؟

وقد رأينا فيما سلف ، كيف كانت قوة الإكليروس ، سبباً فى قوة الكنيسة وامتداد سلطانها ، وكيف كانت عظمة رجال أمثال هلدبراند ، وإنوسنت الثالث ، سبباً فى خضوع الحكام لهم .

ولكن الآن ، فى فترة أواخر العصور الوسطى ، تبدل الحال غير الحال ، وبعد النهضة العارمة ، التى اشتعلت جذوتها فى الكنيسة ، على أيدى رهبان ديركلونى ، وغيرهم من أعضاء الأنظمة الرهبانية الأخرى ، انحسرت الموجة ، وعاد الفساد يضرب أطنابه من جديد ، ويقبض على الزمام بيد من حديد .

حالة الإكليروس :

فبين الإكليروس ، عم الفساد ، وأصبح رجال الدين فى حالة يرثى لها ، وأصبحت المباذل التى يرتكبونها على كل لسان ، وإرتفعت بعض الأصوات تشجب تصرفاتهم ، وتدين أعمالهم ، لكنهم تمادوا فى غيهم ، معتمدين على مالهم من سلطان ، استطاعوا به أن يسكتوا أصوات معارضيهم ومنتقديهم .

وقد لعبت الأموال الطائلة ، التى أتخمت بها خزائن رجال الدين وجيوبهم ، دوراً كبيراً ، فى إهمالهم لواجباتهم الرعوية ، وترديهم فى هاوية الشر والفساد ، لأنه أصبح فى مقدورهم ، تحقيق كل ما يطلبون .

ولا يمكن القول إنه لم يكن بين رجال الدين فى تلك العصور أفاضل وقديسون ، لأننا لو قلنا هذا القول ، نتجنى على الحقيقة والتاريخ ، لكن الغالبية العظمى من رجال الدين كانت على الصورة التى رسمناها ، وأصبح الفساد هو الطبع الغالب والسمة المميزة لهم ، لا فرق بين كاهن وأسقف .

وفى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، زاد الفساد بصورة أثارت عليهم الرأى العام ، وقد وصف سكرتير البابا « بندكت الثالث عشر » حال رجال الدين بقوله : « إن واحداً فى الألف . منهم فقط ، هو الذى كان يواظب على القيام بأعباء خدمته » .

حال الرهبان :

وقد قاوم الرهبان حالة الإنحطاط الخلقى ، التى سادت فى ذلك الزمان ، لكن إلى حين ، ولم يلبثوا ، حتى أصبحوا هم فى أديرتهم ، يعانون من الحالة عينها ، وأصبح الكثيرون من الرهبان ، مستعبدين لخطايا عديدة ، مدمنين للخمر ، وأصبح الكثيرون منهم موضع هزء وسخرية ، بسبب شرورهم ومباذلهم .

حتى الأنظمة الحديثة ، أنظمة « الرهبان الشحاذين » ، هذه الأنظمة التى ظلت زماناً طويلا تقود ركب الصلاح والإصلاح ، لم تلبث أن استسلمت وجرفها التيار .

لكن الأمر لم يخل من وجود مجموعات بقيت متمسكة بعهودها ، ونذورها الرهبانية ، ومثلها العليا .

جهال الشعب :

وكنتيجة حتمية ومنطقية لانشغال الكهنة بمصالحهم الشخصية ، وإهمال واجباتهم الرعوية ، انحط حال الشعب ، خاصة وأن الوعظ فى الكنائس كان نادراً ، لجهل معظم الكهنة ، وقد أدى هذا إلى جهل الناس بتعاليم الدين ، فالقداس كان يتلى باللغة اللاتينية التى كانت غير مفهومة للعامة ، بل يمكن القول إن بعض الكهنة كانوا يرددون الصلوات كالببغاوات التى لا تعى ما تقول ، لكنهم حفظوه من كثرة ما رددوه ، والمصدر الوحيد لتعليم الناس ، كانت مواعظ الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان ، الذين كانوا فى هذه الفترة من الزمان ، قد فتر حماسهم ، وخفتت أصواتهم .

وقد ظهر عجز الكنيسة وفشلها ، فى عدم قدرتها على مواجهة الحاجات المتزايدة للشعب ، الذى كان ينمو ويزيد بمعدلات كبيرة . فابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى ، زاد عدد السكان فى مدن أوربا زيادة كبيرة ، الأمر الذى كان يتطلب مضاعفة الجهود والخدمات التى تقدمها الكنيسه لهم ، لكن حدث العكس ، إذ أن اهتمام الكهنة بمصالحهم الشخصية ، أدى إلى عدم الإهتمام بحاجات الناس ، وكان هناك عجز واضح وملموس ، فى أعداد الكنائس والكهنة فى العديد من الأماكن . وعاشت آلاف مؤلفة من الفقراء ، لاتجد من يقدم لها شيئا من احتياجات الروح أو الجسد ، بعد أن طغى حب المال على الكهنة ، فتوقفوا عن بذل العطايا والإعانات ، التى كانوا يقدمونها للناس فى فترات سابقة .

ثم إن تركيز الإهتمام فى العبادة على ممارسة الأسرار ، والإلتجاء إلى القديسين ، وطلب شفاعتهم ، وشراء الغفران بالمال ، كل هذه أدت إلى انحطاط الحالة الروحية بين الناس ، وعدم إهتمامهم بالتدقيق

فى سلوكهم وحياتهم اليومية ، فتفشت بينهم الشرور ، وعم الفساد واستشرى .

كذلك أدى سلاح الحرم الذى كان فى أيدى الكهنة ، سيفاً مسلطا على رقاب من لا يقدم لهم فروض الطاعة والولاء ، هذا السلاح أدى بالناس إلى حالة من الخضوع ، والخنوع ، واللامبالاة بما يجرى فى دنيا الإكليروس ، لأن كلا يريد أن « ينفد بجلده » من الحرم والتكفير الذى كان يجعل دم المحروم مباحا ، ويوجب على كل من وجده أن يقتله ، ومن يفعل هذا ، كان يعتبر نفسه يؤدى خدمة عظمى لله .

وهكذا نرى أن الكنيسة فى أواخر العصور الوسطى ، وجدت نفسها عاجزة تماما عن تقديم أى علاج للمشاكل العديدة ، التى كان يعانى منها الشعب فى تلك الفترة . ناهيك عن حالة أولئك الذين كانوا معتبرين « وكلاء سرائر الله » ، أضف إلى هذا نوع الديانة التى كانت تقدمها الكنيسة للناس ، إذ اكتفت الكنيسة بذلك التنظيم الرائع العظيم ، لكن متى كان التنظيم يغنى عن التعليم ! ؟ .

زد على ذلك أن الناس فى خوفهم ورعبهم ، كانوا يعيشون فى تلك الأيام ، وكأن على رؤوسهم الطير ، يخضعون للكنيسة لا خضوع الطاعة القلبية ، بل خضوع الخوف الذليل ، لهذا عندما دارت الدائرة ، وارتفعت الأصوات المحتجة ، من الأقلية القليلة ، التى وجدت فى ذاتها الشجاعة لكى تفعل هذا ، وجدت هذه الأصوات قاعدة عريضة تساندها وتؤيدها .

كما أن تطور الأحداث فى هذه الفترة من التاريخ ، أدى إلى حدوث مالم يكن فى الحسبان .

١٧

واهتزت الصورة !!

[فى حلبة الصراع ــ البابوية فى السبى ــ شرخ عميق فى الجــدار ــ طابور من الثــوار : (جيرارد العظيم ــ يوحنا ويكلف ــ يوحنا ميلكز ــ متياس اف جانو ــ يوحنا هس)] .

فى حلبة الصراع :

بعد ما عانت الكنيسة ، الكثير من المتاعب ، فى عصور سابقة ، وبعد ما تعرضت له من خسارة ، بفقدانها للكثير من سلطانها وهيبتها ، جلس على الكرسى البابوى ، رجل عظيم طموح ، هو البابا « بونيفاس الثامن » ، الذى كان من نفس مستوى عظمة وطموح هلدبراند ، وإنوسنت الثالث . وكان يطمع فى أن يعيد للكنيسة هيبتها ، ويحقق لها أكثر مما تحقق فى عهد سلفيه العظيمين .

وكان يرمى إلى إحكام قبضته على زمام كل من السلطتين الزمنية والدينية ، فيصبح امبراطور أوربا ، بجانب كونه البابا والأب الروحى . ويحكى أنه فى خلال احتفال اليوبيل الذى أقيم فى عام ١٣٠٠ م . ، تعمد أن يظهر أمام جموع الحجاج جالسا على عرش ، واضعا فوق رأسه التاج ، وممسكا بيمينه سيف قسطنطين ، وراح يصيح : « أنا قيصر .. أنا قيصر .. أنا امبراطور » . وسواء صحت هذه الرواية أم لم تصح ،

فإنها تعبر أصدق تعبير عن شخصية البابا « بونيفاس الثامن » ، وطموحه .

وكان ينادى بأن « رأس الكنيسة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية ، هو المسيح ونائبه بطرس ، الذى جمع فى قوته سيفين ، أحدهما دينى روحى والآخر مدنى زمنى » . لأنه عندما قال الرسل للمسيح : « هنا (فى الكنيسة) سيفان » ، قال لهم الرب : « هذا كثير .. هذا يكفى » . ومضى يقول : « إن الكنيسة قد جمعت بين يديها كلتا السلطتين ، الروحية والمدنية ، والكنيسة تمارس السلطة الروحية عن طريق الكهنة ، بينما يقوم الحكام والملوك والفرسان ، بممارسة السلطان المدنى نيابة عن الكنيسة ، وتحت وصاية الكهنة ورجال الدين ، وبترخيص منهم » . لأنه — كما يقول البابا « بونيفاس الثامن » — يجب أن تخضع السلطات المدنية ، للسلطة الدينية ، ومن يقاوم السلطان الدينى المرتب من الله ، يكون مقاوما لله ، وهكذا يجب على الدولة ، كل دولة ، أن تلزم رعاياها بضرورة الخضوع لسلطان بابا رومية ، لأن هذا الخضوع ضرورى لحصول الناس على خلاص نفوسهم » .

وعندما حاول البابا «بونيفاس الثامن» ، تنفيذ خطته ، واجه مقاومة عنيفة من اثنين من أقوى ملوك أوربا فى ذلك الوقت ، هما « إدوارد الأول » ملك انكلترا ، وفيليب الرابع ملك فرنسا ، اللذين تصديا له بكل قوة ، ومن ورائهما جبهة قوية متماسكة ، من أمتين متحدتين .

وقد أفلحا فى منع البابا من التدخل فى شئون بلديهما ، وبعد مقاومة لا تذكر ، اضطر البابا للإستسلام . ولم يمض سوى وقت قصير ، حتى شجر خلاف آخر ، بين البابا وفيليب الرابع ملك فرنسا ، فلجأ البابا

إلى إستخدام سلطانه ، وأصدر قراراً بحرمان فيليب وقطعه من عضوية الكنيسة ، ووجه إليه إنذاراً بعزله من العرش ، كل هذا فعله البابا ، باعتباره ملكا للملوك . لكن الملك لم يعر الأمر اهتماماً ، بل أكثر من هذا ، امتنع عن إرسال الجزية إلى رومية كالمعتاد .

بعد ذلك أرسل الملك « فيليب » خادمه « نوجاريه » للقبض على البابا « بونيفاس الثامن » ، وبمعرفة بعض من أفراد أسرة كولونا ، التى كان بينها وبين البابا عداء شخصى ، استطاع خادم الملك أن يفاجىء البابا فى قصره ، فوقع أسيراً تحت رحمتهم لمدة ثلاثة أيام ثم أطلقوه ، وبعد ذلك بشهر واحد ، مات البابا « بونيفاس الثامن » .

وكان « دانتى » خصما سياسيا للبابا ، لكنه علق على هذا الحادث بقوله : « عندما دخل القوم قصر البابا ، وأسروه ، وسخروا منه ، كان هذا العدوان واقعا على المسيح ، الذى استهزىء به مرة ثانية » .

وقد حاول البابا « اكليمندس الخامس » ، الذى خلف « بونيفاس الثامن » ، أن يبدأ صفحة جديدة فى علاقاته مع ملك فرنسا ، لكنه بعد فترة ، اضطر إلى إصدار مرسوم بابوى يدين الذين اعتدوا على سلفه الراحل . وبعد ذلك بأربعة أسابيع فقط من إصداره هذا المرسوم ، مات البابا ، وقال معاصروه ، إنه مات مسموما بأيد فرنسية . ولم يتم اختيار خلف له ، قبل انقضاء أحد عشر شهراً على وفاته .

وكان القبض على البابا « بونيفاس الثامن » ، ضربة قاصمة ، وجرحا عديم الشفاء ، أصاب بابوية العصور الوسطى فى الصميم ، فزالت هيبتها ، وانحط قدرها ، واهتزت صورتها .

وكان هذا إيذانا بظهور قوة جديدة مناوئة للبابا ، على المسرح السياسى فى أوربا الغربية ، تلك هى القوة القومية ، التى انتصرت على البابوية بالضربة القاضية .

البابوية فى السبى (١٣٠٩ – ١٣٧٨ م) :

وهذه الفترة من تاريخ البابوية ، يدعوها الإيطاليون فترة السبى البابلى ، لأن البابوية بقيت خلالها ، بعيداً عن مقرها التقليدى فى رومية ، وظلت أسيرة تحت رحمة ملك فرنسا وخاضعة لنفوذه ثمانية وستين عاما ، تماما كما كان الشعب اليهودى مسبيا فى أرض بابل ، لمدة سبعين عاما ، فى فترة سابقة من التاريخ .

وأول البابوات الذين عاصروا فترة السبى ، هو البابا « كليمندس الخامس » (١٣٠٥ – ١٣١٣ م) . وقد اختاره الكاردينالات لمنصب البابا ، لأنه كان واحداً من أنبل الرعايا الذين يدينون بالولاء للملك « إدوارد الأول» ملك انكلترا ، وكانوا يعتقدون أنه لهذا السبب ، سيسلك سبيلا مغايرا ، للخط الذى يريده ملك فرنسا . لكنه خيب آمالهم .. إذ رضخ لمطالب الملك الفرنسى ، مضحيا فى سبيل ذلك بالكثير .

وقد أعلن هذا البابا فى اجتماع عام فى سنة ١٣٠٩م ، أنه قد نقل مقره إلى أفنيون على ساحل الرون ، وهى مدينة لايفصلها عن فرنسا سوى مجرى النهر . وبقاء البابا فى هذا المنفى الإختيارى ، أفقد البابوية تأثيرها ومكانتها ، فى أذهان الناس وضمائرهم ، وكان هذا الإنتقال إيذانا بضياع نفوذ البابوية وسلطانها .

كان هذا هو رد الفعل لدى الرأى العام فى كل مكان فى أوربا ، حتى لدى أولئك البسطاء ، الذين لم يكن لهم أدنى حظ من الثقافة أو القدرة على التفكير .

وقد لعبت السلطات الحاكمة فى فرنسا ، الدور الأكبر ، فى الحط من قدر البابوية فى نظر الناس ، بجانب ما نالها من تحقير ، كنتيجة للفساد الذى كان قد امتد إلى القصر البابوى ، والذى ضرب فيه بعض البابوات بسهم وافر ، وكانت لهم فيه اليد الطولى . كما خسرت البابوية البقية الباقية من الكرامة ، بسبب الجشع الشديد ، الذى اتسم به بابوات أفنيون .

وكانت أوربا قد عانت الكثير ، فى ظل بابوية العصور الوسطى ، وآن لها أن تتمرد ، وبدلا من حالة الإنصياع والخضوع التى سادت عليها فى فترة طفولتها السياسية ، بدأت تتململ وتتمرد ، إذ أحست بأنها تخطت مرحلة الطفولة ، وبدأت تدخل مرحلة أخرى ، فرضت نفسها على مجريات الأمور .

شرخ عميق فى الجدار :

وكأن الزمن لم يكفه ما أصاب البابوية على يديه ، حين انسحبت إلى منفاها ، تاركة وراءها عرشها وعاصمتها ، متخذة أفنيون مقراً جديداً ، ومنفى اختيارياً لها ، حيث بقيت هناك فى سبيها ، تجتر ذكريات الماضى الذى ولى ...

نعم كأن الزمن لم يكفه ما كان ، ففاجأ البابوية بشرخ عميق أتى على البقية الباقية من ذلك البنيان المنهار .

أما تفصيل هذا الشرخ العميق الذى حدث فى جدار البابوية ، فيقال إنه فى عام ١٣٧٣م ، ونزولا على إرادة الرأى العام ، عاد البابا «غريغوريوس» الحادى عشر » ، إلى المقر البابوى فى رومية ، كما قيل أيضاً ، إنه أقدم على هذه الخطوة ، تحقيقاً لرغبة القديسة « كاترين دى سين » ، وكانت ذات شخصية فذة ، أرادت أن تمحو عن جبين البابوية ، العار الذى لحقها ، من جراء تركها لمقرها المعهود فى رومية ، مقر كرسى القديس بطرس الرسول ، ومثوى عظام الرسل ، والمكان الأوحد الذى يليق بخليفة القديس بطرس .

وفى عام ١٣٧٨ م ، تم اختيار البابا « أربان السادس » ، للجلوس على الكرسى البابوى فى رومية ، خلفا للبابا « غريغوريوس الحادى عشر » .

لكن الكرادلة الفرنسيين ، قاموا بانتخاب بابا آخر هو « أكليمندس السابع » ، للجلوس على الكرسى البابوى فى أفنيون ، وهكذا وجد فى الكنيسة اثنان من الباباوات فى وقت واحد ، أحدهما فى رومية ، والآخر فى أفنيون ، واستمر الحال هكذا لفترة امتدت إلى ثلاثين عاما .

وترتب على ذلك ، انقسام امتد حتى شمل أقطار أوربا الغربية بأسرها ، ولعبت الخلافات السياسية والأهواء الشخصية دوراً كبيراً ، فى اختيار الكرسى الذى تدين له بالولاء وتتبعه ، هذه الدولة أو تلك :

وإذ أصبح الوضع سيئاً ولا يحتمل السكوت ، دعا الكرادلة المؤيدون للكرسيين إلى عقد مجمع عام ، لمعالجة هذا الإنقسام . وتم انعقاد المجمع فى عام ١٤٠٩ م ، فى مدينة بيزا الإيطالية ، وأسفر المجمع عن اختيار شخص آخر ليشغل منصب البابا ، يدين له كلا الفريقين بالخضوع ، غير أن الباباوين

الآخرين ، رفضا الإستقالة ، وبهذا أصبح فى الكنيسة ثلاثة من البابوات ، فى وقت واحد .

بعد ذلك بثلاث سنوات ، انعقد فى كونستانس مجمع آخر ، قررعزل البابوين الآخرين من منصبيهما ، وحث الثالث على الإستقالة ، وبهذا تم وضع حد للانقسام ، ووقع الاختيار على البابا « مارتن الخامس » ، الذى اعترفت به جميع الأطراف .

ولئن كان هذا البابا وخلفاؤه قد اتسموا بالحكمة وحسن الإدارة ، واستطاعوا بذلك أن يستردوا من السلطان المفقود ، قدراً أكبر بكثير مما كان منتظراً ، إلا أن البابوية لم تستطع أن تعود إلى سالف مجدها .

طابور من الثوار :

« لكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار ومضاده فى الإتجاه » . تبعا لحكم هذا القانون ، ترتب على ما أصاب البابوية من إنهيار ، ظهور طابور من الثوار ، الذين تمردوا على الأوضاع السائدة فى الكنيسة نذكر بعضهم فيما يلى :

١ – جيرارد العظيم أو جيرارد جروت :

وقد ظهر هذا الرجل فى الأراضى الواطئة (هولنده) ، وحاز شهرة فائقة فى الجامعة . وكنتيجة لوعظه ، قامت حركة « العبادة الجديدة » . ونظراً لتقواه وقوة مواعظه التف حوله الكثيرون ، وأسس عدداً من البيوت التى عرفت باسم بيوت « إخوة الحياة المشتركة » وأخوات الحياة المشتركة ، وكان الرجال يقومون بالخدمة الرعوية ، وكانت لهم مدارس لتعليم الأولاد ، وقد اشتهرت وإزدهرت مدارسهم فى تلك الأيام . ولم تكن البيوت التى

أسسها « جيرارد » أنظمة رهبانية ، نظراً لسخطه على الأحوال التى كانت سائدة فى عالم الأديرة فى ذلك الزمان .

وتميزت حياة « جيرارد » وأتباعه بالبساطة ، وكانوا يكسبون عيشهم من عملهم فى التدريس ، وممارسة بعض المهن الأخرى .

وقد انتشرت بيوت هؤلاء الأخوة فى كل أرجاء الأراضى الواطئة ، وبذلوا جهداً فى تشجيع استخدام العلمانيين للغة القومية فى الصلوات .

وفى عام ١٣٩٨ ، دعوا عدداً كبيراً من أشهر رجال القانون ، من جامعة كولون ، واجتمعوا معاً براهب من أتباع النظام البندكتى ، وقد أصدر هؤلاء بيانا يتضمن أنه من حق العلمانيين أن يستخدموا كتبا مقدسة مكتوبة بلغتهم القومية .

وقد عرض أمر هذه الجماعة على محكمة التفتيش ، لبحث مدى قانونية نظام هؤلاء الإخوة والأخوات من أتباع « جيرارد » .

وعلى غرار نظام بيوت هؤلاء الإخوة ، قام نظام آخر شهير ، هو نظام كهنة جبل القديس أجنس ، ومن بين صفوف هذا النظام الأخير ، خرج القديس « توما الكمبيسى » ، صاحب المؤلف الشهير « الإقتداء بالمسيح » ، الذى ظهر فى القرن الخامس عشر .

وقد مات « جيرارد العظيم » فى نفس السنة التى مات فيها ثائر آخر ، هو « يوحنا ويكلف » .

٢ ـ « يوحنا ويكلف » (١٣٢٤ ـ ١٣٨٥ م) :

وهو مواطن انكليزى ، وقد ساعد على ظهوره ، تزايد الشعور القومى

في انكلترا ، عندما حدثت المواجهة بين الملك والبابا في عام ١٣٧٥ م ، بعد فترة من الخلاف المستمر ، والمقاومة المتصلة لسلطان البابا ، استمرت طوال خمسة وسبعين عاما . في أعقابها ظهر « يوحنا ويكلف » .

وكانت في بلاد الإنكليز جبهة قوية معارضة للبابا ، هذه الجبهة كانت تضم ملك البلاد ، والأساقفة ، وأعضاء البرلمان ، وهؤلاء كلهم أجمعوا على وضع حد لتدخل البابا في الشئون الداخلية للكنيسة الإنكليزية .

وقد ولد « ويكلف » في يوركشير قرب رتشموند حوالي عام ١٣٢٤م ، وذهب إلى جامعة أكسفورد ، حيث قضى معظم سني حياته . واشتهر باعتباره أول من تولى القيادة في الجامعة من بين الدراسين فيها ، وكان كاهنا لكنيسة لترورز ، واكتسب شعبية لحدبه على الفقراء .

وأول ضربة وجهها « ويكلف » للبابوية ، هي إنكاره لحق البابا في الحصول على الجزية من كنيسة انكلترا ، وكان الإنقسام الذى تعرضت له الكنيسة في ذلك الوقت ، عاملا من أهم العوامل التي شجعت « ويكلف » على توجيه ضربات أخرى .

فمضى في الشوط إلى نهايته ، وراح يهاجم البابا ورجال الإكليروس ، وينادي بأنه لا فرق ولا تمييز بين الإكليروس بسبب رتبهم الكهنوتية . بعد ذلك أنكر عقيدة استحالة عنصري الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الأقدسين ، كما تنادى الكنيسة الكاثوليكية ، وكانت تلك العقيدة عقيدة مركزية بالنسبة للكنيسة في تلك العصور .

وبسبب هذه التعاليم التي راح ينادي بها « ويكلف » ، عقدت السلطات الكنسية العليا مجمعا لمحاكمته .

أما هو فقد وجدها فرصة سانحة يعلن فيها للشعب أفكاره وتعاليمه الجديدة ، وراح فى أثناء المحاكمة ، يهاجم بعنف شديد نظام الكنيسة فى تلك الأيام ، ونادى بأن الكتاب المقدس ، هو السلطة الوحيدة المعتمدة فى الأمور الدينية .

بعد ذلك بدأ « ويكلف » أروع أعماله ، بترجمة الكتاب المقدس لأول مرة ، من اللغة اللاتينية إلى اللغة الإنكليزية . وبهذا العمل المجيد ، تمكن ويكلف وأعوانه من جعل الكتاب المقدس ، كتاباً مفتوحاً أمام جميع أفراد الشعب الإنكليزى .

ولكى يتسنى له نشر أفكاره ومبادئه بين الناس ، أنشأ ويكلف نظامه الشهير « الكهنة الفقراء » ، الذين حملوا اسم « لولاردز » . وكان بعض هؤلاء من طلبة جامعة أكسفورد ، لكن معظمهم كانوا من عامة الشعب فى الأبروشية التى كان « ويكلف » يقوم بخدمته الكهنوتية فيها .

وهؤلاء الكهنة الفقراء ، كانوا حفاة الأقدام ، يلبسون ثياباً خشنة ، ويحملون فى أيديهم عصياً ، وفى طعامهم وسكنهم ، كانوا يعتمدون على ما يقدمه لهم الشعب من تقدمات حبية . وكانوا يجوبون البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وأينما ذهبوا ، كانوا يعظون الناس ويعلمونهم .

وقد زاد عددهم زيادة كبيرة ، وأصبحوا قوة مؤثرة وفعالة فى نشر الديانة الإنجيلية ، ويقدمون للناس تعاليم « ويكلف » ، وبعضا من فصول الكتاب المقدس ، فى لغتهم القومية .

ورغم أن هؤلاء الكهنة تعرضوا فى القرن الخامس عشر ، لاضطهاد مرير ، إلا أنهم واصلوا مسيرتهم ، وظلوا يعملون إلى أن جاء عصر الإصلاح .

ونظرا لحب الناس لويكلف ، لم تستطع السلطات الكنسية ، أن تتخذ ضده أى إجراء صارم ، واكتفت بوصمه بالهرطقة ، ولم يتقرر إعدامه خشية إثارة الرأى العام .

وفى عام ١٣٨٤ م ، مات « ويكلف » فى بيته ميتة طبيعية ، بينما كان أعوانه يواصلون نشاطهم وخدمتهم فى ربوع إنكلترا .

ومن الطريف والمؤسف معاً ، أنه فى عام ١٤١٥ م ، عقد مجمع كونستانس جلسة لمحاكمة « ويكلف » ، وكانت عريضة الدعوى تتضمن خمساً وأربعين تهمة ، وفى ختام الجلسة ، أصدر المجمع قراره ، بأنه « لو أمكن تمييز عظام « يوحنا ويكلف » ، من عظام غيره من الموتى ، الذين يشاركونه فى مثواه الأخير ، فإن المجمع يطلب جمع رفاته ، وتطويحها بعيداً عن ذلك المكان ، حتى لا تتنجس بوجودها ، مدافن أبناء الكنيسة المؤمنين » .

وقد حدث بعد ذلك بثلاثة عشر عاماً ، أنه تم تنفيذ هذا الحكم ، بمقتضى قرار أصدره البابا « مارتن الخامس » ، فتم جمع عظام « يوحنا ويكلف » ، وأحرقت ، وألقى الرماد المتخلف عن إحراقها ، فى مجرى مائى بالقرب من لتروورز .

٣ — « يوحنا ميلكز » :

رغم بعد الشقة بين انكلترا وبوهيميا ، فإن روح « ويكلف » وتعاليمه ، كان لها فعل السحر فى بوهيميا .

وكان العامل الفعال فى هذا المجال ، هو الكاهن « يوحنا ميلكز » واعظ

كاتدرائية براغ » الذى استقال من عمله ، للقيام بخدمة الوعظ بين الفقراء ، وقد أحرز فى عمله بينهم نجاحاً لا يبارى .

وفى عام ١٢٦٧ م ، توجه إلى رومية ، وحاول أن يقنع البابا « أربان الخامس » ، بأن ضد المسيح قد جاء ، وأن المجىء الثانى للسيد المسيح قد بات وشيكاً ، لكن البابا طرده شر طردة . ومات « يوحنا ميلكز » فى أفنيون .

٤ – « متياس أف جانو » :

وفى براغ ، حل محل « ميلكز » ، رجل من طراز نادر مثله ، هو « متياس أف جانو » ، وكان واعظاً بليغاً ، وفى عظاته ، كان يوجه انتقاداً مرا لرجال الدين والرهبان ، ويعرض بحالة الفساد الذى كان قد تفشى فى كافة المجالات ، سواء كان هذا الفساد أخلاقياً ، أو فساداً فى العبادة .

وقدم « متياس » تفسيراً للكتاب المقدس ، وعن الكنيسة قال إن يسوع بذاته ، هو وحده مع الآب والروح القدس ، الموجود فى الكنيسة ، ويتولى حفظها ، ويهبها الحياة الداخلية ، ويقودها إلى حياة النمو » .

كما قال : « إن كل مسيحى له مسحة من القدوس ، وعلى هذا فإن كل المسيحيين هم ملوك وكهنة . ويسوع نفسه هو الألف والياء ، البداية والنهاية ، وأنه وحده المخلص ، وكل من يرغب فى خلاص نفسه ، عليه أن يلقى بذاته بالتمام على الرب يسوع المسيح ، الذى هو وحده الطريق والحق والحياة » .

٥ ـ « يوحنا هس » (١٣٧٣ ـ ١٤١٥ م) :

وهو من مواليد بوهيميا ، وقد حل محل متياس فى خدمة الوعظ ، فى كنيسة بيت لحم ، فى مدينة براغ ، فى عام ١٤٠١ .

وكان « هس » رجلا جماهيريا ، ومحاضراً بليغاً فى جامعة براغ ، كما أنه كان كاهنا .

بعد ذلك أصبح المتحدث الرسمى باسم الأمة فى الشئون السياسية والدينية ، وقد نادى بضرورة إصلاح حال الكهنة فى بوهيميا ، كما كان يدافع عن حقوق الأمة ضد الألمان . وكان يحس بأحاسيس بنى قومه ، الأمر الذى جعله موضع ثقتهم واحترامهم ، خاصة وأنه كان يحيا حياة طاهرة نقية . هذا كله جعل الطريق أمامه سهلا لكى يصبح قائداً دينياً ، وزعيما قوميا ، مرهوب الجانب .

وقد درس « هس » كتابات « ويكلف » وتعاليمه ، التى كان لها فى نفسه فعل السحر ، فتأثر بها أيما تأثر ، فراح يقدم هذه التعاليم للناس ، وينشرها بينهم .

ومن بين ما كان ينادى به « هس » قوله : « إن المسيح وحده هو رأس الكنيسة الحى الباقى إلى الأبد ، ولا يوجد بين البابوات من له هذه الصفة ، ولهذا فإن رئاسة البابا ، تعتبر مناقضة لروحانية الكنيسة ، باعتبارها جسد المسيح الحى ، وأن المسيح فيه كل القدرة وكل الكفاية » .

وقد قاومته السلطات الكنسية ، لكنه لم يعبأ بمقاومتهم ، وراح يواصل نشر أفكاره وتعاليمه ، رغم أن الكنيسة اعتبرته هرطوقيا ، ينادى بتعاليم منحرفة ومختلفة عن تعاليم الكنيسة .

وفى عام ١٤١٢ م ، أصدر البابا ضده قرارا بالحرم ، فاستأنف « هس » قرار البابا « يوحنا الثالث والعشرين » ، وطلب عقد مجمع عام لنظر الاستئناف المقدم منه .

وفى عام ١٤١٤ م ، انعقد مجمع كونستانس ، واستدعى « هس » للمثول أمام المجمع ، وقد حصل على تعهد بضمان سلامته .

وعند مثوله أمام المجمع ، واجهه البابا بتهمة الهرطقة ، وهكذا أصبح دمه مباحا ، ولم يعد التعهد بضمان سلامته سارى المفعول ، فسقطت عنه الحماية . وظلت قضيته منظورة طوال أيام ثلاثة ، وفى ختام محاكمته قال إنه جاء إلى كونستانس لا ليحاكم ، وإنما ليعبر عن إيمانه وأفكاره تحت حماية الإمبراطور ، الذى احمر وجهه خجلا عندما نظر إليه « هس » .

وكانت أعظم تهمة واجهها « يوحنا هس » ، هى قوله أن المسيح وحده هو الذى أعطى له أن يدين ، وقد اعتبر المجمع هذا القول خروجا على السلطات والقوانين الكنسية . فصدر الحكم بتكفيره ، وتجريده من كافة الحقوق ، وهنا خر راكعا على ركبتيه ، وصلى طالبا من الله أن يصفح عن أعدائه ، بينما وقف أعضاء المجمع يرمقونه ساخرين مستهزئين .

بعد ذلك أسلموه إلى الإمبراطور ، الذى نفذ فيه حكم الإعدام ، بوضعه ، فوق خازوق ، وإشعال النار فيه ، وقد أسلم الروح وهو يصلى إلى سيده ، وكان ذلك يوم السادس من يوليو عام ١٤١٥ م .

ثم جمعوا الرماد المتخلف ، ونثروه فى مياه بحيرة كونستانس ، « حتى لا تتنجس به الأرض » .

وعلى أثر إعدام « يوحنا هس » ، اشتعلت فى بوهيميا نيران الغضب ، وثارت ثائرة أهلها ، الذين كانوا يعتبرونه بطلا قوميا ليس له نظير ، فقام فريق منهم بشن حرب استقلالية ، واستطاعوا أن يهزموا امبراطور ألمانيا الذى فر هارباً ، واجتاحوا جزءا من الأراضى الألمانية ، وجروا الكثير من الويلات ، على كل بلدان أوربا .

وقد تكشفت هذه الثورة العارمة ، التى أضرمها أتباع «يوحنا هس» وأعوانه ، عن جماعة دينية قوية خرجت من الكنيسة ، وكانت خميرة خمرت بوهيميا بأسرها ، وامتد نشاطها إلى مورافيا ، وبعض أجزاء من ألمانيا ، حيث انتشرت تعاليم ويكلف وهس .

وظل أتباع « هس » يقاومون حتى انتهى الأمر بهزيمتهم نهائياً فى معركة ليبان ، فى ٣٠ مايو ١٤٣٤ م .



محاولات للاصلاح لم يكتب لهـا النجاح

[حاجة الساعة ـ مبادرة من جانب الكنيسة : (مجمع كونستانس ـ مجمع بازل)] .

حاجة الساعة :

فى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، امتلأت ، نفوس الناس بالسخط العام ، على المفاسد والمباذل التى تردى فيها رجال الدين ، على كافة المستويات .

وقد لعب الإنشقاق الكبير ، وتنازع البابوات على الكرسى البابوى ، وعزل البابوات المتنازعين لتوحيد الصفوف ، بعد انتهاء فترة « السبي البابلى » ، التى نقل فيها المقر البابوى من رومية ، هذه كلها لعبت دوراً كبيراً فى إثارة شعور الرأى العام ، ونبهت الأذهان إلى ضرورة القيام بعمل ما .

وهنا يتبادر إلى الأذهان سؤال : « ألم يكن بين المسئولين والقادة الدينيين فى ذلك الزمان ، شخص حكيم غيور ، يعمل على تدارك الأمور ، وتصحيح الأوضاع !! ؟ » .

لانجانب الصواب إن قلنا ، إنه كان هناك ما يشبه الإجماع ، على

وجوب معالجة الأوضاع الفاسدة ، وإنقاذ الكنيسة من الهوة التى تردت فيها .

نعم ، كان هناك اقتناع تام بأن القيام بإصلاح الأوضاع ، هو حاجة الساعة .

مبادرة من جانب الكنيسة :

لم يقف الشعور بالسخط المتزايد ،على ما آل إليه الأمر فى الكنيسة، عند حد الشعوب والحكام والملوك ، فى كل مكان فى أوربا الغربية ، وبالأخص فى فرنسا والمانيا ، حيث ارتفعت الصيحات والنداءات ، مطالبة بضرورة القيام بحركة تصحيحية . لأنه من بين الأصوات التى كانت تطالب بالإصلاح ، كان هناك عدد من الأساقفة والكرادلة . نعم حاولت الكنيسة أن تعمل شيئاً ، وتأخذ بزمام المبادرة ، وحرصا على تحقيق أهدافهم ، حرص طلاب الإصلاح منذ البداية ، على إحياء النظرية القديمة ، القائلة بأن السلطة العليا فى الكنيسة هى المجمع لا البابا ، حتى لا يصطدموا بالإرادة الفردية والرأى المطلق ، فطلبوا عقد مجمع يتولى عملية الإصلاح ، على غرار مجمع بيزا ، الذى عقد فى عام ١٤٠٥ م ، لمعالجة مشكلة تعدد البابوات . وكانت هذه بداية لانعقاد ما أصبح يعرف فى تاريخ الكنيسة بالمجامع المصلحة .

مجمع كونستانس (١٤١٤ – ١٤١٨م) :

ولئن كان مجمع بيزا قد فشل فى تحقيق الهدف المنشود ، فإن مجمع كونستانس استطاع فى عام ١٤١٢ م ، أن يرأب الصدع ، ويعيد للكنيسة وحدتها .

وفى مجمع كونستانس ، تطرق المجتمعون إلى بحث موضوع الإصلاح المطلوب ، وقد حدد طلاب الإصلاح هدفهم ، وقالوا إنه يجب القيام بحركة إصلاحية شاملة ، تنقذ الكنيسة من الخراب والدمار ، الذى سوف يقضى عليها ، ما لم تبادر إلى إصلاح ذاتها .

وكان المجمع يضم حشداً هائلا من الأعضاء ، يمثلون كلا من السلطتين الروحية والزمنية ، فى بلدان أوربا الغربية ، ومن لم يتمكن من الحضور ، أرسل مندوبا عنه يمثله فى المجمع . وعلى رأس الحاضرين ، كان الإمبراطور «سجسموند» ، الذى كان مقتنعا تماماً ، بوجوب قيام الكنيسة بإصلاح ذاتها .

وبعد سنوات من الأخذ والرد ، لم يصل المجمع إلى قرار ما ، ويرجع فشل هذا المجمع ، إلى الدور الكبير الذى لعبه رجال السياسة ، الذين كانوا يدورون فى فلك البابا . وهؤلاء كانوا يعارضون كل اقتراح يمس البابا ، لا حبا وكرامة ، وإنما خوفا على مصالحهم ، وامتيازاتهم الشخصية . ومراكزهم ، لأن من سيفطر بالواحد ، سوف يتغدى بالآخر .

كما أعبت النعرات القومية هى الأخرى دورها ، فى انقسام الحاضرين على ذواتهم . أضف إلى هذا ، أن المجتمعين كانت تنقصهم العزيمة الراسخة ، والرأى الثابت ، والحماس الروحى ، والإحساس الكامل بالمسئولية ، تجاه تحقيق الإصلاح المطلوب .

مجمع بازل (١٤٣١ – ١٤٤٩ م) :

بعد مجمع كونستانس بقليل ، لاحت لطلاب الإصلاح فرصة أخرى لتحقيق غايتهم ، وكانت تلك الفرصة هى انعقاد مجمع بازل .

وقد عرضت على هذا المجمع قضية الإصلاح المطلوب ، وتبودلت بين المجتمعين آراء وأفكار ، وقيل كلام كثير كثير ، ظل يتردد طوال فترة انعقاد المجمع ، الذى يعتبر أطول مجمع فى تاريخ الكنيسة ، إذ امتدت فترة انعقاده إلى تسعة عشر عاما تقريبا .

وأخيراً وجد المجتمعون أنفسهم يدورون فى حلقة مفرغة ، بسبب تصارع الأفكار والآراء ، وتغلب المصالح والأهواء الشخصية ، على المصلحة العامة .

فانفض المجمع دون أن يرى الناس طحنا ، فى أعقاب الجعجعة التى ظلوا يسمعونها ، طوال فترة انعقاده .

وبهذا ضاعت من الكنيسة الكاثوليكية ، الفرصة الذهبية التى لاحت لها ، لتحقيق المطالب الملحة ، والإلتقاء مع الرغبة العارمة ، فى إصلاح أمورها ، وتصحيح الأوضاع فى داخلها ، ولو أنها فعلت ، لوفرت على ذاتها الكثير .

١٩

رياح التغيير

[نهضة فكرية شاملة ـ اكتشافات حديثة ـ حركات وتيارات جديدة ـ حركة احياء العلوم ـ « ارازمس » ـ اعداد الرأى العام ـ واتضحت معالم الطريق ـ الظلم الاجتماعى يلعب دوره] .

نهضة فكرية شاملة :

يعتبر القرن الرابع عشر الميلادى ، بداية لعصر التحول العظيم فى أوربا ، الذى اشتهر فى التاريخ بعصر النهضة ، هذا العصر الذى شهد الميلاد الجديد ، لدول أوربا وشعوبها .

لقد عمت النهضة كل جوانب الحياة ، سواء فى الناحية الفكرية ، أو فى مجالات الطاقة البشرية ، إذ تفجرت فى أوربا فى خلال هذه الفترة ، طاقات وإمكانيات الإنسان ، بصورة تجل عن كل وصف .

اكتشافات حديثة :

وقد تمثلت هذه النهضة فى مجال الإكتشافات العلمية ، فى الكشف العظيم الذى قدمه « كوبرنيكس » ، عندما اكتشف المجموعة الشمسية . وقد أحدث هذا الاكتشاف تغييراً جذريا ، فى الأفكار التى كانت سائدة بين الناس فى ذلك الزمان ، عن الكون الذى يعيشون فيه .

... كما قام « كريستوفر كولمبس » ، باكتشافاته الجغرافية الشهيرة في الشرق والغرب ، وعلى أثر هذه الإكتشافات ، تحدد بصورة قاطعة ، شكل الأرض .

حركات وتيارات جديدة :

وقد ترتب على الكشوف الجغرافية الجديدة ، قيام نشاط تجارى وصناعى واسع المدى ، وبدأت تظهر فى الأفق نزعات استعمارية ، راحت تتسلط على دول أوربا .

كما نشطت بين شعوبها ، حركات قومية ، ترتب عليها ظهور قوى سياسية جديدة ومؤثرة ، فى كل من فرنسا وانكلترا وأسبانيا .

حركة إحياء العلوم :

ومن أبرز الأسباب التى أدت إلى قيام هذه النهضة ، حركة إحياء العلوم ، هذه الحركة التى ترتب عليها ، اتصال الأوربيين بمختلف الحضارات والثقافات اليونانية والرومانية .

وكان انتشار تعلم اللغة اليونانية ، عاملا رئيسيا ، ساعد الدول الأوربية ، على اللحاق بركب الحضارة ، بعد أن انفتحت أمامها مغاليق الكنوز اليونانية الرفيعة ، فى مجالات الفكر والفن والأدب ، فعوضت أوربا فى عصر النهضة هذا ، مافاتها فى العصور السابقة ، التى كانت فيها اللغة اليونانية لغة غريبة عند شعوبها .

والمتتبع للنتاج الفكرى الأوربى فى عصر النهضة الذى نحن بصدده الآن ، يستطيع أن يرى بصمات الفكر اليونانى واضحة فى مجالات الفن والأدب .

وكان من أهم نتائج انتشار تعلم اللغة اليونانية ، إتاحة الفرصة لقراءة أسفار الإنجيل فى لغته الأصلية ، بالإضافة إلى انفتاح أبواب المعرفة على مصاريعها ، فراح المثقفون يعبون من معينها عباً .

كما أن كثيرين من رجالات الفكر ، راحوا يشاركون فى دراسة الإنجيل والإحاطة بالكثير من المبادىء والتعاليم المسيحية ، والمثال الذى ينبغى أن تكون عليه الحياة المسيحية الحقيقية . وبمقارنة الأحوال السائدة فى الكنيسة فى تلك الآونة ، بالصورة التى ينبغى أن تكون عليها ، أصبح هؤلاء تلقائيا ، أعضاء فى الخلايا الثورية ، وجنوداً فى جيش الإصلاح المرتقب .

وقد حدث هذا بصورة ملموسة فى كل من ألمانيا وفرنسا وانكلترا ، حيث ظهر كثير من الشخصيات البارزة ، فى تلك الفترة ، أمثال « إرازمس » ، الذى كان من أعظم رجالات الفكر المسيحى فى تلك الحقبة من الزمان .

« إرازمس (١٤٦٦ : ١٥٣٦ م) :

وقد ولد فى روتردام ، ثم تلقى تعليمه فى إحدى المدارس الشهيرة ، التابعة لإخوة الحياة المشتركة ، التى كان قد أنشأها أتباع « جيرارد جروت » حوالى سنة ١٣٨٠م ، وكان أهم نشاط لهذه المدارس هو نسخ المخطوطات ، وتعليم الصغار . كما كانت هذه المدارس ، همزة الوصل ، بين الفكرين القديم والحديث .

وفى شبابه ، أرغم على دخول أحد الأديرة ، حيث كان ذووه من أنصار الحياة الرهبانية . وبعد سبع سنوات ، أصبح سكرتيرا لأسقف كامبرى ، ثم واصل بعد ذلك تعليمه فى لوفين وباريس .

وفى عام ١٥٩٨ ، قام بطبع مجموعة من الحكم والأمثال ، وكان هذا العمل سببا فى ذيوع شهرته فى ربوع أوربا .

وقد تميز هذا العمل بأنه كان عملا إنسانيا . لكن « إرازمس » كرس الفترة التى بقيت من عمره ، للدراسات الدينية ، وكان عمله ذا طابعين .

١ – طابع انتقادى ، يهاجم مساوئ عصره ، بأسلوب لاذع ، وأهم عمل له فى هذا المجال ، هو مؤلفه « تمجيد الحماقة » . وقد كتبه فى انكلترا فى عام ١٥٠٩ م ، وهاجم فيه بعنف الإعتقاد بكرامات القديسين ، وعبادة الصور ، وكل مظاهر الجهل فى العبادة ، كما هاجم عادة زيارة الأماكن المقدسة ، وشفاعة القديسين . كما طبعت له مؤلفات أخرى هاجم فيها الانحرافات التى تردى فيها بعض البابوات ، الذين شغلتهم مطامعهم ، فى امتداد نفوذهم السياسى ، عن الاهتمام بالكنيسة الأمر الذى أدى بها ، إلى حالة الإنحطاط ، التى كانت سائدة فى تلك الأيام .

وقد تميزت كتاباته بأسلوبه الساخر ، الذى كان له فعل قوى فى نفوس مطالعيه ، الأمر الذى ساعد على زعزعة ثقتهم فى القادة الدينيين ، وساعدهم على التمرد عليهم ، وعلى تصرفاتهم المشينة .

٢ – الطابع الثانى لكتابات « إرازمس » ، طابع بناء ، على عكس « ڤولتير » ، رغم ما بين الإثنين من وجوه الشبه .

فقد تميز « إرازمس » بغيرة شديدة لإصلاح الأمور فى الكنيسة ، فى ممارساتها ، وحياة قادتها ، وسلوك أعضائها . وللوصول إلى تحقيق هذا

الهدف ، راح يصور للناس حالة الكنيسة الأولى ، وكيف كانت المثل التى تحكم حياة قادتها وأعضائها .

وأعظم عمل قام به « إرازمس » ، هو إعداده لنسخة جديدة من الإنجيل ، وكان يرمى بهذا ، إلى تقديم أفضل النصوص المتاحة ، مع تقديم ترجمة أخرى معدلة ، للترجمة المعروفة باسم « الفولجاتا » . وقد بدىء هذا العمل فى انكلترا ، وتم نشره مع إهداء إلى البابا ، فى عام ١٥١٦ م .

كما قدم أيضاً تعليقات على بعض الرسائل ، وترجمات جيروم والآباء الآخرين .

ولتمكنه وقدرته الفائقة ، كان الرهبان واللاهوتيون فى عصره ، يخشون مواجهته ، لكنه أخيراً حوكم أمام محكمة التفتيش .

ورغما عن رغبته فى الإصلاح ، إلا أنه كان يرى ، أن إنارة الأذهان ، وتنوير العقول ، هى أفضل سبيل لتحقيق هذا الإصلاح . إنه كان يرفض إستخدام العنف ، فى كافة صوره ، حتى إذا كان الهدف هو الإصلاح . إن الغاية عنده ، لم تكن تبرر الوسيلة ، بأى حال من الأحوال .

وقد ساعد اختراع آلة الطباعة ، فى عام ١٤٥٠ م تقريباً ، على نشر المعرفة ، بصورة لم يكن للناس بها سابق عهد ، فانتشرت آراء طلاب الإصلاح وأفكارهم .

إعداد الرأى العام :

لقد لعب « إرازمس » ورفاقه ، من أقطاب الحركة الإنسانية الدينية ، الذين ظهروا فى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، من أمثال « بوكاسيو » ، و « بترارك » الشاعر وغيرهما ، هؤلاء لعبوا دوراً كبيراً فى توجيه الرأى العام ، ونفثوا فى الناس فى بلدان أوربا ، روحا جديدة ، وكونوا رأياً عاما قويا ، ظهر تأثيره فيما بعد .

إنهم بجهودهم المتصلة ، وسعوا تخوم الناس ، فى معرفة تعاليم الكتاب المقدس ، وبهذا أعدوا الأتقياء لتقبل التطورات الأخرى ، فى كافة مجالات الحياة الدينية .

واتضحت معالم الطريق :

فى ضوء ما سلفت الإشارة إليه ، يمكن القول ، بأن حركة النهضة والإحياء ، فى مختلف متجهات الفكر والعلوم ، كانت صوت صارخ فى البرية ، أعد الطريق ، لعصر جديد .

لأن رياح التغيير التى هبت فى عصر النهضة وإحياء العلوم ، أدت إلى تغيير الكثير من المفاهيم ، التى ظلت راسخة وثابته كحقائق ومسلمات ، لكنها فى ضوء الإكتشافات الحديثة ، اضطرت إلى إخلاء مكانها ، للحقائق الجديدة ، التى تم اكتشافها ، فخلع الناس العتيق وألقوه جانبا ، وتقبلوا الجديد ، وكان هذا مثالا يحتذى ، بالنسبة للأفكار الدينية أيضاً .

لقد مهد عصر النهضة الطريق لعصر الإصلاح ، وبغير هذه النهضة ، ما كان ممكنا أن يأتى الإصلاح .

وهنا لا يفوتنى أن أشير ، إلى أن التاريخ خير شاهد ، على أن كل الداعين إلى الإصلاح ، كانوا يحملون للكنيسة فى حد ذاتها ، كل تقدير واحترام ، لكنهم إن كانوا قد أبدوا سخطا واحتجاجا ، فإن هذا ، كان منصبا على الأوضاع الفاسدة ، التى ظهرت فيها ، تدفعهم إلى ذلك غيرتهم عليها ، ومحبتهم لها .

وخير دليل على ما أقول ، هو « دانتى » الشاعر الإيطالى الأشهر ، الذى كتب فى « الكوميديا الإلهية » ، كثيراً من التصويرات الساخرة ، لبعض القادة الدينيين . الأمر الذى قد يصور للبعض ، أنه كان من الخارجين على الكنيسة ، لكن الحقيقة هى على النقيض من هذا التصور ، لأنه كان مخلصاً للكنيسة حتى وهو ينقد بعض أصحاب السلطان فيها . إذ كان ينفعل بأحداثها ، ويعقب عليها ، وسلفت الإشارة ، إلى أنه عندما القى رجال فيليب الجميل ملك فرنسا ، القبض على البابا «بونيفاس الثامن» علق « دانتى » على هذه الحادثة بقوله ، إن الذين لم يحترموا مركز البابا ، وتجاسروا وأقدموا على القاء القبض عليه ، إنما كانوا يكررون ما فعله جنود الرومان ورسل الكهنة اليهود قديما ، بالمسيح ، عندما أهانوه واستهزأوا به ، وعلى حد تعبيره : «إن المسيح قد استهزىء به مرة ثانية ، على أيدى أولئك الذين قبضوا على البابا ، واحتجزوه تنفيذاً لأوامر الملك » .

وعندما عاد البابا من أفنيون إلى رومية ، وجه « دانتى » إلى قادة الكنيسة رسالة قال فيها : « وأنتم ياقادة الكنيسة وحراسها ، إن كان قد فاتكم ، أن ترافقوا ركب عروس المصلوب وموكبها ، فى طريقها إلى المقر الذى أعده لها الله ، فإنه بوسعكم الآن ، أن تصححوا هذه الغلطة ، وتتداركوا مافاتكم ، ببذل كافة الجهود ، للدفاع عن عروس المسيح ،

وعرشها فى روميه ، وتذودوا عنها كل أعدائها ، الذين يحاولون أن يسلبوا الكنيسة اللاتينية ، ويجردوها من أعز وأغلى امتيازاتها » .

الظلم الإجتماعى يلعب دوره :

لقد شهد القرن الرابع عشر ، عدداً من الثورات ، التى قامت احتجاجا على الظلم الإجتماعى ، الذى كان الفلاحون المساكين ، يعانون منه على أيدى الأمراء والنبلاء والإقطاعيين من كبار الملاك .

وكانت ألمانيا مهداً لتلك الثورات الشعبية العديدة ، التى أشعل نيرانها الفلاحون المظلومون ، ولجأوا فيها إلى العنف ، وقد انضمت إلى صفوف الثوار ، طوائف أخرى من العمال ، الذين أحسوا بجور القوانين ، فقاموا طالبون بحقوقهم المهضومة .

وكان الموقف السلبى الذى وقفه رجال الدين ، تجاه مظالم الأمراء والنبلاء ، وعدم تعاطفهم مع هؤلاء المطالبين بحقوقهم المسلوبة ، سببا جعل هؤلاء الثوار ، من أبناء الطبقات المطحونة ، يقفون موقفا ساخطا على رجال الدين ، الذين تنكروا للمبادىء المسيحية ، التى تكفل العدالة الإجتماعية ، لكل الفئات .

وقرب نهاية القرن الخامس عشر ، زادت الحالة الإجتماعية سوءاً ، وتفاقمت الأوضاع ، وكثرت الإنتفاضات الثورية ، لطلاب الإصلاح الإجتماعى ، وكانت هذه الحركات ، تواجه بمقاومة عنيفة فتخمد ، لكنها لا تلبث حتى تعود أقوى مما كانت .

تلا ذلك ارتفاع مفاجىء فى الأسعار ، جاء مصحوبا بنقص فى الحاصلات الزراعية ، الأمر الذى زاد الطين بلة كما يقولون.

وازدادت الحالة سوءاً فى ألمانيا ، حيث كانت الصدور تتأجج بنيران السخط والغضب على الأحوال السائدة ، سواء فى المجال الدينى ، أو الإجتماعى .

وهذا كله فعل فعله ، فى إعداد المسرح ، للفصل التالى فى تاريخ المسيحية ، ألا وهو عصر الإصلاح ، الذى قاده «مارتن لوثر» ، وهو موضوع الجزء التالى ، من سلسلة «تاريخ المسيحية» .

أهم مصادر الكتاب

History Of The Medieval Church,
By M. Deanesly.

A Handbook Of Church History,
By The Rev. Samuel G. Green D.D.

The Growth Of The Christian Church,
By Robert Hastings Nichols.

Outlines Of Church History,
By Sohm.

Short History Of The Christian Church,
By C. P. S. Clarke.

The Franciscans, (Ch. 2 — Tpe Founder And The Beginnings Of The Order).

By Alexander Masseron. Translated From The French,
By Warre B. Wells.

Witnesses For Christ,
By Edward Backhouse and Charles Tylor.

محتويات الكتاب

(الفترة الثانية ــ دورة العصور الوسطى)

(الفترة الثالثة ـ اواخر العصور الوسطى)

ايداع رقم ٧٨/٣٩١٦ دولى رقم ٣ـ٧ـ٩٧٧/٧٢٢٠

تاريخ المسيحية

المسيحية في عصر الإصلاح

للدكتور
عزت زكي

دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية
٣٦ شارع الجلاء – بولاق / القاهرة
تليفون ٩٧١٦٥٥

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة .
جمهورية مصر العربية تليفون : ٩٠٥٢٩٦



معالم على الطريق

[الاصلاح الدينى مرحلة تطور حاسمة فى التاريخ — قوى ثلاث فى صف البابوية : النظام الكنسى — النظام المدرسى — النظام الاقطاعى — نجوم فى الظلام]

الاصلاح الدينى — مرحلة تطور حاسمة فى التاريخ :

يعتبر الإصلاح الدينى الذى ظهر أول ما ظهر فى ألمانيا فى القرن السادس عشر ، أعظم مرحلة من مراحل التطور التى أتت على أوربا ، فى التاريخ الحديث ، بل على العالم أجمع ، بعد إشراقة فجر المسيحية فى الوجود فى القرن المسيحى الأول . ولا نقول إنه لم تسبقه انتقاضات ، أو لم يظهر قبله مصلحون ، فى أكثر من بقعة من دول أوربا ، أسهموا بنصيب كثير أو قليل ، فى إيقاظ المجتمع المسيحى ، وبعثه من رقدة وظلام العصور الوسطى على ما قوبلت به تلك الانتقاضات من عنف ساحق ، وثورة للظلام على بصيص النور ، بل نقول إن الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر كان بداية مرحلة ، ونهاية مرحلة . . بداية عهد جديد ، ونهاية عهد قديم . . بداية العصور الحديثة ، ونهاية العصور الوسطى . وما أشبه العالم الكائن حينذاك ببركة آسنة راكدة المياه ، فإذا بالإصلاح ذلك الحجر الذى يلقى فى تلك البركة الراكدة ، فتتماوج الدوائر المتمركزة المرتعشة إلى الشواطىء البعيدة .

ومع أن الإصلاح كان هدفه الدين فى جوهره ، ومفاهيمه ، وتطبيقه ، ولأجل هذا السبب قامت انتفاضته ، إلا أننا نرى أكثر من دائرة أخرى تتأثر به فى قليل أو كثير : دوائر الفكر والثقافة والعلم والاجتماع ومفاهيم الحياة بجملتها — لقد أصبح الفكر الدينى المصلح ، بكافة ما أحاط به من ملابسات ، وما صحبه من تطورات ، القوة الدافعة للانطلاقة الجبارة فى تاريخ الحضارة الحديثة .

ولسنا نقلل بهذا من قيمة البناء القديم بواجهته العريضة . . ولسنا نغمط حق المؤسسة القــديمة ، التى حاولت على ما يبدو ، أن تترسم خطى الإمبراطورية الرومانية القديمة ، جامعة الدول كلها فى نطاق واحد ، وثقافه واحدة ، وعلم يعتمد على لغة علمية واحدة ، ومركز إشعاع واحد ، هو روما المدينة المقدسة — تلك الواجهة التى وقفت والحق يقال ، ضد أمواج الغزو العثمانى فى الشرق ، الذى لو قدر له النجاح لاستطاع أن يصبغ دول أوربا بجملتها بصبغته الخاصة ، والتى وقفت أيضاً ضد جحافل العرب المتدفقة عبر مضيق جبل طارق من الجنوب الغربى ، وقدر لها النجاح ٥ ولكننا نقول إن منطق التقدم الحضارى ، كان لابد وأن يدعو إلى تغيير جذرى شامل . وأن ذلك التغيير كان كزلزال ترك أكثر من شرخ وصدع فى ذلك البناء الجبار . وأن عوامل كثيرة من الفناء والاضمحلال ، كانت تعمل فى قلب البناء المتداعى ، بحيث أصبح من اللازم والمحتم هدم البناء الساقط ؟؟ فلم يعد بعد صالحاً للسكنى ، مع أن مصلحى النظام القديم وفلاسفته ، قدروا أنه من الممكن ضم البناء بسقالات هنا ، وترميمات هناك ، وتغطية لشروخه ، وحماية لأركانه ، لكن كل تلك المجهودات باءت بالفشل ، وأصبح من المحتم قيام بناء جديد على أنقاض البناء المتداعى ؟

٥

نعود فنقول إن الإصلاح فى القرن السادس عشر ، قد طبع طابعه الفريد على المجتمع الإنسانى ، وعلى الأخص دول أوربا ، وكان له من الأثر ، ما كان للقرن المسيحى الأول . وما أجمل أن نضع عصر الإصلاح هنا ، جنبا إلى جنب ، مع القرن المسيحى الرسولى فى صورة مقارنة ، فكل من العصرين كان غنيا برجالاته ، غنيا بمفاهيمه الجديدة . . غنيا بإشراقته على الكون . . بنتائجه ، وكل منهما كان نقطة تحول حاسمة فى تاريخ البشرية . ، وكل منهما امتد أثره عبر الأجيال وتزايد ، ولم توقفه نيران المقاومة والإضطهاد ، وكل منهما شكل المجتمع الإنسانى فى صورة جديدة ، وأعطى للدين مفاهيمه التى ما عرفتها البشرية من قبل ، وحطم قيود التقاليد وفتح الباب للإنسان لكى يدخل فى صلة حية مع المطلق — مع الله — وكل منهما ، نبع من تلاحق أحداث ، واتجاهات فى الفكر ، سمحت بها العناية الإلهية ، وأسهمت بنصيبها فى البعث الجديد — فالمسيحية فى انطلاقتها الأولى ، تمتد جذورها فى انتفاضة موسى ومن تلاه من أنبياء ، وما أسهموا به من تراث ، ويمهد لها فيما حدث للشعب العبرانى من أحداث عبر التاريخ من سبى وتشريد ، أوصلته فى وقت إلى انتصارات الاسكندر الأكبر عليه. ونقول الإسكندر الأكبر ، ونسقط من حسابنا أكثر من حقبة من السبى ، وذلك للأثر العظيم الذى صبغ الفكر العبرانى ، نتيجة تلاحمه ، وتلاطمه ، وتفاعله مع الثقافة اليونانية ، ومن سيادة وانتشار اللغة اليونانية فى أكثر من منطقة من أرض اليهود . ثم تأتى روما بجحافلها ، وعجيجها ، وجيوشها وحديدها ونيرانها ، مع قوانينها ورباطها الشامل ، وسلامها . وفى قلب كل هذا وثنيتها وتحللها الخلقى وعفنها — وفى وسط هذا كله يتبلور رجاء قديم جديد فى الأمة اليهودية ، فى أن ساعة الخلاص قد حانت ، وتتجه الأنظار إلى وعد قديم ، وإلى أقوال ونبوات تتردد عن المسيا المنتظر .

ويكون هــذا أقوى وأعظم تمهيد لظهور المسيح ، وقبوله من الشعب كالمخلص الأوحد .

حتى إذا أتينا إلى عصر الإصلاح ، نرى أكثر من عامل يمهد له ، فى فساد البابوية وتدهور الرهبانية ، وجمود اللاهوتية المدرسية ، وعدم ملاءمتها ، وتفاعلها مع الشعب ومتاعبه ، ودائرة الاختبار الإنسانى ، ثم محاولة التعويض التى اتجه إليها البعض ، من إندفاع إلى التصوف ، والانحراف الذى اتجه إليه البعض الآخر فى مزاولة السحر والشعوذة ومناجاة الأرواح .

حتى نأتى إلى عصر النهضة ، وإحياء العلوم اليونانية والرومانية واختراع الطباعة ، وما كان له من أثر فى سرعة انتشار المعرفة ، وترجمة الإنجيل فى الأصل اليونانى — وفى مجال الإكتشافات الجغرافية ، كان هناك اكتشاف الدنيا الجديدة ، وما تبعه من اهتزازة فى المجتمع ، واندفاع عبر البحار طمعاً فى الثروات ، واندفاع آخر عبر البحار من فئة أخرى ، لتقديم بشارة الإنجيل هناك .

ثم كان ظهور الروح القومية وتبلورها ، وشعور بالحرية وغيرة عارمة للاستقلال — لقد كان صوت القدير فى العصر المسيحى الأول ، كما كان قبيل عصر الإصلاح ، يهتف فى وسط الخراب . وكان روح الله يرف على وجه الغمر ، والظلمة ، وظلال الموت — ولقد كان القرن السادس عشر بداية عصر النهضة فى الدين والعلم والأدب . كان الجو مكهرباً بروح التقدم والحرية ، وبدا وكأن العالم — وحين نتحدث هكذا فنحن نشير إلى المجتمع الأوربى — يستعيد شبابه ، فقد بدأت ثلوج الشتاء تذوب تحت أشعة الشمس . أما المتزمتون المتشائمون ، فقد امتلأوا قلقا على مصالحهم ومؤسساتهم

ونفوذهم وبدأوا يحاولون اكتشاف ثغرة هنا ، وثغرة هناك . لكن أصحاب العيون البصيرة ، استطاعوا أن ينفذوا إلى المستقبل الباسم ، وارتسمت أمامهم رؤيا جديدة . ولعل هتاف أحدهم — فون هاتن الألمانى — تعبر عن هذه الحقيقة : « أيها العصر الجبار ، إن العلوم تزدهر ، والروح تتيقظ بعد سبات — ما أجمل أن نحيا فى هذا العصر » ، — وفى عام (١٥٢٢) كتب لوثر : « إننا لو درسنا تاريخ العالم كله ، فلن نجد قرنا نظير هذا ، منذ ولادة المسيح : هذه البنايات والمشروعات — هذه الحياة المزدهرة . هذا الرواج فى الاقتصاد — هذا الازدهار فى الفن ، لم تعهده البشرية منذ إشراقة فجر المسيحية : وكم بدأت العقول تتفتح على كل خفى — حتى الصبى فى العشرين ، يستطيع أن يدرك الآن ، ما لم تستطع أن تصل إليه مجموعة كاملة من دكاترة اللاهوت فى الماضى » ، ولقد أمسك الإصلاح الدينى ، بدفة سفينة التقدم ، والنهضة والتحرر الفكرى ، وقادها بنجاح ، أيما نجاح ، وسط الأمواج والتيارات المتلاطمة ، وأنقذ أكثر من مجتمع من ثورة عارمة ، نظير الثورة الفرنسية . لأن الإصلاح لم يكن بالكلية ثورة ، ولا بالكلية تجديداً ، ولو أنه كان يضم العنصرين . فقد كان سلبيا محطماً للخطأ ، إيجابياً ، بناء للحق . لقد كان محافظاً ، كما كان يملك الروح التقدمية : فلم يهدم ويقف مكتوف اليدين ، بل حيثما هدم جداراً متداعياً ، أقام مكانه صرحاً ولهذا قدر له النجاح . ولقد كان العالم الكائن مرتبطا حينذاك بالكنيسة اللاتينية — بروما الأم — وكانت روما كما أشرنا ، تضم العالم الكائن تحت حكومة البابا الروحية وسلطة الإمبراطور المدنية ، برباط العقيدة الواحدة ، والتقاليد الواحدة ، والنظام الواحد ، واللغة الواحدة المقدسة . ولكن حان الوقت ، ليشق المجتمع قشرة العصور الوسطى ليخرج الفرخ الوليد إلى عالم الحرية والازدهار ، والمفاهيم الجديدة فى الحياة . ولذلك كانت الحاجة

ماسة بالكلية للإصلاح — فلقد كان فساد ومباذل الكنيسة اللاتينية ، مثار شكوى أفضل الناس من رجالاتها ومؤرخيها أنفسهم — مما دعا إلى التئام المجامع المتكررة ، أمثال مجمع بيزا ، وبازل — وكان هدف هذه المجامع إصلاح الرأس قبل الجسد — ولكن أصبح كل هذا حلما استمر يراود مخيلات المفكرين ، قرابة قرن كامل من الزمان ، دون أن تحقق تلك المجامع شيئاً يذكر ..

فالبابوية أصبحت مؤسسة عالمية قاسية أنانية ، ازداد نيرها ثقلا بصورة لا تطاق ، ومع أنه أمكن مؤقتا رأب الصدع فى الكرسى البابوى ومعالجة مأساة «أفنون» ، وإسدال الستار على سنوات السبى البابلى ، إلا أن أخلاقيات البابوات ، بعد فترة من التحسن ، عادت إلى أقسى مما كانت عليه — وإننا نجد بين البابوات ، من كانت له اتجاهاته البعيدة عن الدعوة الدينية ، بل وربما المقاومة للروح الدينية — فالإسكندر السادس على حد تعبير المؤرخ فيليب تشاف ، كان « عاتياً فى الإثم » . ويوليوس الثانى كان سياسياً مقاتلا جباراً أكثر منه راعياً للنفوس . أما البابا ليون العاشر فقد كان اهتمامه منصباً على إحياء العلوم الوثنية ، والفن القديم ، أكثر من اهتمامه بالدين ، حتى أنه يقال إنه كان يشك فى تاريخية وسلامة الأناجيل .

ولا غرابة أن يسير الكرادلة والكهنة فى ركاب رؤسائهم ، ويقل احترام الناس للكهنة والدين على السواء . أما كتابات المؤرخين ورجال الفكر ، فإنها تفيض بالشكوى من الجهل ، وقباحات الكهنة والرهبان . أما السيمونية فقد كانت شرعة لمن يريد أن ينال كرسياً كهنوتيا ، أو يحتل منصبا كنسيا . أما الأسقفيات فكانت وقفاً على أبناء الأمراء ، والإقطاع ، دون نظر إلى درجة علمهم أو أهليتهم . أما نذر العفة ، فقد كان ستارا لكل الموبقات .

وهذا أحد الألمان المعاصرين لعصر[١] قبيل الإصلاح (١٥١٠) ، يقول إن ألمانيا لم تفعل شيئاً ، سوى أن تجلس على الكراسي الدينية ، كل الجهلاء، والعالميين . ويقول آخر[٢] إن الشيطان قد أدخل كل النبلاء إلى دائرة الكهنوت ، وأجلسهم على كراسي الأساقفة .

أما احتلال وظيفتين كنسيتين في وقت واحد ، فقد كان أمراً شائعاً . وأحد الأمثلة كاردينال ولسى رئيس أساقفة يورك ، الذى كان فى خدمته خمسمائة من الخدم . أما جيمس الخامس ملك اسكتلندا ، فقد كان له خمسة من الأبناء غير الشرعيين ، أجلسهم كلهم على كراسي الأسقفيات فى البلاد .

فإذا أتينا للأديرة ، فإننا نجدها قد أصبحت دوراً للجهل ، والتحزبات. حتى أصبحت هدفاً للاحتقار والسخرية . فإذا أتينا للدراسة اللاهوتية ، أو اللاهوت المدرسى ، فإننا نجده يعتمد على الخلاصة اللاهوتية للأكوينى وعلى منطق أرسطو ، دون اتجاه إلى تعاليم الإنجيل الجوهرية .

وفى حديثنا عن لوثر ، سوف نرى زميلا له يدعى كارلستات ، يقول إنه نال درجة الدكتوراه فى اللاهوت ، قبل أن يرى نسخة كاملة من الإنجيل . ولقد كان التعليم مقصورا على طبقة الكهنة والنبلاء . أما الشعب فقد كان غارقاً فى الجهل ، لا يعرف من الإنجيل إلا الشذرات التى تتلى على مسامعه فى الدروس الكتابية . أما خدمة القداس ، فقد كانت باللغة اللاتينية التى لا يدركها أحد ، وربما قارئها أيضاً .

---

(١) Geiler

(٢) Thomas Meiner.

أما الكنائس فكانت مكدسة بالصور والتماثيل ، ورفات ومخلفات القديسين ، ومعظمها خرافى مصنوع ، نسجت حوله الروايات ، وتعاظمت الخيالات ، والشعب ينساق فى التيار دون أن يدرى. أما العبادة فكانت تدور حول ترديد الصلوات المحفوظة ، والسلام لمريم ، والأصوام والصدقات والاعتراف للكاهن ، وزيارة الأضرحة وكنى . أما الخطايا فيمكن غفرانها بالمال . وقد نشأت من ذلك تجارة رابحة يباركها البابا ويرعاها . والأسباب الداعية لذلك تبرز بين جيل وجيل . ولعل أقربها لعهد الإصلاح ، بناء قبة كنيسة القديس بطرس ، وقد كانت السبب المباشر ، لتفجير الإنتفاضة على الكنيسة الرومانية .

استمع إلى المؤرخ الألمانى موهلر يقول « إننا لا نستطيع أن نغالط أنفسنا ، ونقول إن الكنيسة ما كانت بحاجة إلى إصلاحها . فقبيل عهد الإصلاح ، كانت هناك آلاف الأصوات ، تدعو إلى الإصلاح فى الرأس كما فى الجسد » .

وهذا هو أدريان السادس — أحد البابوات النادرين فى القرن السادس عشر — يدعو إلى انعقاد مجمع نورمبرج ، ويحاول أن يطهر البلاط البابوى ، لكن دون جدوى . أما البابا بيوس الرابع ، فيعلن فى أحد المجامع ، أن هدفه هو التطهير الأخلاقى ، وإعادة النظام الكنسى . . على أننا نقول ، إن الكنيسة كانت فى حالة أقسى من ذلك ، أثناء الإنشقاق البابوى فى القرن الرابع عشر . ومع ذلك فقد استطاع البابا هلدبراند ، ومن أتى بعده ، إصلاح حالتها دون ما حاجة إلى تغيير فى أساس التعليم ، أو عقيدة الكنيسة . . فلماذا لم يحدث هذا فى القرن السادس عشر ؟ ذلك لأن روما فى ذلك العصر ، قاومت كل أساس للإصلاح ووقفت بكل عنف

فى وجه الدعوة إلى ذلك . فلم يبقَ هناك من بديل ، إلا أن يأتى الإصلاح من الخارج ، ويصبح انتفاضة على الكنيسه وثورة عليها . . لقد استخدمت روما كل ما فى أيديها من أسلحة النار ، والحديد ، والسلطان السياسى ، والضغوط الدبلوماسية ، والإضطهاد المرير . . لقد فعلت ما فعلته أورشليم مع رب المجد ، حينما أعدت له صليبا سمرته عليه ، وأغلقت أبواب المجامع فى وجه تلاميذه . .

على أننا لا ينبغى أن نتذرع بالنظرة القصيرة لمنطق التاريخ والأحداث ، فخلف كل هذه ، كانت إرادة الله التى تعمل من وراء الستار . . ولقد شاءت تلك الإرادة الصالحة أن يقوم صرح جديد . خارج نطاق البناء القديم . . أن تقوم مسيحية جديدة فى وجه مسيحية روما المغلقة العاتية الجبارة . . وكل حركة فى التاريخ ، نستطيع أن نحكم عليها من ثمارها .

لكننا نجانب الصواب إذا قلنا ، إن الإصلاح الدينى فى ألمانيا ، كان نبتة فجائية ، لم يسبق لها مثيل ، ولم يترعرع فى تربة البشرية نظير لها من قبل . .

فقبل لوثر وزونجلى ، كانت خميرة الإصلاح تعمل عملها فى المجتمع وكما قام التلاميذ ، بل المسيح نفسه ، من قلب الكنيسة اليهودية ، هكذا قام ، من أحضان الكنيسة الكاثولكية ، أولئك الذين قدر لهم أن يكونوا رواد الإصلاح ، وأن ينبشوا أكداس النفاية والتقاليد التى تراكمت على الينبوع الأصيل ، فيعود ينبوع إنجيل المسيح إلى التدفق والنقاء .

لقد كانت الكنيسة الكاثوليكية ، على ما اعتراها من عيوب ، كنيسة الله الحى .

نقول بأن كافة المصلحين وُلدوا فى أحضان هذه الكنيسة ، ونالوا المعمودية هناك على أيدى كهنتها ، وتعلموا فى دائرتها ، بل إن البعض منهم قام بالخدمة أمام المذبح فى هياكلها . وجميعهم أقسموا يمين الولاء للجالس على كرسى روما — لقد كانت صلتهم بالكنيسة شأن صلة الرسل والتلاميذ بالهيكل اليهودى والمجامع اليهودية . ولأسباب ملزمة ، اضطر هؤلاء كما اضطر التلاميذ الأولون إلى إدارة ظهورهم للكنيسة الأم ، أو إن صح التعبير ، كان مصيرهم الطرد من ربوعها — ولقد كان هدف الإصلاح أن يرجع إلى الينابيع الأولى ، لينال دفعة التقدم للأمام . لقد امتدت جذوره فى أعماق القديم ليثمر أثمار المستقبل الفتية .

ولهذا وجد الصدور الرحبة والعقول المتفتحة — ولهذا قوبل بالحماسة الفائضة من قادة الفكر والدين ، فى أكثر من مجتمع ، بل من رجال الحكم والساسة أنفسهم — ولم يحدث فى تاريخ المسيحية أن لقيت حركة مثل هذا القدر من الترحيب ، عدا العصر الرسولى الأول ، وما لقيته إشراقة فجر المسيحية — ولقد أسهمت أكثر من حركة سابقة فى إعداد القلوب والأذهان ، ومهدت الطريق لعصر الاصلاح العظيم . فهناك من الأسباب السياسية ، وسنعرض لها فى الفصل التالى ، من صراع بين الأباطرة والبابوات ، كما كانت هناك أكثر من محاولة من رجال الكنيسة فى كل مجتمع للسيطرة والوقيعة والدس ، وهناك من الأسباب الاجتماعية ، مثل سيطرة الإقطاع ، والعبء الواقع ،على الطبقات الفقيرة ، وهناك ما أسهمت به المجامع فى إيقاظ الوعى ، أمثال مجمع بيزا ، وكونستانس ، وبازل — وهناك جماعات التأمل الباطنى أو المتصوفة الذين نبذوا القشرة الخارجية للدين ، لينفذوا إلى الصلة المباشرة مع الله — وهناك أكثر من حركة من مصلحين ظهروا قبل الإصلاح وجماعاتهم أمثال ويكليف واللولارديين.

فى انجلترا ، وهوس والهوسيين فى بوهيميا ، وجون فون جوخ وجوهان وصل فى المانيا والأراضى المنخفضة وسافوناورولافى إيطاليا والولد نسيين وأصدقاء الله وغيرهم . لقد كانت روح الكنيسة تتجه إلى عهد جديد . ولم يكن هناك مبدأ أو عقيدة تداولها الإصلاح ، أو نادى بها ، لم يسبقه إلى تداولها ، أوالمناداة بها ، وربما الاستشهاد فى سبيلها ، واحد أو جماعة فى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر . ولقد قال لوثر إن نقاده ربما يوجهون إليه النقد بأن كل ما دعا إليه ، قولا أو كتابة ، قد استقاه من « جون وصل » — لقد كان الوقود فى كل دولة من أوربا ولم يكن الأمر يستدعى أكثر من شرارة فيشتعل الوقود .

وسنعالج فى الفصل التالى الخلفية السياسية والإجتماعية للإصلاح — أى الحالة التى كان عليها المجتمع الأوربى ، قبيل إشراقة عهد الإصلاح .

قوى ثلاث فى صف البابوية :

النظام الكنسى :

حين نعرض للقوى التى كانت فى صف البابوية ، فإننا نستطيع أن نركزها فى صور ثلاث ، سنتناولها الواحدة بعد الأخرى بالبحث والتحليل ، وهى النظام الكنسى ، والنظام المدرسى والنظام الإقطاعى — فإذا بدأنا بالصورة الأولى ، أى النظام الكنسى الذى كان سائدا قبيل عهد الإصلاح ، فإننا نقول إن المسيحية فى الغرب ، كانت خاضعة لنظام كنسى واحد ، الكنيسة الكاثوليكية — وفى واقع الأمر كانت تلك إمبراطورية كنسية مترامية الأطراف ، عاصمتها روما ، ورئيسها البابا المتربع على عرشها — وفى الأجيال السابقة كانت هناك انقسامات ، ولفترة من الفترات كان هناك أكثر من بابا تدين له المسيحية بالطاعة ،

مثلما كان الحال فى سنوات السبى البابلى . ولكن بعد متاعب كثيرة ، ومجامع عقدت ، تمكنت الكنيسة من رأب الصدع ، وعادت إلى وحدتها مرة أخرى :

ولقد كانت أوربا مقسمة إلى مناطق كنسية ، على رأس كل منها رئيس أساقفة . وكل منطقة أوولاية ، كانت مقسمة إلى دوقيات (Dioceses) ، كل منها يرأسها أحد الأساقفة — والدوقيات كانت مقسمة إلى أبروشيات (Parishes) وكل أبروشية على رأسها كاهن . وهكذا كانت هناك شبكة من النظام الكنسى تغطى كل أوربا ، كل خيوطها تتجه إلى روما ، ويمسك بها البابا وكرادلته .

أما تلك الإمبراطورية الكنسية ، فقد كانت فى واقع الأمر فى تحرر كامل ، من القوى المدنية فى كل دولة أو مجتمع — لقد كانت أعلى من الملوك فى مستواها ، وفوق الأباطرة والأمراء . فهى قديمة قبل العروش والممالك ، والملوك أنفسهم كانت تهتز عروشهم إن هم حاولوا الوقوف ضدها ، ولذلك كان عليهم أن يحنوا لها الرؤوس ويخطبوا ودها . وفى نفس الوقت ، كان هذا النظام داعية لطبقة الإكليروس إلى التكبر والتعالى ، على النظم المدنية ، والمجتمعات التى يعيشون فيها ، لأنه حتى فى حالة ارتكاب جريمة ، لم يكن من الممكن محاكمتهم على أساس القوانين السائدة فى البلاد — لقد كانوا يجاهدون للإبقاء على قوانينهم الخاصة بهم . والتى تسرى عليهم . وكانت محاكماتهم تتم فى بلاط كنسى . ونظير بولس الذى قال قديما « إلى قيصر أنا رافع شكواى » ، كان للواحد منهم الحق ، فى طلب عرض قضيته فى روما — لقد كانوا خاضعين ليس للتاج ، بل للبابا .

وبالإضافة إلى رجال الكنيسة ، كانت هناك طوائف كثيرة من الرهبان والإخوة . وأولئك وعلى الأخص هيئات الدومنكان والفرنسسكان كانوا ينتشرون فى المجتمعات انتشاراً كبيراً . وفى أكثر المدن كان لهم أكثر من دير ، وكان عددهم من الكثرة ، بحيث أصبحوا يكونون قوة متماسكة تحت رعاية البابا ، تفوق فى سلطانها ، قوة رجال الكنيسة أنفسهم .

ومن الضرورى لنا أن نلاحظ ، مدى أثر هذا النظام الكنسى ، على الممالك والشعوب . فقد كان رجاله يمسكون فى أيديهم السلطة الدينية والدنيوية معا — وكان فى حوزتهم مفاتيح السماء والأرض — فقد كانوا يقومون بعمودية الأطفال ، وعلى الرغم من أنه لم يكن لهم الحق فى عقد الزيجات ، كانت كل الزيجات تتم على أيديهم . فإذا جاءت الساعة الحاسمة فى حياة كل إنسان ، كانوا هم الذين يغمضون أعين الموتى . ولهم الحق فى تقرير ما إذا كان المتوفى ، يجوز له أن يدفن فى مقابر الكنيسة ، أم أن جسده يدنس ترابها ، لكونه منحرفا عن تعاليمها ، ولذلك كان يحرم من هذا الإمتياز . أما تركة المتوفى ، وتوزيعها ، فقد كانت من حقهم . فإذا ظهرت وصية له ، فعلى الورثة أن يثبتوا ذلك فى البلاط الكنسى — والويل ، لمن تحدثه نفسه بأن يثور على نظام الكنيسة ، أو أن يقف فى وجهها ، لأنهم عندئذ كانوا يسلمونه للسلطة المدنية ، لإصدار الحكم عليه ، ثم يكون نصيبه عامود (خازوق) الإحراق بعد ذلك فى الميادين العامة . أما السلطة المدنية ، فما كانت تعمل إلا فى خضوع لأوامرهم ، ومؤامراتهم . ومن هنا نلاحظ أية قوة كانت لهم على العقول والأذهان ، كما على الحياة ، والمصير ، والمرقد الأخير .

وكان المال الذى يعود على أولئك كبيراً جداً . فقد كان لهم الحق فى العشور ، أى عشر الدخل ، والمحاصيل والثروة الحيوانية ، وكل شىء باسم الجمع لمصاريف الكهنة ، والكنائس ، وإصلاح الأديرة ، وغير ذلك . وكان هذا النظام سائدا لمصلحتهم منذ مئات السنين . زد على هذا ، ما كانوا يحصلون عليه لقاء كل ممارسة كنسية يقومون بها ، من عماد ، وزيجة ، وصلوات على الموتى ، وغير ذلك . أما الأخوة الرهبان فقد كان نظام الرهبنة يقضى بألا تكون لهم رواتب ثابتة . ولذلك كان عليهم أن يكسبوا قوتهم بالاستجداء من البيوت ، حتى أنهم لقبوا بالإخوة الشحاذين . ولكن ذلك لم يمنع من أن يصبحوا من الأثرياء . فقد كانت تنهال عليهم النذور ، وكان الناس يعطونهم بسخاء ، لقاء صلواتهم وعظاتهم . كما كانوا يعتقدون أنهم بإكرامهم ، ينالون الخلاص والحياة الأبدية . ولذلك كان الأثرياء يوقفون عليهم الأوقاف — وعلى الرغم من القوانين التى كانت تسنها الحكومة ضد هذه التصرفات ، فإنه يقال أن ثلث أراضى أوربا كان فى حوزتهم .

وهكذا كانت ثروات رجال الكنيسة والرهبان ، وما يتدفق عليهم ، أكثر من ثروات ملوك وأمراء أوربا .

على أن هذا لم يكن فقط هو سر قوتهم ، بل كان هناك عامل آخر : الثقافة . فقد كان أولئك هم الطبقة الوحيدة المثقفة فى المجتمعات الأوروبية . وعلاوة على مراكزهم الكنسية ، كان منهم المحامون ، والدبلوماسيون ، والسفراء ، ورجال البلاط ، وحتى رؤساء الوزارات . وكانوا متغلغلين فى كافة مجريات السياسة ، ومقاليد الأمور ، فى معظم البلدان كانت بين أيديهم . ولأجل خدماتهم السياسية — كثيراً ما كانوا يكافأون برئاسة

الأسقفيات هناك — وعلى هذا الأساس ، نستطيع أن نرى كم كان لذلك النظام من القوة والسيطرة على مقــدرات الشعوب وعلى مصائرها . فالبابا برجاله المسيطرين المنتشرين في كافة الدول ، يمسك بكل خيوط التأثير على مجريات السياسة فى أوربا بأكملها . وقد كان ممكنا أن يستغل ذلك النظام المتكامل لصالح تلك الدول ، لانتشار المسيحية وتقدمها ، لو أراد ذلك . ولكن شكوى أفضل الناس فى تلك العصور ، أن ذلك التأثير السياسى ، كان موجها لتحقيق الخير لروما فقط . وأن فيض الأموال كان يتدفق على خزائن البابوات والكرادلة هناك .

ولقد كان لمثل هذا الوضع أثره ، فى تعطيل نمو وتقدم واستقلال تلك الدول ؛ ووضع العراقيل أمام شعوبها ، فى طريق الوحدة القومية ، والكيان الراسخ الثابت .

وعلى هذا فقد كان من ثمار عهد الإصلاح ؛ تحطيم ذلك النظام الثيوقراطى المستبد ، وتحرير كل أمة من نيره القاسى ، وفتح الطريق أمام تلك الأمم إلى الظهور ، والتحرر ، والكيان القومى المتميز — فلن تكون روما بعد عاصمة كل الدول ، بل يكون لكل دولة كيانها ، وصبغتها ، وقوميتها وكل شىء .

النظام المدرسى :

أما النظام الثانى الذى كان يقف ظهيراً للبابوية الرومانية فقد كان هو النظام المدرسى .

وكان ذلك النظام من أقوى الدعائم التى استندت عليها روما ، فى ظهور طبقة متميزة موالية لها ، ودافعة إلى تفكك الشعوب ، لــكى تصبح هى القوة المسيطرة الوحيدة ، عن طريق تلك الطبقة .

فلقد كان العالم المثقف ، عالما قائما بذاته آنذاك ، منفصلا متميزا عن كافة الطبقات — وكان كافة المثقفين يتحدثون لغة واحدة ، هي اللغة اللاتينية ، ويكتبون بتلك اللغة كافة كتبهم ، ورسائلهم . وكانت تلك هي لغة روما . كثير منهم هجر لغة بلاده التي ولد فيها ، وأصبحت روما عاصمة العالم المفكر ، وهكذا اقترن العالم الثقافي بالعالم الكنسي . وأصبح المثقفون ينظر إليهم كتابعين لرجال الكنيسة ، يتمتعون بنفس رعاية البابا ، ويعتبرهم أبناء ضمن دائرته الإمبراطورية .

وإننا لنرى أنه إذا أدين شخص بتهمة أو جريمة — وهذا المثل نستقيه من تاريخ انجلترا لقرون عديدة — واستطاع أن يثبت أنه يعرف القراءة والكتابة فإنه عندئذ تكون له نفس مزايا رجال الكنيسة . وتحال أوراق قضيته إلى البلاط الكنسي ، ليحاكم أمام زملائه من رجال البابا . وهذا كان معناه الإعفاء من سلطان القوانين الوضعية للبلاد — هذا أعطى للمعرفة صبغة مدرسية إكليريكية ، إذ ارتبطت المعرفة والثقافة ، بالقوانين المدرسية التي تبلورت في تلك العصور ، التي كانت فيها المعرفة والثقافة وقفا على رجال الإكليروس فحسب — أو بكلمات أخرى نقول ، إن المدرسيين في العصور الوسطى ، كانوا ينظرون إلى كل مفاهيم العلم والحياة والوجود . بمنظار الفكر الديني السائد آنذاك . بل نكاد نقول إن كافة صور المعرفة ، قد أصبحت جزءا من اللاهوت . فالأرض إن كانت واقفة ، أو متحركة حول محورها ، والشمس إن كانت ثابتة في مكانها ، أو تدور حول الأرض ، وكذلك الأرض إن كانت كروية أو مسطحة — كل هذه الأمور وغيرها ، كان ينظر إليها ، ويحكم فيها من خلال آيات من الكتاب المقدس ، بدلا من إخضاعها لمنطق البحث العلمي المنزه ، والإستنتاج المبني على المعرفة والاكتشاف والاختبار

العلمي . وكل واحد تحدثه نفسه ، بأن ينادي باكتشاف جديد ، في أي ميدان من الميادين ، كان عليه أن يثبت صحة اكتشافه أو اختراعه ، بما يؤيد ذلك من الكتاب المقدس . وإلا حقت محاكمته ، وحل عليه العقاب ، وليست قصة جاليليو ببعيدة عن الأذهان ، فإذا أتينا إلى مفاهيم المسيحية نفسها ، فإننا نرى أن الديانة ، بدلا من أن تكون قوة وحياة لأصحابها ، كما كانت في أيام الرسل ، وعصر المسيح ، تحولت تحت النظام المدرسي ، إلى مجموعة من الفرضيات والنظريات الفلسفية ، وامتزجت إلى حد كبير ، بالأفلاطونية والمنطق الأرسطي ، وكتاب اللاهوت المدرسي الذي كان يدرس للطلبة آنذاك ، كان مجلدا ضخما يصل إلى ما يزيد على الألف صفحة .

وهكذا اتجه النظام المدرسي إلى أن يجعل العلم ، والدين ، وقفا على طبقة رجال الكنيسة ، وبعيدا عن متناول جمهرة الشعب ، الذين كانت اللغة اللاتينية بالنسبة لهم لغة بائدة — وفي الوقت عينه ، اتجه ذلك النظام إلى جعل الثقافة ، حتى بالنسبة للعالم المثقف ، في إطار النواميس المدرسية ، ومقيدة بقيودها — وعلى ذلك فقد كان من مهمة عصر الإصلاح أن يحطم تلك القيود ، وأن يفتح الباب على مصراعيه للجميع ، للعلم والمعرفة ، وأن يحرر عقول البشر ، من الأغلال المدرسية والكهنوتية . فالتحرر العلمي ، نظير التحرر الديني ، لازم كل اللزوم للإنسان . وبدون هذا التحرر ، لن يقدر للإنسانية أن تسير في مضمار الرقي والتقدم الحضاري .

ولقد كانت جامعات أوربا مراكز إشعاع العالم المثقف . وكان هناك ما يقرب من أربعين من تلك الجامعات ، تنتشر في كافة أنحاء أوربا .

وكلها مرتبطة إحداها بالأخرى . وكانت أعرقها جامعات أوكسفورد وكمبردج فى انجلترا ، وباريس وأورليآنز فى فرنسا ، وبولونيا وبادوا فى إيطاليا ؛ وكولونيا فى ألمانيا . وكانت ترجع إلى قرن أو يزيد من الزمان . وأحدث تلك الجامعات ، كانت جامعة ويتنبرح ، التى يرتبط اسمها باسم المصلح الألمانى لوثر . وقد قام بتأسيسها منتحب سكسونيا عام (١٥٠٢) .

وكان الطلبة على عادة التنقل من جامعة لأخرى . فطلبة أوكسفورد يمكنهم الإلتحاق بجامعة باريس ، أو كولونيا ، لنوال دراسات تكميلية أو مؤهلات أعلى ، وحينما يوجد أستاذ شهير فى جامعة من الجامعات ، كان الطلبة يتوافدون عليه ، من كافة أرجاء أوربا ليتتلمذوا على يديه .

ولقد كان لهذا أثره البعيد المدى ، فى انتشار دعوة الإصلاح ، فى أكثر من عصر ، وقطر .

لنأخذ على سبيل المثال ، ويكليف ، وحركة الإصلاح التى تزعمها فى القرن الرابع عشر .

فلقد كتب كتاباته ورسائله باللاتينية فى أوكسفورد . وحينما كتبت ، كان الطلبة يتناقلونها بخط اليد ، وتنشر عن طريقهم فى كافة أرجاء أوربا ؛ وكان طلبة أوكسفورد ينتقلون إلى براغ لنشر أفكاره ، وكانت كتاباته تقرأ وتناقش فى بوهيميا ، كما كانت تدرس فى انجلترا وعلى هذا الأساس قام هس ، وجيروم هناك ، ليصبحا نظير ويكليف الإنجليزى ، ويتزعما حركة الإصلاح فى بوهيميا . أما المناقشات التى كانت تدور بين جدران الأكاديميات ، فلم يعدم أن يتسرب البعض منها ، إلى عامة الشعب

وتنتشر فى المجتمعات ، ويكون لها آثرها . وهكذا نجد أنه على أساس دعوة ويكليف وأفكاره فى انجلترا ، قامت الحروب الهسية فى بوهيميا ، كما قامت جماعات اللولاردز فى انجلترا .

وما حدث وقت أن كانت الطباعة غير معروفة ، انتشر وازداد ، فى عصر اخترعت فيه الطباعة .

وسوف نرى فى عهد الإصلاح ، كيف أن روح العلم والمعرفة ، قد انتشرت من جامعة إلى أخرى ، لتتشبع به عقول الشعب فى كافة أرجاء أوربا ، فى نهاية الأمر .

إن ارتباط النظام الكنسى بالنظام المدرسى فى ذلك الحين ، قد كيف بصورة واضحة ، الجو الذى فيه تفرخ حركة الإصلاح وتتكاثر ، كما تنمو الخميرة الصغيرة فى قلب العجين ، وتجعله يختمر كله — لقد يسرت ومهدت الطريق للإصلاح . فلم يعد للمسافات والأبعاد وفروق الجنس ، واللغة ، أى تأثير . لقد وحدت روما البابوية العالم المثقف ، كما وحدت الشعوب كلها ، فى إطار واحد ، تماما كما حدث فى وقت إشراق فجر المسيحية ، حينما كانت روما القيصرية ، رابطة العالم كله ، بطرقها ، وقوانينها ، وسلامها الرومانى ، فى وحدة متكاملة ، فسهلت الطريق لرواد المسيحية الأولين ، لنشر الدعوة بين الشعوب بلغة واحدة هى اليونانية — وهكذا قامت حركة الإصلاح ، التى لن تصبح فيها روما بعد سيدة المدائن ، ولن تكون اللغة اللاتينية بعد ، هى اللغة العلمية المقدسة ، ولن تذوب الدول والأجناس والشعوب ، فى وحدة ثيوقراطية مستبدة . فسوف يكون لكل دولة كيانها وقوميتها ، ولغتها وثقافتها وأدبها ،

وكذلك كنائسها ، ورجال الدين المنتمين إليها ، وهذا كله سوف يكون من ثمار حركة الإصلاح .

النظام الاقطاعى :

وإلى جانب النظام الكنسى ، والنظام المدرسى ، كان هناك النظام الإقطاعى ، يقف سندا للبابوية . وكان هذا النظام من أقوى الدعائم ، التى تربط المجتمع الأوربى بالنظام القديم . كما كان له أثره ، فى تأخير ظهور الدول المتحررة ، عن طريق تفكك المجتمعات هناك ، وتضارب الطبقات ، وقيام أكثر من إمارة يحارب بعضها بعضا .

ولقد كان كل إقطاعى ملكا صغيرا فى دائرته — له بلاطه ، وحاشيته وجيشه ، وفرسانه ، كما كان له الفلاحون والأتباع والعبيد . وكثيراً ما كان يشير من يشعر فى نفسه بالقوة ، حربا على الإقطاعيين الآخرين ، فى الوقت الذى لايسلم فيه من غزوات من هم أكثر قوة منه — وتدوم الحروب والمنازعات لسنوات عديدة — على أن ذلك النظام الإقطاعى ، كان قد بدأ يتصدع فى أكثر من مكان ، كما كان قد انتهى عهده فى البعض الآخر — واستسلم لسلطان التاج — وشيئا فشيئا عبر الأجيال ، استطاع البعض من كبار الإقطاعيين ، أن يزدادوا قوة ، فى الوقت الذى دب فيه الضعف والتدهور ، إلى الصغار . وفى البلدان التى كان نظام التوريث فيها يتجه إلى الوريث الواحد ، اتحد النبلاء ، وإزدادوا ثراء وقوة ، بالتصاهر ، أما العائلات التى تنتمى إلى الأسرة المالكة ، فقد كان من تعاظم شأنها ، أن ابتلعت الكثير من الأسر الأقل شأناً ، كما كان الحال فى فرنسا .

ولكن الأمر كان على النقيض من ذلك فى ألمانيا ، حيث نرى اتحاد

الإقطاعيات يأخذ فترة أطول . ذلك لأن نظام التوريث ، كان يتجه إلى تقسيم التركات بين الأبناء الذكور ، مما زاد فى تفككها ، وأعاق تقدم الأمة نحو الوحدة ، وعرضها للحروب الأهلية الطاحنة لعشرات السنين ؛ ولكننا بوجه عام نستطيع أن نقول ، إن نظام الإقطاع كان يخطو إلى نهايته ، فى كل بقعة من بقاع أوربا .

ولقد كان هناك عامل آخر لنهاية الاقطاع ، ذلك هو التجارة — فلقد تركز النشاط التجارى فى المدن الكبرى . كما كانت المدن الصغرى مراكز التسويق بين الفلاحين وبين كبار التجار . ولقد كان لهذا النشاط أثره ، فى أن يهجر كثيرون من الفلاحين أراضيهم ، ويعملوا فى المدن ، زد على ذلك أن المصالح التجارية كثيراً ما كانت تتعطل ، بسبب الحروب التى كانت تثور بين أمراء الإقطاع . فالطرق تقطع ، والتجارة تتعطل والقوافل التجارية إن قدر للبعض أن يغامر ويعرض تجارته للهجوم ، والنهب من الأعداء ، فعليه أن يحميها بحراسة قوية . وهذا كان يزيد فى ارتفاع الأسعار — كل هذه العوامل دفعت بالمدن الكبرى ، التى كانت تعتمد على التجارة ، إلى كره الإقطاع ، ومحاربته بكل الوسائل . وحينما ظهرت سلطة التاج ، كانت المدن هى أقوى الدعائم ، فى تأسيس وتثبيت أركان الملكية ، وكان الملوك يدعون التجار والحرفيين وكافة الهيئات فى المدن ، إلى إرسال مندوبين عنهم إلى البرلمانات والمجالس النيابية ؛ لعرض وجهة نظرهم . طائفة أخرى وقع عليها الضرر أقسى الضرر بسبب الاقطاع ، تلك هى طائفة الفلاحين .

نجوم فى الظلام :

ولن نعرض لتلك النجوم التى تألقت فى ظلام الليل ، إلا بالقدر الذى نصل به بين الماضى والحاضر ، بين عهد ولى ، وعهد أوشك أن

يشرق فجره . فلن يعدم الليل ، بعضاً من النجوم . ولن يترك الله نفسه بلا شاهد حتى في أحلك ساعات الظلمة — ولقد ظهرت محاولات للإصلاح الذى نحن بصدده ، واتخذت أكثر من صورة . كان البعض منها يتجه إلى إصلاح الرأس ، والجسد دون الروح . لقد اتجهت فى واقع الأمر ، إلى تشذيب الفروع النافرة عديمة الثمار ، وقطع الأغصان الميتة ، دون تغيير لجذع الشجرة ، وكانت تتجه إلى إزالة الأخطاء الظاهرة ، مثل المظالم ، وعجرفة البابوية ، وفساد الكهنوت وكفى . بينما كان الأمر يحتاج إلى تغيير النبع أولا — إلى تغيير العقيدة — إلى انقلاب جذرى . وإلا فما جدوى المناداة بإصلاح الظاهر ، والقلب يسرى فيه السم . إن جميع المجامع التى انعقدت سواء فى بازل ، أو كونستانس كانت مجامع إصلاحية ، هدفها الإصلاح . ولكننا نجد المؤتمرين حتى فى هذه المجامع ، يدينون من كانوا ينادون بالإصلاح الحقيقى مثال ذلك مصلحو كونستانس ، نراهم يدينون جون هس ، ويحكمون عليه بالموت كما تقدم فى المجلد الثانى من تاريخ المسيحية .

نقول إننا لن نعرض لمثل هؤلاء ، والبعض منهم ظهر فى فرنسا ، أمثال « بيتر دايلى » و « جون شارلير » و « لويس من الماند » والأخير كان يحتل مرتبة كردينال ، ولن نعرض لإخوتهم ونظائرهم فى ألمانيا ، والذين لقبوا بأصدقاء الإصلاح ، أمثال « ثيودور من نيم » و « جريجورى من همبورج » و « نيقولا كوسه » وغيرهم — ولكننا فى سطور قلائل سوف نعرض لثلاثة من النجوم ظهروا فى آفاق وظروف متباينة ، وكانوا يسيرون فى نفس الخط الذى سار فيه الإصلاح فى ألمانيا على يدى رائده الأكبر « لوثر » ، حتى أننا نستطيع أن نلقبهم بالمصلحين الإنجيليين — وسوف نكتفى بهؤلاء ، حيث أننا عرضنا فى المجلد السابق لمجهودات ويكليف

فى انجلترا ، وحركة هس والهسين فى بوهيميا ، وحركة الإخوة المورافيين ، التى ارتبطت بالوالد نسيين فى مورافيا .

وأول من سنعرض لهم من هذه النجوم راهب دومنكانى ، ولد عام (١٤٥٢) وعاش فى إيطاليا ، ويدعى اسمه سافونا رولا ، ولقد كان مبشرا قويا ، وجسورا لا يقف فى وجهه شىء . ويكفى دليلا على جرأته قوله « لقد كان للكنيسة من قبل قساوسة من ذهب وكؤوس من خشب أما الآن فالكؤوس صارت من ذهب ، والكهنة من خشب . إن صورة الدين الخارجية والبراقة قد غطت على الحالة الداخلية الروحية وأفسدتها » . وكان من نتيجة خدماته ونشاطه أن الحالة تغيرت فى فلورنسا ، وأن الفلورنسيين ، ظهرت فيهم روح البساطة والوداعة .

والنهاية كانت كما يمكن أن يتوقعه أى مفكر عاقل : قبض عليه بمكائد البابا اسكندر السادس مع اثنين من أصدقائه ، وشنق الثلاثة عام (١٤٩٨) ثم أحرقت جثثهم ، وذرى رمادهم فى نهر الأرنو . .

ويبدو أن غلطة سافونارولا ، وهى نفس الخطأ الذى وقع فيه مصلحو تلك الآونة ، كانت جمعه بين السياسة والدين ، ومحاولته إثارة الشعب بكافة الوسائل . ولكننا نلتمس له العذر بسبب الظروف التى عاصرها .

النجم الثانى يدعى « جون ويزاليا » من جامعة إرفورت ، وقد جلب على نفسه غضب روما ، بسبب جرأته ومناداته بأن الخلاص بالنعمة وليس بالإنخراط فى الرهبنة ، أو زيارة الأماكن المقدسة أو مسحة الزيت ، أو حل الكاهن : وأن البابا والأساقفة ليسوا واسطة للخلاص — ولقد ألقى

القبض عليه عام ١٤٧٩ ، وحوكم أمام مجلس كهنوتى ، رغم شيخوخته ومرضه : وصدر الحكم عليه بالسجن ، حيث وافته المنية بعد قليل .

والنجم الثالث من أهالى هولندا . وهو أقوى شخصية ظهرت مباشرة قبل الإصلاح . ومن أشهر فلاسفة القرن الخامس عشر . وكان لمركزه كأستاذ فى جامعات كولونيا ، وهيدلبرج ، وغيرها ، أثره فى نشر تعاليمه بين المثقفين ، كما أنه ماكان يدخر وسعا فى التشهير بالبابوية وتعاليمها وفسادها . ولقد اختير أيضاً استاذاً للعبرية فى جامعة باريس ، وهناك نشر تعاليمه : ويدعى اسمه « جون ويسلاس » — ويكفى أن ندلل على عظمة ذلك الإنسان ، أن نثبت ما كتبه عنه مارتن لوثر عام (١٥٢٢) فى مقدمة أحد مؤلفاته يقول :

« لقد كنت أظن أننى أقف فريدا وحيداً فى حربى مع وحوش وجبابرة صكوك الغفران والمنشورات البابوية ، حتى أننى كدت أمتلىء باليأس ، من حربى مع أنبياء البعل ، وأتركهم وأنزوى بعيداً — ولكن وأنا فى هذه الحالة ، إذا بى أكتشف أنه يوجد فى الخفاء ، بقية لشعب الله وأرى برهانا على ذلك فى كتابات « جون ويسلاس » وكما فى حالتى هكذا فى حالته أيضاً ، أقول إنه لا يمكن أن يقال عنا ، إننا تلقينا تعاليمنا من البشر . ولو كنت قرأت كتاباته من قبل ، لكان قد قيل عنى إننى أتلقى تعاليمى منه ، لما بين مبادئى ومبادئه من اتفاق تام فى العاطفة والشعور ، وحتى فى نفس الكلمات التى كان يستخدمها ذلك الشخص ، الذى عاش فى عصر غير عصرى ، وفى ظروف غير الظروف التى عرضت لى . أما عن نفسى ، فإننى أقول ، إنى لا أستمد لذة فقط من تعاليمه ، بل قوة .

وتشجيعا — وإنه لمن المحال على أن أشك لحظة ، فى صحة التعاليم التى ناديت بها ، بعد أن رأيت التوافق العجيب بينى وبين ويسلاس ، ومن الأمور التى تدعو إلى الدهشة والغرابة ، أن يقضى ذلك الرجل العظيم ، والأستاذ الجامعى حياته ، على الرغم مما نادى به من تعاليم ، فى هدوء ، وأن يرقد فى سلام ، بعد أن بلغ السبعين من العمر (١٤٨٩) وكانت آخر كلماته « شكرا لله . لم اعرف شيئاً إلا يسوع وإياه مصلوبا » .

هذا وتضيق الصفحات عن أن نعرض لآخرين مثل « الريك فون هاتن » الألمانى و « روخلن » ، وغيرهما . فقد حان الوقت لندخل فى موضوعنا الرئيسى — وهو الإصلاح على يدى المصلح الأشهر مارتن لوثر .

٢

هكذا كانت الامبراطورية الألمانية

[هكـذا كانت الامبراطورية الألمانية ـ راهـب ويتمبرج ـ بائع الغفرانات ـ اصـلاح أم ثورة ؟ ـ الثورة ختام قصة]

فى سياق الحديث من قبل ، أشرنا إلى أن ألمانيا كانت أبعد الكل ، بعد إيطاليا ، عن الترابط والوحدة القومية . لقد كانت تسمى نفسها « الإمبراطورية الرومانية المقدسة » ، ولكنها كانت أبعد الكل ، عن أن تكون إمبراطورية متماسكة . فقد كانت تنتسب إلى النظام القديم ، مرتبطة به كل الإرتباط . ونظير بابا روما ، كان الإمبراطور الألمانى ، على الرغم من أنه كان يملك ولا يحكم ، يلقب نفسه بقيصر ، حامى حمى المسيحية ورأسها ، ويفرض نفسه حاميا ، ومدافعا عن كل الدول ، خارج نطاق بلاده . وكما أن بابا روما هو الرئيس الروحى ، هكذا كان إمبراطور ألمانيا ، يعتبر نفسه الرئيس الزمنى لكل الشعوب المسيحية . وإننا لنجد سويسرا قبيل عهد الإصلاح وقد انسلخت عن الإمبراطوية الألمانية. بل نجد انجلترا ، وأسبانيا ، وفرنسا ، ما كانت فى يوم من الأيام تابعة لها . ولكن الملك الفرنسى على الرغم من هذا ، كان يقسم يمين الولاء للإمبراطورية ، حينما يحلو له ذلك . وحتى هنرى الثالث ملك بريطانيا ـ

فى الفترة التى أراد أن يكسب فيها أصواتاً ، ليجلس على عرش الجزيرة — ما توانى عن أن يشير للمنتخبين الألمان ، أنه إن كان ملك فرنسا فرانسز الأول ، الغريب عن انجلترا ، يؤيد انتخاب الملك الإنجليزى ، فبالأولى هم . ولكننا نجده بعد أن تثبت أقدامه على عرش الملك ، ينادى أنه على الرغم من أن الدم السكسونى يجرى فى عروقه ، إلا أنه ما كان فى يوم من الأيام خاضعاً للإمبراطورية الألمانية .

وحينما كان يخلو عرش ألمانيا ، كان الإمبراطور الجديد ، ينتخب بمقتضى المرسوم الذهبى الصادر عام (١٣٥٦) ، بواسطة سبعة من الأمراء المنتخبين(١) ، ورؤساء الأساقفة : ثلاثة منهم رؤساء أساقفة مينز ، وتريفس ، وكولونيا ، ثم كونت بلاتين على الراين ، وملك بوهيميا ، ومنتخب سكسونيا ورئيس براند نبرج .

أما حفلة التتويج ، فقد كانت تظهر طبيعة تلك الإمبراطورية . فحين ينتخب الإمبراطور ، كان يتم تتويجه أولا فى إكس لا شابل ، وهناك يقسم يمين الولاء للإيمان الكاثوليكى ، وحقوق المملكة والإمبراطورية — كما يقسم يمين الخضوع للجالس على عرش روما ، والكنيسة الرومانية . ثم يأتى بعد ذلك دور استفتاء الشعب ، أولا باللاتينية ثم بالألمانية . إن كانوا يرغبون فى قبول الملك سيدا ورئيسا عليهم — فإذا تمت الموافقة وهتف الشعب « ليكن كذلك » ، يمسح الملك بحضور المنتخبين بالزيت المقدس ، وبعد ذلك يلبسه ثلاثة من رؤساء الأساقفة

---

(١) سوف تتكرر فى معرض الحديث عن الإصلاح كلمة منتخب (Elector) للاشارة إلى بعض الأمراء أو الولاة فى إمارات ألمانيا ، الذين كان لهم حق انتخاب الإمبراطور . وقد كان يطلق عليهم أيضاً أسماء أخرى مثل Landgrave, Margrave

الثوب الإمبراطورى : ويسلمونه السيف التقليدى ، ويضعون على رأسه التاج . وأخيراً يقتادونه إلى عرش شارلمان الحجرى ، حيث تتم بقية المراسم . وهكذا يتم تتويجه ، ملكا ألمانيا ورومانيا . وفى حقيقة الأمر كانت تلزمه مراسم أخرى للتتويج ، تتم على يدى بابا روما .

وعلى الرغم من ذلك ، فإننا نكرر القول ، إن الإمبراطور كان يملك ، ولا يحكم ، فلم تكن له أية سلطة حقيقية فى ربوع ألمانيا . وعلى مر السنين ، تناقصت أيضاً سلطاته .

ولقد كانت للإمبراطور الضياع والأملاك يوما من الأيام ، البعض فى إيطاليا والبعض على سواحل الراين . ولكن الأباطرة السابقين كانوا قد سلموا أملاكهم فى إيطاليا إلى أيدى النبلاء هناك ، فى صراعهم مع البابا ، كما سلموا أملاكهم إلى رؤساء أساقفة مينز ، وتريفس وكولونيا — وأولئك كانوا من المنتخبين — ليضمنوا الحصول على أصواتهم . ولأجيال طويلة لم تكن للإمبراطور أملاك على الإطلاق ، لا فى ألمانيا ولا فى إيطاليا وكان الإمبراطور لا يزيد فى سلطانه ، عن رئيس إقطاعية أو أمير منتخب .

بل لم يكن للإمبراطور ، كرئيس للإقطاع ، أى سلطان فى ألمانيا . ولقد كان من العسير عليه أن يجمع جنودا أو نقودا ، فى أى ظرف ، من الشعب الألمانى . وعلى سبيل المثال ، نجد مكسمليان فقيرا ، إلى حد أنه أعلن يوما ، أن البابا كان ينال من ألمانيا ، عائدا يوازى خمسين ضعفا ، لما يناله هو من شعبه . وذلك على الرغم من كونه سلطانا قويا فى أوربا ، لأنه كان عميد أسرة هابسبورج ، وكان له أعوانه ومريدوه ، فى كافة أنحاء أوربا .

ولقد كان مكسمليان وريث عرش النمسا أيضاً . وازداد قوة بزواجه من ماري ، أميرة بورجاندى ، والأراضى المنخفضة (هولندا) . وجاء فيليب ابنهما ، وريثا لكل هذه العروش ، وأضاف على ذلك زواجه من يوؤنه ، إبنة فردناند ملك أسبانيا — ومنهما — ولد الملك شارل ، الذى يرتبط اسمه بتاريخ الإصلاح . فكان لشارل الخامس سلطانه على ألمانيا بحكم الوراثة ، وكان له أيضاً نفوذه فى الأراضى المنخفضة ، بسبب جدته أميرة بورجاندى . واعتلى العرش عام (١٥١٩) ، وكان عرش ألمانيا مجرد رمز لقوته ، لكنه لم يكن سر سلطانه ، أما مكسمليان فإن قوة النمسا ، هى التى جعلت الإمبراطور الألمانى عظيما — بخلاف شارل الخامس الذى كانت أسبانيا هى سر عظمته ونفوذه .

لقد كانت قوة الإمبراطور فى ألمانيا ، أقل منها فى أى مكان آخر . ففى ألمانيا كانت قوته تحد بالدايت أى مجلس الأشراف وهو برلمان إقطاعى وليس نيابيا وكان يضم الأمراء ، والأعيان ، ورؤساء الإقطاع ، كما يضم ممثلين عن الإمبراطور ولو أنهم قلة . وكانت تسود فيه أصوات المنتخبين على ما عداها ، وذلك على الرغم من وجود ممثلين للأمراء ، من العلمانيين ورجال الكنيسة ، كما كان يوجد به ممثلون عن المدن الحرة الخاضعة رأساً لسلطان الإمبراطور .

أما المدن الحرة ، فقد كانت بحق دعامة ألمانيا ومصدر قوتها . وكان معظم سكانها من التجار — وكانت كل مدينة تحررت من الإقطاع ، دولة حرة لها حكومتها وقوانينها ، ولها خزانتها ، التى تضم الفائض ، كما كانت تختزن مؤنا لعام كامل ، فيما لو حدث غزو أو حصار من الأعداء . أما المدن الصغرى ، فقد كانت تعتمد على الفلاح ، يقدم

لها من محاصيله ، ويتبادل معها ما يريد من بضائع — وكان أهل المدن يبغضون رؤساء الإقطاع الذين يعطلون التجارة بحروبهم ، ويقطعون الطرق. وهذا ما حدا بهم إلى الاتحاد معا ، للوقوف فى وجه أعدائهم ، وبخاصة مدن شمالى ألمانيا . ولقد كان التفكك الذى يعيش فيه المجتمع ، وعدم وجود حكومة مركزية ثابتة ، وقوانين تحترم وتسود ، هو الدافع إلى ذلك .

ولم توجد طبقة قاست الأمرين من الوضع الإجتماعى هناك ، قدر الفلاح الألمانى ، الذى كان يعيش فى حالة الإستعباد ، فى الوقت الذى فيه نال زملاؤه الحرية فى أكثر من بقعة من بقاع أوربا .

لقد كان الفلاح الألمانى ، أو «البوير» ، أجيرا مرغما مستعبدا ، لا يملك حتى الكوخ الذى يسكن فيه ، أو المزرعة التى يعمل فيها . وتحت سقف واحد ، كان ينام مع أسرته وأبقاره وخنازيره — هذه تنام على القش ، وهو ينام على غطاء يفترش به الأرض . وإلى جانب من الكوخ كان يوجد الموقد تعلوه الغلاية المتدلية من السقف ، بينما علقت جميع أدوات المطبخ على جدران الكوخ من أوان وصحاف وغير ذلك . أما المنضدة المصنوعة من خشب البلوط ، والخزنة الخشبية التى كان يحفظ فيها ثيابه ، شأنها شأن الأرض والمزرعة ، والأبقار والخنازير ، كانت كلها عارية لا يملك منها شيئا ، ينتفع بها طالما كان مرتبطا بالحقل والسيد الإقطاعى . فإذا شاء القدر وانتهت حياته ، ولم يوجد من يخلفه فى العمل ، لم يكن لأسرته غير التشريد والعمل كأجراء فى أى مكان آخر .

ولقد كانت للفلاح ذكرياته عن أيام أفضل ، حينما كان نيره أقل ثقلا ، وحياته أكثر حرية . لكن فى القرن الرابع عشر ، انتشر الوباء الأسود ، وحصد الألوف وأصبح العمل كثيراً والفلاحون قلة .

ولقد كان هذا ممكنا أن يزيد فى قيمة الفلاح ويرفع من مستواه ، لو حدث فى بلد آخر له قوانينه النافذة . لكن الذى حدث كان على النقيض من ذلك . فقد انتهى الأمر إلى احتكار الإقطاعيين للفلاحين ، وزيادة عبء العمل عليهم ، دون تحسين لمستواهم ، حتى انتهوا إلى حالة الإستعباد .

ولاغرابة أن نجد ثورة تحدث ، لمجرد أن تصدر الأوامر إلى جماعة منهم ، بجنى سلة من ثمار الفراولة فى يوم الأحد ، يوم العطلة الرسمية ، لسيدات القلعة — فقد كانت الكأس ممتلئة وطافحة . أما القانون المدنى الرومانى ، الذى كان سائدا ، وأقره الإقطاعيون ، فلم يكن إلا للدفاع عن مصالحهم . وكان الفلاح يعتبر رقيق الأرض .

وعلى ذلك لم يبقَ من بديل لديه سوى الثورة ، وأخذ حقوقه بالقوة .

هكذا كانت ألمانيا ، ملكا وأمراء وشعبا ، وفلاحين ، قبيل الإصلاح .

راهب ويتمبرج :

فى القرن السادس عشر ، أو على الأصح ، فى مستهل ذلك القرن ، كان الشعور العام فى المجتمعات الأوربية ، شعور تفتح وابتهاج . فقد كان ذلك عصر إحياء النهضة الفكرية والعلمية . وبدأت مباهج العالم القديم ، فى الفلسفة ، والأدب ، والفن ، تتألق بصورة حية أمام الأنظار .

ومع أن بعث الروح اليونانية ، كان بعثا لليونانية القديمة ، أو بكلمات أخرى ، كان بعثا للفكر الوثنى ، والروح الوثنية ، إلا أنه مقابل هذا ،

لا نستطيع أن ننكر الإنجازات العظمى ، التى حققها ذلك العصر ، والمثل الفنية والسياسية والفكرية التى بعثت من جديد . بل إن الاتجاه إلى دراسة اليونانية القديمة ، وجه الأنظار إلى جمال أسفار العهد الجديد ، فى اللغة الأصلية القديمة ، ودفع الباحثين إلى متابعتها ، بل مهد لترجمتها إلى اللغات القومية ، على ما أثار هذا العمل من نفور ومقاومة من جانب البابوية ، والنظام المدرسى ، وما أثاره من اضطهاد بالغ ، لكل من حاول دراسة روح الكتاب فى اللغات الأصلية . . . أو ترجمته إلى اللغات القومية .

وكان من نتيجة ذلك أيضاً ، رؤية جديدة للكنيسة البابوية ، فى نظمها ، وعقائدها ، وممارساتها ، فى نور الوحى الإلهى ، ورغبة عارمة فى الإصلاح ، من القمة إلى القاعدة .

وانعقد أكثر من مجمع للإصلاح ، مثل المجمعين اللذين عقدا فى كونستانس وبازل فى القرن الخامس عشر ، ولم تحقق تلك المجامع الكبرى شيئاً — على سبيل المثال مجمع كونستانس ، الذى استمر منعقدا ثلاث سنوات كاملة ، لم يحقق كسبا ، سوى إغراق البلد فى فيض من المباذل والمجون .كما نجح أيضا فى إحراق شهيدى بوهيميا : جون هس وجيروم !

لقد كان عصر إحياء العلوم والآداب ، عصر انحلال خلقى وضياع للمثل، بل إننا حتى لو دققنا التأمل فى روائع الفن ، التى انحدرت إلينا من تلك الحقبة ، أمثال روائع روفائيل ، فإننا لا نحس فى ألوان صور العذراء ، والملائكة ، والقديسين ، تلك المسحة الروحانية ، والهالة الإلهية ، التى ينبغى أن تكون .

في تلك الحقبة من تاريخ الكنيسة ، كان يجلس على الكرسي البابوي ، أشخاص أمثال اسكندر السادس (حتى ١٥٠٣) ، ومن بعده ابنه سيزاربورجيا ، ويوليوس الثاني ، (حتى ١٥١٣) ، وليون العاشر (حتى عام ١٥٢١) — وهؤلاء نستطيع أن نقول إنهم كانوا رجال سياسة ، قبل أن يكونوا رجال كهنوت ، ومشجعي ثقافة دنيوية ، قبل أن يكونوا رعاة للرعية ، وأصحاب مشاريع بنائية ، قبل أن يتجهوا إلى بناء الكنيسة الحية . فالإسكندر كان يقيم الحفلات الكبرى ، كأي واحد من الأباطرة ، أما يوليوس الثاني ، فهو الذي أعاد بناء كنيسة القديس بطرس ، وزينها بروائع رفايل ومايكل أنجلو . أما ليون العاشر ، فقد شجع الدراسات اليونانية ، والتراث الوثني القديم ، لهذا يقال إنه فضل التراث اليوناني على المسيحية ، وأفلاطون على بولس الرسول — أما الرهبان فعلى الرغم من كونهم في بادىء الأمر ، قوة خلاقة مجددة معوضة لما لم تستطع الكنيسة أن تقوم به ، إلا أن التيار الجارف كان أقوى .

غير أنه قد قدر لواحد من طبقة الرهبان ، من رهبانية القديس أوغسطينوس ، أن يكون له النصيب الأكبر في مجال الإصلاح ، وأن يتألق عبر الأجيال ، في تاريخ المسيحية المصلحة — ذلك هو الراهب الألماني مارتن لوثر — الذي ولد من أبوين من الفلاحين الفقراء ، في ازلبن بمقاطعة سكسونيا ، وبرغم وضاعة نشأته ، استطاع أن يطبع بصماته الخالدة ، على صفحات التاريخ المسيحي — فإذا ألقينا الضوء على الحالة السياسية في ألمانيا ، أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، كما كانت تلقب نفسها إبان الحقبة التي ظهر فيها مارتن لوثر ، فإننا نرى أن الإمبراطور الذي ظهر على مسرح البلاد في تلك الحقبة ، وهو شارل الخامس ، كان سليل العائلة المالكة في أسبانيا ، في أوج عزها ، كما كان عظيم النبلاء

فى الأراضى المنخفضة ، وانتخب فى عام ١٥١٩ ، ليجلس على كرسى ألمانيا ، رغم حداثة سنه — ولكننا لا ينبغى أن نرتعب أمام كلمة إمبراطور — وقد أسلفنا الحديث عن ذلك فى الفصول الأولى — فلم تكن له السلطة المطلقة . ولو كان كذلك ، لما قدر للإصلاح أن يبدأ على الإطلاق ، ولسحقت الحركة الجديدة فى مهدها — فلم يكن للإمبراطور سلطان على أية ولاية فى ألمانيا ، عدا بعض المدن التى عرفت بالمدن الحرة . وفى عهد الإصلاح ، كانت الإمبراطورية تضم النمسا وهنغاريا ، علاوة على رقعة ألمانيا كما عرفت فيما بعد ، ولم تكن قد تبلورت عن دولة متماسكة نظير انجلترا وفرنسا ، وأسبانيا ، لكنها كانت تتكون من دويلات ، أو دوقيات ، تتفاوت فى الضخامة والقوة . أما أمراء هذه الدويلات ، الذين كان يطلق عليهم أكثر من لقب : المنتخب (Elector) أو ما جريف ، فكانوا يعترفون بالإمبراطور كالرئيس الأعلى للإقطاعيات ، ولكن كل دويلة أو إقطاعية ، كانت تعزل عنه فى استقلال تام . هؤلاء الولاة أو « الأمراء » ، لعبوا دورهم فى تاريخ الإصلاح . ولقد كان للدولة مجلس أعيان أو أمراء يعرف « بالدايت » وسوف نرى أثر الدايت فى سير الأحداث .

نقول إن شارل الخامس ، كان وريثا لعرش أسبانيا وألمانيا . لكنه فى طبيعته ، كان يتجه إلى أسبانيا ، فلم يكن فى تفاهم على الإطلاق مع الألمان . أما فى معتقده ، فقد كان شأنه شأن سواه من أبناء العصور الوسطى ، مرتبطا كل الإرتباط بكنيسته ، على الرغم مما يراه فيها من مساوىء . لكنه كان يتمنى لو تم الإصلاح فى داخلها ، وليس بعيداً عنهـا .

وفى صلته بالبابا ، لم يكن تابعا له . لقد كان يتمنى أن يكون هناك مجلس أعلى فوق سلطان البابا . لكنه مع هذا كان ضد أى تغيير فى تعاليم الكنيسة ، وما كان يفهم لماذا يسعى البعض فى محاولة للوقوف فى وجـــه عقائدها . ونستطيع أن ندرك روحه المتعصبة للكثلكة ، حين نعلم أنه بعد أن حكم البلاد ستا وثلاثين عاماً كاملة ، ورأى فى النهاية أن مخططه لتثبيت أقدام البابوية فى ألمانيا قد باء بالفشل ، ألقى بالتاج جانباً ، واعتزل الملك ، والتحق بأحد الأديرة وقضى بقية حياته راهبا .

لقد كان سياسيا منافقا حيناً ، وفى أحيان أخرى قاسيا ؛ لكنه فى كل الأحيان ، كان مناوئا لكل إصلاح ، عدوا لكل تجديد فى العقيدة .

وكان هناك منافس لشارل ، هو فرانسز الأول ملك فرنسا . ومن الشرق كان هناك أعداء له فى جبهة أخرى . هم الأتراك ، الذين كانوا قد احتلوا القسطنطينية عام (١٤٥٣) . أما سياسته مع البابوات ، فكانت مداهنة أحيانا وأحيانا أخرى كانت معادية .

كل هذه ، تعطينا فكرة عن المتربع على كرسى الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، فى فترة ظهور مارتن لوثر .

ولد مارتن لوثر عام ١٤٨٣ . من أبوين من الفلاحين الخشنين . أصحاب الطباع الحادة ، لكنهما كانا طيبين فى الأعماق . وقد كانا يحلمان بأن يصبح ابنهما محاميا . وعلى الرغم من شظف العيش وضآلة الموارد ، أرسلاه إلى الجامعة فى إرفورت .

يقول لوثر « كان أبى حطابا ، وكانت أمى تعاونه فى عمله لكى نقيم أود الأسرة » ولكن الحياة بدأت تتيسر قليلا ، حينما التحق والده بعمل

فى منجم ، لاستخراج الحديد فى ما نسفيلد ، واستطاع بأمانته ، أن يشق طريقه فى المجتمع ، وينتخب عضوا فى المجلس البلدى فى المدينة .

وفى سن الرابعة عشرة ، أكمل لوثر تعليمه فى مدرسة ما نسفيلد ، وأرسله أبواه إلى مدرسة الفرنسسكان فى مجدبرج ، هناك وجد نفسه فى وسط جديد . ولكن الأمر الذى كان ينغص عليه حياته ، قلة الموارد بين يديه حتى قيل إنه كان يشحذ الخبز من إخوانه . وقيل إنه كان يستعين على شظف الحياة ، بترتيل الأناشيد الدينية ، والاستجداء أمام بيوت المحسنين وهذه العادة كانت متبعة فى عصره ، يستعين بها الطلبة الفقراء لسد نفقاتهم ولكنه كان مترددا جبانا ، كثيرا ما يسىء فهم تصرف إنسان رحيم ، فيهرب أمامه وهو قادم له بالطعام — حتى لقد فكر مرارا فى ترك التعليم بسبب هذه الظروف . سنة كاملة قضاها فى هذا العذاب . حتى قيض الله له أسرة رحيمة ، أعجبت فيها الزوجه التقية بصوته الجميل ، وهو ينشد الترانيم أمام باب البيت ، وقررت مع زوجها إيواءه فى المنزل :

هنا بدأ لوثر يواصل نشاطه ، فى دراسة الآداب والعلوم والموسيقى. وكثيراً ما كان يطرب أمه التى تبنته ، بالضرب على العود ، وترديد الترانيم . وبذلك تربى فيه حب الموسيقى ، الذى لازمه طيلة حياته ، حتى ألف ولحن العديد من الترانيم .

وفى عام ١٥٠١ وكانت سنه ، لم تتجاوز الثامنة عشرة بعد ، ألحقه والده بجامعة إرفرت لدراسة القانون . وكانت أحواله قد تحسنت قليلا . وإننا لنجد آثار التربية الدينية المتزمتة فى صباه تظهر عليه ، حتى أنه يدرس على مضض ، مؤلفات أرسطو ، وكانت على رأس قائمة الدراسة الجامعية . وكان كرهه لمنطق أرسطو بالغاً ، حتى أنه كان يقول

لزملائه . لو لم يكن أرسطو إنسانا لاعتبرته شيطانا — سنوات عدة قضاها فى دراسة الفلسفة ، وفى السهر على مؤلفات توما الأكوينى ، وبونا فنثيرا وأوكهام وغيرهم من المدرسيين ، لكن هذه كلها ما كان لها أثرها فى تسكين ضميره ، أو إراحة قلبه . ومع ذلك فبذكائه ، استطاع أن يبز أقرانه فى هذا المجال ، حتى أنه فى سن العشرين . نال درجة بكالوريوس فى الآداب . وبعدها بسنتين نال درجة الدكتوراه فى الفلسفة .

وكانت نعمة الله تعمل فيه ، فابتدأ يمتلىء حزنا على مصيره الروحى. وفى تلك الأثناء عثر فى مكتبة الجامعة ، على نسخة من الكتاب المقدس باللغة اللاتينية . وقد شغف لوثر بالكتاب « المحرم » على الشعب شغفا شديداً ، ومع ذلك كان الكتاب المقدس مغلقا أمام ذهنه . يقول « هوذا كتابى المقدس بين يدى ، وأنا شغوف بدراسته ، لكن ما هى وسيلتى لإدراكه ؟ وكيف السبيل إلى فهمه ! ؟ » .

ومع شدة تأثره به ، إلا أنه استمر على ما هو عليه . حتى أننا نراه فى مرض خطير ، ألم به فى تلك الأثناء ، لجأ إلى طلب القديسين والتشفع بهم « ياعذراء مريم خلصينى » ويقول فى مذكراته « لو أننى مت فى تلك الأثناء ، لكانت العذراء والإيمان بها حجتى أمام الله ، ولا شىء آخر » .

وتعود إلى لوثر صحته . ويشغل وقته إلى جوار دراسة القانون بتدريس الفلسفة لبعض الطلبة . وبينما هو منهمك فى هذا المجال ، إذا بحادثة تحدث تغير مجرى حياته ، عندما وجد صديقا له يدعى ألكسيس يموت فجأة ، ربما قدراً ، وربما اغتيالا .

فارتعد لوثر أمام حدث صديقه ، وراح يقول فى نفسه ، لوكنت

مكانه فماذا يكون مصيرى ؟ وإذا بمخاوف الموت والأبدية تعاوده بقوة مضاعفة . ويهيم على وجهه فى ضواحى إرفرت . وفجأة وكان الجو ملبدا بالغيوم ، إذا الرعد يدوى ، والبرق يبرق ، ويرى لوثر بعينى رأسه لسانا من النار فى صاعقة هابطة يدوى على مقربة منه . فتصور أن ساعة الدينونة قد حانت فارتمى على الأرض ، صارخاً للقديسة حنة ، أنه إذ نجا من هذا المصير ، فسيهجر العالم ويقضى بقية عمره بين جدران الدير .

وفى ١٧ أغسطس عام ١٥٠٥ ، أى بعد ذلك الحادث بأسبوعين اثنين ، دعا لوثر أصدقاءه إلى حفلة مسائية . وما كانوا يدرون وهم يستمعون إلى عزفه على العود ، أنها حفلة الوداع . وبعد أن انفرط عقد المجتمعين فى ساعة متأخرة من الليل ، إذا به يسرع والظلام يكتنفه إلى دير القديس أوغسطينوس بإرفرت ، ويدق الباب وهو يقول : « افتح لى باسم الله » ويجيبه صوت الفرير حارس الباب « ماذا تريد » فيكون جوابه « أريد أن أكرس نفسى لله » .

لكن هل كان حقاً كذلك ؟

لقد كان الدافع هو الرعب من الموت ، والحالة الطارئة ، والنذر الذى قطعه على نفسه .

وأعاد لوثر للجامعة روبه الجامعى ، وخاتم الوظيفة . حتى ملابسه وزعها ، حتى لايبقى ما يذكره بالعالم . وقد حزن والده وكذلك أصدقاؤه حزنا بالغا بسبب هذا التصرف — وكان التدريب قاسيا على نفسه فى بادىء الأمر ، حتى أنه كان من ضمن بنود إذلال النفس ، أن يحمل مذودا على ظهره ، ويسير فى طرقات إرفورت ، يشحذ الخبز والطعام من

بيت لبيت ، وهو الأستاذ الجامعى ، الذى نال أرقى الإجازات العلمية — إلا أنه يبدو أن الجامعة طلبت من رئيس الدير ، إعفاءه من هذه المهمة ، فأصبح يجد متسعا من الوقت للدرس والتأمل ، واستطاع بمعاونة زميل له يدعى لانج ، أن يدرس أصول اللغتين العبرية واليونانية .

وهناك فى كنيسة الدير ، وجد كتابا مقدسا مربوطا بالسلاسل ، فكان يتردد على الكنيسة ليدرس الكتاب . على أن قراءته لم تزده إلا اضطرابا ويقينا بهلاكه . لقد دخل الدير وأصبح راهبا ، وفاق أقرانه فى الأصوام ، والأسهار ، وإذلال الجسد ، وكم من الليالى قضى ، وهو راكع على البلاط يصلى للقديسين ، لكنه ما أفاد شيئاً ، رغم أنه أصاب جسمه الهزال ، وعقله الشطط ، فكان يرى أرواحا ، وشياطين تحيط به . لقد كان يسعى للحصول على سلام الله بمجهوداته وبره ومع ذلك لم يحصد إلا الفشل . لقد كان مستعدا أن يبذل أى مجهود ليحصل على الخلاص الكامل . يقول بعد ذلك : « كنت راهبا تقيا — واتبعت قواعد الرهبنة التى أنتمى إليها بأكثر تدقيق — وإن كانت السماء تعطى بالأعمال ، فإن كل الرهبان حولى يشهدون لى بتدقيق فى الحياة . ولو كنت بقيت أكثر ، لكان موتى محققا بسبب الأسهار ، والأصوام ، والقراءات ، وأعمال الإماتة الأخرى » .

ويروى عنه أنه فى مرة من المرات ، فى يأسه القاتل ، وشعوره بخطيته ، أغلق باب صومعته على نفسه أياما ، وهو لا يسمح لأحد بالدخول ، إلى أن هيأ الله زميلا كان يعرف أحواله ، فكسر باب الصومعة ، ووجده ملقى على وجهه ، فى حالة غيبوبة هستيرية . . .

أخيراً التقى بمن يدعى جون ستوبتز ، رئيس رهبانية الرهبان الأوغسطينيين الذى أرشده إلى الطريق السوى .

وكان الرئيس فى زيارة للدير ، فهاله منظر لوثر وحالته ، وكانت نصيحته له « أنت تخطىء إذ تظن أنك تستطيع أن تقف أمام الله بأعمالك . إن الخلاص رحمة تفيض من لدن الله ، على أساس الإيمان بالمسيح - » ثم نصحه بأن يدرس الكتاب المقدس .

وأصيب لوثر بالمرض ، وفى مرضه القاسى ، زاره راهب شيخ أفضى إليه لوثر بوساوسه ومخاوفه وشعوره بخطيته . فما كان من ذلك الراهب ، إلا أن قال له : « ردد معى من قانون الإيمان هذه الكلمات : أومن بمغفرة الخطايا » .

وكانت هذه بداءة عهد جديد لمصلح ألمانيا العظيم — ولم تكن السنوات التى قضاها راهب ويتمبرج فى الدير عبثا — ففيها حدثت نقطة التحول فى حياته — كما أنها كانت إجازة ، درس فيها أصول اللغتين العبرية واليونانية ، مما مهد لترجمته القادمة للكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية .

وحتى هذا الحين ، كان لوثر فى أحضان كنيسة روما — وفى عام ١٥٠٧ سيم كاهنا ، وفى عام ١٥٠٨ عين أستاذا محاضرا فى جامعة ويتمبرج ، التى أنشأها منتخب سكسونيا . ومع ذلك كان ما يزال مرتبطا بالدير . فكان يتخذه محلا لإقامته ، ويشاء القدر أن تحدث منازعات بين الرهبان ورئيس الرهبانية ، وأوفده الرئيس لعرض الشكوى على البابا فى روما . وكانت هذه أول زيارة له لمقر البابوية .

ورأى راهب ويتمبرج الزاهد المتعبد فى طريق سفره ، حياة البذخ التى يحياها رهبان روما . رأى موائد الأخوة الذين نذروا نذر الفاقة ، تموج بأطايب البابا وخمر مشروبه حتى فى أيام الجمعة أيام الصيام عن اللحوم ، كانت هناك أطباق اللحوم . وأسرع الراهب الشاب هاربا ، يقطع الطريق على قدميه ، مستريحا كلما اشتد به التعب ، حتى وصل أخيراً إلى مدينة المدائن روما ، المدينة المقامة على التلال السبعة .

نقول إن روما بالنسبة للألمانى المتعبد ، كانت نظير أورشليم ، أو أكثر قداسة . لقد كان يرى فيها المدينة التى تضم قبور الرسل ، والتى تقدست بدماء الشهداء . وعندما وصل إلى أبوابها ، ركع على ركبتيه ، وهتف رافعا يديه «إيه ياروما المباركة إنى أحييك يامثلثة القداسة بدم الشهداء» ولكنه سرعان ما امتلأ قلبه حزنا ، حينما دخل المدينة ، ورأى حياة رجال الكنيسة — فى فرصة من الفرص حينما كان يقوم بخدمة القداس رأى كاهنا إلى جواره ، وقد أنجز سبعة قداديس . وإذا بالكاهن يقول له ساخراً «أسرع — أسرع ، وأعد المسيح لأمه المقدسة — » إشارة إلى القربان :

كانت هـــذه هى الديانة التى التقى بها لوثر الراهب فى قلب دائرة الإشعاع المسيحية .

لقد كان يتوقع أن يرى رجال الدين ، يسرعون بعد نهاية القداس لزيارة المريض وتعزية الحزين ، والكتاب المقدس بين أيديهم ، ولكنه عوضاً عن ذلك ، رأى الكرادلة فى عرباتهم الذهبية التى تجرها الجياد ذات الأغطية المطعمة بالفضة ، والخدم يروحون لهم بمراوح من ريش النعام . رأى أمورا لايصح السكوت عليها ، ويصح السكوت عليها فى الكتابة لئلا

تتدنس هذه الصفحات — ومع ذلك كان لوثر ما يزال يتوسم خيراً فى عقيدته — فإنه فى يوم من الأيام ، راح يزحف مع الزاحفين على درجات السلم ، الذى قيل إنه سلم القديس بطرس ، وأنه انتقل بطريقة معجزية إلى روما . راح يزحف لكى ينال الغفران ، الذى وعد به البابا — وعندها خيل إليه أنه يسمع صوتا يقول له « أما البار فبالإيمان يحيا » ، عندئذ امتلأ خجلا وانسحب من بين الزاحفين — وما أن انتهت مهمته ، حتى أسرع عائدا إلى بلاده ، والخجل يملأ نفسه . والمرارة تكسر قلبه .

وفى ويتمبرج ، راح يوالى دراساته ، حتى نال درجة الدكتوراه فى اللاهوت . بعد ذلك عين كاهنا لكنيسة الأبروشية . ومن عام ١٥١٢ إلى ١٥١٧ لم يكن لوثر إلا الكاهن الأمين لشعبه ، المخلص لكنيسته ، على الرغم مما يراه فيها من مساوىء ، المشتاق من أعماق قلبه ، إلى إصلاحها ، دون أن يفكر فى التخلى عنها .

وإذا أردنا تقييم فكر لوثر حتى ذلك الحين ، فإننا نقول إن عقيدته كانت ترتكز على الإنجيل أولا ، ثم على أعمال القديس أوغسطينوس — الجانب الذى اعتنقه كلفن منها فيما بعد والذى بنيت عليه الكلفينية ، والتى أبرز ما فيها ، أن كل شيء مقدر حدوثه ، بحسب مشيئه الله ، وأن الإنسان خاضع فى تصرفاته وأحداثه لإرادة عليا ، وأن قليلين من المختارين قدر لهم أن ينالوا نعمة الإيمان ، ويجدوا الخلاص .

هذا التعليم الأوغسطينى ، هو جزء من الثيولوجية المدرسية التى رفضتها جماعة الإصلاح فى أوكسفورد . وفى عدم قبولها ، كانت نقطة الخلاف مع لوثر . ولكنهما كانا يتفقان فى أمر واحد : أن الديانة لاتدور حول التقاليد والطقوس وكفى ، لكنها اختبار ينبع من أعماق القلب ، وأن العبادة الحقيقية ، هى العبادة بالروح والحق :

بائع الغفرانات :

واستمر لوثر فى المناداة بعقائده الأوغسطينية فى ويتمبرج ، فى الوقت الذى كان فيه إرازمس يعد العدة لطبعة ثانية من ترجمته للإنجيل ، ويرسل نسخة من « أتوبيا » و « الرئيس المسيحى » آملا أن تتغير حال روما ، تحت سلطة البابا ليو العاشر .

لكن ذلك البابا ، ما كان يختلف عن أسلافه فى شىء — كانت دول أوربا فى ذلك الحين على حافة الإفلاس ، بسبب الحروب الصليبية التى أثارها البابوات . زهاء المائتى عام ، فى الشرق الأوسط ، كما فى أوربا والتى يقال إنه هلك فيها ما يصل إلى الستة ملايين من الأنفس . لكن هذه الحروب عينها ، كانت مصدر ثروة لاتقدر لروما والبابوية . كانت أملاك كل محارب من الصليبيين ، توضع تحت حراسة الأسقف حتى يعود ، وغالبا مالا يعود ، فتضم إلى أملاك الكنيسة .

لكن الحروب الصليبية كانت قد انتهت إلى غير رجعة ، وسقط آخر معقل للغرب ، مدينة عكا ، فى أيدى الاتراك عام (١٢٩١) ، وماتت الدجاجة التى كانت تبيض ذهبا للبابوية . وبدأت المشكلة من جديد . كيف يخترع البابا قصة جديدة تكون مصدر ربح يعوض له ما ضاع ؟

وبدأت القصة فى آخر سنة من القرن الثالث عشر ، حينما أعلن البابا أن السنة الأولى من القرن الرابع عشر هى سنة اليوبيل ، وأنه إن كانت قد ضاعت أورشليم ، فإن روما المقدسة ، ما زالت قائمة بقبور الرسل والقديسين . وأن من يقوم بالحج إلى قبرى القديس بطرس وبولس ، مرة كل يوم ، مدة ثلاثين يوما فى حالة أبناء روما ، ومدة خمسة عشر يوما للقادمين من بعيد ، يحصل على الغفران الكامل لخطاياه ، ماضيها ،

وحاضرها ، ومستقبلها . لقد أصبح الغفران الآن فى متناول الجميع ، بعد أن كان وقفا على الصليبيين . ووصل الحماس الدينى إلى منتهاه فى جميع أوربا . وتدفقت الجماهير على روما من كل حدب وصوب ، وكما يقول أحد المؤرخين « كنت ترى أسراباً بأكملها طوال العام تفد من كافة دول أوربا ، ومن ألمانيا . وتتكدس زاحمة الطرقات . والكل يطمع فى نوال الغفران البابوى » .

ولقد سميت هذه السنة بالسنة الذهبية . فقد كانت أكداس الذهب والفضة التى تكوم على قبرى الرسولين ، بهذا القدر ، حتى أن كاهنين عينا لجمعها ، وكانا ، يجرفان الأكداس ليلا ونهارا بالجاروف — سنة كاملة استمر هذا الفيض ، وزار خلالها روما ، ما يزيد على مليونين من الأنفس .

ولقد كانت هذه تجربة عظمى ناجحة ، فاقت فى نجاحها كل تصورات البابا بونفاس ، وعلى منواله نسج من أتى بعده حتى أن اكلمندس السادس جعل سنة اليوبيل كل خمسين سنة فقط(١٣٥٠) . أما أربان السادس (١٣٨٩) فجعلها كل ثلاثين عاما ، حتى إذا اتينا لبولس الثانى (١٤٧٥) نراه يجعلها كل خمسة وعشرين عاما لا أكثر — هنا نرى البابا ليو العاشر يتربع على عرش بطرس (١٥١٣) وكان سليل آل مديتشى ، وفيه كان يجرى مع الدم الملكى حب الفخفخة والظهور . وقد أدخل فى البلاط البابوى مظاهر العظمة التى اشتهرت بها أسرة دى مديتشى — وكان يعمل على إعداد تصميم كامل لنقوش وصور لجدران وسقف كنيسة القديس بطرس التى تضم الآن روائع مايكل أنجلو — من هنا كان بحاجة إلى المال الوفير .

صحيح أن البابا ليولم يكن أفضل من سالفيه فى الناحية الخلقية ، لكنه على الأقل ، كان أكثر رقة من يوليوس الثانى الدموى ، الذى أغرق أوربا فى المذابح البشرية .

نقول إن المشكلة الآن كانت المال . كيف يوفره لمشروعاته الباهظة ؟ وهداه تفكيره إلى تخفيض أسعار الغفرانات ، وجعلها ملكا مشاعا للجميع وسلعة تشترى فى أى وقت ، وتجارة يقوم بها باعة متجولون ، يوفرون على البعيدين مشقة السفر والحضور إلى روما .

وكانت هناك تسعيرة : الذنب الأكبر غفرانه بسعر أكبر .. التكفير عن الخطية المميتة له سعر يزيد عن سواها — الكذب والنصب والسرقة لها أسعار أقل — وليفعل الخاطىء ما يشاء فهناك صك مكتوب بإمضاء البابا نفسه يضمن غفران السماء .

وكان باعة الغفرانات ، وجميعهم من رجال الكنيسة ، يطوفون الطرقات بمواكب فخمة ومظاهر عظيمة وأمامهم مناد . فإذا وصل إلى مدينة ما ، يتجه إلى بيت الحاكم ، ويوجه إليه التحية « نعمة الله والآب المقدس عند أبوابك » . وتكفى هـــذه التحية لتلهب قلوب كبار المدينة وصغارها بالحماس ، وأحيانا كان يحدث اتفاق سرى بين بائع الغفرانات وبين الحاكم ، على أن يتقاسم معه الأرباح مقابل تشجيعه له وسرعان ما ترى الجموع وقد خرجت من كل مكان ، يحملون الشموع والرايات والشعارات كما فى الموالد الشعبية ، ويتقدمهم الضاربون على الطبول والدفوف . أما الموكب نفسه — فكان يضم الراهبات والرهبان وهم يهتفون : اشتروا اشتروا — والنواقيس تدق والكل فى فرح .

وكان مندوب البابا أو البائع ، يجلس بكل اللباس الكنسى الفاخر فى عربة ، وهو يحمل صليبا أحمر اللون ، وأمامه المرسوم البابوى للغفران على وسادة من قطيفة . حتى إذا وصل الموكب إلى كنيسة ما ، كان المندوب ينزل ، ويدخل الكنيسة ، وأمام المنبر ، يعدد فوائد صكوك الغفران ومنافعها الجمة — وفى يوم من الأيام وصل إلى ويتمبرج ، واحد من بائعى الغفرانات يدعى جون تتزل — وراح هذا يملأ المدينة صياحا . ويتناقل الناس عظاته « إن صكوك الغفران ، هى أثمن وأشرف هبات الله للبشر — تعالوا أعطيكم صكوكا صحيحة ، بها تضمنون غفران الخطايا ، حتى تلك التى تنوون ارتكابها — إننى لن أرضى بأن أستبدل امتيازاتى ، ببركات القديس بطرس نفسه فى السماء فقد خلصت بهذه الصكوك ، نفوسا أكثر من النفوس التى خلصها القديس بطرس بخدماته ... لا توجد خطية مهما عظمت ، لا تستطيع الغفرانات أن تكفر عنها . أيها الكاهن — أيها النبيل — أيتها الزوجة — الشاب — الشابة — تعالوا . إن غفراناتى لا تقف عند حد الأحياء فقط ، بل تتجاوزها إلى الموتى . ألا تسمعون أقرباءكم فى أعماق الهاوية يصرخون مستغيثين « إننا نتعذب ونقاسى أهوالا مرة . وفى إمكانكم إنقاذنا بشىء من الإحسان التافه — أيها الأغبياء وقساة القلوب ألا تدركون أنه فى نفس اللحظة التى ترن فيها نقودكم فى قاع الصندوق تنطلق النفس من المطهر وتطير حرة إلى السماء . إن الرب إلهنا قد سلم كل السلطان إلى البابا » .

ولم يطق لوثر السكوت على هذا الحال — فابتدأ يناشد الشعب الألمانى أن ينفض عن تلك الترهات . وكتب احتجاجا ضد بيع الغفرانات ضمنه

خمسا وتسعين حجة ، وعلق هذا الاحتجاج على باب كنيسة ويتمبرج — (عام ١٥١٧) .

يقول « ان الله وحده يمحو الخطايا — وهو يغفر للذين يتوبون توبة حقيقية دون حاجة إلى حل من إنسان — للكنيسة أن ترفع ما توقعه من جزاء . أما سلطانها فلا يتعدى الحاضر ، ولا يمكن أن يتناول ما بعد الموت من هو هذا الإنسان الذى يجرؤ على القول ، إن الخاطئ يستطيع الحصول على خلاص نفسه بحفنة من النقود ؟ إن كل مسيحى حقيقى يشترك فى بركات المسيح بنعمة الله ، بدون خطاب توصية من البابا ، أوصك غفران منه » .

وساد الإضطراب سكان المدينة وتناقل الجميع فحوى الاحتجاج ، كما أن الحجاج القادمين إلى ويتمبرج من أماكن بعيدة ، حملوا إلى كل مكان مضمون اعتراض لوثر . وقد قيل إنه فى أقل من أسبوعين ، وصلت أخبار هذا الاحتجاج إلى جميع سكان ألمانيا .

وهنا ثارت ثائرة روما — وانقلبت إلى مغارة تتصايح فيها الذئاب . فماذا يتبقى لهم ، لو ضاع منهم السلطان على الأحياء والأموات ؟ — أما لوثر فقد استمر فى طريقه ، يعمل فى هدوء فى كنيسة ويتمبرج ، حتى كان ربيع عام (١٥١٨) ، حينما عقد مجمع عام فى مدينة هيدلبرج للرهبان الأوغسطينيين ، ووجهت الدعوة إلى لوثر لحضوره .

وقد حاول أصدقاء لوثر منعه من الذهاب . لكن روحه الشجاعة أبت ذلك . وهناك سجل انتصاراً عظيما أمام دكاترة اللاهوت القادمين من أكثر من بلد ، وبهرهم بعلمه ومعرفته العميقة بالكتاب — ثم عاد إلى ويتمبرج فى حراسة أصدقائه .

هنا بدأ تتزل يتحرك للرد على هجوم لوثر ، مؤكدا سلطان البابا وسلطان مندوبيه من الكهنة ، لغفران كل الخطايا ، غفرانا كاملا أبديا ، الأمر الذى دفع لوثر إلى كتابة تفسيرات أو « قرارات » لبنوده الخمسة والتسعين ، يشرح فيها وجهة نظره ، مستشهدا بما ورد فى الكتاب المقدس .

غير أنه ما كان يهم تتزل أوغيره ، أن يكتب لوثر احتجاجا ، ويعلقه على باب كنيسة القصر فى ويتمبرج ، أو أن يقرأ هذا على الشعب لو لم يشعر بأن وراء اوثر من يسنده ويرعاه ، متمثلا فى شخص منتخب سكسونيا .وكان منتخب سكسونيا هذا، شخصية نبيلة راجحة الفكر ، وكان يريد صالح شعبه ، ولقد استحوذ لوثر على مشاعره . ويقال أنه رأى فى منامه ، أن قلم لوثر ظل يطول ويطول ، حتى وصل إلى القصر البابوى فى روما ، ولمس تاج البابا المثلث ، وأسقطه إلى الأرض . ومهما يكن من أمر ، كان منتخب سكسونيا أعقل من أن يسمح لتتزل وأمثاله ، أن يدخلوا مرة ثانية إلى البلاد — ثم بعد عام أو عامين من النقاش الحاد — إذا السماء تهيىء سندا متعلما للوثر — هو ، فيليب ملانكثون من جامعة توبنجتن . وقد انضم هذا إلى هيئة التدريس بجامعة وتمبرج ، وكان عالما فى العبرية واليونانية ، متأثراً بآراء إرازمس ، وقد أعجب هذا براهب ويتمبرج . وفى المشادات الجدلية الحامية التى كانت بين لوثر وأعدائه ، كان ملانكتون إلى جواره دائما ، وكان الإثنان سبب شهرة جامعة ويتمبرج الناشئة ، التى سرعان ما أوفدت إليها جموع الطلبة من كل مكان لكى يروا الراهب الجرىء الذى تحدى مندوب البابا ، والعالم الذى يسنده :

فى تلك الاثناء (١٥١٩). انتهت المعركة السياسية حول عرش ألمانيا ، بانتخاب شارل الخامس الذى أشرنا إليه فى الفصل السابق .

وبينما كانت الأحداث تجرى على مسرح السياسة ، كان العراك مستمراً بين لوثر والبابوية . وكان لهذا أثره فى أن يراجع لوثر معتقداته ، فى نور هذه الأحداث . لقد رأى أن معتقداته الأوغسطينية ، تشبه معتقدات ويكلف وهس ، اللذين أدانتهما الكنيسة ، حتى أنه كتب فى مذكراته « لقد كنت هسيا دون أن أعلم . وأعتقد أن بولس الرسول وأوغسطينوس كانا هسيين ! » .

الحقيقة أن «ويكليف» و«هس» و«لوثر» كانوا جميعا متأثرين بأعمال القديس أوغسطينوس ، وأن أفكارهم التى تبلورت ، هى التى عرفت فيما بعد باللاهوت الكلفينى .

حتى ذلك الحين ، كان لوثر يبعث إلى البابا بخطاباته بروح التأدب ، ويرى فيه الأب الروحى . . لكنه حينما اكتشف هذه الحقيقة ، بدأ الصراع السافر بينه وبين البابوية . فلا عصمة بعد فى البابا . . ألم يقف فى وجه ويكليف وهس ؟

ونظير هذين الشهيدين ماذا ينتظر بعد ؟ .

وهكذا كتب رسالتين ، ضمنهما نبذتين ، إحداهما موجهة إلى « نبلاء وأشراف الأمة الألمانية » (عام ١٥٢٠) . وقد ختمها متحديا البابا بالقول :

« يكفى كل هذا . لقد غنيت حتى الآن بنغمة مرتفعة . لكن لدى نغمة جديدة ، سوف تجعل آذان روما وأتباعها تصاب بالحكة . . أو تدركين ياعزيزتى روما ما أعنيه ؟

أما الثانية وهي النغمة الجديدة فكانت ضد روما ، وكانت بعنوان «السبي البابلي ليس للبابوية بل للكنيسة » . وفيها كرر هجومه على صكوك الغفران ، وعلى عصمة البابا ، ووصل الى حد القول ، إن البابامحتال دجال ، والبابوية مملكة بابل . أما أسرار الكنيسة فمن قال إنها سبعة ؟ إن العهد الجديد لا يتحدث إلا عن ثلاثة أسرار : المعمودية ، والتوبة ، والعشاء الرباني . ثم ختم الرسالة بالقول « إنني أعرف أن البابا يعد مرسوم حرماني معلناً أنني مارق هرطوقي . . فليضع ضمن أسبابه هذا المكتوب الذي أرسله إليه » !

وبينما كانت مطابع ألمانيا تخرج آلاف النسخ باللغتين اللاتينية لمتعلمي أوربا . والألمانية لعامة الشعب هناك ، كان البابا بالفعل قد أعد مرسوم الحرمان ، وأرسله على عجل إلى منتخب سكسونيا ، ليسلم الهرطوقي مارتن لوثر للكاردينال توماس كاجنان ، الذي كان قد تلقى تعليمات مسبقة من البابا ، بالحكم عليه بالموت حرقاً .

وأصبح الأمر الآن متوقفاً على موقف منتخب سكسونيا ، هل سينصاع لأوامر البابا ، أم يعارضها ! ! ؟ فعلى يديه يتوقف مصير لوثر . وكان هو وسكرتيره في بلاط الملك شارل ، بمناسبة تتويجه . أما لوثر وملانكثون ، فقد كانا على صلة دائمة بسكرتير المنتخب ، وقد كتب ملانكثون مستعطفاً السكرتير قائلاً : « إن رجلاً مثل لوثر ، يمكن أن نضعه ليس فوق مستوى رجال عصره فحسب ، بل فوق مستوى أوغسطينوس نفسه » . وفي نفس الوقت ، كان إرازمس في بلاط الملك شارل الخامس يبذل جهده من الجانب الآخر ، مع أمير سكسونيا ، للمحافظة على حياة الراهب المهدد .

أما المنتخب كما أسلفنا ، فقد كان إنساناً راجح الفكر ، يحب شعبه

ويرى أخطاء البابوية ويحاول أن يكون فى جانب الصواب . ودبر السكرتير مقابلة بين المنتخب وبين إرازمس ، وقال المنتخب لإرازمس « أريد أن أعرف رأيك صراحة فى لوثر » فكان جوابه « لقد ارتكب لوثر جريمتين : لقد صفع البابا على تاجه ولكز الرهبان فى بطونهم ! » وكانت هذه هى الحقيقة .

وتذكر المنتخب الرؤيا التى رآها : قلم لوثر الذى تطاول حتى أسقط تاج البابا . لقد كان البابا حقا صديقا لإرازمس ولكن هذا لم يمنعه من أن يقول كلمة الحق . أما الرهبان فقد كانوا من ألد أعدائه . فهم أعداء كل جديد وتجديد . وقبـــل أن ينتهى اللقاء ، كتب إرازمس بخط يده وثيقة يقول فيها ، إن سر عداوة الرهبان للعلم ، هى سر عداوتهم للوثر ، وأن محاولة لوثر نشر أفكاره ، هى بدافع طلب الخير لإخوته . وأنه لامطمع له ، وعلى أقل تقدير ، فإن عقائد وتصرفات أعدائه ، هى أكثر شرا . أما وثيقة البابا ، فكل إنسان شريف ، لابد وأن يرفضها إلا أن إرازمس لم يتردد ، فى أن يدين روح لوثر العنيفة ، وطلب من المنتخب أن يدعوه إلى الهدوء والحكمة .

وأخذ أمير سكسونيا برأى إرازمس . وكان فى تمسكه بلوثر محافظا على حياة راهب ويتمبرج ، ورادا لكيد أعدائه — لقد بدأ منذ تلك الساعة فى رعاية الراهب التأثر — ولو أنه أرسل إليه ينصحه بالهدوء والتعقل .

لكن نصيحة الأمير جاءت متأخرة — فلقد أراد لوثر أن يشهد العالم كله ، كيف أن راهباً صغيراً فى مدينة مغمورة فى ألمانيا ، استطاع أن يتحدى أكبر رأس فى الكنيسة المسيحية. كان المرسوم البابوى قد وصل إلى

لوثر ، فى العاشر من ديسمبر عام ١٥٢٠ ، ودبر لوثر موكبا من دكاترة جامعة ويتمبرج ، مع حشد كبير من أصدقائه ، حتى خرج بهم خارج المدينة ، وبجوار نهر ألب ، أشعل وثيقة خليفة الله على الأرض ، مع سلسلة من كتب القانون الكنسى ، التى كانت مقدسة لدى الكنيسة ، وذرى رمادها مع مياه النهر ، معلنا أمام حشود الشعب الألمانى الهاتفة ، أن ألمانيا ليست ذيلا للبابوية . ثم عاد وسط هتافات الشعب إلى بيته. ويبدو أن السماء أرادت إشعال هذه الشرارة ، لتندلع نار الإصلاح .

بهذه الصورة أصبح لوثر البوق الداعى إلى الإصلاح ، مهددا بالثورة إن لم يحدث هذا ، ولقد كان حقا يلعب بالنار . لكن مامن خطوة جريئة فى تاريخ الإنسانية ، إلا وكان رائدها القلب المتعب إلى جوار الرأى الراجح .

ولو كان لوثر قد انصاع إلى نصيحة المعتدلين ، أمثال إرازمس ، فلربما كان اسمه قد طوى فى صحائف التاريخ ، كرائد لانتفاضة لم يقدر لها النجاح ، شأنه شأن جيروم وهس .

اصلاح أم ثورة ؟ !

نعم كان لوثر يلعب بالنار حينما تحدى البابا — فمن الممكن أن الشرارة التى أشعلها تشعل الوقود المعد — لقد كان إرازمس على حق ، عندما عبر عن مخاوفه ، إذ رأى فى ألمانيا أرواحا ، أكثر وحشية واندفاعا من لوثر .

فليس بعيدا إلى الشمال من « ورمز » ، حيث كان أول استعداد لاجتماع الدايت الألمانى ، تحت حكم الإمبراطور شارل الخامس ،

كانت هناك قلعة ابنبرج ، حيث كان رئيسها فرانز ، قد جمع حوله نخبة من الرؤساء الثائرين — وكان فرانز نفسه واحداً من أولئك ، الذين يعتبرهم التاريخ بالنسبة لألمانيا ، فى مقام « روبن هود » الثائر فى تاريخ انجلترا :

هذا الفارس كانت مهمته الحرب ، بل كان الأمراء يؤجرونه مع رجاله ، للانتقام من أعدائهم . وكان من الأمور المؤكدة ، أن يقف إلى جانب لوثر . وكان أحد أصدقائه المقيمين معه « الريخ فون هاتن » ، فارسا نظيره ، يقلب نارى ، لكن سلاحه كان القلم لا السيف . لم يكن معلما نظير إرازمس ، ولكن الفاقة والمعاناة ، جعلته يغمس قلمه فى مداد الحقد والمرارة . وعلى نفس نمط إرازمس فى كتابه « الغباوة تمدح » استخدم السخرية المرة . ولقد قام بزيارة روما . واتخذ مباذلها مادة لأشعاره ، التى كان يكتبها باللاتينية ، ملقبا البابا بسيمون روما ، الذى يتدفق ذهب ألمانيا فى خزانته ، بينما أبناؤها من الفلاحين يتضورون جوعا . وحينما ظهر لوثر على مسرح التاريخ ، ألقى هاتون بكل ثقله فى المعركة إلى جواره . ولم تمنعه دموع أسرته ، وتوسلاتهم ، من أن يؤيد الراهب الثائر ، وكان فى أشعاره يقول : « الحرية لنا — ينبغى أن تنفصل ألمانيا عن روما » استمع إليه وهو يخاطب لوثر قائلا :

« ياخادم الله لاتخف ولا تيأس » .

« فها أنا إلى جوارك أمديدى إليك » .

« ولن أتراجع عن أغلى تضحية » .

« حتى ولو كان فيها بذل دمى » .

وفى عشية انعقاد مجلس « الدايت » ، نشر احتجاجه على « سلطان البابا الهمجى غير المسيحى ، الذى يستنزف دماء ألمانيا ، فى سبيل بذخه ، ومظاهره ، ومظالمه ، ولقد حان الوقت لنكسر عنا نير روما » (أ . هـ) ثم اتجه بالرجاء إلى الإمبراطور ، كقائد الأمة ورئيسها ، ليعجل بيوم الخلاص ، « أنشر شعار النسر الألمانى أيها الملك العظيم ونحن سنرفعه . وإن لم يفلح الصوت الهادىء ، فلدينا الجيش والسيف والعتاد » .

ويبدو أن هذه الصرخة الموجهة للإمبراطور ، كانت تتضمن معنىً آخر غير الصراع مع روما : كانت صرخة الفلاحين ضد مظالم الإقطاع ، وصرخة أمة مفككة ، تنادى بأنه قد آن الأوان ، لتصبح أمة واحدة ، شأنها شأن انجلترا وفرنسا .

وقد أثبتت الأحداث التى جاءت بعد ذلك ، صدق هذا التكهن — لقد كان صراع لوثر مع البابوية مظهرا واحدا ، من مظاهر بركان ، كان مكتوما حتى هذه الساعة، وها قد آن له الأوان لينطلق وينفجر ويقذف النار والحمم .

وقد أوصل لوثر الصراع إلى حافة الهوة .

وبقى لنا أن نتساءل ، هل سيضحى الإمبراطور بالشعب وبلوثر ، على مذبح صداقته للبابا ، أم أنه سيكون أكثر حكمة وتأييداً لشعبه ! ؟

نقول إن لوثر كان متشائما ، وكذلك إرازمس الذى قال « لا رجاء فى شارل . إنه محاط بالبابويين والسفسطائيين » .

لكن هاتن كان متفائلا جدّ التفاؤل . فإذا خضع الإمبراطور لمطالب الشعب ، حسنا يفعل ، وإلا ، فلا بديل عن الثورة والعنف ،

وسيبين خطاب العرش أمام الدايت فى أول انعقاد له ، السياسة التى سوف يسير عليها عاهل البلاد .

وكان جدول أعمال الدايت فى تلك الجلسة يتضمن العديد من المسائل ، ومنها « مناقشة كتابات الراهب مارتن لوثر ضد بلاط روما ، والتى يؤيدها منتخب سكسونيا وباقى الأمراء » وافتتح المجلس فى أواخر يناير (١٥٢١) . وبينما كان فى آخر مناقشاته بخصوص بعض الأمور السياسية ، إذا بالإمبراطور يتلقى قراراً من روما ، ويقرأ هذا القرار على الأعضاء ، بضرورة سرعة اتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة ، بحق سلطانه ، ضد الراهب المارق مارتن لوثر .

لقد أتيحت الفرصة الآن للإمبراطور ، الذى أمر بإحراق مؤلفات لوثر فى الأراضى المنخفضة (هولندا) ، أن يظهر هنا أيضاً سلطانه فى ألمانيا ، كالمدافع عن وحدة الكنيسة ، وحامى حماها ضد البدع والهرطقات ، ألا يقول البابا له : « هل تحمل السيف عبثا ؟ وما فائدته إن لم تستخدمه ضد المبتدعين الذين هم أكثر شرا من الكفار ؟ » .

وظهر خطيب بابوى مفوه فى يوم لاحق ، وقف يخطب تسع ساعات فى مجلس الدايت ضد لوثر ، مبينا أن ترك الحبل على الغارب لمثل هؤلاء الهراطقة ، ستكون نهايته العودة بألمانيا ، إلى عهد البربرية والوثنية ، وإثارة روح البلبلة والصراع — ثم ختم خطابه ، بأن يقوم المجلس برئاسة الإمبراطور ، بإصدار حكم الهرطقة عليه غيابيا .

وتصل الأخبار إلى « هاتن » فى القلعة ، ويغــلى الدم فى عروقه ويرسل إلى الإمبراطو رسالة من نار يقول فيها .

ماذا ؟ هل هذا ما استحقته منك ألمانيا ، أن تهوى بها إلى الحضيض وتجعلها تركع عند أقدام روما ؟ هل حرصا منك تفعل هذا ؟ قدنا إلى المعركة — النار — دع كل الأمم تتحد ضدنا ، وكل الشعوب تثور علينا ، حتى نثبت للعالم معدننا فى ساعة الخطر .

وأرسل أيضاً خطابات مماثلة إلى أعضاء المجلس .

وكانت نتيجة ذلك ، أن اتخذ الأعضاء قرارا ، بأنه « من العار أن يحكم على إنسان ، دون أن يسمع منه أى دفاع . وأنه لكرامة الإمبراطور لو تنازل لوثر عن تصرفاته الخاطئة ، فمن الممكن مناقشة أفكاره العلمية مناقشة موضوعية . أما من جهة خضوع البلاد لروما وطغيانها ، فإن هذا يتعارض مع سلطان الإمبراطور » .

ووافق شارل على رأى المجلس ، وفى ٦ مارس أصدر قراراً بالتئام مجمع ورمز ، لمناقشة آراء لوثر ، مع إعطاء كافة الضمانات بالحفاظ على حياته .

وفى صباح ٢ ابريل (١٥٢١) ، وصل رسول الإمبراطور ليصطحب لوثر إلى ورمز . وقبل أن نعرض لأحداث هذا المجمع ، يجمل بنا أن نقدم صورة عن نفسية لوثر فى هذه الحقبة الحرجة .

أما كونه قد ترك ويتمبرج ، وهو مصمم على الصراع ضد البابا إلى النهاية ، فهذا يتضح من أصول كتاب تركه ، ليقوم أحد أصدقائه بإصداره أثناء غيابه ، وفيه عديد من اللوحات المعبرة .

والكتاب على حد تعبيره ، نافع للعلمانيين ، وفيه يضع مقارنة بين

المسيح وبين البابا — فى صورة منها نرى المسيح يرفض التاج ، ومقابلها صورة البابا بتاجه البابوى .

وفى صورة ثانية نرى المسيح فى ردائه الأرجوانى ، وعلى رأسه إكليل الشوك ، ومقابلها البابا على العرش بكل مظاهر العظمة البابوية — وفى ثالثة نرى المسيح يغسل أقدام تلاميذه ، وتقابلها صورة البابا وقد مد قدمه ، ليقبل رجال البلاط إصبع القدم .

وفى رابعة نرى المسيح تحت ثقل صليبه ، ويقابلها البابا محمولا على الأعناق — وفى خامسة نرى المسيح يطرد الباعة من الهيكل ، يقابلها البابا يبيع الغفرانات وأمامه أكداس مكدسة من الذهب .

وفى سادسة نرى المسيح يدخل أورشليم راكبا على أتان ، يقابلها دخول البابا إلى روما فى محفله العظيم .

وآخر صورة من هذه الصور ، تصور المسيح صاعدا على جبل الزيتون ، ويقابلها البابا فى لباسه الفاخر ، والأبالسة والشياطين تهوى به إلى قرار الجحيم ، وحوله النيران تندلع . هذا الكتاب الذى تركه كما أشرنا فى يدى صديق له ، وواحد من كبار الفنانين الألمان ، ليشرف على إصداره ، يرينا روح التحدى ، التى غادر بها لوثر ويتمبرج . لكن وراء هذه الروح ، كان إحساسه ويقينه بأنه إنما يعارك معركة الله ، ويصارع صراع الحق . قال لصديقه ملانكثون أثناء افتراقه « إن لم يقدر لى أن أعود ياعزيزى ، وإن نجح الأعداء فى إنهاء حياتى ، فإنى أترك المشعل بين يديك ، بقلب مطمئن » .

ووسط دموع أصدقائه ، دخل العربة المغلقة ، وبدأ رحلته التى استغرقت اثنى عشر يوما .

كثيرون من أصدقائه كانوا يعتقدون أنه راحل لنهايته — فى وسط الطريق كان هناك كاهن من أصدقائه ، يعلق فوق جدار غرفته صورة سافونا رولا . وحين مرت عربة لوثر ، أخذ الصورة ورفعها فى صمت أمام عينيه ، وهو يقول : « قف ثابتا فى الحق الذى ناديت به ، وسيقف الله إلى جوارك » .

وحينما وصلت العربة ، كانت الجماهير تستقبله استقبالا حماسيا — وذات مرة اعتلى منبر كنيسة أحد الأديرة ، وراح يعظ بكل جسارة — وفى أخرى راحت الجموع تردد فى شبيه لصلوات القداس اللاتينى ، قداسا ساخراً من نوع آخر ضد البابا وطغمته .

« يارب ارحمنا .

« من الجالس على عرش البابوية .

« من جشع بابا روما .

« من مؤامرات أعداء الحق .

« يارب خلصنا .

« ليكون لوثر عامود الإيمان .

« شاهداً أمينا لك .

« وليصل إلى ورمز ويرجع بسلام .

« يارب اسمعنا .

وحينما وصلت إلى مسامع الحزب البابوى أنباء الحماس الذى استقبل به لوثر فى الطريق امتلأ الجميع قلقا وخوفا من الشعب — وأرسل شارل إليه مندوبين يطلبون منه شيئا من التنازل والاعتذار للبابا، وتسوية الموقف دون إثارة المشاكل. غير أن لوثر أصر على عرض قضيته أمام المجمع. وحينما حاول البعض أن يثنيه عن عزمه ، مذكرا إياه بمصير « هس » ، كان جوابه الجرىء « لقد أحرقوا هس ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحرقوا الحق » . ثم كتب فى مذكراته بعد ذلك يقول : « لقد كان إبليس يعرف أننى لن أتراجع ، حتى ولو تكدست الشياطين كلها فى ورمز ، بعدد قطع القرميد التى على أسطح المنازل » .

وإذ اقترب من المدينة ، تقدمت كوكبة من الفرسان ، على رأس مجموعة من الحرس لحراسته ، وأحاطت بالعربة المغلقة ، بينما تكأكأت الجماهير من الخلف تتبع الموكب ، وكان منتخب سكسونيا ، قد أرسل هذا الحرس لحراسته .

وفى صبيحة اليوم التالى ، مثل لوثر أمام المجمع ، وكان يضم بعضاً من المنتخبين وعدداً من رؤساء الأساقفة والأساقفة والنبلاء ، كان عددهم يزيد على المائتين وعلى رأسهم الإمبراطور .

ووقف المدعى أمام منضدة تكدست عليها كتب لوثر ، وأشار إليها وقال موجها الكلام إليه : « هل تعترف بأن هذه كتاباتك ؟ وهل أنت على استعداد أن تسحب التعاليم الهرطوقية التى تحتويها ؟ » فأجاب لوثر : « أما عن الكتب فهى كتاباتى ، ولا أنكر ذلك ، أما الإجابة عن السؤال الثانى ، فهى تحتاج إلى مهلة للتفكير » . فتفاءل الحزب البابوى ، إذ كان أعضاؤه يتوقعون أن يزمجر لوثر كالأسد ، لكن ها هو يبدو أمامهم

كالحمل ، ويطلب مهلة للتفكير . ولعله يفكر فى التراجع والاستغفار . وأعيد لوثر إلى الفندق الذى يأويه . ولكننا نعرف قراره سلفا من خطاب كان قد أرسله إلى صديق له ، يقول فيه :

« لقد أجبت بالإيجاب عن كتبى . وسأتحدث غدا عن عقائدى ، وبنعمة المسيح لن أتراجع عن واحدة منها » .

فى ذلك المساء ، سمعت أصوات شجار فى الشوارع بالقرب من الفندق ، وقامت الشرطة بتفريق الجموع . أما لوثر فقد كان فى غرفته وأمامه كتابه المفتوح ، وهو فى نوع آخر من الصراع . لقد كان يصلى بصوت مرتفع ، وجميل أن يحفظ لنا التاريخ صلاته فى تلك الساعات الحرجة ، وفيها يقول :

« أيها الإله السرمدى ، ما أقسى هذا الوجود ، أنظر ، إنه يفتح فاه ليبتلعنى ، وأنا مسكين — ما أضعف الجسد ، وما أقوى الشيطان. قد أتت ساعتى ، والحكم صدر على مسبقا . يا إلهى ، أعننى . أرجوك أن تفعل هذا ، لأن القضية ليست قضيتى ، بل قضيتك وهى قضية عادلة — أيها الإله الأمين ، إنى لا أضع ثقتى فى إنسان — وباطلا أفعل — إن كل من يفعل ذلك مصيره الفشل . يا إلهى ! ! أتسمعنى ؟ لماذا تختبىء فى يوم الشر ؟ — لقد اخترتنى أنت للعمل — قف بجانبى من أجل خاطر حبيبك يسوع » . . . .

« أيها الرب إلهى ، إننى على استعداد أن أبذل نفسى فى سبيل حقك لن أتركك ، ولن أدعك تتركنى — ولو امتلأ العالم بالشياطين — ولو حترق جسمى — ولو ذبحونى ذبحاً . . . وطرحونى للأرض ومزقونى

إرباً ، ولو احترق جسدى حتى صار رماداً ، تبقىنفسى لك — وتسكن معك إلى أبد الآبدين » .

وجاء اليوم التالى ، ووقف لوثر مرة ثانية أمام أعضاء المجمع ، وهتف المدعى « مارتن لوثر — لقد اعترفت بالأمس بأنك صاحب هذه الكتب ، هل أنت مستعد اسحبها أم لا ؟ وهل تدافع عنها كلها أم تتنازل عن بعضها ؟ » .

ويبدو أن الموقف فى البداية تغلب على لوثر ، فابتدأ بالتحيات الكثيرة للمجتمعين ، غير أنه سرعان ماعاد إلى رباطة جأشه ، وبدأ يتحدث عن كتبه .

« هناك الكتب التى تحدثت فيها عن الأخلاقيات وبنود الإيمان ، وهذه يمتدحها حتى الأعداء — فكيف أسحب مثل هذه ! ؟ »

« وهناك الكتب ضد البابوية ، وعقائدها ، وممارساتها ، التى أرهقت المسيحية وحطمتها ، جسدا ، وروحا . فى هذا لايختلف إثنان لأنه اختبار الجميع ، وموضوع شكوى الجميع ، والجميع يشهدون أن قوانين البابا ، وتعاليم رجاله قد أرهقت ضمائر الشعب ، وامتصت دماء أمة عظيمة مثل ألمانيا — فإذا سحبت مثل هذه الكتابات ، فكأنى أشجع الظلم والطغيان ، وأزيد النير ثقلا على أكتافنا ، وأكون مذنبا فى حق إخوتى » .

« أما النوع الثالث ، فقد كتبته ضد أشخاص ساندوا الظلم والطغيان ، وظنوا أن فى خدمتهم للبابوية خدمة لله — وأنا لا أقول إننى منزه عن الخطأ ، ولكنى لا أدافع عن نفسى بل عن عقيدة المسيح . لذلك فإنى

أقول ، إننى لاأستطيع أن أسحب واحدا من كتبى هذه ، وإنى على استعداد أمامكم ، أن أجادل أى شخص يظهر لى ، فى أى واحد منها ، أننى جانبت الصواب » . فى هذه اللحظة توقف لوثر عن الكلام ، فقد أرهقه سهره بالأمس ، وراح العرق يتصبب من جبينه . ولقد كان يتكلم باللغة الألمانية ، التى ما كان يعرفها الملك نصف الألمانى ، ولا الأساقفة القادمون من بعيد . فانحنى عليه منتخب سكسونيا ، وطلب منه إعادة الخطاب باللاتينية . وما أن فعل ذلك ، وعرف المجتمعون فحواه ، حتى علت صيحات الغضب ، وعاد المدعى يهتف له . لم نأتِ إلى هنا لمناقشة آراء — إننا نسألك سؤالا واحدا ، هل تسحب كتبك أم لا ؟ — وجاء الجواب القاطع — إنى لا أستطيع أن أسحب أقوالى ، لأنه من الخطر أن يتكلم المسيحى ضد ضميره — هذا هو موقفى ، ولا أستطيع ان أفعل غير ذلك . فليكن الله معينا لى . آمين » .

وانسحب الجميع لراحة الليل ؛ فى انتظار ، قرار الامبراطور . وجاء القرار فى اليوم التالى ، بأن لوثر سترفع عنه الحصانة الكهنوتية ، ويطرد من الخدمة باعتباره شخصاً له مبادئ هرطوقية « وبصفتى سليل أباطرة ألمانيا ، وأمراء النمسا وبرغنديا ، الذين اشتهروا بحماية الإيمان الكاثوليكى . . سوف أطرد لوثر الأوغسطينى ، وأحرم عليه أن يتسبب فى أقل اضطراب بين الشعب . وسأطارده وأتباعه كهراطقة ، جديرين بالحرم ، وبكل وسيلة تؤدى لهلاكهم . . وإنى أطلب من الأمراء ، أن يؤيدونى فى هذا ».وعلت همهمات التذمر من البابويين قائلين : « إن نهر الراين ينبغى أن يجرف رماده ، كما ابتلع رماد جون هس . لكن الأمراء لم يوافقوا على هذا الإقتراح ، وعارضوه بشده . فى نفس الوقت وصلت الأنباء إلى قلعة فرانز . . وثار هاتن ، وفى الليل ، علقت فى ساحة المدينة لوحة كتب عليها : « إن أربعمائة

فارس ألمانى ، وثمانية آلاف مقاتل، مستعدون للدفاع عن لوثر ضد الحزب البابوى » . . وتضاربت الشائعات أيضا ؛ عن تحركات جماعية من أقصى حدود الولايات الألمانية ، على استعداد للهجوم على مدينة ورمز الأثرية وانقاذ لوثر .

وتحت تأثير هذه الشائعات ، اضطر الإمبراطور إلى التراجع ، وأعطى مهلة للراهب الثائر ، بالإنسحاب إلى بلده ويتمبرج ، فى مدى ثلاثة أسابيع . .

ونزل لوثر إلى شوارع ورمز نزول الأبطال ، واستقبلته الجموع بالهتاف ، فلقد حارب ليس معركة فرد ، بل معركة أمة ، ودافع ليس عن مصيره فقط ، وإنما عن مصير المسيحية جمعاء . .

ولم يجد البابا من وسيلة سوى الإغتيال ، والمؤامرات ، وبلغ مسامع أصدقاء لوثر ، أنه فى طريق عودته ، سوف تمزقه خناجر البابويين . . وقد حدث بالفعل ما كان يتوقعه الجميع — لكن بصورة أخرى . . فنى الطريق ، اعترضت مركبة لوثر عصابة من « قطاع الطرق » ، وهجمت على عربة المصلح .

فثارت الشائعات بأن روما قد حققت هدفها ، وأن لوثر قد وقع أخيرا فى قبضة أعدائه . وأنه ربما يلاقى نفس المصير ، الذى لاقاه هس منذ قرن من الزمان .

غير أن تلك العصابة ، لم تكن غير جماعة من الفرسان من أصدقائه ، أتنكروا فى زى اللصوص ، واختطفوه إلى قلعة وارتبرج لحمايته من عدائه .

وهذه القلعة التى دعاها لوثر بجزيرة بطمس ، كانت قلعة منيعة على جبل شامخ ، تطل على مدينة الزناخ ، المدينة التى نشأ فيها أولا . ولكى لا تثار الشبهات حول وجوده ، خلعوا عنه الثوب الكهنوتى ، وألزموه بأن يطلق شعره ولحيته ، وأعطى لقب « الشريف جورج » تلك كانت حالة من التغيير الكلى فى حياة الراهب الثائر ، حتى أن جسده أصابته العلل ، وعقله أصابه الملل .

وفى رسائله ومذكراته التى كتبها فى هذه الفترة نجده يشكو مر الشكوى من حالات الخمول التى بدأت تسيطر عليه ، بسبب الأطعمة الفاخرة التى كانت تقدم له . غير أن هذه الفترة لم تضع عبثاً ، وإن كان قد حرم من منبر كنيسة ويتمبرج ، إلا أنه وجد أمامه منبر الكتابة . وفى عزلته الإضطرارية هذه ، أتم أجمل وأقوى كتاباته ، التى خلدت اسمه على مر الأجيال ، وكانت الوقود الحقيقى لنيران الإصلاح ، ونعنى بها ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية . ففى صيف عام (١٥٢١) ، انتهى من ترجمة العهد الجديد ، كما بذل جهدا فى دراسة اللغة العبرية ، حتى يتسنى له إتمام ترجمة باقى الكتاب .

وفى عام (١٥٢٢) ، نشرت الترجمة الألمانية ، بعد مراجعة ملانكثون لها . ويكفى أن يقول فيها دوبنييه : « لقد كتبت فى نفس الأسلوب الأصلى ، وبلغة قوية شابة ، فكانت مشوقة وجذابة لكافة الأذهان ، من أدناها إلى أسماها » . بل إن المؤرخ البابوى ميمبورج ، اعترف بأن « ترجمة لوثر » كانت فى غاية الرشاقة وجمال الأسلوب ، حتى قرأها كل إنسان فى ألمانيا ، وإن نساء من أرقى الطبقات وأشهرها ، كن يدرسن هذه الترجمة بشغف ، ويدافعن عن تعاليم المصلح ضد الأساقفة والرهبان » .

ولم تنقض عشر سنوات حتى كان العهد الجديد ، قد طبع فى أكثر من مدينة سبعاً وخمسين طبعة ، أما العهد القديم ، فقد انتهى لوثر من ترجمته فى عام (١٥٣٠) ، وبعد ذلك نشر الكتاب كله بعهديه القديم والجديد .

نعود إلى الحزب البابوى فنقول ، إنه بعد التهديد الذى نالوه على أيدى فرانز وهاتن ، وانقضاء عدة أسابيع دون أن يحدث شىء ، ابتدأ أعضاؤه يفيقون من الصدمة ، وراحوا يلحون على شارل الخامس ، بأن يسرع بإصدار المرسوم النهائى ضد لوثر وجماعته . ورأى منتخب سكسونيا أن الريح لم تعد مواتية ، وأن شارل قد انحاز نهائياً للحزب ، فكتب إلى أخيه يقول : « إنه ليس حنان وقيافا فقط ، بل بيلاطس وهيردوس أيضاً ، قد اتحدا ضد لوثر » . ولقد نجح المندوب البابوى فى الثامن من مايو عام (١٥٢١) ، فى أن يعقد بين البابا ، والإمبراطور ، معاهدة صداقة ودفاع مشترك ، فيها تعهد البابا ببذل أقصى جهــده ، لطرد الفرنسيين من ميلان وجنوا ، مقابل مجهودات شارل لسحق لوثر وعصابته .

وبقى على المندوب صياغة المرسوم ضد لوثر ، وموافقة المنتخبين أو الأمراء عليه . وكتب المرسوم على عجل ، وبعد بيان مشوش للأخطار الدينية ، والسياسية ، التى تتعرض لها البلاد بسبب لوثر ، والتى ظهرت بوادرها فى روح التمرد ، والثورة ، والحماسة ، التى سادت فى أكثر من مكان ، والتى تهدد مصالح الأمراء أنفسهم ، بتمرد أتباعهم من الفلاحين عليهم ، اضطر الأمراء إلى الموافقة على المرسوم البابوى . أما منتخب سكسونيا ، فلما لم يجد أدنى جدوى من مجهوداته ، غادر ورمز عائدا إلى دوقيته .

وفى هذا كتب ولرز سكرتير الإمبراطور ، لصديق له فى أسبانيا .
« وهكذا أسدل الستار على هذه المأساة . ولكنى أقول إنها ليست النهاية ، بل البداية ، لأنى أرى نفسية الألمان ، فى ثورة عارمة ضد البابا ورجاله ويبدو وكأنهم لا يعيرون أى التفات لقرار الإمبراطور ، لأنه بعد صدوره ازدادت كتب لوثر بيعاً ، حتى أنك لتجد البائعين يقفون عارضين كتبه فى زوايا الشوارع والأسواق . لذلك تستطيع أن تخمن ما سيحدث ، لو ترك الإمبراطور البلاد ، لتسوية المشاكل فى أسبانيا .

« ولقد كان ممكناً تلافى الحالة بشىء من الحكمة ، ولكن مادام البابا يصر على حرق لوثر وكتاباته ، فإنى أرى المجتمع المسيحى كله فى خطر الإنهيار ، إلا إذا تداركتنا رحمة الله » .

ولقد انتصر البابا وحزبه ، وأصبح الإمبراطور شارل فى صفه . وبينما راح البابا يجند القوى لطرد الفرنسيين من ميلان وجنوا ، راح شارل فى نفس الوقت يجند القوى لتنفيذ قرار حرمان لوثر وطرده . لقد فضل الإمبراطور مصالحه ومصالح البابا ، على مصلحة الشعب الألمانى ، وكما قال إرازمس : «إن البابا والأمراء ، يعاملون الشعب وكأنه قطيع فى سوق الماشية » . لقد وقف هنرى الثامن ملك انجلترا ، ضد جماعة الإصلاح فى أكسفورد كما أسلفنا ، ووقف شارل الخامس ملك ألمانيا ، فى وجه لوثر وجماعة الإصلاح هناك .

ولم يبق من بديل إلا الثورة .

الثورة ... الثورة !

منذ ذلك الحين — (عام ١٥٢٠) وتعاليم لوثر تشق طريقها فى كافة أرجاء ألمانيا . كثيرون من الرهبان من زملائه الأوغسطينيين ، وغيرهم ،

هجروا الأديرة ، منادين بما ينادى به لوثر . وكثيرون أيضاً من كهنة الأبروشيات ، أصبحوا لوثريين ، وتبعتهم كنائسهم كذلك . حتى الأساقفة اعتنق كثيرون منهم التعاليم الجديدة . وحيثما لم يوجد رجال كنيسة ، طاف الشباب والكتاب فى أيديهم ، منادين فى القرى بإنجيل الخلاص . بل حتى أتباع المذهب الإنسانى (Humanism) ، وجدبينهم مفكرون ، رأوا فى « مسيحية لوثر » ، شيئاً يستحق التقدير . وقدمت لوحات مبسطة ، وتعاليم على لوحات ، لمن فاتهم حظ التعليم . أما « الأخوة » الذين تأثروا من قبل بتعاليم هس واعتنقوها ، فقد قابلوا اللوثرية بحماس بالغ .

وانتشرت اللوثرية انتشاراً واسعاً . إنها كانت حركة انتعاشية للمسيحية . لقد كانت فى لوثر ، طاقة لا تنضب من الحياة الروحية ، على الرغم من أخطائه . ومن كنزه ، كان يخرج ما هو جديد جدة الحياة ، وما هو قديم قدم الحق المسيحى . وفى تعليمه عن كهنوت جميع المؤمنين فى المسيح ، حرر الناس من عبودية الكهنوت ، وفى تعليمه ببطلان الإعتراف للكاهن ، ونوال الغفران منه ، والإعتراف للرب وحده ، بالخطية ، قدم للناس تعليما أفضل . أما سكان المدن الحرة ، حيث تقل الكنائس والكهنة ، فقد كانت استجابتهم أقوى وأعمق ، لأن القوى المضادة هناك كانت أقل . وكم كان جميلا أن تظهر آثار مجهودات لوثر ، فيستطيع كل إنسان أن تكون له علاقة شخصية مع إلهه ، دون عون من كاهن . ويستطيع أن يصل إلى إدراك كلمة الله ، دون حاجة لأن يسأل رجل الكنيسة . ويستطيع أن يقرأ الكتاب فى لغته ، بديلا عن لغة ميتة لا تفهمها عامة الشعب .

وبينما كانت كلمة الحق تنتشر لم يقف البابا ساكناً . لكنه كان يعمل عن طريق عملائه ، لبث الفرقة بين صفوف الأمراء الألمان ، وقدساعدته

الظروف على ذلك ، كما سنعرض لذلك فيما بعد ، فانقسم الأمراء إلى فريقين أحدهما مؤيد والآخر معارض للحركة اللوثرية .

وكم كانت دهشة الحزب البابوى ، حينما رأى الناس لا يهتمون كثيراً بقرار الإمبراطور . لقد سبى لوثر قلوبهم بجرأته النادرة ، ولحق قرار الإمبراطور بمرسوم البابا الأسبق . أما أعوان الإمبراطور ، فقد كانوا يجتهدون فى مصادرة كتب لوثر وإحراقها أينما وجدت . ولكن هذا أدى إلى زيادة انتشارها . على أن شيئاً آخر لم يحسب له البابويون حساباً : لقد أسكتوا لوثر على ما يبدو . وسواء كان آمناً فى قلب قلعة دار تبرج ، أو كان يكتب هناك ، فالمهم أنه اختفى من أمام عيون الشعب ، فلم يعد يهز المنابر والقلوب بعد . لكن سقوط الشعلة من يدى لوثر فى تلك الفترة ، لم يمنع من أن تتلقفها أيد أخرى أكثر شراسة ووحشية . وحين انزوى عن الأنظار ، برزت إلى خشبة المسرح شخصيات ، أقل ما يقال فيها ، إنها تفكر بمنطق الرعاع — فى تلك الفترة الحرجة ، إذ راح كثير من الرهبان يثورون ويحطمون الأديرة ، وينخرطون فى سلك الأعمال التجارية . بينما تمرد الشعب ، وراح يحطم الصور والتماثيل ، وينهب مقدسات الكنائس ، وظهرت جماعات تنادى بنبوات ، وتقود الجماهير بتعاليم غريبة — ووقعت اعتداءات على الكهنة ورجال الدين ومطاردة للرهبان — وفى « زويكاو » ، بالقرب من حدود بوهيميا ، ظهر نساج يدعى كلاوس ستورخ ، خيل إليه مع جماعة من أصحابه ، أن رسائل السماء تصلهم ، وأن وحياً يهبط عليهم — فما الداعى إلى الكهنة وهم الأنبياء ؟ وما لزوم الكتاب المقدس والوحى ينزل عليهم ؟ وهكذا ، جالوا بين الناس ، يحرضون الجموع على ارتكاب أعمال وحشية .

وطاردتهم السلطات من زويكاو ، فوصـــل شتات منهم إلى ويتمبرج ، حيث كانت الجموع فى غاية التحمس ، تحت زعامة قائد يدعى كارلستاد .

وكارلستاد نفسه انساق فى تيارهم . وحصلت ثورات ومؤامرات — واندفعت الجماهير الطائشة فى ارتكاب أعمال العنف . حتى ملانكثون نفسه كاد يصدق رسالة هذه الجماعات ، على الرغم من أنهم كانوا ينادون ببطلان العلم الجسدى ، والدراسة فى الجامعات ! !

وعندما بلغت هذه الأنباء المؤسفة مسامع راهب ويتمبرج ؛ القابع فى القلعة فى ثيابه التنكرية ، وعلم بهذه التصرفات الضارة والمميتة لحركة الإصلاح ، اعتبرها وصمة عار فى جبينها . وعلى الرغم من الأخطار التى كانت تحيق به ، إذا به يطرح فى شجاعة ثياب التنكر ، ويغادر حصنه ، ويظهر على منبره القديم فى ويتمبرج ، داعياً شعبه إلى الهدوء والسكينة ، مبيناً لهم ، كيف أنه لم يستخدم العنف يوماً ولم يناد به ، وأن إنجيل المسيح ، سوف يعمل عمله فى تغيير كل الظروف ، دونما حاجة إلى استخدام القوة . فهدأت الجموع وانصاعت لنصائحه . أما قادة العنف ، فجاءوا إليه ، متوقعين منه أن يؤيد رسالتهم . غير أن لوثر أكد لهم أنه لا يشك لحظة ، فى أنهم مخلصون ، ولكنه يخشى أن يكون إخلاصهم مبنياً على أساس خاطىء ، فعاد النظام مرة أخرى إلى ويتمبرج ، وعاد الكتاب المقدس إلى أيدى الناس ، القانون الأوحد للإيمان ، والمصدر الأوحد للعبادة والسلوك . أما « أنبياء » زويكاو ، فما لبثوا أن غادروا ويتمبرج إلى أماكن بعيدة عن محل إقامة لوثر — وبعد هذه الأحداث ، يظهر واحد من أتباع ستورخ ، إنسان ثائر باسم « منذر » ، وبدلا من أن

يذهب إلى ويتمبرج ، يرحل إلى بوهيميا ، وإلى حدود ألمانيا ، حيث ركز مناداته بين الطبقات الكادحة ، وقد عرف هناك بنبى الفلاحين . ورغم روحه الثائرة ، فإننا لا نستطيع إلا أن نقر بإخلاصه . لقد كان يعتقد فى نفسه أنه ملهم بوحى إلهى ، وكان ينادى بدعوته كنبى . وزيادة على ما نادى به لوثر ، كان يدعو إلى وجوب إلغاء اللغة اللاتينية من الخدمة الدينية ، وإحلال الألمانية مكانها . وكان ينادى باستخدام السيف حيث لا تجدى روح اللطف، ومن ذا الذى يلومه ؟ إن والده نفسه كان قد سقط ضحية صراع مع أحد رجال الإقطاع ، وهكذا اعتقد أن السماء قد أرسلته للانتقام ، لحقوق هذه الطبقة الكادحة . ومن مكان إلى مكان ، راح يتنقل منادياً بإنجيل الثورة ، إلى جوار إنجيل الإصلاح .

وفى نوفمبر عام (١٥٢٤) ، اندلعت نيران الثورة فى مقاطعة سوابيا ، حين طلب رجال الكونت « لوبفين » من الفلاحين فى يوم عطلة لهم ، أن يقوموا بجمع أصداف القواقع لسكان القلعة . وعندها ، ثار الفلاحون وتمردوا ، ولم تفلح كل الوسائل فى إقناعهم بالعودة لأعمالهم — وقدم الفلاحون قائمة بمطالبهم ، مكونة من اثنى عشر بندا ، أهمها التحرر من نير أسيادهم ، وحق اختيار الكهنة ، وعدم دفع العشور عن الأشياء الصغيرة كنتاج الماشية والدجاج — ولم تكن كل مطالبهم فى حدود طاقة الإقطاع لإجابتها . فحرية اختيار الكهنة ، معناها أنهم قد يختارون أى واحد من جماعة « أنبياء الله » الثائرة ، والتحرر من نير أسيادهم ، معناه اختلال ميزان العمل فى المزارع . أما العشور فنحن نتصور حرص رجال روما ، على الحصول على كل صغيرة وكبيرة باسم الدين .

ولما لم يكن من الحرب بد ، أرسل أمراء سوابيا قواتهم إلى الفلاحين

الثائرين الفقراء ، غير المدربين على القتال ، فى أبريل عام (١٥٢٥) ، فذبحوا منهم الألوف ، وألقوا بجثثهم فى النهر — وأثارت أنباء هذه المذبحة ، الفلاحين فى كافة أرجاء ألمانيا . . . فنى قلعة ونزبرج ، يبدو وكأن الكونت هافشتين رئيسها قد فقد اتزانه ، بسبب تلك الأحداث ، فظن جماعة من الفلاحين فى الطريق قادمة لاختطافه : فذبحهم بسيفه ، فكانت النتيجة أن الفلاحين ثاروا ، وحاصروا القلعة ، واستطاعوا اقتحامها ، وذبحوا كل من فيها ، حتى الكونتيسة وأطفالها الصغار ، وانطلقت صرخات الرعب فى أوربا — صرخات لم تنطلق ، عندما ذبح الألوف من فلاحى سوابيا . فما قيمة دم الفلاحين إزاء دماء النبلاء !؟ وما حياة أولئك بجوار حياة الأشراف ؟

وعلى الرغم مما قوبلت به ثورة الفلاحين ، التى امتدت إلى عدة مدن أخرى ، من عنف وقسوة — فإن الثورة استمرت وتزايدت . وانطلق « منذر » إلى ثورنجيا من مكان إلى مكان ، مثيرا ، ومشجعا ، ومواسيا — وتزعم ثورة قاسية فى مدينة ولهاوزين ، ناطقا بنبوات صارخة ، وويلات على الأعداء . ونظير ما فعله سافونارولا فى فلورنسا ، كان موقفه هكذا ، حتى أن نوعا من العدالة الاجتماعية ، بدأ يسود المنطقة ، وراح النبلاء يوزعون الطعام بأنفسهم على الفلاحين .

لكن «منذر» لم يكتف بذلك. فحين وصلته أخبار مذبحة سوابيا ، صرخ فى الفلاحين — « هيا اكسروا قيودكم . حاربوا حروب الرب ، لأن الوقت قد حان ، لاتشفقوا على أحد ، ثوروا فى المدن وفى الضواحى ، هيا إلى الأمام ، مادام السيف يقطر دما اقتلوا المنافقين المتكبرين ، فلن تنعموا بالحياة ، ما بقى واحد منهم على قيد الحياة» .

وجمع حوله ثمانية آلاف من الفلاحين ، لكن النهاية كانت قريبة — إذ هاجمه الأمراء بقواتهم المدربة ، ولقى خمسة آلاف فلاح مصرعهم وانتشرت جثثهم فى الوادى — أما « منذر » فقد هرب متخفيا ، لكنه سرعان ما اكتشف وقطعت رأسه .

وهكذا انتهت ثورة الفلاحين إلى الفشل ، وأخفقت ثورة أنبياء زويكاو ، وانتفاضة منذر وجماعته ، وأصبح على الفلاحين التعساء ، أن يقضوا قرنين أوثلاثة قرون من الزمان ،تحت سياط النبلاء والأشراف. ويقال إن مئة ألف قد هلكوا فى هذه الحروب ، أى ما يصل إلى عشرين ضعفا للذين أعدموا فى باريس أثناء الثورة الفرنسية — أما لوثر ، فقد وقف إلى جانب القوات الحاكمة . لقد كان مبدأه منذ البداية ، هو عدم استخدام العنف ضد السلطات . كما أن الإصلاح كان قد قام على أكتاف الأمراء . ولـكى يبرىء نفسه من شبهة وجود أية صلة بينه وبين ثورة الفلاحين ، كان نداؤه للأمراء ، « اسحقوهم بلا شفقة » . لقد كان الفلاحون يعتقدون أن لوثر سيكون ظهيرا لهم ، لأنه من أبناء الطبقة العاملة ، لكن خاب ظنهم — أما منذر وجماعته من أنبياء الثورة ، فلا غرابة أن يقف لوثر فى وجوههم . لقد كان يرى النهاية منذ البداية ، وحاول أن ينصحهم بالتحلى بروح الإتزان ، غير أنهم ازدادوا جنونا واندفاعا .

نقول إن أوربا مدينة بالكثير لزعيم الإصلاح فى ألمانيا ، بسبب عدم لجوئه للقوة فى الدفاع عن مبادئه ، وعدم استخدام العنف . لكننا لا يمكن ، ولا يمكن أيضاً للتاريخ أن يغتفر له ، دعوته للأمراء لسحق الفلاحين دون رحمة . ألم تكن ثورة الفلاحين إلى حد ما ، متأثرة باندفاعه ضد البابوية

فى بعض التصرفات ؟ إن منظر راهب ويتمبرج على رأس زملائه ، وقد أشعل النار فى مرسوم البابا ، وكتب القانون الكنسى ، لابد أنه ، كما لها أثرها — وهذا هو ما قاله إرازمس نفسه : « إن أوربا كلها ستغرق فى طوفان من الثورات العالمية » ولقد حدث هذا بالفعل . ترى من الملوم فى هذه الأحداث؟ لقد ألقى الرهبان باللوم على إرازمس ومدرسته الفكرية الجديدة ، وأنحى إرازمس باللائمة على لوثر ، وألقى لوثر اللوم على « أنبياء » الثورة ، فمن الملوم إذا ؟

إن أولئك جميعا لالوم عليهم ، فالذنب كان ذنب أولئك الاقطاعيين الجشعين ، الذين لم يقبلوا الأخذ بأسباب العدالة الإجتماعية ، وعلى البابا والإمبراطور ، والحزب البابوى ، الذين لم يأخذوا بأسباب الإصلاح وتضحيتهم بالمصلحة العامة فى سبيل مصالحهم الشخصية ، ومداهنتهم للبابوية ، كل هذه مجتمعة ، كانت العوامل التى أدت إلى ثورة الفلاحين ، وإلى المذابح الدموية التى هلك فيها الألوف . لكننا نقول إن أميراً واحداً على الأقل ، لم يكن ضد الفلاحين ، ذلكم هو منتخب سكسونيا ، الذى كان على فراش مرضه الأخير ، حينما وصلته أنباء الثورات ، فأرسل إلى أخيه ووريثه يقول : « إذا كان الفلاحون سيحكمون ، فلتكن مشيئة الله » ، وإلى خدمه الذين التفوا حوله قال ساعة موته : « يا أولادى الأعزاء ، إن كنت قد أسأت إلى واحد منكم ، سامحونى فى حق محبة الله . إننا نحن الأمراء ، كثيراً ما نتصرف نحو الفقراء تصرفات لاتليق » .

والآن دعونا نرى ماحل بالقوى العظمى ، التى تآمرت على لوثر ، وأبرمت معاهدة ورمز السرية ، التى بمقتضاها تعهد الإمبراطور شارل ، بطرد الفرنسيين من ميلان وجنوا .

وقد انضم هنرى الثامن ملك انجلترا ، إلى هذا الحلف ضد فرنسا . بتأثيرات وزيره الكاردنال ولسى . وكان هنرى يحلم بإعادة المناطق الفرنسية التى كانت خاضعة لانجلترا ، وكان ولسى يطمع فى أن يصبح ، خليفة لبطرس الرسول ، بعد البابا الذى كان جالسا على الكرسى آنذاك .

أما الجولة الأولى بين شارل الخامس وملك فرنسا ، فقد كانت فى الشمال ، ولم تسفر عن شىء . وفى نفس الوقت ، كانت قوات الحلفاء ، تتحرك ضد القوات الفرنسية فى شمال إيطاليا ـــ واستطاعت أن تدخل ميلان فى أواخر عام (١٥٢١) . لكن البابا ليو ، لم ينعم بثمار هذا النصر . إذ انتهت حياته بالسم ، فى أول ديسمبر من نفس العام . وتولى بعده أدريان السادس . الذى كان مربيا لشارل ،وكان معتدلا يرغب فى السلام ولو أن الظروف لم تكن فى صفه ـــ فلم يبقَ طويلا فى منصبه . لأنه مات بعد عامين ، وخلفه أكلمندس السابع .

فى تلك الأثناء ، ظن هنرى أن الريح فى صفه ، فهاجم بأسطوله سواحل فرنسا . لكنه لم يصل من غزوه إلى شىء ، سوى إثارة أحقاد فرانسز ، ملك فرنسا ، الذى جند كل جيشه ، وعبر الألب لتأديب هذا الحلف الثلاثى ، واستعادة ميلان . وقد اعتقد البابا ، أن النصر سيكون حليفه ، فعقد معه حلفا سريا . وانتهى الأمر بهزيمة ملك فرنسا وأسره ، لكن شارل علم بقصة الحلف السرى ، وقد أدى هذا إلى حدوث قطيعة بينه وبين البابا .

فإذا أتينا إلى المشاكل الدينية ، فإننا نجد مجمع سبيرز يلتئم ، ويطلب فيه البابا ، عن طريق قاصده الرسولى ، تنفيذ قرارات مجمع ورمز ، واتخاذ أقسى الإجراءات ضد لوثر وهرطقته وكان هذا مستحيلا ، فقد

تغيرت الظروف ، وأصبح حزب منتخب سكسونيا الجديد ، فى ملء قوته ، كما أن القطيعة بين الإمبراطور والبابا كان لها أثرها .

فلم يعد شارل الخامس يهتم بعد — بتأييد البابا الذى خانه مع ملك فرنسا ، وعقد معاهدة سرية معه . وهكذا انتهى مجمع سبيرز إلى القرار الآتى :

« بمقتضى قرار مجمع سبيرز ، تستطيع كل ولاية أودوقية ، أن تحيا وتحكم وتتصرف وتعتقد ، فى حدود مسؤليتها أمام الله والإمبراطور » .

وكان معنى هذا ، هو إطلاق الحريه السياسية والدينية . ومعناه أيضاً ، أن حزب لوثر والأمراء الذين إلى جانبه ، قد أصبحوا أحراراً فى التصرف كما يرون . ومنذ صدور هذا القرار ، انقسمت ألمانيا قسمين ، جانب يمالىء البابا ، والآخر يناصر لوثر ، ويدين بمبادىء الإصلاح .

والخطوة التالية جاءت من جانب الإمارات والدويلات التى كانت تناصر اللوثرية . فقد عزمت على اتخاذ خطوة إيجابية لتأديب البابا ، وإيقافه عند حده — وتحت إمرة قائد متعصب ، يعرف باسم فرندزبرج ، التأم جيش ألمانى جرار ، يدين بمبادىء اللوثرية ، من بقايا ضحايا ثورة الفلاحين ، يلهبه الحقد والحماسة ، وتغذيه روح الإنتقام . أما شعار قائد الجيش فكان : « سوف أذهب إلى روما لأشنق البابا ! » .

وعبر الجيش المتحمس جبال الألب ، من معابر سرية ، تقل فيها الحراسة ، وهبط إلى سهول لومبارديا ، حيث انضم إليه جيش أسبانيه (١٥٢٧) .

ولم تمض أسابيع ، حتى كان الجيش المتحد ، الذى يبلغ قوامه عشرين ألف مقاتل ، يدق أبواب روما . واستطاع الجند بالمعاول والتسلق ،

أن يفتحوا ثغرة فى الجدار المنيع ، ويصلوا إلى الداخل . ومع أن المدافع كانت مصوبة إلى صدورهم ، إلا أنه لم يفقد منهم ، أكثر من أربعة آلاف مقاتل — أما البابا ، والكرادلة ، والأساقفة ، فقد هربوا وتحصنوا فى قلعة سان أنجيلو ، تاركين القصر البابوى بتحفه وروائعه ، للنهب والسلب مع قصور الكرادلة .

وبعد أن أكمل الجند مهمتهم فى نهب التحف، اتجهوا إلى بيوت الكرادلة والنبلاء — حتى كنيسة القديس بطرس لم تسلم من النهب ، ثم تحصنوا فى أماكنهم ، وأمامهم باقى المدينة . وقد حاول أبناء روما استمالة البابا ، ليعقد صلحاً معهم ، لكنه رفض باصرار .

يقول مورخ معاصر عن قصة شاهد عيان (١) .

« وقر القرار على مهاجمة المدينة من الداخل . وتدفق الألمان والأسبان ينهبون ويقتلون دون مراعاة لأى اعتبار . حتى الأطفال والنساء ، لم تشفع لهم استرحاماتهم ودموعهم . وعبثاً حاول القواد إيقاف الجند الثملين بخمرة النصر — والويل كل الويل لمن كان يقع فى أيديهم ، من الأساقفة أو الكهنة ، أو الرهبان . لقد كان انتقاما لم يشهد مثله التاريخ — أما الكرادلة الذين لم ينجحوا فى الهرب ، فقد كان نصيبهم السحل فى شوارع روما حتى الموت .

وشوهدت جماعة تمسك بأحد الأساقفة، كللت رأسه بأغصان الشجر وعرضته فى السوق للبيع كالسوائم ، قبل الإجهاز عليه .

---

(١) Valdez — Dialogue on the Sack of Rome.

« أما الكنائس ، فقد تحولت إلى اصطبلات للخيل ، وتكدست الخيول داخل كنيسة القديس بطرس وخارجها ، والويل للراهبات والعذارى ، فقد كان الجند ينتزعوهن انتزاعا من الأديرة ومن احضان أمهاتهن » .

هذا هو وصف شاهد عيان لما حدث . وهكذا كانت نتيجة تآمر البابا السابق مع الإمبراطور شارل الخامس ضد حركة الإصلاح ، ونتيجة قرارات مجامع ورمز ، وسبيرز . لقد خربت روما ، على أيدى جنود الإمبراطور حليف البابا ، بصورة أقسى مما حدث فى هجوم الوندال منذ عشرة قرون — وهكذا كسرت للأبد شوكة روما ، ولم تعد بعد عاصمة للمسيحية . وتداعى النظام القديم ، الذى ظلت تسيطر به على مقدرات العالم الغربى ، زهاء ثلاثة عشر قرنا أويزيد . وبدأت تشرق فى الأفق أنوار عهد جديد — لانقول إن مثل هذه الأعمال الوحشية كانت من ثماره ، لكننا نقول إنها أخطاء وثغرات فى الطريق ، الإصلاح منها براء ، والتاريخ أصدق شاهد .

ختام قصة :

ولم يسلم حزب الإصلاح من الانشقاق ، فقد قامت حركة جديدة فى سويسرا الألمانية بزعامة هلدرتش زونجلى : وهذه انتشرت فى جنوب ألمانيا ، وكسبت لصفها كثيرين من الأمراء والمدن الحرة ، حتى أصبح الذين تحت زعامة زونجلى أكثر عدداً ، وأقوى نفوذا . وفى المجمع الذى عقد عام ١٥٢٦ ، كسب هذان الحزبان الجولة ، واستطاعا أن يكسبا القرار ، بأن كل حاكم له الحرية ، فى اختيار نوع المعتقدات ، التى يسير عليها هو وولايته . منذ ذاك الحين ، ابتدأ فريق من الحكام أو الأمراء ، تنظيم الكنائس التى تحت نفوذهم ، لتكون وفق نظام العبادة والمعتقدات ، التى ينادى بها رجال الإصلاح — ولم يعترض الملك شارل على

ذلك ، بسبب القطيعة التي كانت قائمة بينه وبين البابا ، وبسبب انشغاله فى ميدان الحرب – ولكن فى مجمع سبيرز ، الذى انعقد عام (١٥٢٩) ، كان حزب الكاثوليك – وسنبدأ تسميتهم بهذا الإسم من الآن فصاعدا – أكثر قوة وهكذا استطاعوا ، أن ينتصروا ، بقرار منع اللوثرية من الإنتشار ، وكذلك عدم الاعتراف بالزونجيلة . على هذا القرار احتج اللوثريون والزونجيلون معا . ومن هنا لقب حزب الإصلاح بالمعترضين أو المحتجين . وهى الكلمة التى نقلت حرفيا عن الإنكليزية ، فأصبحوا يلقبون بالبروتستانت . وبينما كانت الأمور تسير على هذا النحو ، عاد الإمبراطور إلى بلاده لأول مرة بعد مجمع ورمز ، (فى أثناء غيابه كان يحكم المانيا شقيقه بديلا عنه) ، وقد وطد الإمبراطور عزمه ، على أن يفض جميع المشاكل الدينية ، التى مزقت البلاد حسب فكره ، وأثارت القلاقل ، فهو على الرغم من خلافه مع البابا مازال فى الأعماق رومانيا يحب كنيسته ، ولا يريد أدنى تغيير فى نظامها أو عقيدتها . لقد تغلب الآن على أعدائه ، وأصبح الجو ملائما له ، لعلاج المشاكل الداخلية – وهكذا دعا إلى عقد مجمع أوجسبرج (عام ١٥٣٠) ، لتسوية جميع الخلافات ، بين حزب الإصلاح والحزب الكاثوليكى . أما اللوثريون وأشياعهم ، فقد قدموا إقرار أوجسبرج الشهير ، الذى يتضمن كل وجهات نظرهم ، والذى أصبح فيما بعد واحدا من النواميس العقائدية للوثريين . ولقد كتبه فيليب ملانكثون الذى أصبح القائد الثانى بعد لوثر . أما الإمبراطور ، فقد حاول أن يصل إلى اتفاق عقائدى بين اللوثريين والبابويين ، محاولا بذلك إرجاع حزب الإصلاح إلى أحضان الكنيسة الأم . ولكنه لم يستطع ، وهكذا أصدر الإمبراطور قراره ، بأنه لاسبيل إلى محق البروتستانتية إلا بالحرب (ابريل ١٥٣١) . لكن مضى وقت طويل ، قبل أن ينفذ الإمبراطور وعيده .

فلقد كان الأتراك يدقون من الشرق ، حدود مقاطعة أوستريا (النمسا) . ثم كان انشغال الإمبراطور بعد ذلك بالخلاف بينه وبين البابا ، حول تنفيذ برنامج إصلاحى شامل للكنيسة . وفى نفس الوقت ، كانت الخميرة تعمل عملها فى العجين ، وكانت مبادىء الإصلاح تنتشر فى كل مكان، وترسخ فى الأذهان . وبدا وكأن ألمانيا كلها ، قد انحازت إلى صف لوثر. أما المحاولات السلمية التى بذلها الإمبراطور ، فى محاولة لإقناع اللوثريين فقد ذهبت كلها أدراج الرياح ، ولم يبقَ من بديل سوى القتال.

ويعمر لوثر حتى يرى الصراع بين الإمبراطور ، وحزب الاصلاح فقد انتهت حياته فى سن الثالثة والستين ، وتكفى هذه الصلاة التى نطق بها وهو يسلم الروح ، لترينا أى نوع من الناس كان .

« أيها الإله السرمدى الرحيم أبى السماوى ، أبا ربنا يسوع المسيح وإله كل تعزية ، أشكرك إذ أعلنت لى ابنك يسوع المسيح ، الذى آمنت به ، وبه كرزت ، واعترفت . والذى أحبه ، وأعيده كمخلصى وفادى العزيز — أتضرع إليك ربى يسوع المسيح أن تقبل نفسى . أيها الآب السماوى — إنى وإن كنت أنتزع من هذه الحياة ، وأودع هذا الجسد ، فإنى موقن أننى سأسكن معك إلى الأبد . ولن يستطيع أحد أن يخطفنى منك » وبعد صمت قليل عاد يكرر ثلاثاً « أنت قد فديتنى أيها الإله الحق . فى يديك أستودع روحى » وعندما سأله أحدهم « أبى المحبوب هل مازلت تؤمن أن يسوع المسيح ابن الله ، هو مخلصنا وفادينا ؟ » كان جوابه « نعم — نعم — » . وكانت هذه آخر كلماته .

ولقد صلى على جثمانه فى ايزلبن . ثم نقل فى اليوم التالى إلى ويتمبرج ، حيث دفن وسط مظاهر الحزن البالغ ، وقد رافقت الموكب أرملة لوثر

وبنتاها وأولادها الثلاثة ، ثم مدير جامعة ويتمبرج وأساتذتها وطلابها . ثم الرؤساء والنبلاء تتبعهم جماهير الشعب الألمانى . وقد ألقى ملانكثن خطاب التأبين .

إن كثيرين من المؤرخين الكاثوليك وأشياعهم ، يوجهون النقد المرير إلى زعيم الإصلاح فى ألمانيا ، ولاعجب فى ذلك . وحجتهم الأولى والأخيرة ، هى نقضه لعهد الرهبانية ، وزواجه من كاترين فون بورا . ولكن ألا نستطيع أن نقول ، إن سيرة الرهبان ، وحياتهم ،وتصرفاتهم ، مما أفضنا فى الحديث عنه فى فصول هذا الكتاب ، كانت أكبر دافع إلى الهروب من هذا الجو الرهيب ! ؟ إن كثيرين من الرهبان والراهبات قد ساروا على مثال لوثر . ولو أننا كنا قد عشنا فى تلك القرون ، ورأينا بأعيننا العثرات والظروف الإجتماعية التى أحاطت بهم ، لالتمسنا لهم الكثير من العذر . على كل حال كما يقول مللر ، الإنسان معرض للضعف . ورجال الله الذين ورد ذكرهم فى الكتاب المقدس ، لم تخلُ حياتهم ، من مطاعن وجهت إليهم . ويكفى أن نرى لوثر فى بيته السعيد ، وسط أولاده وبناته ، وزوجة محبة عاقلة ، كانت عونا له فى أكثر من محنة ، ومرشدا فى أكثر من ظرف حالك ، ومشجعا حينما كان يرى العالم كله ، وقد وقف ضده — وإن حياة عائلية سعيدة استمرت عشرين عاما كاملة ، تكفينا لكى نرى فى نورها ، أن هذه كانت إرادة الله ، وأن الله قد أوجد له معينا نظيره .

ولقد كان لوثر لثلاثين عاما كاملة ، رائد أعظم حركة إصلاحية انتعاشية عرفها التاريخ — وبالوعظ والكتابة[1] وتدريب الوعاظ ،

(١) بلغت مؤلفات لوثر ستين مجلدا ، أما رسائله فيخطئها الاحصاء

والافتقاد ، والنصح ، أعطى الكثير فى سبيل ذلك . ويكفى أنه حطم السلاسل التى كان الكتاب المقدس مقيدا بها ، وأطلقه من عقاله ، فأصبح هذا الكتاب قوة عظيمة جبارة فى أيدى الشعب الألمانى ، يستطيع كل واحد أن يقرأه ويستوعبه ويجد فيه البركة .

إن لوثر كإنسان كانت له ضعفاته . والكثير من ألفاظه وعباراته كان جافا خشنا ، واستعاراته فى بعض الأحيان ، كانت تبدو وحشية قاسية . لكن هذه كانت لغة العصر ، وقد انساق لوثر فى تيارات العصر ولكننا نقول إنه مع هذا ، استطاع بنعمة الله أن يعمل المعجزات . وفى حياته ، رأى معظم دويلات ألمانيا ، تدين بمبادىء الإصلاح ، فى مثلث قاعدته شواطىء بحر البلطيق من الغرب ، إلى حدود شرقى روسيا ، وقمته أراضى سويسرا . وفى كنائس هذا المثلث المتسع العريض ، العريض ، كان إنجيل المسيح يكرز به ، فى لغة الشعب .

والمزامير والترانيم ، تردد باللغة الألمانية . ولقد كتب لوثر البعض منها ، ولعل أشهرها هى ترنيمة « الله قوة لنا ، وحمانا الوطيد » فلكم ألهبت هذه الترنيمة قلوب الملايين فى الشرق والغرب . أما عن النهضة الفكرية ، فقد حرصت الثورة اللوثرية — وإحقاقا للحق نقول ، إن الكنيسة الكاثوليكية هى الرائد الأول فى هذا المجال — حرصت على تعميم المدارس إلى جوار الكنائس . فقد كان لوثر يبدى اهتماما كبيرا ، بتعليم الصغار حقائق الدين السليم . ولقد نصب رعاة أكفاء على الكنائس . كما ألحقت بكل مقاطعة ، محاكم كنسية يشرف عليها الأمراء : ومن العجيب جدا أن هذا الانقلاب الهائل قد حدث فى كافة أرجاء ألمانيا ، بصورة لم يتصورها أحد .

وبدأت حرب الإمبراطور شارل الخامس ضد البروتستانت عام (١٥٤٦) . ومع أنه فى البداية كان منتصرا فى كل الجبهات ، إلا أن منتخب سكسونيا ، الذى تولى الحكم بعد وفاة فردريك ألقى بكل ثقله فى المعركة ، فرجحت كفة الإصلاح ، واستطاع هذا أن يطارد فلول الجيش الإمبراطورى ، خارج حدود ألمانيا . وإذ أحس الأمبراطور بأن الحظ لم يعد حليفه — وأنه أخفق فى أكثر من ميدان ، تنازل عن العرش لأخيه فردناند ، وباع ممتلكاته ، والتحق بأحد الأديرة فى أسبانيا . ولم يعمر طويلا إذ إنتهت حياته بعد عامين اثنين من دخوله الدير .

أما فردناند ، فقد كان عقله أكثر رجاحة واتساعا . وفى أول جلسة له فى الدايت أى البرلمان الألمانى ، (١٥٥٥) أعلن عفوا شاملا ، ومعاهدة سلام أوجسبرج ، التى فيها ترك الحرية لكل دوق ، وكل حاكم لكى يقرر نوع الديانة التى يختارها لمقاطعته . وهكذا أصبحت اللوثرية دينا رسميا تعترف به البلاد ، ومذهبا قانونيا ، على الأقل فى دائرة حدود ألمانيا ، وتأمنت الثورة العظيمة الإنفصالية الأولى ضد روما.

أما تأثير لوثر خارج حدود ألمانيا ، وما تبع حركة الإنفصال فيها عن روما ، من حركات مشابهة فى دول أوربا ، فهذا أطول من أن نعرض له أو نحتوية . فى بلدان أوربا فى بوهيميا ، والمجر ، وبولندا ، وانجلترا ، واسكتلندا ، وفرنسا ، والأرض المنخفضة ، وسكندناوه حتى فى إيطاليا وأسبانيا شقت هذه الكتابات طريقها . وحدثت تحركات إصلاحية سنعرض لها فى شيء من التفصيل . ومع أنها قد تكون اتخذت هذا الطابع ، أو ذاك ، إلا أن الباعث الأول ، والملهم الأول ، كان

مصلح ألمانيا — فعلى سبيل المثال نجد أثر كلفن والكلفينية ، أقوى فى بعض البلدان ، لكن الإصلاح فى سكندناوة ، كان لوثريا خالصا .

وفى الدانمرك والنرويج ، أصبحت الكنيسة الرسمية هى اللوثرية بقرار الملك عام (١٦٣٦) . أما كنيسة السويد ، فقد اصطبغت باللوثرية قبل ذلك التاريخ بسنوات عشر ، ولحقت بها كنيسة المجر بعد ذلك .

٣

الاصلاح فى سويسرا

[زونجلى ـ بيع الغفرانات فى سويسرا ـ مجمع زيورخ ـ تحطيم الصور والتماثيل ـ صراع بين اللوثريين والزونجليين ـ حلف بين المصلحين ـ حرب بين الكاثوليك والمصلحين ـ موت زونجلى]

والآن ، وقد فرغنا من الجانب الأكبر من عبء هذه الدراسة ، فاننا نعتقد أن الوقت قد حان ، لنلقى نظرة طائرة على حركات الإصلاح ، فى أكثر من دولة من دول أوربا .

وإنه لمن الغريب أن نلاحظ وجود وحدة كاملة وانسجام تام ، بين عمل الله فى كل من ألمانيا وسويسرا ؛ رغم أن حركتى الإصلاح فيهما ، كانتا مستقلتين ، إحداهما عن الأخرى ، وكانتا تحت ظروف متباينة ، فمن الوجهة السياسية والاجتماعية ، كان الإختلاف عظيما بين هذه وتلك . فنظام الحكم فى ألمانيا كان ملكياً ، بينما الحكم فى سويسرا كان جمهورياً . وكانت سويسرا تضم ثلاث عشرة جمهورية ، تعرف باسم « كانتون » . وعلى ذلك فالإصلاح فى ألمانيا ، كان صراعاً ضد سلطة الإمبراطور ، أما فى سويسرا ، فكان ثورة على النظام الديمقراطى . ولكن مما يشير إلى أن هذا هو إصبع الله ، أن الإصلاح بدأ تقريباً فى نفس الوقت فى هذه

وتلك — يقول زونجلى بطل الإصلاح فى سويسرا — « بدأت أكرز بالإنجيل عام (١٥١٦) . أى فى وقت لم يكن فيه اسم لوثر معروفاً أو مسموعاً عنه فى هذه الدولة . إنى لم أتعلم إنجيل المسيح من لوثر ، بل من كلمة الله مباشرة » .

ويقول دوبنييه . إن الذى أعطى الحق للوثر من السماء ، أعطاه أيضاً « لزونجلى » . على أنه كانت هناك مميزات تختص بها كل حركة من الحركتين : ففى ألمانيا ، كان لوثر وحده بوق الله المدوى .

زونجلى :

أما فى سويسرا ، فإن مجموعة من النجوم اللامعة تتألق فى ظلام الليل ، وأكثر من اسم يتلألأ هناك ، أمثال ليوجودا ، وكابثوا ، وفارل ، وكلفن ، وزونجلى . ولكن الأخير هو الذى يعلو اسمه بين الجميع ولم تكن ظروف زونجلى العائلية مثل ظروف لوثر . فأسرته كانت لها مكانتها ، وقد ولد عام (١٤٨٤) فى قرية فلدهاوس ، على بحيرة زيورخ وهى قرية مغمورة هناك . ولنجاحه فى الدراسة صمم والده على تكريسه للكنيسة ، وهكذا أرسله لموالاة دراساته فى برن وفينا . وهناك فى برن ، أعجب فريق رهبان الدومنكان بصوته ومواهبه ، فأغروه بدخول الدير . ولكن والده حينما سمع بذلك ، عارض تصرفه بشدة ، وأمره بأن يغادر برن ويذهب إلى فينا . وكان زونجلى طيعاً ، فهرب من الدير ، وعاد إلى دراسته .

وفى بازل ، درس زونجلى العلوم اللاهوتية على يدى توماس ونباخ ، الذى كان لاهوتياً مستنيراً ، لا يخفى على تلاميذه ، أخطاء روما العقائدية ، وهكذا تلقى زونجلى عنه ، ما تلقنه لوثر من ستوبتز من أن التبرير بالإيمان ، وكان يقول لتلاميذه ، إنه عما قريب سوف يأتى الوقت ، الذى فيه يلغى

الناس بعلم اللاهوت جانباً ، وتنهض تعاليم الكنيسة الأولى ، مؤكدا أيضاً « أن موت المسيح هو الفدية الوحيدة لنفوسهم » .

وفى الدراسة كان له أيضاً أصدقاؤه ، الذين أسهموا فيما بعد بنصيب كبير ، فى إصلاح الكنيسة . كان هناك ابن كاهن من الألزاس ، ويعرف باسم « ليوجودا » أو أسد يهوذا ، وآخر يدعى كابيتو ، وغيرهما . وقد كون معهم صداقات العمر . ونظير لوثر ، كان زونجلى مغرماً بالعزف على الآلات الموسيقية .

وبعد أن انتهى من الدراسات اللاهوتية ، وحصل على درجة أستاذ فى الآداب ، اختارته مدينة جلاريس ليكون راعياً لها (١٥٠٦) . وهناك قضى عشر سنوات يقوم بعمل الله بأمانة ، وفى أثناء هذه الفترة قام بنسخ رسائل بولس فى الأصل اليونانى ، مع تعليقات كثيرة ، وهوامش وتفاسير عن أشهر الآباء . ولا تزال هذه النسخة موجودة فى مكتبة زيورخ .

كما أنه درس اللاتينية وكتابات الآباء . وعن ذلك قال « إن هذا كان لمجرد المعرفة فقط ، لا لنأخذ آراءهم قضية مسلمة — » وكان على معرفة أيضاً بكتابات ويكليف ، وهس ، ولكن كتابات إرازمس كانت الأثيرة لديه .

فى تلك الأثناء هدد ملك فرنسا بالإنتقام من البابا ، بسبب تحالفه مع شارل الخامس ضده . وخشى البابا مغبة هذا التهديد ، فأرسل فى طلب تأييد سويسرا ، التى أرسلت له الجيوش ، وكان زونجلى بين الذين أرسلوا ، وكان يحمل سيفه ، على الرغم من كونه رجل دين ، وقد حمل سيفه دفاعاً عن روما . وجرت العادة أن يرافق أمير الولاية وراعى

الأبروشية الجيوش فى الحرب . ومع أن الانتصار كان حليف السويسريين فى الجولة الأولى ، إلا أن الدائرة دارت عليهم بعد ذلك ، وهلك خيرة الشباب منهم بسيوف الفرنسيين ، فى موقعة مارنيان الشهيرة .

وكان من نتيجة هذه الجولة الإضطرارية لكاهن جلاريس ، أن رأى حاجة بلاده إلى الإصلاح الدينى ، والإصلاح الإجتماعى أيضاً . فما معنى هذه القوانين التى تدفع بالشباب إلى الموت فى أرض غريبة ، وحروب لمصلحة دولة أخرى ؟ أما فى دائرة الدين ، فقد رأى عن كثب ، كما رأى من قبل راهب ويتمبرج ، كبرياء الأساقفة ، وأبهتهم ، وجشع الكهنة ، وجهلهم ، واستباحة الرهبان ، وتبذلهم . فراح من منبره بعزم مقدس ، ينادى أكثر من ذى قبل ، بوجوب فحص كل هذه الأمور ، فى نور كلمة الله ، والعمل على إصلاح الكنيسة .

وكثيرون يتساءلون ، من السابق فى مجال الإصلاح ، لوثر أم زونجلى ؟ ولكن يبدو أن الإثنين بدآ منفصلين فى وقت واحد ، على أنه إن كان إصلاح لوثر يتميز بالثورة والعنف ، فإن كرازة زونجلى كانت أكثر هدوءاً .

وفى عام (١٥١٦) دعى زونجلى من رئيس دير البندكتيين فى أفسدلن ، ليكون واعظاً لكنيسة الدير . أما ذلك الدير ، فقد نسجت حوله أكثر من قصة ، وأصبح مزارا لأكثر من جماعة . فهناك تمثال العذراء ، الذى نسبت إليـــه المعجزات ، حتى أصبحت المدينة كعبـــة القصاد . يتوافد عليها السائحون من كافة أنحاء أوربا ، وعلى باب الدير أيضاً ، تمثال الملاك يحمل لوحة نقش عليها « هنا تستطيع أن تنال غفراناً كاملا لخطاياك » .

وفى عيد الملائكة ، كان مألوفاً أن ترى الجموع تصعد الجبل لزيارة الدير ، وهم ينشدون مدائحهم وتراتيلهم ، مائة ألف كل عام ، كانت تزور هذه المدينة ، للتبرك ، وطلب المعجزات ، ونوال الغفرانات بشفاعة سيدة الدير العذراء مريم — أما رئيس الدير ، فمن الغريب أنه كان يمتلك أكبر مجموعة من الخيل فى سويسرا ، وكان رجلا مستنيراً . وحينما ألح عليه الزوار مرة ، بأن يقوم بخدمة القداس ، كان جوابه « إذا كان يسوع المسيح حاضراً بالحقيقة فى الخبز والخمر . فأنا لست مستحقاً أن أتداوله بيدى . وإذا لم يكن حاضراً ، فأكون أكبر كذاب ومنافق لأنى أقدم للناس خبزاً ، وهم يظنونه جسد المسيح ، ليكون موضع سجودهم وتعبدهم . أما مدير الدير ، فقد كان راهباً تقياً يحب العلماء — ولما سمع بشهرة زونجلى ، دعاه ليكون فى هذا المركز للاستفادة منه — ولم تزد نصيحة زونجلى على القول « أدرس الكتاب المقدس ، فسيأتى الوقت الذى يصبح فيه هذا الكتاب أساس الإيمان الوحيد ، وليس أقوال القديس جيزوم ولا سائر الآباء » وحينما كان يرى الجموع تأتى من بعيد ، حاملين النذور والعطايا ، لنوال الغفران من سيدة الرسل ، كان يصرخ فيهم ، إن الخلاص عطية مجانية باستحقاق يسوع المسيح ، يعطيها الله لمن يطلب بروح الإيمان ، كما أن الله موجود فى الدير ، بكيفية لا تختلف عن وجوده فى أى مكان آخر . فهو حال فى كل مكان ، « وهو على استعداد أن يسمع صلواتكم وأنتم فى بيوتكم . هل تستطيع سفرات الحج الطويلة ، أو الصور ، أو التشفع بالعذراء ، أن تحصل لكم على نعمة الله ؟ وما قيمة الثياب البيضاء ، أو الحذاء المطرز بالذهب ، أو القبعة اللامعة فى عطية الخلاص ؟ إن الله ينظر إلى القلب ، ولكن قلوبنا بعيدة عنه » وكما أن كلمة الله خارقة إلى مفرق النفس ومميزة ، هكذا كانت تقسم المجتمعين

إلى فريقين : فريق يقبل نعمة الله ببساطة ، ويعود فى ملء البركة ، وفريق آخر يعميه التعصب لعقيدته الأولى ، فيزداد غيظاً وحقداً ، وفى وسط هؤلاء وأولئك ، كانت كلمة الله تنمو وتتزايد ، وعبادة العذراء تتناقص يوماً بعد يوم .

على أننا نندهش للغاية ، إذ نرى كارزاً جريئاً بالحق نظير زونجلى ، يظل الحزب البابوى على تمسكه به : ربما كانوا يدركون ما له من مكانة فى نفوس الشعب ، وكانوا يأملون أنه يوماً من الأيام ، سوف يرجع إلى صفهم . لقد كان بابا روما فى تلك الحقبة ، أكثر دهاء من سابقه ، فأعطى شيئاً من الحرية للشخصيات البارزة ، ماداموا يعترفون بسيادة خليفة بطرس وسلطانه . وهكذا تعترينا الدهشة ، حين نرى البابا ليو العاشر (١٥١٨) يظهر تقديره لزونجلى ، فيعينه قسيساً خاصاً للكرسى البابوى ، مركز يطمع فيه كثيرون . ويستمر زونجلى عامين كاملين ، يتقاضى راتبه من روما نفسها . إلا انذلك المصلح العظيم ، كان يعرف بالاختبار ، ما عرفه لوثر من قبل ، وهو أنه لا جدوى من إصلاح كنيسة روما من الداخل ، وأن الإصلاح لابد وأن يأتى من دائرة بعيدة عنها .

وبعد قضاء ثلاثة أعوام فى أنسدلن . وصلته دعوة من كهنة كاتدرائية زيورخ ، ليكون واعظاً هناك ، وكانت زيورخ تعتبر عاصمة اتحاد الدويلات أو الإمارات السويسرية ، التى كانت تعرف باسم الكانتونات ، وهناك أتيحت له الفرصة للإتصال بأرقى الطبقات ، وكان تأثيره عظيما على كافة الإمارات .

ولكنه اشترط ألا يسير على نمط القراءات المعينة على مر السنين

بالمناسبات والأعياد ، وغير تلك الطريقة التى ظلت سائدة فى الكنائس البابوية منذ عهد شارلمان ، والتى تسير عليها كافة الكنائس التقليدية حتى يومنا الحاضر . لقد كان يرى أن مثل هذه الطريقة تخنق حرية الروح فى التعبد — وهكذا بدأ بدراسة شاملة لحياة المسيح ، كما يعلنها البشير متى . وحينما اعترض البعض على ذلك ، كان جوابه « أليست هذه هى الطريقة القديمة فى عصور الآباء ؟ ألا تذكرون عظات يوحنا فم الذهب عن إنجيل متى ؟ وعظات أوغسطينوس عن يوحنا ؟ هنا نرى روح الإصلاح التى تأتى فى رفق وهوادة ، ولا تصدم السامعين بلغة وحشية نظير لوثر . ولقد كان من تأثير ذلك ، أن أصدر المجلس الأعلى قراراً ، بألا يقدم الوعاظ أية تعاليم من عندياتهم ، لا تستند إلى الكتاب المقدس . كان ذلك بعد عام واحد من وجود زونجلى فى زيورخ .

بيع الغفرانات فى سويسرا :

إلى أن تتكرر مهزلة تتزل وبيع الغفرانات فى سويسرا . فيفد إليها عملاق من الفرنسسكان يدعى شمشون ، ويعبر الألب فى موكب بابوى عظيم بالطبل والزمر . وكان من تأثير زونجلى أن بضاعته بارت ، واضطر إلى تخفيض أسعار بيع الغفرانات للفقراء ، بما يوازى بضعة مليمات . . فللأغنياء غفرانات على رقوق من الجلد بأربعة شلنات فقط ، وللفقراء حل من البابا على ورق عادى بملاليم ، هكذا بلغت قيمة البابا ليو العاشر فى سويسرا .

وفى نفس الوقت ، كان زونجلى يعد الشعب فى زيورخ ، للقاء هذا الطفيلى الغريب ، الذى فى وقاحته لم يكلف نفسه أخذ الإذن من أسقف كونستانس ، فأصدر الأسقف أمره إلى جميع الكهنة فى البلاد ،

بطرده حينما ذهب — نقول إن زونجلى كان يعد الشعب ، بالإعلان عن غفران الله المجانى ، الذى ليس بحاجة إلى بيع أو شراء ، لأن الثمن قد دفعه المسيح بالكامل على الصليب . ثم يضيف من اختباره ، « حينما يحاول الشيطان إزعاجى بتقصيراتى وعجزى ، أسمع صوت الله فى الإنجيل يقول لى ، ما لا تستطيع أنت أن تفعله ، قد أكمله المسيح بالتمام » .

وهكذا عندما اقترب شمشون « الجبار » من المدينة ، أرسل إليه أهل زيورخ وفداً ، يطلب منه أن يعود أدراجه إلى روما .

وهنا ثارت ثائرة المجمع المقدس على تصرفات زونجلى . الذى كان قد عين كما أسلفنا قساً للكرسى البابوى ، فأرسلوا يستدعونه لمحاكمته (عام ١٥١٩) . لكن البابا كان قد تعلم درساً ، من الكلمة التى قالها له راهب ويتمبرج ، فتجنب إثارة ثورة أخرى ، فى بلاد أكثر عنفاً وتماسكاً ، نظير « كانتونات » سويسرا .

يقول المؤرخ دوبنييه :

« إن مجمع سويسرا كان أكثر حزماً من مجمع ألمانيا . ذلك لأنه لم يكن هناك كرادلة وأساقفة ، لذلك رأى البابا أنه من الحكمة أن يتصرف بشىء من الكياسة والحلم . منذ ذلك الحين ، وجد زونجلى نفسه فى موقف معاد للبابا ، على الرغم من أن الأخير حاول إغراءه بالوعود بواسطة رسول خاص . وهكذا ، رفض الراتب الذى كان يصله من روما قائلا : « كنت أعتقد أننى أستطيع أن أتمتع بسخاء البابا ، وأنادى بمعتقداتى بضمير صالح ، ولكنى حينما تقدمت فى معرفة ابن الله ، رأيت أننى ينبغى أن أرفض البابا وعطاياه » ومن ذلك الوقت بدأ تعليم زونجلى يثمر ثمرة الطيب فى نفوس

الشعب . وأبطل الكثير من عادات وتقاليد الكنيسة البابوية . فالصوم الكبير لم تعد له مكانته عند الشعب بعد ، وكثرت شكاوى رجال الدين من مخالفات التقاليد الأخرى .

واضطرت السلطات إلى الزج بالكثيرين فى السجون ، لكن الشعب كان يعترض ، بأنه لا فرق بين طعام وطعام . وليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان بل ما يخرج من الفم — ولما رأى أسقف كونستانس هذه الحالة ، أرسل مرسوماً ضد « البدع المستحدثة » ، حاثا الشعب على الالتفاف حول الكنيسة ، حتى يصدر المجمع مرسومه . وابتدأت المؤامرات تحاك ضد زونجلى ، حتى كانت السلطات تعين له بصفته رئيس كهنة زيورخ ، حراسا لحراسته من شر أعدائه .

وقد بدأ زونجلى يرى نذر العاصفة تتجمع من بعيد — ولكن هـــذا لم يوقفه عند حده ، فابتدأ يكتب النبذ ويصدر النشرات ، دفاعاً عن الحق وعن أصدقائه . وكان من نتيجة ذلك ، أن انتشرت مبادىء الإصلاح ، فى طول البلاد وعرضها ، حتى كتب إرازمس يقول :

« إن روح الإصلاح قد نمت وترعرعت ، فى جميع أصقاع الاتحاد السويسرى ، حتى أن ما يربو على مائة ألف نفس ، قد أصبحوا من أتباع مبادىء لوثر » .

ولقد كان عام ١٥٢٠ ، هو العام الذى تدخلت فيه السلطات ، ضد حركة الإصلاح فى سويسرا . فعلاوة على موضوع الصوم الكبير ، راح زونجلى ينادى ضد عدم زواج الإكليروس ، مبينا القباحات التى يرتكبها رجال الكنيسة ، باقتناء المحظيات وغير ذلك — وكان من نتيجة مناداة

زونجلى ، أن كثيرين من القساوسة نقضوا « نذر العفة » وتزوجوا . ومع أننا رأينا أسقف كونستانس يناصر زونجلى فى بادىء الأمر ، إلا أننا نراه وقد عاد ينقلب عليه ، ناعتاً الكهنة الذين تزوجوا ، بأنهم هراطقة لوثريون ، مطالباً السلطات الحكومية بمحاكمتهم ، على أن هذا الإضطهاد كان بمثابة الريح للنار زادتها اشتعالا — وبعد أن كان الإصلاح محصوراً فى دائرة ضيقة ، إذا به ينتشر ويمتد ، حتى ساد المدينة الإضطراب ، وانقسمت على نفسها . وانتهز الرهبان الفرصة ، وقدموا دعوى إلى مجلس الشيوخ ضد زونجلى ، الذى لا ينفك يشهر بهم ، ويجعلهم مدعاة للسخرية والأحتقار — أو يسمح لهم على الأقل بالوعظ عن الآباء والفلاسفة والمدرسيين .

وفى الوقت نفسه تقدم الأسقف بشكوى إلى المجلس ضد زونجلى ضمنها الكثير من التهم — لكن بطل الإصلاح استطاع أن يفندها واحدة بعد الأخرى ، وانتهى الصراع بينه وبين الأسقف ، إلى إخفاق الأخير فى النيل منه . كما كان نتاج هذا الصراع ، حصيلة قوية من الرسائل والوثائق التى تؤيد الحق الإنجيلى ، وأيضا البيان الشهير ، الذى لخص فيه زونجلى خلاصة العقائد فى الكنيسة المصلحة ، والذى يتضمن سبعاً وستين فقرة ، من بنود الإيمان التى نادى بها .

مجمع زيورخ :

والتأم مجمع زيورخ فى يناير (١٥٢٣) ، لمناقشة بيان زونجلى ، ولم يستطع واحد أن يقاوم روح الحكمة التى فيه . وهكذا انتهى إلى إصدار مرسوم فحواه ، « أن زونجلى تحدى خصومه علانية ، بأن يتقدموا إلى مناقشة مبادئه ، أو دحضها ، على أساس من الكتاب المقدس . ولكن حيث أن

واحداً لم يتقدم للقيام بهذه المهمة ، فله كل الحق فى أن يستمر كارزا ومبشرا بكلمة الله ، كما كان يفعل سابقاً . وكل من يتعرض له ، أو يتهمه بالهرطقة ، يعرض نفسه للعقاب الشديد . وعلى كل واحد من رجال الدين ، أن يحذو حذوه ، ولا ينادوا بأى تعليم لا يمكن البرهنة عليه من الكتاب المقدس .

ولقد كان لهذا المرسوم ، وقعه فى تثبيت أقدام الإصلاح فى سويسرا ، ودفع عجلته للأمام . ومع أن البابا دبر محاولة للقضاء على حياة زونجلى ، إلا أن الله حفظه من مكائد البابا وخنجره — ولما لم تفلح المكائد ، جرب البابا هادريان سلاح المداهنة واللطف . وأرسل له خطاباً مع رسول بدأه القول « ابنى المحبوب » ووعده بأن رئيس الكنيسة طوع بنانه ، فى كل شىء عدا كرسى البابوية . ولكن زونجلى كان صلب العود ، وكما يقول دوبنييه « لقد وجدت فيه روما عدواً أكثر صلابة من لوثر » فلوثر كانت له الخلفية الرومانية القوية — لقد كان راهباً ، وكان متشبعاً بالعقائد البابوية من قبل . لذلك فإننا نراه فى عقيدة العشاء الربانى ، يتخذ موقفاً أقل تشدداً من زونجلى ، وعقيدة عليها مسحة الفكر الرومانى . أما زونجلى فقد كان يحارب كل تقليد ، وكل عقيدة غير كتابية ، دون رفق أو هوادة. لقد كان مبدأه : الكتاب وحده وليس سواه . ولوثر كان معرضاً للوسواس والتقلبات النفسية ، التى ما وجدت طريقها يوماً إلى قلب زونجلى . وإننا نلمس رهبة الأعداء من الأخير ، فى رسالة بعث بها فابر ، من الحزب البابوى ، إلى صديق له يقول فيها « ليس عندى من أخبار جديدة ، أبلغك إياها ، سوى أن لوثر ثانياً ظهر فى زيورخ ، وهو أشد من سابقه » . ومع أن طريقة زونجلى فى صراعه مع أعدائه ، كانت هادئة كتابية تتجه إلى مقارعة الحجة بالحجة ، على غير طريقة راهب ويتمبرج الثائر ،

إلا أن الله استخدم الإثنين كلا بطريقته الخاصة ، ومواهبه الخاصة ـ لهدف واحد ، وقصد واحد ، ألا وهو إعلان الحق الإلهى ، وتثبيته في عقول الناس وضمائرهم .

تحطيم الصور والتماثيل :

بعد هذا ظهرت رسالة كتبها أحد المتحمسين من القساوسة الزونجليين ، بعنوان « حكم الله ضد الصور والتماثيل » . وقد أثارت هذه الرسالة ثائرة سكان زيورخ ، فاتجهوا فى مظاهرة كبرى ، إلى صليب مقام خارج المدينة ، مزين بالزينات ، وراحوا يهوون عليه بالمعاول ، ويسقطونه ، الأمر الذى أفزع أعوان البابوية فتعالى صياحهم — إذ اعتبروا أن ما فعله أولئك كان عملا مشينا ، لأنهم دنسوا أشياء مقدسة ، ولا عقاب لهم إلا الموت . وتم القبض على زعماء « الفتنة » وزج بهم فى السجن تمهيداً لمحاكمتهم — لكن فى يوم المحاكمة . انقسم أعضاء المحكمة فريقين : فريق يرى أن « الجرم » يستحق الموت ، وفريق آخر يرى أن العمل يهدف نبيل ، ولو أنه نفذ بطريقة غير سليمة . وفى الوقت نفسه : كان صوت زونجلى يعلو هاتفا ، بأن الناموس القديم يحرم عبادة الأصنام ، وأن الذين حطموا الصليب لا ذنب عليهم ، سوى مقاومتهم لرجال السلطة .

وانقسمت المدينة كلها إلى فريقين متصارعين ، بسبب هذه القضية — واستدعى زونجلى وأصحابه إلى مجمع عقد بينهم وبين البابويين ، وناقش موضوع الصور والتماثيل ، كما ناقش موضوع العشاء الربانى . وكان أساس المحاكمة كلمة الله وليس سواها . وهنا لم يجد البابويون ما يقدمونه . فانتصر الحق . وقد قال زونجلى والدموع تملأ عينيه « إن الله معنا ، والقضية

قضيته ، وهو لابد ناصرها . فلنتقدم إلى الأمام باسم الرب » . أما القرار النهائى ، فكان مناشدة كل واحد أن يستخدم كلمة الله أساسا ، ونبراسا ، ومقياسا له — نقول مناشدة كل واحد ، وليس إرغامه . لأنه على حد تعبير زونجلى « هناك نفوس ضعيفة تحتاج إلى تدعيم.. ، وهيابة تحتاج إلى تشجيع ، وأن غالبية الشعب ليست لديها الاستنارة الكافية ، بحيث تقبل بالأجماع ، مثل هذه التغييرات الكبرى — » وهكذا سُمح لكل قسيس بأن يتصرف حسبا يراه لائقا إلى حين .

ثم وقعت أحداث تلو أحداث، فأصدر مجلس مدينة زيورخ قراره، بنـــاء على طلب زونجلى وأصدقائه ، بأن يعطى المجد لله وحده ، وأن الصور والتماثيل يجب إزالتها من كافة الكنائس فى المنطقة ، وأن تباع نفائسها ، وتوزع أثمانها على الفقراء ، وأن المجلس يعين هيئة خاصة مكونة من اثنى عشر مستشاراً مع ثلاثة من الرعاة ، ومهندس معمارى ، ونجارين ، وغيرهم ، للقيام بإزالة الصور والتماثيل فلا يحق لفرد عادى ، أن يقوم بذلك بنفسه . فكانت هذه الهيئة تطوف على الكنائس واحـــدة بعد الأخرى ، فتدخلها وتغلق أبوابها ، وتنزع الصور ، والشعارات ، وتحطمها ، وتحرقها بالنار ، ثم يطلى مكانها . وقال زونجلى فى سخرية : إن تمثال السيدة العذراء الشهير فى الدير ، والذى نسجت حوله القصص والكرامات ، لم يستطع أن يقاوم الأذرع الفتية التى هوت عليه بالمعاول وحطمته — لقد استسلم فى النهاية — وحين وصلت أنباء تحطيم الصور والتماثيل إلى لوثر ، عارض هذا الأمر بشدة . فالمصلح الألمانى لم يكن يرغب فى الإنفصال عن الكنيسة مطلقا . لقد كان يود أن يظل متحدا بها . وكان يرى ، ورأيه هذا فيه من الخطر ما فيه ، بأن تحتفظ الكنيسة بما لايتعارض مع الكتاب المقدس بصفة صريحة مباشرة .

وهذا مبدأ غير أمين . نقول إنه كان يقنع بأن يعمل على تطهير الكنيسة البابوية ويبقى فيها لوكان ذلك ممكنا . بينما تخطى زونجلى كل الحواجز ، وأسقطها من حسابه بالكلية ، ورأى أن يعود بالكنيسه إلى حالة البساطة الرسولية الأولى ، وإلى التمسك بكل ما هو مسطر فى كلمة الله ، لا يحيد عنها يمينا ولا شمالا .

صحيح أن زونجلى اتفق مع مصلح ألمانيا ، بأن الخلاص بالنعمة وليس بالأعمال ، وأنه لا مجال للاستحقاق البشرى ، ولا المتاجرة فى خلاص النفوس . لكن مصلح سويسرا زاد على ذلك ، بأن جعل الكتاب المقدس الدستور الوحيد ، الذى تقاس عليه نظم العبادة . وبهذا وجه ضربة قاضية للعبادة فى الكنيسة الرومانية .

على أن تحطيم الصور والتماثيل ، قد جرمعه أيضا إخلاء أكبر دير للنساء فى زيورخ ، وتسليم كافة ممتلكاته للحكومة ، الأمر الذى أثلج صدور المؤمنين فى زيورخ ، بينما أثار حنق كافة الكانتونات الكاثوليكية . وعلى أثر ذلك ، أصدر البابا اكلمندس السابع ، بيانا يناشد فيه أبناء الإيمان القويم ، فى البلد الغيور الحبيب ، أن يلاشوا اللوثرية من أرض سويسرا — وعندها اتحدت الولايات كلها ، وأرسلت تهديدا إلى زيورخ ومقاطعتها ، بأنهم على استعداد أن يقفوا فى وجوههم بقوة السلاح ، إذا اقتضى الأمر ذلك .

بعد ذلك تعقدت الأمور ، وذبر جنود البابوية مكيدة فى ظلام الليل ، كان من نتيجتها اختطاف قسيس بلدة تورجو . فثارت ثائرة البعض ، وصمموا على الانتقام ، وأشعلوا النار فى دير هناك ، وقد ألقى القبض على أوكسلن مساعد زونجلى مع آخرين . وكانت نتيجة كل هذا ، استشهاد ثلاثة تحت سيف المقصلة .

لكن زونجلى ،وأسد يهوذا ، وانجلادت ،لم تمنعهم الأحداث عن المضى قدما فى طريق الإصلاح . فبعد صكوك الغفران،وبعد الصور والتماثيل، جاء دور ذبيحة القداس . ففى أبريل عام (١٥٢٥) تقدم الثلاثة ، إلى مجلس مدينة زيورخ ، يطلبون إلغاء ذبيحة القداس . وعلى أثر ذلك التأم المجلس ، ودارت المناقشات ، وفى نور الكتاب ، اكتشف عدم مطابقة العقيدة البابوية لما جاء فى الكتاب. وبعد جلسة ثانية ، صدر القرار بإلغاء القداس ، من كافة الكنائس ، وممارسة العشاء الربانى . طبقا لرسم المسيح والرسل . «وليكن القداس لاغيا فى كل مكان بصفةقاطعة، وليطرح جانبا كشىء أثرى لايتكرر » .

وعلى الأثرأزيلت المذابح من الكنائس ، ووضعت بدلا منها موائد الشركة . ومع أنهقد أعطيت المهلة للضعفاء وكبار السن ، بأن يستمروا فى نظامهم ، إلا أنه مالبث ذلك النظامأن تلاشى بمرور الزمن – وتأكيداً لذلك . أصدر زونجلى نشرات وكتباً فى هذا المجال ، عن « الديانة الكاذبة » – أما عن تأثير كتابات زونجلى ، فإننا نلمسه مما كتبته إليه راهبة من دير كونجزفلت فى برن حيث تقول :

« لتكثر لك النعمة والسلام من الله ابينا والرب يسوع المسيح . إنى أستعطفك أيها السيد العزيز ، والعالم المحترم ، أن تتقبل خطابى هذا . فإن محبة المسيح تحصرنى بأن أوجهه إليك ، لاسيما منذ أن سمعت أن الكرازة بإنجيل الخلاص تنتشر من يوم إلى يوم ، بفضل مجهوداتك التبشيرية . من أجل هذا ، أقدم الشكر والحمد لله السرمدى ، الذى أنارنا من جديد ، وأرسل إلينا بروحه القدوس ، طلائع كثيرة مثل هذه ، تحمل كلمته المباركة . وفى الوقت نفسه أرفع إليه تعالى أحر الصلوات ،

أن يوشحك بالقوة مع جميع الذين ينادون بأخباره المفرحة . وأن يسلحكم جميعا ، ضد أعداء الحق ، حتى تتغلغل كلمته الإلهية إلى أعماق القلوب ، وتنمو معرفته لدى جميع الناس » .

بل إن الراهبات من قلب الدير ، طلبن من مجلس المدينة السماح لهن بالخروج لخدمة الجماهير ، والتبشير باسم المسيح . « إنها ليست حرية الجسد التى نطلبها » — هكذا كتبن — ولكنها حرية الروح » . وإزاء إصرارهن استجابت السلطات لرجائهن — وانفتحت أبواب الدير على مصاريعها . وكانت طعنة جديدة فى قلب النظم البابوية .

ومن برن انتقل الإصلاح إلى بازل . وهناك حدثت مواجهة مسلحة بين البابويين وبين المتحمسين للإصلاح . وإزاء ذلك اضطر مجلس المدينة إلى تعيين داوريات للحراسة . وقد وقعت حادثة صغيرة كان لها أثرها . فبينما كان أحد الجنود المعينين لحراسة كنيسة القديس بطرس فى بازل ، يمر فى دوريته بداخل الكنيسة ، إذا به يدفع برمحه ، بدافع حب الاستطلاع بابا جانبيا مغلقا . فانفتح الباب ، وإذا بغرفة ممتلئة بالتماثيل المكدسة ، وسقط تمثال منها على الأرض وتحطم . فتدافع الجند ، وراحوا يسحبون التماثيل واحداً بعد الآخر ويحطمونها . وسرعان ما امتلأ المكان بأشلاء تماثيل القديسين من أيدٍ وأرجل وسيقان ورؤوس محطمة. فثار الكهنة وحاولوا منع الجنود لكن دون جدوى . وانتشر الخبر فى جميع أرجاء بازل . وتجمهر الناس وهم يقولون . « لماذا نترك هذه الأصنام التى هى مصدر كل شقاء وبلاء ؟ وهجموا على الكنيسة ، وانتزعوا بقية التماثيل والصور وكل شيء ، وكوموها فى الميدان كومة كبيرة وأشعلوا فيها النيران .

أما الكهنة فقد فزعوا من الشعب ، واختبأوا كالفيران فى الشقوق . وحاول أعضاء المجلس تهدئة ثائرة الجماهير دون جدوى . لقد انتصر الشعب وما استغرق سنوات طويلة فى النقاش والجدل دون الوصول إلى نتيجـــة ما . استطاع أن يصل إليه شعب بازل الباسل ، فى ساعات معدودات . وخضع المجلس لمطالب الشعب . وأصدر قرارا يقول : « من اليوم فصاعدا تلغى التماثيل والصور ويبطل القداس ، ويكون فى كل كنيسة خدام مخصصون للكرازة بكلمة الله — » .

وهكذا انتصرت حركة الإصلاح فى بازل ، كما انتصرت من قبل فى برن وزيورخ ، ومع أن الإصلاح بدأ فى بازل بصورة عنيفة ، إلا أن النتيجة كانت حلوة ، وتمت دون إراقة دماء . وفى يوم الأحد التالى لصدور القرار ، أقيمت الشعائر الدينية فى كافة الكنائس هناك . على طريقة المصلحين ، وأنشدت التراتيل والمزامير باللغة الألمانية — كما صدر بعد ذلك عفو شامل عن كافة من اشتركوا فى الشغب .

منذ ذلك الحين ، تغيرت معالم الحياة فى المدينة . وبدأ الكهنة والرهبان ورجال البابوية — يحزمون أمتعتهم للرحيل ، ليس خوفا من أى ضرر ، بل كرها لبلاد ليس لهم فيها عيش ، ولن تنطلى بعد أحابيلهم على شعبها . ومع أن إرازمس ، مداهنة للأمراء ، غادر بازل معهم ، إلا أن هذا لم يمنعه ، من أن يبدى الملاحظة الساخرة قائلا . لقد كانت الشتائم والإهانات التى انهالت على الصور والتماثيل بهذه القسوة ، حتى أنه من المستغرب ، كيف أن أولئك القديسين الذين تمثلهم . والذين اشتهروا بالمعجزات وأعمال الانتقام ، التزموا الصمت ، ولم يظهروا شيئا من كراماتهم ، أو انتقاماتهم .

الصراع بين اللوثريين وأتباع زونجلى :

ثم نأتى بعد ذلك إلى الصراع بين اللوثريين ، والزونجليين ، وهو أمر محزن حول عقيدة العشاء الربانى ، والإنشقاق الذى جاء نتيجة ذلك بين الكنائس التى لقبت فيما بعد باللوثرية ، والكنائس التى عرفت بعد ذلك بالمصلحة (Reformed) فنى الوقت الذى نرى فيه لوثر – كما أسلفنا – يبقى على الطقس البابوى فى الممارسة : صليب المذبح يبقى وربما الشمعتان فإن زونجلى يغير كل شى . إنه لا يريد أن يبقى أى شىء له رائحة القديم – كما أن الخلاف لم يتوقف عند حد الممارسة فحسب ، بل امتـد إلى العقيدة نفسها . ولتصفية هذه الخلافات ، تم عقد مجمع يضم مندوبا عن كل جماعة ، مع لفيف من المؤيدين مقابل الآخر . لفحص جميع عقائد الإصلاح . وقد بلغت فى مجموعها خمسة عشر بندا ، اتفقوا عليها جميعا عدا البند الأخير ، وهو الخاص بمواد العشاء الربانى . أما لوثر فقد كان يؤمن بما يسمى ازدواج المادة – وهى عقيدة وسط بين البابوية وبين الفكر المصلح بمعنى أنه كان يؤمن بحلول جسد المسيح فى الخبز ، ودم المسيح فى الخمر ، يعنى كانت البابوية تؤمن بالحلول الفعلى للجسد والدم (Transubstantialism) أما لوثر فكان يؤمن بالوجود المزدوج (Constantialism) وهناك فارق بين العقيدتين . أنه لم يكن يؤمن كالبابويين بأن عشاء الرب ذبيحة فعلية ، وأن الجسد والدم بالفعل يكونان بين يدى الكاهن ، بتأثير صلوات القداس ولكنه كان يؤمن أن الجسد والدم موجودان تحت صورتى الخبز والخمر ، وأن المشترك كان يأخذ بالفعل جسد المسيح ويتناول دم المسيح .

أما زونجلى فقد رفض هذه وتلك . لقد كان بسيطا فى أفكاره عن العشاء المقدس . فكان يؤمن أن العشاء الربانى ، ليس سوى تذكار لموت

المسيح ، وآلامه ، وانكسار جسده على الصليب ، وسفك دمه هناك. هذا هو غرض المسيح من إثبات هذه الفريضة : « إصنعوا هذا لذكرى لأنكم كلما أكلتم وشربتم — تخبرون بموت الرب » لكنه فى نفس الوقت ، كان يؤكد أن تناول هذا التذكار لايتم إلا بالإيمان . فنحن نخبر بموت الرب ، موته لأجلنا . لذلك فنحن نستريح بالإيمان بموته كالأساس الراسخ لحياتنا الأبدية ، ونتغذى بفرح القلب بأثمار الفداء الكامل ، كشيء تام وكامل ومحقق .

لكن عقيدة زونجلى لم تحز قبول لوثر . ومع أن اللوثريين والزونجليين اتحدا معا فى الحرب ضد شارل الخامس ، إلا أنه لم يقدر للحركتين أن تتفقا على الإطلاق ، وكان هذا الخلاف كافيا لانقسام الحركتين إلى النهاية .

نأتى الآن إلى الحديث عن الخطأ الكبير ، الذى وقع فيه لوثر ، كما وقع فيه زميله فى سويسرا . وكان السبب فى التخبط والتناقض ، الذى نلمسه فى تصرفات وأقاويل لوثر ، وكان السبب أيضاً فى نهاية زونجلى المفجعة ، ألا وهو خلط الدين بالسياسة ، أو محاولة الإصلاح ، بالإعتماد على السلطات الزمنية ، فى سبيل تثبيت أركان الحق ، واتخاذ السياسة مركبا للدين . إن الغلطة التى قاومها المصلحان فى البابوية ، قد سقطاهما أيضاً فيها . فقد رأينا لوثر يعتمد فى نجاح حركته وحمايتها ، على حماية منتخب سكسونيا ، وتأييد الأمراء فى مجلس الدايت أو مجلس الأعيان الألمانى . أما زونجلى ، فقد ذهب إلى أبعد من ذلك ، إذ أنه عندما قامت الإضطرابات وأحدقت المخاطر ، ظن أن من واجبه أن يعتمد على قوة السلاح ، وتأييد مجلس الشيوخ ، للوقوف فى وجه أعدائه .

موكانت نتيجة هذا وبالاً على حركة الإصلاح فى سويسرا ، وكادت تطيح بها بالكلية .

فمنذ الوقت الذى فيه تناولت الحكومات شئون الكنيسة ، تداخل الساسة فى شئون الدين ، وتداخل خدام الإنجيل فى السياسة . وراح الساسة فى سويسرا — بضمير صالح بطبيعة الحال — يتدخلون فى كل صغيرة و كبيرة من شئون الدين : فخدمة القداس محرمة وجميع مظاهر العبادة البابوية لا محل لها . أما انتقاد التغييرات الحديثة فجريمة ، والعادات التى كانت سارية فى الأعياد فممنوعة منعا باتا . والمواظبة على حضور الإجتماعات والخدمات فهى فرض حكومى تفرضه السلطات — لقد كان زونجلى يهبط بهذا من مستوى دعوته الروحية ، إلى مستوى الآلية والسلطان السياسى ، وكان يخضع نفسه ، ودعوته ، وكنائسه للسلطات المدنية .

حلف بين المصلحين :

وما جاء بعد ذلك كان أمرّ وأقسى ، وربما كان السبب المباشر لتجمع الغيوم فى الأفق وإثارة الكانتونات السويسرية البابوية عليه .

فقد حاول أن يعقد بين الكانتونات المصلحة ، ما يعرف بالحلف المسيحى العسكرى ، وكانت كونستانس أول من استجاب لهذا التحالف العسكرى ، وقد تبعتها برن وبازل ، وأربعة ولايات أخرى — وقد سبب هذا التحالف انشقاقا فى الكتلة المصلحة ، كما أظهر خصوما عديدين لزونجلى ، حتى من أقوى أنصاره السابقين . ولربما نلتمس العذر له فى أن الكنيسة التى تبرعرع فى أحضانها ، كانت منذ البداية تمسك

بالسلطة الزمنية ، إلى جوار السلطة الدينية ، وإذ سمع البابا بأنباء ذلك الحلف راح صدره يغلي بالحقد ، فأرسل رسله يستعدون أهالى المناطق الجبلية الشرسين ، الموالين لروما ضد أولئك . ولم يكن ذلك بالأمر العسير . فليس أسهل من إثارة الإنسان الجاهل ، إذا مست تقاليده وطقوسه . لكن أولئك كانوا أضعف من الوقوف بمفردهم ، فى وجه الكانتونات الزونجلية — وهكذا عقدوا حلفا مع فردناند أمير النمسا ، تعهد بمقتضاه أن يمدهم بالرجال والمركبات والعتاد . ثم بدأ التحرش بين الفريقين .

حرب بين الكاثوليك والمصلحين :

فدبر البابويون حادث اختطاف جيمس سيراز قسيس زيورخ . وبعد محاكمة صورية لا لسبب إلا أنه من أتباع زونجلى ، صدر عليه الحكم بالإعدام حرقا ، ونفذ فيه الحكم — وثار زونجلى لهذه الجريمة ، وراح يرفع صوته مناديا بالإنتقام ، ووضع حد لهذه الأعمال الوحشية قائلا : « نحن لا نريد أن نسفك دم إنسان . وإنما نريد أن نقص أجنحة الأعداء . وعندما تكون لدينا قضية عادلة ، يجب أن نعرف كيف ندافع عنها ، نظير يشوع ، وجدعون ، حتى لو اقتضى الأمر سفك دمائنا فى سبيلها » .

وهنا نلاحظ أن دعوة زونجلى للحرب ، لم تكن بدافع تثبيت الإيمان ، بل بسبب خلافات سياسية وهذا يثبته بقوله « إننا لا نلزم أحدا بترك القداس والطقوس وكافة العقائد المنحرفة ، والخرافات ، فكلمة الله قادرة أن تمحوها ، كما تمحو الريح الأترية . فلنطلب إلى أعدائنا السماح بحرية الكرازة ، والتخلى عن التحالف العسكرى مع النمسا » ، وهذه كما نرى دعوة لا صلة لها بالدين .

أما المقاطعات الكاثوليكية فكانت هى الأخرى تعد نفسها للحرب . ولكن الزونجليين كانوا أكثر عدة . كما أن المقاطعات الكاثوليكية الجبلية، كانت تعتمد فى مواردها الغذائية ، على ما يصلها من كانتونات أعدائها وإذ رأى أتباع زونجلى ، أن البابويين يرتكبون الفظائع ضد من يقع بين أيديهم ، أغلقوا الأسواق فى وجوههم، ومنعوا عنهم الطعام . فانتشرت المجاعات والأوبئة والموت فى المقاطعات الجبلية . وكان رد البابويين . « إن كان الزونجليون قد سدوا المسالك فى وجوهنا ، فسنشق لنا طريقا بالسيف » . وقد بذلت محاولات عديدة للتوفيق بين الجانبين ، لكن دون جدوى. ومهما قيل عن محاولات قام بها زونجلى لتخفيف حدة التوتر ، بمحاولة إقناع الكانتونات التابعة له ، بأن تفك الحصار الإقتصادى ، فإننا لا يمكن إلا أن نحمله مسئولية وصول الأمور إلى هذا الحد من السوء . كما أن ذلك الموقف غير المسيحى ، قد أثار نفور كثيرين من حركة الإصلاح ، وحول كثيرين إلى صف الأعداء — حتى جاء وقت قرر فيه زونجلى ترك السفينه بمن فيها ، لولا رجاء أعضاء مجلس زيورخ ، الذين أكدوا له أن السفينة ستغرق فى هذا الخضم ، إن هو تخلى عنها فى هذه العاصفة الهوجاء .

وخلال هذه الفترة الطويلة ، كان البابويون يستكملون استعداداتهم العسكرية ، ويحسنون موقفهم . حتى إذا أهل شهر أكتوبر (١٥٣١) تحركت جيوشهم لمهاجمة مشارف زيورخ . وما لبث أن دقت نواقيس الخطر ، فى كافة بلدان المقاطعة ، وقراها ، داعية الناس إلى حمل السلاح . ولم يتجمع سوى عدد ضئيل ، لايصل إلى الألف ، على رأسهم قائد الجماعة ، بصحبة زونجلى ، وكانت العادة أن يرافق القسيس الجنود فى المعركة . عدا ذلك ، كان هناك خمسة وعشرون قسيسا فى

رفقتهم . أما زونجلي ، فقد قبل زوجته وأولاده قبل الرحيل ، وقال لهم والدموع فى عينيه : « أنا أعلم أنى أنا المقصود بهذا كله . وقد حدث كل هذا رغبة فى القضاء على — ولكن ثقتى فى الله وحده ، وإنى أسلم نفسى لمشيئته الصالحة » .

وكانت مجابهة غير متكافئة : جيوش الكانتونات الجبلية الخمسة ، تؤيدها كتيبة مسلحة من النمسا ، ضد حفنة لا تتعدى الثمانمائة نفس .

ودارت المعركة وصياح البابويين يعلو « قد وقعتم فى أيدينا أيها الهراطقة محطمى التماثيل » . وكانت معركة طاحنـــة هلك فيها خيرة شباب زيورخ ، ولكن أعظم خسارة كانت هى مصرع بطل الإصلاح فى سويسرا .

موت زونجلي :

ولنترك المؤرخ فيليب تشاف يروى لنا نهاية ذلك البطل « لقد انتهت حياته وهو لم يتجاوز الثامنة والأربعين ، مع بضعة من أقارب زوجته وأصدقائه . وما استخدم الأسلحة لقتل أعدائه ، ولكنه كان يكتفى بتشجيع الجند : لا تخافوا . تشددوا — تشجعوا — إن قضيتنا عادلة — استودعوا أنفسكم بين يدى الله ، فهو الذى يعتنى بنا جميعا . ولتكن مشيئته » وهرع إلى جوار جندى يحتضر ، وانحنى عليه يشجعه ، وفجأة أصابه حجر فى رأسه ، فسقط على الأرض ممددا . وعاد يرفع رأسه ، فجاءت ضربات أخرى . وعندها تحسس جراحه النازفة وقال « وماذا بهم ؟ إنهم قد يقتلون الجسد ، لكنهم لا يستطيعون أن يقتلوا الروح » .

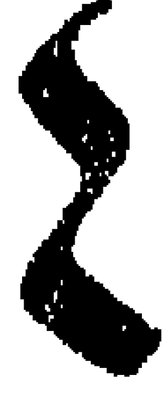
وبقى ممددا تحت تلك الشجرة التى عرفت فيما بعد باسمه ، وقد تثبتت عيناه فى السماء ، وضم يديه فى وضع الصلاة . وبعد برهة انتشر الأعداء

كالجوارح ، بين الموتى والمحتضرين يسلبونهم حتى مآزرهم . ولما وصل اثنان منهم إلى زونجلى ، قالا له « هل نحضر لك قسيسا ؟ أم لعلك تصلى للقديسين ؟ » ولكنه هز رأسه مرتين . وعندها تقدم ثالث ورفع مشعله . ونظر إليه فعرفه فهوى عليه بالسيف ، وقطع رأسه ، وهو يقول « مت أيها الهرطوقى العنيد ! » .

وبقى جسده ملقى طول الليل . وفى الصباح انتشرت الأنباء بأن زونجلى قد لقى مصرعه . وتدافع الجند يمتعون أنظارهم ، برؤية الجسد الخامد : وحينما رآه أحد كهنة زيورخ البابويين السابقين ، تساقطت الدموع من عينيه وهو يقول « مهما كانت عقيدتك فقد كنت وطنيا مخلصا . ليت الله يغفر ذنوبك » .

لكن المتعصبين لم يكتفوا بذلك . بل طلبوا بأن تنفذ فى الجثمان مراسم معاملة الخونة . وقد قام شريف لوزرن بهذا العمل البربرى ،فقسم جسده إلى أربعة أجزاء ، ثم أحرقه ومزج الرماد برماد خنازير ، وذرى مع الرياح .

والآن نطوى هذه الصفحات الحزينة ، لننتقل إلى صور أخرى من الإصلاح فى دول أوربا .



الاصلاح فى فرنسا وسويسرا الفرنسية

[كلفن يكمل ما بدأه زونجلى – ثيولوجية كلفن – الأوضاع فى جنيف – أثر كلفن فى فرنسا – مذبحة الهوجنوت .]

إن الخسائر التى منيت بها ثورة الإصلاح فى سويسرا الألمانية ، قد عوضتها نهضة الإصلاح فى كانتونات سويسرا الفرنسية : فى فود ونيوشاتل وجنوا . لقد اتجهت الحركة المصلحة إلى الغرب . وما لم يتمه زونجلى ، استطاع كلفن أن يقوم به . حتى قيل إن جنيف قد حلت محل زيورخ ، وأصبحت قبلة البروتستانت ، كما كانت روما قبلة الكاثوليك . ومنها (زيورخ) أشرقت الأفكار والعقائد المصلحة على فرنسا ، وهولندا ، وإنجلترا ، واسكتلندا – والإصلاح فى سويسرا الفرنسية ، لا يمكننا أن نفصله عن الإصلاح فى فرنسا بجملتها . فأول المنادين بالإصلاح فى غرب سويسرا كانوا من الفرنسيين ، الذين هربوا من بلادهم بسبب الإضطهاد – وعن طريق تلاميذهم ، أصبحوا نواة الإصلاح فى فرنسا – إن الكنائس المصلحة فى كلا البلدين واحدة . وإبان المذابح التى أثارها الكاثوليك على الهوجنوت ، نجد جماعات منهم تأوى إلى نيوشاتل وجنيف . إن السويسرى الفرنسى ، تجرى فى دمائه رقة الشخصية الفرنسية ، إلى جوار قوة الشخصية السويسرية ، وحبها للحرية .

كلفن :

والآن نأتى إلى الحديث عن جون كلفن ، المؤسس الرئيسى للكنيسة المصلحة فى فرنسا ، وفى سويسرا الفرنسية — والذى طبع طابعه على كافة الكنائس المصلحة فى أوربا ، وأمريكا ، لأجيال قادمة — نكاد نقول إنه كان الشخصية التى تحتاجها أرضه وبلاده . فلو وضع فى زيورخ ، أو فى ويتمبرج ، لما استطاع أن يقوم بجدارة بالدور الذى قام به زونجلى أو لوثر . إن النعمة الإلهية تعرف كيف تضع الرجل المناسب فى المكان المناسب .

ولقد استمرت رسالة لوثر تسعة وعشرين عاما (١٥١٧ — ١٥٤٦) ، وزونجلى استمر مؤديا رسالته إثنى عشر عاما (١٥١٩ — ١٥٣١) . أما كلفن ، فقد قارب فى مدة خدمته خدمة لوثر (١٥٣٦ — ١٥٦٤) : الأول استمرت حياته إلى الثالثة والستين ، والثانى لم يعمر أكثر من سبعة وأربعين عاما ، أما كلفن ، فلم يزد عمره عن الرابعة والخمسين . ومع أن كلفن لم تتميز حياته بالمآسى التى تميزت بها حياة كل من لوثر وزونجلى إلا أن الهدوء النسبي الذى تمتع به ، قد أتاح له فرصة تنميق مبادىء الإصلاح ، وتهذيبها ، وكما قيل : لقد قام لوثر وزونجلى بقطع الأحجار من المحاجر ، وقام كلفن بصقلها وتجميلها — لقد قام الأولان بتقديم الأفكار الجديدة ، واستطاع الأخير أن يهذبها فى نظام ثابت — لقد قام كلفن على أكتاف لوثر وزونجلى ، واستطاع أن يعلو بالبناء إلى فوق .

ولم تكن فى شخصيته ألمعية لوثر ، ولا قوة زونجلى ، لكنه ترك الكنيسة أفضل حالا . لقد كان — إذا صح التعبير — رواقيا مسيحيا عنيفا : لا يلين حتى مع نفسه ، لكنه كان يطوى ضلوعه على قلب رحيم . ولم يثر

باسمه حماس الجماهير . ولم تقم له التماثيل . نظير ما أقيم لزونجلى . حتى المكان الذى دفن فيه جسده فى جنيف ، لا يعرفه أحد . لكنه فاقهم فى متانة خلقه ، وقوة تهذيبه . وما قدمه من تراث دينى .

ولكم اختلفت ظروف نشأة الثلاثة — فلوثر كان ابن فلاح تهذب فى مدرسة الرهبنة والتصوف . بتأثيرات أوغسطينوس وتولر وستوبتز . أما زونجلى فكان ابن حاكم سويسرى وبطل وطنى ، ودارس للأدب الكلاسيكى . وإرازمس . دخل من النهضة إلى الإصلاح . أما كلفن فهو مواطن فرنسى ، جامعى قانونى ، درس القانون واللاهوت . وبعقليته المنطقية المهذبة . تأهل لأن يبنى بناء « الكومنولث » المسيحى .

ولم يلتق لوثر بزونجلى غير مرة واحدة . ومع ذلك لم يفهم أحدهم الآخر . ولقد مد بطل إصلاح سويسرا ، يد الصداقة إلى بطل ألمانيا . لكن لوثر رفضها فى تمسكه بعقيدة خاصة . لكن كلفن لم يلتق بأى من الإثنين ، بل كان صديقا لملانكثن حتى نهاية العمر . ومع ذلك ، فقد كان يقدر لوثر فوق زونجلى ، وكان يقول : « لوقال عنى لوثر أننى الشيطان بعينه ، فإننى لا أنفك أسميه خادم الله الأمين » أما لوثر فلم يتعرف إلا على كتابين اثنين من كتابات كلفن ، فأعجب به أيما إعجاب وكان يرسل له تحياته عن طريق ملانكثن .

ثيولوجية كلفن :

وفى ثيولوجيته . كان كلفن وسطاً بين لوثر وزونجلى . أما ملانكثن فقد كان الوسيط بين لوثر وكلفن . كان الصديق للإثنين ، ولو أننا نقول إنه كان مغايرا فى طبعه لهذا وذاك : رجل سلام بين رجلى ثورة .

أما المراسلات بين كلفن وملانكثن والتي تدور حول مشكلة الإختيار المسبق ، والإرادة الحرة ، فهى تكشف عن نفسية وعقلية كل منهما . فإن الإختلاف البين فى العقيدة ، لم يكن له أثره على الصداقة الشخصية .

إن الصداقة التى ضمت المصلحين فى أكثر من بقعة وشعب ، تبين لنا أن اليد المدبرة واحدة — إنها يد الله وتدبير الله . لقد كان الجميع على رغم اختلاف النشأة والظروف والفكر والعقيدة الفرعية ، يعملون معا للهدف الواحد ، الذى فى سبيله كانوا على استعداد أن يجابهوا الموت والنيران دون أدنى تردد .

فلو أننا نظرنا إلى مكانة كلفن فى التاريخ المسيحى ، فإننا نقول إنه كان قبل كل شيء لاهوتيا عظيما ، فهو يحتل مركز الصدارة فى تبويب العقيدة المسيحية المصلحة . فهو ليس أقل من أوغسطينوس وسط الآباء، أو توما الأكوينى وسط المدرسيين .

أما ثيولوجيته ، فهى ، تقوم على معرفة دقيقة للكتاب المقدس . فهو أقدر مفسر للكلمة بين المصلحين — وتفسيراته تعتبر من أقوى ما ظهر فى هذا المجال ، بين القدامى والمحدثين . إن فكره اللاهوتى فكر كتابى ، أكثر منه فلسفياً مدرسياً . وهو يصطبغ بصبغة روحانية تعبدية . فضلا عن ذلك ، كانت له الجدلية المنطقية ، بحيث يقنع بكل سهولة من يخالفه فى الرأى — وهكذا استطاع أن يبنى بناء لاهوتيامتكاملا ، عرف فيما بعد بالكلفينية .

والكلفينيه من أقوى النظم العقائدية فى الكنيسة — وهى أقوى منطلقا من اللوثرية والأرمينية—ونستطيع أن نضعها جنبا إلى جنب مع الأغسطينية ،

فهى تشاركها عمق التغلغل فى الفكر الرسولى البولسى ، فى تعليمه عن الخطية والنعمة — ولكن العيب الوحيد فيها ، هو تضييق دائرة عمل النعمة الإلهية ، حتى لاتضم إلا فئة قليلة مختارة ، مناقضة بهذا إعلان الله ، عن محبته للعالم أجمع — إنها ثيولوجية سلطان الله ، أكثر من قلب الله . ومع ذلك ، فمحبة الله المعلنة فى المسيح ، هى مفتاح شخصية كلفن ورسالته — كما أنها الحل الوحيد لمشكلة الخطية :

ولم يحدث فى كيان كلفن الثيولوجى ، ذلك التطور والتغيير ، الذى نلمسه فى فكر لوثر وملانكثن ، وذلك التناقض الذى نلمسه فيهما : لقد استمر متمسكا بعقيدة شبابه حتى نهاية حياته . ولعل العمل الذى يلخص عقيدته بكاملها ، هو « أسس الديانة المسيحية » . وهو عمل دفاعى (Apologetic) له قيمته .

وفى المقام الثانى ، يأتى دور كلفن كمشرع . فهو واضع أسس السياسة الكنسية ، التى حصنت البروتستانتينية ، وزادت من قوتها ، وجعلتها تقف فى وجه تنظيم روما القوى من جانب ، والإنحرافات العقائدية عن الحق المسيحى من الجانب الآخر — بهذا نستطيع أن نضعه فى صف البابا هلدبراند، الرجل الحديدى ، الذى أصلح البابوية فى عصره، على أساس مبادىء الزهد والتقشف ، وأرسى قواعد ثيوقراطية العصور الوسطى — بينما استطاع كلفن ، أن يشكل الكنيسة المصلحة ، على أساس مبادىء اجتماعية سليمة ، وأقام ثيوقراطية جديدة ، على أساس الكهنوت العام المشترك لكل المؤمنين . الأول أثبت سلطان الكنيسة على الدولة ، والثانى أثبت سلطان المسيح على الكنيسة والدولة معا — لقد وحد كلفن القوى الروحية والزمنية معا — كذراعى الله العاملين فى الوجود ، على

أساس خضوع الدولة لناموس المسيح . وآخر مظهر لهذه الثيوقراطية الكلفينية ، هم البيورتان فى انجلترا (١٦٢٠) ، الذين استمر أثرهم لعدة قرون .

وقد قال جون نوكس مصلح اسكتلندا : «إن المدرسة التى أقامها كلفن للمسيح هى أكمل مدرسة ظهرت منذ العصر الرسولى » .

إن كلفن فى تشدده ونظامه ، يبدو لنا كابن للعهد الموسوى ، أكثر منه ابناً العهد الجديد . ومع أنه قد مضى ، إلا أن نظامه قد تبلور فى العصور اللاحقة ، فى أكثر من هيئة لها نظمها الأخلاقية المتشددة نظير المشيخية وغيرها .

هـــذا المزيج من العقيـــدة المتزمتة ، والنظام المتشدد ، هو الأساس الذى قامت عليه هيئات الهوجنوت فى فرنساوالبيورتان (المتطهرين) فى انجلترا ، والمتعاهدين فى اسكتلندا ، والآباء المهاجرين فى مقاطعة انجلترا الجديدة — على أن الجانب الثالث فى تأثير كلفن ، كان أثره فى تطور الأدب الفرنسى . فهو يحتل مكانة لا تبارى ، فى تاريخ اللغة الفرنسية ، كما أن لوثر كان له فضله على اللغة الألمانية . أما لوثر فقد أعطى للألمان ترجمة عظمى للكتاب المقدس فى لغتهم القومية ، كما أعطى كتابا للترانيم . أما كلفن ، فمع أنه لم يكن له الحظ فى ترجمة الكتاب إلى الفرنسية ، إلا أنه قدم مؤلفاته العديدة فى اللغة الفرنسية الكلاسيكية ، كما فى اللغة اللاتينية . لقد كان من تلاميذ عصر النهضة . لكنه جعل النهضة الأتان الذى يركبه المسيح ، ويدخل به إلى المجتمع الأدبى .

إن اللغة الفرنسية الحديثة ، وكذلك الأدب الفرنسى الحديث ، يؤرخان من عصر كلفن ورابلييه (١٤٨٣ — ١٥٥٣) . لكن كلفن ،

كان يتميز عن زميله الساخر الأبيقورى ، بروحه المتدينة ، وخدماته للفكر اللاهوتى المسيحى .

ولد كلفن فى نيون من أعمال بيكاردى الفرنسية . وكان والده محاميا ناجحا ، له صلاته بالنبلاء ورجال الكنيسة فى دائرته .

ولقد تلقى أوائل تدريبه فى بيت أحد النبلاء مع أبنائه . وهذا التدريب كان له أثره فى تهذيب شخصية كلفن وصقله . وحين بلغ الرابعة عشرة من العمر ، كانت أمنية والده ، أن يجعله ينخرط فى سلك الكهنوت ، وهكذا أرسله إلى باريس ليتلقى دراسات تمهيدية لذلك — وبعد مرور خمس سنوات على دراساته ، عاد والده وقرر أن يصبح محاميا . فأرسله للإلتحاق بجامعات أورليانز وبورجز ، ولم يعمر والده طويلا ، فقد مات قبل أن يتجاوز كلفن الثانية والعشرين ولم يكمل دراساته بعد . وهكذا أتيحت له الفرصة ليتم رغبة كان يتمناها ، وهى أن يصبح من رجال الأدب . ولأجل هذا عاد إلى باريس ، لينال اجازته العلمية فى أكبر جامعاتها .

أما متى ، وكيف ، وأين أصبح كلفن من أتباع الحركة الإصلاحية ، فإننا لا نستطيع أن نجزم . ولعل ذلك جاء نتيجة لدراسته لكتابات لوثر نفسه — ولقد حدث هذا التغيير فى حياته فجأة ، واقترن بحياة روحية سليمة ، وتدين عميق . وقد أعلن تجديده عام (١٥٣٣) وفى أواخر ذلك العام ، اضطر إلى الهروب من باريس ، عندما بدأ يحس بقرب حدوث موجة من الاضطهاد . وكان لم يتجاوز بعد السادسة والعشرين من العمر ، عندما نشر فى بازل كتابه الأول « أسس الديانة المسيحية » ، وقد رفعه هذا الكتاب إلى مصاف قادة الكنيسة المصلحة . وكان الكتاب فى بادىء الأمر

بحثا مختصرا : ولكنه فى طبعاته اللاحقة ، تطور ليصبح عملا كلاسيكيا مطولا مبوبا ، من أجزاء وفصول ، حتى إننا نعتبره إقراراً للإيمان المسيحى ، كما يتمسك به البروتستانت . وعلى كثرة ما صدر بعده من إقرارات للإيمان ، فإنه لم يصدر حتى الآن ، ما يضارعه فى الشكل أو المضمون . إنه دفاع قوى عن الحق المسيحى ، ضد هجمات البابويين والمغرضين . وفى يناير (١٥٣٦) قضى كلفن ليلة فى جنيف . وهذه كانت مدينة كبرى ، تضم فى ذلك الحين ، ثلاثة عشر ألفا من الأنفس — كانت مدينة ناجحة ، لكنها منحلة أخلاقيا .ولقد نجح فيها عمل الإصلاح على يدى الواعظ الفرنسى ،والقائد الجسور وليم فارل . وكان يحكمها أسقف هو أيضاً ، سيدها الإقطاعى ، غير أنها استطاعت أن تكسب حريتها وتنتصر عليه ، وتعلن نفسها كواحدة من أتباع الحركة البروتستانتية . لكن فارل كان يرى أن ما قام به لم يكن سوى البداية . وأن الصبغة الخارجية التى اصطبغت بها المدينة ، مازال أمامها الكثير ، حتى تتغلغل فى الداخل ، وتغير الطباع ، والأخلاق . وأحس بأنه ليس الإنسان الكفء للقيام بهذا الدور . وبينما كان يبحث عمن يقوم بمعاونته ، التقى بكلفن ، الذى تصادف وجوده كما أسلفنا فى تلك الليلة فى المدينة — وكانت مواهب المصلح الفرنسى هى الوحيدة التى يحتاجها فارل ، وتحتاجها جنيف . لكن كلفن كان مصرا على الإستمرار فى دراساته ، رغم توسلات فارل . ولما لم يجد فارل وسيلة لإقناعه ، قال له أخيرا « إن لعنة الله سوف تستقر عليك ، إن رفضت دعوته للخدمة هنا ، فى المكان الذى يحتاج إليك » . وهكذا بصلوات كثيرة أقنعه بالعمل .

وقد التقى كلفن أول ما التقى بما خيب رجاءه — إذ كان سكان المدينة قانعين بحياتهم ، ولا يريدون تغيير نظمهم فى شىء . فلم يقبلوا فى أعماق قلوبهم روح الإصلاح . وهكذا اشتدت المعارضة ضد كلفن وفارل ، مما انتهى بنفيهما خارج المدينة . وقد قضى كلفن سنوات ثلاث فى ستراسبورج راعيا للفرنسيين البروتستانت . وهناك تعرف بكثيرين من قادة الإصلاح ، وظهر بينهم وتميز عنهم .

الأوضاع فى جنيف :

أما فى جنيف فقد سارت الأمور من سىء إلى أسوأ ، حتى أن الجماعة الطيبة فى المدينة ، رأت الخسارة التى لحقت بها بغياب كلفن ، فأرسلت تدعوه وتلح فى الرجاء . وبعد تردد كثير ، عاد إليها فى عام (١٥٤١) . لكنه فى أعماق قلبه ، قرر أن يجعل من المجتمع هناك ، مدينة مسيحية مثالية ، تصبح مركز إشعاع إنجيلى للبروتستانت فى كل مكان ، ولقد كان يعرف أن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لن ترضى بهذا ، وأنها ستناصبه أقسى درجات العداء . غير أنه أعد نفسه لأسوأ الفروض .

وكانت طريقته لجعل جنيف مدينة مثالية ، أن يعيد تنظيم الكنيسة ، وتنظيم النظام التربوى بجملته : فإذا جئنا للكنيسة ، فإننا نراها تشرف على حياة الأهالى بجملتها ، لأن المدينة قبل مجىء كلفن ، قررت أن تكون ضمن حركة الإصلاح . وهكذا ، فإن تنظيم الكنيسة البروتستانتية ، كان معناه التأثير على كافة أفراد الشعب هناك . . وبدأ كلفن خطته ، بتعيين رعاة أكفاء ، متعلمين ، غيورين فى الخدمة ، أمناء فى الرعاية . ثم أنشأ مجلس الشيوخ الكنسى ، مكونا من كبار رجال الكنيسة ، وكانت وظيفة هذا المجلس ، هى الإشراف على الرعاة معاً : أما الشمامسة ، فكانوا هيئة

تدبيرية ، تشرف على تقديم الإعانات للأسر المحتاجة وتقوم بالخدمات الإجتماعية فى الكنيسة .

وخطة كلفن لتطوير نظم التربية ، كانت تهـدف إلى ربط التعليم بالدين . فالإيمان المصلح بحاجة إلى رعاة متعلمين ، وبحاجة إلى رعوية مثقفة . وهكذا أقام مجموعة من المدارس الحرة ، على رأسها الأكاديمية العليا ، التى تتيح لطلابها نوال الدرجات الجامعية ، وفيها تدرس العلوم اللاهوتية . ولقد حرص كل الحرص على أن يجتذب لها أفضل الأساتذة وأقواهم ، حتى أصبحت جنيف مركزاً للعلم ، وطبقت شهرتها آفاق أوربا . . ولقد تخرج كثيرون من أكاديمية جنيف ، ممن وفدوا من أكثر من بلد ، وعادوا إلى بلادهم ، ليحتلوا مراكزهم كرعـاة ناجحين للكنائس .

وخلال حياته وخدمته فى جنيف التى استغرقت ثلاثة وعشرين عاماً ، رأى كلفن الكثير من ثمار عمله وخدماته . أما المدينة المنحلة ، فقد أصبحت مدينة مثالية ، مشهوداً لها بنظامها ، ومسيحيتها ، وحياة سكانها . ولم يصل كلفن إلى هذا بسهولة ويسر ، بل قاسى الكثير من المقاومة والإعتراض حتى بدا له فى وقت من الأوقات ، أنه لا جدوى من أتعابه ، وأن الأجدر به أن ينفض يده من كل شيء ويعود أدراجه . ولكنه ظل يجاهد ، وزاد فى نجاح مجهوداته ، وفود كثيرين من البروتستانت اللاجئين من الإضطهاد من دول أخرى ، واستقرارهم فى المدينة ، وهؤلاء كانوا تطعيما قوياً لشعبها ، وغرساً جديداً فى وسطها .

وإزاء هذه المجهودات المضنية ، لم يكن غريباً أن نجـد كلفن فى السنوات التسع الأخيرة من حياته ، حاكم المدينة الفعلى الذى لا ينازع

إلى أن جاءت هرطقة سيرفيتوس ، وهو طبيب أسبانى ، أنكر تعليم الثالوث الأقدس ، فكانت النتيجة أن التأم مجلس لمحاكمته ، وكان كلفن أحد قضاته ، وأصدر عليه حكم الإعدام ، وتم تنفيذ ذلك بإحراقه علناً ، فى أحد ميادين جنيف . وقد وجه النقد إلى كلفن بسبب ذلك ، وفقد شيئاً من شعبيته . لكننا نستطيع أن نقول إن تلك كانت العادة السارية فى القرون الوسطى ، وإن الإنحراف عن الإيمان القويم ، كان نصيبه أن يفضى بصاحبه إلى عامود الإحراق . إننا ننظر إلى مثل هذه التصرفات ، فى نور حضارة القرن العشرين . لكن ينبغى أن نذكر ، أن المجتمع البروتستانتى ، كان موافقاً على مثل هذا الحكم ، بل إنه إذا لم يظهر كلفن مثل هـــذه الروح الحازمة ، فلربما اتهمه أعداءه بالتسيب ، وقرنوا هذه الهرطقة بحركته — إن كلفن بجهاده فى جنيف ، قد استطاع أن يصل إلى نتائج ثلاث ، فقد أصبحت المدينة أخلاقياً ، مثال المدينة التى تتمسك بمبادىء الإصلاح . وهكذا أصبحت مركز إشعاع لكافة المناطق التى تحيط بها — ثم صارت ملجأ لكل المضطهدين بسبب تمسكهم بالحق . وإليها كان يفد اللاجئون من فرنسا ، وهولندا ، وألمانيا واسكتلندا ، فيجدون الباب المفتوح والقلب المفتوح .

كما أنها كانت مركز تدريب للقادة البروتستانت ، يتخرج الخدام والرعاة والمبشرون من أكاديميتها ، ليذهبوا إلى بلدانهم ، رسلا للإصلاح فى كل مكان ، ويكونون نواة لنشر التعاليم الجديدة . ويكفى أن نقول إن جون نوكس ؛ بطل الإصلاح فى اسكتلندا ، استلم تأثيراته من لقائه بكلفن ، وتأثر به — إن كلفن بما قام به فى جنيف ، أستطاع أن يدفع بالمدينة إلى الأمام فى طريق التطور . أما الطريق الثانى الذى اتبعه كلفن فى هذا السبيل ، فقد كان اتصاله بالقادة البروتستانت فى أكثر من مكان .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول ، إنه كان على رأس الإصلاح فى فرنسا ، ولو أنه لم يعد إلى بلاده ، قبل أن يبلغ السابعة والأربعين من العمر . على هذا النمط كان أثره فى حركة الإصلاح فى أكثر من دولة وقطر .

والطريق الثالث كان تأثيره بكتاباته ، وعلى الأخص كتابه الأشهر « أسس الديانة المسيحية » .

وهكذا استطاعت أفكار كلفن ، أن تسيطر على حركة الإصلاح فى كل من فرنسا ، وهولندا ، واسكتلندا ، وأجزاء من ألمانيا . بل كان لها الأثر الأكبر فى إنجلترا . وحين نتأمل الإنجازات العظمى للبروتستانت فى تلك الدول ، يجب ألا ننسى ، أن الفضل يرجع إلى المصلح الفرنسى أصلا جون كلفن .

أثر كلفن فى فرنسا :

والآن لا ضير علينا ، لو تحدثنا فى كلمات قلائل ، عن أثر كلفن فى فرنسا ، وعن حركة الإصلاح هناك — ففى مستهل القرن السادس عشر ، ظهر بعض من الذين تأثروا بعصر النهضة ، ودرسوا الكتاب المقدس فى لغاته الأصلية ، وأصبحوا متحمسين لتفسيره والمناداة به . ولكن حينما قامت ثورة الإصلاح فى ألمانيا ، وانتشرت كتب لوثر وأفكاره ، تفتحت الأذهان إلى خطورة ذلك على كيان الكنيسة الكاثوليكية . وبدأ عصر الإضطهاد الدينى — إلى أن جاء عام (١٥٣٨) ، حينما قرر الملك فرانسس الأول ، أن يقاوم بكل قواه التعاليم البروتستانتية . فى تلك الأثناء ، كان كلفن يحتل مركز الصدارة فى المناداة بالإصلاح ، فى جنيف ، وعن طريق قساوسته ومبشريه وكتاباته ، كان له الأثر الأكبر ، فى توجيه حركة الإصلاح هناك . وعلى الرغم مما لقيه المصلحون فى فرنسا ، من مقاومة دموية ،

انتشر الإصلاح انتشار النار فى الهشيم ، فى كل جزء من ربوعها . وفى عام (١٥٥٩) ، تأسست بالفعل الكنيسة البروتستانتية الفرنسية . وعلى نمطها ونمط سياستها ، قامت الكنيسة الأسكتلندية فى العام التالى ، ونظمت الكنائس المشيخية الأخرى – فى تلك الفترة ، بدأت صبغة البروتستانتية تتغير إلى حد ما . وكما حدث فى حركة الإصلاح فى سويسرا ، حينما مدت الكنيسة يدها إلى الجالسين على كراسى الحكم ، واختلط الدين بالسياسة هناك ، هكذا حدث فى حركة الإصلاح فى فرنسا ، إذ أن كثيرين من الأمراء ورجال الطبقة العليا والنبلاء ، انضموا إلى الحركة البروتستانتية ، واحتلوا القيادة فيها . وكان البعض من هؤلاء الأمراء ، يجرى فى عروقهم الدم الملكى . وهؤلاء بالطبع ، شعروا أنه من المهانة أن يعاملوا باحتقار ، أو يقع عليهم الإضطهاد ، فقرروا المطالبة بحقوقهم ، وضمان حياتهم ، وكرامتهم ، وإلا فلا بديل للثورة المسلحة . إن جهادهم لم يكن مقصوراً على العمل لنشر التعاليم المصلحة فحسب ، بل امتد إلى المطالبة بضمان حقوقهم ، وحرياتهم – هذه الحركة الجديدة التى ولدت فى أحضان البروتستانتية الفرنسية ، عرفت فى التاريخ باسم حركة « الهوجنوت » ، ونظم أولئك صفوفهم ، تحت إمرة أدميرال كولنى ، والأمير كوندى ضد كاترين دى مديتشى . واندلعت الحرب عام (١٥٦٢) وهى واحدة من الحروب الدينية الثمانية ، التى كادت تحطم فرنسا .

مذبحة الهوجنوت :

أما روح الخيانة ، فقد ظهرت بأجلى صورها فى مذبحة سان برثولماوس التى قام بها الكاثوليك . وكان المسئولون عن هذه المذبحة هم كاترين دى مديتشى ، والبابا بيوس ، وفيليب الثانى ملك أسبانيا .

ولكى يجتذب ملك فرنسا جموع الهوجنوت فى بقعة واحدة ، تظاهر بأنه يريد أن يضع دعائم سلام دائم بين أطراف النزاع فى بلاده — فأعلن أنه سيزوج شقيقته مرجريت دى فالوا لهنرى دى نافار ، أحد الملوك الذين اعتنقوا العقيدة البروتستانتية . كما أرسل رسلا لكولونى ، وكبار زعماء الهوجنوت ، داعياً الجميع إلى حفل الزواج ، الذى سيقام فى باريس . وعقد الزواج فى كاتدرائية نوتردام دى بارى ، فى ١٨ أغسطس عام (١٥٧٢) فى احتفال عظيم . ثم أعقب الإحتفال سلسلة من الولائم الملكية ، اشترك فيها البروتستانت مع الكاثوليك . وبذلك تبددت مخاوف الهوجنوت وبدا كأن عصر سلام سيشرق على البلاد ، بعد طول صراع وحروب دامية . ولكن فى نفس الوقت الذى كان فيه البروتستانت فى فرح واستبشار كان الكاثوليك يرتبون الترتيبات اللازمة ، لمذبحة رهيبة لجميع أفراد الهوجنوت .

وأول محاولة فى هذا الصدد ، كانت لاغتيال القائد البروتستانتى كولنى فقد تبرع الملك بخمسة آلاف قطعة ذهبية ، لمن يأتى برأسه . غير أن المحاولة لم يقدر لها النجاح . وأظهر الملك الفرنسى المنافق استياءه لهذا الحادث ، وأقسم أن ينتقم من فاعله شر الإنتقام .

وكانت ليلة ٢٤ أغسطس هى ساعة الصفر لبدء المذبحة . وحينما اقتربت الساعة من الثالثة بعد منتصف الليل ، كانت ليلة عيد القديس برثولماوس ، دق الناقوس الكبير ، ناقوس كنيسة سان جرمانوس ، مؤذناً بحلول ساعة صلاة البكور . وكانت هذه هى الإشارة المتفق عليها .

فما لبثت أجراس كافة الكنائس فى باريس أن دقت دقاتها . وفى نفس الوقت ، انطلق الرعاع السفاحون ، يطلقون بنادقهم . وكانوا قد اتفقوا

فيما بينهم ، على أن يرتدوا قبعة يميزها صليب أبيض . وكل من لم تميزه هذه العلامة كان نصيبه الموت .

وأسرع دوق جيز إلى مسكن كولونى — الذى استيقظ على صوت إطلاق الرصاص — على رأس ثلثمائة جندى . وأمر أحد خدامه بأن يغتاله. فما لبث أن أغمد السيف فى صدره ، وألقى بجثته إلى الشارع . ولما عرف الكاثوليك أن قائد البروتستانت قد اغتيل ، تعالت صيحات انتصارهم . « لله وللملك » ، واندفعوا كالوحوش الضارية ينفذون مهمتهم . فحوصرت جميع بيوت البروتستانت ، واقتحمها السفاحون ، وذبحوا كل من فيها ، حتى النساء والأطفال ، وألقوا بجثثهم إلى الشوارع . ولم يأت اليوم الرابع حتى كان الهوجنوت قد محقوا من باريس ، وغصت الشوارع بأكوام المذبوحين ، وسالت دماؤهم أنهاراً . أما هنرى دى نافار ، وضيوف الملك الذين أفرد لهم جناحاً خاصاً فى قصره ، فقد استدعاهم الوحوش واحداً بعد الآخر ، وذبحوهم فى الشارع ذبح النعاج ، تحت سمع وبصر الملك الفرنسى ، وألقوا بجثثهم فى نهر السين .

وفى يوم الخميس ، عقد الكهنة الكاثوليك مهرجاناً عاماً ، وارتفعت من على المنابر صلوات الشكر لله وصك البابا بيوس ميدالية ذهبية بهـذه المناسبة ، على أحد وجهيها صورته ، وعلى الوجه الآخر صورة الجند يطاردون الهوجنوت ، وقد بدوا فى شكل خنازير ، وأعلن غفراناً عاماً لهذه المناسبة السعيدة . ويقدر عدد الذين هلكوا فى تلك الأيام القليلة ، بحوالى سبعين ألفاً . منهم أربعة آلاف قتلوا فى باريس . ولقد عم الاستياء فى جميع الممالك التى أقرت عقائد الإصلاح ، فى انجلترا ، وألمانيا ، وسويسرا . وأعلنت الملكة اليصابات الحداد فى البلاط الملكى — أما فى سويسرا ، فأقيم يوم صلاة عام ، فى ذكرى هذه الحادثة المشئومة .

أما الملك الفرنسى القاسى ، الذى غرر به الكاثوليك ، وقالوا له : « إن الأمر الإلهى لك هو ، إذهب وحرم عماليق » فلم يعمر أكثر — من عامين بعد هذه المذبحة .

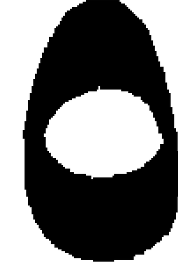
وفى أخريات أيامه ، أصيب بالجنون ، فكان فى اليقظة كما فى المنام ، يرى جثث الموتى حوله ، بروؤسهم المقطوعة فى كل مكان — على سريره — وعلى مائدته ، حتى أتى الموت أخيراً وأنهى حياته .

ومثلما دبرت مذبحة باريس هكذا ، دبرت مذابح أخرى فى أكثر من إقليم . لكن إثنتى عشرة مقاطعة ، رفضت تنفيـــذ أوامر الملك — ومن الأشخاص الجديرين بالثناء ، أسقف ليزييه ، الذى حينما جاءه الأمر بذبح الهوجنوت ، كان جوابه على الرسول : « لا يا سيدى — إن أولئك الذين تأمرنى بذبحهم ، هم أيضاً رعيتى — وإن كانوا قد ضلوا عن القطيع الذى عهد به إلى يسوع المسيح ، فإننى أرجو يوماً رجوعهم . فالراعى الصالح لا يسمح بسفك دماء خرافه ، بل بالعكس يبذل دمه وحياته من أجلهم » .

أما فى روان ، وتولوز ، وأورليانز ، وليون ، فقد استمر ذبح البروتستانت ستة أسابيع كاملة . ونهبت وخربت بيوتهم ، وجرفت مياه الأنهار الألوف من الجثث .

وأعتقد أن الصفحات تضيق عن ذكر كافة الحروب والمذابح الأخرى ، التى دبرتها روما ضد البروتستانت .

ولكن على الرغم من هذه الضربة القاضية ، استطاعت البقية الباقية أن تنظم صفوفها ، وتستمر فى القتال حتى عام (١٥٩٨) ، حينما انتهت الحرب بمرسوم نانتس الملكى الشهير ، الذى أعطى البروتستانت شيئاً من الحقوق . وتضمن بنوداً من التسامح ، ونضرب صفحاً عن بقية ما ورد فى الصفحات الحزينة .



الاصلاح فى هولندا واسكتلندا ووسط أوربا

[هولندا (الأراضى المنخفضة) ــ مجمع دوريت ــ السويد ــ الدانمرك ــ اسكتندا ــ جون نوكس]

لقد كانت بلاد الأراضى المنخفضة ، هى التركة التى ورثها شارل الخامس ، ليكمل سلسلة عدائه واعتداءاته ، ضد تحركات الإصلاح ؛ فحينما بدأت تنتشر العقائد اللوثرية هناك ، أقام محاكم التفتيش ، التى كان من نتائجها إحراق شخصين عام (١٥٢٣) وكانا أول شهيدين من شهداء الإصلاح . لقد ظل ذلك الملك الأسبانى الأصل ، نصف الألمانى ، يحارب حركات الإصلاح فى كافة البلدان ، التى تقع تحت سلطانه ، لمدة تقرب من ثلاثين عاماً ، قاتلا الألوف من رعاياه ، ومع ذلك استمرت حركات الإصلاح فى تقدم وازدهار . وبظهور كلفن ، إزدادت رسوخاً وانتشاراً ، بتغلغل المبشرين من فرنسا ، وجنيف . وهنا بدت الكلفينية كما فى كل مكان آخر ــ أرسخ قدماً :

وفى عام (١٥٥٥) ، بعد استقالة شارل ، خلفه فى الحكم فى أسبانيا ، كما فى الأراضى المنخفضة ، فيلبس الثــانى ، الذى كان أكثر قسوة وجموداً ، حتى أن كثيراً من المناطق ، أظهرت روح التمرد على القسوة والمظالم الأسبانية ، التى كانت تستنزف ثرواتهم ، وتصادر حرياتهم ،

وتبطش بأحرارهم . وقد ظهر فى تلك الحقبة الكثيرون من الأبطال ، الذين كان معظمهم من البروتستانت . وهكذا اقترنت الحركة البروتستانتية هناك بحركات التحرر الوطنى .

أما حركات التحرر الوطنى ، فقد تزعمها وليم الصامت أمير أورنج ، وهو ألمانى الأصل . وكان من أنبل من ظهروا هناك . وإذ رأى أن فيليب الثانى يكتل قواته لسحق كل مقاومة لحكمه ، انسحب من ألمانيا ليعد نفسه للحرب . ومع أنه فى الأصل كان كاثوليكياً ، إلا أن أمور الدين لم تكن تهمه كثيراً ، حتى أننا نراه يعتنق المبادىء البروتستانتية ، ويداوم على دراسة الكتاب المقدس ، الأمر الذى انتهى به ، إلى أن يكون تابعاً متحمساً لمبادىء الإصلاح . زد على ذلك أن ما شاهده من مناظر الإستشهاد ، قد عمق فيه الشعور الدينى ، وهكذا أيقن فى نفسه ، أن العناية الإلهية قد اختارته ، أداة فى يد القدير ، لتخليص شعبه من ظلم الحكم الأسبانى . وقد تمثل نبله ، فى عقله المتسع ، وقلبه الرحيم ، وروحه المتوقدة . وهذه هى مؤهلات القائد الناجح — وطوال عمره ، كان هدفه أن يكفل حرية العقيدة لكل إنسان — وفى عام (١٥٦٧) ، تحركت الجيوش الأسبانية تحت قيادة عملاق بابوى قاس هو دوق ألفا ، وكان لبطشه ومذابحه أكبر الأثر ، فى إضعاف حركة الإصلاح ، فى الجانب الجنوبى من المنطقة . وفى العام التالى ، زحف وليم الصامت فى حربه التحريرية ، وتوالت انتصاراته ، ومواقفه ، التى تكون فصلا من أمتع الفصول فى تاريخ حروب التحرير . وحينما رأى أن البروتستانتية قد كسرت شوكتها فى الجنوب ، ألقى بثقله مع أهل الشمال . وقد حدثت نقطة التحول فى الحرب حينما قطع الأهالى السدود ، وأغرقوا المناطق بفيضان المياه ، ومهدوا لوصول السفن بالإمدادات والعتاد إلى الداخل ، لمعونة السكان الثائرين .

وبعد عراك مرير ، استطاعوا أن يفكوا حصار ليدن . ومع أنه بقيت أكثر من جولة أخرى مع فيليب الثانى ، إلا أنه كتب له الانتصار أخيراً .

ولم يتمتع ذلك القائد طويلا بثمار انتصاره . فقد دبر البابويون اغتياله — حسب العادة — عام (١٥٨٤م) . لكن مثاله ظل يلهم جيش التحرير « ألا نبخل بالمال أو بالدم بمعونة الله ، فى سبيل الوصول للهدف المجيد. » حتى تم النصر للمصلحين فى عام (١٦٠٩) .

وهكذا ظهرت للوجود دولة هولندا البروتستانتية الفتية . وقد تأسست كنيستها بإقرار الإيمان المصلح ، وبنوع من الحكومة ، يقوم على أساس تعاليم كلفن . ومن كنيسة هولندا تفرعت الكنيسة المصلحة فى أمريكا ، وهى تلقب أحياناً بالكنيسة الهولندية المصلحة . وفى مستهل القرن السابع عشر حدث خلاف حول بعض الأمور اللاهوتية فى المجتمع هناك . فتمسك فريق منهم بالفكر الكلفينى فى أضيق حدوده من ناحية الإختيار المسبق (Predestination) ، وفحواها أن الله قد اختار البعض للهلاك ، والبعض الآخر للخلاص ، وزادوا على ما نادى به كلفن نفسه . بينما قام فريق آخر يناهض هذا الرأى ، وينادى بأن المسيح مات عن الجميع ، وأن هدف الله منذ البدء ، هو خلاص الجميع فى يسوع المسيح . وقد لقب الحزب الأخير بالأرمينيين ، نسبة إلى أرمينيوس الذى تزعم هذه الحركة .

مجمع دوريت :

ولكى يحسم هذا النزاع العقائدى ، عقد مجمع دوريت (١٦١٨) ، الذى ناصر الرأى الأول ، وأدان الرأى الثانى . ولكن مع ذلك انتشرت تعاليم الأرمينيين فى انجلترا ، ثم بعد ذلك فى أمريكا . فإذا أتينا إلى تطور الإصلاح فى ألمانيا نقول ، إنه كان هناك كثيرون من أتباع زونجلى ، فى

قلب كنيسة ألمانيا ، وعلى الأخص فى الجنوب . وكان أولئك هم نواة الكنيسة الألمانية المصلحة . وحينما ابتدأ تأثير كلفن فى جنيف ، وامتد إلى ما حولها ، فضلت بعض المناطق عقيدة كلفن على عقيدة لوثر . وقد ظهر هذا بصورة واضحة ، فى المناطق الكائنة بوادى الراين ، حيث كان رئيسها المنتخب فردريك الثالث ، إنساناً شديد التدين وكلفينياً مخلصاً . وهكذا إزداد عدد المصلحين وتكاثر ، وصدر قانون إيمانهم (١٥٦٣) باسم «إقرار إيمان هيدلبرج » .

أما فى المجر فقد انتشرت التعاليم البروتستانتية بسرعة فى القرن السادس عشر . هناك كان اللوثريون جنباً إلى جنب مع الكلفينيين ، الذين كانوا يكونون الأغلبية . ومع ذلك ، ورغم الكثير من الخلافات ، قامت كنيسة مصلحة قوية . أما فى الدانمرك والسويد فقد انتهيا إلى الإنفصال عن روما ، ولكن كانت لها ظروفهما الخاصة . فمنذ عام (١٥٢٠) إلى عام (١٥٢٥) ، كان يحكمهما دكتاتور ظالم هو الملك كرستيان الثانى ، لم تكن له المقدرة على تدبير شئون بلاده ، ولكنه أراد أن يجعل من نفسه ملكاً مطلقاً . فثارت عليه الدولتان وتم خلعه عن العرش ، واتخذت كل دولة طريقها .

السويد :

أما فى السويد ، فقد ضاق الشعب ذرعاً بمظالم كل من الإقطاعيين والكهنة على السواء — واشتاق أفراده إلى ملك قوى صالح يتولى حكمهم . هذا ما كان يتمناه الفلاحون فى ألمانيا ، ولكنهم لم يصلوا إلى تحقيقه . أما فى السويد ، فقد تمكن الشعب من تحقيق ذلك ، بانتخاب الملك جوستاف ، واحد من النبلاء الذين وقفوا إلى جوار الشعب ، فى صراعه ضد الملك الأسبق . ولقد سانده الشعب فى برنامج إصلاحى شامل ، نظير ذلك البرنامج

الذى قام بتحقيقه هنرى الثامن فى انجلترا ، أما رجال الكنيسة ، فقد أذلوا أيما إذلال ، واستولت الدولة على كافة أملاكهم ، واستطاعت السويد فى سنوات قلائل ، أن تتبوأ مكانها البارز بين الدول الحديثة . بل إنها لعبت فيما بعد ، دوراً هاماً فى الأحداث ، فى الصراع الكبير بين الكاثوليك وقوات البروتستانت ، إذ قام جوستاف بدور هام فى حرب الأعوام الثلاثين .

الدانمرك :

وفى الدانمرك أيضاً ، وكانت النرويج معها تحت نفس التاج ، حلت ملكية جديدة بدلا من الملكية السابقة المستبدة ، وقامت الملكية الدنمركية ، على أنقاض الكنيسة المنهارة . أما اللوثرية فقد ازدهرت وانتشرت ، بحيث جاء الوقت الذى أصبحت فيه الدانمرك ، دولة بروتستانتية ، لعبت دورها هى الأخرى فى حرب الثلاثين .

اسكتلندا :

أما اسكتلندا فقد كانت مملكة مستقلة فى القرن السادس عشر ، تربطها صداقة مع فرنسا أكثر منها مع انجلترا . أما كهنتها ، فلم يكونوا من عتاولة البابوية . لا غرابة إذاً أنه حينما بدأت تعاليم الإصلاح تنتشر ، قبلها الشعب بسرعة ، على الرغم من معارضة الكنيسة ، والحكومة ، وإحراق الكثيرين من المبشرين البروتستانت ، حتى قيل إن كل شخص كان يملك نسخة من العهد الجديد من ترجمة وليم تندل الإنجليزية — وكما قيل إن الكتاب المقدس ظل يجوب البلاد طولها وعرضها ، ومر على أبواب قصر رئيس الأساقفة ، دون أن يحس بوقع أقدامه ، وسار فى الشوارع والأزقة ، دون أن يلحظه جواسيسه . ومع أن هذه شهادة حق ، إلا أننا لا ننكر ، أن الكنيسة

هناك اعتمدت أيضاً بدماء الشهداء — وكان أول الضحايا باتريك هاملتون — حفيد الملك جيمس الثانى . وقد تلقى دراساته فى جامعة باريس ، حيث حصل على درجة الأستاذية فى الآداب . ومنها عاد إلى بلاده (١٥٢٣) ، والتحق بجامعة سان أندروس . وقد أثار حوله الشبهات ، بسبب صراحته ومجادلاته ، ضد مفاسد الكنيسة ، الأمر الذى أثار عليه رجال البابا . ولما أحس هو بذلك هاجر إلى ألمانيا ، وفى ويتمبرج قضى فترة مع ملانكثون ولوثر . ثم عاد إلى بلاده فى عام (١٥٢٧) ، لينادى بإنجيل المسيح . وقد قدمت الشكاوى ضده إلى بيتون رئيس الأساقفة فى سان أندروس .

وحسب عادة رجال البابا استدرجه الأسقف إلى شرك ، مدعياً أنه يريد أن يتناقش معه بحضور آخرين ، فى هذه الأمور . ولم يكن باتريك يدرى أنه يستدرجه إلى محكمة كاملة عقدت على عجل ، وأحيط مبناها بألوف من الجند المسلحين لأن الأسقف كان يعرف أن ضحيته من البيت الملكى ، ووقف باتريك أمام المحكمة ، ونوقشت آراؤه ، واكتشف أن به « عدوى هرطوقية لوثرية » ، فصدر الحكم بإعدامه حرقاً فى نفس اليوم .

واستدعى الجند . واقتيد مقيداً إلى الميدان . وهناك ربط إلى عامود الإحراق . وربطت إلى جسده شحنات صغيرة من ملح البارود . ويقال أنه تعذب كثيراً ، لأن الخشب لم يكن جافاً ، فاستمر احتراقه ست ساعات. وكانت آخر كلماته « حتى متى يارب يغطى الظلام هذه المملكة ؟ إلى متى تسمح بظلم الإنسان » ؟ وبعد فترة همس « أيها الرب يسوع إقبل روحى ».

وقد عم اسكتلندا شعور عام بالاستياء ، بسبب هذا الشاب . وكانت جنازته هى بذور حركة الإصلاح هناك .

أما الشهيد الثانى فراهب من البندكتيين ، اكتشفت لديه نسخة من العهد الجديد . وكان هذا أقوى دليل لإدانته . ولأجل هذا نفذ فيه حكم الإعدام ، حرقاً على سارية مرتفعة ، كما أوصى بذلك رئيس الأساقفة ، حتى يرى الناس عقاب من يعتنق هرطقة البروتستانت . على أن هذا قد زاد النار اشتعالا .

ومن الغريب أن حركة الإصلاح فى اسكتلندا ، بدأت بين رجال الإكليروس وكبار اللوردات ، والأشراف . وكان معظم شهدائها فى بادئ الأمر ، من الرهبان والكهنة . فكان موت الشهيد الواحد ، يجلب فى أثره إيمان جماعات أخرى . ويعوزنا الوقت لنتحدث عن اليسيوس وسيتون وستر انيون ونورمان وغيرهم .

وبعد موت رئيس الأساقفة جلس على كرسيه ابن أخيه ، وكان متعصباً أشد التعصب ، حتى أنه أحرق خمسة من الكهنة والرهبان فى يوم واحد ، فوق أحد التلال فى أدنبره . لهذا هرب كثيرون من وجه هذا المجنون واستقر بهم المقام فى انجلترا . وكان بين هؤلاء الهاربين جورج بوكنان ، الذى نظم المزامير شعرا ، لترتل فى كنائس اسكتلندا ، وكذلك جماعات أخرى من العلماء وكبار المفكرين .

وكان الملك هنرى الثانى قد وقف موقفاً شجاعاً ، حينما رأى أن الأوزة السمينة فى انجلترا ، لم تكن سوى أملاك الكنيسة ، فلم يتردد فى تأميمها وضمها للدولة — وظل ينصح جيمس الثانى ملك اسكتلندا بأن يحذو حذوه ولكن جيمس ربما — خوفاً من بطش البابا ، وربما شعوراً منه بقدسية هذه الأملاك — أحجم عن ذلك . وفى نفس الوقت قدم البابويون للملك قائمة

بأسماء مئات اللوردات والأشراف وراحوا يلحـــون عليه فى ذبحهم ، ومصادرة أملاكهم . ولم تكن تلك الأسماء ، إلا مجموعة ممن عرفوا بانحيازهم لتعاليم الإصلاح . وكانت هذه هى خطتهم لإطفاء كل نور فى ظلام اسكتلندا .

وانحاز الملك لرأيهم ووعدهم بتحقيق رغبتهم . لكن شيئاً ما عطل هذا الإجراء الدموى ، فيحدث سوء تفاهم بينه وبين هنرى الثامن المتعجرف ، يدفع بملك انجلترا إلى إرسال جيوشه لتأديب ملك اسكتلندا . وبطبيعة الحال يعبئ ملك اسكتلندا جيوشه . ويستثنى من ذلك قائمة الأشراف الذين يريد أن يوقع بهم . ولكن هذا الاستثناء أضعف من قوة جيشه ، وانتهى بهزيمته . فاعتزل فى قصره وبعد عدة أسابيع مات حزناً وكمداً . وهكذا فشلت مؤامرة أذناب البابا .

ومن بعد جيمس جلس على العرش إيرل آران ، وكان من المناصرين للإصلاح ، وكان اسمه على قائمة الأشخاص المطلوب إعدامهم — فبدأ بذلك عصر جديد للبروتستانت ، ولحركة الإصلاح .

ففى عام (١٥٤٣) أصدر البرلمان الاسكتلندى قراراً بإباحة تداول الكتاب المقدس باللغة القومية ، وأنه « لا جريمة على الإطلاق فى اقتنائه ودراسته » .

ومن ذلك الحين ، شق الكتاب طريقــه فى المجتمع الأسكتلندى ، واحتل مكانه فى كل بيت وكل قلب . ومع ذلك بقى البابويون فى مراكزهم وما زال القانون سائداً ضد الهراطقة ، وما زال بيتون ينفث سماً وتهديداً . فى تلك الآونة ظهر جورج ويشارت (١٥٤٤) ، وبدأ ينادى بالحق ، ولما ضاقت

الكنائس بالمجتمعين لسماعه ، كان يعقد الاجتماعات فى الحقول ، والأسواق ونتيجة لمناداته دب الحماس فى الشعب ، واشتعلت نيران الثورة ، فهجم الناس على الأديرة فى دندى ، وأعملوا فيها النهب والسلب وأحرقوها . ومنذ ذلك الوقت كان رئيس الأساقفة يتحين الفرص للإيقاع به .

وبنفس الطريقة التى اتبعها مع باتريك أرسل رجاله ليلا — وأحاطوا بالبيت الذى كان فيه ، وكان فى ضيافة أحد اللوردات . وتحت وعد زائف بالأمان ، أطبقوا على فريستهم ، وزجوا به فى السجن .

وبعد محاكمة صورية صدر ضده حكم بالإعدام . فأحرق فى الميدان ، أمام قصر سان أندروس ، بينما جهزت شرفة القصر بمختلف وسائل الراحة الفاخرة ، لكى يمتع كاردينال اسكتلندا أنظاره ، برؤية ضحيته وهو يحترق .

وبينما كان الشهيد يجود بأنفاسه الأخيرة ، وسط ألسنة النيران ، نظر إلى الكاردينال وهتف : « إن ذاك الذى يمتع أنظاره برؤية عذاباتى ، سيشنق بعد أيام قليلة ، فى نفس هذه النافذة ويتدلى جسده منها . »

وقد حدث هذا بالفعل . فقـــد دبر أصدقاء ويشارت مع آخرين ، مكيدة للإنتقام منه . فحاصروا قصره ، وكسروا الأبواب ، وقتلوه فى غرفة نومه ، وعلقوه فى نفس الشرفة ، وتدلى جسده فى الشارع .

جون نوكس :

وهكذا زالت آخر عقبة فى طريق الإصلاح واحتل المصلحون قصره . حتى جاء مصلح اسكتلندا الأشهر « جون نوكس » ، الذى ظهر فى أواخر فترات حياة ويشارت . وقد راح هذا ينادى بمبادىء الإصلاح بكل شجاعة.

وفى أول موعظـــة له فى كنيسة سان أندروس ، لقب البابا بالمسيح الدجال ، إنسان الخطية الذى سيبيده الرب بنفخة فمه . وكانت نتيجة خدماته ، أن اعتنق الإيمان كثيرون من رجال القصر .

ودبر البابويون المكائد لاسترداد قصر الكاردينال . وحاصروه ، وأسروا جميع من فيه ، وحملوهم إلى سجون فرنسا ، وضمنهم نوكس . ولسنا ندرى الظروف التى أدت إلى إطلاق سراحه ومن معه . فى تلك الأثناء كانت تجلس على عرش اسكتلندا الملكة مارى وكان لشقيقها الضلع الأكبر فى مذبحة سان برثولماوس . وإذ خشى على حياته ، آثر نوكس أن يلجأ إلى سويسرا ، وهناك توطدت الصلة بينه وبين كلفن ، الذى كان فى أوج شهرته . وكان لمصلح سويسرا أثره الكبير على مصلح اسكتلندا .

وفى عام (١٥٥٥) ، عاد نوكس إلى اسكتلندا ، بعد غياب دام ثمانى سنوات . واستطاع فى فترة قصيرة ، أن يقنع العديدين من أصدقائه ، برأيه فى العبادة فى الكنيسة البابوية ، فانسحبوا وكونوا نواة الكنيسة المصلحة فى اسكتلندا ، ومارسوا خـــدمة العشاء الربانى كما تمارس فى الكنائس البروتستانتية . وكان ضمنهم كثيرون من النبلاء ، والأشراف . وقد قام بعد ذلك بالتبشير فى كابل وكنجهام وغيرهما . ولكن لما أحس بأن وجوده سيثير عاصفة جديدة من الإضطهاد ، فضل الإنسحاب مرة أخرى إلى سويسرا .

منذ ذلك الوقت صار تقدم الإصلاح سريعاً ، وحاسماً . وكانت الجماعات تجتمع للصلاة ودراسة الكلمة . وكانت الخطوة الأولى ، هى خطوة العهد الذى قطعه اللوردات على أنفسهم وفيه يتعهدون ، بأن يضعوا أموالهم وحياتهم وقواهم ، لحفظ وتثبيت وتقـــدم كلمة الله . ومع أن الملكة

المتعصبة أصدرت مرسوماً بمنع الإجتماعات أو التبشير أو ممارسة الأسرار ، بدون أخذ ترخيص من الأساقفة ، إلا أن اللوردات لم يهتموا بهذا ، ووقفوا يداً واحدة ، مما جعل الملكة تتراجع عن تهديدها .

وأحس المتعاهدون بحاجتهم إلى يد قوية تجمع شملهم ، وتشد أزرهم . ولم يكن أمامهم إلا دعوة نوكس . فوصل إلى البلاد فى مايو (١٥٥٩) ، وهناك فى مدينة برث ، ألقى إحدى مواعظه الملتهبة ، ضد القداس ، والتماثيل . الأمر الذى أغاظ كاهناً فى كنيسة قريبة ، فأسرع بإقامة مراسم القداس ، فهتف به أحد الصبية « هذه وثنية » ثم أمسك بحجر وضربه فى قلب الكنيسة ، فحطم تمثالا . على أثر ذلك اشتبك الشعب مع الكاهن ، وقاموا بتحطيم التماثيل والصور ، وهاجت المدينة كلها — وفى ساعات كانت جميع الأديرة خربة ومحطمة — وعبثاً حاول الحكام والمبشرون تهدئة الشعب — ثم ما لبث الشغب أن امتد إلى بقية مدن اسكتلندا — ولقد نسب إلى نوكس القول « اهدموا الأوكار تطر الغربان » .

فتميزت الملكة غيظاً ، وأقسمت أن تسوى مدينة برث بالأرض . غير أن اللوردات وقفوا وقفة قوية مما اضطر الملكة إلى عقد صلح معهم — وفى عام ١٥٦٠ ، ماتت الملكة مارى ، فاستراحت البلاد . وفى أواخر ذلك العام ، بفضل مجهودات نوكس وزملائه ، دعى البرلمان للإنعقاد ، وقرر إلغاء الرئاسة الدينية الرومانية نهائياً ، وجعل البروتستانتية ديانة الدولة الرسمية .

ثم صدر كتاب « سياسة الكنيسة » ، وهو أساس تنظيم الكنيسة المشيخية . وفيه تقسم الوظائف الكنسية إلى الخدام ، وهم الذين يقومون بالوعظ

والإرشاد ، والدكاترة ، وهم يشرحون الحق الإلهى لطلبة الجامعات ، وهم معاونون للخدام ، والشمامسة ووظيفتهم تدبيرية . ثم أنشئت محاكم أربع : مجلس الكنيسة ، ومجلس المشيخة ، ومجمع الأقاليم ، ثم السنودس العام . نفس النظام الذى تسير عليه الكنيسة المشيخية الإنجيلية بوادى النيل ، وكافة بلدان الشرق الأوسط .

٦

الاصلاح فى انجلترا وأيرلنده

[الملك هنرى الثامن ـ صراع بين الملك والكنيسة ـ قرار البرلمان الانجليزى بانهاء السلطة البابوية ـ الملكة مارى الدموية ـ الاصلاح فى ايرلندا]

وإننا لنجد سمات متباينة لثورات الإصلاح فى كل مكان قامت فيه . وكما يقول المؤرخ دوبنى ، كانت نشأة الإصلاح فى ألمانيا ، بين طبقة الفلاحين ، أما فى سويسرا ، فقد أشرق نورالإصلاح من رحاب الجامعيين ، وفى فرنسا ظهرت الإنتفاضة بين العسكريين . لكن هذه السمات المتباينة ، كانت متحدة فى الهدف .. فإذا أتينا إلى انجلترا فإننا نجد ظروف انتفاضتها ، وانفصالها عن روما ، تختلف عن مظهر انتفاضة الإصلاح فى سويسرا وألمانيا . .

أولا ـ لأن انجلترا كانت دولة متماسكة قوية ،لها حكومتها المركزية . لذلك فإنها بدلا من الإنشقاق إلى دويلات وأحزاب متصارعة، كل دويلة منها لها لونها وصبغتها ، نقول بديلا عن ذلك كانت هناك أمة واحدة متماسكة ، إذا اعتنقت مذهبا ، فجميعها تعتنقه، وإذا ثارت ثورة ، فجميعها تتكاتف وتتآزر . . الملك والبرلمان الإنجليزى يعملان معا . وهكذا كان من السهل

كما سنرى ، نقل التشريع الكنسى من السلطه البابوية إلى التاج الإنجليزى .

وثانيا — إنه فى الدويلات الألمانية كما فى الكانتونات السويسرية ، كانت الحركة الدينية سابقة ومؤثرة فى التحرك السياسى . لكن الأمر فى انجلترا كان على نقيض ذلك . فقد كانت الأسباب السياسية سابقة للتغيير الدينى . فكان التحرك السياسى أولا ، ثم أتى بعده على أمد طويل تغيير العقيدة ونظام العبادة . أى أن السياسة كانت محركا للدين وسابقة له .

الملك هنرى الثامن :

ولنبدأ من الربع الأول للقرن السادس عشر (١٥٢١) فى هذا التاريخ كان الملك هنرى الثامن مرتبطا بروما ، ومناهضا للحركه اللوثرية . وفى مجمع ورمز إنضم إلى جناح البابا وامبراطور ألمانيا ، ليس فقط ضد فرنسا بل أيضاً ضد لوثر — وبينما كان مجمع ورمز منعقداً ، كتب هنرى رسالته الشهيرة ضد لوثر ، مدافعا فيها عن سلطان البابا الإلهى ، الأمر الذى جعل البابا يسبغ عليه لقب « حامى حمى الإيمان » .

فى تلك الأثناء كان سير توماس مور فى خدمة الملك ، وعرض عليه الملك رسالته ، وكلنا نعرف موقف مور من البابوية ، من تصويره سكان « يوتوبيا »[1] ينتخبون « بابا » حسب مزاجهم . وهكذا ناقش مور الملك فى هذا الأمر ، فإذا بجلالته يجيب أنه لامحال للتحول عن هذا الرأى . وقد عرف السر بعد ذلك — أما الأسباب التى دفعت هنرى الثامن ، للتمسك بسلطان البابا الإلهى ، فهى التى انتهت فيما بعد ، إلى انفصال

---

(١) وهى المدينة المثالية التى ابتدعها خيال مور ، وقدمها ليصور لنا المجتمع المثالى .

انجلترا عن البابوية وإلى القطيعة بينه وبين البابا ــ فقد كان يطمع فى تأييد البابا له . ولكن هذا لم يحدث مما أدى إلى تطور الأحداث بعد ذلك بصورة سريعة وفى الإتجاه المضاد .

صراع بين الملك والكنيسة :

ونحن نعرف حرص ملوك انجلترا فى القرون الوسطى ، على الحفاظ على العرش ،فى جو زاخر بالمؤامرات والثورات . ولقد تمثل هذا الحرص فى هنرى السابع ، الذى هداه تفكيره إلى عقد الزواج ، بين ابنه آرثر وبين كاترين بنت فردناند ، وإيزابلا ملكى أسبانيا . لكن المنية لم تمهل آرثر أكثر من ستة شهور . ورأى الملك أن يحتفظ بالعروس الأرملة ، وبفوائد التحالف مع أسبانيا ، فزوج كاترين لابنه الثانى هنرى الثامن .

هنا بدأ الصراع بين الملك ، والكنيسة .

فمعظم الأساقفة كانوا يعارضون مثل هذا الزواج ، ويرون مخالفته للشريعة المسيحية . ولكن نتيجة لإصرار الملك ، أصدر البابا يوليوس الثانى مرسوما بالتصديق عليه ، وقد تم ذلك عقب ارتقاء هنرى الثامن لعرش الملك .

وقد انقضت على هذا الزواج سبع عشرة سنة ، أنجب الملك خلالها ثلاثة أولاد وابنتين . لم يبق على قيد الحياة منهم سوى طفلته مارى — ويقال أن الملك أراد أن يتخلص من هذا الزواج ، لأنه شعر بأن موت أبنائه تأديب من الله له ، لأنه تزوج بامرأة أخيه . ويقال أيضاً أن الملك أغرم بسيدة من سيدات القصر تدعى آن بولين ، وأراد الاقتران بها . ومهما يكن من أمر ، فقد لجأ هنرى الثامن إلى البابا الجديد ، لاستصدار

مرسوم بعدم شرعية زواجه الأول ، وبأن له الحرية فى أن يقترن بأخرى غير أن البابا الجديد وقع فى حيرة . فلو قام بهذا ، فإن معناه أن سلفه قد أخطأ فى مرسومه . زد على ذلك ، أن جيوش الملك شارل ملك ألمانيا ، وابن أخى كاترين ، كانت فى إيطاليا . ولم يكن البابا يريد أن يصدمه بطلاق عمته .

فلجأ البابا إلى المماطلة . وبعد سبع سنوات كاملة ، ضاق هنرى الثامن ذرعا بالبابا ووعوده . فلماذا لا يمسك بالسلطة التشريعية ويلغى سلطان البابا نهائيا ، ويضع حداً لتدخله فى شئون انجلترا ؟ !

قرار البرلمان الانجليزى بانهاء السلطة البابوية :

وفى عام ١٥٣٤ ، أصدر البرلمان قرارا إجماعيا ، بإنهاء السلطة البابوية فى انجلترا ، والتوقف نهائيا عن دفع أى نوع من الهبات لكنيسة روما . لكن قطيعة الملك مع البابا ، لم يكن معناها مصالحة وتأييداً ، أو حتى مهادنة لحركات الإصلاح ، بل على النقيض من ذلك . لقد رأى أن يصالح الأساقفة الذين حرموا عطف البابا ، بصب جام غضبه على على أتباع لوثر ، والمارقين عن الإيمان (ا. هـ.) فعقد معهم اتفاقا ، أطلق بمقتضاه أيديهم فى أن يقبضوا على من يشاؤون من « الهراطقة » ، ويسجنوهم ويحرقوهم أحياء . وهكذا بدأ الإضطهاد المنظم ، لأتباع حركة الإصلاح وقادتها . ومن بين الذين كانوا ضحايا هذه الحقبة سير توماس مور ، حامل أختام الملك ، والصديق الشخصى لهنرى الثامن ، والذى قاد الحملة ضد اللوثريين فى انجلترا ، فترة من الزمن . إن مور كان متعلقا بالبابا ، رغم معارضته واعتراضه على فساد رجال الكنيسة . وكان يرى أن أجيالا طويلة متعاقبة تمسكت بسلطان البابا الروحى ، لا يمكن أن تكون على خطأ ولا بد وأن تكون فى البابا مسحة من القداسة والكرامة .

بهذا الرأى وقف مور فى وجه لوثر ، ولم ينل رضاه ، كما وقف فى وجه أتباعه — وبهذا الرأى أيضا ، وقف فى وجه هنرى الثامن ، حينما أعلن نقل السلطة فى البلاد ، من يد البابا إلى يديه ، وانفصال انجلترا نهائيا عن روما — وكانت حياته هى الثمن .

أما « مجموعة أو كسفورد » ، فعلى الرغم من أنها كانت تنادى بالإصلاح ، إلا أنها لم تكن على وفاق مع لوثر ، ومبادئه الأوغسطينية وما كانت لترضى بتغيير فى نظام الكنيسة أو فى طقوس العبادة .

وها هو إرازمس ، على الرغم من أنه كان سندا للراهب الألمانى الأوغسطينى فى حركته ، إلا أنه كان يطلب منه الاعتدال . وكان يرجو بذلك ألا يحدث فى جسم الكنيسة ، ذلك الصدع الذى ترتب على أعمال لوثر وتصرفاته .

نقول إن الخطوة التالية للملك هنرى ، كانت تحدى البابا ، وزواجه من آن بولين عام (١٥٣٢) .

وقد اعتبر زواجـــه من كاترين باطلا ، وصدق على ذلك كرانمر رئيس أساقفة كانتربرى ، كما وافق البرلمان على ذلك ، وهكذا قطعت كل صلة بروما . وانسلخت انجلترا عن الكتلة الرومانية — نقول إن كل هذا حدث ، دون أن تصبح انجلترا بروتستانتية أو تغير عقيدتها الكاثوليكية ونظام أساقفتها وكهنتها ، أو تخفف من اضطهادها ، لمن تشتم فيهم أدنى مروق عن الكاثوليكية . إن الانفصال عن روما ، لم يكن يقدم أو يؤخر فى هذا المجال ، بل ربما كما أشرنا ، زاد فى شراسة رجال الكنيسة ، ودفعهم إلى نوع من التعويض عن خسارة الصلة بروما : كل ما فى الأمر

أن شتيمة البابا ، لم تعد هرطقة أوجرما ، ولكن التهجم على نظام الكنيسة وعقيدتها ، كان جرماً يعاقب مرتكبه بالموت . لقد كانت نصيحة ولسى القسيس الخاص للملك هنرى ، التى أسداها له قبل موته (١٥٣٠) ، إمحق الهراطقة من البلاد ولا تدع داء اللوثرية الخبيث يستشرى فى انجلترا .

ومن بين الذين تعرضوا للإضطهاد وليم تندال ، الذى يدين له الإنجليز ، بأول ترجمة كاملة للعهد الجديد فى اللغة الإنجليزية ، وقد لقى التعذيب على يدى توماس مور نفسه ، كمنحرف تفوح منه رائحة اللوثرية — وفى تلك الأثناء حدثت فى روما ، أعمال التخريب التى امتدت إلى كنيسة القديس بطرس ، على أيدى الثوار . فخاف أن تتعرض انجلترا لما حدث فى ألمانيا من ثورات الفلاحين ، وما حدث فى إيطاليا من تخريب الغوغاء ، فأصدر بيانا قال فيــه إن الهرطقة ممنوعــة وسيتم إعدام كل من ينحرف عن العقيدة الكاثوليكية. ولما تولى السلطة بعد سقوط ولسى (١٥٢٩) قام بتنفيذ مرسومه ، مستعينا فى هذا المجال بالأساقفة والكهنة . وكم من جماعات لاقت التعذيب ، فى تلك العصور الوحشية ، لتعترف « بمروقها » عن الإيمان القويم ، لكن والحق يقال ، كان سير توماس مور ، يبذل أقصى الجهد فى إقناع ضحاياه ، بسلطان الكنيسة وسلامة عقيدتها — وكان بذلك ينقذ أجسادهم ، وأرواحهم ، على حسب ظنه — ثلاثة فقط فى أواخر فترة حكمه أشعلت فيهم النيران فى سميث فيلد . وكانت آخر صلواتهم « يارب اغفر للسير توماس مور » « يارب افتح عينى حاكم البلاد » ومن الغريب أن يلقى مور نهايته بعــد ذلك عام (١٥٣٥) بسبب معارضته للملك .

وما أن حدث الإنفصال عن روما ، حتى قدم مور استقالته ، عائداً إلى بيته فى خلسيا ، قائلا للملك فى صراحة ، إنه لايوافق على طلاق كاترين ، ولا يمكن أن يكون مؤيدا لزواجه من بولين ، أو يحضر حفل تتويجها — وحينما هدده الملك بالموت ، كان جوابه « إن التهديد للأطفال وليس لى» . واحد فقط من الأساقفة وقف معه هذا الموقف ، هو الأسقف فيشر . ولأجل هذا قبض على الإثنين ، وأرسلا إلى سجن القلعة تمهيداً لإصدار حكم الإعدام عليهما ، ولعله وهو يقاسى هناك فى سجنه ، كتب لأصدقائه من الولاة والذين هم فى منصب تلك النصيحة « ألا يدعوا غيرتهم الدينية تغلب الروح الإنسانية وتطغى على مشاعر الرحمة فى قلوبهم .

وفى نفس العام ، وصلت الأنباء إلى صديقه إرازمس ، الذى لم يعمر بعده غير بضعة شهور . وكان يكتب فى ذلك الحين كتابا عن « نقاوة الكنيسة » ، ووصف فيه مور بأنه : روح أكثر نقاوة وبياضا من الثلج .

وقد يلتمس لنا القارىء الكريم العذر فى إطالة الحديث عن الثلاثة العظام من أكسفورد ،الذين كان لهم أكبر الأثر ليس فى محيطهم فحسب بل فى أكثر من بقعة من أوربا : كوليت وإرازمس ، ومع أنه كانت لهم أخطاؤهم إلا أنه يكفى ما قدمه ارازمس من كتابات ، وفوقها كلها ترجمة العهد الجديد الذى مهد الطريق لأكثر من انتفاضة للإصلاح فى أوربا .

وكان لسخرية إرازمس من الرهبان الأثر السريع ، ولاسيما فى انجلترا وظهرت الحاجة الملحة لإصلاح عاجل فى الأديرة . لقد أحنى الأساقفة والكهنة رؤوسهم للملك ، وسلموا له فى مسألة السلطة التشريعية ،

والإنفصال عن روما ، وها قد جاء الدور على الأديرة والرهبان لكى يحاسبوا حسابا عسيرا .

فبعد موت مور أصدر الوزير توماس كرومويل مستشار الملك للشئون الكنسية ، قراراً بحملة للتفتيش العام على الأديرة .

فاكتشف أن الشائعات التى كانت تتردد ، لم تكن على غير أساس من الصحة . وأن ما أشيع عن أخلاقيات الرهبان وتصرفاتهم كان صحيحا ، فلقد بنى التعفن والفساد بؤرة هناك . بل إن المفتشين اكتشفوا أن ما أشيع كان صورة مصغرة للحقيقة المؤسفة ، وعندها رفعوا تقاريرهم مؤيدة بالحقائق إلى مجلس العموم البريطانى ، وخلاصتها أن ثلثى الرهبان كانوا يعيشون عيشة النجاسة والدعارة تحت ستار مآزر الرهبنة .

زد على ذلك أن الملك هنرى كان مهدداً بالإنتقام من جانب شارل الخامس ، وربما يثير شارل البابا ، ويثير البابا رجال الكنيسة والرهبان ، فتكون ثورة دموية . لذلك فكر الملك الماكر أن يتغدى بالرهبان ، قبل أن يتعشوا هم به ، ويضم أملاكهم للدولة .

وفى جلسة طارئة التأم مجلس العموم برئاسة الملك هنرى ، وقرر أعضاؤه بالإجماع ، إلغاء جميع الأديرة ونظام الرهبنة من انجلترا ، وضم جميع ممتلكاتها ، وكانت تصل إلى خمس أراضى البلاد ، إلى الدولة . وكذلك الإستيلاء على صندوق ذخائر توماس بيكيت ، وكانت البابوية قد رفعته إلى مرتبة القديسين ، ومسح اسمه من تقويم القديسين — أما الرهبان فقد هاموا على وجوههم فى البلاد مما سبب أكثر من مشكلة .

وبالرغم من كل ما قام به من اجراءات ضد الكنيسة البابوية ، فإن الملك هنرى كان كاثوليكيا فى الأعماق . وقد أصدر بناء على تأثير بعض المقربين إليه من البابويين ، قانونا من بنود ست ، يحكم بالموت على من يخالف واحدا منها .

أما هذه البنود فخاصة بتعاليم الإستحالة ، والإعتراف ، ونذر العفة البابوى ، والقداديس الخصوصية ، وزواج الإكليروس ، وتداول العشاء الربانى ، بغير أيدى الكهنة . وبالطبع ازدحمت سجون انجلترا بالأبرياء — وكان الكاثوليك يحرقون لإنكارهم سلطان الملك ، وكان البروتستانت يحرقون بتهمة الهرطقة . ويقال إن من أحرقوا فى عهد هنرى الثامن ، قد وصل إلى اثنين وسبعين ألفا .

لكن فى وسط هذه الظروف النارية ، كانت خميرة الإصلاح تعمل عملها ، على أيدى كرانمر ، وتندال ، وكوفردال وغيرهم — أما كرانمر الذى كان من المقربين للملك ، فقد عمل على إطلاق سراح الكتاب المقدس فى أيدى الناس . بينما قام تندال بترجمة العهد الجديد إلى اللغة الانجليزية ، ثم بعد ذلك قام بترجمة الكتاب كله بالاشتراك مع كوفردال . وبمجهودات كرانمر أيضا ، وضعت نسخة من الكتاب المقدس ، مربوطة بسلسلة إلى أحد الأعمدة فى كل كنيسة ، حتى يتسنى لكل من يريد ، الإطلاع عليها . وهكذا ، فإن انجلترا مدينة لهؤلاء الأبطال ، وعلى الأخص وليام تندال ، الذى عاش ليرى إنجيله مصدراً بأمر ملكى ، لكن حياته النبيلة انتهت بالاستشهاد على أيدى الفلاندرز .

وفى عام (١٥٣٦) ماتت كاترين . وفى نفس العام وجهت إلى بولين تهمة التآمر على الملك ونفذ فيها حكم الإعدام .

بعد ذلك تزوج الملك لثالث مرة بجين سيمور . على أمل أن تنجب له وريثاً للعرش . وفى نفس الوقت ، بدأ البابا فى « العمل » ، فأصدر حكم الحرم على هنرى . تبعت ذلك ثورة عارمة قام بها الحزب البابوى ، وقد بدأت الثورة فى يوركشير ، وقد تزعمها الأشراف على أمل وصول مساعدات من الخارج . لكن فشلت الثورة وهوت رؤوس زعمائها تحت حد السيف .

وأخيرا ولد لهنرى وريث – (الذى أصبح فيما بعد الامير ادوارد) – وماتت الأم أثناء ولادته ، فأصبح المكان خاليا لزوجة رابعة . وقد دفع كرومويل إلى الملك آن كليف ، إحدى قريبات منتخب سكسونيا الألمانى ، وذلك حرصا منه على أن تجلس على العرش زوجة بروتستانتية . فأعجب الملك بها ، وتم الزواج عام (١٥٣٩) . لكن يبدو أن الملكة التى لم تكن تعرف كلمة واحدة من لغة زوجها ، لم ترق للملك فطلقها وخوفا من تزايد نفوذ كرومويل ، دبر له مكيدة ، وأصدر عليه حكم الإعدام ، وتزوج الملك بعد ذلك مرتين .

وأخيرا مات هنرى فى أوائل ١٥٤٧ فى ظروف سياسية قاسية ، فالخزانة خاوية بسبب حروبه مع فرنسا . وفرانسيس الأول يهدد انجلترا بالغزو . وكان موته بعد موت لوثر بسنة واحدة . وفى مستهل الحرب الأهلية ، التى أثارها شارل الخامس فى بلاده ، وبعد موت الملك هنرى الثامن ، جلس على عرش انجلترا الملك إدوارد السادس ، الذى كان واقعا تحت تأثير كرانمر ، فتمتع البروتستانت نسبيا بفترة من الراحة :

الملكة مارى الدموية :

وتحت حكم مارى الدموية الكاثوليكية التى جلست على العرش بعد ذلك ، والتى لم تزد مدة حكمها على خمس سنوات أحرق خلالها ما يقرب من ثلاثمائة شهيد – وأخيراً استقرت البلادفى حضن البروتستانتية ، وتم الإنفصال نهائيا عن روما ، تحت حكم الملكة الصالحة أليصابات .

ومهما يكن الرأى فى أخطاء هنرى ومظالمه ، ودكتاتوريته ، إلا أنه يكفى أنه جنب بلاده ثورة أهلية ، ودماء تراق دون جدوى . كما مهد بسياسته للإنفصال التام عن روما وكسر شوكة البابوية فى انجلترا .

زد على ذلك أن ما دفع بلادا مثل دويلات ألمانيا إلى الثورة ، بسبب رفض « الدايت » الإستجابة لمطالب الإصلاح ، قد تجنبه هنرى (١٥٢٩ – ١٥٣٦) ، حينما عمل بمعونة البرلمان الإنجليزى ، لبرنامج إصلاحى شامل ، فى كل المرافق ، ضمن به خضوع رجال الكنيسة ، وتطهير الأديرة – وبينما كانت أسبانيا ودويلات ألمانيا ، ترزحان تحت عبء مظالم العرش من ناحية ، ومظالم البابوية من ناحية أخرى ، كانت انجلترا بمنأى عن كل هذه التيارات والعواصف .

الاصلاح فى أيرلندا :

أما فى أيرلندا ، فقد ارتبط الإصلاح فيها بارتباطها بالتاج البريطانى : ولقد ارتبطت أيرلندا بانجلترا ، عن طريق معاهدة عقدت بين هنرى الثانى والبابا أدريان الرابع ، مع أساقفة ايرلندا – ولقد كان الأساقفة وراء هذا الحلف ، لزيادة أموالهم وإيراداتهم ، وإن كانوا بذلك قد باعوا بلادهم للأجنبى . فلقد كانوا فى حالة من الفاقة والمذلة ، لأن البلاد كانت تحت سلطان الأشراف : ولذلك رحبوا بمثل هذا

الحلف ، وبسيادة ملك انجلترا فى ذلك الوقت ، ومن خلفه روما ، لحمايتهم وشد أزرهم .

ولقد كان الأمير الأيرلندى سيدا مطلقا على الكهنة ، كما على بقية الشعب . ولكن هنرى الثانى أدخل النظام السائد فى انجلترا — ونقلت امتيازات الكنيسة الإنجليزية إلى الكنيسة الأيرلندية ، التى أصبحت خاضعة رأساً للبابا ، وكان له مطلق التصرف فى شئونها . ولكى يتغلغل هنرى بنفوذه فى الكنيسة الأيرلندية ، ملأ جميع المراكز الخالية فى الكنيسة ، بأساقفة من الإنجليز ، مما جعل روح الحسد والشقاق يدب فيما بعد ، بين أولئك وهؤلاء ، ودائما كانت الشكاوى تصل إلى روما ، وتقوم بالفصل فيها .

ومن هنا بدأ النزاع بين ملوك الإنجليز وكهنه أيرلندا ، وسعى كثيرون من الكهنة إلى نقل تبعيتهم إلى روما مباشرة ، باعتبارهم رجال البابا . وهكذا استمر النزاع إلى عصر الإصلاح . وحينما جاء عصر هنرى الثامن ، ونقل السلطة إليه ، وألغى سلطان البابا ، وقام بتطهير الأديرة والكنائس ، أراد أن ينقل برنامج الإصلاح إلى بلاد أيرلندا . لكن كثيرين وقفوا فى وجه الملك بزعامة جورج كرومر ، مما أعاق تقدم حركة الإصلاح فى أيرلندا فترة من الزمن .

ثم تطورت الأمور بعد ذلك ، وناصر جورج براون رئيس أساقفة دبلن ، وهو إصلاحى العقيدة ، ناصر برنامج الملك ضد عقائد الكنيسة الكاثوليكية وفسادها . وقد كان براون غيورا لتعاليم الإصلاح ، مما عرض حياته للخطر على أيدى الكاثوليك المتعصبين . لكن بعد مجهودات مضنية ، دعى البرلمان الأيرلندى للإنعقاد فى مدينة دبلن عام (١٥٣٦)

وحصل جورج براون على أغلبية ساحقة تؤيد الإصلاح . وأصبحت العقائد المصلحة هي دين الدولة الرسمي . وقد سنت القوانين للحفاظ على هذا الوضع — ونودى بملك انجلترا كالرئيس الزمنى للكنيسة هناك — وفصلت أيرلندا عن روما ، وكل من نادى بسلطان البابا كان يعرض نفسه لأقسى العقوبات .

وقد لعبت روما لعبتها المعروفة فى أيرلندا ، فأثارت الموالين لها من رؤساء الشمال بقيادة « أونيل » ، وهربت لهم الذخائر والعتاد ، وتكون منهم جيش حاول الثورة ، وإعادة البلاد مرة أخرى لسلطان البابوية . لكن الملك هنرى كان متيقظا ، وحاسبا حسابه لكل هذا . ففشلت الثورة وتبدد أتباعها ، وضعف تأثير الأشراف فى الشمال ، وكسرت شوكة البابوية ، ولو أن الكهنة لم يكن من السهل اكتسابهم لصف الإصلاح .

وفى عصر إدوارد السادس ، وتحت تأثير كرنمر ، أصدر إدوارد أمراً بإحلال النظام الدينى السائد فى انجلترا ، محل كافة النظم والعبادات البابوية التى كانت سائدة حتى ذلك الحين فى أيرلندا . وقد أثار هذا رجال البابا . فعقدوا اجتماعا يضم الأساقفة وجميع الكهنة الكاثوليك ، وأظهروا معارضتهم للنظام الجديد . لكن المعارضة انتهت أيضاً إلى الفشل . وأجريت أول خدمة على نظام كنائس انجلترا ، فى كنيسة المسيح بدبلن فى عيد القيامة عام ١٥٥١ .

فلما كان حكم مارى الدموية ، عادت الكثلكة إلى البلاد مرة أخرى ، وأعطيت الحرية لممارسة خدمة القداس فى الكنائس . وقرر البرلمان اعتبار

المتمسكين بالبروتستانتية هراطقة يستحقون الموت ، حتى جاء حكم الملكة اليصابات ، فعادت شمس الإصلاح تشرق مرة ثانية فى البلاد ، وعادت البروتستانتية لتكون دين الدولة الرسمى . ثم حدثت عده تطورات لاداعى لذكرها ، انتهت إلى تبلور وظهور الكنيسة الأيرلندية المشيخية فى خاتمة المطاف — مبشرة بالإنجيل ومنادية بالحق فى كافة الربوع .

٧

الاصلاح فى الكنيسة الكاثوليكية

[طريقان للاصلاح ــ الاصلاح المضاد فى الكنيسة الكاثوليكية ــ محاولة لجمع الشمل ــ مجمع راتسبون ــ جمعية اليسوعيين ــ مجمع ترنت] .

طريقان للاصلاح :

لقد كان هناك طريقان للإصلاح . وكل منهما له مؤيدوه والداعون إليه : الأول الإصلاح الخلقى . . . تنقية الكنيسة من كل ما يشين كرامتها . . . من الكهنة المنحرفين ، والرهبان الذين تنكروا لدعوتهم . وهكذا تصبح مؤهلة لعملها ، ودعوتها ، على أن تظل العقيدة ، والممارسة الكنسية دون تغيير .

والثانى هو الإصلاح العقائدى . وهنارأى البعض أن العيب لايكمن فقط فى أخلاقيات رجال الكنيسة ، بل أيضاً فى عقيدتها . وأنه لو أمكن الوصول إلى منتصف الطريق ، لملاقاة العقيدة المصلحة ، فلربما هدأت الحركة البروتستانتية ، وعاد المقاومون إلى حظيرة أجدادهم ، وانتهى الصراع فى كيان الكنيسة الكاثوليكية .

لكن الدعوة الأخيرة لم تنجح على الإطلاق . وملاقاة الدعوة المصلحة فى منتصف الطريق . لم يقدر لها أن تتم . . . وبقى على الكنيسة الرومانية

الكاثوليكية أن تبدأ بإصلاح دوائرها . وتعد العدة لصراع طويل مرير مع البروتستانت ، متمسكة بعقائدها ، وتعاليمها ، وممارساتها التى تميزت بها . . . هذه المحاولة كتنقية الكنيسة من الداخل . وترتيب صفوفها لمحاربة الخارجين عليها ، هى التى عرفت بالإصلاح المضاد .

الاصلاح المضاد او رد الفعل فى الكنيسة الكاثوليكية :

ولقد كان من أقوى ردود الفعل للثورة البروتستانتية ، الإصلاح فى قلب الكنيسة الرومانية نفسها — وينبغى أن نضع فى ذاكرتنا على الدوام ، أن الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الحديثة ، هى كنيسة مصلحة فى حدود دائرتها ، وعقيدتها ، تماماً كالكنائس البروتستانتية وليطل القارىء أناته علينا لتتبع خيط الإصلاح هناك — لنرى الدوافع الملزمة التى دفعت إليه .

فالعواصف التى هبت حولها فى كل مكان ، كانت خليقة — مهما كان للكنيسة من القوة والثبات ، أن تجعلها تهتز اهتزازاً . وكذلك العوامل التى كانت فى داخلها ، والتى كانت تعمل كالخميرة فى قلب العجين ، مهما حاولت أن تتجاهلها ، أو تقف فى وجهها بالحديد والنار .

ولقد ضج العالم الكائن حينذاك من فضائح البابوية ، وفساد رجال الكنيسة . وكان أكثر الكل تفتحاً على هذه الحقائق ، أبناء إيطاليا أنفسهم الذين كانوا على علم بما يجرى تحت سمعهم وبصرهم . الهيئة الوحيـــدة التى كانت قانعة بالحال على ماهى عليه ، هى هيئة المنتفعين « الكوريا » أو البلاط البابوى ، البطانة السياسية التى كانت محيطة بالبابا . أما خارج هذه الدائرة فقد كان الشعور عاماً ، فى كافة الدول والطبقات ، بوجوب الإسراع بإصلاح شامل ، وتطهير الكنيسة فى الداخل والخارج . إننا لنجد وسط الأصوات الصارخة ، كهنة ، ورهباناً ، وأساقفة ، وحتى كرادلة . زد على ذلك

أن عصر النهضة كان قد فتح الأذهان والعيون، وفتح الطريق إلى دراسة حية للكتب المقدسة فى لغتها الأصلية ، مما دعا البعض إلى المناداة أيضاً بإصلاح فى العقيدة ، وكان الوقود الذى زاد فى اشتعال لهيب المعارضة للكنيسة ، والمطالبة بإصلاحها . وهكذا قام من قلب الكنيسة ، كثيرون ينادون بالإصلاح .

ولنترك ملر يحدثنا عن مقام البابوية عند الإيطاليين أنفسهم يقول :

« لم يكن المقام البابوى قليل الإحترام ، عند قوم أكثر مما كان عند الإيطاليين أنفسهم فلربما كان للبابا هيبته وسلطانه ، فى البلاد البعيدة عن كرسى حكمه . أما فى إيطاليا فقد كان كل شيء تحت سمع الإيطاليين وبصرهم . رذائل البابوات ، ومفاسد البطانة البابوية ، والجشع ، والترف والخداع ، والمؤامرات التى كانت تبيض وتفرخ ، فى قلب القصر البابوى. لقد كان هم كل بابا ، أن يجمع أكبر قدر من الثروة لنفسه ، وأن يحيط نفسه بأقاربه ، ويغدق عليهم الضياع والمقتنيات . لذلك كان الإيطاليون ، وعلى الأخص طبقة المفكرين فيهم ، على استعداد لتقبل أى بديل . فإذا أضفنا إلى هذه كلها ، الضربات التى توالت على البابوية ، من الكنائس التى ثارت عليها وانفصت عنها ، فإننا نرى أنه لابد وأن تحدث نتيجة ما .

وإذا عرضنا فى كلمات ، إلى أثر ظهور لوثر وحركة الإصلاح ، بوجه عام على إيطاليا ، فإننا نقول إنه منذ ظهور مصلح ألمانيا ، وانتشار كتاباته ، رحبت الدوائر العلمية بها هناك . ثم جاء دور ملانكثون. وزونجلى وإرازمس وغيرهم ، ممن كانت لهم ثمرات أقلامهم ، وترجم الكثير من أعمالهم إلى الإيطالية ، ولاقت هناك انتشاراً وذيوعاً . ونحن عندما نقول هذا لا نقوله اعتباطاً ، بل إستناد إلى شهادات المؤرخين .

ولمدة تقرب من عشرين عاماً ، استمرت حركة المناداة بالحق فى إيطاليا دون مقاومة تذكر . لأن البابا كان مشغولا بموقعه بين شارل الخامس ملك ألمانيا ، وفرانسز الأول ملك فرنسا ، فلم يعر هذه الحركات التفاتاً .

وفى عام (١٥٤٢) ، تنبه البابا للخطر الذى يهدد إيطاليا ، فراح يبث عيونه وجواسيسه ، مستخدماً محاكم التفتيش أداة للارهاب .

ومع ذلك ، لم يجُدِ كل هذا ، فقد كانت عيوب البابوية واضحة للعيان . وكما أشرنا كان هناك كرادلة وقفوا فى وجه البابا ، أمثال الكاردنال زمينى فى أسبانيا ، ومورتون ، وولسى فى انجلترا ، الذين طلبوا من البابا التصريح لهم بالتفتيش على الأديرة ، وكشف ما خفى وما ظهر من عيوبها ، تمهيداً لإصلاحها . إننا لا ينبغى أن نتصور أن رجال الكنيسة الكاثوليكية كانوا جميعاً فاسدين .

كما أنه لا ينبغى أن يفوتنا ، أن البابوات كانوا يتفاوتون فى درجات الإنحراف ، ودرجة رغبتهم فى الإصلاح . فالبابا أدريان على سبيل المثال ، كان نظير هلدبراند يرغب فى الإصلاح ولو أن فترة حكمه القصيرة ، لم تمهله لتظهر ثمار الإصلاح فى حياته . أما أكلمندس السابع فقد كان نسبياً أفضل من سواه . ولو أنه لم يكن سياسياً محنكاً ، وهكذا انتهى إلى أن يصبح تحت يد شارل الخامس .

ومع ذلك فإن كثيرين ، وعلى الأخص ممن كانوا يعتنقون العقيدة الأوغسطينية فى التبرير بالإيمان ، كانوا أكثر تعاطفاً وتجاوباً مع لوثر وحركته فى ألمانيا ، وكانوا يرغبون فى إصلاح جذرى فى الكنيسة ، يتيح للمنشقين البروتستانت ، العودة إلى أحضان الكنيسة الأم . ومن هؤلاء كان

وعاظ ، ومبشرون ، وسيدات نبيلات . لهن مكانتهن فى المجتمع . وهؤلاء أيضاً من جانبهم ، كانوا يأملون أن تنجح الوساطة فى حل الخلافات بين البروتستانت ، وبين متطرفى الكنيسة الرومانية — وأن تنجح مناداتهم بطلب الإصلاح فى قلب الكنيسة نفسها — نقـول إنه كان هناك طريقان لإصلاح الكنيسة . وكان لكل منهما أنصاره ومؤيدوه .أما الأولى فقد كانت ترتكن على أساس إصلاح أخلاقيات الكنيسة . فعلى الكنيسة أن تنقى نفسها من الثعالب المفسدة للكروم . فتمحو ما يشين سمعة سياستها ، وتطهر نفسها مما يشين كيانها الخلقى ، وهكذا تصبح أكثر كفاءة ، لأن تضم جميع فراخها تحت جناحيها . إن هذا سوف ينفخ فيها روحاً جديدة ، ولتبقَ العقيدة ، والطقوس كما هى دون أدنى تغيير أو تبديل .

لكن الطريق الثانية كانت ترى أن الفساد يكمن ليس فى كيان الكنيسة الأخلاقى ، بل فى جوهرها العقائدى . فالعقيدة هى التى تبنى الأخلاق . وعلى ذلك ينبغى إصلاح البابوية فى عقيدتها . والمنادون بهذه الطريقة ، كما أشرنا ، كانوا موالين لحركات الإصلاح فى ألمانيا وسويسرا وغيرها ، لقد كانوا يرون أنه لو أخذت الكنيسة برأى أولئك المصلحين ، وراجعت نفسها فى الكثير من عقائدها ، فلن يكون هناك انشقاق بعد ، ولن يكون خلاف ، وستسرع « خراف بيت إسرائيل الضالة » طائعة مختارة إلى راعيها البابا . ولكن الفريق الثانى كان واهماً مفرطاً فى التفاؤل ، لأنه لو تنازلت البابوية عن عقائدها ، فإنها تكون قد فقدت كل شىء ، وماذا يتبقى لها بعد ؟ وحتى لو اتفق الطرفان على كافة العقائد ، هل يمكن أن يكون هناك اتفاق بين عقيدة البروتستانت بكهنوت جميع المؤمنين ، وعقيدة البابويين بسلطان رجال الكنيسة وسلطة البابا الإلهية ؟ .

محاولة لجمع الشمل :

وإننا لنجد بابا بعيد النظر ، أو لعله كان طيب النية . ذلك هو البابا بولس الثالث (١٥٣٤) ، وبجلوسه على كرسي البابوية ، تجددت أحلام الموالين للإصلاح ، بعهد أقل عنفاً ، وأكثر تسامحاً ، وعلى الأخص حينما رفع اثنان من أصدقاء إرازمس إلى رتبة الكرادلة . ونحن نعرف موقف إرازمس من الكنيسة ، وكيف أنه كان موالياً لمصلح ألمانيا ، وداعيـة لإصلاح الكنيسة وتنقيتها . بل لقد أشيع أيضاً ، أن البابا يعتزم رفع مقام إرازمس إلى رتبة كاردينال ، وأن الأسقف فيشر ، الذى وقف فى وجه ملك انجلترا سيرقى هو الآخر ، لولا أن هنرى الثامن أسرع بقطع رأسه.. هذه الأنباء وغيرها ، بعثت الأمل فى قلب سير توماس مور وهو فى سجنه . بأن أياماً سعيدة سوف تأتى على الكنيسة ، وأن شيئاً من الوفاق بين الكاثوليك والبروتستانت ، سوف يتم ، وأن الصدع الذى حدث فى جسم الكنيسة سوف يزول . كان المستقبل يبشر بالخير ، كما بدا ذلك ، حتى أن البابا بولس الثالث ، كتب إلى إرازمس يخبره بأنه قد عزم على عقد مجمع للمصالحة بين الأطراف المتنازعة . ويطلب منه أن يبذل جهده لإنجاح هذا المجمع . غير أن ظروفاً خاصة أخرت تنفيذ هذه الفكرة .

مجمع راتسبون :

وفى عام (١٥٤١) أى بعـد سنوات خمس من موت إرازمس ، أرسل البابا مندوباً عنه إلى مجمع راتسبون ، ليرى إن كان ممكناً لقاء الأضداد على أرض مشتركة ، وإن كان ممكناً الصلح مع البروتستانت . أما لوثر فقد كان منذ البداية يرفض مثل هذه اللقاءات .

ويلتقى الرسول بملانكتون ، ويتفق معه على مبدأ التبرير بالإيمان حسب العقيدة الأوغسطينية ، كأساس للوحدة المنشودة . لكن تدخلا سياسياً ،

سرعان ما قتل هذه الفكرة فى مهدها . إذ قام ملك فرنسا باقناع البابا ، بأن وحدة مثل هذه مع البروتستانت المنشقين ، سوف يكون من شأنها تقوية مركز شارل الخامس ملك ألمانيا ، وعــدو البابا . وعندها تراجع البابا بولس عن عرضه .

ومن الجانب الآخر ، لم يكن لوثر كما أشرنا ، مستريحاً لمثل ذلك الإتفاق مع البابا . وبصراحته المعهودة قال : «إننى أتوقع وجود الشيطان بصورة أو بأخرى فى هذه المهمة » .

وعلى ذلك أرجئت كل هذه الأمور ، لتناقش فى مجمع ترنت ، الذى سوف نشير إليه فيما بعد .

ولكن حدث فى الوقت نفسه ، أن ظهرت على مسرح الأحداث ، قوة جديدة لتأخذ العنان من يدى الوساطة الإيطالية ، وتغلق باب الصلح مع البروتستانت للأبد ، على أساس الإصلاح فى قلب الكنيسة الرومانية نفسها ، ومجابهة البروتستانت بسلاح مماثل ، والإعداد لحرب طويلة الأمد . فلن تتغير عقائد الكنيسة فى جوهرها . ولكن سيكون هناك تنظيم جديد ، وإصلاح خلقى ، بحيث تستطيع الكنيسة أن تقف فى وجــه أعدائها الجدد — وتحاربهم بنفس السلاح — هذه المحاولة العظمى للكنيسة الرومانية . أن تطهر كيانها وتعيد تنظيم نفسها وقوتها ، للتغلب على البروتستانتية ، هى التى عرفت باسم الإصلاح المضاد . ويرجع الفضل فيها إلى إغناطيوس ليولا . وجمعية يسوع أو اليسوعيين الجيزويت التى ظهرت للوجود عام (١٥٤٠) .

جمعية اليسوعيين :

ومؤسس هذه الجماعة أو الهيئة فارس شاب أسبانى . ولد عام (١٤٩١) . فهو لذلك يصغر لوثر بعشر سنوات . ولقد كان جندياً فى جيش أسبانيا ، الجيش الذى تشبع بروح الفروسية والشجاعة ، التى استطاع أن يطرد بها الأعداء من أسبانيا ، ولكنه تحول بعد ذلك لمحاربة اليهود ، وكل «الهراطقة» المارقين على الإيمان الكاثوليكى .

وكان ليولا فى عامه الثلاثين ، حينما حارب ضد قوات النافار الثائرة ، التى كانت تغذيها فرنسا ، وأصابته طلقة حطمت عظام ساقه . وكان كل أمله ، كأى فارس شجاع ، أن يشفى ويعود للميدان . وفى سبيل هذا استسلم لعمليتين جراحيتين ، لم يستفد منهما شيئاً . بل أصابته الحمى ، وأشرف على الموت . وهنا بدأت أفكاره تتجـــه اتجاهاً روحياً . فلماذا لا يصبح قديساً عظيما مثل القديس فرانسس أو دومينيك ! ؟ . ولكن الطريق إلى ذلك ، هو أن يصبح واحداً من رجال الله ، وهو حتى الآن ليس كذلك . وهكذا ملأته الرغبة فى أن يتقرب إلى الله ، ويكون فى سلام معه ، فدخل أحد الأديرة ، وألقى بثقله فى حياة الرهبنة . وقرر وهو يخمع على ساقه العرجاء ، أن يصبح جندياً فى جيش المسيح ، بدلا من أن يكون جندياً فارساً فى جيش أسبانيا .

وتتوالى القصص والتقاليد ، ودائما ينسج الكاثوليك الأقاصيص حول قديسهم ، عن الصور التى ألهبت خياله وزادت يقينه . فهو يرى العذراء فى رؤيا ، فتسر له بأنه موضوع تكليف إلهى من السماء ، ليكون الإبن الحقيقى للكنيسة ، والعدو المنتقم من أعدائها ، سواء كانوا من اليهود أم الكفار أم من الهراطقة .

ولقد بدأ فى إعداد نفسه لهـذا الهدف ، فأكثر من الأصوام ، وأعمال الإماتة ، والزهد . حتى لقد قيل إنه كان يرتدى على اللحم ، رداء من الشعر الخشن ، ويتمنطق على وسطه بمنطقة من سلاسل حديدية . وأحيانا كان يطرز إزاره بالأشواك . أما طعامه فكان من الخبز اليابس ، والماء القراح ، وبعض الأعشاب . ولقد درب نفسه على أحط الأعمال ، مثل تضميد القروح العفنة فى المستشفيات ، وحمل بقايا المرضى وغير ذلك . بعد ذلك اعتزل الناس لكى يعيش ، فى مغارة ممتنعا عن الطعام ، حتى قيل إنه رأى رؤى كثيرة ، وأصبح قريبا من السماء . وكانت كل هذه الرؤى ، تدعوه إلى تأسيس هيئة رهبانية ، نظامها كنظام الجندية ، وأتباعها جنود فى جيش روحى ، شعارهم النظام الصارم ، والإخلاص للهدف الواحد ، والطاعة لمن هم أعلى ، والخدمة بلا غرض ولا حساب للربط العائلية ، تلك الهيئة عرفت باسم الجزويت .

حتى هذه الساعة نقول إن بداية حياته لم تكن تفرق كثيراً عن بداية حياة لوثر ، لكنه بعد ذلك يبدأ فى الإفتراق عنه . فهو مايزال متمسكا بكنيسته ، وعقيدته هى عقيدة القرون الوسطى . فهو يؤمن بأن الكنيسة معينة من الله ، لتمثله على الأرض ، وهو فى شخصيته تتميز صفات الجندى الصارم ، التى تميز خلق الأسبانى ، والطاعة العمياء التى تميز حياة الجندى ، فهو يرى أن الديانه الحقيقية تكمن فى الطاعة للكنيسة ، وأن خدمة الله تتمثل فى خدمة ممثله على الأرض . وهذا معناه كسب أتباع جدد للكنيسة الكاثوليكية ، وكسر شوكة أضدادها ، وإيقاف كل التعاليم التى تناقضها .

ولقد كان مخلصا غاية الإخلاص لهذه الأهداف ، عاملا بكل جهده وإخلاص قلبه لتحقيقها .

وقد أشار عليه روشاوه بأن يدرس العلوم اللاهوتية قبل أن يقوم بأى عمل ، فرحل إلى باريس ، والتحق بجامعتها . . . وهناك بثاقب بصيرته ، استطاع أن يختار تسعة من الزملاء ، ليكونوا نواة الهيئة المنشودة ، و كلهم شخصيات ذات كفاءات ممتازة . من ضمن هؤلاء شاب أسبانى نبيل يدعى فرانز زافيير ، رأى فيه الروح الملتهبة الغيورة والقلب المخلص ، فعمل على استمالته إليه . ولقد كان هدف زافيير فى البداية ، هو المركز والشهرة ومدح الناس ، فقال له إغناطيوس : وماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ فاستسلم النبيل كأنما بفاعلية السحر . وأصبح تلميذاً لإغناطيوس . بل إنه قد فاق أستاذه فى الأصوام والصلوات وإذلال الجسد ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح رسول الجمعية أو مرسلها الغيور إلى بلاد الهند ، يحمل على كتفه مذوده ، وفى يده صليبه ، ويسعى ليعمد الهنود فى الإيمان الجديد . ثم رحل بعد ذلك إلى الصين واليابان ، مواليا جهاده الروحى — إحدى عشرة سنة كاملة ، قضاها مبشرا بالمسيحية كاسباً لها أتباعا ، حتى وضع حياته أخيراً فى ساحل جزيرة موحشة من جزر الصين ، وكانت آخر كلماته : « يا إلهى عليك توكلت فلا تدعنى أخزى مدى الدهر . . . . » .

بأولئك التسعة وعاشرهم ليولا ، تأسست جمعية يسوع عام (١٥٤٠) وتزايدت بسرعة منذ البداية ، كاسبة لها أتباعاً . وكانت تقبل ضمن أتباعها الكهنة والعلمانيين بلا تفرقة . وحتى ذلك الحين لم يكن لها اللباس المميز .

هكذا كان الجيزويت ، وهكذا كانت أهدافهم فى البداية — صورة من الجهاد الروحى المنظم ، والروح العسكرية ، والطاعة المطلقة .

« على كل عضو أن يطيع مرؤوسه كأنما هو المسيح على الأرض ».
نعم هكذا ظهروا فى فترة عصيبة من تاريخ الكنيسة الكاثوليكية ، ليبعثوا الروح فى كيانها المتداعى . لقد ظهروا كرد فعل للإنحلال الذى تميزت به البابوية ، وعلى الأخص فى حقبتها الأخيرة . لقد كان أولئك الرجال مخلصين تماما لكنيستهم ، عاملين لخيرها وسلامتها ، لأنهم كانوا ما يزالون يؤمنون بها . وفى الوقت الذى اتجهت فيه غيرة المصلحين من البروتستانت ، وجهة بعيدة عن الكنيسة الكاثوليكية ، اتجه هؤلاء فى غيرتهم التى ما كانت تقل عن غيرة أولئك ، إلى الإصلاح فى قلب الكنيسة نفسها . وبدلا من أن يتخذوا من لاهوتية القديس أوغسطين ، نبراسا لعقيدتهم ، اتجهوا إلى مثال القديس فرانسس الأسيسى ، ليكون نبراسا لهم مع إيمان مطلق بسلطان الكنيسة ، تاركين الجدل جانباً ، سائرين فى طريق الطاعة المطلقة لها ، سائلين خيرها وسلامتها .

ولم يكن مجهود ليولا بدون جدوى . فقبل أن تنتهى حياته ، رأى بعينى رأسه ثمار مجهوداته . فلقد أصبح تعداد جمعية يسوع أكثر من مائة مدرسة يسوعية أو كلية لتدريب الجيزويت . ولقد قسم بثاقب فكره مناطق العالم ، أوربا ، وأفريقيا ، والهند ، والبرازيل ، إلى اثنتى عشرة منطقة جزويتية ، لكل منطقة رئيس . أما هو فالرئيس الأعلى ، الذى يسيطر على كافة هذه المناطق من خلال أولئك الرؤساء . صورة لمخطط قوى يهدف للبقاء زمنا طويلا .

ولقد كان للجيزويت ثلاث طرق رئيسية ، لمواجهة البروتستانتية . فى الكنائس التى أسسوها ، أقاموا رعاة ممتازين ، منتخبين ، لتقديم

الخدمات الممتازة ، وهكذا نفخوا روحا جديدة في نظام العيادة الكاثوليكية وفى مجال الخدمات التربوية أسسوا المدارس لتعليم الصغار . ومع العلوم ، بثوا فيهم روح الحب والتقدير للكنيسة ، ومن خلال الصغار ، تطرقوا إلى عائلاتهم ، واستطاعوا أن يكسبوهم . وبهذه الطريقة استطاعوا أن يستردوا مناطق واسعة ، كانت واقعة تحت النفوذ البروتستانتى فى ألمانيا أما الجامعات الكاثوليكية ، فقد زودوها بأكفأ الأساتذة . وهكذا ضمنوا جيلا جديداً من الشباب تربى فى أحضان الكنيسة .

أما الطريقة الثالثة فكانت تتجه إلى المجال السياسى ، وكان أقصى همهم أن يجلس على كراسى الحكم شخصيات كاثوليكية ، أو على الأقل يحاط الحاكم ، ببطانة كاثوليكية . . . من هنا جاءت المؤامرات والشحناء ، وما تجره فى أذيالها من اغتيالات وحروب ، وبهذه الطريقة أصبح البروتستانت موضع اضطهاد طيلة الوقت .

ولقد استطاعت هذه الجمعية أن تنتشر ، وتسيطر خلال سنوات قلائل فى كافة أنحاء العالم الكائن .

مجمع ترنت :

على أن الدبلوماسية الكاثوليكية رأت أيضاً ، ضرورة انعقاد مجمع ترنت (١٥٤٥ – ١٥٥٥) . والتأم المجمع وطالب الحزب الكاثوليكى بأن يكون تعليم التبرير بالإيمان هو العقيدة المشتركة أو الأساس الواحد ، الذى عليه تبنى الوحدة . . . ولكن الجيزويت كانوا ممثلين أيضاً فى المجمع . وهكذا قاوموا القرار بكل شدة . وارتفعت حمى النقاش إلى درجة كبرى بين المعارضين والمؤيدين ، حتى أنه قيل إن كاهنا تشبث

في غضبه بلحية زميل له . وانتصر الجزويت في النهاية واستطاعوا أن ينفذوا أغراضهم .

لقد فشل مجمع ترنت في الوصول إلى الوحدة المنشودة بين الكاثوليك والبروتستانت . وانتصر الجانب المتشدد في الحزب البابوي ، وجلهم من اليسوعيين . أما حزب الاعتدال والمصالحة ، فقد انسحب بعد فشله في الوصول لأغراضه . . . كانت هذه هي نتيجة أول مجمع يعقد في ترنت .

وعلى أثر ذلك حصل أحد الكرادلة المتعصبين على مرسوم بابوي ، يبيح إقامة محاكم التفتيش التي كانت من أقسى الأسلحة التي استخدمها الكاثوليك في أسبانيا ضد البروتستانت هناك ، بإقامة تلك المحاكم في روما . وبدأ الاضطهاد المنظم هناك ، وكان أوائل ضحاياهم أعضاء حزب الإعتدال والمصالحة في مجمع ترنت .

وقد انفرط عقد المجمع ، على وعد بالإلتئام في فرص قادمة ، ولكن بسبب الخلاف بين البابا وشارل الخامس ، تأجل عقد المجمع عدة سنوات . ومات البابا بولس الثالث ، وانتهى عهد اثنين من البابوات من بعده ، قبل أن ينعقد المجمع مرة ثانية ، في عهد البابا بولس الرابع (١٥٥٥) ، وهو نفس العام الذي انتهت فيه الحرب الأهلية في ألمانيا ، بين شارل الخامس والبروتستانت بمعاهدة أوجسبرج ، والتي أصبحت فيها الولايات البروتستانتية حقيقة واقعة .

وفي المجمع الثاني الذي عقد في ترنت أيضاً ، كان اليسوعيون هم القوة الغالبة فيه . فقد استتب كل شيء من جهة سياسة الكنيسة الخارجية ،

وبقى تصحيح أخطاء رجال الكنيسة ، ووضع أساس عقائدى منظم لها ، وتثبيت سلطان البابا الإلهى . وقد رتبت بنود الإيمان الكاثوليكى ، فى كل ما يتعلق بالعقيدة فى معارضة للبروتستانت . . . وهكذا أصبح فى يد كل كاهن السلاح الذى يقاوم به « الهراطقة » ، ويكسب به الأتباع الجدد . ثم نوقشت مشكلة تنظيم الكنيسة ، وعزل القيادات غير الصالحة . ومع أن « الكوريا» أو بطانة البابا ، حاولت تعطيل البت فى هذا الأمر ، إلا أنه أحرز بعض التقدم ، وكانت هناك بعض النتائج ، منها الإكثار من إقامة معاهد لاهوتية ، وتنظيم سياسة الكنيسة .

إن مجمع ترنت ، قد مهد السبيل للكنيسة الكاثوليكية ، لتحارب أعداءها وهى واقفة على أرض أكثر صلابة .

وماذا كانت النتائج ؟ ..

قبل أن نعرض للنتائج المترتبة على الإصلاح المضاد ، علينا أن نقرر إنصافا للحقيقة ، أن القائمين بذلك الإصلاح كانوا أناسا مخلصين بوجه عام . وأنه وإن كانت النتيجة وبالاً على البروتسانتية ، وتقلصا لنفوذها فى أكثر من مكان ، مما سنعرض له ، إلا أن الهدف الرئيسى للذين قاموا بذلك الإصلاح ، كان خيراً للكنيسة التى ينتمون إليها . وأصدق مثال على ذلك ، حياة ليولا وزافيير وغيرهما . إن بعض المؤرخين ، يعتقدون أن الأمر كان منذ البداية لعبة كبرى للبابوية ، ومناورة جديدة ، بعد أن أخفقت وسائل النار والحديد فى القضاء على البروتستانت وأن ليولا وزافيير و مجمع ترنت وكرادلة الوساطة وغيرهم كانوا قطع الشطرنج ، بين يدى البابا ، يحركها كيفما شاء . ولكن الواقع يشير إلى غير ذلك .

فإذا تطرقنا للحديث عن النتائج ، نقول إن البابوية كانت حتى عام (١٥٦١) فى أحرج وأحلك حالاتها ، على الرغم مما أظهرته من استعراض عضلاتها أمام الجميع . فلقد اكتسحت البروتستانتية ، أكثر من دائرة فى دول أوربا ، وعلى وجه الخصوص فى ألمانيا ، التى كانت من قبل تحت السيطرة التامة للبابوية . ولقد حاولت الكنيسة فى عصر البابابيوس الخامس أن تمحق البروتستانتية هناك ، فألبت عليها ثلاث قوى : الإمبراطور شارل الخامس امبراطور ألمانيا ، وملكى أسبانيا وفرنسا — ولكنها لم تستطع أن تحقق أغراضها .

والآن جاء دورها للإنتصار عن طريق اليسوعيين — فى مناطق كثيرة من ألمانيا ، مثل أوستريا وكارنثيا وبافاريا ، وأجزاء متعددة من حوض الراين ، تلك المناطق التى كان يحكمها ملوك أقوياء موالون لروما ، كانت هناك أيضاً جماعات بروتستانتية قوية . وكانت تتمتع بالكثير من التسامح ، ويسمح لها بحرية العبادة والتبشير . ولكن تحت تأثير رجال الجيزويت ، أصبح الحكام فى حالة من العداوة والقساوة ، يسلطون عليهم سيف الاضطهاد ويطاردونهم ، ويقبضون عليهم ، وتمتلىء بهم السجون . وفى بولندا كان نفس الوضع . أما فى هولندا فقد تمكن اليسوعيون من محق البروتستانتية محقاً تاماً فى الجزء الجنوبى منها .

على أن أقوى المؤامرات كانت تلك التى وجهت إلى انجلترا . وكانت الكنيسة البابوية تعرف أنه طالما قامت لإنجلترا قائمة ، فستظل الشوكة القوية فى جنبها ، وستظل أمام أنظار الدول ، المثال الذى يغرى الكثيرين بالثورة عليها والإنفصال عنها .

وعندها بدأ اليسوعيون فى إيغار صدر فيليب الثانى ملك أسبانيا ، وتأليبه عليها . فأعد أسطوله الجبار ، الذى عرف بالأرمادا ، لمهاجمتها

وحصار موانيها . لكن شجاعة البحارة الإنجليز فى القرن السادس عشر ، التى أصبحت موضوعاً لأكثر من قصة ، تصدت لهذا الأسطول . كما أن العناية الإلهية أرسلت عاصفة رهيبة عصفت بالأسطول وحطمته .

على أننا نعتقد بأننا لا نوفى بحثنا حقه ما لم نتحدث بكلمات قليلة عن الجانب المرسلى فى حركة الإصلاح المضاد فى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية .

نقول إن كل أمجاد المرسلين فى تلك الحقبة كانت وقفاً على الكاثوليك. فلم يفعل البروتستانت شيئاً يذكر فى مجال تقديم بشارة الإنجيل لغير المؤمنين ولعل أحد أسباب ذلك ، أنهم لم يكن لهم من الإمكانيات ما يساعدهم على ذلك . كما أن كل مجهوداتهم كانت مركزة للوقوف على أقدامهم فى وجه أعدائهم . ثم إن قادتهم قادة الإصلاح أنفسهم ، لم يكن فى برنامجهم تقديم الإنجيل للبعيدين ، واكتفوا بتقديم البشارة لإخوتهم فقط ، وعلى منوالهم سار أتباعهم . ولم تشعر البروتستانتية بمسئوليتها فى هذا المجال ، حتى أهل القرن الثامن عشر ، أو العصر المرسلى كما يسمونه .

خلال هذه الفترة كان الكاثوليك أكثر نشاطاً وغيرة — ولقد فتحت مجالات جديدة للتبشير باكتشاف أرض جـــديدة فى الشرق والغرب ، فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . فى هذه المجالات كان الرواد الأول من الفرنسسكان ، والدومنكان . وكانت الحكومات التى قامت بهـــذه الاكتشافات ترى أن إدخال المسيحية إلى تلك المناطق جزء من رسالتها ، فكانت تعاون المرسلين فى مهمتهم . وكان الرهبان والكهنة هم أول الوافدين إلى تلك البلاد من الغرب .

على أن أعظم التحركات المرسلية الكاثوليكية ، تمت على أيدى الجيزويت،

فقد كان لنشاطهم وغيرتهم وبطولاتهم ، ما أهلهم لحمل الإنجيل إلى الأراضى البعيدة .

ولقد أشرنا إلى زافيير ، وكيف أنه فى السنة التى تأسست فيها جمعية اليسوعيين اصطحب اثنين من الأعضاء ، وبدأ فى الحال حملته المرسلية فى بلاد الهند . ولقد كان هناك مرسلون من البرتغال . أما زافيير ، فقد ركز تبشيره على الشاطىء الجنوبى . وكانت طريقة التبشير بدائية . فبعد تعليم بسيط للحقائق الأوليـــة فى الديانة ، كان يدعو جماعات منهم ، لنوال المعمودية . ولكن غيرته المتقدة كانت تؤثر فى القلوب وتكسب له الأتباع . واتسع العمل ، فاقتضى الأمر إرسال مزيد من المبشرين الجيزويت من أوربا .

ومن الهند ، رحل زافيير إلى اليابان (١٥٤٩) حيث زرع بذور المسيحية هناك ، ووضع مع زملائه الأساس الروحى للكنيسة المسيحية فى تلك البلاد — وبعد ذلك انتقل إلى الصين حيث انتهت حياته عام (١٥٥٢) .

وبدأه زافيير فى الصين أتمه ماتيوريكى الجيزويتى (١٥٨٣) . ولقد كان ماتيو على علم بالتنجيم ، وتقويم البلدان . وعن طريق ذلك وصل إلى قصر الإمبراطور واستطاع أن يكسب ثقته ، وصداقته ، فسمح له بالعمل كما فتح البلاد على مصراعيها للمرسلين اليسوعيين فوفدوا بالمئات .

وفى المستعمرات الفرنسية فى ذلك الحـــين ، فى أمريكا الشمالية ، وباراجواى ، شق اليسوعيون طريقهم . وكما يقول روبرت نيكول « فى الشجاعة والإخلاص والتضحية لم يكن هناك نظير اليسوعيين الفرنسيين ، الذين كانوا يذرعون المنطقة كلها ، من سان لورنس إلى مصب الميسيسبى » :

وفى كل مكان ذهب إليه رواد الإصلاح المضاد ، كانوا بسرعة عجيبة يقيمون البنايات والأديرة والكنائس ، التى تعتبر بحق جزءاً من التراث المسيحى الثمين .

والسؤال الذى كان يدور ، فى تلك الأيام ، فى ذهن كل واحد : ماذا يكون مستقبل أسبانيا ، وفرنسا ، فى ضوء الأحداث التى عرضنا لها آنفا ؟

أما عن أسبانيا فإننا نقول إن شارل الخامس قد ورث الملكية المطلقة عن فردناند وإيزابلا .

ونقطة العيب فى النظام الأسبانى ، كانت محاولة بعث قوة قومية ، عن طريق إخضاع كل الطبقات للملكية مطلقة . . . ونقطة الضعف هذه ، كانت الدودة التى نخرت فى قلب الأمة ، وأدت إلى تداعيها فى عصور لاحقة .

ولقد عقد مجمع ترنت ، وأصدر قراراته بسلطان البابا الأعلى على الكنيسة ، إبان قوة وسلطان أسبانيا . فاليسوعيون الأسبان ، هم الذين كانوا وراء تلك القرارات . . . وهم الذين تبنوا محاكم التفتيش الأسبانية ، لتكون سلاحا مسلطا على الناس ، لفرض سلطان الكنيسة . أما فيليب الثانى الذى كان خلفا لشارل الخامس ، فقد كان حاكما مطلقا نظيره ، وكان هدفه تثبيت العرش الأسبانى المطلق ، وكذلك دعم السلطان البابوى بالحديد والنار . . .

على هذا الأساس شقت سفن الأرمادا مياه البحر المحيط ، لترغم انجلترا على الركوع عند أقدام البابوية مرة ثانية — وكان ذلك إبان

حكم الملكة أليصابات . وعلى هذا الأساس أيضا ، نفذفيليب الثانى مخططه السياسى فى الأراضى المنخفضة . أما المناطق الشمالية من هولندا ، فقد ثارت واستطاعت أن تكسر نير كل من أسبانيا وروما معاً . ونفس السياسة الخاطئة انتهجها فى أسبانيا . لكن الأسبان لم يستطيعوا لسوء الحظ أن يحطموا القيود . وكانت النتيجة اختناق الحياة القومية . وتدهور التجارة ، واندثار التراث الأدبى .

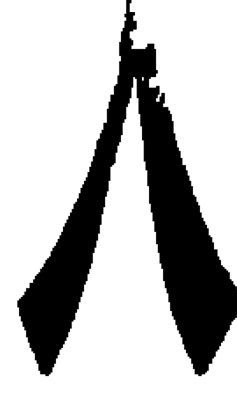
لقد كانت أسبانيا فى وقت من الأوقات متسعة بأملاكها ومستعمراتها وكانت لها مكانتها وسطوتها بين دول أوربا . لكن هذه المكانة لم تكن على أساس تقدمها الحضارى . ولم تكن على أساس تكاتف كل الطبقات وتماسكها فى وحدة لا تنفصم . لقد كانت متمسكة بالنظام القديم المهدد بالإنهيار ، ولذلك كانت فى طريقها إلى البوار .

وفى فرنسا ، لم تفلح الملكية المطلقة فى حفظ كيانها أيضاً . لقد كانت فرنسا فريسة لجشع فرانز الأول ، وحروبه . وبينما كان الملكان يتنافسان للتفوق العسكرى فى إيطاليا ، كان شعب كل منهما يقاسى الأمرين . وكانت مطامع ملك فرنسا بهذه الصورة ، حتى أنه بينما كان يحارب الهرطقة فى بلاده ، كان على استعداد لأن يعقد تحالفا مع البروتستانت الألمان ، فى سبيل الوصول إلى مطامعه العسكرية .

زد على ذلك أن الطريقة التى جوبهت بها الثورة البروتستانية فى فرنسا ، قد تركت جروحا لا تمحى فى جسم الأمة ، نستطيع أن نتتبعها إلى ما بعد ذلك بأجيال . فلقد انتشرت الكلفينية فى عصر فرانز الأول ، بين طبقة النبلاء والأشراف الذين أُذلوا وكسرت شوكتهم ليخلوا الطريق للملكية المستبدة .

ولقد كان نتيجة لهذا ، فى العصور اللاحقة ،أن قام النبلاء البروتستانت بالثورة ضد العرش الكاثوليكى . واستمرت الحروب الأهلية الطاحنة ، بالطبع على فترات متقطعة لمدة تقترب من أربعين عاما : . : ويقال أن ضحاياها وصلوا إلى المليون شخص .

لقد كان اضطهاد « الهراطقة » فى فرنسا عملا سياسيا ودينيا فى الوقت عينه ، وكانت العنجهية الدينية ، والمطامع السياسية وراء المجازر الرهيبة التى سودت صفحات التاريخ الفرنسى :



الأثر الاجتماعي والاقتصادى لعصر الاصلاح

[مد حضارى ـ حصيلة ثورة الاصــلاح : تبلور الحياة القومية وظهــور الدول ـ عــلاقات الأمم ـ ازدهار اللغات والآداب القومية ـ ازدهــار التعليم القومى ـ أثر الاصــلاح فى الحيــاة العــائلية ـ أثر الاصلاح فى الديانة العامة ـ هل حقق الاصلاح روح التسامح الدينى ؟

أشرنا فى مقدمة هذه الدراسة إلى أن الانتقال من الحضارة القديمة المتداعية ، إلى حضارة جديدة وعهد أفضل ، اقتضى تغييراً هائلا ولكنه تدريجى ، وانقلابا ثوريا ولكن فى مراحل بطيئة . حتى إذا أتت اللحظة الفاصلة ، كان لابد من الصراع النهائى الحاسم .

مد حضارى :

ولقد عرضنا الخطوط التاريخية لهذه الأزمة ، وحاولنا أن نظهرها فى صلتها بالمستقبل كما بالماضى . ورأينا كيف أن الثورة البروتستانتية بوجه عام ، كانت موجة واحدة عارمة من مد حضارى ، اتخذ أكثر من شكل وصورة ، وظهر ليس بالمظهر الدينى فحسب ، بل أيضاً فى انتفاضات شعبية واجتماعية . لقد بدأ برفض مطالب الإصلاح فى الدايت.

الألمانى . وتبلور فى ثورة الفلاحين وتخريب روما ، وكان الدافع لثورة الشمال فى الأراضى المنخفضة . ولحرب الثلاثين ، وانتفاضة كرومويل ، وثورة البيورتان فى انجلترا ، وظهور الولايات الأمريكية المستقلة ، حتى انفجر فى بركان الثورة الفرنسية .

ولا يمكننا على الإطلاق أن نفصل بين المطالبة بالإصلاح الدينى ، وبين المطالبة بالإصلاح الاجتماعى . لقد كان هناك خيط واحد يربط بين هذه وتلك ، كما لا يمكننا أن نتجاهل الخط التقدمى ، الذى كان يسعى لهدفه المحدد ، خلال هذه الأحداث كلها .

إن أعداء التقدمية والإصلاح ، يلقون باللائمة فى الأحداث المؤسفة ، والطريق الدامى الذى سارت فيه هذه التحركات ، على زعماء الإصلاح أنفسهم . ولكنهم لو فتحوا أعينهم لرأوا أن جمودهم وتوقفهم العنيد ، ورفضهم لكل بنود الإصلاح ، ، كان السبب فيما حدث . لقد كان الجواد منطلقا ، شاؤوا أو لم يشاؤوا . لكنهم كانوا يستطيعون أن يقفزوا على ظهره ويمسكوا بالعنان : بدلا من الوقوف فى وجهه ، ومحاولة إيقافه . وعندها تصبح النتيجة تقدما هادئا مسالما ، بدلا من حمامات الدم . لقد كان لهم من القوة والسلطان ما يعينهم على ذلك ، ولكنهم اختاروا الطريق الأردأ ، ودفعوا بعشرة أجيال متتابعة من تاريخ الإنسانية ، فى ثورات دموية متعاقبة .

حصيلة ثورة الاصلاح :

وقبل أن نختم حديثنا عن تاريخ الإصلاح ، نريد أن نجلس جلسة هادئة ، ونحسب حصيلة الثورة البروتستانتية والمكاسب ، التى حققتها فى سطور .

١٧٥

تبلور الحياة القومية وظهور الدول :

وأول هذه المكاسب تبلور الحياة القومية وظهور الدول بمفهومها الحديث .

وقد سلفت الإشارة إلى أنه فى العصور الوسطى ، كانت سلطة البابوية ، تعتبر العالم كله وحـــدة كنسية مترامية الأطراف مركزها روما : ومع أن الثورة البروتستانتية لم تنجح فى بعض الأماكن ، ولم يقدرلها سوى النجاح الجزئى فى أماكن أخرى ، إلا أنه حيثما نجحت تبلورت الحياة القومية ، وظهرت الدولة المتماسكة ، وذابت الطبقات فى وحدة متكاملة وقلت — إن لم تكن قد زالت — الفروق الطبقية .

وحيثما فشلت أيضا ، كان لها رد فعل كأى ثورة فاشلة . فكل فعل لا بد وأن يكون له رد فعل . هذه نظرية أساسية . لقد كانت الدول الكاثوليكية فى مركز القوة ظاهريا ، حيثما كانت تمسك فى يدها بالسلطة الدينية والمدنية معاً . ولكنها كانت قوة ظاهرية ، لاتستند إلى دعم من الشعب بطبقاته المختلفة ، بل تهدف إلى تقوية الملكية الإستبدادية ، وتثبيت دعائم الإمبراطورية الكنسية . لذلك فقد رأينا فى فرنسا كما فى أسبانيا : مذلة الشعب تحت استبدادية كل من التاج والكنيسة ، وقد اتجهت القوة الإستبدادية إلى محاكم التفتيش فى أسبانيا . كما استخدمت سجن الباستيل لقتل الحريات فى فرنسا — الإثنتان كانتا تتجهان معاً لقتل الروح القومية ، وزيادة الفروق الطبقية ، ولمنع قيام الأمة الواحدة المتماسكة بالمصالح المشتركة . وهكذا عطلت الركب عن اللحاق بموكب الحضارة الحديثة ، وانتهت إلى سلسلة من الثورات والتيارات المتضاربة ، التى تفت فى عضد الأمة . وكم من أمم جنت من الثمار المرة الشائكة ، حصاد أجيال . ومن يزرع الشوك لامحيص إلا أن يجنى الشوك .

وحينما نجحت الثورة البروتستانتية جزئيا ، كما فى سويسرا وألمانيا ، رأينا كيف انتهت إلى مجتمع غير متجانس . سرعان مادب فيه التنافس والتنازع ، ونشبت الحرب الأهلية وتعطل ظهور الحياة القومية لعدة أجيال : ولقد كان الشعب حرا فى سويسرا ، ولكن فى ألمانيا حيث كان الفلاحون يعانون من عبودية الإقطاع ، لم يتبلور المجتمع عن حياة متحررة للفلاح حتى القرن التاسع عشر .

علاقات الأمم بعضها ببعض :

والأمر الثانى يختص بعلاقات الأمم بعضها ببعض. والصراع البروتستانتى لم يجُدِ شيئاً فى تبلور العلاقات بين الشعوب . فقد استمرت الإمبراطورية الكنسية قائمة . وفى كافة الأحداث التى تميزت بها حقبة الإصلاح ، فى الصراع بين أسبانيا وفرنسا على السيادة فى المجتمع المسيحى ، ومجهودات آل هابسبرج ، لتوحيد أكبر عدد من الدول تحت حكمهم ، ومطامع فرنسا وأسبانيا فى إيطاليا ، وهنرى الثامن ومشروعاته التوسعية فى فرنسا فى كل هذه لم يكن لثورة الإصلاح الدينى أى تأثير . ومع أن مصلحى أوكسفورد ، كوليت وإرازمس ، ومور ، حاولوا أن يوجدوا نوعا من الصلات الدبلوماسية بين الأمراء ، فى أكثر من دولة ، على أساس الناموس الذهبى فى العلاقات ، ليس لفائدة الأمراء بل لمنفعة شعوبهم ، إلا أن البابوات والأمراء ، فضلوا السير على منهاج مكيافيللى ، بدلا من أخلاقيات الأمير المسيحى لإرازمس . لقد فضلوا — على حد تعبير إرازمس معاملة الشعوب ، وكأنها قطيع من الماشية فى السوق .

ومع ذلك نقول ، إن مجهودات زعماء الإصلاح لم تذهب هباء ، فقبل أن ينقضى قرن واحد من الزمان ، ظهر هوجو جروتيس ، الذى

يعتبر أب القانون الدولى ، والعلاقات الدولية الحديثة ، والذى كان مشبعا بروح إرازمس ، وأرسى القوانين الدولية ، على أساس الناموس الذهبى .

ازدهار اللغات والآداب القومية :

والأمر الثالث : فى ازدهار اللغات القومية والأدب القومى . لم يتضح قط أثر ثورات الإصلاح فى دوائر الحياة القومية ، قدر ما اتضح فى ازدهار اللغات والأدب القومى .

ففى ألمانيا اتجه لوثر وهاتن بكتاباتهم ، إلى المتعلمين بالكتابة باللغة اللاتينية ، كما إلى الشعب باستخدام اللغة الألمانية . بل إن لوثر وصل فى تبسيطه للفكر ، أن قدمه لرجل الشارع ، فى صورة لوحات فنية . كل هذا ، عاون على خلق أدب قومى شعبى . وهذا التحول من اللاتينية إلى اللغة الألمانية ، كان من الجانب الواحد ، ضربة للنظام المدرسى السائد (Scholasticism) . ومن الجانب الآخر كان ازدهاراً للأدب القومى فى البلاد . وأعظم هدية قدمها لوثر للشعب الألمانى ، كانت الكتاب المقدس ، باللغة الألمانية مع كتاب الترانيم الألمانى . فاللغة القومية الحية التى كتب بها ، حددت مستقبل اللغة ، ومنهجها فى البلاد — إن اللغة الألمانية التى يتحدث بها الألمان ، والتى انتهجها أدباء الألمان فيما بعد ، هى لغة لوثر فى الكتاب المقدس .

وكذلك نال الأدب الفرنسى دفعة قوية من ثورة الإصلاح . فاللغة الفرنسية التى استخدمها كلفن فى الكتاب المقدس ، وفى « أسس الديانة المسيحية » ، أصبحت اللغة الكلاسكية فى الدين والفلسفة على السواء ، فى

الوقت الذى أصبحت فيه لغة رابيلييه من الجانب الآخر ، المنهاج الذى سار عليه كتاب الأدب الخفيف .

وفى انجلترا نلاحظ نفس الظاهرة . فظهور المصلحين أدى إلى ظهور عشرات من الكتب والنبذ والرسائل ، التى كتبت بالإنجليزية ، دفاعاً عن عقيدتهم ، ورداً على أعدائهم . كما أعطى دفعة جديدة للأدب الإنجليزى ، ومهد الطريق فى عصور قادمة لظهور شيكسبير وملتون . ولاينبغى أن ننسى الكتاب المقدس فى الإنجليزية ، الذى حدد شكل ومضمون الإنجليزية الحديثة . إن قوة وحلاوة وبساطة ترجمة الكتاب المقدس إلى الإنجليزية ، تلك الترجمة التى كان يرجع إليها الإنجليز بين الحين والحين ، كأجمل وأكمل عمل أدبى كلاسيكى ، والتى وجدت طريقها بين كافة الطبقات والأذواق ، كانت الملهم للشعراء والأدباء فى أكثر من جيل ، وكانت الممهد لترجمات قادمة . إن الأدب الإنجليزى والمجتمع الانجليزى ، مدينان بالكثير لوليم تندل ورفقائه .

ازدهار التعليم القومى :

والنتيجة الرابعة نلمسها فى ازدهار التعلم القومى :

فالحركة البروتستانتية التى كان من ثمارها ازدهار اللغة القومية والأدب القومى ، قد فتحت الباب على مصراعيه لكل الشعب ، للتعليم والمدارس. وكان العلم قبل ذلك وقفاً على طبقة رجال الكنيسة وأبناء النبلاء . ولكن ما أن أهـــل عصر الإصلاح ، حتى قام سافونارولا بفتح المدارس فى فلورنسا ، كذلك فتحت المدارس فى إنجلترا ، ولما جاء الجيل التالى الذى قام بتأسيس المدارس اللغوية ، التى اقترنت باسم الملك إدوارد السادس ،

أما لوثر** فقد أسس المدارس الشعبية فى ألمانيا ، وقد قام كلفن بعمل مماثل فى سويسرا ، ونوكس فى اسكتلندا . وأخيراً جاء دور الآباء المهاجرين ، ليحملوا نفس الروح ونفس الغيرة معهم إلى انجلترا الجديدة أى أمريكا :

ويلاحظ القارىء أن الجيزويت أتوا بعد ذلك ، وقادوا ثورة الإصلاح فى قلب الكنيسة الكاثوليكية . فإن كنا نرى فيهم الغيرة على التعليم وتأسيس المدارس ، فما ذلك إلا ثمرة أخرى من ثمار الإصلاح البروتستانتى ، ومنافسة لرواد الإصلاح .

أثر الاصلاح فى الحياة العائلية :

ولا شىء أدعى إلى استقرار المجتمع ، من حياة عائلية مستقرة فى خوف الله ، والسير فى رضاه — فالروح العائلية بكافة مظاهرها ، حتى الغريزية منها ، هى التى تبنى الأسرة : وعلى أكتاف الأسرة يبنى المجتمع . وهـذه ظاهرة تتبلور بأكثر وضوح ، فى الدول التوتونية (Teutonic) . فالربط العائلية قوية بهذه الصورة ، حتى أنها تمتد لتشمل ليس أفراد الأسرة الواحدة فحسب ، بل أيضاً أفراد القبيلة (Clan) ، بل كيان الأمة بأسرها ، ممهدة لسيادة روح الهدوء والسلام بين الجميع .

نقول إن الروح العائلية كانت مهددة بالإنهيار ، بسبب تأثير الكهنة والرهبان والراهبات ، الذين يعيشون حياة العزوبية القهرية .

هذا النظام خلق ما نسميه طبقية جنسية ، واضعاً حياة الأسرة العادية ، فى مستوى أقل من حياة ما يسمى بالتبتل ، معطيا فكرة ضمنية ، بأن

الزواج شر وخطيئة ، خاطفاً من أبناء الأسر الكريمة زهرات الشباب ، ممن كان يمكن أن يصبحوا أعمدة فى عائلاتهم ، ومجتمعاتهم ، لتزج بهم خلف الجدران الرمادية ، فى حياة تواكلية كسولة ، وهروبية إنطوائية ، تخشى مجابهة المجتمع بمشاكله ، وتعقيم للامكانيات والمواهب والخدمات وكل شيء — هذا إذا نظرنا إلى الجانب الحسن — ولن نزيد أكثر من هذا ، فقد سبق وأشرنا بما فيه الكفاية إلى الإنحلال الخلقى ، الأمر الذى تحدث عنه مؤرخو الكاثوليكية قبل سواهم ، معتذرين بأن ذلك كان عصر ضعف الكنيسة وتدهورها وركودها .

نقول إن حـــل الأديرة ، وحل الرهبان من نذورهم ، ليعيشوا كما يرغبون ، والسماح للكهنة بالزواج ، والعيشة السوية ، كانت خطوات تقدمية حضارية ، غاية فى الأهمية ، من الناحية الخلقية ، والسياسية ، كما من الناحية الدينية :

اثر الاصلاح على الديانة العامة :

ولقد كان من نتيجة عصر الإصلاح ، ترقية الحياة القومية ، وأهداف الحضارة المسيحية — فالديانة لم تعد وقفا على طبقة الإكليروس فحسب ، بل ملكا مشاعا للشعب . فالعبادة تقدم فى اللغة القومية ، ليس فى لغة غير مفهومة . والكتاب المقدس صار يقرأ ، ليس فى لغة قديمة ميتة ، بل فى لغة الشعب — والفكر الدينى ، لم يعد مقصورا على الكهنة فقط ، بل أصبح الكتاب المقدس فى يد رجل الشارع يدرسه لنفسه ، ويسعد به ، فازداد بذلك الإقتناع القلبى الداخلى بالديانة ، وكانت هذه هى الخطوة الأولى فى طريق الحرية الفكرية . لا نقول إن تلك الحرية كانت منزهة عن الأخطاء ، ولكنها على الأقل ، كانت أفضل من كتاب مقيد بالسلاسل ، وعقول مقيدة بالأغلال :

نلاحظ أيضا أن تقريب الديانة لضمير الفرد ، فى كافة طبقات الشعب وزرع روح المسؤلية فى الإنسان، بدلا من اعتماده على الكاهن أو الكنيسة ، قد كان فى اتساق ليس فقط مع اتجاهات الحضارة الحديثة ، بل أيضاً مع طبيعة الديانة المسيحية نفسها ، فى نبعها الأصيل ، كما نادى بها المسيح ورسله ، مما رجع بها إلى الهدف الأول ، الذى قامت من أجله .

لقد كانت المسيحية هى القوة التى كمنت خلف الإصلاح الدينى ، والتى خلقت المد الحضارى فى العصور الحديثة . فلم يستطع دعاة المذهب الإنسانى (Humanism) ، أن يطبعوا طابعهم نصف الوثنى ، على منهاج الحضارة الحديثة . وكان رواد الإصلاح ، باقتناع مسيحى داخلى ، وغيرة ملتهبة فى الأعماق ، هم الذين فعلوا ذلك . لذلك فالبشرية مدينة للمسيحية قبل أى قوة أخرى ، بتأثيرها فى دفع ركب الحضارة ، والوصول بالإنسانية إلى أسمى درجات الخير .

هل حقق الاصلاح روح التسامح الدينى ؟ :

وفى هذا نقول إن عهد الإصلاح ، قد انساق فى نفس التيار ، الذى كان سائدا فى تلك العصور . فلم يحقق تقدما كثيرا فى هذا المجال .

لقد كان هدف ثورة الإصلاح ، هو تحرير عقول الناس من القيود الكنسية والمدرسية . لأجل هذا قامت ، ولم يكن هذا هدفاً صغيراً فى ذاته . ولكن زعماء الإصلاح اعتنقوا ثيولوجية معينة ، هى بوجه عام ثيولوجية القديس أوغسطينوس ، وفى سبيل تثبيت هذه الثيولوجية ، فرضوها فرضا على أتباعهم . بمعنى أنهم حرروا الناس من إيديولوجية معينة ، ليخضعوهم لأيديولوجية جديدة ، بطريقة لا تقل عنفا عن الطريقة التى كان يتبعها غيرهم .

وخلال دراستنا ، رأينا مصلحى أوكسفورد ، يهدفون إلى ترك الناس على سجيتهم ، ليصلوا إلى اقتناع كامل عن طريق البحث ، بل إنهم كانوا ينادون بروح التسامح بين الإخوة ، أبناء الكنيسة الواحدة ، الذين يعتنقون آراء متباينة . ومع ذلك فإن سير توماس مور ، مع أنه ينادى بالتسامح الدينى فى عمله « أتوبيا » ، إذ رأى حالة الفوضى التى تميزت بها الدول التى اعتنقت البروتستانتية فى بادىء الأمر ، وخوفا من أن تنتشر عدواها إلى الجزيرة الإنجليزية ، تحول هو نفسه إلى حاكم مستبد . وفى نفس الطريق ، سار كافة المصلحين دون استثناء .

وكما كان الكاثوليك يحرقون البروتستانت ، كان البروتستانت — إذا أتيحت لهم الفرصة — يخربون الأديرة ، ويحرقون الكنائس ، ويفتكون بأعدائهم . بل إن الشيع المتضاربة التى تفرعت عن البروتستانت ، بدأت تضطهد إحداها الأخرى . فاللوثريون كانوا يضطهدون أتباع كلفن وزونجلى . وكلفن أصدر حكم الموت حرقا على سرفيتوس ، واتبع سياسة الإستبداد فى جنيف .

فإذا أتينا إلى الكنيسة الإنجليزية ، بعد انفصالها عن روما ، فإننا نراها تثير حربا لاهوادة فيها ، ضد من كان يخالفها فى الرأى . وتحت حكم « مارى الدموية » سالت دماء البروتستانت أنهارا ، ثم بعد ذلك جاء دور البيورتان فى مجال الإضطهاد ، فيهرب البيورتان مهاجرين إلى الدنيا الجديدة . وفى نيو إنجلند ، أصدروا أحكام الموت على الآخرين ، الذين كانوا ينادون بعقيدة مغايرة لعقيدتهم .

ومع ذلك نقول ، إن التسامح الدينى ، وإن لم يكن قد آتى ثماره فى ذلك الحين ، أو فى أجيال تالية ، فإن البذار قد بذر . وكتابات مور وأعمال إرازمس عملت أكبر العمل ، فى تهيئة العقول والقلوب .

والآن نأتى إلى السؤال : لماذا كان نجاح الثورة البروتستانتية جزئيا ؟ ولماذا رافقت هذه الثورة ظواهر مؤسفة ؟

إن ما يتحدث به أعداء الإصلاح ، عن النتائج والثمار ، التى نجمت عنه من فوضى ، واضطرابات وحروب أهلية ، ودماء مراقة ، وهى حقائق تاريخية لا تنكر ، قد تجعلنا نرى أن نجاح الثورة البروتستانتية لم يكن كاملا ، بل كان مبتورا ، وقد تجعلنا نميل إلى الإعتقاد ، بأن مضارها كانت أكثر من منافعها — فهل هذا حق ؟

نقول كلا . فالتقدم لابد وأن تصحبه عثرات . الجمود فى مأمن من التعثر ، ولكن احتمال السقوط يكون أكثر فى المسير ، والأفضل التقدم على ما فيه من خطر التعثر :

ولقد كان هناك تقدم فى المضمار الحضارى — وإن كانت هناك عثرات ، فليس من العسير علينا تتبع أسبابها . لكن نسأل أنفسنا ، لماذا لم يستطع العقل الإنسانى فى تلك الحقبة ، التحرر التام من قيوده ؟ نجيب إنه كان ما يزال مقيداً إلى القديم . كانت حدود المعرفة ضيقة ، فلم يستطع العقل أن يصل إلى نظرة عريضة متسعة ، أكثر من حدود الدائرة التى عرفها ، وعاصرها ، وتأثر بها :

لنأخذ صورا من هذه المعرفة المحدودة : لقد كان إنسان العصور الوسطى يعتقد أن الأرض هى مركز الكون ، وأن جميع الأفلاك والأجرام السماوية تدور حولها مرة كل أربع وعشرين ساعة . أما كون الأرض تدور حول نفسها ، وتدور حول الشمس ، فقد كان فكرا غريبا عليهم وراحوا يقولون : « ينبغى أن نرى آثار هذه الحركة » ، ثم تساءلوا

لو كان هذا صحيحا أما كانت تنقلب الكنائس ، والقلاع والأبراج ؟
الأرض لابد وأن تكون واقفة ، والأجرام السماوية هى التى تدور فى مجراتها حول الأرض » .

ثم فى معرفتهم المحدودة ، قسموا الكواكب إلى ثقيلة وأخرى خفيفة — وبمعرفة بدائية لناموس الجاذبية ، قسموا السماء إلى دوائر . فالداخلية أو الأقرب إلى المركز (الأرض) تضم عطارد والزهرة والشمس ، وبعدها تأتى دائرة المريخ وزحل ، ثم دائرة الكواكب الثابتة ، وأخيراً هناك فى أقصى الخارج ، دائرة تاسعة ، تضم ما يسمى بالسديم الدائر ، الذى يعطى الحركة لكل الكواكب . وفى صورة غائمة غير محددة ، كانوا يعتقدون بأن السماء لابد وأن تأتى خلف هذه الدائرة التاسعة . وكم دارت مناقشات بين اللاهوتيين حول هذه الإرهاصات . أما إرازمس فكان يسخر من أولئك ، الذين « يخلقون دوائر فلكية حسب أمزجتهم ، ويحددون وضع السماء فى مكان أعلى ، يتسع للأرواح السعيدة لتمد موائدها أو تلعب كرة القدم » .

هكذا كان فكر الأقدمين عن الكون : دوائر فى داخل دوائر مركزها الأرض ، وتدور حول الأرض كل ٢٤ ساعة .

وحينما كان يعرض لهم السؤال ، كيف يمكن أن تدور هذه الدوائر ؟ وبأية قوة تدور ؟ كان العقلاء منهم نظير إرازمس يجيبون « الله وحده يعلم » لكن الذين كانوا متعلقين بالخزعبلات فقط ، كانوا يقدمون أجوبة متباينة . وإننا نجد لوثر ، ضمن الذين كانوا يرجعون بكل شيء إلى قوة مخلوقات غير منظورة ، فكان يقول « لابد وأن الملائكة هى التى تحرك هذه الأفلاك . وهناك من كانوا يؤمنون بتأثير الكواكب فى مصائر

البشر وأقدارهم ، أو ما نسميه بعلم التنجيم . فحينما تقترب المذنبات من الأرض ، فمعنى هذا أن أحداثا هامة وشيكة الوقوع . وحينما يلتقى برجان فى مثلث معين ، فلهذا معنى مغاير . ولقد بذل مصلحو أوكسفورد، مجهودات جبارة لتعديل أفكار الناس ، وتحريرهم من هذه الخرافات ، كما كان لوثر دائم السخرية منها ، بينما كان ملانكثون متعلقا بها ، على الرغم من ذلك . وكان لوثر يرد عليه : « لقد ولد يعقوب وعيسو فى يوم واحد وساعة واحدة . فلو كان للكواكب تأثير ، فلماذا اختارت السعد لهذا والنحس لذاك ؟ » .

نفس الخزعبلات التى كانت تدفع الناس إلى الاعتقاد ، بأن حركة الكواكب من تأثير الملائكة ، وأن للكواكب أثرها ، فى مقدرات الناس وحياتهم ، دفعتهم إلى تصديق الخوارق والصور الشاذة . حتى ملانكثون انساق فى نفس التيار .

أيضاً كان لوثر يعتقد فى قوة السحر والأرواح الشريرة . لأجل هذا صدر حكم الموت حرقا على المئات بل الألوف من العجائز فى ألمانيا ، لا لشىء إلا لشبهة قيامهن بهذه الممارسة الشيطانية . ومن الغريب أن عدد اللائى أحرقن فى عهد الإصلاح ، كان أكبر الأعداد كلها .

لقد كانت الهرطقة وممارسة السحرهما الجريمتان اللتان كان عقابهما الموت حرقا وليس هكذا فحسب ، بل حتى التسول فى انجلترا ، كان جريمة يعاقب عليها بالشنق . لقد كان القانون الجنائى وحشيا فى تلك العصور .

وبعد ثورة الفلاحين فى ألمانيا ، أصدر الإقطاعى « أسقف بمبرج »

قانونا للجنايات ، يبيح فى المحاكمات قطع الأباهم ، وفقأ العينين ، واستخدام سرير التعذيب ، والشنق ، وقطع الرأس ، وغير هذه من الأسالب الوحشية . وكان هذا لايكفى ، فكانت تنتظر من تنفذ فيه الأحكام ، أهوال أقسى ، حينما تحمله الأبالسة فى زفة شيطانية إلى نيران الجحيم المستعرة . ولقد أراد بهذا ، أن يخيف أتباعه من الفلاحين المساكين ، ويدفعهم إلى الخنوع والأستسلام . هنا نسطيع أن نرى ، كيف كانت السلطة المدنية والدينية ، تشتركان معاً فى استخدام الأساليب الوحشية ، للقمع . والإرهاب .

من هذا كله نخلص ، إلى أن ذلك العصر ، كان ضيق الفكر ، متزمتا ، إلى أقصى حد . ومن ثم لم يكن مستعدا ، لقبول أى فكر أوسع من أفقه . وقد قدر لهذه الخزعبلات والتصرفات الوحشية ، أن تظل مسيطرة على العقول والقلوب ، ردحا من الزمن ، ولا تزول إلا تدريجيا ، مع إشراق فجر المعرفة ، وتقدم الحضارة . لكن قبل هذا ، لم يكن من المنطقى أن ننتظر وجود روح التسامح ، أوحرية الفكر . .

ومع ذلك فإنه مع إشراق عهد الإصلاح ، أشرق عصر الحرية ونور العلم والمعرفة .. ولن نتحدث عن الإكتشافات الجغرافية التى فتحت آفاقا جديدة ، وعلى الأخص فى العلوم الإنسانية ، ولن نتحدث عن اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، وما تبع ذلك من تفاعل تجارى ، ونشاط اقتصادى بين الشرق والغرب ، ولن نتحدث عن تقدم علوم الفلك فى ذلك العصر — ولكننا نقول إن معرفة عامة بالكون ، وغوامضه ، بدأت تشرق على الإنسانية قبل أن يأتى عصر جاليليو .

فقد ظهر عالم معاصر لمصلح ألمانيا ، يدعى كبرنكان من بولندا ، وكان له شرف تصحيح الكثير من الآراء العلمية والفلكية المغلوطة السائدة على أساس الملاحظة النيرة والاستنتاج السديد . ونحن نعرف كيف أن كنيسة العصور الوسطى ، كانت تصر على إخضاع كل كشف علمى ، لمفاهيم الدين السائدة ، ولما ورد فى الكتاب المقدس . وهكذا ، خوفاً من أن يتهم بالهرطقة ، ظل ذلك العالم يعمل فى صمت ، طيلة ستة وثلاثين عاما ، أى طيلة المدة التى كانت فيها الثورة البروتستانتية تعارك معركتها الخالدة . وكان يدون كل ما يعن له من استنتاجات ، ولكنه لم يجرؤ أن ينشر كتاباته ، أو يدعها تظهر للوجود ، حتى عصر بولس الثالث الذى هدأت فيه العاصفة قليلا . وكان كبرنكان فى ذلك الحين ، شيخا حطمته الأيام ، عندما أرسل كتاباته ونتائج أبحاثه إلى المطبعة . كان فى ذلك الوقت على فراش مرضه الأخير ، وكانت كل أمنيته ، أن يشاهد أبحاثه تظهر للوجود ، قبل أن تنتهى حياته ، وكان من حسن حظه ، أن أتيح له أن يتصفح النسخة الأولى ، ودموع الفرح فى عينيه . ولم يلبث طويلا حتى فارق الحياة فى عام (١٥٤٣) ، وكان قد بلغ السبعين من عمره .

وجاء بعده غيره ، أمثال كبلر وجاليليو ، ليسيروا فى نهجه . وهكذا نستطيع أن نقول ، إن كبرنكان كان رائد الحركة العلمية المتحررة ، والبحث العلمى ، ومحرر الفكر الثقافى ، من قيود الإكليريكية فى ذلك العصر ، تماماً كما كان لوثر رائد التحرر الدينى ، ومحرر الفكر الإنسانى من قيود الكنيسة ــ ولقد كانت بالطبع بداية ــ واقتضى الأمر أجيالا طويلة من السعى المضنى . لكن هذا الرجل البولندى العالم ، كان رائد الحركة التحررية العلمية ، إبان إشراقة شمس الإصلاح .

والآن حان الوقت لنطوى هذه الصفحات ، ولن نجد لدينا متسعا من الوقت ، لنتحدث عن الآثار الاقتصادية لثورة الإصلاح . لكن يكفينا أن نقول ، إن البناء القديم كان يتداعى ، فى أكثر من مكان ، مخليا السبيل لقيام بناء جديد ، أكثر روعة ، وسموا ، على ما فيه من قصور وبدائية . وبقى للأجيال القادمة أن تتم ذلك البناء وتتوجه :

والفضل للمتقدم وواضع الأساس :

٩

ملاحق للدراسة

ملحق (١) بين الإصلاح والعقلانية .

ملحق (٢) أخلاقيات لوثر :

ملحق (١) :

بين الاصلاح والعقلانية

وإذا كنا نقصد بالعقلانية البحث المنطقى العقلى ، المنزه عن الغرض ، والمبنى على أساس العقل ، فإن المسيحية لا تتعارض مع العقل السوى ، الكاثوليكية نفسها تقر بذلك ، والبروتستانتية توسع الدائرة . وكل من الاثنتين ، أسهم فى أكثر من هيئة ونظام مدرسى ، لا يتعارض مع الإيمان القويم — إن المسيحية فوق العقل ولكنها لا تتضارب معه .

وفى كلمات نقول ، إن الكاثوليكية تنبر بشدة على التقليد مع الكتاب المقدس كأساس للإيمان . فالتقليد عندها ، أو تعاليم الكنيسة المعصومة ، وعلى رأسها البابا ، يكاد يسمو على الأسفار المقدسة ، بحيث جعلت الكتاب مؤيداً للتقاليد ، ومفسراً لها .

أما البروتستانتية ، فهى تتخذ الكتاب المقدس وحده ، أساسا ودستورا للإيمان المسيحى ، ولو أنها تتخذ من التقاليد والعقل سندا ، ومؤيداً للأسفار المقدسة . وتنبذ كل ما يتعارض مع الحق الكتابى — فإذا جئنا للعقلانية ، فإننا نجدها ترفع العقل فوق الكتاب ، وفوق التقاليد ، وتقبل الكتاب والتقاليد ، فى حدود دائرة العقل فحسب . فالعقل هو أساس الإيمان والتصديق .

ولقد وجه النقد إلى البروتستانتية ، بأنها أم العقلانية — لكن هذا قد يكون صحيحا من جانب ، وغير صحيح من جانب آخر . فإذا كانت البروتستانتية هى التى خطت الخطوة الأولى ، فى تحرير العقول من سلطان

الكنيسة ، إلا أن العقلانية اندفعت فى طريقها ، فى محاولة تحرير العقل من سلطان كل من الكنيسة والكتاب المقدس معاً .

إن الرومانية الكاثوليكية ، توجه النقد إلى غريمتها البروتستانتية . بأنها أساس كل انحراف ، وكل حركة مشوهة ضد المسيحية . لكن هذه التهمة يمكن الرد عليها بالحقيقة التاريخية : إن أقسى حالات الإلحاد ، والثورة على الكنيسة ، قد ولدت فى أحضان مجتمعات كاثوليكية لحماودما كأقصى رد فعل ، لطغيان الكنيسة والدولة . أما وسط الطبقة المثقفة المستنيرة ، فإن تمسك الكنيسة بما تسميه « ما فوق الطبيعى » ، قد أدى فى النهاية إلى تبلور أكثر من حركة مناهضة ...

إن الدارس المنصف لحركة الإصلاح فى منابعها ، يستطيع أن يرى أن الإصلاح وقف فى وجه الإلحادية فى عصر النهضة ، وتحدى الحركات التطرفية الثورية ، نظير ثورة الفلاحين فى ألمانيا ، وتصدى لها ، بغض النظر عما نجم عن ذلك من نتائج مؤسفة ، وقاوم حركة المنحلين الليبرتينيين فى جنيف . فإذا كان الإصلاح قد فتح الطريق أمام سلطان العقل ، وشطحاته ، وتطرفاته ... العقلانية تؤكد سلطان العقل ضد الوحى . والحرية ضد السلطان الكنسى ، والإستبداد الإجتماعى ، وتقف فى وجه الكنيسة والكتاب معاً . إنها تنكر المعجزى وفوق الطبيعى . أما شعورها بالنسبة للخطية وجرمها ، فهو سطحى ، يرتبط ببدعة بيلا جيوس .

بينما الإصلاح يتخذ العقيدة الأوغسطينية أساساً ، وينطلق من منطلق أقصى درجات الإقتناع بالخطية والمذنوبية ، والحاجة إلى النعمة المخلصة . فالنظامان يناقض أحدهما الآخر ، نظرياً وعمليا . فالعقلانية فى المسيحية الحديثة ، هى نظيرة الغنوسية فى الكنيسة القديمة ، ثورة الفكر على

الإيمان والكنيسة ، وتقدير أسمى للفلسفة النظرية على الوحى . ولو أنها تحوى عنصراً واحداً مفيداً ، هو روح البحث العلمى ، الذى منه تفرعت العلوم الحديثة المرتبطة بدراسة الكتاب ...

بعد هذه الإستهلالة ، نرى أنه لا ضير علينا ، من الخوض فى بحثنا بقليل من الإفاضة ... ولنبدأ قبل كل شىء بالحديث عن صلة الإصلاح باستخدام العقل كمبدأ عام ...

نقول إن ثورة الإصلاح قامت أساساً ضد الاستغلال والطغيان الدينى والعقلى ، مؤكدة حق الإنسان فى الحكم على الأشياء بعقله وضميره . وعلى ذلك فهى تتيح للمرء قدراً أكبر من البحث المتحرر ، والمعرفة ، والنقد أكثر مما تبيحه الكنيسة الكاثوليكية ، التى تستلزم من أتباعها الإيمان بعصمة الكنيسة ، والخضوع المطلق لسلطانها . فالإصلاح إنطلاقة إلى الأمام ، لكنها انطلاقة تتمشى مع الإيمان بالوحى ، فيما يقدمه لنا عن دوائر تسمو عن الزمن ، والأحاسيس . فما الذى نعرفه عن الخلق وعن الدهر الآتى ، إلا ما أعلنه لنا الله فى كتابه ؟ إن الفكر الإنسانى قد يبرهن على إمكانية وجود الله ، وخلود النفس ، ولكنه لن يستطيع أن يؤكد ذلك . لذلك فمن المنطقى والمعقول أن نؤمن بما هو فوق الطبيعى ، على أساس ما أعلن لنا فى شهادة الله ...

ولقد استخدم المصلحون عقولهم ، ومنطقهم ، فى صراعهم مع السلطة الكنسية ففى ورمز ، رفض لوثر أن ينصاع لمقاوميه ، إلا على أساس أسانيد من الكتاب المقدس . ولقد كان ممكنا فى تلك الفترة أن ينحاز إلى صف دعاة مذهب الإنسانية ، أو ينخرط فى سلك العقلانيين . لكن طبيعته الدينية القوية المسيطرة ، غلبت كل هذه التيارات .

وفى كافة الظروف التى جازفيها ظل متمسكا بكتابه ، وبإيمانه . لقد كان لوثر يعرف عدوه وبهذا الإيمان استطاع أن يتصدى لكل حركة عقلانية تحاول أن تتطرق إلى دائرة الإيمان القويم ، وخشى من تزعزع مقام الدين فى قلوب الناس . بل إنه فى غيرته الروحية ، نسى كل ما كان مدينا به لشخص نظير إرازمس ، داعياً إياه الأبيقورى ، الشكاك ، بل الملحد . ومع تقديره لنعمة العقل فى كيان الإنسان ، إلا أنه ، لم يتوان يوماً عن مهاجمة العقل ، إذا رآه يجلس على الكرسى ، قاضيا فى أمور الإيمان .

أما زونجلى ، فقد كان أكثر الكل عقلانية بين المصلحين . وربما كان ذلك بسبب وقوعه تحت تأثير إرازمس .

وهو لم يقع تحت التأثيرات التى وقع تحتها لوثر . ولم يعرف الرهبنة وأثرها . لقد كان يفضل المعانى الصريحة للكتاب ، واعتنق آراء تقدمية جعلت لوثر وكلفن يصدمان بها . لكنه مع ذلك كان يحترم كلمة الله . ولم يفكر يوما ، بأن يرفعها فوق مستوى العقل . وما كانت خلافاته مع لوثر ، إلا على أساس التفسيرات المتباينة لكلمة الحق ... أما كلفن فقد كان أقوى لاهوتى ، ومفسر بين المصلحين . وهولم ينقض على العقل نظير لوثر ، بل جعل منه خادماً لاغنى عنه للإعلان الإلهى . وقد وضع أساس أقوى النظم الكنسية التى وقفت فى وجه العقلانية ، والكاثوليكية معاً . وإن كنا نجد كنيسة سويسرا قد انحرفت عن مبادئه فى القرن الثامن عشر ، واعتنقت آراء السوسينيين ، فهو ليس ملوماً لذلك ، إلا إذا كنا نلوم لوثر لأجل الموجه العقلانية فى ألمانيا ، والكاثوليكية بسبب كتابات فولتير ؟ .

لكن العقلانية بدأت تتراجع وتخفف من حدتها ، فى فترات لاحقة، وتنحنى أمام الإيمان القويم . فالبحث أثبت قانونية الأناجيل وسفر الأعمال . أما رسائل رومية وكورنثوس وغلاطية ، وسفر الرؤيا ، فقد ثبتت صحتها وتاريخيتها . ويكفى الاعتراف بمسيح الأناجيل وبرسائل بولس ... إن العقلانية . وإن كانت فى مظهرها الهدام ، قد اجتاحت أكثر مناطق أوربا ، إلا أننا نستطيع أن نقول ، إنها فتحت المجال أمام علوم كتابية، لم تكن موجودة من قبل ، مثل الدراسة اللغوية للآيات ، والنقد الكتابى ، والتفسير التاريخى للأسفار . كما أنها وسعت الأفق ، بدراسة ظروف كتابة الأسفار المقدسة ، والجانب المادى والتاريخى للمسيح والمسيحية .

ملحق (٢٠) :

أخلاقيات لوثر

من بين الكتب التى صدرت مؤخرا . فى العربية بروح النقد ضد لوثر ، كتاب نقله عن الإنجليزية « رمزى يسى » بعنوان « من لوثر إلى هتلر » . ولعل كاتبه فى الأصل الإنجليزى كاثوليكى . لذلك لاغرابة أن نجد جانبا منه ، يبدو فيه التحامل البين على زعيم الإصلاح فى ألمانيا .

أما ذلك الجانب ، فهو يظهر من تحليل نفسية لوثر ، فى حياة الرهبنة الأولى ، وسنى حياته قبل التجديد . وهو هنا يتهمه بالقلق النفسى ، والإضطراب والهلوسة الدينية ، والتوتر . ونحن لا ننكر ما قاله هو عن نفسه ، قبل أن تفتقده نعمة الله . ولا ننكر قوله « لابأس بحالتى الجسمية ولكن نفسى تتعذب ... إن نوبات اليأس تجتاحنى ، وعواصف القنوط قد انهالت على . لقد فقدت الرجاء فى المسيح إلى النهاية . إلى غير ذلك من الشواهد التى أثبتها الكاتب سالف الذكر .

ولكننا نقول ، والتاريخ يؤيد هذه الحقيقة ، إنه فى حالة الأشخاص الذين يحدث فيهم ذلك التغيير الحاسم ، بين حياة وحياة ، وهدف وهدف ، تحدث تلك الأزمة الطاحنة ، التى لايستغرب أن تكون مصحوبة بحالات نفسية عنيفة من الحزن والإكتئاب . وتاريخ التصوف المسيحى ، يؤيد تلك الفترة التى يتحدث عنها القديس يوحنا الصليبى ، بأنها « ليلة النفس السوداء » .

أما انتزاع اقتباسات من هنا وهناك ، ليدلل بها الكاتب على فساد أخلاق لوثر ، فلا أساس لها . وما نود أن نقوله ، إننا لو اتبعنا

هذا القياس ، لقلنا إن بولس الرسول الذى كان قبلا فريسيا مدققا فى سلوكه ، هو أشر الناس ، لأنه يتحدث عن اختباره (رومية ٦) ، ولأنه يقول عن نفسه ، إنه « أول الخطاة » . إن الذين اختبروا حياة النعمة فى سموها ، لا يمكن إلا أن يشعروا بالفارق العظيم ، بينها وبين حياتهم الأولى . فيجسم لهم الضمير المستنير خطاياهم الأولى ، مهما كانت ضئيلة ، أمام إعلان قداسة الله وسموه .

ويمكننا أن نقول إن لوثر ، مؤلف الترانيم شاعر . والشاعر يمكن أن يتخذ من الاستعارة اللفظية ، ما يقوى ويؤكد الحق الذى ينادى به . مثال ذلك قوله « اقترف الخطية ... اقترفها بشجاعة . فالإيمان أكبر شجاعة» أنه لا يدعو هنا إلى الاندفاع فى الخطية ، بل يقول إنك مهما اقترفت من الخطايا ، واندفعت فى سبيلك أيما اندفاع ، فإن الإيمان الأكبر بمراحم الله وغفرانه ، كفيل بأن يمحو عنك كل الخطايا .

ثم فى نقد المؤلف لأفكار لوثر عن الزواج — فماذا فى قوله « إن الزواج علاج التحرق ... » — الكلمة أثبتها الرسول من قبل . أما ما يشير إلى شدة احتراقه بنار الشهوة ، ولعل هذا كان قبل زواجه — فإننا نجد مثالا له فى الحالات والمصارعات التى كانت تنتاب الأنبا انطونيوس فى ترهبه فى الصحراء ، والصور التى كانت تتجسم له ، من جراء أعصابه المحترقة ، فى صورة امرأة تغريه ، وما شابه ذلك .

أما قوله « بالرغم من اعترافى بأن الزواج خير ، فأنا لا أسلم بعدم وجود خطية فيه على الإطلاق — وما من زواج يتم ، إلا ويشوبه إثم » .

فإننا نطلب من المؤلف أو المعرب ، أن يقابل هذا بتحذير الرسول بولس للمتزوجين « ليكن الزواج مكرما عند الجميع والمضجع غير نجس

أما العاهرون والزناة فسيدينهم الله » — والنصيحة هنا للمتزوجين . أى أن فعل الخطية ، يمكن أن يشوب حتى العلاقة الزوجية المباحة ، فيقع الإنسان فى دائرة الفعل الفاحش .

أما من جهه زواجه بإحدى الراهبات ، فلنستمع إلى ما يقوله هو :

« لقد أخرست بهذا ألسنة المفترين على » . وفى موضع آخر يقول « لقد تزوجت منها إذ لابد أن أسخر من الشيطان ،والمعارضين، والأمراء، ورجال الدين ، وإننى علىاستعداد أن أرتكب ما يرونه أمرامشينا ، إذا وجدت فى هذا ما يرضى الله ، حتى إن تسبب فى غيظهم » .

أما التعليم الذى نادى به لوثر بخصوص الرهبنة ، بخصوص نقضه لعهدها ، فهو تعليم جذرى فى صميم العقيدة المصلحة . فلا رهبانية فى المسيحية الكتابية ، ولاسر فى قطع العهد للإنزواء والتحرق ، والوقوف فى وجه الطبيعة البشرية . ولا خدمة للمسيحية فى الكسل ، وطى اليدين باسم الدين ، وعدم مجابهة مشكلات المجتمع فى إيجابية وواقعية . شىء واحد نؤيد الناقد فيه ، ذلكم هو نقده لسياسة لوثر ، وموقفة من المشكلات الإجتماعية ، ومناقضته لنفسه فى هذا المجال .

ويبدو أن جذور هذا الموقف ، تمتد إلى أن اللوثرية ، نشأت وترعرعت فى حماية أحد الأمراء ، هو منتخب سكسونيا ، ومن انحاز إلى صفه من الأمراء بعد ذلك . فلولا رعاية أولئك له ، لكان مصير لوثر إلى الحريق ، ومصير ثورة الإصلاح إلى الاندثار ، شأنها شأن الوالدينية والهوسية ، وغيرها من الحركات التى وئدت فى مهدها . لذلك لاغرابة أن يداهن لوثر — والإنسان إنسان مهما سمافى مثله — أولئك

الذين احتضنوه ورعوه ، ودافعوا عنه وأيدوه . ولقد كان خليقا به أن يكون غير ذلك ، أى يضع الدين فى جانب ، والسياسة فى جانب آخر ، لا يجعل من الدين مركبا ذلولا للأمراء والمنتخبين ، ولكن الظروف هى التى اضطرته ، إلى ما نعتقد أنه كان مصدر عذاب لضميره حتى نهاية العمر إن موقفه من الفلاحين ، لم يكن موقفا إنسانيا على الإطلاق . فكم بالحرى رائد ثورة روحية ؟ .

لكن للإنصاف نقول ، إنه يكفى زعيم الإصلاح فخراً ، أنه جعل الكتاب المقدس مفتوحا أمام رجل الشارع . أى أنه أثر بصورة أو بأخرى ، فى حركات الإصلاح التى قامت فى أكثر من مكان ، وهذا كله لا بد وأن يشفع للوثر ، عما ارتكبه من أخطاء . إنه ليس إلها ، لكنه أولا وأخيراً إنسان كأى إنسان .

مراجع

لطالب الإستزادة الرجوع إلى المراجع التالية ، وقد رجعنا إلى معظمها ...

اولا ـ مراجع اجنبية فى التاريخ الكنسى :

1. Text Book of Church History, 2 vols. — Dr. Kurtz.
2. Turning Points of General Church History — Cutts.
3. The Growth of the Christian Church — Nichols.
4. The Era of the Protestant Revolution — Seebohm.
5. The Pilgrim Church — Broadbent.
6. Ecclesiastical History — Fitzgerald.
7. History of the Christian Church, vols. 6 and 7 — Philip Schaff.
8. When God Came — Bradsly.
9. The Story of the Church — Benziger Bros.
10. The Holy Roman Empire — Bryce.
11. The English Bible.

ثانيا ـ مراجع فى التاريخ العام :

12. World History — Fox.
13. The Story of Mankind — Van Loon.
14. Outline of the History of the World — H. G. Wells.

ثالثا ـ قواميس وموسوعات :

15. Encycl. of Religious Knowledge, 12 vols. — Schaff and Herzog.
16. A Dictionary of Church History — (Oxford).
17. Ecclesia — Histoire de l'Eglise.

رابعا ـ مراجع عربية ومترجمة :

١ ــ مختصر تاريخ الكنيسة ــ (أندروملر)

٢ ــ تاريخ الإصلاح ــ (دوبنييه)

٣ ــ عشرون قرنا فى موكب التاريخ ــ (حبيب سعيد)

٤ ــ مايكل انجلو ــ (الألف كتاب)

٥ ــ ريحانة النفوس فى أصل الطقوس ــ (شنيدر ــ بيروت)

٦ ــ من لوثر إلى هتلر ــ (رمزى يسى)

فهرس الكتاب

ايداع رقم ١٩٨٠/٣٨٢٢ دولى رقم ٠ — ١٧ — ٩٧٧/٧٢٢٠

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
جمهورية مصر العربية تليفون : ٩٠٥٢٩٦

